

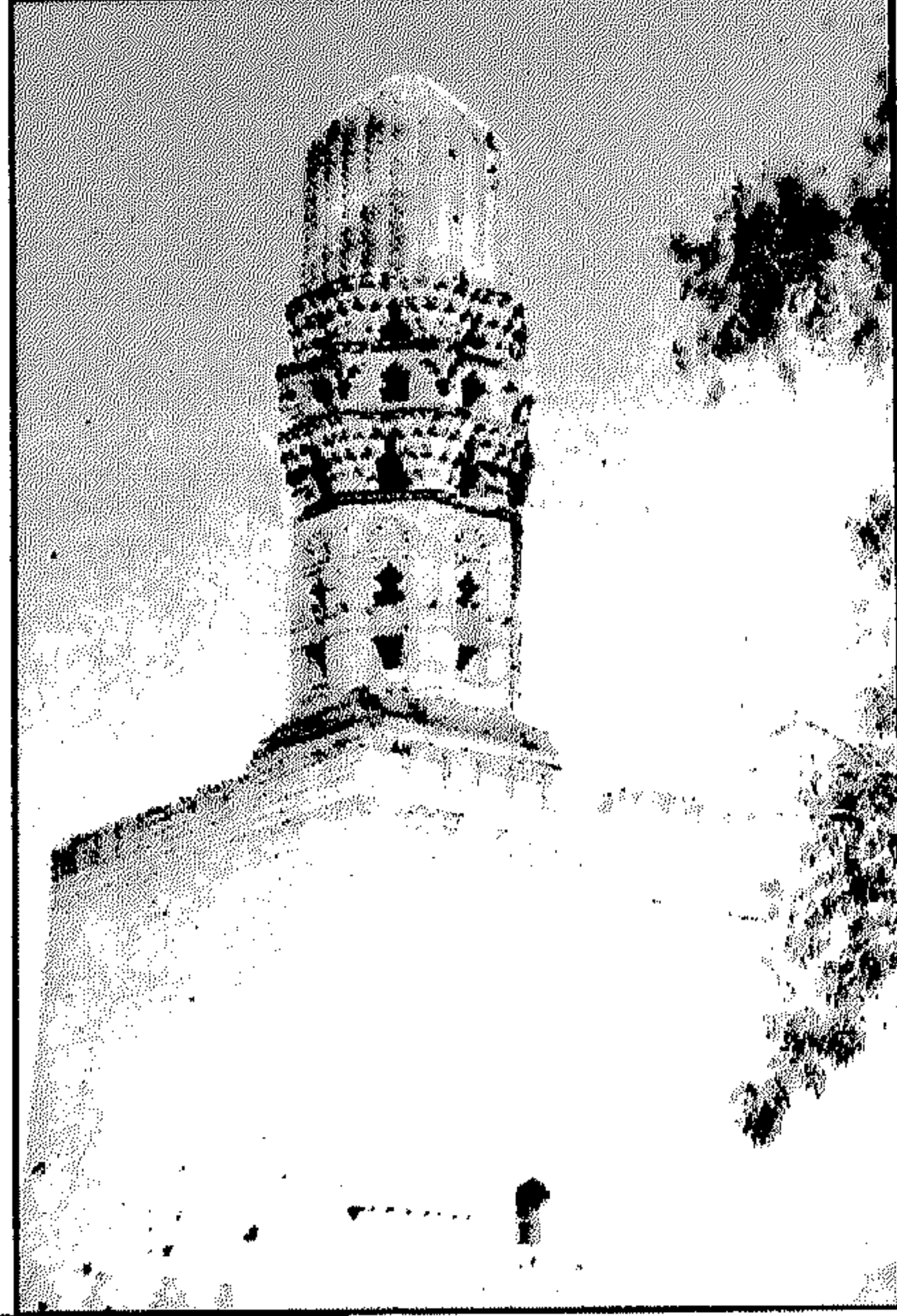
صفحات من تاريخ مصر

٥

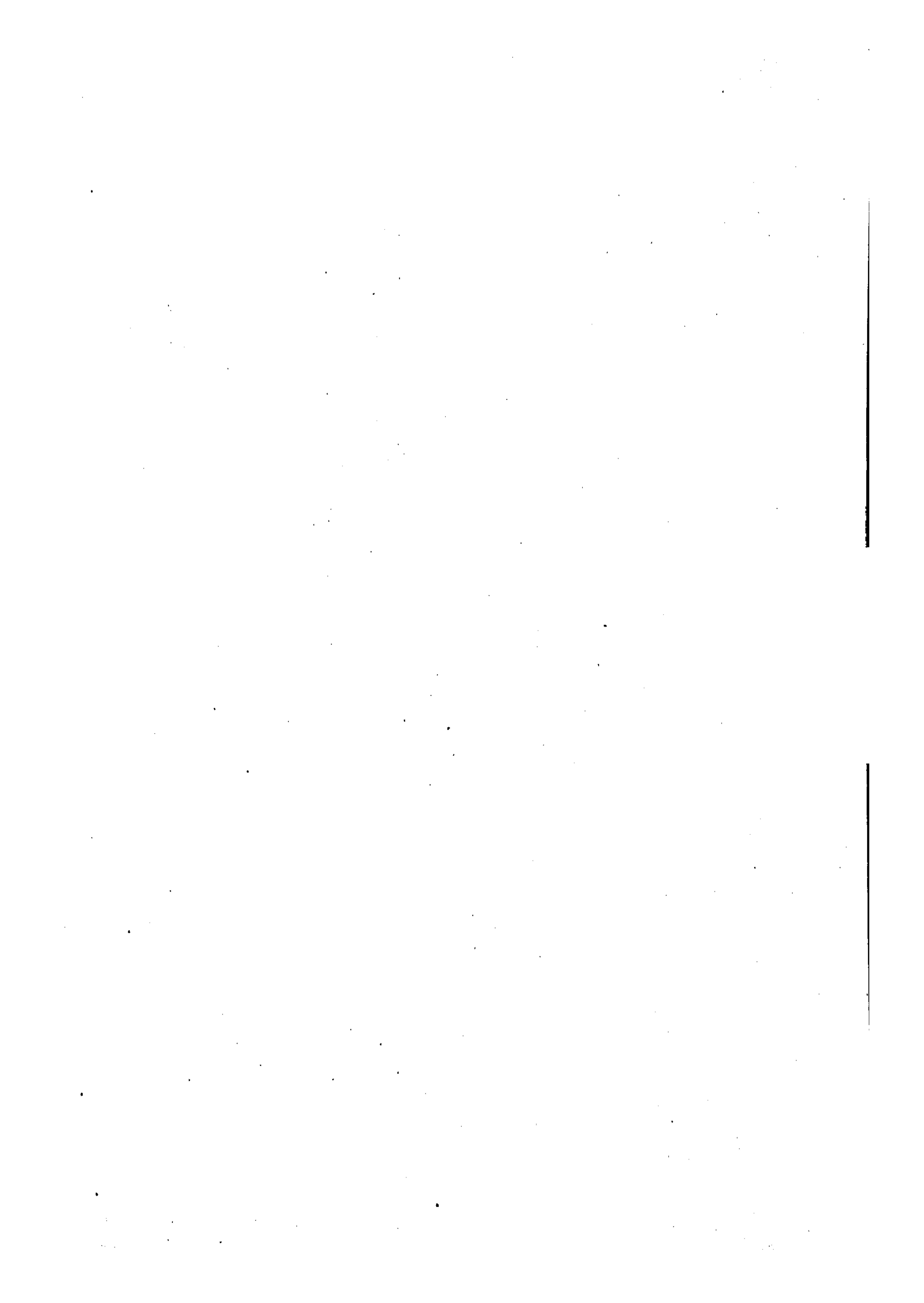
تاريخ مصر

من عهد المماليك
إلى نهاية حكم إسماعيل

تأليف: المستر جورج يانج تعريب: على أحمد شكرى



الناشر: مكتبة مدبولي - القاهرة



تاريخ مصر

من عهد المماليك
إلى نهاية حكم إسماعيل

حقوق الطبع محفوظة لمكتبة مدبولي

الطبعة الثانية

١٤١٦هـ - ١٩٩٦م

الناشر

مكتبة مدبولي

ميدان طلعت حرب بالقاهرة - ج م ع

تليفون ٥٧٥٦٤٢١

صَفَحَاتٍ مِنْ تَارِيخِ مِصْرَ

(٥)

تَارِيخِ مِصْرَ

مِنْ عَهْدِ الْمَمَالِكِ
إِلَى نَهَايَةِ حُكْمِ إِسْمَاعِيلِ

تَأليف

المسترجع جورج يانج

تعريب

على أحمد شكري

وهذا عيّن الكتابُ أهمَّ ما وقعَ مِنْ أَلْحَادَاتِ فِي مِصْرَ
إِلَى نَهَايَةِ حُكْمِ إِسْمَاعِيلِ بِأَسْمَاءِ مَقْرُونَةٍ بِالصُّورِ
مِنْ سَنَةِ ١٧٦٠ - ١٨٨٠

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

رقم التسجيل ٧٤٧٨٩

مكتبة مندوبولي
القاهرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



المملك فؤاد الأول ملك مصر



الأمير فاروق أمير الصعيد

Vertical line on the right side of the page.



محمد علي باشا مؤسس الأسرة المحمدية العلوية
بملابسه المصنوعة في مصر



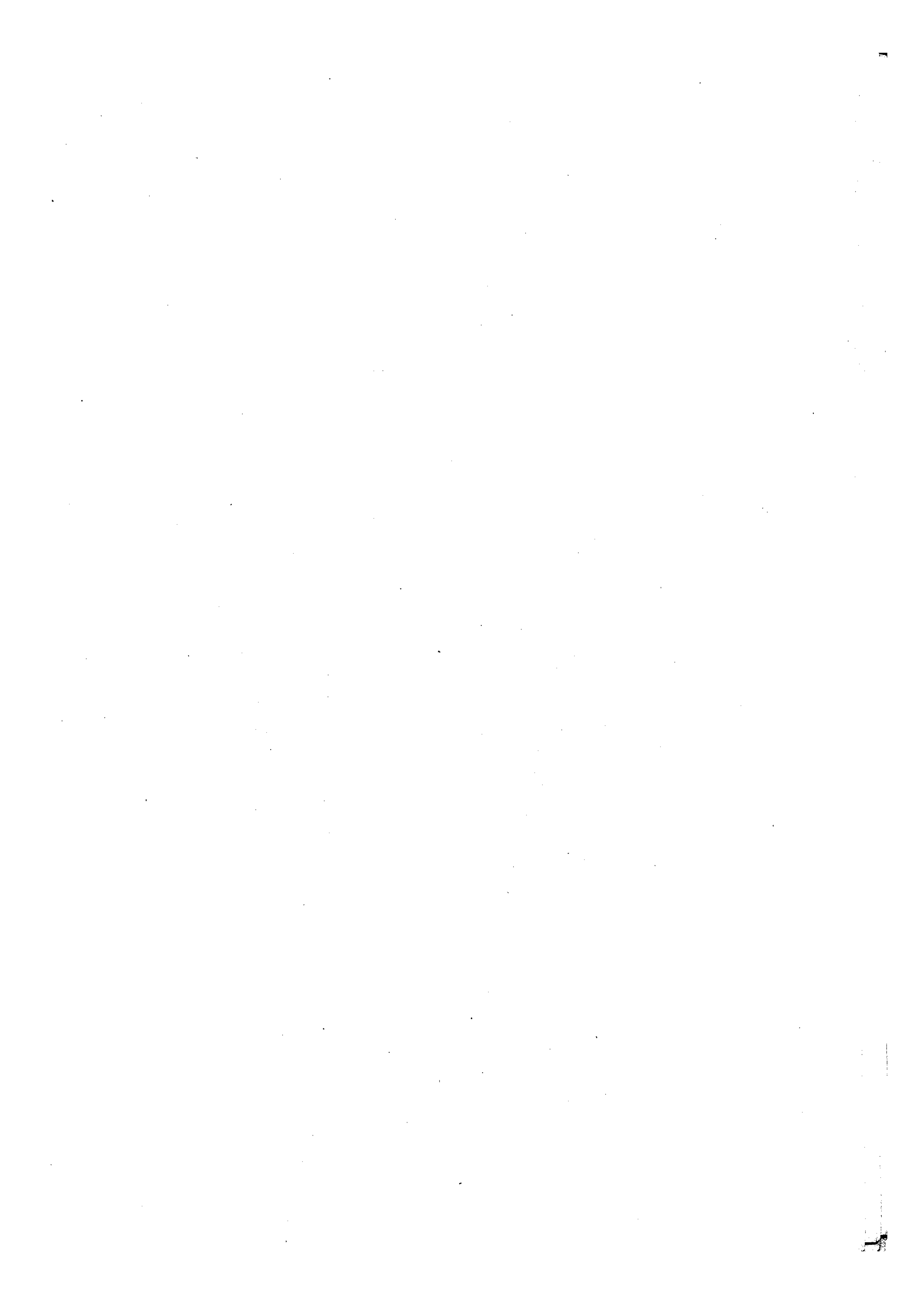


بطل حروب الاستقلال ابراهيم باشا
في لباسه العسكري





الخديو اسماعيل باشا





السلطان حسين كامل



مِصْرِي

من عهد المماليك إلى نهضة حكم اسماعيل

مقدمة المعرب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وبه نستعين وصلى الله على سيدنا محمد رسوله الأمين من بعث بالحق
وفصل الخطاب وعلى آله وأصحابه أجمعين . وبعد فقد كثرت الكتب
التي تعالج المسألة المصرية من بعض نواحيها . وهذا الأكثر
دليل على أن تاريخ مصر ما يزال موضع اهتمام العالم في الخارج وهو في
نظرنا علامة طيبة . لأن الاهتمام بقضيتنا يفيدنا كثيرا إذ أنه يذكر
الرأى العام في البلاد المتمدية بأن هناك أمة عريقة على ضفاف النيل
تنشد الحرية والاستقلال شعارها « أحرار في بلادنا كرماء لضيوفنا »
لا تبغى الاعتداء على أحد من جيرانها كما أنها تنتظر منهم ألا يتطلعوا إلى
الاعتداء عليها ، أمة وادعة تريد التخلص من قيودها لتأخذ مكانها بين الأمم
الأخرى ولتكون همزة وصل بين مصر الفراعنة ومصر القرن العشرين .
وفضلا عن تنوير الأذهان في الخارج فإن للتاريخ أهمية أخرى تزيد عن هذه
بأن ضعف فهو من الأمة بمثابة المرأة يبصر فيها الإنسان ما قطعت أمته في الماضي
من شتى المراحل وما طرأ عليها من التطورات كما أنه درس يتعلم منه الإنسان

كيف يعد للمستقبل عدته مع اتقاء مواطن الزلل واجتناب العثرات. ومن هنا كانت دراسة التاريخ حافزة للهمم الراكدة. ومن هنا أيضاً ترى اعتزاز الشعوب العريقة بتاريخها وحرصها على تعليمه الأبناء والأحفاد. ولن تجد أمة ضربت بسهمهم في المدنية والحضارة إلا منكبة على دراسة تاريخها جيلاً جيلًا وتكشف غوامضه مرحلةً مرحلةً إلى اليوم الذي تعيش فيه. وبعكس هذا ترى الأمم المتأخرة قانعة بترديد مفاخر الأسلاف مستكنة إلى مجدها التالد.

فالاهتمام بالتاريخ في أمة من الأمم هو إذن دليل رقيها ورمز نهضتها وباعث هممتها. ويدخل في هذا طبعاً العناية بنشر هذا التاريخ في داخل البلاد وخارجها.

اهتمام جلالة الملك فؤاد بتاريخ مصر

ونحسب أن جلالة الملك كان يؤمن بهذه العقيدة حتى قبل تبوؤ العرش. ولذا صرح مرة وهو بعد أمير بتلك الجملة الذهبية الخالدة وهي: « إن مجدنا الماضي وتقاليدينا المقدسة مما يشجعنا على السير ببلادنا في وقت نهضتها الجديدة في طريق الكمال البشري الذي كان يبدو من خلال سلسلة جهود الأمم ومن مغامرات الفلاسفة في كل عصر وفي كل موطن ومنذ عهد أرسطاطاليس إلى أيام ليو توستوي - بأنه الحلم الذهبي الذي علقته به القرون التي يخطئها العدو والمنار القائم وسط الأفق الأسمى للجنس البشري. » وقال سموه في موطن آخر:

« متى حرصت الأمة على تنمية شعور الأجلال نحو أسلافها والأكابر من أعمال أبطالها تستطيع أن تتعلم سر مستقبلها وتقدره حق قدره لأنها تكون وقتئذ قد وصلت إلى أسمى مراتب المدنية. »

ومن هنا كان اهتمام جلالة الملك فؤاد بتاريخ مصر منذ أقدم العصور

وتشجيعه لبعض العلماء الذين يقوهون بكتابة ذلك التاريخ. ولسنا بحاجة إلى أن نذهب بك بعيدا في هذه الناحية. فلقد سمعت أن جلالة كلف المسيو هانوتو - وزير خارجية فرنسا سابقا - بكتابة تاريخ مصر منذ بدء الخليقة إلى العصر الحاضر في سبعة مجلدات وقد أخرج فعلا الأجزاء الثلاثة الأولى وأصبح الباقي وشيك الظهور .

ثم كتاب « الوجيز في تاريخ مصر » ويشمل تاريخ مصر القديم إلى نهاية حكم اسماعيل باشا ويقع في أربعة أجزاء ظهر منها ثلاثة إلى الآن . وكتاب « الفن المصرى فى عصور التاريخ » الذى قامت لجنة باشراف السير دنيسن روس باخراجه بايعاز وتعزید جلالة الملك .

هذا فيما يختص بتاريخ مصر العام . ولكن الأمم المتحضرة كما قلنا تعنى بتاريخها إلى اليوم الذى تعيش فيه . وهذه الحقيقة لم تفت جلالة الملك . فان ظهور محمد على باشا يعتبر مرحلة فاصلة فى تاريخ مصر أو هو حقا بمثابة نقطة التحول من التاريخ القديم إلى التاريخ الحديث . لذلك أولاه جلالة ما يستحقه من العناية والاهتمام .

ومن هنا ترى جلالة لا يستكثر نفقة ولا يستعظم مجهودا فى سبيل جمع شتات الوثائق والمستندات الخاصة بعهد محمد على وما تلاه من العهود إلى اليوم . ونحسب أنك سوف تدهش إذا سمعت بما يبذله جلالة فى هذه الناحية من جهود ونفقات وهو بعد الربان الذى لا يتسع له الوقت ولا يستطيع أن يغفل لحظة واحدة عن ملاحظة دفقة سفينة الدولة خشية ارتظامها بالصخور والشعاب .

وعلى سبيل التذليل - لاعلى سبيل الحصر - نقص عليك طرفا من هذه الجهود الجبارة لتدرك أهمية العمل الذى يقوم به أبو الفاروق .

فالوثائق والمعلومات الخاصة بمصر منذ عهد محمد على إلى نهاية حكم

اسماعيل موزعة بين لندن وباريس وايطاليا وفيينا ووشنطن ووارصوفيا
وبتروغراد وآثينا عدا ما هو موجود منها بمصر . فهل تظن أن جلالته
تراجع أمام ما يقتضيه الحصول على تلك المستندات من جهود ونفقات ؟
كلا وربك .

بل عهد إلى المسيو دوان من كبار مديري شركة قناة السويس بجمع
الوثائق بين لندن وباريس وتبويبها وطبعها على نفقة الجيب الخاص .
وقد وفق المسيو دوان في مهمته وحصل على كافة المستندات ونشرت
الجمعية الجغرافية بعضها وسيظهر قريبا باقيا .
ولم يكتف المسيو دوان المذكور بهذا المجهود بل وضع كتابا عن
تاريخ اسماعيل في خمسة أجزاء وهو تحت الطبع في ايطاليا وقد ظهر منه
الجزء الأول .

ثم عهد إلى السنيور أنجلوسان ماركو من أساتذة التاريخ في المدارس
الإيطالية بجمع المستندات الموجودة في ايطاليا وهي تقتضى مجهودات
خاصة لانقسام الدولة الإيطالية وقتئذ إلى عدة دويلات صغيرة لكل منها
دار محفوظاتها ولأن هذه الدور لم تتحد بعد في دار واحدة . ولذا كانت
الصعوبة في الحصول على تلك المستندات مما يفوق التصور .

وبرغم هذه المصاعب فإن الأستاذ سان ماركو قد وفق إلى جمع هذه
الوثائق وطبع منها إلى اليوم حوالي خمسة أو ستة مجلدات ولا يزال باقيا
تحت الطبع . وهو جاد في الحصول على محفوظات النمسا .

ووثائق وشنطن وقد نسخت في نحو ٢٠ مجلد وتشمل كل ما كتب
عن مصر منذ عهد محمد علي إلى نهاية عهد اسماعيل .

ثم وثائق بولونيا ويقوم بجمعها بايعاز جلالته أحد كبار الأخصائيين
وتشمل الفترة الواقعة بين سنتي ١٨٣٣ - ١٨٣٦ وهي الفترة التي

نشبت فيها الحرب السورية ووقع فيها اختيار محمد علي حلي بعض كبار الضباط البوانيين لتدريب جيشه .

والوثائق الروسية ويقوم بجمعها رينيه قطاوى بك مدير عام شركة كوم امبو .

ووثائق آثينا وقد شرع المسيو انسطاس بوليتيس من رجال السلك السياسى اليونانى فى طبعها .

وعدا هذا كله توجد مجموعة كتب تاريخية ورسائل قيمة وضعها اعلام التاريخ خاصة بمصر وطبعتها الجمعية الجغرافية على حساب الجيب الملكى الخاص نذكر منها على سبيل المثال (١) كتاب « ميناء السويس » لمؤلفه المسيو جونديه (٢) « وأطلس تاريخى خاص بمدينة اسكندرية ومينائها » للمؤلف السابق (٣) « وعمارة نابليون البحرية فى شواطئ مصر » بقلم المسيو دوان (٤) « وصحراء مصر الشرقية - أو من النيل إلى البحر الأحمر » بقلم المسيو ريموندى (٥) « واكتشاف افريقيا فى العصور الوسطى » لمؤلفه المسيو لارونسير الخ الخ . عدا سلسلة كتب قيمة أخرى خاصة بأهم ما وقع من الأحداث فى عهد ساكن الجنان الحاج محمد على باشا الكبير وكلها قد طبعت على نفقات الجيب الخاص .

وزيارة واحدة يقوم بها الباحث إلى إدارة المحفوظات بالسراى الملكية تبين له الحركة الدائمة فى جمع وترتيب شتى المستندات والوثائق التاريخية الخاصة بمصر وهى حركة تستمد الهمة والنشاط من جلالته رأسا .

وليس شك فى أن هذه الجهود تنطق عن نفسها بنفسها . وإنه لما يثلج صدر المصرى أن يرى كل هذا الاهتمام بتاريخ مصر من جلالته صاحب العرش .

وإذا كان جلالته قد سن لشعبه هذه السنة الطيبة فلا أقل من أن يقتدى الكتاب بمثله السامى وأن يعنوا على الأقل بنقل ما يدونه اعلام

المؤرخين الأجانب عن مصر . ومن هنا اتجهت نيتنا إلى ترجمة كتاب المستر يانج الذى وإن كان قد توخى إنصاف المصريين كأمة ، إلا أنه قد أثار غبار الجدل حول عدة مسائل بعضها دينى وبعضها سياسى وكان فى كلا الحالين يصدر عن رأى غير ناضج يتأثر بظواهر الأشياء وقشور هادون العناية باللباب أو تحرى بواطن الأمور .

وكما أنك لا تستطيع استيعاب الصورة من كافة نواحيها وتقدير ما أودعه فيها الفنان من معجزات الفن إلا إذا تراجمت عنها إلى الوراة قليلا كذلك ليس يسعك الحكم على الحوادث التاريخية حكما صحيحا مجردا من التحيز والهوى أو أن تربط الأسباب بمسبباتها والعلل بمعلولاتها إلا إذا باعد الزمن بينك وبينها حتى يتلاشى أو يخف — على الأقل — تأثرك بها . هنالك — وهنالك فقط — يمكن اعتبار حكمك على الأشياء حكما نزيها بعيدا عن الغايات .

ويدخل فى هذه الملاحظة ما تواضع عليه أعلام المؤرخين إلى يومنا هذا وهو ألا يكتب تاريخ الأمم فى حياة الأشخاص الذين قاموا بالأدوار الرئيسية فيه . وإلا كان المؤرخ فى أغلب الأحيان واقعا تحت تأثير أولئك الأشخاص فيكون حكمه عليهم غير حكمه مما لو انتظر حتى يصبحوا فى ذمة التاريخ .

ولعل الحكمة فى ذلك أن هناك أسراراً خطيرة تكتنف حياة أبطال الرواية وتلقى ضوءاً باهراً على أعمالهم وتصرفاتهم ويغلب ألا ترى ضوء النهار إلا بعد انتقاهم إلى الدار الأخرى . ومن هنا كان تواضع المؤرخين على ألا ينشروا تاريخ أمة معاصرة إلا بعد أن يصبح أبطال الرواية فيها فى ذمة التاريخ وبعد أن تصبح المستندات والوثائق الخطيرة فى متناول الأيدي وبذا تجتمع لديهم المادة التى يستطيعون بالاعتماد

عليها أن يمضوا في سرد تاريخ تلك الأمة وهم عالمون أنهم يكتبونه بالطريقة الزبينة التي ينبغي أن يكتب بها .

ولكن صاحبنا المسترياح حاول لسوء الحظ تخطي ما اصطاح عليه جمهرة المؤرخين وأن يكتب تاريخ مصر في أثناء حياة أبطال الرواية ولذا لم يأمن الشطط والوقوع في الخطأ في أكثر من موضع وبخاصة في تاريخ مصر منذ نشوب الحرب العالمية .

ولقد كانت النية متجهة في بداية الأمر إلى إخراج ترجمة كتابه جملة واحدة ولكننا عند مارأينا أن معظم ما كتبه في السنوات التي تلت نشوب الحرب فضلا عن أنه حديث العهد وحاضر في الأذهان فهو مشوش وينقصه الاتناس بالمستندات والشواهد التي لم تكن في متناول المؤلف عند ما وضع كتابه .

لهذا رأينا أن نكتفي بذكر ما أورده عن أمراء مصر إلى نهاية عهد ساكن الجنان اسماعيل باشا . لكن لما كان ما أورده خاصا بعهد منشيء مصر الحديثة الحاج محمد علي باشا الكبير وعهد حفيده اسماعيل باشا في حاجة إلى شيء من الأسباب رأينا أن نضيف إليه من الحواشي المتضمنة من المعلومات القيمة ما هو كفيل بأن يملأ كل مصرى فخرا ويجعله يتيه إعجابا بتاريخ هذه الأسرة العلوية المجيدة التي اصطفتها العناية الإلهية لنقل مصر من مجرد ولاية عثمانية خاملة إلى دولة مستقلة ذات سيادة .

ونسارع إلى الاعتراف بأن هذه الحواشي لم يكن لنا أي فضل إلا في اقتباسها عن المصادر التي أشرنا إليها في السياق . فهي ليست من عندنا . وقد أوردناها لتكون أكثر دلالة وأبعد أثرا في الأقتناع على صحة نظريتنا مما لو اكتفينا بسرد أقوالنا وحدها .

نظرة إجمالية في تاريخ مصر

كأنما اختصت العناية السماوية الأسرة المحمدية العلوية بتلك المهمة النبيلة الشاذة مهمة الانتقال بمصر من مجرد ولاية تركية خاملة إلى دولة مستقلة ذات سيادة. ويظهر أن هذه المهمة قد حرص على الاضطلاع بها الأبناء والأحفاد بعد الأجداد والآباء.

محمد علي باشا

فلقد ظهر ساكن الجنان الحاج محمد علي باشا الكبير على المسرح السياسي ومصر عبارة عن إحدى ولايات الأمبراطورية العثمانية فمالبت أن ولي وجهه شطر العمل على استقلالها وتوسيع حدودها وانتزاع هذا الاستقلال على ظبي السيوف. وما كانت حروبها في الشام وبلاد العرب والسودان إلا تمهيداً لهذه الغاية النبيلة وأثنى كانت الدول الأوروبية قد تألبت عليه في موقعة نافارين كما تألبت عليه بعد حروب الشام وأبت إلا حرمانه من جنى ثمار انتصاراته التي اهتزت لها أوروبا فان ذلك لم يمنعه من أن ينال لمصر استقلالها الداخلي مع بقاء السيادة العثمانية الاسمية بمقتضى معاهدة لندن المعقودة في ١٥ يولية سنة ١٨٤٠

ونظرة واحدة إلى صرامة الشروط الواردة في تلك المعاهدة تقنعك بما تنطوى عليه من ميل إلى الانتقام من هذا الرجل العظيم الذي أقضت حركاته مضجع أوروبا وجعلتها تتربص به الفرص للتخلص من نفوذه المتغلغل في سواحل البحر الأبيض المتوسط.

ويأبى سوء الحظ إلا أن يرفض محمد علي هذه المعاهدة ارتكافاً إلى مساعدة فرنسا. وأوقباها برغم ما انطوت عليه من الأجحاف لفاز بحكم سوريا مدة حياته ولو فر على الجيش المصرى المرابط في الشام ما تكبده

من الخسائر المادية والمعنوية الفادحة بسبب استئناف القتال لا بين مصر
وتركيا بل بينها وبين تركيا وحلفائها .
وعلى كل فقد تم الاتفاق فيما بعد بين محمد علي وبين الكومندور نايبير
الانجليزى على الانسحاب من سوريا ورد الأسطول التركى إلى الباب
العالى وإخلاء أذنة وبلاد العرب وكريت فى مقابل تخويل محمد على ملك
مصر الوراثى بضمانه الدول .

وقد تشبثت تركيا بطلب خلع محمد على بسبب انقضاء المهلة المشار إليها فى
المادتين الأولى والثانية من معاهدة لندن وشجعها فى تشبثها هذا لورد بونسونى
سفير بريطانيا فى الاستانة ولكن اللورد بالمرستون وزير الخارجية رأى
أن يفض الأزيمة باجازه الاتفاق الذى توصل إليه الكومندور نايبير .

اسماعيل باشا

وكأنما أراد اسماعيل أن يحذو حذو جده العظيم فى الوصول بمصر
إلى دولة مستقلة ذات سيادة بعد أن وقفت بها الخطى فى عهد عباس وسعيد .
ولكنه وإن اتحد مع جده فى الغاية إلا أنه اختلف عنه فى الأسلوب
والوسيلة . فلقد أراد أن يجرب حظه لقطع الصلة التى تربط بلاده بتركيا
وإعلان استقلال مصر فى أثناء الاحتفال بافتتاح قناة السويس . وفى
سبيل هذه الغاية ابتاع المدافع والبنادق وسائر معدات القتال ليدافع عن
مصر إذا ماهاجمتها تركيا . وفى سبيلها أيضاً تجاوز عدد الجيش الحدود
المنصوص عليها فى فرمانات السابقة فأصبح ١٨٠.٠٠٠ بعد أن كان
١٨٠.٠٠٠ كل ذلك ليكون على قدم الاستعداد إذا حزب الأمر . وإذ رأى
أن الجو السياسى لا يساعد على تحقيق أمنيته أيقن - وهو ذلك الرجل
العملى العظيم - أن محاولة انتزاع استقلال مصر من تركيا بحد الحسام مع
ما تقتضيه هذه المحاولة من التضحيات المادية والمعنوية تعتبر خاسرة حتماً .

ولم يفته الدرس القاسى الذى تعلمه جده العظيم محمد على عند ما تألبت عليه أوربا وحرمته ثمرات انتصاراته . فرآى أن يلجأ إلى ما هو أقل كلفة من ضياع الأرواح ألا وهو المال باعتباره أخف الأمرين هذا فضلا عن أن لغته أشد فعلا فى النفوس وأدنى للنجاح من لغة الحسام والمدفع . فراح ينفق المال كما قرره المسيو دى فريسينيه لاستخلاص حقوق مصر عن طريق الفرمانات . ولم يكن الطامعون فى أمواله قاصرين على رجال الاستانة من السلطان فما دونه كلابل كان كثير من سياسة الدول الأوربية وكبار رجال صحافتها لا يتحركون خطوة فى سبيل المرافقة على رد بعض الحقوق إلى مصر إلا إذا تذوقوا الشهد من بين أصابع اسماعيل وأجزل لهم العطاء .

ولطالما أنفق رسوله فى الاستانة ابراهام بك الأرمى آلاف الجنيهات فى سد أبواب الدسائس ضد اسماعيل بسبب نظام الوراثة المتبع وقتذاك وفى سبيل حمل الدول وتركيا على إصلاح النظام القضائى فى مصر وإنشاء المحاكم المختلطة التى تعد فى طليعة مفاخر العهد الأسمايلى . لأنها تحقق أمنية طالما طمحت إليها نفس اسماعيل وهى أن تتولى الفصل فى المنازعات بين رعايا الدول الأجنبية الموجودين فى مصر محاكم مصرية تحكم باسم أمير البلاد .

بل إن الحفلات الرائعة التى أقيمت بمناسبة افتتاح قناة السويس وما أنفق فى خلالها من النفقات لتعتبر قبل كل شىء بمثابة « هدية » قدمها اسماعيل لأصحاب التيجان ليضمهم إلى جانبه فى جهاده المتواصل لتحقيق استقلال مصر .

وليس يستطيع من يستعرض عهد اسماعيل الزاهر أن يمر سراعا دون أن يقف برهة أمام تلك السحابة المظلمة التى حاول خصوم ذلك الرجل العظيم أن تظل متجمعة فى الأفق حول اسمه وهى خاصة بالديون

أو القروض التي قالوا إنه اقترضها فأنفقها في أي شيء؟ في إشباع شهواته!!
ولكن إذا كانت دولة الباطل ساعة فان دولة الحق إلى قيام الساعة .
ذلك أن ما اقتراه خصوم اسماعيل خاصة بهذه القروض أخذ يذوب
الآن ذوبان الجليد تحت أشعة الشمس بما يتكشف للعالم كل يوم من
بطون المحفوظات والسجلات التي كانت مجهولة لدى جمهرة الكتاب
الذين حملتهم المغرضة على اسماعيل اعتماداً على الأوهام والاستنتاجات
الخاطئة دون أن يدعموا اتهاماتهم بالأدلة والبراهين .

ولقد أغرق المغرضون من كتاب الأفرنج في الطعن على اسماعيل
وتشويه سمعته وتسميم عقول المصريين من ناحيته حتى أصبحت أية محاولة
من كاتب مصري كصاحب هذه السطور لنقض ما علق حول اسم ذلك
الخديو من الأباطيل تقابل بالاستغراب والدهشة بل ويعتبر البعض
مثل هذه المحاولة بمثابة عمل جرىء يقوم به الإنسان ضد التاريخ!!
كأنما ينبغي أن يعتبر مانسجه كتاب الأفرنج من الترهات حول اسم
اسماعيل حقيقة تاريخية لا يأتيا الباطل من بين يديها ولا من خلفها!!
ولكننا رأينا بعد طول البحث والتقصي أن هذا الخديو كان مظلوماً
حقاً وأن التاريخ لم ينصفه مطلقاً . وإذا كان كتاب الأفرنج قد أوسعوه
النقد ظلماً وعدواناً فلا أقل من أن يتسع صدر القراء الكرام لتتبع ما أوردناه
في هذا الكتاب خاصة باسماعيل - وكثير منه لم يطلع عليه قراء العربية
قبل الآن - ليتبينوا مبلغ ما أصاب خديوهم المعظم من حيف وإذن
يصبح اسماعيل موضع نفاخهم وإعجابهم باعتباره الرجل الذي حاول في
سنوات قلائل أن يجعل مصر قطعة من أوربا .

وإذا كان ما أوردناه في هذا الجزء بأ كمله عن اسماعيل لا يعتبر في
الواقع إلا تاريخاً موجزاً فمن المعقول ألا تتسع هذه الكلمة لتفصيل

إصلاحاته المتشعبة التي ما تزال مصر مدينة له بها إلى اليوم .
ولعل أسوأ ما أصاب البلاد بعد أن أولاها اسماعيل ظهره هو الثورة
العرايية التي لا نبالغ إذا قلنا إنها ربما كانت لا تقع لو ظل اسماعيل على
عرش مصر . لأنه بفضل ما حبته به الطبيعة من إيصاله الرأي وبعد النظر
والقدرة على تصريف الأمور تصريفاً عملياً كان جديراً بأن لا يدع أسبابها
تنزلق في الطريق الذي أدى بالبلاد إلى الهاوية الخطرة في النهاية بل لا استطاع
إزالة أسباب التدمير أولاً بأول ولو كان أجدر على تسيير الحوادث في غير
الاتجاه الذي اتجهت فيه وانتهت بما انتهت إليه من النتائج المحزنة التي مازلنا
نعاني كرها إلى اليوم .

جلالة الملك فؤاد

ولقد كان نشوب الحرب العالمية الماضية مرحلة من مراحل الانتقال
في تاريخ مصر . وإذا كانت هذه المرحلة قد امتازت بظهور القومية المصرية
بمظهرها الرائع فإنها كذلك امتازت بظهور الربان الأعظم الذي تسلم
الدفة في وقت قامت فيه الأعاصير الهوجاء حول السفينة وكادت تدفعها
إلى الارتطام بالصخور القائمة في طريقها . هذا الربان الماهر لا تغمض له
جفن بينما الآخرون نيام ولا يفتأ يرقب السماء بلا ضجر ولا ملل ليتبين
ما عسى أن تخطه يد القدر في أفق مصر مما فيه الخير والأسعاد لهذا
البلد الأمين .

هذا الربان هو جلالة الملك فؤاد الأول الذي حمل الراية بعد أبيه
العظيم وسار مترسماً خطواته وخطوات جده الكبير في سبيل الانتقال
بمصر من مجرد ولاية تركية ممتازة إلى دولة مستقلة ذات سيادة .

ولسنا نذكر إلا الواقع إذا قلنا إنه كم من مرة اكفهر فيها جو السياسة

المصرية وعصفت بالبلاد العواصف فلم تجد الأمة من تشخص إليه
بابصارها ليخرج بها من الظلمات إلى النور سوى سيد البلاد وملاذها
الأسنى جلالة الملك فؤاد .

وسل العارفين بيواطن الأمور ينبؤوك بحديث تلك العواصف مما
لم يتصل نبأه بالجمهور وكيف ساعد الربان على دفع الضر وكشف المكروه
دون أن يأخذ لنفسه ولو نصيباً ضئيلاً من نخر تخليص البلاد من المحنة
وفي هذا المثل الأعلى على إنكار النفس .

بعض أعمال جلالة الملك

ولسنا نحسبها مجرد صدقة أن الملك فؤاد يترسم خطوات أيه في كل
مامن شأنه رفع مصر . فكما كان هم اسماعيل أن يجعلها موضع نظر العالم
في الخارج والداخل مما أشرنا إليه في سياق الكتاب إذا بعاهلها الحال
يحرص على أن تكون ممثلة خير تمثيل في الخارج مع جعلها تتجلى
كالعروس ليلة الزفاف في الداخل . وليست المفاوضات السياسية والمؤتمرات
الدولية العديدة التي اشتركت وتشترك مصر فيها بل وليست رحلات
جلالة الملك في أوروبا - نقول ليس هذا كله سوى إعلان عن مصر أمام
العالم المتمدين ومحاولة حميدة لأفهام أمم الأرض طراً أن مصر فؤاد هي
سليلة مصر الفراعنة .

فأينما أدار الأنتسان بصره وجد آثار الملك . ولا تكاد تسير في ناحية
من نواحي الحياة في مصر إلا وجدت طابع فؤاد عليها كما أنما كان يقيم الدليل
العملي على تصريحه وهو بعد أمير للسيو بيرتي مارت مكاتب جريدة
جيل بلاس « ليس شيئاً أن تكون أميراً بل الشيء الكثير أن تكون
نافعاً . »

ولا نخالك تطالبنا بأن نسرد عليك في صفحات معدودة أعمال المليك
قبل اعتلائه الأريكة المصرية وبعدها لأنها خليقة بمجلد ضخيم . ولكننا
لا نرى محيصا من إلقاء نظرة عاجلة عليها للتذكير والعظة .

فمن ذا الذي لم يسمع « بالأمير » فؤاد وولعه - حتى قبل اعتلائه العرش -
بما يفيد البلاد من الناحية العلمية . وإذا ذكرنا تاريخه في هذه الناحية كانت
الجامعة المصرية أول ما يواجهه الباحث في حياة ذلك « الأمير » النشيط .
فكلنا نعرف الحركة القومية التي كانت ترمي في سنة ١٩٠٦ إلى انشاء
جامعة أهلية لسد ظمأ البلاد وتعطشها إلى العلم . وإنما جارت الأمة بطلب
جامعة أهلية لتكون بعيدة عن تأثير سياسة التعليم التي كانت قاصرة وقتذاك
على تعليم النشء القشور دون اللباب .

فما كادت الفكرة أن تختمر حتى اتجهت الأنظار إلى اختيار « الأمير »
فؤاد لرأسه المشروع كضمان لاستمرار سبل التبرعات لأنشاء هذا المعهد
القومي . ونحسب أن التوفيق في اختيار « سموه » لهذا المنصب العلمي
كان بمثابة ضمان للسير بالمشروع إلى نهايته الطبيعية حتى أينع وأصبحت
قطوفه دانية وصارت البلاد الآن تنفياً ظلاله في عهد أبي الفاروق .
فلقد ظل « الأمير » فؤاد رئيساً للجامعة إلى سنة ١٩١٣ حيث كاد
عرش ألبانيا أن يظفر بسموه لولا أن قدر الله لمصر أن يظل لها أميرها
ليلعب دوره المهم في مستقبلها السياسي .

وحكاية الانتقال بالجامعة من مرتبتها المتواضعة السابقة إلى مكاتها
المزدهرة الحاضرة منذ جلوس جلالة الملك فؤاد على العرش قريبة العهد
بنا بحيث نستطيع الاكتفاء بنظرة عاجلة نلقيها عاينها قبل الانتقال إلى سرد
أعمال جلالاته الأخرى .

ففي ١١ مارس سنة ١٩٢٥ عنى جلالاته بتوسيع نظام الجامعة وجعلها
معهداً أميرياً ليكفل لها الحياة الطبية . ثم تفرع عن الجامعة أقسام أربعة

أو كليات اربع وهى كليات الآداب والعلوم والقانون والطب
وفي سنة ١٩٢٧ تم تنظيم الجامعة نهائياً واحتفل في العام التالى بوضع
الحجر الأساسى لبنائها الحاضر فى الجزيرة .

ولا يفتأ جلالته يعنى بأمرها ويتعهد بها برعايته حتى أصبحت وهى أحدث
الجامعات عهداً تعد فى طليعتها قدراً .

وإلى جانب الجامعة تجد الجمعية الجغرافية التى أنشأها اسماعيل باشا
فى سنة ١٨٧٥ وكان أهم أغراضها ارتياد القارة الأفريقية واكتشافها .
فلقد كادت هذه الجمعية أن تصبح فى عالم النسيان فى سنة ١٩١٤ لولا أن
تداركها الأمير فؤاد فنفتح فيها من روحه وأنشأها نشأة أخرى .

ومعهد الأحياء المائية الذى ابتكره فى سنة ١٩١٢ وجمعية الاقتصاد
السياسى وهو واضع برنامجها ثم جمعية مقاومة الحشرات والجمعية الملكية
لعلم أوراق البردى ومشروع معهد الصحراء الذى بدأ ينهض الآن رويداً
رويداً وتم بناؤه فى ضاحية هليوبوليس ، كل هذه المعاهد تنطق بما
لجلالته من يد بيضاء عليها .

وإذا انتقلنا إلى المعارف العمومية وفضل المليك عليها رأينا العجب
العجاب . فلقد كان أول ما اتجهت إليه العناية الملكية تعميم التعليم الابتدائى
وجعله إلزامياً ومجاناً . وهى نعمة ستذكرها الأجيال المقبلة لفؤاد الأول
بالحمد والثناء وحسبك أنها تؤدى إلى القضاء على الأمية فى وادى النيل .
وكما عنى محمد على الكبير بارسال البعثات إلى الخارج فقد أولاهها
الملك عنايته أيضاً حتى أصبح لكل وزارة أو مصلحة من مصالح الحكومة
بعثة فى الخارج . كذلك اقتدى بجدته الأعظم فى إنشاء مدرسة للبحرية هى
المدرسة الفاروقية .

وقد تدهش عند ما تعلم أن عدداً عديداً من رجال البعثات تدفع

نفقاتهم من الجيب الملكى الخاص .

وما دمننا بصدد المعارف العمومية فلا بد من الوقوف هنيئة لأنعام
النظار فيما تقوم به إدارة الأوقاف الملكية في هذه الناحية وما تسنه في
مدارسها من سنن صالحة سوف تبقى غرة ناصعة في جبين نظام التعليم في
الجيل الحاضر .

فنظرا لأن هذه المدارس منسوبة إلى جلالته فقد شاءت إرادته أن
تكون المثل الأعلى بين كافة مدارس القطر لافرق في ذلك بين المدارس
الأميرية أو الأهلية وأن يتضمن برنامجها بين ما يتضمنه تعليم طلبتها اللغة
الفرنسية وعلم الأخلاق فكانوا بذلك أسبق طلبة مدارس القطر إلى تعلم
هاتين المادتين .

وتحقيقا لرغائب جلالة الملك عنيت الأوقاف الملكية بفتح عدة
مدارس أخرى منها مدرسة ثانوية وهي مدرسة الخديو اسماعيل الملكية
وقد افتتحت بعد ارتقاء عظمة « السلطان » فؤاد الأريكة باشهر (سبتمبر
سنة ١٩١٨)

وناحية طريفة تدل على اهتمام الملك بكل شيء مما لم يسبقه إليه أمير
آخر هي اهتمامه بالخط العربي وتحسينه . ولذا انشأ مدرستين لتعليمه كما
أمر بادخال حروف التاج في المدارس والمصالح الأميرية . وفي نهاية سنة ١٩٢٥
أمر بتعليم الطلبة في المدرستين الأخيرتين فن التذهيب .

ولمدارس الأوقاف الملكية بعثاتها في الخارج كما لها فرقة الكشافة
التي أصبحت ثلاثاً . ولعله يدهشك أن تعلم أن أول فرقة كشافة قامت في مصر
هي التي أنشئت في سنة ١٩١٨ في مدرسة الخديو اسماعيل الثانوية بإيعاز
جلالته كما أنشئت فرق كشافة أخرى في جميع مدارس الديوان وفرقة
للرشادات والزهرات بمدرسة البنات . وتمتاز هذه المدارس بحسن نظامها
ودقة إدارتها . وحسبك دليلاً على اهتمام سيد البلاد بالكشافة برغم
كثرة شواغله الأخرى أن أصبح سمو أمير الصعيد كشاف مصر الأعظم

ولهذا الاختيار مغزاه الخطير كما لا يخفى .

وما فتئت إدارة الأوقاف الملكية تعنى بشؤون التعليم حتى بلغ ماتحت اشرافها من المدارس ما يأتى :

مدرستان ثانويتان وأربع ابتدائية للأولاد وواحدة للبنات وواحدة لتحسين الخطوط الملكية وقسم لتحفيظ القرآن الكريم .

وبعد أن كان عدد الطلبة في جميع هذه المدارس ٢٠٢١ في سنة ١٩٢٢ إذا به يرتفع إلى ٣٤٦٩ في سنة ١٩٣١ . وكان هذه الجهود الجبارة وما تتطلبه من نفقات هائلة تقوم بها إدارة الأوقاف الملكية لم تكف في إشباع رغبة أبى الفاروق في تعليم أبناء شعبه فرآى أن يقرب مناهله من أبناء الطبقة الدنيا ولذا ترى نسبة المجانية بلغت في سنة ١٩٣١ في مدارس الديوان ٣٩ ٪

ولعل مما تقر له عين جلالته أن يرى هذه النفقات الهائلة تؤتى ثمرها . فان المدارس المذكورة برغم حداثة عهدها كانت تتيحها الأولى في معظم السنوات في امتحان شهادة الدراسة الثانوية بقسمها لامن حيث نسبة الناجحين فقط بل ومن حيث تفوقهم على أقسام المدارس الأخرى مما جعلها في طليعة مدارس القطر بلا جدال .

وليس يسع الإنسان أن يغفل نصيب الأزهر من عناية صاحب العرش . فان تلك الجامعة العظيمة التي هى بلاريب أقدم وأعظم جامعات الأرض طرا قد أخذت تتطور بسرعة مدهشة كما أنها بدأت تسد حاجة قاصديها من طلاب العلم من الأقطار الإسلامية .

وقد تظن أن مشاغل الملك فؤاد العديدة التي سردنا عليك طرفا منها قد أنسته الناحية الإنسانية . ولكن الواقع غير ذلك .

فاذا ذكرت الإنسانية ومبلغ حنان جلالته عليها فأمامنا جمعية

الأسعاف. فسل القائمين بشؤونها يخبروك بما فعله « الأمير » فؤاد لاجلها. فلقد تولى رئاستها في سنة ١٩١٠ وهى تسير حثيثا فى سبيل التلاشى والفناء ولا يسمع بها إلا قليلون. فما هو أن التفت إليها حتى دبت فيها الروح من جديد وأصبحت الآن ملء الأفواه والأسماع.

وقد كان من أثر جهوده الحميدة المتواصلة عقب توليته رئاستها أن منحها الحكومة وكذا وزارة الأوقاف إعانة. ثم إذا بهذه الجهود تتمخض عن دار ومستشفى وعيادة أقامتها الجمعية المذكورة التى ما لبثت أن افتتحت لها فرعا فى ضاحية هليوبوليس وآخر فى حلوان وثالث فى الجيزة. هذا عدا المراكز العديدة فى كافة أنحاء القطر.

ولكىما تدرك مبلغ اتساع نطاق هذه الجمعية فبحسبك أن تعرف أن مجموع حالات الأسعاف فى سنة ١٩٠٨ بلغت نحو ١٦٣٨ فصارت ٦٩٩ ر ٣٩٩ فى سنة ١٩٣١ ثم ٧٩٨ ر ٤٢٦ فى سنة ١٩٣٢ وهذا بين إسعافات مستعجلة ونقل مرضى وعمليات وعمليات بسيطة وكشف أشعة وزيارات طبية الخ الخ هذا عدا إعطاء مصل الدفتريا لنحو ٠٠٠ ر ١٦ طفل. إزاء هذا كله كان طبيعياً أن تشعر الحكومة بأهمية هذه الجمعية وتؤمن بضرورتها للبلاد وخاصة بعد اعتلاء جلالته الأريكة. فوحدت جمعيات الأسعاف فى الأقاليم واندجت فى اتحاد كبير يشرف على الجميع.

وفى سنة ١٩٢٧ افتتح جلالته قسم الجراحة التابع للجمعية وتبرع له بمبلغ ٥٠٠ جنيه كما تبرع فى سنة ١٩٣١ بمبلغ ١٠٠٠ جنيه لتوسيع إدارة الجمعية هذا عدا مبلغ ٥٠٠ جنيه تبرع به جلالته بمناسبة احتفال الجمعية بيوبيلها الفضى فى ١٩ أبريل سنة ١٩٣٣ وقد أصبحت عيادتها تعالج يوميا ما لا يقل عن ١٠٠٠ شخص ولا تقوم بالعلاج فى أثناء النهار فقط بل هناك خدمة خاصة بمعالجة المرضى وإسعافهم ليلا. هذا عدا الأجهزة

الخاصة المستعملة في حالة الوضع في دور الحوامل أنفسهم .
فلا عجب اذا رأينا الإنسانية في شخص جمعيتي الأسعاف والهلل
الأحمر التي تولى جلالته رئاستها في سنة ١٩١٦ تشكر للمليك بره بهما
وعطفه عليهما .

وناحية أخرى من النواحي الإنسانية التي لم يسبق أحد جلالته إليها .
ولهذه الناحية طرافة خاصة لأنها قامت في بلد لم يدرك بعد أهمية الأعمال
الاجتماعية .

ففي سنة ١٩١٦ اهتم سمو « الأمير » فؤاد بإنشاء دار في الاسكندرية
لتعليم البنات الفقيرات الأشغال اليدوية . وتعميماً لفائدة المشروع لم يجعله
قاصراً على بنات جنسية دون أخرى بل جعله عاماً لكافة الجنسيات بلا
فرق بين المذاهب والأديان .

وكانت غاية هذا المشغل تعليم البنات صناعة شريفة يكتسبن بها
القوت وتنمية مواهبهن الفنية وبخاصة شغل الدتلا والتطريز مع مراعاة
النماذج التي كانت شائعة في عهد ازدهار الفن الروماني واليوناني أو المصري
القديم أو الفن القبطي أو العربي .

وكم توجس الناس خيفة من فشل هذا المشروع . ولكن عزيمة أبي
الفاروق لا تعرف الفشل إذ ما من مشروع أولاه عناية حتى نما وترعرع
وآتى ثمره .

وما هو أن دار الفلك دورته حتى بلغ عدد البنات ١٦٤ بعد أن كان
١٠ ومن ثم أخذت الأدلة تترى على نجاح المشروع وسيره الخيبيث في

طريق النجاح إذ بلغ عدد نزيلاته في سنة ١٩٣٤ نحو ٢٨٠
ولا تزال أسر عديدة أخني عليها الدهر وكنتم اسمها عن الناس تدعو
بالخير لجلالة المليك وتشكر له عنيته بتعليم بناتها صناعة شريفة يكتسبن بها
العيش .

وكانما شاءت العناية الالهية أن تبرهن للملأ على أن سمو « الأمير »
فؤاد كان موفقا في مشروعه . فلقد أقيم في سنة ١٩١٧ في حديقة رشيد
بالأسكندرية معرض عام للأشغال اليدوية المقدمة من هذا المشغل . وقد
أم المعرض أعيان الثغر ورجال السلك السياسي وغيرهم . ولشد ما كانت
دهشتهم لظرافة النماذج المعروضة فاقبلوا عايرها متسابقين إلى اقتنائها . وقد
بلغ مقدار المبيعات في هذا المعرض ٤٠٠٠ جنيه دخل خزانة المشغل
فكان بمثابة نواة صالحة تضمن نموه المطرد ونشاطه في خدمة الغاية التي
أنشئ من أجلها .

وضمنا للمستقبل هذا المشغل أمر جلالته أخيراً بضمه إلى الأوقاف
الملكية فتحول إلى مدرسة تدير مع بقية مدارس الديوان في معارج
الفلاح والنجاح .

ولا تنس في النهاية فضل جلالة الملك على الآداب والفنون الجميلة ولا
ما بلغتته الموسيقى العربية في عهده الزاهر وحسبك أمره الكريم بعقد مؤتمر
في سنة ١٩٣٢ جمع كبار الأخصائيين من بلاد أوروبا والشرق العربي
للاستشارة برأيهم في رفع شأن الموسيقى العربية .

هذا وغيره هو بعض ما وسعه المقام . ونعتذر للقارئ إذا كنا لم نحط
بكافة أعمال الملك فلم تخصص هذه الصفحات إلا لألقاء نظرة عامة عليها
ولتذكير الشعب بما يفعله مليكه من أجله . ويطيب لنا في هذا المقام أن
نقول إن جلالته أنفق من جيبه الخاص منذ اعتلائه العرش إلى نهاية
سنة ١٩٣١ ما يزيد عن ٤٠٠٠٠٠٠ جنيه مصري في الشؤون العلمية
والتبرعات الخيرية . وبحسبنا أن نقول إن مصر الملك فؤاد يصح من حيث
الحضارة والعلوم أن تقارن بكثير من الدول الأوروبية بل قد لا نكون
مبالغين إذا قلنا إن في حياة مصر العامة كثيراً من النواحي تحسدها عليها دول
أوروبية عديدة .

ويأتي بعد كل هذا أو قبله على الأصح انتقال البلاد في عهد أبي الفاروق من سلطنة إلى دولة مستقلة ذات سيادة تتمتع في الداخل بالنظام البرلماني كما تتمتع في الخارج بالتمثيل السياسي .

نعم إن استقلال مصر ما زال مقيداً بالتحفظات الأربعة . ولكن قضية مصر قد خبطت بلا شك في عهد الملك فؤاد خطوات واسعة إلى الأمام لم تخطها إلا في عهد محمد علي ولا في عهد اسماعيل . وبالرغم من انتصارات محمد علي الباهرة وقرب استيلائه على الاستانة أجمعت كلبة الدول في معاهدة لندن على إبقاء مصر تحت السيادة العثمانية .

أما اسماعيل باشا فان الدول رفضت موافقته على إعلان استقلال مصر . ولكن هذا الاستقلال قد تحقق في عهد الملك فؤاد وأصبحت دول الأرض جميعاً تعترف باستقلال مصر كما هو مشاهد الآن .

ونقف الآن عند هذا الحد وندعو الله أن يمد في عمر جلالة الملك فؤاد ليصل بسفينة البلاد إلى شاطئ السلامة وأن يقر عينيه بولي عهده الأمير فاروق أمير الصعيد وأن يوفق مواطنينا إلى الهدى والصواب إنه نعم المولى ونعم النصير .

علي أحمد شكري

مصر في مارس سنة ١٩٣٤

الفصل الأول مولد مصر الحديثة

نابليون - محمد علي - بالمرستون

« وأغلق على المعريين في يد مولى قاس فينساظ عليهم ملك عزيز »
« يقول السيد رب الجنود - أشعيا الاصحاح التاسع عشر الآية الرابعة »

مصر الحديثة كأمة تبدأ من الحرب العالمية فقط ، و لكنها كدولة تحكم نفسها بنفسها فانها تبدأ من الحرب العظمى التي وقعت منذ قرن مضى . ولهذا يمكن القول بأن مغامرات صاحبنا كليوباتره مع صديقتها أنطونيوس التركي ومع قيصرها البريطاني جاءت في ربيع سياسة يومنا الحاضر أي عند ما التهم لهيب الثورة الفرنسية كافة الأنظمة السياسية المعمول بها في القرن الثامن عشر وأذاب ما حولها من الجليد . وليس يخفى أن كلاب الربيع - ونعني بها جيوش نابليون - هبطت الشرق يصحبها وابل من الأفكار والمعاهد الجديدة فأنعشت بها موات الولايات التي لفحها الهجير في الأمبراطورية العثمانية التي كانت وما تزال تشغل شرقي أوروبا وشمال أفريقيا . ومن ثم بدأت تزدهر تحت هذا المطر المخصب أمة جديدة وشرع أناس مسلحون يحتشدون حيث لم يكن من قبل سوى سككون الصحراء ووديان العظام النخرة . وماذا عسى أن يكون أدل على قوة سحر بطلتنا « مصر » من أن يسعى اليها نابليون العظيم محاولا اقتناص قابها ؟

فمنذ تدهور مدينة الفراعنة وانقراضها ومصر خاضعة للفاتحين الأجانب . وقد صار زمام الحكم الأجنبي بعد الفتح العربي إلى أيدي طائفة المماليك وهم الجنود الخدم . لأن لفظة « مملوك » كان معناها في الأصل الرقيق الأبيض الذكر . والشرقيون في أوج عزهم - أي في عهد صلاح الدين - هم أول من أدخل المماليك إلى مصر . وقد كانوا بادئ بدء ميليشيا ذليلة

ثم تحولوا إلى طبقة عسكرية وأخيراً أصبحوا الطبقة الحاكمة . ثم جاء الأتراك فاقتفوا آثار الشرقيين في جنودهم الانكشارية . وفي الواقع كان الشرق منذ بزوغ شمس الإسلام أخصر طريق إلى الحول والسلطة . وهذا هو صلاح الدين نفسه بدأ حياته كرفيق مثل كثيرين غيره من السلاطين الأولين . وفي مصر شهدنا أغرب الأمثال على تطور طائفة أجنبية وانتقالها من حراسة الرقيق إلى أن أصبحت الطبقة الأرستقراطية القابضة على ناصية الحكم . ومن الغريب أيضاً أن هذه الطائفة لم تصل إلى ما وصلت إليه إلا بفضل عدم اندماجها في الأهالي الوطنيين وابتعادها عن الاحتكاك بهم . ولقد بلغ من قوة المماليك في سنة ١٢٥٠ أنهم اغتالوا أحد السلاطين الفاطميين وتولوا بعده ترشيح السلاطين من بين زعمائهم .

أما كيف استطاع هؤلاء المماليك أن يسيطروا سلطانهم الأجنبي على مصر نحواً من خمسة قرون فيرجع إلى كونهم كانوا يغذون صفوفهم بأرقى عناصر الأرقاء المحررين من أجناسهم البيضاء في القوقاز والتي لا جدال في أنه لا يوجد ما يفوقها في كافة أنحاء العالم .

وكان معظمهم من جورجيا - أو الخرز - وهم يعرفون بالخرز (بضم الخاء) ولا يزال المصريون يصفون حكمهم بحكم « الغز » وهو تحريف للفظ الخرز . وقد كان المماليك يحرصون على التزاوج فيما بينهم وبين أنفسهم ولما لم يكن هذا وحده كافياً لأنقاذ جنسهم واستمرار استبدادهم اضطروا إلى إدخال دم جديد في عنصرهم . لأن عائلاتهم كان مثلها كمثل عائلات كل من استولى على مصر من الأجناس « الآرية » الأخرى التي انقرضت في الجيلين الثاني والثالث . وقد عجز المماليك عن تكوين طبقة وراثية بالرغم مما كان لهم من سيطرة مالية ونظام إقطاعي في البلاد . ثم إن سلطانهم الأجنبي يضاف إلى اختلافهم مع الأتراك - وهم أغراب مثلهم - كانت نتيجتهم ما جمع شمل العرب المتمصرين والنوبيين بل والأقباط برغم ما كان بينهم من اختلاف في الجنس والعقيدة الدينية لأنهم كانوا جميعاً تحت نير واحد .



الأوطه باشى (أبو طبق) ووراءه الجنود فى طريقه إلى القلعة
لأعلان الوالى بقرار العزل *

وبفضل ما فرضه المماليك على أرض مصر الخصبة وعلى فلاحيها الوادعين
من الضرائب وما حصلوه من المكوس على تجارة « الترانسيت »
بين أوروبا وآسيا - استطاعوا أن يكون لهم من الحول ما يكفي للدفاع
عن سلطانهم حتى بسط الأتراك سيطرتهم على البواغيز وانشأوا لهم
إمبراطورية شاسعة فى شرق أوروبا وغرب آسيا . أما آخر سلاطين
المماليك فقد شنقه السلطان سليم فى سنة ١٥١٧ . وقد ورث
سلاطين آل عثمان عن المماليك فى الشرق هيبتهم ومكانتهم ولم يمسوا
نفوذهم السياسى فى مصر بشىء بل اقتصروا على جعل هذا النفوذ خاضعا
لسلطة الباشا العثمانى واستبدلوا الانكشاريين أرقاءهم المشاة بفرسان
المماليك . ولكن سرعان ما أخذ زعيم المماليك بصفته « بيك » القاهرة

(*) إذا لم يحز الوالى ثقة شيخ البلد وأعوانه يقرر هذا عزله ويبعث إليه برسالة
العزل مع رسول يدعى أوطه باشى (ويسمى أبو طبق لأنه يلبس قبعة تشبه الطبق) .
فيركب الأوطه باشى حمارا (لعدم سماح القانون بركوب الخيل أو البغال) . ويذهب إلى القلعة
فى موكب من المتفرجين حاملا فرمان العزل وهناك يقول للوالى « انزل يا باشا » . فينزل فى الحال
وتزول كل سلطته . ولا يعارض الباشا فى فرمان المذكور حتى ولو تعدى أمر عزله إلى قتله .

ينافس الباشا سلطته وكان ديوان مصر مكوناً وقتئذ من بيكوات المماليك باعتبارهم ممثلين لاربع وعشرين مديرية ومن قادة السبعة الفيالق الانكشارية. فلما أخذت سلطة العثمانيين في أسباب الضعف والوهن شرع المماليك يحدون من نفوذ الباشاوات في مصر حتى صار عدما . فكان أشبه شيء بما صنعه الانجليز فيما بعد مع الخديو . لا بل أن سلوك المماليك مع من لا يلائمهم من الباشاوات كان سلوكاً مختصراً وقاسياً أكثر من سلوكنا . فقد كانت عاداتهم في مثل هذه الاحوال أن يرسلوا الى الباشا المذكور مندوباً في عباءة سوداء تنذر بالنحس فيصيح به « انزل » فينزل صاغراً من على العرش . واينما ولى الباشا وقتئذ وجهه فانما يترتب ذلك فقط على ما يكفيه من الوقت لمغادرة البلاد . ويلاحظ بهذه المناسبة أن جنود الانكشارية بسبب عدم مراعاة التدقيق في اختيارهم ونظراً لتفرقهم في طول البلاد وعرضها ، لم يستطيعوا الاحتفاظ بنشاطهم الأدبي وكفايتهم العسكرية كما فعل المماليك من قبل

ولما كانت سلطة المماليك وإدارتهم أجنبية فمن المهم أن نقارن بينها وبين إدارتنا لتبين هل السر في بقاء حكمهم زهاء الخمسة قرون - بينما لم يمكث حكمنا سوى خمسة عقود - يرجع إلى أنهم لم يقتصروا على الاحتفاظ بحامية عسكرية وبحكومة ، أم لأنهم عرفوا فوق ذلك كيف يكونون طبقة من الحكام والأعيان في بلاد لا مجال لمحو الجنس الأبيض منها . ثم أن هبة المماليك لمصر كانت فنية بينما كانت هبتنا لها علمية . وإلا فمن ذا الذي يسعه أن ينكر أن لما أنشأناه من سدود النيل وبنوك الأراضى أو لخبرائنا الزراعيين ، فوائدهم تفوق قصور المماليك ومساجدهم وتقاليدهم الفنية ؟ نعم إن قطننا كان سيداً في جلب التجارة الأجنبية إلى مصر ، ولكن التوفيق في رواج حركة السائحين يرجع إلى ثقافة المماليك وهم الذين لا يجادل أحد

في أنهم أبهظوا عاتق الأهالي المصريين أضعاف ما أبهظناهم . فلقد كانت الضرائب توازي تاج الأرض ما خلا النزر اليسير مما لا يكاد يكفي لسد رمق الفلاحين ثم إن الم-كوس على تجارة الترانسيت كانت معادلة لثمن البضائع الأساسية مما حال دون مزاحمة طريق البحر حول رأس الرجاء الصالح . ولقد أدى شجارهم مع الأتراك على استقلال مصر إلى استمرار القلاقل وجاء اعتناقهم الإسلام ضغنا على إبالة إذ قطع صلة البلاد بحركة الترقى الأوربي . ولقد تبادر إلى الأذهان حيناً من الدهر أن نظام المماليك هذا الذي بسط الأرقاء البيض ظله على شعوب آسيا وأفريقيا قد يخضع العالم للدولة الإسلامية الشرقية فيكون أشبه بما عملناه نحن في صدد النظام الاستعماري التجاري . فقد أخضعنا به العالم لمدينة أوروبا الصناعية . ومن غرائب الصدف أن أسطول المماليك - في نفس الوقت الذي هدم فيه الأتراك نفوذهم - كان ينازع البرتغاليين مستقبل الأمبراطورية الهندية . وقد غلب على أذهان الناس في نهاية القرن الثامن عشر أن المماليك برياسة على بك سوف يخلفون الأتراك في الأمبراطورية العثمانية ، ولكن وفاة على بك المذكور كانت خاتمة مجدهم . وقد حل في أمبراطورية العالم رقيق الأجور محل رقيق الحروب . ثم إن فن المماليك العسكري قد صار عتيقا . أما جيوشهم فكانت ماتزال مؤلفة من فصائل اقطاعية يشرف عليها رئيسها . وهذه الفصائل تتألف بدورها من بعض باشاوات أو بكوات المماليك العديمي الأهمية أو من رجال السلاح وعدد عديد من الجنود المشاة والأتباع . وأما فنهم العسكري فإنه كان قريب الشبه بفن الصليبيين وبعضها أخذ فعلا عنهم . ولقد كان المماليك وأيم الحق مبدعين حتى في أيام الحراب والبنادق العتيقة ولكن هذه الأدوات قد فات أو انها فلم تعد صالحة للحرب .

ونحن الذين مازلنا نحفظ بالفرق الراكبة التي تكلفنا نفقات



بماهظة ونجعل من معركة « بلا كلافا »
قاعدة للفنون العسكرية قد نشعر
بشيء من العطف على ما أظهره
المماليك من الأتدَام والبسالة عند
مهاجمتهم لنا بليون .

ولا جدال في أن المماليك بين
كافة من استولى من الأجانب على
مصر يعتبرون أكثرهم نفقات
وأقلهم كفاية . فان كل فارس من

فرسانهم الاثني عشر ألفاً أو الخمسة
عشر ألفاً بلغ متوسط نفقاته نحو ١٠٠٠ جنيه في العام بينما بلغت نفقات
غزواتهم لسوريا بقيادة علي بك في سنة ١٧٦٩، ٠٠٠ ر ٠٠٠ ر ٢٦ جنيه .
وكان مقبض خنجر علي بك يساوي ٢٠٠ ر ٠٠٠ جنيه . وبما أن عدد سكان
مصر وقتئذ كان يتراوح بين مليونين أو ثلاثة ملايين فقد كان بديهيّاً أن
كافة ما كان يجمعونه ثمناً لانتاج التربة المصرية الخصبة ابتلعه أولئك
المماليك وأعيانهم . وقد حال كبرياء هؤلاء السادة وجهلهم دون التأثر
بأى ضغط نشأ بسبب اتجاه المدنية نحو الشرق .

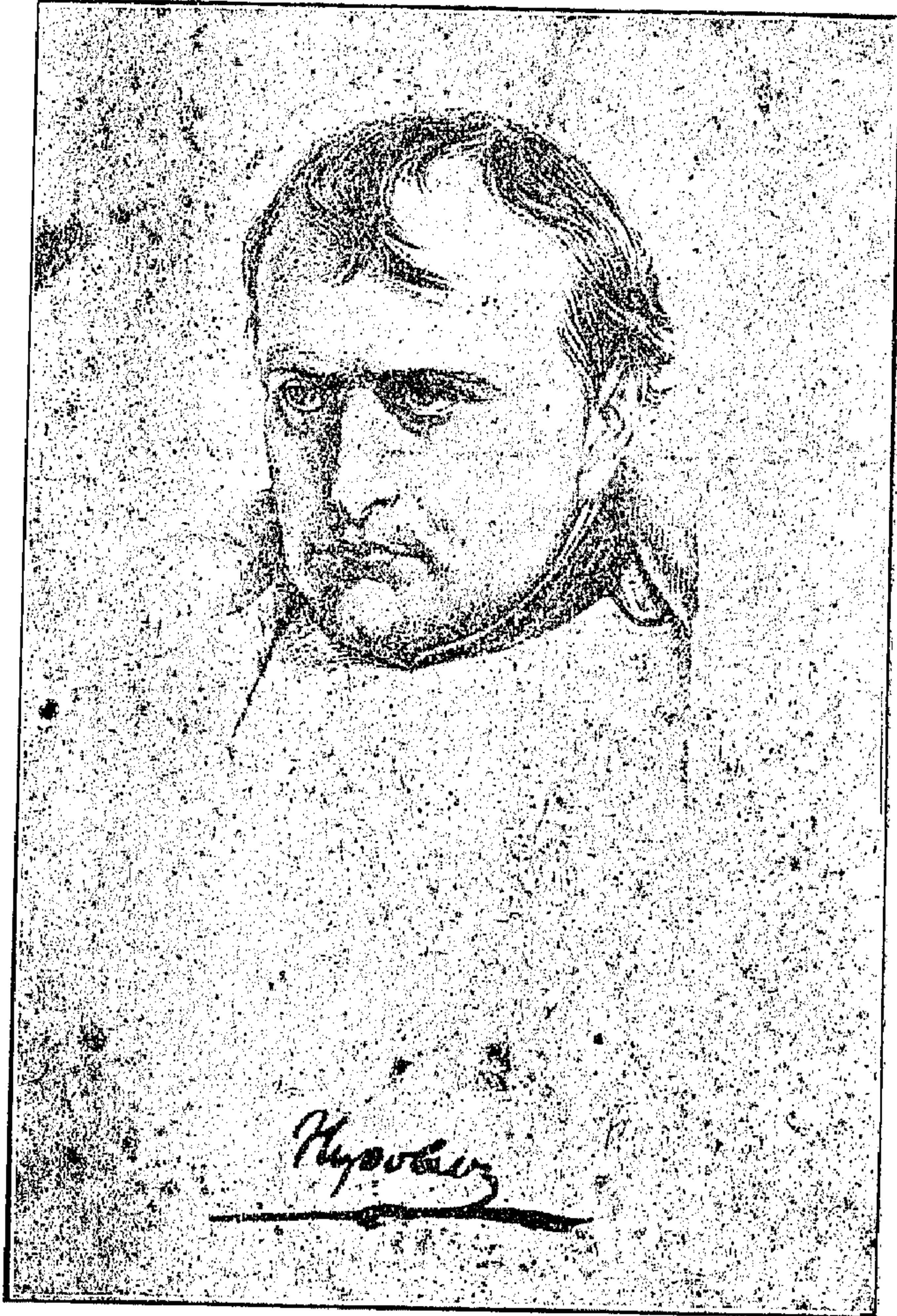
كان هذا الابتزاز سبباً في أن مصر لم تعد بعد طريقاً بين أفريقيا وأوروبا ،
كما انحطت الاسكندرية الى مدينة حقيرة لصيد الاسماك يقطنها نحو
٨٠٠٠ نسمة . والغريب ان المماليك بالرغم من ذلك كله لم يستعينوا
بالاجانب فقد منعوا الانجليز من شق الطريق البري لتوصيل مياه البحر
الابيض بمياه البحر الأحمر . وطردهوا الجالية الفرنسية وهي التي كانت
تحرك دولاب التجارة المحلية (سنة ١٧٧٩) .

ولطالما تربصت فرنسا ولبثت ترقب بانتباه ما كان في الطريق البرى من الفرص الملائمة لها في النزاع الذي كان قائماً بينها وبين إنجلترا حول الاستيلاء على الامبراطورية الهندية . ولقد اقترح لينتزر الألماني فعلا على لويس الرابع عشر احتلال مصر وكان قصده من ذلك أن يصرفه عن التوسع نحو الرين (كما ورد في كتاب أعمال فون لينتزر المجلد الثاني)

وبعد ذلك بقرن كامل كتب قولنى يقول ما ملخصه : إن إستيلاء الفرنسيين على مصر كفيل باعادة الامبراطورية الهندية إلى أحضان فرنسا، وإن قوة الممالك ليست إلا حديث خرافة فلم يكن ثمة محيص والحالة هكذا من أن تدور رحا الحرب العالمية عاجلا أم آجلا بين الثورة الفرنسية والنظام العتيق في هذا الدهليز الواقع خلف عرش آسيا .

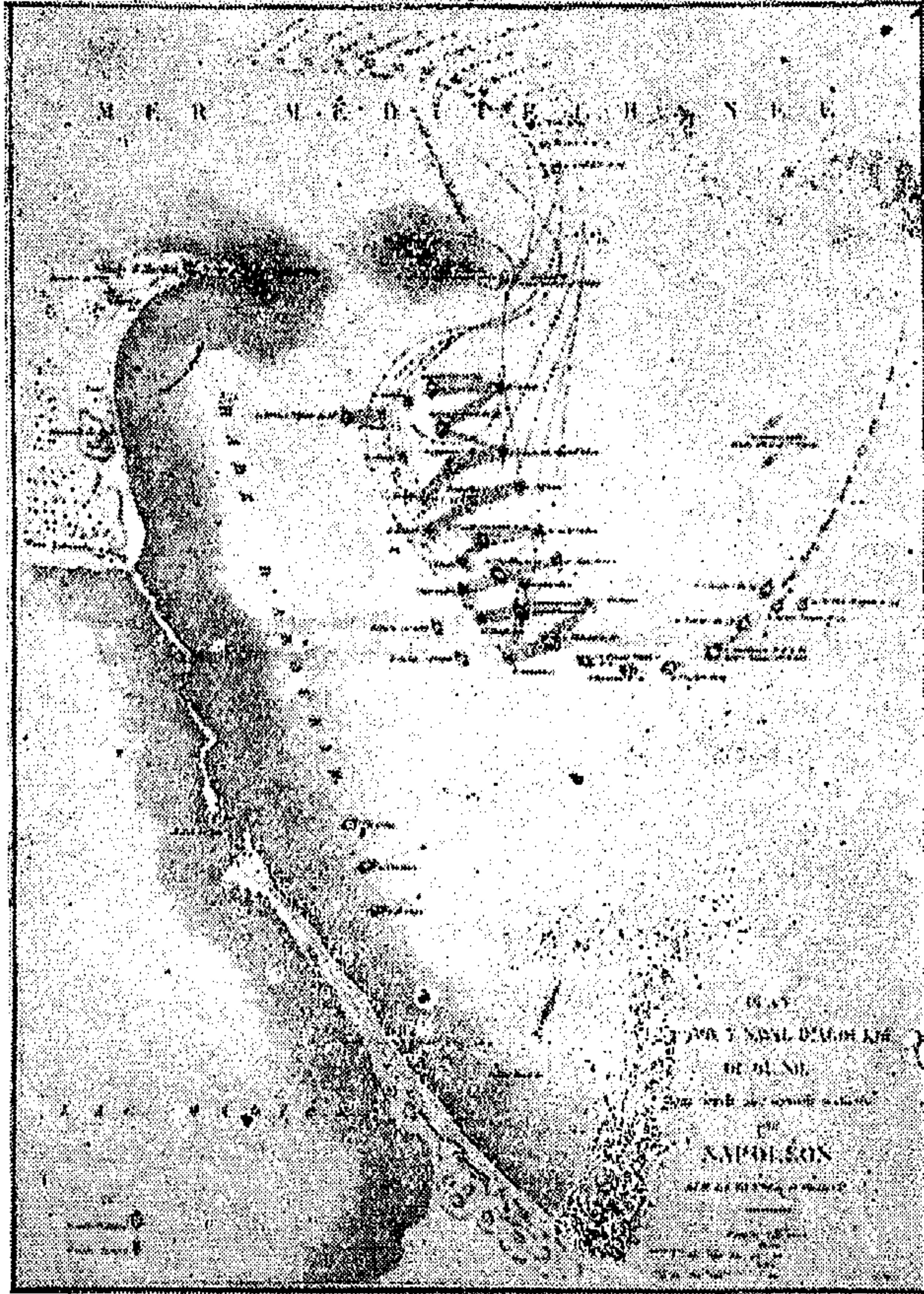
وكانت مهاجمة الامبراطورية البريطانية هي الغاية التي جاهر بها نابليون من حملته التي أرسلها إلى مصر في سنة ١٧٩٨ . فقد وصفها لمجلس الديركتوار بأنها بمثابة الجناح الأيمن للغارة على إنجلترا . أما غايته الحقيقية فكانت ترمى إلى اتخاذ مصر ميداناً للقتال فإما أن يخرج منها إلى امبراطورية الغرب أو يتخذها - في حالة جبوط مساعيه - قاعدة لتأسيس امبراطورية شرقية . ومع إن مستقبله السياسى في باريس كان وقتئذ غامضاً ومحفوفاً بالشكوك ، فان مجلس الديركتوار ابتهج ايما ابتهاج بتركه يستخدم موارد فرنسا في مغامرات نائية تريح بال الجمهورية من فاتح إيطاليا غير المرغوب فيه ومن قواده المتمردين وفعلا كان تجهيزها - وهي التي اشتملت بين ما اشتملت عليه على ١٢٢ أخصائياً وعالم مصر لوجياً - يدل على أن المسألة كانت مسألة انشاء امبراطورية أكثر مما كانت مجرد نزهة عسكرية . وقد كتب تاليران إلى مجلس الديركتوار في ١٠ يونية سنة ١٧٩٨ بأنها « الحملة التي سوف تهدم سلطان بريطانيا في الهند » . ولكن

يغلب على الظن أن تاليران كان أكثر اهتماماً بالتخلص من نابليون منه



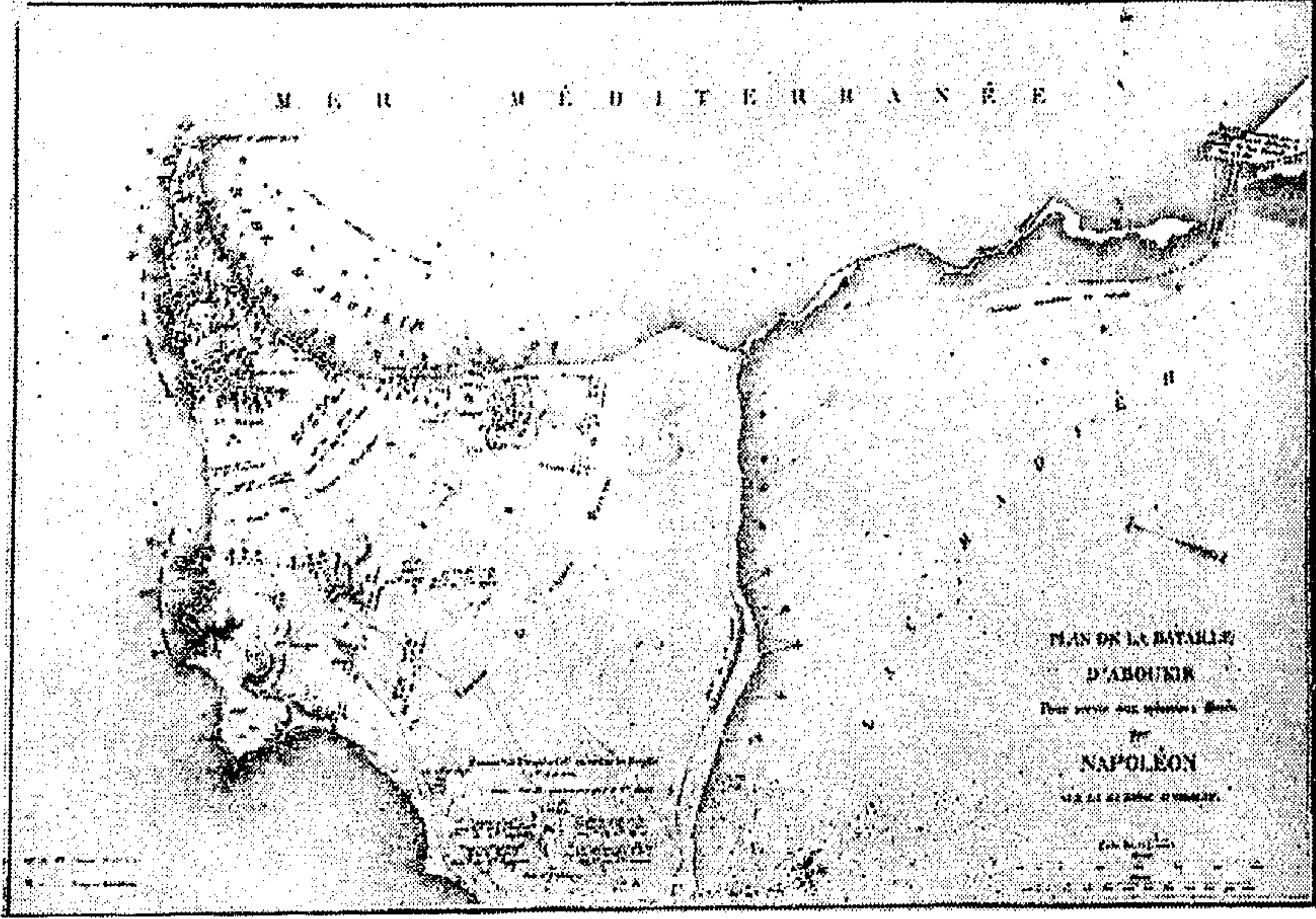
نابليون بونابرت

بهزيمة بريطانيا . ومع أن نابليون كان قد بدأ يرأسل « تيدو صاحب »
وقبائل مراتا الذين كانوا في قتال معنا ، فانه كان يصعب على الانسان أن
يتصور كيف أن مجرد إرسال تجريدة فرنسية إلى مصر تستطيع بدون
السيطرة على البحر اخراجنا من الهند . فان مواصلاتنا كانت حول
رأس الرجا الصالح . ثم ان سيطرتنا على البحر الأبيض حالت دون أي



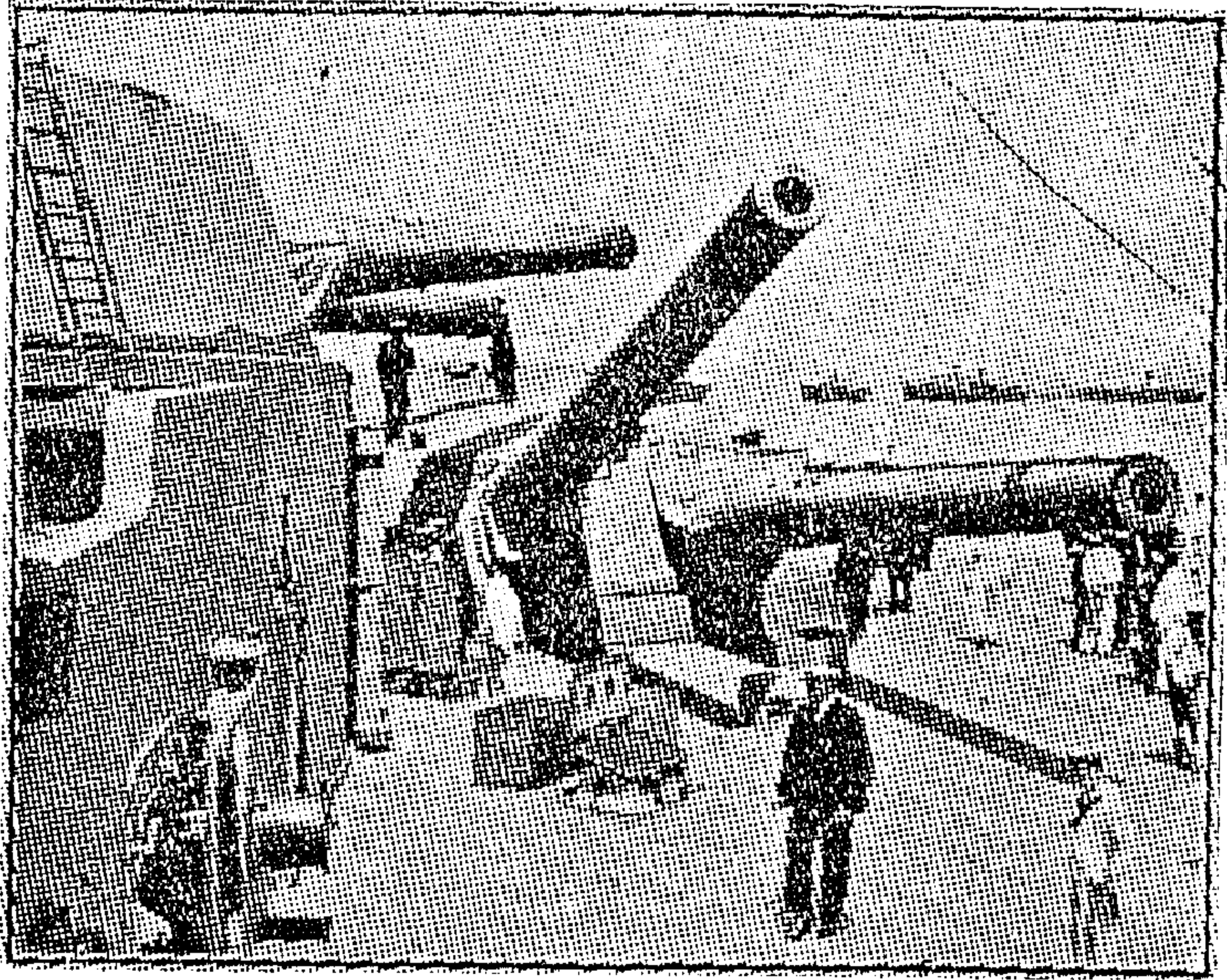
معركة النيل أو معركة أبو قير

المعركة الفاصلة بين الأسطول الإنجليزي بقيادة الأميرال « نلسون » والأسطول الفرنسي بقيادة الأميرال « برويه ». وقد وقفت السفن الفرنسية وعددها ١٣ عداء أربع فرطاقات أمام العمارة الإنجليزية التي كانت مكونة من ١٣ ماعونة وسفينة تحمل ٥١ مدفعاً. وبلغت قوة الجانب الفرنسي ١١٩٦ مدفعاً و ١١٢٣٠ ملاحاً في حين أن الجانب الإنجليزي كان ١٠١٢ مدفعاً و ٩٠٦٨ ملاحاً. ومع أن الغلبة كانت في الجانب الفرنسي فإن نلسون لم يتردد في الاشتباك بخصومه قائلاً « قبل أن تحين هذه الساعة من يوم غد سأكون قد حصلت على رتبة لورد أو على مكان أدفن فيه في كاتدرائية وستمنستر ». واستمرت المعركة إلى حوالي منتصف الليل ودارت فيها الدائرة على العمارة الفرنسية التي تفرقت. أيدي سبا. وقد قتل الأميرال برويه وهو على جسر سفينته التي كانت تحمل راية الأميرال بينما أصيب نلسون بجرح في الرأس عاقه عن العمل.

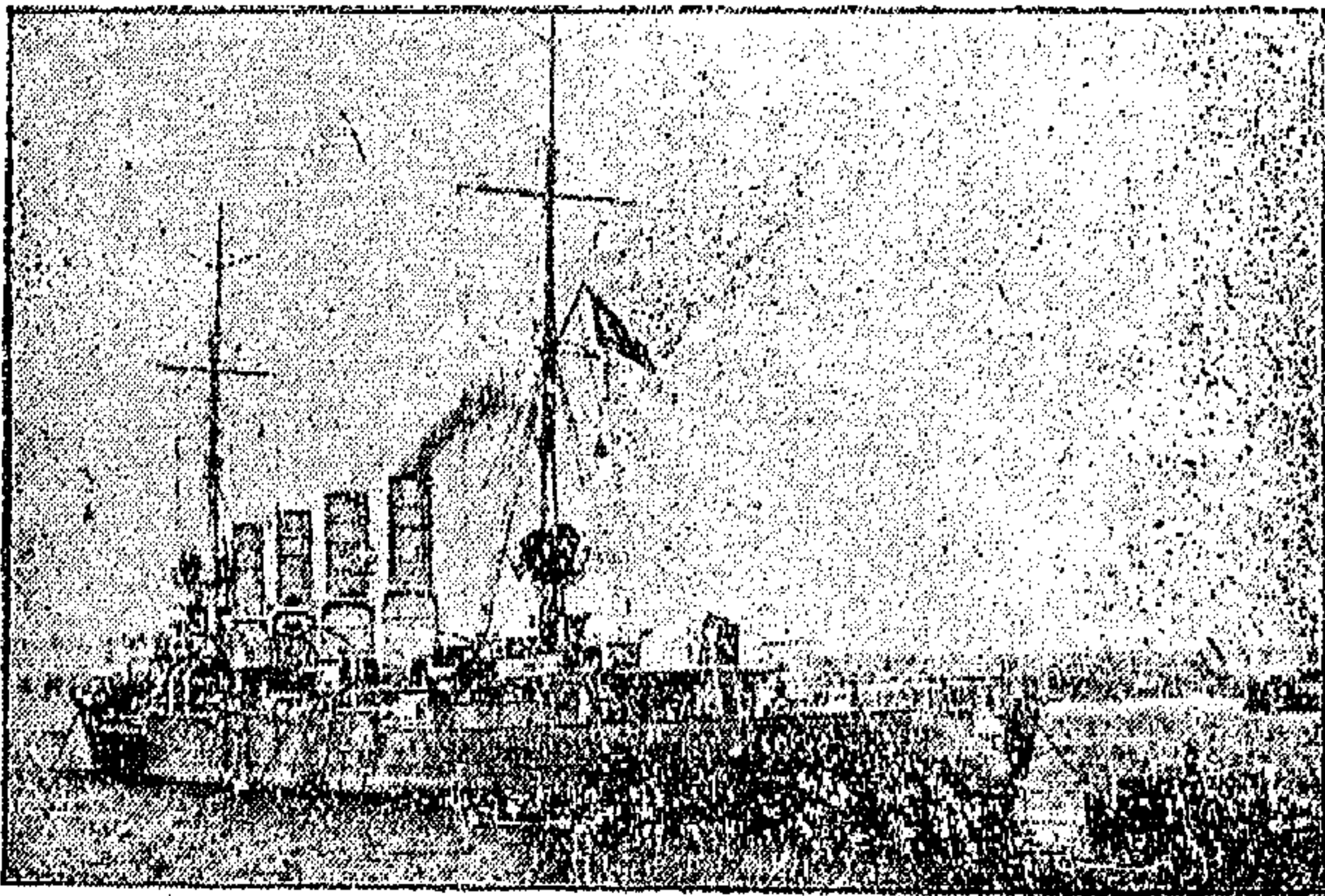


معركة أبو قير

وقد وقفت الحامية الفرنسية على اليابسة بينما أمطرتها السفن البريطانية وابلامن القنابل
« هاتان الصورتان أهداهما سمو الأمير عمر طوسون للمعرب
أما الشرح فنقول عن جريدة الإيجيشيان غازيت . »
اتصال منظم بين فرنسا ومصر اللهم إلا ما ندر . وفي الواقع لقد أفلتت
الحملة الفرنسية من المدافع الانجليزية لأن وزارة البحرية لم تسمح للأميرال
نلسون إلا بيارجة واحدة فقط مما أدى إلى وصول الأسطول البريطاني
إلى مالطة بعد رحيل العمارة الفرنسية منها ببضع ساعات فقط . كذلك
وصل متأخراً إلى كريد وأيضاً إلى الاسكندرية ولكنه استولى فعلاً على
أدوات المصر لوجين المائة والاثنين والعشرين وهي كارثة وإن اعتبرت
وقتئذ أنها نذير النحس إلا أنها لم تكن مما لا يعوض . ولئن وجد الآن
بيننا من يخامرهم الشك فيما عسى أن يكون الفرق بين سيادة بريطانيا البحرية
مع وجود مثل نلسون وبينها مع عدم وجوده فما علينا إلا أن نقارن بين
ما حدث عندما سمح الأسطول البريطاني بأن يفلت الفرنسيون من



البارجة جوبن



البارجة برسلاو

قبضته إلى القاهرة
وما حدث بعد
ذلك بنحو قرن
تقريباً عند ما
سمح للألمان بأن
تفلت البارجتان
جوبن و برسلاو
إلى الاستانة. ولما

لم يكن نلسون بالشخص الذي يدع فرصة ثانية تمر دون انتهازها فقد
صمم من فوره على اقتفاء أثر الأسطول الفرنسي حيث كان رابضاً في
خليج أبي قير وهناك قضى عليه القضاء المبرم في أول أغسطس سنة



الاميرال نلسون قائد الاسطول البريطانى

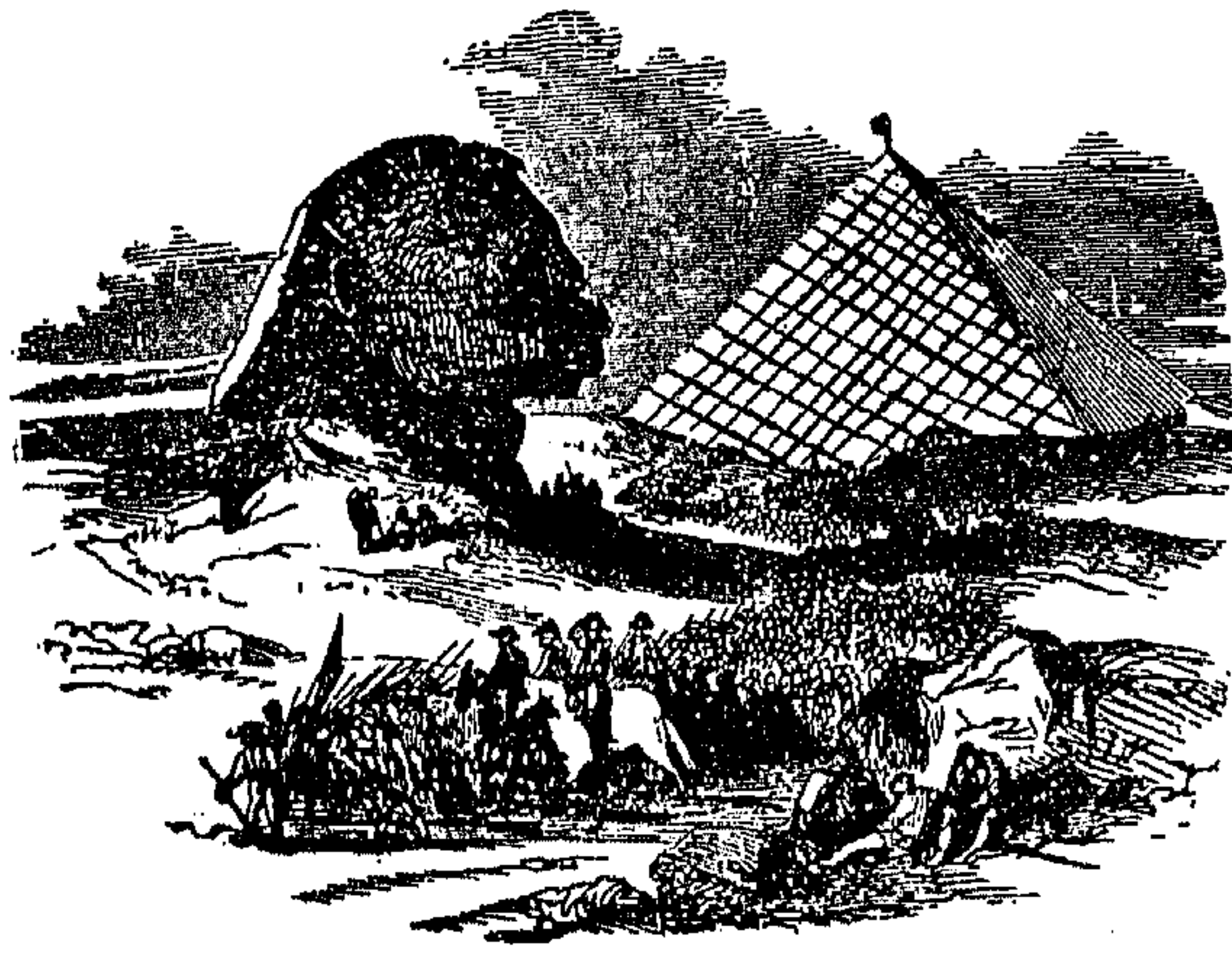
ولما أن رأى نابليون
نفسه معلقاً في «الهواء» لم يشأ
اضاعة الوقت سدى. فاحتلال
مصر عسكرياً لم يكلفه متاعب
كبيرة لأن الجيش الفرنسى
وعدده ٤٠٠٠٠ زحف
بطريق الصحراء بشكل مربع
مجوف على القاهرة وكان رسل
المدنية الحديثة المائة والاثنان



بونايرت في معركة إيلاو بالقرب من امبايه
والعشرون في قلب الجيش بينما عسكر أقطاب الاسلام القدماء في عرض
الأفق ووقفوا يرمقون العدو بنظرة الاحتقار والازدراء وأخيراً برر

أحدهم ظاناً أن عصر الفروسية ما يزال باقياً . وقد لبس عدة الحرب الكاملة المطرزة بالحرير وتقدم إلى الفرنسيين حتى صار على بضعة خطوات منهم . وهناك طلب مبارزة الكولونيل . ولكن الفرنسيين وقد أضناهم الحر والجوع والعطش — لأن البدو المجتمعين كانوا قد قطعوا عليهم طريق الاتصال بسفن المؤونة — أجابوا على طلب المبارزة باطلاق الرصاص من بنادقهم فتركوا صاحبنا نصير الفروسية مجرد سلب ملطخ بالدماء .

وما كانت معركة الاهرام التي نشبت على أثر ذلك وحاول فيها المماليك منع دخول الفرنسيين إلى القاهرة سوى تكرار لهذا الحادث ولكن على مقياس أكبر فقد اشترك



نابليون وجنوده في معركة الاهرام

فيها نحو ١٠٠٠٠ من فرسان المماليك وبضعة آلاف من مشاة الانكشاريين وعدد من المجندين المصريين . ولكن كان نصيبهم جميعاً الهزيمة ثم الغرق في مياه

النيل . هذا في حين أن خسائر الفرنسيين لم تتجاوز المائة (١)

(١) معركة ايلوا أو معركة امبابه أو معركة الاهرام تلخص فيما يلي : في يوم ٢١ يولية سنة ١٧٩٨ نزل الفرنسيون على بعد ميلين من امبابه فكان النيل عن يسارهم والاهرام وسلسلة جبال ليبيا عن يمينهم وامبابه امامهم وفيها مراد بك وجنوده وهم بدروعهم البراقة وملابسهم الزاهية . فلما رأى بونا برت حسن استعدادهم التفت الى جنوده وقال جملة المأثورة « اعلوا أن خمسين قرنا تنظر اليكم من قم هذه الاهرامات وتراقب حركاتكم تنظر ما يؤول اليه أمركم مع هؤلاء المماليك ، ثم أمر فرقة الجنرال ديزيه =

على أن بكوات المماليك لم يجيدوا الكر والفر فقط بل كثيراً ما اقتحموا



الجنرال ديزيه

مربعات ديزيه ورينيه . ولكن هذا الاستبسال كانت نتيجته الفناء الاكيد . ومنذ ذلك الحين لم يصبح لهذه الشركة الحرة القوقازية باعتبارها قوة عسكرية شأن يفوق مالفياق الباشبوزق من الالبانيين أو فصائل الانكشارية التركية . أما بصفةهم حزبا سياسيا فقد ظل المماليك محتفظين بسيطرتهم إلى أن هدمها محمد علي . وأما بصفةهم أعياناً فإن من ذريتهم من لا يزال

بين زعماء أحزاب البرلمانية إلى اليوم . وليس معنى هذا أن لهم أهمية كطبقة كلا ، بل لأنهم بعد أن انتهت طريقته الخاصة في التجنيد أخذت عملية الانحطاط والفناء تفعل فيهم فعلها بسرعة .

وما أن دخل الفرنسيون القاهرة (٢٧ يوليو سنة ١٧٩٨) حتى بادرنابليون من فوره بتأسيس جنين الامبراطورية في عاصمة الخلفاء

== بالتقدم نحو اليمين والفرق الاخرى نحو اليسار . ولكن مراد بك أدرك سر هذه المناورة فأمر أيوب بك الدفتردار باطلاق النار على ديزيه وجماعته وحملهم على الوقوف بشكل مربع . ثم هجم أيوب بك ورجاله وهو يصيح : ويل لكم أيها الكفار الملاعين قد ساقكم كبرياؤكم إلى أرضنا مهلا انا سنملا القبور باجسادكم ونجعل هذا اليوم يوما تذكروه أعقابكم من بعدكم . اما نحن فاذا مات أحدنا فانه يذهب شهيداً إلى النعيم والذي يبقى حيا فله السعادة إلى آخر أيامه . ثم التحم الجيشان بعد تقدم ميسرة الفرنسيين ودارت المعركة إلى أن تقهر المماليك وقتل أيوب بك وفر مراد بك إلى الصعيد واستولى بونايرت على امبابة .

القديمة . وقد بذلت مساع هائلة لتخفيف حدة التعصب الدينى ولتعلم المبادئ الثورية . وكان نابليون يبدأ منشوراته بالديباجة الاسلامية المألوفة . بل أنه جعل ينحو نحو الحكام المسلمين فى الكتابة (١) . وقد طرحت على بساط البحث فعلا فكرة اعتناق الحملة الفرنسية بأسرها ونابليون نفسه العقيدة الاسلامية . وكانت أول دفعة فى سبيل تنفيذ هذه الفكرة أن « مينو » وهو ثالث قواده اعتنق الاسلام فعلا وأنشأ له ضريحاً ثم بدأ بإنشاء مسجد .

(١) بعد دخول بونابرت القاهرة جمع العلماء وطلب إليهم اختيار عشرة مشايخ لتأليف ديوان منهم . فوق اختيارهم على هؤلاء المشايخ العشرة : عبد الله الشرقاوى وخليل البكرى ومصطفى الصاوى وسليمان الفيومى ومحمد المهدي الكبير وموسى السرسى ومصطفى الدمهورى واحمد العريشى ويوسف الشبرخيتى ومحمد الدواخلى . ثم اختار هؤلاء رئيساً لهم الشيخ الشرقاوى واحتفل بونابرت بافتتاح الديوان وأكرم أعضائه وأمر المصورين بأخذ صورة كل منهم على حدة . وهذه الصور ما تزال محفوظة فى معرض فرساي . وترى بعض الصور فى ص ٣٨ . وهو أول ديوان وطنى ويعتبر فاتحة السلطة النيابية الانتخابية .

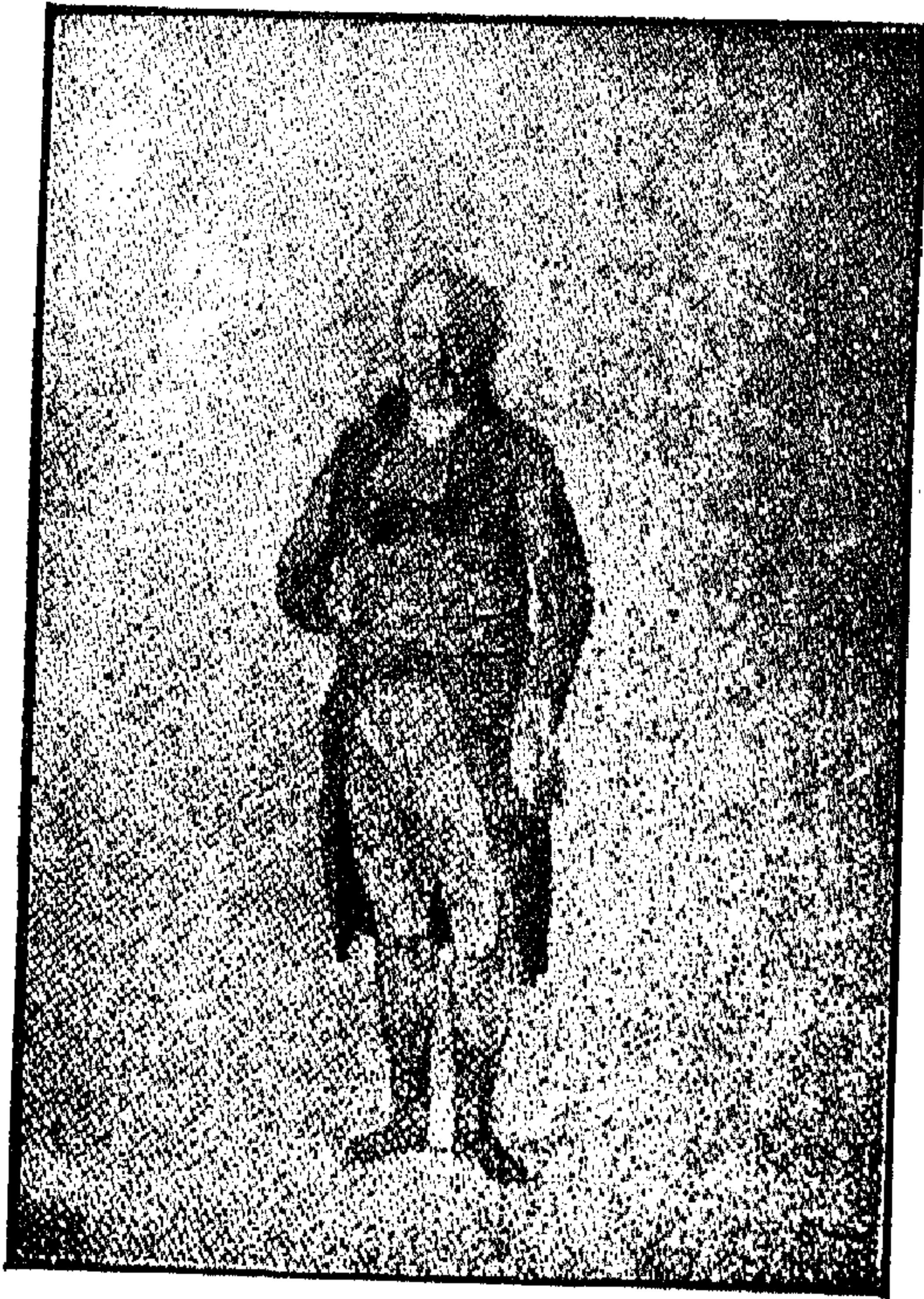
ولد الشيخ الشرقاوى الشافعى فى سنة ١١٥٠ هـ وكان من أعلم أهل عصره وكان فقيراً فى بادىء الأمر ثم اتسعت حاله واكتسب مالا عظيماً فاشترى الأبنية والقصور والحمامات الخ . وتوفى سنة ١٢٢٧ هـ

والسيد خليل البكرى من سلالة أبى بكر الصديق تولى نقابة الأشراف بمصر ومشيخة السجادة وتأييد منصبه فيها بعد مجيء بونابرت فاستولى على أوقافها . كان وافر الحرمة مقبول الشفاعة عند الفرنسيين حتى أن أمراء المماليك الهاربين كانوا يوسطونه لدى الفرنسيين فى العفو عنهم . وبعد خروج الفرنسيين عادت نقابة الأشراف إلى السيد عمر مكرم وتوفى سنة ١٢٣٢ هـ

أما الشيخ محمد المهدي الكبير فقد ولد قبلياً وأبوه اسمه ايفانيوس فضل الله . ولما ولد سمي هبة الله . كان أبوه كاتباً فى بيت سليمان كاشف فلما ترعرع هبة الله أعجب به الكاشف وأراد جعله من مماليكه ولم تكن نزعته عسكرية فأدخله الأزهر وهنا اعتنق الاسلام وسمي محمد المهدي وكان زكياً وما زال يرتقى حتى صار من كبار العلماء ثم أصبح من أهل الثراء حتى جاء الفرنسيون فأصبح صاحب الحظوة عندهم حتى لقبوه بكاتم السر .



الديوان الخصوصي وهو أول مجلس شورى وطني في مصر أنشأه نابليون سنة ١٧٩٨



وكانت ألقاب الشرف
توزع بالتساوي في كافة
الاحتفالات والأعياد
الرسمية . وكانما أراد
الفرنسيون أن يسبقوا
شيوعي روسيا فلقبوا
أنفسهم بمحرري مصر
من نير الأجنبي سواء
الماليك الشرا كسة
أم الباشوات الاتراك .
وانتحلوا لأنفسهم
الفضل في القضاء على
أعداء الاسلام القدماء

الجنرال مينو أو الحاج عبد الله مينو
وهم على التوالي البابا وفرسان مالطة . ثم أنهم أسموا أنفسهم رسل الحضارة



الشيخ خليل البكري



الشيخ عبد الله الشرقاوي

الأوربية وقد بدأ المصرولوجيون
والاخصائيون أعمالهم فأسسوا معهد
مصر على طراز معهد فرنسا ووضعت
التصميمات فعلا لشق قناة عبر برزخ
السويس وأعيد تنظيم الإدارة.
وسرعان ما بدأ العمل بالنظام المالي
الاسلامي تحت اشراف الفرنسيين
بكفاءة كانت راجحة أكثر مما كانت
محبوبة من الشعب.



الشيخ محمد المهدي

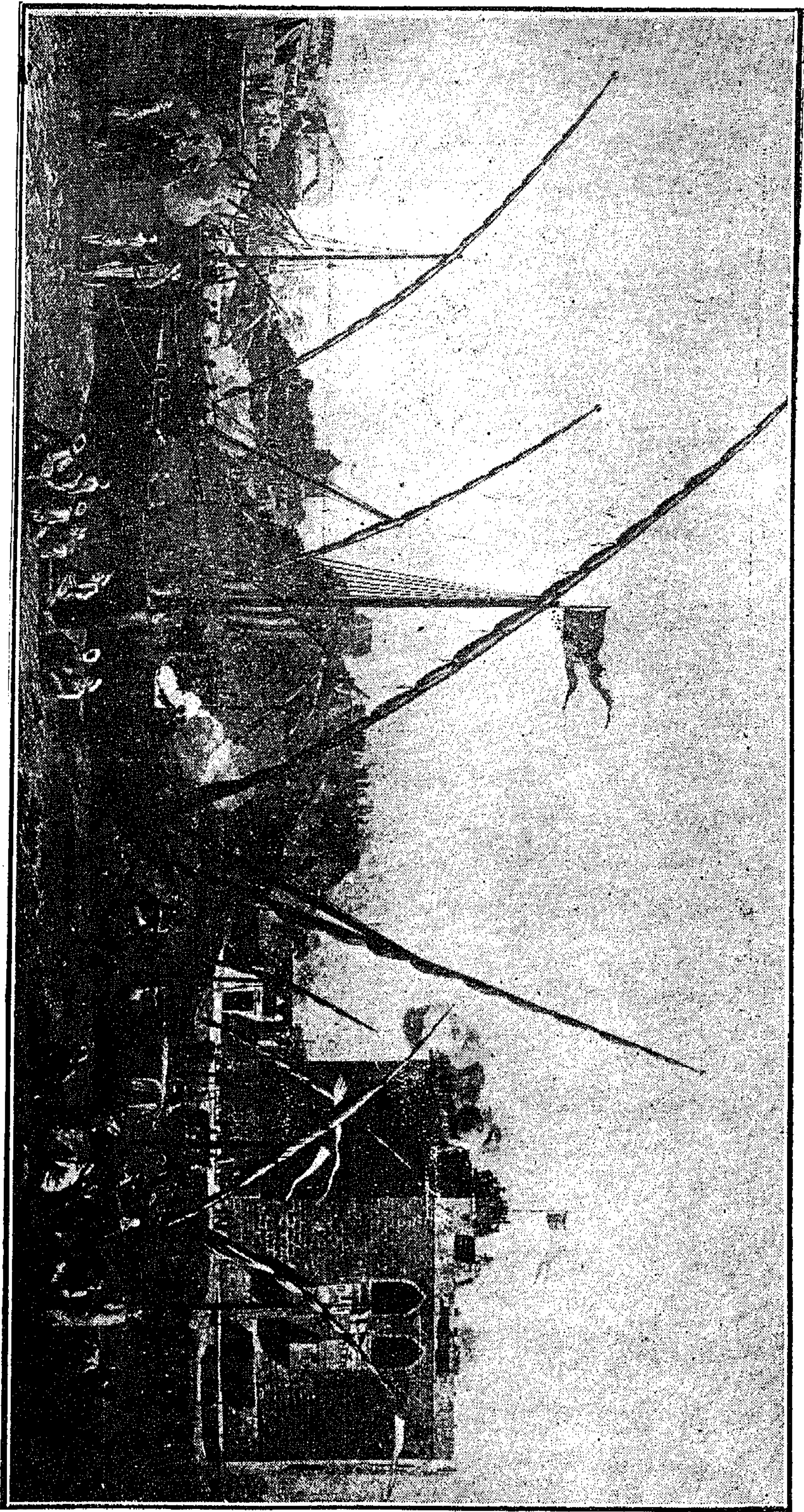
أما الثورة التي لم يكن مناص منها فان كفاءة النظام المالي قد عجلت
بنشوبها بقدر ما عجزت الدعاية الاسلامية عن منعها طويلا. وكان الشعور
الوطني في مصر إلى ذلك الحين موجودا فعلا، ولكنه اتخذ شكل نفور
سلي من تلك الإدارة الغير مصرية التي هيمن عليها أجنب كفار. وسرعان



مراد بك

ما تبين للفرنسيين بعد وقوع
فتنة القاهرة (٢١ أكتوبر
سنة ١٧٩٨) (١) أنهم لم
يفتحوا مصر بعد بالرغم من
أنهم قضوا على مستعبدتها .
وعلى أن هذه الفتنة قد قمعها
«جينو» بشدة أوقعت الرعب
في كل من كانت تحدته نفسه
بالاقدام على مثلها . وقد كتب
نابليون بهذه المناسبة إلى «مينو»
(٣١ يوليو سنة ١٧٩٨)

(١) هذه الثورة من الأهمية بحيث ينبغي ذكر قصتها هنا . وتتلخص في أنه في يوم
٢١ أكتوبر سنة ١٧٩٨ جاء إلى الشيخ البكري جمع كبير من أولاد الكتاتيب والفقهاء
والعميان والمؤذنين وارباب الوظائف والمستحقين من خدمة الأوقاف وغيرهم وشكوا
من قطع مرتباتهم وخبزهم لأن الأوقاف تعطل إيرادها واستولى على نظارتها غير المسلمين .
فوعدهم بالمساعدة على نيل حقوقهم إن قدموا شكواهم إلى الديوان . واجتمع
المشايخ في الأزهر في اليوم التالي وأرسلوا القراء يطوفون الأسواق ويقولون فليذهب
كل من يوحد الله إلى الجامع الأزهر هذا يوم الجهاد في محاربة الكفار وأخذ الثار
فاحتشدت الجماهير أمام الجامع الأزهر ويمموا شطر بيت القاضي وبدأت أعمال النهب
والتخريب . فذهب الجنرال ديوى قائم مقام القاهرة يستطلع الخبر فرماه بعضهم من
الثوابد بحربة كانت القاضية على حياته . وتفاقت الحالة والفرنسيون لا يستطيعون
دخول المدينة إلى أن ركب نابليون في مقدمتهم وتوجه شطر الأزهر وطلب من
العلماء وقف الرعاع عن التجمهر . ولكنهم لم يصدعوا لأمره وكان قد بلغه نبأ عزم
بعض العربان على دخول القاهرة . فأرسل إلى العلماء أحد أركان حربه ولكن الثائرين قتلوه .
وفي تلك الاثناء وصل كليبر من الاسكندرية بجيشه . فهجم الفرنسيون وأطلقوا في الساعة
الثالثة بعد الظهر مدافعهم على خط الأزهر وظلت القنابل تتساقط إلى المساء . فأجمع رأي =



حفلة فتح الخليج في يوم ١٣ مسرى أيام بو نابر ت. وقد اشترك فيها نابليون مراعاة للعادات الوطنية. وكان الخليج نهرًا يصل ما بين النيل والبحر الأحمر
فكانت السفن في البحر المتوسط تصمد إلى النيل ثم تدخل الخليج ومنه إلى البحر الأحمر

يقول انى أطيح خمس أو ست رؤوس يومياً فى شوارع القاهرة . ولا ريب



نابوليون بوناپرت بلباسه الشرقى

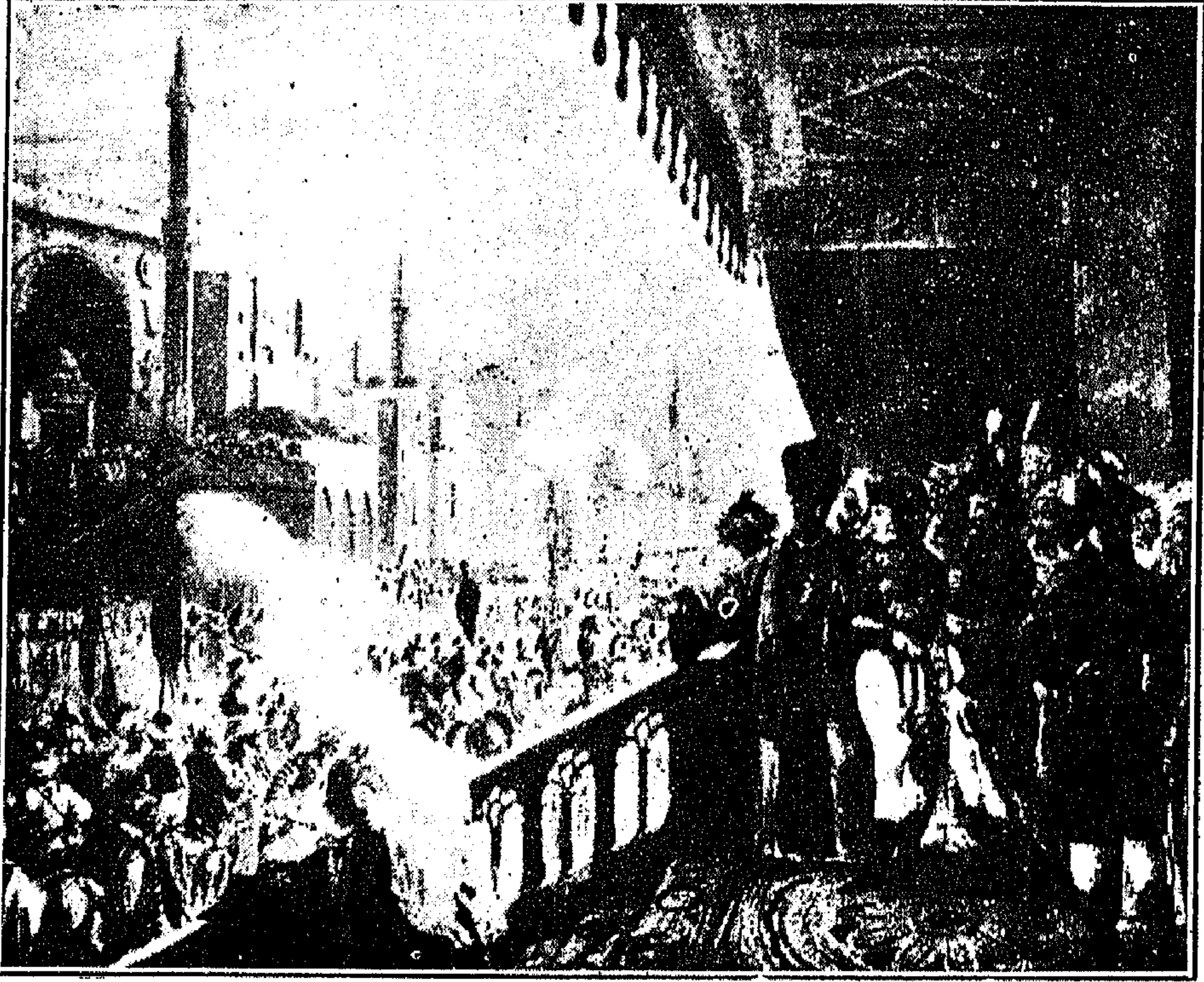
فى أن هذه الفتنة كانت من أشد ما عاناه الفرنسيون منذ هبوطهم أرض مصر . أما فى حصار الأزهر — مركز الثقافة الإسلامية — فان خسارة المصريين بلغت من الفداحة ما بلغت خسارة المهاليك فى موقعة الأهرام .

== المشايخ على التسليم وذهبوا إلى نابليون يستعطفونه فعفا عنهم بعد أن وبخهم أشد توخيخ . ثم دخلت فرسان الفرنسيين إلى صحن الجامع الأزهر وكسروا قناديله ومحووا ما على جدرانها من الآيات القرآنية . وفى يوم الثلاثاء ٢٤ أكتوبر خرج الناس للصلاة فاذا بالخييل تهاجمهم . وفى صباح الأربعاء بعث المشايخ يطلبون من بوناپرت اخراج الخييل من الجامع فرفض طلبهم الا اذا جاؤوه بزعماء الثورة . ثم جعل يقتص من كل من تقع عليه الشبهة رجالا ونساء حتى قتل من المشايخ ١٢ دفعة واحدة ووضع جثثهم فى أكياس ألقاها فى النيل وصمم على اتباع الصرامة مع المصريين ومنع المشايخ من المباحثة فى الديوان وحصر عملهم فى بث المنشورات بين الشعب لتهدئة ثأثرته .

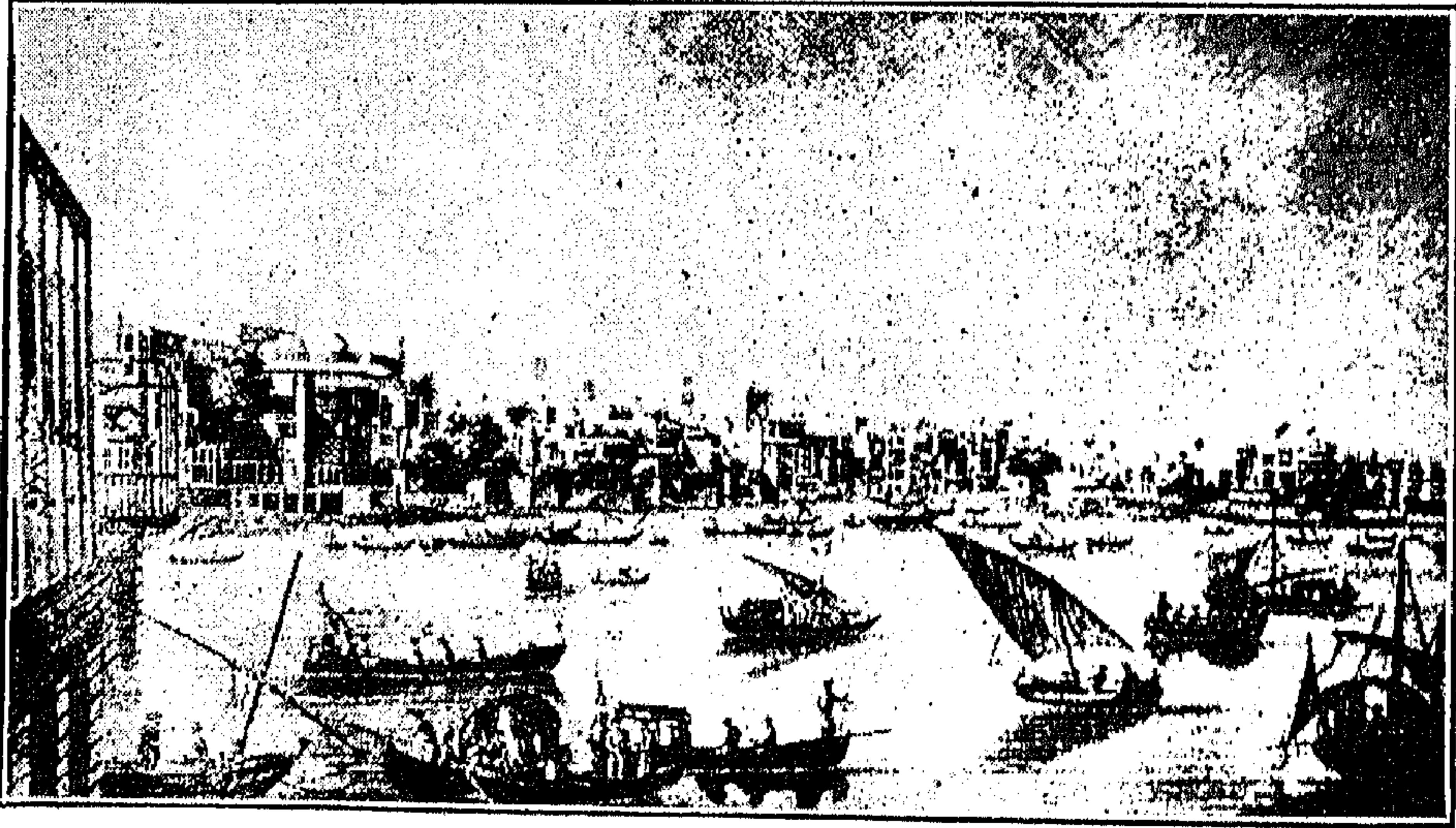
وهكذا تبين لأول مرة ان المصريين يقاتلون من أجل غاية وطنية ظلت منذ ذلك الحين حجر الزاوية في حركتهم القومية .
أجل أن مصر قد خضعت فيما بعد ، ولكن كان لا يزال على نابليون أن يحسب حساب الامبراطوريتين البريطانية والعثمانية . نعم كان في وسعه التغلب على كل منهما بمفردها ، أما وقد تألبتا عليه فقد كانتا فوق طاقته على التحقيق . ولم تجد السياسة البريطانية — وهي التي عرفت بالجنوح دائماً إلى التقلب مع الدول الأخرى دون أن تعنى عناية خاصة



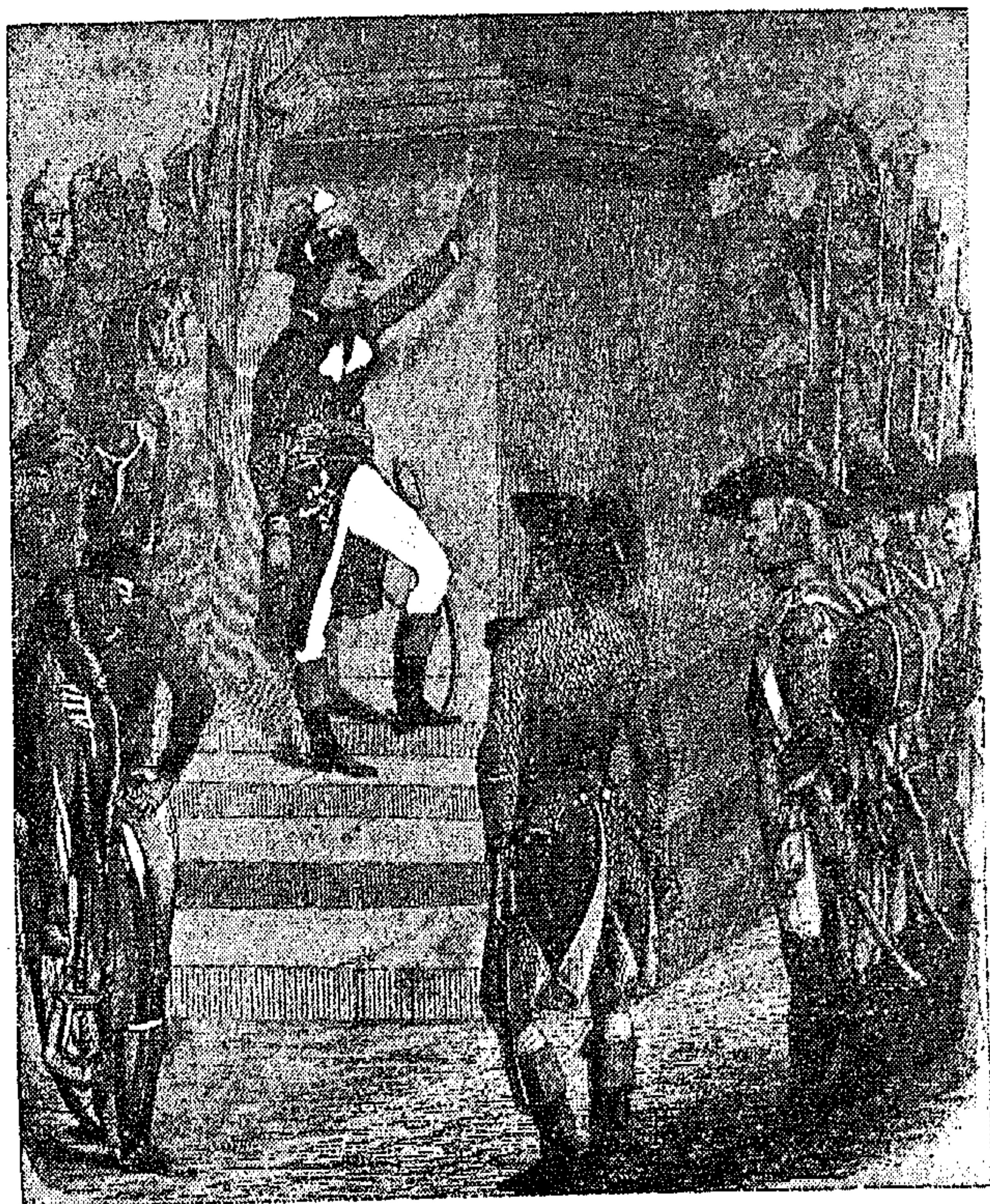
نابليون وحاشيته يحتفلون بمولد النبي وكان المشايخ قرروا عدم اقامة الاحتفال لعدم وجود المال فأعطاهم نابليون ٣٠٠ ريال وأمر باقامة الاحتفال كالمعتاد واشترك فيه الجنود الفرنسيون وأحرقوا الصواريخ أمام دار البكري والذي قلد في ذلك اليوم فروة وتقلد نقابة الاشراف باختيار حلفائها — أية صعوبة في أثارة نخوة الأتراك وتحريضهم



بونابرت يحضر حفلة وفاء النيل



بركة حديقة الازبكية من جهة الجنوب قبل تجفيفها وهي من بعض الاصلاحات التي عنى بها الفرنسيون



نابوليون يحتفل بعيد الجمهورية في القاهرة

على استرجاع أخصب ولاية في امبراطوريتهم في (سبتمبر سنة ١٧٩٨).
وإذ خيل إلى نابليون أنه سوف يقاتل الأتراك وخدمهم شرع من فوره
في غزو سوريا (مارس سنة ١٨٠٩) والزحف على الأستانة . وفي يافا
قتل أحد الجنود الفرنسيين من حاملي الراية البيضاء فذبح ألف من
الأسرى الأتراك انتقاماً لهذا العمل مما صبغ الحملة الفرنسية بوحشية
كانت على التحقيق سبباً في هزيمة الفرنسيين في نهاية الأمر . ثم اجتاحت
يافا ولكنها انتظمت من الجيش الفرنسي بتفشي الطاعون بين صفوفه (١) .

(١) تتلخص قصة قتل حامية يافا في أن بونا برت عند ما وصل المدينة أمر بمهاجمتها
في ٤ مارس سنة ١٧٩٩ وكانت حاميتها أخلاطاً من الأتراك والمغاربة والأرناطة
والأكراد. فلما اخترقوا أسوارها تبعوا حاميتها إلى أن أعلن الأرناطة ومنهم تتألف أغلبية



الشيخ السادات *

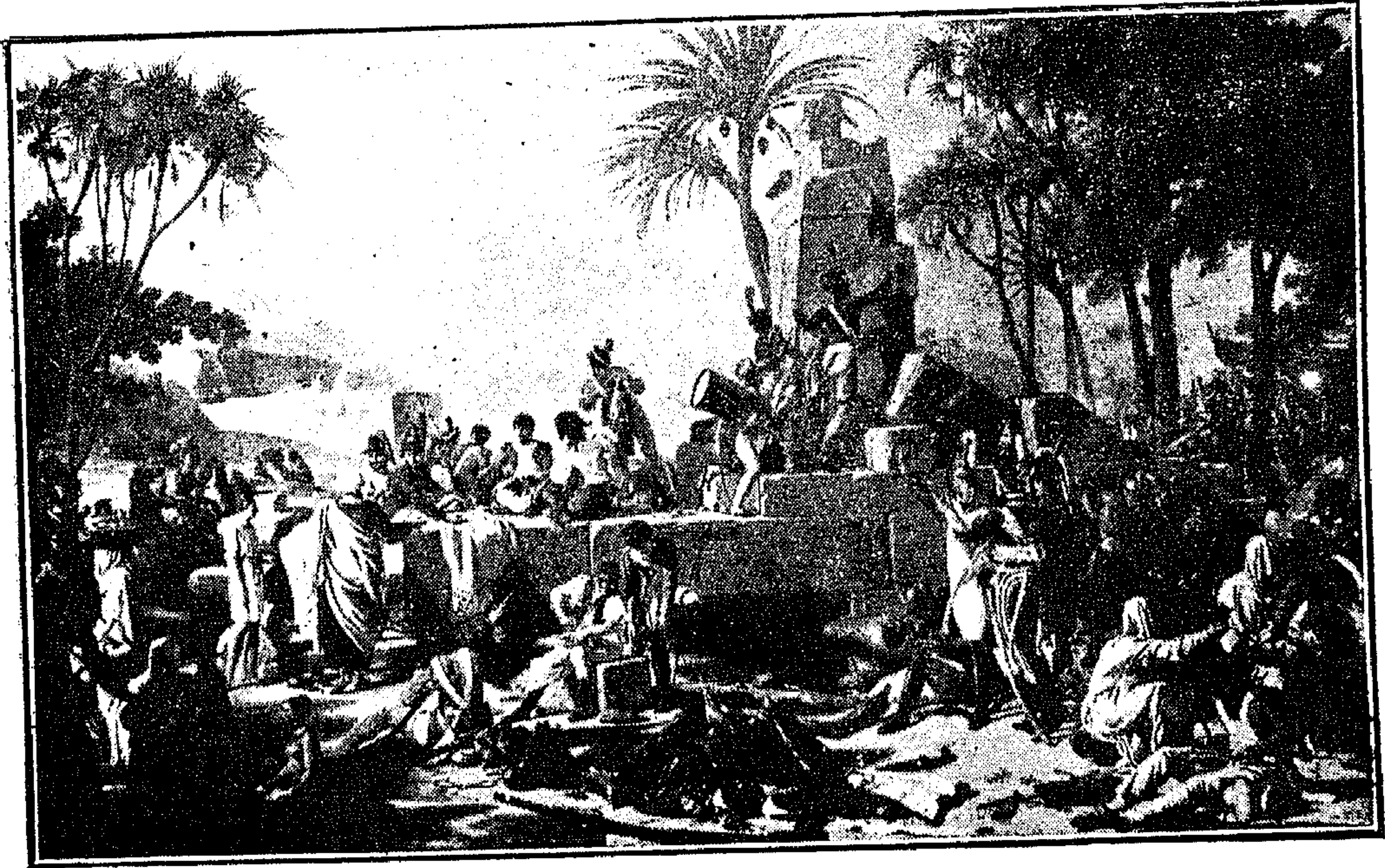
وبدا الهجوم على عكا حيث
كان يقيم أحد المماليك المدعو
« أحمد الجزار » وهو رجل طالما عاث
في البلاد السورية فسادا . وهنا
تدخلت في الأمر قوة بريطانية
البحرية بوصول عمارة السير سدني
سميث التي كانت تحاصر الاسكندرية .
فان « الجزار » بعد أن كادت
موارده أن تنضب قد زود بالمؤن

الحامية ، نحن نسلم لكم أنفسنا إذا أمتعنوا على حياتنا ، فوعدهم أركان حرب بونا برت
بهذا . فاستسلموا فقادهم موثقين وعددهم ٤٠٠٠ حتى أتى بهم المعسكر الفرنسي . فلما
رآهم بونا برت قال للقادم « ماهذه الجماهير ؟ » قال « هي حامية المدينة قد سلمت وجئنا
بهم إليك » قال « ماذا تريدون أن أفعل بهذا العدد أعتدكم زاد يكفيهم أو مراكب
تنقلهم إلى مصر أو فرنسا وإذا أرسلناهم في البر فمن يتولى خفارتهم ؟ »

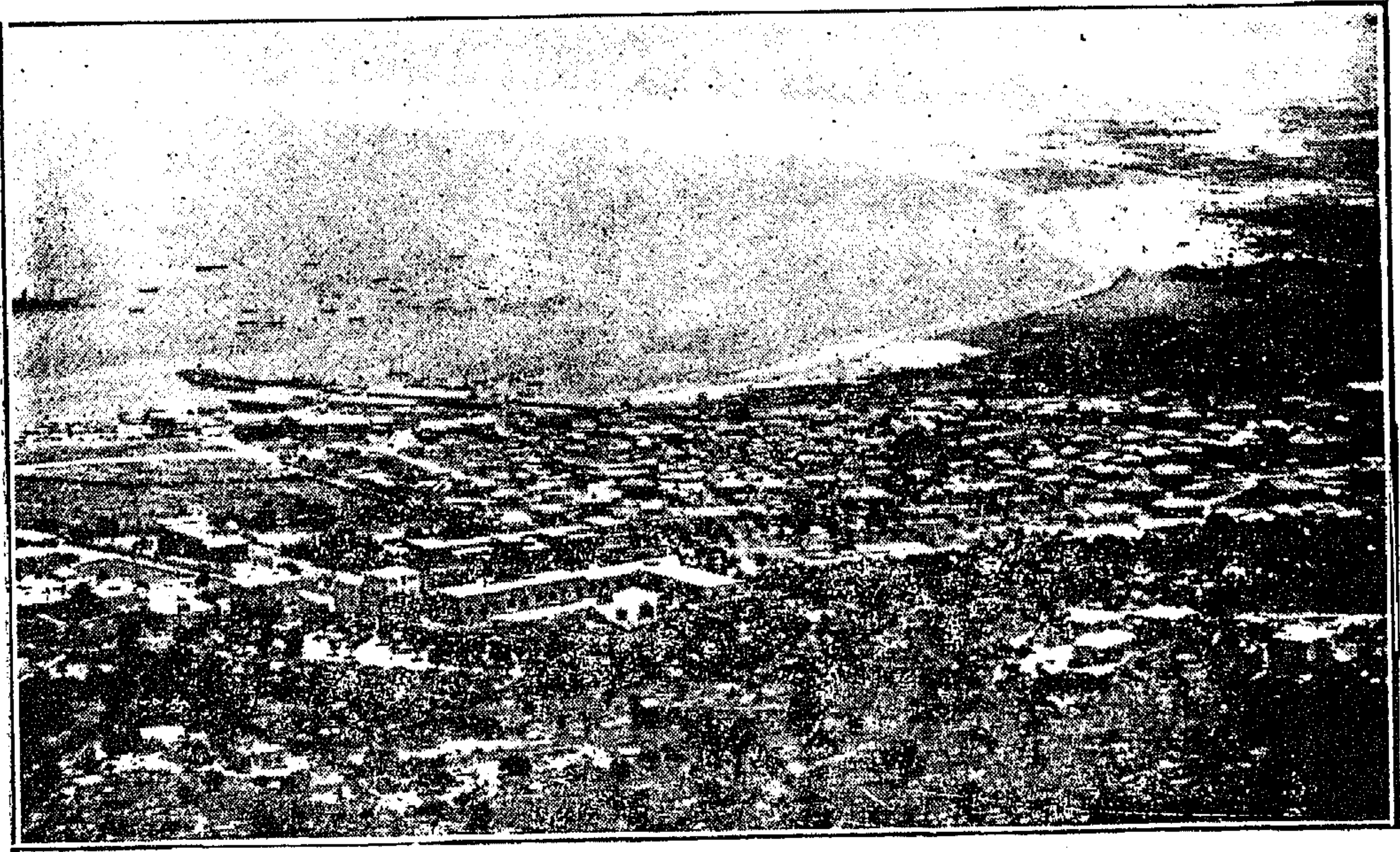
فأجابه قائلاً « إنا قبلنا تسليمهم حقناً للدماء » فقال بونا برت « نعم يجب أن تفعلوا
ذلك ولكن مع الأطفال والنساء والشيوخ وليس مع مثل هذا القدر من الرجال الأشداء
المجندين » . ثم أمرهم بالجلوس مكتوفي الأيدي أمام المعسكر . وفي اليوم التالي فرقوا
عليهم شيئاً من البقسماط الجاف والماء .

وعقد نابليون مجلساً في خيمته للتفكير في أمر الأسرى وبعد عدة جلسات وكثير
من التردد قرر إعدامهم جميعاً . وفي ١٠ مارس سنة ١٧٩٩ خرجوا بهم بعد الظهر إلى
الصحراء خارج يافا وقسموهم فرقا وأطلقوا عليهم الرصاص فقتلوا جميعاً . فلما بلغت
هذه الفعلة مسامع « الجزار » في عكا صمم على الاستبسال في القتال خوفاً من أن يصبه
مثل ما أصاب أهل يافا .

« في سنة ١١٩٩ هـ جاء الجيش التركي وهزم المماليك فجمع القائد التركي قبطان باشا
أمتعتهم ونساءهم وعرضهم للبيع في قصر العيني . وهنا تصدى له الشيخ السادات فذعه من بيع
النساء قائلاً : « قد أرسلت اليك المعاقبة ابراهيم بك ومراد بك وليس لهلك شرائعنا والطعن في
عادتنا فاستثنى قبطان باشا المحظيات الحوامل من البيع . ولما جاء نابليون مصر استدعى
الأعيان ومنهم الشيخ السادات فأهداه خاتماً من الماس .



جيش ديزيه يصل الى أسوان متعقبا جنود مراد بك وهو آخر ما وصل اليه الفرنسيون في الصعيد



حيفا وخليج عكا

وأرسلت اليه النجدات والضباط الذين شرعوا في تنظيم خطط الدفاع . وفي الوقت نفسه اجتاز جيش تركي نهر الأردن وأخذ يهدد مؤخرة الفرنسيين . فكر عليه نابليون بمساعدة قائديه كبير وجينو وهزمه في موقعة جبل كابور واستولى بعد ذلك عنوة على أسوار عكا (ابريل سنة ١٧٩٩) (١) .

ولكن عكا كانت آخر ما وصل اليه نابليون في سبيل إنشاء إمبراطوريته الشرقية لأنها (عكا) رأت أن لا مخلص لها من الكارثة التي حلت بيافا من قبل إلا بالمقاومة العنيفة . وقد استبسل الأهالي في القتال حتى طردوا الفرنسيين من داخل المدينة بعدما أضناهم قتال الشوارع . وإذا فشلت الهجمة الرابعة عشر رفع الفرنسيون الحصار بعد أن فتك فيهم الطاعون شرفتك وأصبحوا مهتدين بجيش تركي جديد . ولم يكن الفشل وحده نصيب نابليون بل خدشت سمعته أيضاً لأن حنقه الشديد على الانجليز دفعه إلى

(١) بعد أن قتل نابليون حامية يافا قصد إلى عكا حيث كانت قد تحصنت تحصيناً منيعاً بهمة واليها أحمد باشا الجزائر وهو الرجل الوحيد الذي كان يعتمد عليه الباب العالي في سوريا . ثم أمر بونابرت بتسيير الجنود إلى المدينة . وكانت عمارة السيرسدي سميت قد زادت الجزائر تمسكا بالدفاع . وفي ٢٠ مارس سنة ١٧٩٩ بدأ القتال واستبسل الجزائر واستنجد بقوات صيدا ودمشق وحلب بينما كانت المدرعات الانجليزية تشد أزره .

و ضرب بونابرت الحصار على عكا وأرسل بعض جنوده إلى صفد وصور وطبريا وغيرها فعادوا بالخيرات والمؤونة . ثم وصلت المدرعات الفرنسية من اسكندرية ومعها المؤن . وفي يوم ٩ مايو وهو اليوم الخمسون للحصار هجم الفرنسيون هجوماً عاماً ولكن الحامية بمساعدة العهارة الانجليزية والنجدة التركية بقيادة حسين بك ، صدت هجومهم هذا وهجوم اليوم التالي . فيئس بونابرت من فشله هذا وخرجت عليه المدن السورية الأخرى وانضمت إلى الباب العالي . ووزع السر سميت منشورات على مشايخ لبنان يستفزهم فيها ضد بونابرت مما حملهم على الكف عن توريد البارود والخبز للفرنسيين . وهنا قرر نابليون العودة إلى مصر وهو يسحب ذبول الانكسار .

رفض اقتراح سدنى سميث بترحيل الجرحي الفرنسيين وعددهم ١٢٠٠٠ وأن يؤثر تركهم تحت رحمة الأتراك الذين أفنوهم على بكرة أيهم . على أن قائديه « لان » و « مورات » ما عتبا أن أنقذاه مرة أخرى بانتصار باهر أحرزاه في جهة أبى قير (١٤ يوليو سنة ١٧٩٩) بجيشهما البالغ عدده ٦٠٠٠ ضد جيش الانكشاريين وكان يبلغ ١٨٠٠٠



معركة أبو قير ٢٥ يونيه سنة ١٧٩٩

وبعد استيعاب الصحف التي حرص الانجليز على ارسالها إليه بمهارة سياسية قرر نابليون العودة إلى فرنسا . وفعلا أقلع إليها في ٢٢ أغسطس سنة ١٧٩٩ بصحبة معظم تواده تاركا زمام الأمور لكبير^(١) . ولكن مصر

(١) بعد عودة بوناپرت من حصار عكا تسلم رسائل عديدة من فرنسا باضطراب الحالة فيها والحاح من مجلس الديركتوار بعودته حالا الى باريس . فكتم بوناپرت الامر عن رجاله ما عدا الاميرال غانتوم الذي كلفه باعداد بارجتين لنقله . ولكيما لا يشتبه المصريون في الامر عاد الى القاهرة في موكب الظافرين نخرج الاعيان الى لقائه تصحبهم الموسيقي . وبعد قليل نزل الى الاسكندرية متظاهراً برغبة التجول في الوجه البحرى ثم كتب =

وامبراطورية الشرق ظلت إلى آخر أيامه متسلطة على عقله وكثيراً ما علقت



الجنرال كليبر

أحلامه بحراس الممالك
وبالجياذ العربية والدسائس
الشرقية كما أنه كان بعد ذلك
يقرب إليه كل من اشترك
معه في الحملة المصرية (١)

وكانت عكا هي خاتمة
المشروع المصري من حيث
علاقتة بأوروبا. ولعلها كانت
أيضا خاتمة في مصر لو لم
ترفض الحكومة البريطانية
إبرام اتفاقية العريش (٢٤)

إلى كليبر واليه على الغربية يوليه القيادة العامة على مصر وبين له وجوب المحافظة على
الاحتلال خيفة أن تأتي دولة أخرى فتختطف ما جنته فرنسا من الثمار ووعدته بارسال
نجدة إليه من فرنسا وأسر إليه بالسبب الذي دعاه إلى ترك مصر بهذه السرعة وكتب
إلى جنوده يأمرهم بالطاعة كليبر وأوهمهم بأنه سيعود من فرنسا بعد ثلاثة أشهر .
ثم عهد بقيادة الاسكندرية إلى الجنرال مينو . وفي ٢٢ أغسطس سنة ١٧٩٩ قرر السفر
من الاسكندرية فركب جواده وسار بهم . معه إلى جهة العجمي فنزل هو ورجاله
إلى البارجتين حوالي الساعة العاشرة مساءً فاقلعتا بهم في صبيحة اليوم التالي عائدين إلى
فرنسا .

(١) للوقوف على ما خطر بعد ذلك من الاحلام الخاصة بالفتوحات الشرقية راجع
كتاب فاندال المسمى « نابليون واسكندر الاول » المجلد الاول باريس سنة ١٨٩١ وكتاب
دريو المسمى « سياسة نابليون الشرقية » باريس سنة ١٩٠٤ وكتاب رولوف المسمى « سياسة
نابليون الاول الشرقية » ويمار سنة ١٩١٦ .

يناير سنة ١٨٠٠) التي وضعها سيدنى سميت ونص فيها على ترحيل الجيوش الفرنسية في السفن التركية . فأدى هذا الرفض إلى إطالة أجل الاحتلال الفرنسي مدة أخرى . وفي هليو بوليس (٢٠ مارس سنة ١٨٠٠) هزم ١٠٠٠٠ جندي فرنسي نحو ٨٠٠٠٠ جندي تركي ونشبت في القاهرة بعد ذلك فتنة أخرى اخمدت بعد حصار أسابيع بشدة مصحوبة بهدر دماء غزيرة، ولعل ثورة مصر وقتئذ كانت تدل على ما في نفوس الأهلين من حرارة . وكأشياء المقادير أن تحدث في ذلك الحين مأس كالتى حدثت بعد ذلك بقرن كامل إذ أن أحد الطلبة الأزهريين اغتال كبير ذلك الجندي الصلب الرأى الشديد الوطأة . وأخيراً أعادت السلطة والأدارة الفرنسية الأمور إلى مجاريها واستأنف المصريون من عاشوا بعد الفتنة أعمال التبويب وجمع الآثار^(١) . وقد ولى الأمر مينو

(١) لما كانت الحوادث التي انتهت بانسحاب الفرنسيين من مصر وما تلا ذلك من ظهور محمد على باشا الكبير على جانب عظيم من الأهمية رأينا أن نجمل ما ذكره عنها صاحب كتاب « تاريخ مصر الحديث » في مايلي « المغرب »

بعد انسحاب بونابرت من مصر

كان بونابرت يرمى بحملته على مصر أن تأخذ شكل احتلال دائم . ولكن كبير كان على عكس هذا الرأى تماما ولذا لم يتردد بعد سفر نابليون في أن يصارح ولاية الامور في فرنسا بجملة الأمور فكان مما قاله « إن أعداء فرنسا في مصر لا يقتصرون على الممالك بل قد انضمت اليهم تركيا وانجلترا وروسيا هذا بينا القوات الفرنسية هبطت الى نصف ما كانت عليه وهم متفرقون في أنحاء البلاد تنقصهم المعدات والملابس هذا فضلا عن خسارة ١٢ مليون فرنك بسبب تضمين الضرائب غير الاعتيادية بأمر بونابرت . ولئن كان الممالك قد تشتتوا فلا ينبغي اغفالهم من الحساب كلية لان مراد بك ما يزال في الصعيد مع قوة كبيرة ، هذا بينا الصدر الاعظم يسير لمحاربتنا في حملة عظيمة . وقد غادر دمشق الى عكا . ثم ان حصوننا ضعيفة وفضل ما أراه مخابزة الباب العالي لعلنا نصل الى وفاق فيه خير لنا . وقد علمت أن عمارة عثمانية رست . أمام دمياط » .

وانصرف كبير الى الاصلاحات برغم انه كان يستصوب الانسحاب من مصر =

المسلم فجعل باكورة أعماله وضع نظام يتضمن المصالحة والتساهل مع

نهايا . وكانت تركيا قد أرسلت صدرها الاعظم يوسف باشا في جيش كبير وحشدت في الوقت نفسه عمارة لمرافقة عمارة السير سدني سميث بحرا . فرست العمارة العثمانية في دمياط وأخرجها الفرنسيون منها .

ولما قدم يوسف باشا الى يافا بدأ بمفاوضة كليبر فأسفرت المفاوضات عن اتفاقية الغريش ٣ ديسمبر سنة ١٧٩٩ ولكن الاتراك عبثوا بها في ٢٣ ديسمبر ودخلوا العريش مما جعل كليبر يعنف السير سميث على هذا العمل .

اتفاقية العريش الاولى

ثم عقد مؤتمر ثان في العريش في ٢٤ يناير وأسفر عن معاهدة العريش وتقضى بانسحاب الفرنسيين بمؤنهم وذخائرهم عن طريق رشيد والاسكندرية وأبي قير ففرنسا . ولشد ما كان ابتهاج كليبر والفرنسيين بهذه الاتفاقية كما ابتهج بها الشعب والمماليك وكان من أثرها أن المماليك المعسكرين في أقاصى الصعيد عادوا بأسرهم وذرائعهم الى القاهرة بينما الصدر الاعظم كان يسير قاصدا العاصمة . فلما وصل الى بلبليس خرج العلماء والمشايخ باذن كليبر لملاقاته وتقديم فرائض الطاعة لجلالة السلطان .

نقض الاتفاقية

وبينما كان كليبر وجنوده يعدون للرحيل من مصر اذا بالسير سدني سميث يبعث إليه كتابا يتضمن نقض الاتفاقية بناء على أمر تركيا ومطالبة الفرنسيين بتسليم أنفسهم وسلاحهم كما يفعل أسرى الحرب مع التخلي عن كل ما لهم من المراكب والمؤن في الاسكندرية . فاستشاط كليبر غضبا وأعد العدة لاستئناف الكفاح واتهم الانجليز بنقض الاتفاقية وطلب الى جنوده الاستبسال في القتال قائلا لهم - كما يرى في الصورة المنشورة في صفحة ٥٣ - « لستم تملكون في مصر الا بقعة الارض التي تقفون عليها فان تقهقرتم خطوة واحدة حق عليكم الفناء . »

ثم اصطدم بجنود الصدر الاعظم وقهقرهم الى الصالحية هذا بينما ناصيف باشا قائد جيش الصدر الاعظم تمكن من دخول القاهرة هو وبعض المماليك فاستثاروا الاهالي وحدثت مذبححة . وتمكن كليبر بعد عودته الى القاهرة من تسكين الحالة بعد معارك شديدة اختفى في أثناءها ناصيف باشا . وأمر كليبر أن ينادى في الناس : وما النصر الا من عند الله وهو سبحانه وتعالى قد أمر الظافرين بالصبر . وعليه فان الصاري عسكر يعفو عن أهل القاهرة وسائر البلاد المصرية عموميا ولو اتحدوا مع الاتراك فليرجع كل الى شأنه .

الشعب . ولكن هذا الرجل النابه البدين ما كان ليحتمل أن ينجح برغم شقيقته المصطنعة أكثر مما نجح من جاء بعدهم بقرن كامل من الأحرار

== ولما كف الناس عن القتال أمر كليبر بتنظيف الاسواق ورفع جثث القتلى من الطرق العامة والحارات وانارة المدينة ثلاثة أيام احتفالاً بالنصر وأعد للعلماء والمشايخ وليلة نعمة . وجعل يعنفهم على خيانتهم فأجابه الشيخ المهدي : « اننا لم نأت خيانة وما كان اتحادنا مع الاتراك الا بأمر منك . »

ولما علم مراد بك بانتصار الفرنسيين جاء الى ضواحي القاهرة للانضمام اليهم ومالبت أن اجتمع بكليبر وتعاهدا على الاتحاد وتهاديا الهدايا الفاخرة وكافأه كليبر على صداقته بأن عينه واليا على مصر العليا .

مصرع كليبر

ولما اطمان بال كليبر من ناحية مصر وخاصة بعد اتحاده مع المماليك انصرف من جديد الى أعمال الاصلاح . وفي ١٤ يونيه سنة ١٨٠٠ دعاه أركان حربه الجنرال داماس الى تناول الغداء في داره بأول شارع بولاق قرب الازبكية . وبعد الغداء خرج كليبر مع مهندس الحملة المسيو بروتين يتمشيان في الرواق الممتد من بيت الجنرال الى ديوان الجيش . وبينما هما يتحادثان فاجأهما من آخر الرواق رجل في ثياب خلقة شاهر اخنجره ، فطعن كليبر في صدره فصرخ مناديا الحرس . وما كاد يهجم عليه بروتين حتى طعنه كما طعن كليبر . حتى اذا سقط المهندس الى الارض عاد الرجل الى كليبر فطعنه مرتين حتى أجهز عليه . ولما سمع ضجيج الحرس اختبأ خلف الحائط ثم اختفى . ولم يجد الحرس الا هذين الرجلين يتخبطان في دمهما فعادوا بهما الى الدار ولكن كليبر فاضت روحه في الحال . أما المهندس فقد ظل أياما تحت العلاج .

وانطلق المنادون في المدينة ينادون بالقبض على القاتل ومالبت أن قبض عليه فعرض على المهندس بروتين فتعرف عليه .

ولما أخذت أقواله اعترف بأن اسمه سليمان الحلبي وقد التقى به أحد الانكشارية في القدس وكان قد ذهب اليها للبحث عن رجل يقتل كليبر . فطاوعه سليمان على تنفيذ رغبته في مقابل أعفاء أبيه من الضرائب الفادحة التي يتقاضاها منه والى الولاية . فجاء به الى غزة وزوده بكتاب توصية من أغا غزة الى علماء الازهر . ثم برح سليمان غزة في ٨ مايو ووصل الى القاهرة في ١٤ منه ونزل في بيت مصطفى أفندي ليلة . ولما تمشى بعض العلماء وقاتحهم في الامر أبوا مشاركته في الجريمة ولكنه ظل يتربص بكليبر =

البريطانيين في أمثال هذه المداعبات . وفي الواقع يوجد تشابه غريب بين



الجنرال كبير يخطب في جنوده ويستحثهم على القتال
تجارب الفرنسيين في حقبة الحرب هذه وبين تجاربنا فيما واجهنا من
الكوارث في خلال الحرب العالمية بحيث يصعب على الإنسان ألا يصدق

== الى أن سنحت الفرصة المؤاتية . ثم عين الجنرال مينو لفحص القضية وصدر الحكم
باعدام ثلاثة من المشايخ لتقصيرهم في التبليغ عن نية القاتل بعد معرفتها . أما سليمان
نفسه فقد حكم عليه بالاعدام على الخازوق وكان اعدامه هو والمشايخ الثلاثة بعد دفن
القائد كبير .

من مقتل كبير الى انسحاب الحملة الفرنسية
|| وعين الجنرال عبد الله مينو قائدا عاما بدلا من كبير وولد له غلام اسمه سليمان ==



سليمان الخلى قاتل كبير

أنه وجد في مصر منذ قرن
روح وطني يقظ بالرغم من
أنه لم يتجل بشكل معين .

وسرعات ما انتهت
التجربة الفرنسية بانزال تجريدة
انجليزية بقيادة أبر كرومبي في
الاسكندرية قوامها ١٦٠٠٠
جندي فالتحمت بجيش مينو
في موقعة كانوباس ودحرته .
ولكن أبر كرومبي نفسه سقط
قتيلا وجرح السير . جون مور .
وتلت ذلك معارك عديدة
كانت فيها الحرب سجالا بين

== ولما كانت إنجلترا ما فتئت تعمل على اخراج الفرنسيين من مصر صيانة لمصالحها
في الهند فقد أرسلت عمارة بحرية مؤلفة من ١٧٥ سفينة و ١٦٠٠٠ جندي بقيادة السير
رلف أبر كرومبي فوصل الى أبي قير في ٢ مارس سنة ١٨٠١ وشاهد ثار العمارة الفرنسية
التي حطمها الاميرال نلسون . ومالبث الانجليز أن نزلوا الى البر واصطدمت طلائعهم
بحامية الاسكندرية بعد أن انضمت اليها حامية الرحمانية . وفي ٤ مارس وصلت العمارة
الانجليزية . وفي ١١ منه احتل الانجليز أبا قير وهاجموا الاسكندرية . فاسقط في يد
مينو و برح القاهرة في ١٢ منه قاصدا الى الاسكندرية فلم يصلها الا في ١٩ وكان الانجليز
قد تحصنوا بجوارها أشد تحصين .

وفي ٢١ مارس هجم مينو برجاله على الانجليز حوالى الساعة ثلاثة صباحا ولكن
الانجليز كانوا قد أعدوا للامر عدته . فدارت معركة حامية وارتد الفرنسيون ولكن
الجنرال أبر كرومبي أصيب بجرح قتال لم يمهله الا بضعة أيام وتولى قيادة العمارة
الجنرال هتشنسون .

الفريقين . وأخيراً وبعد مفاوضات معقدة سلم الجيش الفرنسي في القاهرة سلاحه (٢٧ يونيه سنة ١٨٠١) وسلم بعده بشهرين جيش مينو في

== وارتاح الفريقان الى يوم ٢٥ منه حيث وصلت للانجليز نجدة عثمانية بقيادة حسين قبطان باشا . ومن ثم ذهبت قوة انجليزية بقيادة الكولونيل سبنسر فاحتلت بور سعيد بعد أن استنجدت حاميتها بالجنرال بيليار في القاهرة فاعتذر بقلة جنوده فاستغاثت بمينو في الاسكندرية فامدها بما استطاع .

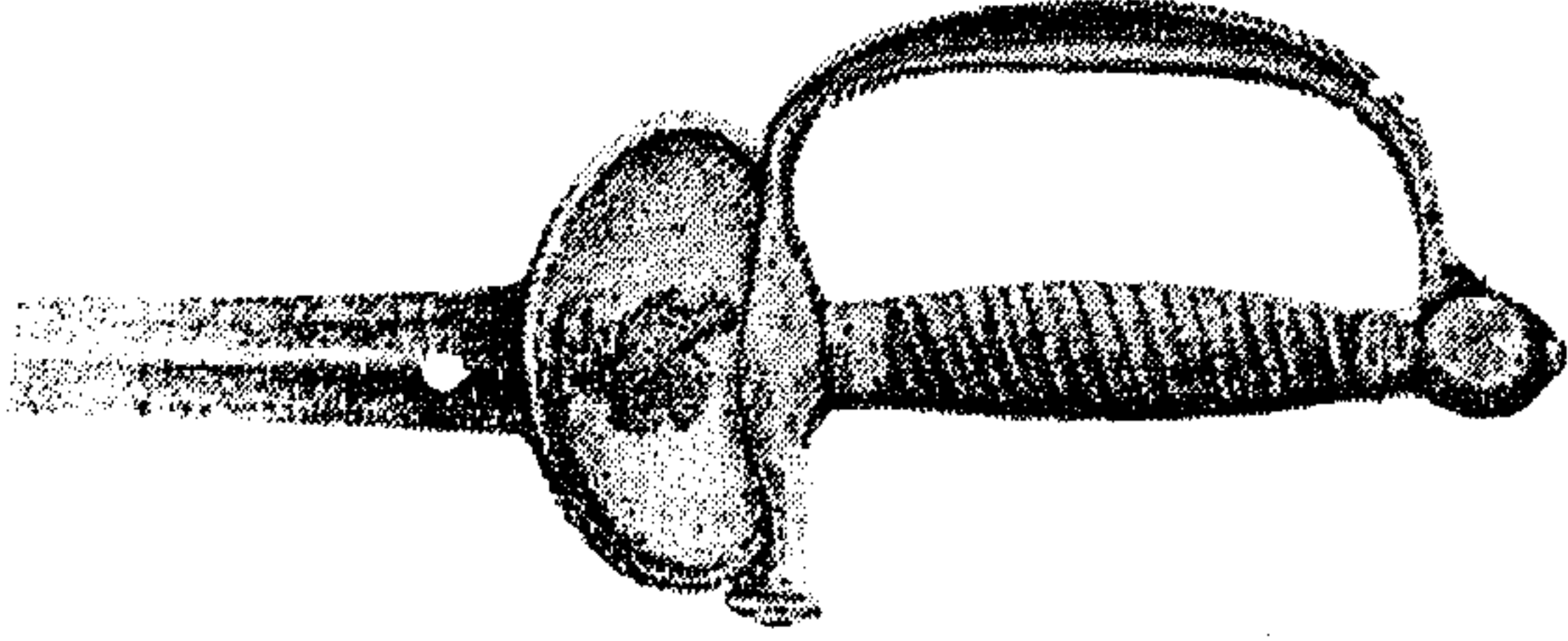
واصبحت الجيوش الفرنسية مقسمة الى قوات لا تقوى على الدفاع . فالجنرال بيليار في القاهرة وقوته تبلغ ٥٠٠٠ وهو يتأهب لصد القوة العثمانية الزاحفة على القاهرة بطريق الصحراء بقيادة الصدر الأعظم يوسف باشا . وحامية الرحمانية وقد خارت قواها بعد سقوط رشيد . والجنرال مينو المحصور في الاسكندرية وقد قطع عنه الانجليز المياه كما قطعوا الجسر الفاصل بين الملاحة وبحيرة مريوط .

وفي ٨ مايو زحف الاتراك والانجليز بطريق النيل فاستولوا على العطف ثم على الرحمانية . وفرت حاميتها الى القاهرة . فعقد بيليار مجلساً حريياً للبت في الامر بعد ما كادت أن تحيط بهم جيوش الاعداء . فهتشنسون من جهة والصدر الأعظم من الجهة الاخرى . وكان هذا قد استولى على دمياط وزحف على القاهرة في ٣٠٠٠٠ حتى عسكر في بليس في ١١ مايو .

وكان مراد بك بعد محالفته للفرنسيين قد ذهب الى جوار ربه فتولى مكانه على الصعيد عثمان بك البرديسي . فلما علم بقدوم الاتراك والانجليز نقض المحالفة . وبحث المجلس الحربى برئاسة بيليار في الامر من جميع نواحيه . فرأى أن الجيش وهو لا يزيد عن ١٢٠٠٠ نصفهم جرحى ومرضى لا يترك أمامهم الا أحد أمرين . أما السير بهذا الجيش بطريق النيل لملاقاة مينو أو السير الى دمياط باعتبارها صالحة للحصار اذا طال .

ثم حدثته نفسه بمحاكاة كبير وخرج في ٥٠٠٠ مقاتل في ١٦ مايو لملاقاة الاتراك والانجليز ولكن مالبت أن تقهقر أمامهم .

وفي ٣ مايو وصل هتشنسون بطريق فرغ رشيد الى الجزيرة بينما وصل يوسف باشا من الجهة الاخرى . فلما رأى بيليار نفسه محصوراً في القاهرة عقد مجلساً حريياً أقر على تسليم المدينة والانسحاب نحو الاسكندرية أو دمياط . ثم بعث رسولا الى المعسكر الانجليزى وبعد المفاوضة تقرر سحب الجيوش الفرنسية في القاهرة انسحاباً قانونياً بما لديهم من المهمات والاسلحة الى فرنسا وأن يكون ذلك على نفقة الانجليز . وكتبت بذلك معاهدة أمضيت في ٢٥ يونيه ثم أبرمت في ٢٦ منه على أن تنفذ بعد ١٥ يوماً . ==



السيف الذي أهدها الجيرال ديزيه للمعلم يعقوب



المعلم يعقوب القبطي

الاسكندرية بشروط

تشابه كثيراً شروط

اتفاقية العريش التي لم

تبرم . وقد تضمنت

شروط الهدنة تسليم

« الكتاوج » الفنى والآثار العلمية

أيضاً . ولكن المصريين أثاروا

عاصفة احتجاج شديدة كانت

نتيجتها احتفاظ فرنسا بهذه التحف .

أما مصر نفسها فقد أعيدت

إلى حظيرة الامبراطورية العثمانية

ولكن الجنود البريطانيين لم ينسحبوا

منها إلا بعد أن نشبت حرب أوربية

جديدة في سنة ١٨٠٣ وتبين وقتئذ

وفي ١٠ يولية برح بيليار القاهرة ومعه ١٣٧٣٤ جندي قاصدين الى رشيد

على أن يسافروا منها الى فرنسا . وفي ٧ أغسطس ركبوا السفن عائدتين الى بلادهم .

وفي ٢ نوفمبر عقد مينو ومن معه من الجنود في الاسكندرية معاهدة الانسحاب

وانسحبوا في خلال الشهر نفسه كانسحاب زميلهم بيليار .

وليس شك في أن هذه المعاهدة لا تختلف في شيء جوهرى عن معاهدة العريش

السابقة التي عقدت في ٢٤ يناير سنة ١٨٠٠ أى بما يقرب من العامين . ولم تكن نتيجة

تأخير تنفيذ المعاهدة الاولى الا زيادة سفك الدماء .

وعلى هذه الصورة انتهت الحملة الفرنسية بعد أن لبثت في مصر نحو ثلاث سنوات .

ونيف اكتظت بالحروب والثورات والفتن . وقد عاد الفرنسيون بخفي حنين تاركين

المصريين وهم أشد ما يكونون تمسكا بعقيدتهم الوطنية . وبعد أن فتح بونايرت أعين

انجلترا الى خطورة طريق الهند .

ولد لمعلم يعقوب القبطي في سنة ١٧٤٤ في ملوى ودخل خدمة سليمان باشا كبير

أن الشجار مع تركيا من أجل مصر عمل بعيد عن الحكمة السياسية .
ففي هذا الفصل الأول من قصة مصر الحديثة يرى الانسان كيف
أدركت عبقرية نابليون أهمية مركز مصر من الواجهة الدولية وكيف كان
تشبته بفتحها سبباً في تغير مجرى التاريخ الاوربي فلولم تمنع قوة بريطانيا
البحرية نابليون من إعادة انشاء الامبراطورية اللاتينية الشرقية لما تعرضت
الحضارة الاوربية في القرن التاسع عشر لهزة قيام الامبراطورية الفرنسية
الفجائية ولا لعبء تدهور الامبراطورية العثمانية البطيء .

وقد قال نابليون بهذه المناسبة وهو في منفاه في جزيرة القديسة
هيلانة « لو أتى استوليت على عكا لوصلت إلى الأستانة ولا أست
أسرة فيها » . ولعله كان من سوء حظ انجلترا ومصر وأوربا جميعاً أنه
أخفق في مشروعه هذا .

على أن ما أحدثه نابليون من الفراغ سرعان ما امتلأ بمجازف آخر
نهج منهجه واحتذى حذوه الا وهو محمد علي ^(١) الذي أجمع المؤرخون

الانكشارية فجمع ثروة عظيمة وقد حارب إلى جانب مولاه وكثيراً ما دخل في
المنازعات والحروب التي وقعت بين حزب مراد بك وجيش قبطان باشا سنة ١٦٨٦
ولهذه الصفات الحربية والادارية دخل يعقوب في خدمة الفرنسيين بعد نزول بونابرت
الى مصر . فالتحق بجيش الجنرال ديزيه وأبدى من ضروب البسالة ما جعل الجنرال
يقلده سيف الشرف ثم دعاه كبير لتنظيم مالية البلاد . ثم تسلم قيادة الفرقة القبطية بوظيفة رئيس
ثم صار مستشاراً للمدير الايرادات العامة وأخيراً منحه الجنرال مينور رتبة جنرال مساعد
لبليار في مارس سنة ١٨٠١ للدفاع عن القاهرة ضد الجيوش الانجليزية التركية فاصابه
ما أصاب جيش بليار وسلم مع الفرقة القبطية عند تسليم المدينة في يونية سنة ١٨٠١ وغادر
القاهرة مع الفرنسيين إلى فرنسا . والمعلم يعقوب هو الذي وضع مشروع استقلال مصر
وقد وجدت منه نسخة في محفوظات وزارة الخارجية البريطانية تحت رقم ٧٨ مجلد ٣٨
(١) قد رأيت كيفية انسحاب الحملة الفرنسية من الاسكندرية والآن نقص عليك
باختصار الادوار التي اجتازتها البلاد الى أن ظهر فيها محمد علي ملخصاً عن بعض

بلا استثناء على أنه منشىء مصر الحديثة بالرغم من أنه كان في خلقه ونشأته أقرب الى أهل العصور الوسطى . وقد حتمق للامة المصرية المتنبلة - كما

= المصادر العصرية وأخصها كتاب « تاريخ مصر الحديث » « المعرب »

فقد تسلم يوسف باشا الصدر الأعظم زمام الحكم فى القاهرة باسم جلالة السلطان ومساعدة الجنرال هتشنسون بينما ظل حسين قبطان باشا قائد العمارة العثمانية حاكم الاسكندرية . وعسكر الانجليز فى مصر القديمة بينما عسكر بقية المماليك تحت زعامة كبيرهم عثمان بك البرديسى ومحمد بك الالفي فى الجيزة .

ودبر الصدر الأعظم وقبطان باشا مكيدة للتخلص من المماليك وأوهماهم بأعداد ولية لهم فى أبى قير فلما لبى المماليك الدعوة ما لبثوا أن أدركوا الشرك الذى نصب لهم فحاولوا الفكك منه فنجح البرديسى واثنان آخران وقتل بعض الزعماء هذا فى حين أن الصدر الأعظم فى القاهرة أرسل من رجاله من هاجم المماليك فى الجيزة وأحرقوا بيوتهم فالتجأوا الى الانجليز فلم يضمنوا عليهم بالحماية .

وانسحب الجنود الانجليز من مصر نهائيا وبقيت البلاد يتنازعها العثمانيون والمماليك ولما كان لابد من تعيين وال فقد اتفق الصدر الأعظم وقبطان باشا على مطالبة الباب العالى بتعيين خسرو باشا واليا على مصر بصفته كخيا قبطان باشا . فلبى الباب العالى طلبهما .

وما أن تولى خسرو باشا حتى حاول القضاء على بقية المماليك وقد أصبحوا تحت زعامة البرديسى والالفي . ولكن محاولته فشلت لان المماليك كانوا أصحاب الكلمة فى الصعيد بينما لم يكن يدين للباب العالى بالطاعة سوى القاهرة والاسكندرية .

ولما عجز خسرو عن دفع رواتب الجند ثاروا عليه فى ٢ مايو سنة ١٨٠٣ وأحاطوا بالخازندار فى بيته . فامر خسرو بإطلاق النار عليهم فتوسط أركان حرب طاهر باشا فى الأمر وحاول حل النزاع بالحسنى . ولكن خسرو اتهمه بممالأة الثائرين . فاغتاظ طاهر وانضم الى العصاة فعلا وأمرهم بهدم الأسوار . فاستولى الرعب على خسرو وفر بحاشيته واسرته على ضفة النيل الشرقية الى المنصورة ومنها الى دمياط . وإذ ذاك خلا الجو لطاهر باشا فجمع القضاة وأعضاء الديوان فاختروه قائمقام على مصر الى أن يبت الباب العالى فى تعيين الوالى بدلا من خسرو باشا .

وفى ٢٥ مايو سنة ١٨٠٣ ذهب اثنان من الأغوات وهما موسى واسماعيل يشكوان الى طاهر باشا من تأخر مرتباتهما فاخذ يعنفهما فلم يطيقا على ذلك صبرا . فلما اشتد الخصام بينهم استلا سيفيهما وقطعا رأسه وألقياه من النافذة واشعلا النار فى القصر =

حقق من قبل معاصراه منشئاً أمى الصرب واليونان - أول مرحلة في سبيل السيادة الوطنية ، الا وهى الانفصال الإدارى عن الامبراطورية العثمانية . إلا أنه اختلف عنهما فى أنه لم يكن من أبناء الأمة الجديدة ولذا



المعلم يعقوب ومعه اثنان من كبار الطائفة القبطية

كانت سياسته شخصية أكثر مما كانت قومية وكان مثله كمثل نابليون عند ما طمح إلى اتخاذ مصر قنطرة لايجاد امبراطورية شرقية . لأن القاهرة كانت عاصمة الخلافة إلى أن نقاهها السلطان سليم إلى الاستانة . فلم يك ثمة ما يحول سياسياً وجغرافياً دون اتخاذها - بسبب اشرافها على البرزخ بين آسيا وأفريقيا ولتحكمها فى المواصلات البحرية بين أوروبا وآسيا - بدلا من الاستانة المشرفة على البرزخ بين أوروبا وآسيا والمتسلطة على الممر البحرى بين الامبراطورية الروسية وأوروبا . ولكن محمد على لم يكن يطمح حتى إلى هذا ولا كان اهتمامه بمصر ليلبغ إلى هذا الحد . وأغلب الظن أنه لو استطاع فتح الاستانة لجعلها كما أراد أن يجعلها نابليون مركز امبراطورية جديدة هناك بدلا من القاهرة .

وهكذا انتهى أمر طاهر باشا صديق محمد على على يدى هذين الاغوين لا كما ذهب اليه المستر يانج .

وهنا أصبحت مصر بلا وال فسنحت الفرصة لمحمد على ليحتل القلعة برجاله ومن ثم بدأ نجمه فى الصعود وأخذ نوره يفيض على هذا القطر الذى مزقته الخلافات كما مر بك .

وقد فشل محمد علي في الوصول إلى الاستانة كما فشل سلفه نابليون
وللسبب عينه . وكان محمد علي كلما قارب الاستانة ازداد مركزه في مصر
حرجا وازدادت معارضة انجلترا له اشتداداً . على أنه كان أدنى إلى النجاح
من سلفه لأن جيوشه وصلت فعلاً إلى الاستانة بينما لا تزال ذريته ملوكاً
مستقلين يجلسون على عرش مصر . أما تعليل نجاحه بالرغم من نقص
استعداداته إذا قيست باستعدادات نابليون فيرجع إلى ثلاثة أسباب
رئيسية : أولها أنه كان مسلماً صمياً ولم يك مجرد أحد المتشيعين للإسلام
كما كان شأن نابليون . ثانياً أن الدول والباب العالي كانوا جميعاً منهمكين
إبان زحف محمد علي في الكفاح النهائي للتخلص من نابليون . ثالثاً أن



ارناؤوط محمد علي

محمد عليا اكتسب ثقة المصريين وتأييدهم .
ويلوح أن ماروي عن مخاطر محمد علي
لم يراع فيه ما أصابه من التوفيق في توحيد
صفوف الشعب وجعلها كتلة مترابطة
خلفه تمهيداً لإنشاء دولة مصرية مستقلة
عن الباب العالي وعن الدول . فمن أجل
هذا يصح أن يقال أن مصر الحديثة
أوجدت محمداً علياً بقدر ما أوجدها هو .

وكان محمد علي كبقية المصلحين الحديثين في الامبراطورية العثمانية من
مسلمى مكدونيا . وقد كان أبوه من رجال الأرانطة . وكان مولده في «قوله»
في سنة ١٧٦٩ فعنى الباشا التركي بنشأته وشرع يدربه على أساليب الإدارة
التركية^(١) . وقد أبلى أحسن بلاء في جباية الخراج وأصاب بعض الثروة من

(١) لعل القارىء قد لاحظ في كتاب المستر يانج أن المؤلف قد أجمل في شرح
بعض الشؤون التي يهم المصريين الاطلاع على تفاصيلها واسهب من الناحية الأخرى =

الاتجار بالتبغ . ثم ما عثم أن ألحق بخدمة خسرو باشا الذي صار فيما بعد من ألد أعدائه وقد وفق إلى قيادة إحدى الفصائل اللبنانية . ولما كان

في بعض المواقف التي لا تعنيهم كثيراً ، ولذلك رأينا أن نفصل بعض ما أجمله ليكون الكتاب الحالي صورة صحيحة لتاريخ مصر في العصر الحديث .

ولما كانت نشأة محمد علي مؤسس الأسرة العلوية وسيرته المجيدة الباهرة وكيفية تغلبه على خصومه إلى أن أصبح والياً على هذا القطر الذي أصبح منذ ذلك الحين يتظلل برعاية هذه الأسرة السكرية بما يهيم المصريون جميعاً الاطلاع عليه فقد رأينا أن نقتبس مرة أخرى عن « تاريخ مصر الحديث » الترجمة الآتية : « المعرب »

محمد علي باشا مؤسس الأسرة العلوية

١٨٠٥ - ١٨٤٨

نشأته وشيئته

ولد محمد علي باشا في مدينة قولة من أب اسمه إبراهيم أغا وكان له من الأولاد سبعة عشر وقد توفوا جميعاً ما عدا صاحب الترجمة . وفي سنة ١٧٧٣ توفي الوالد وزوجته تاركا محمداً علياً وله من العمر أربع سنوات .

وسرعان ما كفله عمه طوسون أغا ولكنه قتل بعد ذلك فأصبح الغلام يتيماً . ثم كفله « جربتجي براوسطة » صديق أبيه فلبث بين أولاده وأهله يتعلم ما يتعلمه الصغار في ذلك الأوان كألعاب السيف والجريد وغيرهما حتى إذا بلغ أشده انخرط في سلك الجهادية تحت إدارة مرييه . فأظهر في جباية الضرائب ضروباً شتى من المهارة والبسالة جعلت جربتجي يرقيه إلى رتبة بلوك باشي ويزوجه إحدى السيدات ذوات الحطام والنشب . فترك الجهادية وتعاطى التجارة وخاصة تجارة التبغ باعتبارها أروج السلع وأكثرها انتشاراً في بلاده . وأغرم بالتجارة وبرع فيها حتى اكتسب شهرة واسعة وثقة عظيمة لدى عملائه وهذا سر عنايته بها وتشجيعه إياها عند ما ولى أمر مصر فيما بعد .

وظل يزاول التجارة حتى سنة ١٨٠١ عند ما صمم الباب العالي على إخراج الفرنسيين من مصر بمساعدة إنجلترا . فبعث اليهم عمارة حسين باشا قبطان كما بعث لهم تجريدة الصدر الأعظم علي نحو ما مر بك .

وكان محمد علي بين رجال العمارة وقد تجند في جملة من تجند في براوسطة بصفته معاوناً لعل أغا بن مرييه على ثلاثمائة جندي الباني (أرناؤوط) . ولما وصلت العمارة إلى أني قير وهزمها الفرنسيون عاد علي أغا إلى بلاده تاركا تحت قيادة محمد علي الذي كان قد ترقى إلى رتبة بيكباشي .

الجنود الالبانيون بمثابة السلسلة الفقرية في الجيش العثماني وهم الدعامة التي كانت سلطة الأتراك في مصر ترتكز عليها ، فقد كان من يتولى قيادة

— وأخيراً تمت للعثمانيين بمساعدة الانجليز الغلبة على الفرنسيين وشرعوا يهتمون بتوطيد سلطة الباب العالي في البلاد .

وكان بين رجال التجريدة العثمانية جماعات من الأرنؤوط والانكشارية والغليونجية فتفرقت هذه الجماعات لحماية مصر السفلى وبعض مدن الصعيد . أما الانجليز بقيادة هاتشنسون فظلوا في الاسكندرية ريثما يولى الباب العالي والياً عثمانياً يكبح جماح المماليك الذين كانوا لا يزالون يحاولون الاستقلال . فعين الباب العالي محمد خسرو باشا وكان في الأصل من مماليك حسين قبطان باشا وهو الذي سعى له في هذه الولاية . وكانت معه أوامر سرية باعدام المماليك بأية وسيلة فشرع في محاربتهم وكانوا في الصعيد فاستغاثوا بالفرنسيين فلم يغيثوهم .

محمد علي وخسرو باشا

وعادت حملة خسرو من الصعيد بالفشل . ثم حاربهم مرارا في أماكن مختلفة وفي جملتها واقعة بعث اليها حملة من جنده وكان محمد علي قد ترقى إلى رتبة « سرنشمة » وأصبح قائدا لأربعة الاف من الألبانيين . فأمره خسرو بمد حملته ، ولكن محمدا علياً وصل بعد أن كانت حملة خسرو قد دارت عليها الدوائر . ونسب قائدها هزيمته إلى تأخر وصول محمد علي فحقد خسرو عليه وأصر على إعدامه سرا . فطلب اليه بموافاته في منتصف الليل لمباحثته في بعض الشؤون الهامة فأدرك محمد علي الحيلة ورفض الدعوى . ورأى محمد علي أن ينجو من اشراك خسرو بالاتحاد مع المماليك . وتمكن بواسطتهم من ارغام خسرو على الفرار إلى دمياط وعين بدله طاهر باشا . ولما قتل هذا احتل محمد علي القلعة برجاله فقام احمد باشا والى الشرطة يطلب الولاية ولكن المماليك أخرجوه من القاهرة ذليلاً وسار الجميع متحدين إلى دمياط فأسروا خسرو وجاءوا به إلى القلعة حيث حجروا عليه .

ولما بلغ الباب العالي ما حدث في مصر ولى عليها على باشا الجزائرلى فلما وصل القاهرة بدأ يكيد للمماليك ولمحمد علي فما لبث أن دارت الدائرة عليه .

الألفى والبرديسى

وكان النزاع على أشده بين الألفى والبرديسى وكان أولها محبوباً لدى الانجليز وقد سافر إلى انجلترا فعلا . فلما عاد إلى مصر حاول البرديسى الكيد له ولكنه سافر إلى الصعيد . وما كاد يخلوا الجو للبرديسى في القاهرة حتى أثار محمد علي ضده الجنود الألبانيين فطالبوه بمرتباتهم وجعلوا يتهددونه إلى أن غادر القاهرة إلى الصعيد في سنة ١٨٠٤ =

إحدى فصائلها يعتبر في الواقع - وإن لم يكن بصفة رسمية - صاحب الكلمة المسموعة في السياسة المصرية .

وما كاد الفرنسيون ينزحون عن الديار حتى بدأت الأحزاب السياسية المختلفة في مصر تتشاجر فيما بينها على الزعامة . وكانت الأحزاب وقتئذ ثلاث شيع : المماليك والألبانون والأتراك . وكانت إنجلترا تؤيد الحزب الأول بينما كانت فرنسا تعضد الثاني . أما المصريون أنفسهم فكانوا لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء بل كانوا يوالون هذا الحزب حيناً ويشيخون عنه حيناً آخر .

أما المماليك فمع ذهاب هيبتهم ظلوا محتفظين بأهبتهم وبعدهم كاملة . كذلك كان لهم نفوذهم السياسي نظراً لاستيلائهم على الأراضي من جهة ونظراً لما ورثوه من الجهة الأخرى من الكفاية السياسية من عنصر الحزب الذي كان منه معظم زعمائهم ولكن سطوتهم كحزب قائم بنفسه كانت في حكم الانتهاء . لأن الحزب كانوا بغضين إلى المصريين . وقد كان مما يدعو إلى

= و بفرار هذين الأُميرين خلا الجول محمد علي وأصبح مستقلاً عن المماليك ومساعدتهم فرأى الاستعانة بالأهالي على تحقيق أمانه الأخرى . فجمع العلماء والمشايخ وقرروا الافراج عن خسرو باشا وإعادته إلى منصبه . ولكنه لم يمكث فيه إلا يوماً واحداً أخرج بعده إلى رشيد ومنها إلى الأستانة .

خورشيد باشا

ثم أشار محمد علي بتنصيب وال عثماني فوافقه العلماء على فكرته واختاروا خورشيد باشا وكان وقتئذ في الاسكندرية على أن يكون هو (محمد علي) نائباً عنه في الأحكام بصفته قائم مقام . وأرسلوا إلى الباب العالي يسترحمونه باقرار ما أبرموه فأجاب طلبهم بفرمان مؤرخ في مارس سنة ١٨٠٤

وشرع محمد علي في القضاء رويدا رويدا على قوات المماليك في عدة نواحي القطر إلى أن أصبحوا لا يزيدون عن ٥٠٠٠ - ٦٠٠٠ فارس بينما أخذت ماليتهم في التدهور =

الدهشة أن السياسة البريطانية اختارت هذه الارستقراطية الفانية لتكون حليفة لها . أما الشخص الذي رشحه الانجليز ليكون « باشا » مصر فقد كان من أشد بكوات المماليك جشعاً وأكثرهم حباً للرياسة الا وهو ألفي بك وقد حدثنا «دياباستي» في كتابه (الحوادث التاريخية المجلد الثامن) أن ألفي كان يمتاز بالسكشك المتقل الذي كان يحمله في أسفاره وتشيدده قصرأ نفخا في القاهره ليهدمه فيما بعد على أن يعيده بعد ذلك سيرته الأولى مرة أخرى وقد تركت أبته هذه أثراً كبيراً في دوائر لندن حتى أنه تألفت شركة لتمويله مؤقتاً . ولكن محمداً علياً صادر الأموال وأنفقها في ضم الألبانيين إلى جانبه وإقصائهم عن خسرو « باشا » مصر وقتذاك (مايو سنة ١٨٠٣) . وفي الوقت نفسه أغرى الضباط الألبانيين بقتل طاهر صديقه ومنافسه الوحيد . ولا حاجة بنا إلى الاسهاب في تفصيل ما قطعه محمد علي من المراحل للانفراد بحكم مصر . وقد يستحسن أن نجمل هنا ما قام به من جلائل

== وكان الجنود الألبان مطيعين لمحمد علي بما أدخل الهم والحسد في قلب خورشيد وجعله يستقدم جندا من الدلاة أو المغاربة ليكونوا عدته إذا جد الجد . واتفق ان كان محمد علي في الصعيد منهمكا في مقاتلة المماليك فأدرك مراد خورشيد فعاد إلى القاهرة مما جعل خورشيد يتوجس منه خيفة . وأخذ الدلاة يعيشون في البلاد فسادا حتى ضج الأهلون بالشكوى لخورشيد على غير طائل . فلما طفق الكيل أخذ العلماء والمشايخ يفكرون في التخلص من خورشيد ومغاربه وعقد الولاية لمحمد علي .

وفي يوم ٢ صفر سنة ١٢٢٠ هـ ورد لمحمد علي مكتوب شريف بولاية جدة فألبسه خورشيد باشا الفروة والقاووق المختصين بهذه الرتبة وهو يعمل نفسه بقرب التخلص منه . ولما أخذ محمد علي يتأهب للخروج إلى جدة إذا بالجنود تجتمع لتطالبه « بالعلوفة » فقال لهم « هاهو الباشا طالبوه بها » . وتولى عنهم عائدا إلى داره في الأتربةكية (بالقرب من أوتيل شبرد) وهو ينثر الذهب على الناس فازدادوا حبا له بقدر ما ازداد كرههم لخورشيد باشا .



ساكن الجنان محمد علي باشا منشيء الاسرة العلوية

الأعمال للتخلص من مزاحميه الرئيسيين . فلقد كانت قد تمت له قيادة القوة العسكرية الوحيدة التي كان يمكن الاعتماد عليها ألا وهي الفصيلة اللبنانية ولكن لم تكن تمت له بعد السيطرة على الحزب السياسي الوحيد الذي يعتد به الا وهو حزب المماليك . فرأى أن يكلف البرديسي زعيمهم بمضاغفة الضرائب ليتسنى دفع مرتبات اللبنانيين . فثار أهل القاهرة عليه فهذا محمد علي ثورتهم بان أمر البرديسي برد أموالهم إليهم . وبعد أن أصبح بعمله هذا بطلا محبوباً من الشعب طرد البرديسي ومن معه من المماليك وحل هو محلهم . فحال الأتراك ازدياد نفوذه هذا فأمره بمغادرة مصر هو ومن معه من اللبنانيين ولكن سرعان ما أثار فتنة جديدة اضطر معها الوالي الجديد « خورشيد باشا » الى سحب هذا الأمر . على أن خورشيد دبر حيلة لابعاد محمد علي عن القاهرة بأن كلفه الخروج لمقاتلة المماليك في الأرياف . ثم انتهز فرصة تغيبه واستولى على العاصمة بمساعدة

== وبعد أيام ثلاثة ذهب رهط من العلماء والمشايخ الى دار محمد علي منادين بصوت واحد « لانقبل خورشيد واليا علينا » فقال لهم « ومن تريدون إذن » ؟ فقالوا « لانريد أحداً سواك » فتظاهر أولاً بالامتناع وجعل يكرر لهم النصح بالاذعان والتزام السكينة فلما ازدادوا إلحافاً واصراراً لم يسعه إلا القبول . فأحضروا له الكرك والقفطان والبسوه إياهما وبعثوا الى خورشيد بأن يغادر القلعة فأبى فحاصروه فيها وكتبوا الى الباب العالي بما أجمعوا عليه من الرأي . فورد الفرمان بولاية محمد علي بتاريخ ١١ ربيع آخر سنة ١٢٢٠ هـ الموافق ٩ يولية سنة ١٨٠٥ وبعزل خورشيد الذي سرعان ما غادر القلعة راجعاً الى الاستانة .

رواج الدسائس لخلع محمد علي

على أن المماليك وعلى رأسهم ألفي بك لم ينفكوا عن الدس لمحمد علي . وقد حاول زعيمهم أن يغري انجلترا بالتدخل في شؤون البلاد للتخلص من محمد علي ووعدها بوضع مفاتيح القطر في يدها اذا ارتاح باله من هذا المزاحم الخطير . فراحت تلح على الباب العالي بارجاع سلطة المماليك الى البلاد ضامنة أمانة الألفي وخضوعه لأوامر الدولة . فأصغى الباب العالي لاغرائها وعفا عن المماليك باسم كبيرهم الألفي . وكان ذلك ==

فصيلة من الجنود الأكراد. ولكن هؤلاء الجنود كانوا قساة القلوب
غلاظ الأكباد لهم وجوه هي أشبه بوجوه الطيور الجارحة وسرعان
ما جعلوا أهل القاهرة يترحمون على أيام الالبانيين مستعبدتهم السابقين.
وقد ذهب وفد للطالبة بارجاع محمد على إلى العاصمة فأجيب إلى طلبه.
ثم طلب عزل خورشيد وفعلا انتخب محمد على والياً مكانه. فحاصر
خورشيد في القاعة ولكن هذا الأخير صدرت الأوامر باستدعائه
واحتل محمد على القاعة في (أغسطس سنة ١٨٠٥) ثم صدر فرمان
بجعله والياً على مصر. وقد أعلن هذا وسط الهتاف والسرور العام
(نوفمبر سنة ١٨٠٥) وسرعان ما انقلب هذا الهتاف إلى رضى صادر
من أعماق القلوب عند ما افتتح محمد على أعماله بحل مشاكل الدولة المالية
بالاستيلاء على أملاك الأقباط الذين أثروا أثراً كبيراً بعد أن كانوا
يقومون للماليك بوظيفة جباية الضرائب واقراضهم النقود.

== في غرة ربيع آخر سنة ١٢٢١ هـ وبعد أسبوعين وصات عمارة عثمانية نقل موسى باشا
واليا على مصر ومعه خط شريف إلى محمد على بالانتقال إلى ولاية سلا نيك وإعادة
الماليك المصريين إلى مراكزهم في الامارات والأحكام.
على أن محمداً علياً صمد للأمر بحزمه المعروف بجمع العلماء والمشايخ وبعض
الماليك الذين انضموا إليه واستكتبهم كتاباً إلى الباب العالي بالتماس بقاء محمد على
واستدعاء موسى باشا وأرسلوا نسخة من هذا الكتاب إلى قائد العمارة التي جاءت بموسى
باشا. ولكن القائد رفض الكتاب وأصر على اخراج محمد على باشا. وهنا سعى سفير
فرنسا في الاستانة حثيثاً وما زال بقبطان باشا حتى أقنعه بوجوب بقاء محمد على. فأرسل إلى
العلماء يكلفهم بتكرار الطلب وارساله مع ابراهيم بك بن محمد على. وفي ٥ شعبان سنة
١٢٢١ أقلعت العمارة إلى الاستانة وعلى ظهرها قبطان باشا وموسى باشا و ابراهيم بك.
وفي أواخر هذا الشهر أى في نوفمبر سنة ١٨٠٦ وردت ارادة شاهانية بتثبيت
محمد على باشا على ولاية مصر مع عدم التعرض للماليك. وفي الشهر التالي مات عثمان
البرديسى. وفي ١٩ القعدة سنة ١٢٢١ مات محمد الألفى واذ ذلك تولى شاهين بك رئاسة
الماليك. ولكن شوكتهم أخذت في الضعف والانحلال وبدا خلوا الجو لمحمد على.

وكانت الامبراطورية العثمانية بحيث أنه إذا سهل على أحد تجار التبغ أن يصير والياً لأحدى الولايات في خلال سنوات قلائل لم يكن من السهل

عليه الاحتفاظ بهذا

المركز مدة ستة أشهر.

لأن قبطان باشا

ما لبث أن جاء ذات

يوم تصحبه عمارة

تركية ويحمل في جعبته

فرمانا شهانياً بنقل

محمد علي إلى سلانيك.

ولكن أهالي

الاسكندرية

والقاهرة أظهروا

شدة تمسكهم به مما

جعل الباشا يقنع

بأخذ رشوة قدرها



محمد علي يسير في شوارع القاهرة بعد توليته الحكم

الانجليز يقاومون محمدا عليا

== على أن الحكومة البريطانية ما لبثت أن رأت في تثبيت محمد علي باشا مساساً بمصالحها في مصر فجرت حملة من ٨٠٠٠ جندي بقيادة الجنرال فريزر لاعادة سلطة المماليك وكانوا قد قشتوا في طول البلاد وعرضها . فوصلت التجريدة الى الاسكندرية في ١٧ مارس سنة ١٨٠٧ واستولت على المدينة بعد بضعة أيام ومكثت فيها زهاء ستة أشهر لا تستطيع التقدّم خطوة واحدة الى الامام . ثم أرسلت فرقة منها الى رشيد فانقض عليها الارانطة ومزقوها شر ممزق وجاءوا بالاسرى الى القاهرة .

وفي يوم ٥ جمادى الآخرة سنة ١٢٢٣ بويع السلطان محمود الثاني بالخلافة بدلا من

السلطان مصطفى . وسرعان ما انسحبت الحملة الانجليزية (١٤ سبتمبر سنة ١٨٠٧) ==



صورة المعلم جرجس الجوهري

٤٠٠٠ كيس وهي الشطر الأكبر من
ثروة المدعو جرجس الجوهري
المالى القبطى وأحد الزراع الذين
يؤدون الضرائب وقد سبق أن جرده
محمد على من أملاكه . ويدل هذا
العمل على أن الاستانة لم يكن يهتما
من أمر القاهرة سوى الحصول على
نصيبها من سلب مصر واعتقادها
أن مجال الربح فى عهد محمد على قد
يكون أوسع مما كان فى عهد المماليك .

وبعد أن توصل محمد على إلى اتفاق عملى مع الأتراك وجه اهتمامه
إلى تخايص مصر من الانجائز وهم الذين كانوا مايزالون يمدون بأموالهم
زعيمى المماليك البرديسى والألفى فى غزواتهما ، الأول فى الصعيد والثانى
فى الدلتا . ومن الغريب أن الزعيمين المذكورين توفيا فى ساعة واحدة
« بعسر الهضم » كما قيل . . . فلم يبق للانجائز بعد ذلك إلا أن يعتمدوا فى
القتال على أنفسهم . وقد حاولوا مفاجأة الأستانة بعمل جرىء ففشلت
محاواتهم . وإذ ذاك تصد الفيس أميرال لويس ثغر الاسكندرية ومعه
قوة عسكرية صغيرة تباع ٤٠٠٠ جندى بقيادة الجنرال فريزر (١٧ مارس

من مصر بعد عقد اتفاق الصالح مع محمد على الذى رضى عنه جلالة السلطان وأدخل
الاسكندرية ضمن ولايته .

وتوسط بعضهم فى الصلح بين محمد على وبين المماليك فتم ذلك وجاء شاهين بك
الى القاهرة يحمل الهدايا فأكرمه محمد على وشيد له قصرا فى الجيزة وتبودلت الزيارات
مع المماليك .



سنة ١٨٠٧) ولكن المماليك في
الدلتا كانوا قد تشتت شملهم كما
تقهقر من كان منهم في الصعيد إلى
أسيوط . ومع ذلك فان الانجليز
أنزلوا جنودهم إلى البر واحتلوا
رشيد . ولكن سرعان ما أرغمت
حاميتهم على تسليم سلاحها بينما أجهز
محمد علي في ميدان القتال على باقي
الجملة وقتل نصف رجالها . ثم ساق

ساكن الجنان السلطان محمود
إلى سوق الرقيق في القاهرة نحو ٥٠٠ من الأسرى وسط عواميد خشبية
علقت فوقها خمسمائة من رؤوس القتلى الانجليز . وأخيراً جلا الانجليز عن
الاسكندرية (١٤ سبتمبر سنة ١٨٠٧) وعقدوا مع مصر صلحا
منفرداً . وهكذا فان محمد علي الذي ساعد الانجليز في سنة ١٨٠١ على قهر
الفرنسيين تمكن الآن وبدون أية مساعدة من أن ينزل بالانجليز خزيًا
لا يذكر بجانبه ما نزل بالفرنسيين من قبل . ومنذ ذلك الحين أصبح يلقب
بحامى الإسلام وهازم الأجنبي الذين دوخوا الأثر الك والمماليك من قبل .
ولكن السيادة البحرية جعلت هذه الهزيمة عديمة الأثر في الموقف الأوربي
العام فلم تعرف أنبأؤها في الخارج بسبب الحصر البحري . ولقد حدثنا
« دريو » عن هذه التقارير التي كان يبعث بها قناصل فرنسا في مصر فيما
بين ابريل و اكتوبر سنة ١٨٠٧ ولكنها لم تفقد بل هي بلا شك محفوظة
في هويت هول .

والآن وقد خلا بال محمد علي من كافة أعدائه فقد رأى أن يتخلص
أيضا من العدو الأخير ألا وهو المماليك الذين لم يطردوا نهائياً من الصعيد

إلا في سنة ١٨١٠ ، ولما كان محمد علي قد اعتزم بعد ذلك أن يخرج في إحدى غزواته في بلاد العرب فقد عقد نيته على الاجهاز أيضاً على المماليك جملة واحدة بصفقتهم حزبا^(١) ، فأرسل يدعو رؤساءهم ويبلغ عددهم ٤٠٠ للحضور إلى القاهرة لمشاهدة الحفلة التي سوف تقام بمناسبة رحيل

(١) مذبحه المماليك من الحوادث التي كان لها أثرها في تاريخ مصر ولذا رأينا أن نبين تفاصيلها .

مذبحه المماليك

ما كاد الأمر يستتب لمحمد علي في مصر حتى بدأ ينظم شؤون البلاد الداخلية وينشئ جيشاً محترماً قوى العدد والعدد . وبينما هو ماض في اصلاحاته إذا بالسلطان محمود يكلفه بارسال تجريدة عسكرية إلى شبه جزيرة العرب لقمع الحركة الوهابية التي كانت قد استفحلت وعظم خطرها حتى أصبح يخشى منها على كيان الامبراطورية العثمانية نفسها . فصدع محمد علي بالأمر وأخذ في اعداد المهمات اللازمة للحملة التي تقرر أن يرسلها تحت قيادة ابنه طوسون باشا .

بيد أنه فكر في أمر المماليك وخشى على أمن البلاد منهم فيما لو سارت الحملة قبل أن يفرغ من أمرهم ولذا بيت رأيه على اهلاكهم جميعاً قبل مسير الحملة . وأنت تعرف أن المماليك بعد أن اضمحل شأنهم كانوا قد قنعوا بالتمتع بأرزاقهم وممتلكاتهم وتفرقوا في أنحاء القطر فمنهم من سكن الصعيد ومنهم من أقام في القاهرة . وكان زعيمهم شاهين بك قد أذعن لمحمد علي وتصافيا فأقطعه محمد علي أرضاً بين الجيزة وبنى سويف والفيوم فالتجأ اليها .

أما قواد الحملة المراد تسييرها ضد الوهابيين فقد غادروا القاهرة في فبراير سنة ١٨١١ وعسكروا في الصحراء بالقرب من قبة العزب ولبثوا ينتظرون اتمام تجهيز الحملة ومعها طوسون باشا .

ثم تحدد يوم الجمعة لوداع طوسون والاحتفال بخروجه ورجاله إلى قبة العزب ونادى المنادون في المدينة معلنين ذلك الخبر ودعى الأعيان والوجهاء ومن ضمنهم المماليك لمشاهدة حفلة الوداع وطلب إليهم الحضور بالملابس الرسمية . وفي اليوم المحدد وهو يوم الجمعة أول مارس سنة ١٨١١ احتشد الناس عند القلعة وحضر شاهين بك في جمع من مماليكه فبالغ محمد علي في استقبالهم والترحيب بهم .

التجريدة العربية (فبراير سنة ١٨١١) ولكن ابراهيم زعيمهم المسن كان أحرص من أن يترك حصنه في بني سويف ، بل كان أشبه بالشعلب المذكور في الخرافة . ذلك أنه اكتفى بإرسال الرد مصحوباً بقائمة بأسماء من جرتهم خطواتهم إلى عرين الأسد . ولكن شاهين الشاب خليفة ألفى بك خدع بأمل العودة لرؤية مباحج القاهرة بصحبة حاشيته وعددهم . . . من البكوات . فبالغ محمد علي في استتبابهم في القلعة وتدم لهم اقتداح القهوة وأكب على مباسطتهم بأطيب الحديث والسمر . ثم بدأ الموكب بعد ذلك

== ثم أديرت اقتداح القهوة . ولما حانت الساعة المعينة أمر محمد علي بالمسير فصار الموكب وكل في مكانه منه جاعلين الممالك إلى الورا . يحيط بهم الفرسان والمشاة . ولما اقتربوا من باب العزب وهو أحد أبواب القلعة في مضيق بين هذا الباب والحوش العالي أمر محمد علي فأغلقت الأبواب وأشار إلى الجنود الألبان (الأرناؤوط) فهجموا بغتة على الممالك فذعروا وحاولوا الفرار بالتسلق على الصخور ولكنهم أخفقوا في هذه المحاولة لأن الألبان كانوا أسبق منهم ففوتوا عليهم غرضهم لتعودهم على تسلق الصخور . أما المشاة فقد اقتحموا مؤخرة الممالك وفتحوا عليهم وابلا من الرصاص فحاول هؤلاء الفرار بخيولهم من طرق أخرى ولكن تعذر عليهم ذلك لصعوبة المسلك على الخيول ، ولما ارتج عليهم ترجل بعضهم وحاولوا الفرار سعياً على الأقدام والسيوف مشهرة في أيديهم . ولكن الجنود تداركواهم بالرصاص من النوافذ فقتل شاهين بك أمام ديوان صلاح الدين . ثم نودي في المدينة بطلب القبض على الممالك وكان كل من جرى به إلى القلعة يلقى حتفه في الحال .

وبلغ عدد من دعى من الممالك إلى الولية . . . لم ينج منهم إلا اثنان أحدهما أحمد بك زوج ابنة ابراهيم بك الكبير وكان متغيباً في إحدى القرى . والثاني أمين بك وقد حضر إلى القلعة متأخراً فانتظر عند باب العزب ريثما يخرج الموكب . فلما أغلقت الأبواب وسمع إطلاق الرصاص أدرك الحيلة فهزم جواده وطلب الصحراء قاصداً سوريا . والشائع على الألسن أن أمين بك هذا كان داخل القلعة فلما نشبت المعركة همز جواده فوثب به من فوق السور لجهة الميدان فقتل جواده وسلم هو وقد صوروا تلك الاشاعة بالرسم المذكور في (ص ٧٣) . ولكن الأقرب إلى الحقيقة أن هذه الاشاعة مبالغ فيها ==



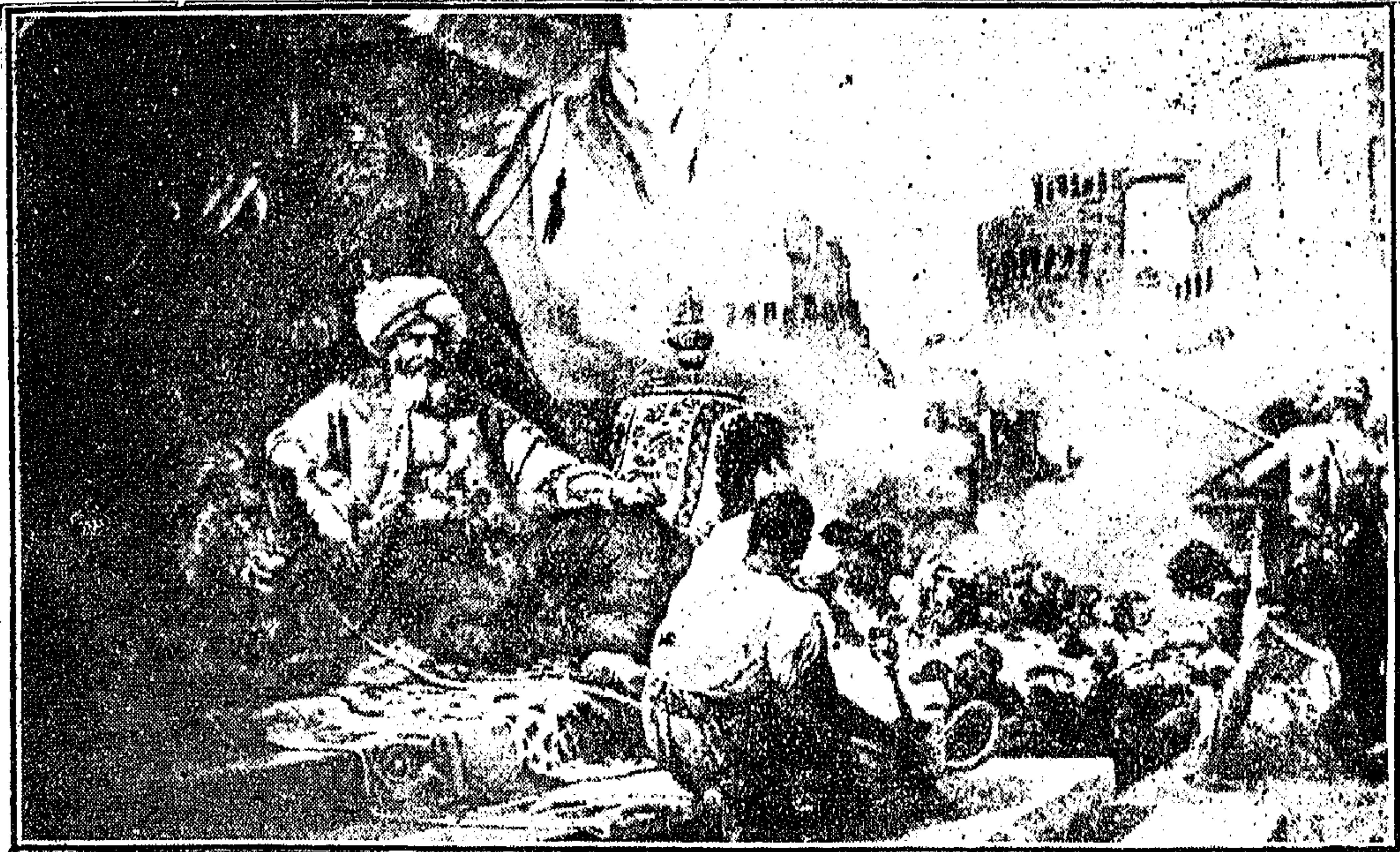
أمين بك المملوك الشارد

== ثم نودى فى الأسواق بأن شاهين بك زعيم المماليك قد لقي حتفه وراح الناس ينهبون بيوت المماليك .

وفى اليوم التالى نزل محمد على من القلعة وطوسون معه وطاف المدينة آمرا الناس بوقف النهب وانذار من يخالف الأمر بالقتل . وقد قتل فى ذلك اليوم ٢٣ من بكوات المماليك عدا مئات من قتل منهم فى الأقاليم .

ونزل طوسون باشا فى اليوم التالى إلى الأسواق ومعه بعض الجنود لتسكين القلوب ووقف حركة النهب بينما دفن قتلى المماليك فى حفرة حفرت لهم فى القلعة .

فسار فيه المماليك وسط صفين من الألبانيين والأتراك حتى وصلوا إلى
درب لافكاك لداخله . وهنا أطلق الجنود النار عليهم فاستبسل بعضهم
وخلعوا معاطفهم وحايهم وصمدوا للقتال إلى أن خروا مضرجين
بدمائهم بينما تلقى البعض الآخر ما حل بهم بجلد ووقار وقد وافاهم حتفهم
وهم في الصلاة وهكذا قتلوا على بكرة أبيهم . وبينما كان هذا يجري هنا
طاحت رؤوس الف منهم في القاهرة وفي الأرياف وانتهت قصورهم .
ألا إن للشرق حقا طريقته المختصرة الناجعة للتخلص من الطبقات الحاكمة التي
ينزلها القضاء عن كراسي الحكم ! وقد دخل على محمد علي وهو في مخدعه الخلفي
طبيه الخاص فألفاه ينتظر وصول الأبناء فحياه بقوله : « إن هذا اليوم
حقاً ليوم جليل الشأن لسموكم » . فلم يرد محمد علي إلا بأن طلب قدحاً من
الماء دون أن يفوه بكلمة واحدة . لأن الرجل لم يكن يوماً رجلاً أقوال بل
رجل أفعال .



محمد علي بعد منبحة المماليك

وبعد أن تم إبعاد الفرنسيين والبريطانيين والأتراك والمماليك عن مصر لم تبق فيها إلا سلطة أجنبية واحدة هي الجنود الألبان الملتفون حوله. وسرى فيما بعد كيف أنه تخلص منهم بدورهم بمجرد أن أصبح في وسعه أن يحل محلهم أورطا مصرية وسودانية. ولقد تدم محمد علي خدماً جليلاً أخرى لا تقل عن سابقتها بأن خالصها بسرعة وبلا مجهود شاق من المخاطرين الأغرأب ممن كانوا قد توطنوا فيها. وهؤلاء الأغرأب مع أنهم لم تمتد إقامتهم في مصر بصفتهم طبقات مختلفة، ومع أن الباشوات الأتراك



خروج موكب محمد علي باشا من القلعة

والمماليك وحثالة الشراكسة والباشبوزق الألبان لم يكونوا في البلاد بعد ذلك كطبقات تتنازع السلطة فيما بين بعضها وبعض، فان من ظل من بقاياهم على قيد الحياة سرعان ما اندمجوا في بعض لتكوين طبقة حاكمة جديدة. لذلك صار زمام الحكم فيما بعد في السياسة المصرية بيد أوتقراطى يستند أولاً الى تعضيد طبقة أرستقراطية شرقية نسميها للسهرلة «الارستقراطية التركية» وقوامها الطبقات الوسطى من الأرمن واليهود والأقباط. وسرى

أنه بمعرفة أخلاق من جاء فيما بعد من السياسة المصريين ينبغي أن نعرف بالضبط إلى أي عنصر من هذه العناصر كانوا ينتمون مع العلم بأن الناس كثيراً ما يسمون أهالي جورجيا بالجرأ كسة مع أنهم في الواقع عنصران مختلفان أخلاقاً وكفاءةً.

وقد اعتاد الناس أن يعزوا إلى محمد علي أنه مدن مصر على النمط الأوربي . ولا ريب في أنه استغل التجارب الأوربية — بقدر ما كان



زوجة محمد علي باشا وأم إبراهيم باشا تصل إلى مصر آتية من قوله يفهمها — لتعزيز مركزه وتوطيده . ولكنه ظل مع ذلك أوتقراطياً اسويياً كما أن نظام حكومته كان شرقياً بحتاً اللهم إلا إذا استثنينا العنصر الشغبى الوحيد وهو حق التصويت على النمط الاسويى — وهو عدم إقامة العراقيين في سبيل الاتصال بالحاكم وعرض الأمر عليه . ولذلك

تعلم محمد على القراءة والكتابة العربية فيما بعد ليكون على اتصال مباشر بأرباب الحاجات . وقد قال عن نفسه مرة « ان الكتب الوحيدة التي تهمني مطالعتها هي وجوه الناس وهي لا تخدعني أبداً . وكان يتكلم التركية باعتبارها لغة الطبقة الحاكمة . ثم أنه كان شديد التمسك بفضائل ونقائص الجنس الألباني وهو الجنس الذي مد أوروبا بعدد من رجالها السياسيين . وكان من حيث التعصب كالأتراك سواء بسواء يضاف إلى ذلك أنه كان يمقت العرب كعنصر ويحتقر الأقباط من أجل دينهم .

أما الدستور الذي أدخله في سنة ١٨٢٦ فلم يكن شيئاً آخر عدا الديوان المعروف بعد أن أعيد تنظيمه فصار في وقت واحد مجلساً للدولة ومجلساً خصوصياً ومجلساً للوزراء^(١) . ولقد خفض عدد المديریات إلى ١٢

(١) ليس من المستطاع طبعاً أن تأتي على كل ما قام به هذا العبقري النابغة من الإصلاحات وجلائل الأعمال ولكن هذا لا يمنع من الإشارة هنا إلى بعض تلك الإصلاحات ونبدأ بحديث الإصلاح الإداري تلخيصاً عما كتبه مؤلف « تاريخ مصر الحديث »
الإصلاح الإداري

فبعد أن دانت لمحمد على الأمور شرع في إنشاء الدواوين ومنها ما يسمونه ديوان المعاونة وكانت مهمته النظر فيما تعرضه عليه الدواوين الأخرى والمديریات وسائر الجهات . ثم يأتي بعد ذلك ما يسمونه بالديوان الخديوى وكانت مهمته خاصة بأعمال ديوان الداخلية والخارجية والضابطة . وأنشأ بعد ذلك ديوان الأشغال وديوان المبيعات وديوان الفردة كما أنشأ ديوان الخارجية خاصة وديوان العسكرية ثم الخزانة المالية وما يتعلق بها وديوان الأوقاف وديوان المعامل وديوان التفتيش والحقانية والترسخانة والابنية وديوان المدارس . وقد عهد رحمه الله بإدارة معظم هذه الدواوين إلى مديرين أو رؤساء مصريين وكانت جميعها ترجع في أحكامها إلى الديوان الرئيسى وهو ديوان المعاونة . وأنشأ للقضاء مجالس ونظم البريد وقضى بحمله برا على يد السعاة وبواسطة السفن بحرا . وأنشأ ما يقوم مقام التلغراف الآن من الإشارات بواسطة أبنية مرتفعة ممتدة على خط واحد بين المدن الكبيرة مع جعل المسافة بين البناء والآخر قصيرة ليتسنى فهم الإشارة .

وصارت بمثابة حكومات. ولكن المدير وصاحبه المأمور لم يكن بينهما وبين لقبهما الفرنسيين الجديدين وهما الحاكم ومدير الشرطة أى شبه مطلقاً. وكان الموظفون العاملون هم عين الموظفين الوادعين الذين لاغنى للإدارة عنهم إلا وهم الأقباط. وقد ظلت الحكومة كما كان العهد بها من قبل أى حكومة مالية تضائية. أما النظام المالى فقد سار سيرته المألوفة من قبل أى بالكرباج الممزوج أحياناً بالبقشيش. وليس ريب فى أن إحدى مزايا النظام الجديد الكبرى كانت أن حل محمد على واحد محل عشرين من الممالك.

على أن المعاهد السياسية إذا كان لم يطرأ عليها تغيير ما فان الشؤون الاقتصادية قد أدخلت عليها تجديدات مهمة. فارتكنا على قواعد النظام الإسلامى القديم الذى لا يميز بين ما هو ملك للفرد وبين ما هو ملك للمجوع ولا بين ما هو نصيب المنتج من المكسب وبين نصيب الدولة منه، كان محمد على نفسه المالك الاسمى الوحيد والزارع دافع الضريبة الوحيد والتاجر الوحيد الذى كان يعامل الأجانب. وهكذا تحول نتاج البلاد وممتلكاتها إلى يد الحكومة التى أحلت لنفسها حق الاشراف عليه.

والعجيب أن هذه الثورة الاقتصادية التى لا يوجد ما يشابهها فى الأزمان الحديثة إلا ما هو حادث فى روسيا الشيوعية الآن لم تحدث إلا استناداً إلى أصح تعاليم الشريعة الإسلامية. ولا نقصد بهذا أن محمداً علياً كان يسمح بأن تقف تلك التعاليم فى سبيل تحقيق غاياته العلمانية. نخذ

== أما الامن العام وتوطيده فقد أنشأ له فرقة الضابطة ووزعها فى أنحاء البلاد لتأمين السبل. وبذا اطمأن الأجانب على أرواحهم. لابل لقد أصبحت المواصلات التجارية سهلة ومأمونة وخاصة بين إنجلترا والهند عن طريق البحر حتى استعاضت بها بريطانيا عن طريق رأس الرجاء الصالح.

مثلا على ذلك أنه أبعد العلاء عن إدارة الأوقاف التي أصبحت فيما بعد ملكا لأفراد أسرته. ومن الناحية الأخرى امتدت يد الاعتداء إلى الممتلكات الشخصية من جهة المبدأ ولكن الاعتداء لم يكن بليغاً من الناحية العملية. ولقد صودرت بطبيعة الحال أملاك المالك الشاسعة. ولكن كل ما كان مطلوباً من أرباب الأطنان الآخرين هو أن يسلموا إلى الدولة كل ما تمتلكه أيديهم فتعوضهم عنه بملك قيم جديد يدفعون عنه ايجاراً تافهاً جداً. وقد ظل للنواحي زمامها ومسحت الأرض مسحاً عاماً من جديد مما ترتب عليه تحديد زمام كل قرية على أن يوزع العمدة هذا الزمام بين الأهالي.

وكانت النية متجهة بادية ذى بدء الى استخدام ما يتجمد من هذه العملية التجارية من الارباح في سبيل استمرار التحسن الزراعي والصناعي. ولكن الشؤون العسكرية التهمتها كلها في النهاية. ولا جدال في أن الفلاح وهو آمن على ما يمتلكه يداه وعلى حصته في المحصول كان أيسر حالاً مما لو كان يبيع غلته بنفسه ويدفع ما عليه نقداً.

على أن أهم ما قام من المصاعب في سبيل تسيير دفة هذه الدولة الاشتراكية كان في العثور على الأشخاص الملائمين لهذه الإدارة الجديدة. لان محمداً علياً لم يحاول أن يمرن أحداً من المصريين ولكنه لجأ في أعماله التجارية مع الخارج الى الاشتراك مع قناصل الدول الاجنبية الموجودين في مصر. وبديهي أن من آثار هذه الطريقة انها جعلت مندوبي الدول المحليين طوعاً وبناه. وقد نصت معاهدة سنة ١٨١٨ المعقودة بين الدول العظمى والباب العالي على ترك تجارة مصر حرة ما عدا بعض مكوس تافهة ظلت على مقدارها الاصلى ولكن محمداً علياً بمساعدة شركائه القناصل ابتكر عدة حيل مكنته بأن يزوج بما لدولته من احتكارات بين سطور المعاهدة.

وغير خاف أن تنميته صناعات جديدة لم يكن بالعمل الهين إذا قيس بالتملص من التعهدات الدولية . فالمصانع التي انشئت لتكون كأنموذج ينسج على منوالها كانت منبع خسارة هائلة منذ أنشائها ولو أن هذه الحقيقة لم تدرك باديء ذي بدء لعدم وجود طريقة منظمة لرصد الحسابات . وقد عدل عن المشروعات التي تكلف الخزانة نفقات طائلة واحدا بعد الآخر لان الحرب كانت تستنفد أموال الدولة أولا بأول . على أن التحسينات الدائمة المهمة قد أدخلت على الزراعة وهي بلا ريب صناعة مصر الحقيقية^(١)

(١) لما كانت أعمال محمد علي في هذا الباب مما يشهد بعبقريته فلنجمل هنا بعض ما قام به رحمه الله وأسكنه فسيح جنانه

الإصلاح الزراعي

كانت بكورة أعمال محمد علي في هذا الباب أنه أمر بمسح كافة الأراضى المنزرعة في مصر وقسمها إلى مديريات وقسم كل مديرية إلى مراكز وأقسام أو هذه إلى نواح وعين في كل منها من يقوم بإدارة أمورها هذا عدا من عينهم لجباية الضرائب . وقد وزع أراضى كل ناحية على سكانها وبذا أصاب كل فلاح قادر على العمل نصيباً يقوم بأوده . وجعل لمشايخ البلاد جانبا من الأرض أعفاه من الضريبة في مقابل نفقات ضيافة جباة الأموال الأميرية الذين كانوا يمرون في بلادهم وما كانت تكلفهم به الحكومة من المهام والشؤون .

وقد رأى بعد أن ارتاح باله من الأعمال العسكرية أن يلحظ الفلاحين بعين رعايته . فعهد إلى ضباط الجيش القدامء بأمر البلاد من الناحية الزراعية وفوض اليهم تعميمها وإصلاحها بأنفسهم . ومع ذلك لم يشأ حرمان الفلاح من ثمرة أتعابه بل قضى أن لا تسلم الأراضى للضباط أو المتعهدين متى كانت رائجة وقادرة على أداء الاموال المستحقة للخزانة في مواعيدها . أما الاطيان الكاسدة فهي التي تحال إلى هؤلاء المتعهدين باختيار أربابها والمتعهد هو الذى يقوم بأداء المطلوب للحكومة . فراجت الزراعة بهذه الوسطة وتحسنت تحسناً عظيماً وظلت الأراضى فى أيدي المتعهدين إلى زمن عباس باشا الأول وهو الذى استردها منهم .

وقد زادت بهذه الطريقة مساحة الأراضى الزراعية فى أيامه عما كانت عليه فى عهد المماليك . فقد كانت فى العهد الأخير لا تزيد عن المليون وبعض المليون فدان ولكنها



يوسف أفندي مدير حدائق شبرا
وهو الذي أدخل زراعة اليوسف أفندي
في مصر فسمى باسمه =

مثال ذلك ان صانعا ميكانيكيا فرنسياً
جىء به لانشاء الأنوال فاقترح زراعة
القطن الأجنبي وقد بلغ فعلا ما صدرته
مصر في سنة ١٨٣٨ نحو ٦٠٠٠٠ ر
بالة . ثم أن أحد الهنود أدخل إلى
مصر زراعة الأفيون والنيلة. ونشط
الأرمن في زراعة تيل القنب الذي
كان يستعمل إلى ذلك العهد كخدر.
ولكن محمدا عليا خصص الأيراد
الناجم من هذا الأسطوله . وقد

== بلغت في عهد محمد علي في سنة ١٨٢١ نحو المليون فدان . على أن الامر لم يقف عندهذا
الحد . بل أخذت المساحة تتسع تدريجاً بما ابتكره محمد علي من الوسائل لتسهيل الري
وشق الترع وأنشاء الجسور والقناطر والسدود الخ . وبهذا بلغت مساحة الأراضى
المزروعة في سنة ١٨٤٠ نحو ٣٧٩١٢٢٦ فدان كما فصله الدكتور كلوت بك في
كتابه عن محمد علي .
ثم رأى خصب التربة المصرية فشرع يزرع فيها المحاصيل التي لم تكن معروفة فيها
من قبل . فجاء إليها بتقاوى القطن الأمريكى ثم نبات التيلة من الهند ونبات الأفيون
من آسيا الصغرى وجاء بالخبراء العارفين بزراعتها وأكثر من غرس الحدائق والأشجار
في القاهرة وضواحيها لتلطيف الحرارة الجو واستزاده للغيث— مثال ذلك مغارس الليمون
في شبرا والحدائق في الروضة وحديقة الازبكية مكان البركة المعروفة .
وأنشأ السدود في أبى قير وغيرها من الجهات وشق كثيراً من الترع وعمل على
تطهيرها وأنشأ الترع الصيفية لتنمية الزراعة الصيفية وعهد إلى المهندسين بأعمال الري
وأرسل عدداً من الشبان إلى أوروبا لدراسة فن الزراعة واتقانه .
وليس ريب في أن أهم مشروعاته في هذه الناحية القناطر الخيرية . وقد دفعه إلى بنائها =
هذه الصورة مهداة للعرب من سمو الأمير عمر طوسون .



تضاعفت أجور صغار العمال أربعة أمثالها بينما ترتفع أسعار الحاجيات إلا قليلا. نعم إن أثمان الواردات تضاعفت بسرعة فبلغ ثمن البن مثلا ضعفي ما كان عليه بينما ارتفع ثمن السكر إلى عشرة أضعافه ولكن ثروة البلاد العامة تضاعفت أيضا بسرعة. خذ مثلا على ذلك أن

ضرائب الأطنان التي بلغت في سنة ١٨٢١ نحو ٦٥٠.٠٠٠ جنيه فأنها قد بلغت ضعفها في خلال عشرة أعوام من ذلك التاريخ. كذلك تضاعفت إيرادات الجمارك وازدادت أرباح التجارة^(١) من ١٠٠.٠٠٠ جنيه إلى أربعة أمثالها في خلال المدة

== ما رآه من ضياع مياه فرعى النيل هدرا. ففرع رشيد تذهب مياهه في أراض غير صالحة للزراعة. بينما فرع دمياط لا تكفي مياهه لرى الاراضى الصالحة التي يمر بها في أيام التحاريق. ثم أن الصعيد تشح فيه المياه في وقت التحاريق لارتفاع أرضه وقد لا ترتوى إلا في زمن الفيضان. فأمر بإنشاء القناطر الخيرية على عرض فرعى النيل وأن تجعل لها بوابات حديدية تغلق وتفتح عند الاقتضاء. وهى وسيلة للارتفاع بها بما يزيد من مياه فرع رشيد باضافته إلى مياه فرع دمياط. ثم إذا جاء الفيضان قليلا أغلقت قناطر الفرعين فترتفع المياه في الصعيد فترتوى أراضيه. وفي أيام التحاريق تفتح القناطر فتفيض المياه والارض متعطشة إليها.

الإصلاح التجارى

(١) بعد أن كثرت حاصلات البلاد عنى محمد على بتنشيط التجارة ورأى أن لابد من إنشاء ميناء تأوى اليه السفن التجارية فأثر الاسكندرية على دمياط ورشيد وشق فيها ترعة المحمودية نسبة للسلطان محمود الثانى. فعظمت حركة نقل البضائع بين الاسكندرية وداخل القطر وأصبحت لهذه الميناء أهمية كبيرة وقصدها التجار من كافة أنحاء العالم. ثم أصلح مرفأ بولاق وسهل أمام الأجناب سبل التوطن فى مصر مما زاد حركة التجارة نشاطا = هذه الصورة مهداة للمعرب من سمو الأمير عمر طوسون.



بوغوص بك

الآنفة الذكر أما إيراد الدولة الذي كان في سنة ١٨٢١ دون المليون جنيه فقد أصبح الضعف في خلال العشرة الأعوام التالية ثم بلغ ضعف ذلك أيضاً بعد خمسة أعوام أخرى . على أن ما وضعه محمد علي من نظام محتكرات الدولة أدى إلى تنمية طرق جديدة للإنتاج دون أن يثبط ذلك من المشروعات الفردية (١)

ولم يخل هذا النظام إلا بعد أن ضربت الرشوة أطنابها وبعد أن اضطرت الدولة بسبب ما تكبدته من نفقات الحروب الأجنبية إلى انتهاز الفرص

وقد رأى توطيدا لأعماله التجارية هذه أن ينشئ مجاسا تجاريا مؤلفا من وطنيين وأجانب للحكم في القضايا التجارية .

احتكار حاصلات البلاد

(١) وقد عمل محمد علي على تصريف حاصلات البلاد بنفسه فاحتكر الحاصلات والمصنوعات وتولى بيعها رأسا للتجار السوريين والاوروبيين واليونان والارمن . وكان يتبع حركة الاسعار في الأسواق كسائر التجار فتارة يكون الكسب من نصيبه وطورا يكون بالعكس . وكان يبيع البضاعة تسليما الاسكندرية وينقلها على نفقته بواسطة السفن في وقت الفيضان . وكانت له في بولاق وكالات تخزين الأقطان والسكر والكتان والحناء وعلى تلك المخازن وكلاء لا يسلمون منها شيئا إلا بأمر الباشا . وكان يدون أرباحه من هذه التجارة في دفاتر حكومته .

وقد ذكر كلوت بك أن ميزانية سنة ١٨٣٣ بلغ الدخل فيها ٦٢٠٧٧٨٠٧٥٠ فرنكا منها نحو ١٥٠٠٠٠٠ فرنكا من التجارة وبلغ الخارج ٤٩٠٩٥١٠٥٠٠ فرنكا ثلثها لنفقات الجيش وكان من أكبر أعوان محمد علي في المسائل التجارية والمالية بوغوص بك الارمني المتوفى سنة ١٨٤٤ .

هذه الصورة مهداة للمعرب من سمو الأمير عمر طوسون :

للعمل بالربا الفاحش. كذلك شرع الفلاح يحدد تناجه بعد أن هبطت حصته فيه إلى السدس وبعد أن دفع إبراهيم ثمن هذا السدس بدلا من النقود عسلا أسودا رديئا جاء به من مصانع السكر الخاصة به وبعد أن اختلت الموازين وتلاشت الثقة بسبب الغش .

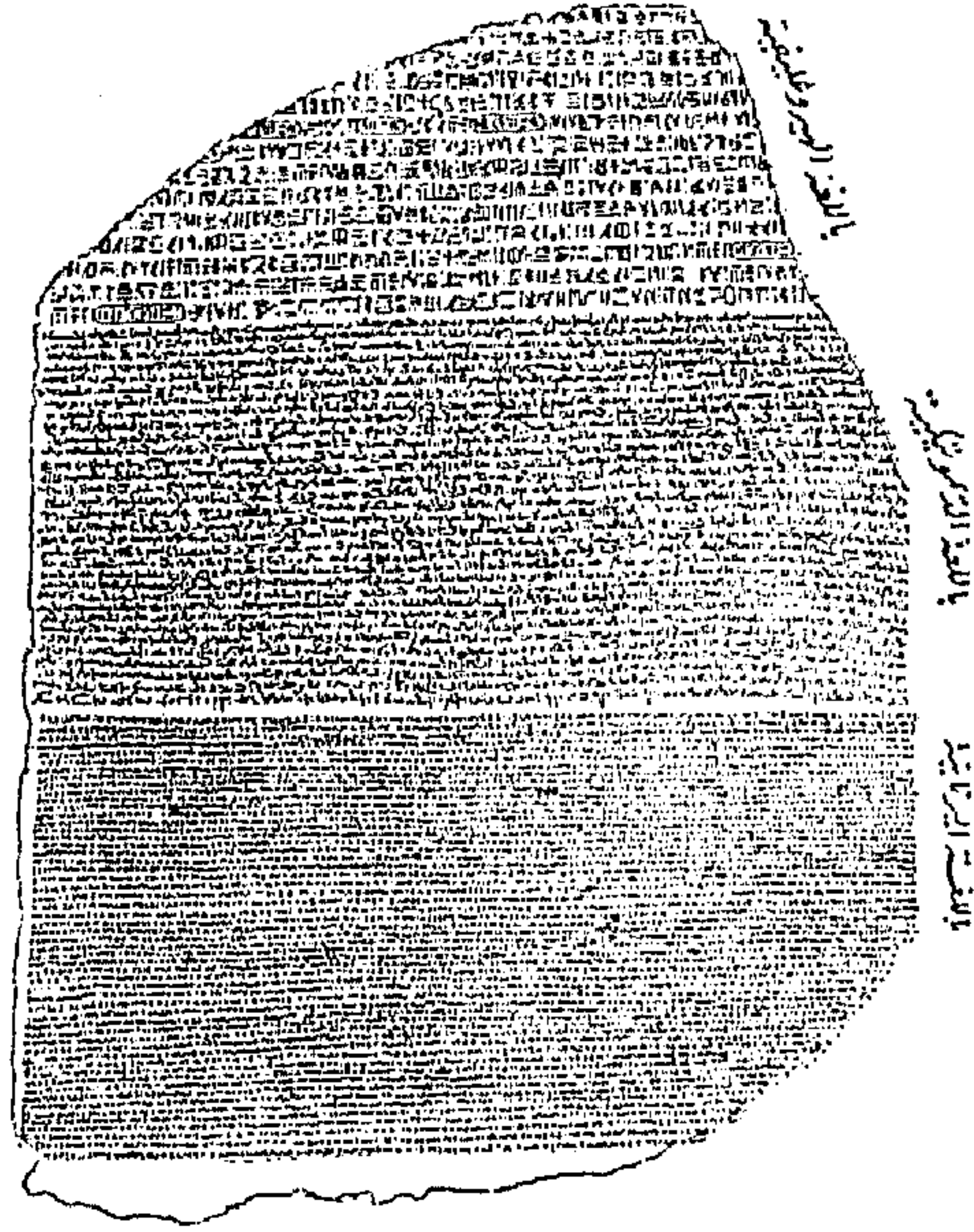
وهذا ما حدا بمحمد علي إلى تسخير عمال الزراعة في العمل في مزارع الحكومة وهو حل منطقي يحتمله المصريون بصبر لا تقوى عليه اية أمة أوربية . ولم يكن محمد علي برغم ما أسداه إياه شركاؤه الأجانب من المساعدة في تنمية ما طمحت إليه الدولة من مشروعات تجارية عظيمة موقفا كل التوفيق . بل أنه تعرض بين آن وآخر إلى خسائر فادحة . مثال ذلك أنه باع في سنة ١٨١٦ مليون بوشيل من القمح (والأردب يعادل ١٠ بوشيل) بسعر البوشيل ٣ شلن ونصف . على أن عجزه عن تسليم القمح للمشتريين إلا بعد هبوط سعر البوشيل إلى شلن ونصف جعل ربانة السفن يرفضون تسلمه بل تركوه عرضة للتلف على الميناء . ولكن كان النظام على وجه العموم مفيدا للدولة وغير مرهق للفلاح . وكان بين ما أدت إليه من نتائج هذه التجارة التي باشرتها الحكومة شق ترعة الحمودية لتصل نهر النيل بالاسكندرية مما وفر على سفن الغلال مؤونة السفر إلى رشيد للوصول منها بطريق البحر إلى الاسكندرية .

ومن الغريب أن هذه الاشتراكية التي لا تجد حتى في وقتنا الحاضر أى تأييد في الخارج متى كانت وليدة ثورة شعبية قد استقبلتها الصحف الأوربية منذ قرن مضى أحسن استقبال وعتها من أكبر آثار ذلك الملك المجازف ولا زلنا نذكر تلك الرنة المألوفة التي كانت تجرى في البلاغات الرسمية لذلك العهد . خذ مثلا ما كتبه القنصل باركر في سنة ١٨٣١ اذ قال مانصه : « عند ما هبطت مصر سنة ١٨٢٦ كان من رأى الجميع أن الوالى

لن يظل على العرش أكثر من ستة أشهر أخرى وأنه سائر حتما إلى الخراب بسبب ما يقدم عليه من مشروعات جنونية لا تتناسب بتاتا مع موارده. ومع ذلك فإن ما كان يظن وقتئذ أنه مشروعات مستحيلة التنفيذ لم تبلغ ضخامتها خمس ضخامة ما نفذ فعلا من المشروعات منذ ذلك الحين كلا ولا بلغت عظمتها عشر عظيمة ما هو معروض الآن على بساط البحث من المشروعات. ولما كنا والحالة هكذا قد شهدنا انجاز بعض المشروعات كما شهدنا تقدما كبيرا في سبيل إنجاز البعض الآخر مما كان يعتبر إلى أربع سنوات خلت ضربا من المستحيلات أو حلما من أحلام رجل مسلوب العقل فإن من الانصاف أن نسلم بأننا نجعل كل الجهل مدى ما لدى هذا الرجل من موارد يلوح إلى أنها تكفي لتنفيذ مشروعاته ^(١)

أما المساعدة الفنية الأجنبية فكان اعتماد محمد علي فيها على الفرنسيين وهم الذين كانت امبراطويتهم في شمال أفريقيا حتى ذلك الحين عبارة عن مجرد حملة تأديبية موجهة ضد الجزائر بعكس سلطة بريطانيا البحرية التي كانت واقفة على الدوام بالمرصاد عند مدخل مصر الأمامي وهو الاسكندرية ومدخلها الخلفي وهو السويس. ولكن الفرنسيين رغم ذلك كله ما برحوا يهتمون بمصر إهتماماً عليا. فلا تنس علو كعبهم في فن الحرب

(١) لعلك سمعت الشيء الكثير عما أنشأه محمد علي من الصناعات المختلفة التي عفت آثارها مع ما توخاه رحمه الله من إنشاء المعامل واستجلاب الصناع من الاقطار الاوربية. وكان مما أنشأه معامل عديدة لحليج القطن ونسجه وللنيلة وصنع الطرايش التونسية والورق والغزل وأنواع الاقمشة من الحرير والكتان والقطن والبصوف ومعامل الاسلحة المختلفة. المعرب.



حجر رشيد

وهكذا صار شمبليون^(١) أبا المصراوجية بدلا من منافسه يانج ، بينما أن

(١) قد رأيت مما مر بك أن بونا برت عند ما هبط مصر اصطحب معه عددا من المصرولوجيين الذين يرجع إليهم الفضل في وضع أساس نهضة بلاد النيل من الناحية العلمية والثقافية . كذلك رأيت أنهم ظلوا يواصلون أعمالهم في مصر حتى بعد انسحاب الحملة الفرنسية . بقي أن تعلم أن أولئك المصرولوجيين وجهوا اهتمامهم إلى دراسة اللغة القبطية ليتوصلوا عن طريقها إلى حل الرموز الهيروغليفية . وقد نحا شمبليون نحوهم في سنة ١٨١٨ في دراسة تلك اللغة ودراسة جغرافية مصر القديمة وكل ما كتب قديماً عن مصر والمصريين . وبينما هو جاد في دراسته عثر على الكتابة اليونانية المرسومة على المسلة المصرية التي وجدها بلزوني الايطالي في جزيرة البربة وأرسلها إلى أوروبا لفك طلاسمها . فبين لشمبليون أن الكتابة اليونانية هي ترجمة الكتابة المصرية . وما لفت نظره في الكتابة اليونانية أعلام وأسماء أعلام لا تترجم بينما وجد في الكتابة المصرية نقوشاً محاطة بخط اهليلجي . وقرأ في الكتابة اليونانية اسم بطليموس مكرراً مراراً فحكم بأن النقوش الهيروغليفية المذكورة هي اسم بطليموس . ثم ازداد اقتناعاً برأيه هذا عند ما رأى اسم بطليموس هذا وارداً في الكتابة اليونانية على الحجر الرشيدي ويقابله في الكتابة الهيروغليفية هناك نقوش محاطة بخط اهليلجي كالنقوش التي على المسلة تماماً =

الكولونيل سيف الذي حاربنا ملاحا في موقعة الطرف الأغر ثم قاتلنا

ومن ثم أخذ شمبليون يتوسع في مقابلة النقوش الهيروغليفية بما على المسئلة من الكتابة اليونانية مستعينا بمادرسه من اللغة القبطية إلى أن توصل إلى حل الرموز الهيروغليفية وأصبح هو صاحب الفضل الأول في حل طلاس تلك اللغة. هذه هي خلاصة ما أورده صاحب «كتاب تاريخ مصر الحديث» . «المعرب»

وإليك ترجمة ما هو منقوش على الحجر الرشيدي نقلا عن كتاب «تقويم النيل» لمؤلفه سعادة المرعي الكبير أمين باشا سامي .

ترجمة الكتابة التي على الحجر

في اليوم الرابع من شهر خانيكس من السنة التاسعة الموافق لليوم الثامن عشر من شهر امشير عند المصريين قد صار بطليموس (ايفانيس) الصغير ملكا وظهر بمظهر والده على سرير ملكه وهو سيد البلادين البحرية والقبلية المتصف بالقوة والبأس المدير لأموار بلاد مصر المسدى إلى أهلها النعم الكثيرة صاحب الاحساسات الشريفة بالنسبة لآلهة البلاد بما أظهره من علامات الاحترام والتعظيم لها وفعل الخيرات في معابدها . وهو الذي ظفر بأعدائه وصير الناس سعداء . بما أنه صاحب الأعياد التي استمرت ثلاثين سنة . وقد اختاره الاله (يتاح) (فتاح) وقواه الاله (رع) ولذا ظهر بمظهرهما في البلاد البحرية والقبلية . وهو صورة الاله (آمون) وابن الاله (رع) بطليموس ايفانيس دامت حياته محبوباً من الاله (فتاح) بن بطليموس وارزينا كاهن الاسكندر والآلهة المدافع عنهم (حورس) الذي أخذ بثأر والده (أوزيرس) .

هذه الكتابة هي صورة محضر كتب بحضور رؤساء كهنة البلاد وحضور كتاب اللغة المقدسة (الهيروغليفية) والكهان المصريين وغيرهم تذكراً لجلوس الملك بطليموس المحبوب عند الاله (فتاح) على كرسي الملك وحصل اجتماع فوق العادة في مدينة منفيس وشهد الحاضرون بفضل بطليموس ونوهوا باحترامه للآلهة وافاضته الخير على المعابد وأهل البلاد القبلية والبحرية . ولذا رأوا من الضروري كتابة هذا المحضر على حجر صلب وأن تكون كتابته بلغة الآلهة (الهيروغليفية) ولغة المكتوبات الاعتيادية (الديموتيكية) ولغة اليونان وان يوضع في معابد الدرجة الأولى والثانية والثالثة بجوار تماثيل ملك بطليموس وبجوار تماثيل كبراء الآلهة .



سليمان باشا الفرنساوى

فما بعد جنديا في موقعة ووتارلو
قد صار اسمه سليمان باشا (١).
فشرع في تنظيم الجيش المصرى
وكاد يزوج بنا في حرب أخرى مع
الفرنسيين .

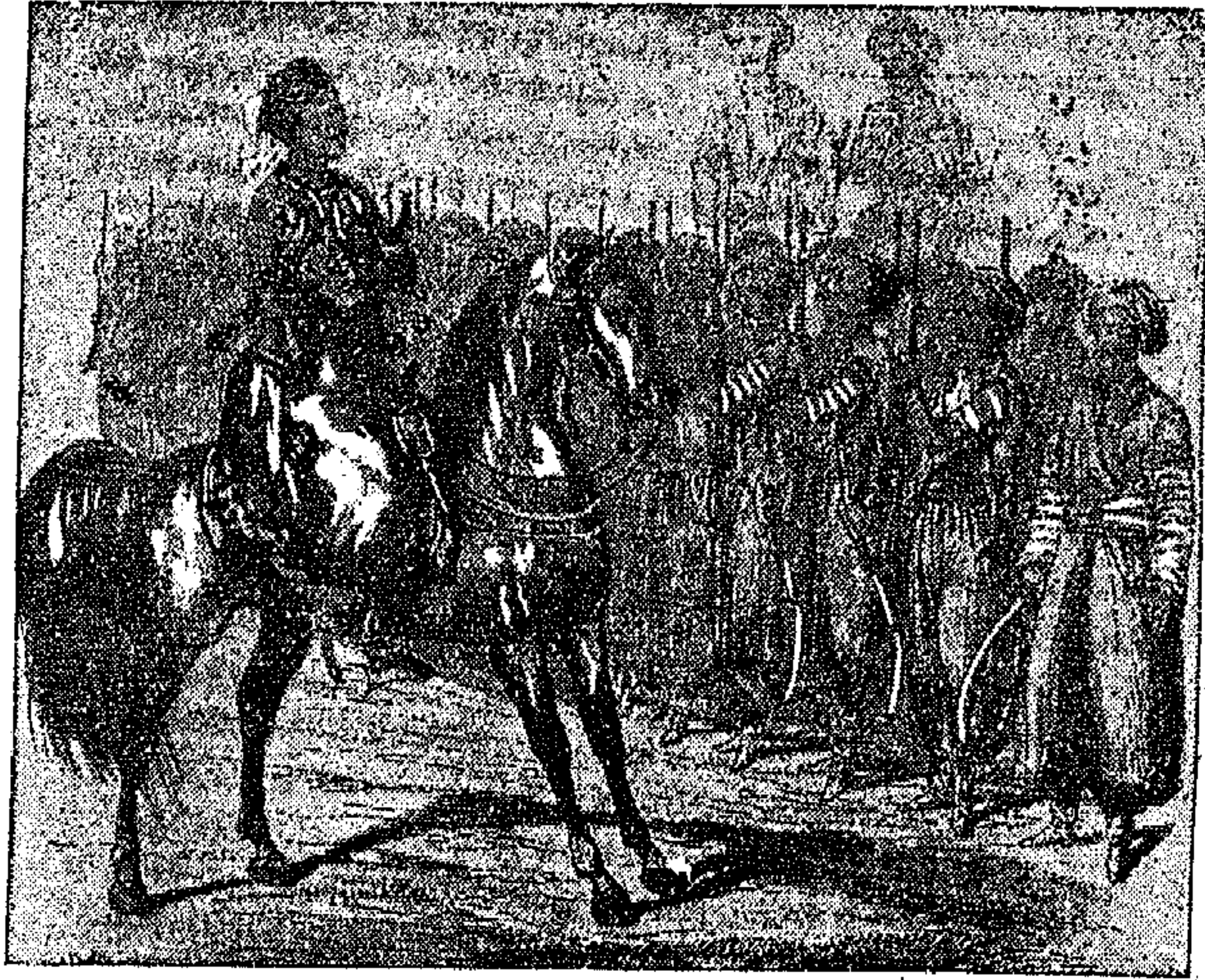
وتمت رجل فرنسى قدير آخر
هو كلوت بك الذى أخذ على عاتقه
القيام بمشروع بعيد المدى وهو

(١) الكولونيل سيف أو الجنرال سليمان باشا الفرنساوى (كما أصبح يعرف
بهذا اللقب فيما بعد) هو صاحب الفضل بلا مدافع في تدريب الجيش المصرى على
النظام الفرنسى فى عهد محمد على . ولا بد قبل الخوض فى حديث الكولونيل سيف أن
نقف بك قليلا أمام الاصلاحات العسكرية التى أراد مؤسس مصر الحديثة أن يدخلها
على جيشه قبل أن تتيح له الفرصة للتعرف بالكولونيل سيف . وقد كتب بهذه المناسبة
صاحب « تاريخ مصر الحديث » فضلا شيقا فى هذا الموضوع نلخصه فيما يلى :

« العرب »

لقد رأيت أن القوة العسكرية التى تولى محمد على أمرها عند ما هبط مصر كانت
خليطا من الألبان (الأرنأوط) والدلاة (المغاربة) والانكشارية والغلونجية
وغيرهم ولم يكن لهؤلاء نظام عسكري عدا النظام العتيق الذى انتقل مع الزمن من
الاجداد والآباء إلى الابناء والاحفاد . وكما كابد محمد على من المصاعب فى حمل أولئك
المرتزقة على اتباع التدريب العسكري الفرنسى الذى ابتكره بونابرت . ولكن الأمانة
عدوا ما أقدم عليه محمد على من البدع وهو لذلك ضلاله وكل ضلالة فى النار فثاروا عليه
فراى من الحكمة أن يلجأ إلى تنفيذ رغائبه فيهم تدريجاً .

فاختار بعض فتيان المماليك وأرسلهم إلى الصعيد لتعلم أساليب الفن العسكري الحديث
على بعض الأساتذة الافرنج . وفى سنة ١٨٢٥ أنشأ فى قصر العينى مدرسة أعدادية
أسماها المدرسة التجهيزية الحربية أدخل فيها نحو ٥٠٠ طالب من أبناء المماليك وأبناء
الأتراك والاكراذ والالبان والارمن واليونانيين دون أن يكون فيهم ابن وطنى واحد .
هذه الصورة مهداة للعرب من سمو الأمير عمر طوسون .



سليمان باشا يؤنب المماليك لأنهم أخفقوا في إصابة صدره
ويبلغ عليهم في إطلاق النار عليه مرة أخرى

== فتعلموا القرآن والنحو وأداب اللغة التركية والفارسية والعربية بينما كانت لغة التدريس هي التركية . وتعلموا أيضاً الحساب والهندسة والجبر والرسم واللغة الإيطالية لأن ساندتهم كانوا إيطاليين .

وقرر قرار محمد علي علي أن يرسل بعض أولئك الطلبة إلى ليفورن وميلانو وفلورنسا وروما لدرس الحركات العسكرية وصناعة بناء السفن والطباعة والهندسة وغيرها من الفنون الحربية . كما أرسل طلبة آخرين إلى إنجلترا لدرس الميكانيكا وسلوك البحار ونواميس السوائل . وإذ نظم الجند رأى أن الضرورة تقضى بإنشاء مدرسة طبية لإخراج أطباء الجيش . فأنشأت تلك المدرسة في سنة ١٨٢٥ واختار تلاميذها من أبناء الأرياف أو تلامذة الأزهر خلافا للمدرستين الحربية والتجهيزية .

وأراد محمد علي استعجال ثمار جهوده في هذا الضدد فأرسل في سنة ١٨٢٦ أربعين تلميذا من تلامذة المدرستين التجهيزية والطبية إلى فرنسا لاقتان الفنون الحربية والطب والادارة الملكية والعسكرية وغير ذلك مما يجعله يستغنى فيه عن المعلمين الأجانب لأن الوطنيين كانوا إلى ذلك الحين قاصرين على درس العلوم في الأزهر وهي لا تعدو العلوم الدينية واللغوية . ثم أنشأ مدرسة الطوبجية وأنشأ في القاهرة مصانع لصب المدافع وكافة حاجيات الجند .

وفي هذه الأثناء ظهر على المسرح الكولونيل سيف وهو من أهل ليون وقد ولد ==

تهذيب الأمة المصرية وتعليمها . ويؤخذ من أقوال الثقات المعاصرين

== فيها في سنة ١٧٨٧ وسمى يوسف سيف . وكان أبوه صانعاً رقيق الحال فأراد الاستعانة في صناعته بولده يوسف . ولكن هذا كان ميالاً إلى العمل من نوع آخر أرقى من ذلك . فتمرد على أبيه فعاقبه هذا بادخاله في سلك الملاحة الحربية في سنة ١٧٩٩ وهو بعد في سن الثالثة عشرة . وكم بان اغتباط يوسف بركوب متن الأخطار وعبور البحار إلى أن وقعت معركة الطرف الأغر في سنة ١٨٠٥ بين الأسطولين الانجليزي والفرنسي . وقد أظهر الفتى يوسف من ضروب البسالة ما دل على حسن استعداده للشؤون العسكرية . وبدلاً من أن ينال مكافأة على بسالته هذه حكم عليه بالاعدام لأنه تشاجر مع أحد رؤسائه فانتقل العتاب إلى الملاكمة . وكان يوسف خشن الطبع عنيف الخلق فصبر حتى اعتدى عليه رئيسه وجرحه فانهاه عليه يوسف وما زال يضربه حتى كاد أن يقضى عليه . على أن المقادير بعثت إلى يوسف بالمدعو الكونت بولدى سيغوريقال ، وكان يوسف خلصه من الموت مرة فتوسط في الغاء الحكم العسكري وإرسال الشاب إلى صفوف الجيش الفرنسي بايطاليا .

ووقع سيف أسيراً بأيدي النمساويين في أثناء الحرب الفرنسية النمساوية وظل عامين في الغربة . ثم انخرط في حملة نابليون على روسيا وأظهر من الشجاعة والاقدام ما لفت إليه نظر بونايرت بصفة خاصة . فأراد مكافأته بنيشان الليجيون دونور . فلما دعاه إليه لمح منه استخفافاً بهذا النيشان فحنق عليه وحرمه منه . على أنه ما لبث أن رقاها إلى رتبة كولونيل بعد عودة تلك الحملة المنكودة الحظ .

ولما أفل نجم بونايرت وطوحت به يد القدر إلى جزيرة القديسة هيلانة خرج سيف من الجندية وعكف على التجارة التماساً للعيش وكان حظه منها قليلاً . وما لبث أن سمع بأن العجم في حاجة إلى ضباط حاذقين في تدريب الجند فذهب إلى صديقه الكونت السالف الذكر يستكتبه كتاب توصية إلى الشاه فنصح له الكونت بالتوجه إلى محمد علي باشا في مصر .

فجاء إلى القاهرة في سنة ١٨١٩ مزوداً بكتاب توصية . فأكرم محمد علي وفادته وبعث به إلى السودان للبحث عن بعض المعادن . ولكنه عاد بلا جدوى إلى القاهرة في يوم عودة الجيوش المصرية مظفرة من الحرب الوهاية .

وإذ ذاك عهد محمد علي إلى سيف بتدريب الجيش المصري على أسس النظام العسكري ==



محمد علی باشا فی موکبه
و خلفه سلیمان باشا الفرنساوی ثم ابراهیم باشا



كلوت بك

ان نظام التعليم في مصر لم يكن في سنة ١٨٣٠ يختلف كثيراً عنه في غرب أوروبا فقد كانت هناك وزارة للعارف وإدارة باهرة تضم مدارس ابتدائية وثانوية وفنية ويقال أن عدد تلاميذ هذه المدارس الأخيرة بلغ على الأقل ٩٠٠٠ تلميذ (١) بيد أنه يلوح أن قيمة محصول هذه الإدارة كانت موضع شك . فان

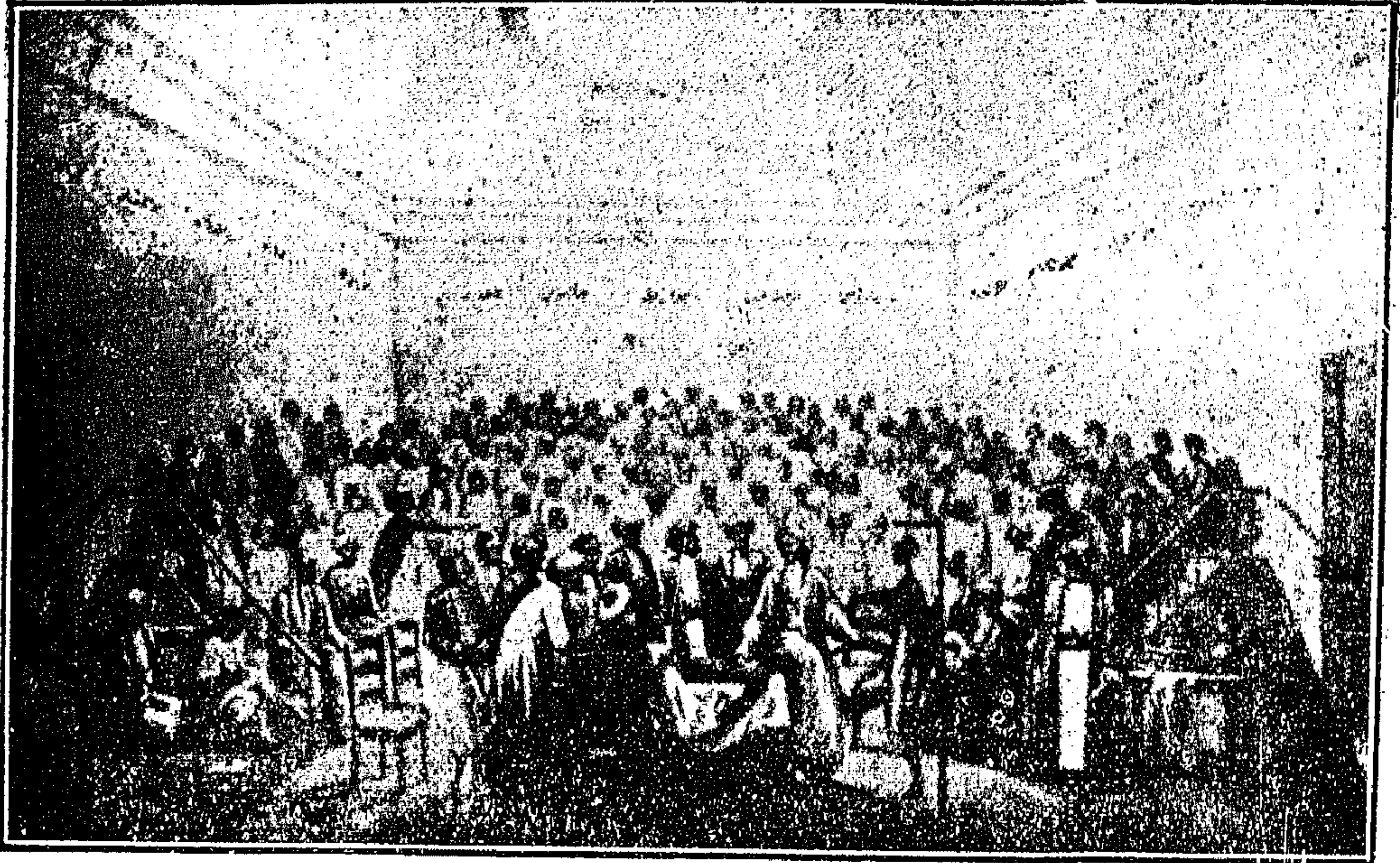
الفرنسي . فقام الكولونيل بهمته أجل قيام وحارب تحت علم الحكومة المصرية في حروب

المورة و سوريا وتوفي بمصر سنة ١٨٦٠

على أن محمدا عليا لم يكتب ، بما تقدم من الاصلاحات العسكرية بل أنشأ في الاسكندرية ترسانة جاء إليها بالسفن والدوارع من مرسيليا والبندقية وأسس فيها مدرسة جلب إليها الأساتذة من فرنسا وانجلترا وبنى حول الاسكندرية حصنا منيعاً كما بنى الحصون في مختلف الجهات .

(١) الآن وقد وصلنا إلى ذكر كلوت بك فلا نريد أن نعتذر للقراء عن كثرة الاقتباس مما كتبه الغير عن محمد علي باشا . فقد رأينا ورأى القراء معنا أننا أمام سيل جارف من الاصلاحات قام بها ذلك العبقرى الفذ مما لم يتسع له كتاب المستر يانج الذى عربناه هنا . فانصافاً للحقيقة وتنويراً للاذهان لم نر مناصاً من استخراج هذه المعلومات النفيسة التى ظلت مدفونة فى بطون الكتب مهما اتهمنا البعض بالتطويل . وإليك صفحة أخرى من صفحات محمد علي الناصعة عشرنا عليها فى كتاب « مشاهير الشرق » للرحوم مؤسس الهلال بمناسبة ذلك العصامى الكبير كلوت بك رأينا أن نلخصها هنا للمعرفة بعض ما أسداه محمد علي من الفضل لهذه البلاد فحسب بل وليرى القارىء مثلاً صالحاً من أمثلة الاعتماد على النفس يضربه لنا كلوت بك « المعرب »

عند ما رأى منشئ مصر الحديثة محمد علي الكبير أن ما وضعه المصلحون فى لبنان الحملة الفرنسية من البذرة الصالحة فى تربة مصر لا سبيل إلى نموه ان لم يتعهده بالسقاية — وقد رأيت فيما مر بك مبلغ عنايته بها — التفت إلى الناحية العلمية فرأى = هذه الصورة مهداة للمعرب من سمو الأمير عمر طوسون .



كلوت بك يلقى أول درس في التشريح على تلاميذه في مدرسة الطب بمصر سنة ١٨٢٧

== أن يستقدم من أوروبا للاصلاح العلمى النطاسى الشهير الدكتور كلوت بك . وكان قد أراد في بداية الامر أن يعنى الدكتور بتطبيب الجيش منعاً لتفشى الامراض وما لبث ان امتد نشاطه إلى نواح أخرى .

ولد أنطون برطلى كلوت في مدينة جرينوبل بفرنسا في سنة ١٧٩٣ من أبوين فقيرين ونشأ نشأة الشظف والعسر واغرم منذ نعومة أظفاره بتشريح الحشرات ودرس طبائعها . وفي سنة ١٨١١ توفى والده بعد أن نزح إلى برينول . وكان للوالد صديق اسمه الدكتور سايبه فلمح مخايل النجابة على الغلام انطون فاتخذه مساعداً له في أعماله الطبية وللمرمن على الجراحة . فانكب أنطون على كتب الطب والجراحة يستوعب ما فيها في أوقات فراغه ثم رأى أن برينول تضيق بما يجيش في نفسه فسافر إلى مرسيليا برغم نصيحة والدته إذ كان وحيداً . ولكنه لم يصادف فيها إلا الخيبة فهم بالالتحاق باحدى السفن بصفته جراحاً للملاحية وسداً لحاجته وكان ذلك وهو في سن التاسعة عشرة . ولكن لحسن حظ انطون رفضه الربان وغرقت السفينة في تلك الرحلة .

فدفعت الفاقة أنطون كلوت الى تعاطى مهنة الخلافة فجعل يتردد على حلاق يعالج بالفصد والجراحة الصغرى . ثم عاد إلى بلده راغماً والتحق بالمستشفى بعد كثرة الالتماس ==

الفصول كانت تغص بتلاميذ باكين انتزعوا عنوة من أحضان والديهم
الساخطين . ثم لا يعرف بالضبط ماذا كان مصير هؤلاء التلاميذ بعد
مغادرتهم المدرسة ويجوز أن يعزى إلى ما قام به محمد علي من التجارب
التهذيبية قسم كبير من سرعة التطور السياسي في مصر إذا قورنت بغيرها
من الولايات الأفريقية التابعة للإمبراطورية العثمانية .
على أن الفضل يعود بلا ريب للجيش في أن هذه القوة المستبدة
تقدمت بأكبر خدمة لا يجاد أمة مصرية . وإذا كانت مصر قد ظلت طيلة

== وانكب على المطالعة حتى بز أقرانه وان كان الفقر مازال يصاحبه .
وفي سنة ١٨١٧ أتم دروسه وعين طبيباً صحياً بعد أن درس العلوم بنفسه وأتقن
اللغة اللاتينية على أحد القسس ونال درجة بكالوريوس في العلوم .
وفي سنة ١٨٢٠ أحرز درجة الدكتوراه بعد عناء ليس بعده عناء . ومن ثم أصبح
قابضاً على المفتاح الذي يستطيع التعيش به . فعاد إلى مرسيليا وعين طبيباً ثانياً بمستشفى
الصدقة ومستشاراً جراحياً بمستشفى الأيتام . ولكن أرباب السعاليات تسببوا في إقالته
من هذا المنصب . فأكب على العمل مرة أخرى والف كتباً عن استعمال آلات الولادة
في الأحوال الخطرة . ومن ثم أصبح دكتوراً يشار إليه بالبنان في فن الجراحة وطبقت
شهرته مرسيليا .

وفي سنة ١٨٢٥ اجتمع به الميسوتورنو أحد تجار الفرنسيين بمصر وكان قد عهد
إليه محمد علي باختيار طبيب بارع يليق بمنصب طبيب لجيشه . فخب إليه الذهاب إلى
مصر فاجاب عن طيبة خاطر . فلما هبط مصر رأى أمامه بأوسعاً للعمل الصالح والاصلاح
الطبي . وكان موضع ثقة محمد علي الذي لم يكن يتأخر عن تلبية ما يشير به عليه . فأسس
بمشورته مجلساً صحياً ليستعين بأعضائه على الاجراء والتنفيذ وبث الوصايا الصحية مرتبة على
مثال المجالس الصحية الفرنسية . وتماماً للنظام العسكري أنشأ المستشفيات العسكرية
ومصلحة الصحة البحرية . ولما كانت المستشفيات تحتاج إلى أطباء وتمورية وغيرهم
من كانت تفتقر البلاد اليهم اضطرت كلوت بك أن يعلم كلا من هؤلاء واجباته من التطبيب
وملاحظة المرضى وغير ذلك . واشهر المستشفيات التي بنيت بمشورته مستشفى أبي زعبل
وكان مقر الجند . وأنشئ في المستشفى بستان للبنات .

القرون الوسطى كمجرد ولاية لا أكثر ولا أقل فبسبب ذلك أن المصري لم يألف القتال منذ نشأته كلا ولا خطر بيال غيره بتاتا أنه سوف يضطر يوماً ما إلى القتال . بيد أنه كان لا بد من إيجاد جيش على الطراز الأوربي كدعامة أولى لتوطيد النظام الجديد وهو ما شرع محمد علي في تحقيقه

== وفي سنة ١٨٢٨ أسس المدرسة الطبية في القرية المذكورة . وقد أراد أن لا يقصر الطب على الجيش بل أن يتعلمه أبناء البلاد . وكان في أول عهد هذه المدرسة يقوم هو بالقاء الدروس بواسطة المترجمين . وبذلك ترجمت عدة كتب نفيسة في الطب والجراحة والعلوم الطبيعية وغيرها . ولئن كان التشريع أمراً منكراً في نظر الأهالي إلا أن كلوت بك حصل على إذن بالتشريح سرا وإن كان ذلك لم ينجح من محاولة أحد الأهالي قتله خلسة بخنجر ولكنه لم ينجح .

وفي سنة ١٨٣٢ سافر كلوت بك في ١٢ من تلامذة مدرسته هذه لامتحانهم في باريس فامتحنتهم الجمعية العلمية الطبية وخرجوا من الامتحان بأرقى الشهادات وأسماها . وها هي أسماؤهم .

أحمد الرشيدى وحسن الرشيدى ومحمد منصور وإبراهيم النبراوى وحسين الهياوى وعيسوى النحراوى ومصطفى السبكى ومحمد الشباسبى ومحمد السكرى ومحمد الشافعى وأحمد بخيت ومحمد على البقلى .

ولشد ما كان سرور كلوت وابتهاجه بنجاح تلاميذه لأنهم كانوا بمثابة النواة في نشر الفوائد الصحية والطبية في مصر . وها نحن ننشر في الصفحة التالية صورة أحدهم المرحوم محمد على باشا البقلى الجراح الشهير .

وفي سنة ١٨٣٨ نقلت المدرسة الطبية من أبي زعل إلى القاهرة وهي المعروفة بمدرسة قصر العيني . وأنشئت فيها فصول درس القبالة يتعلمها النساء مراعاة للتقاليد الشرقية . وأنشأ هن مستشفى خاصاً بهن مما كانت له أكبر فائدة فيما بعد نظراً لتجرب النساء وعدم السماح للأطباء بالكشف عليهن عند الوضع .

وأنشأ بعد ذلك الاستشارات الطبية في القاهرة والاسكندرية وألحق بكل منها « أجزاء خاتنة » ولشد ما كانت عناية كلوت بك بدفع غائلة وباء الكوليرا في سنة ١٨٣٠ مما جعل محمداً علياً ينعم عليه برتبة « بك » فكان أول من نال هذه الرتبة من الأجانب . كذلك أنعمت عليه الحكومة الفرنسية برتبة أوفسيه دى ليجيون دونور . كما أهدته ==

بادىء ذى بدء باستخدام رجاله الألبانيين باعتبارهم أقرب العناصر الحربية إليه . ولكن سرعان ما تبين أن تدريب الباشبورق الألبان أشق بمراحل من تنظيم طلبة المدارس الأقباط . فلا غرو أن محاولته تنظيم هؤلاء المأجورين



الدكتور محمد على باشا البقلى الجراح الشهير

وجعلهم جنوداً نظاميين كان نصيبها من الخيبة والفشل نصيب المحاولة الأولى التي قام بها السلطان محمود الثاني لتنظيم الجنودية الانكشارية . من أجل هذا لم يتمكن محمد على من كبح جماح الفتنة التي سببها محاولته هذه إلا بهدم السدود وغمر القاهرة بالمياه . على أنه بعد توزيعه الألبانيين بين حاميات الجهات وتشيتت صفوفهم في حملات الصحراء ومزجهم ببعض بقايا المماليك - بعد هذا كله حاول من جديد أن يشكل منهم جنوداً نظاميين فاستطاع

الدول الأخرى عدة نياشين لمعالجته رعاياها أثناء الوباء المذكور .

وعاد إلى باريس سنة ١٨٤٠ بعد مرافقته لإبراهيم باشا في غزوة سوريا . ثم رجع إلى مصر وظل بها إلى أن انتقل محمد على إلى الرفيق الأعلى وتوفي إبراهيم فعاد إلى مرسيليا

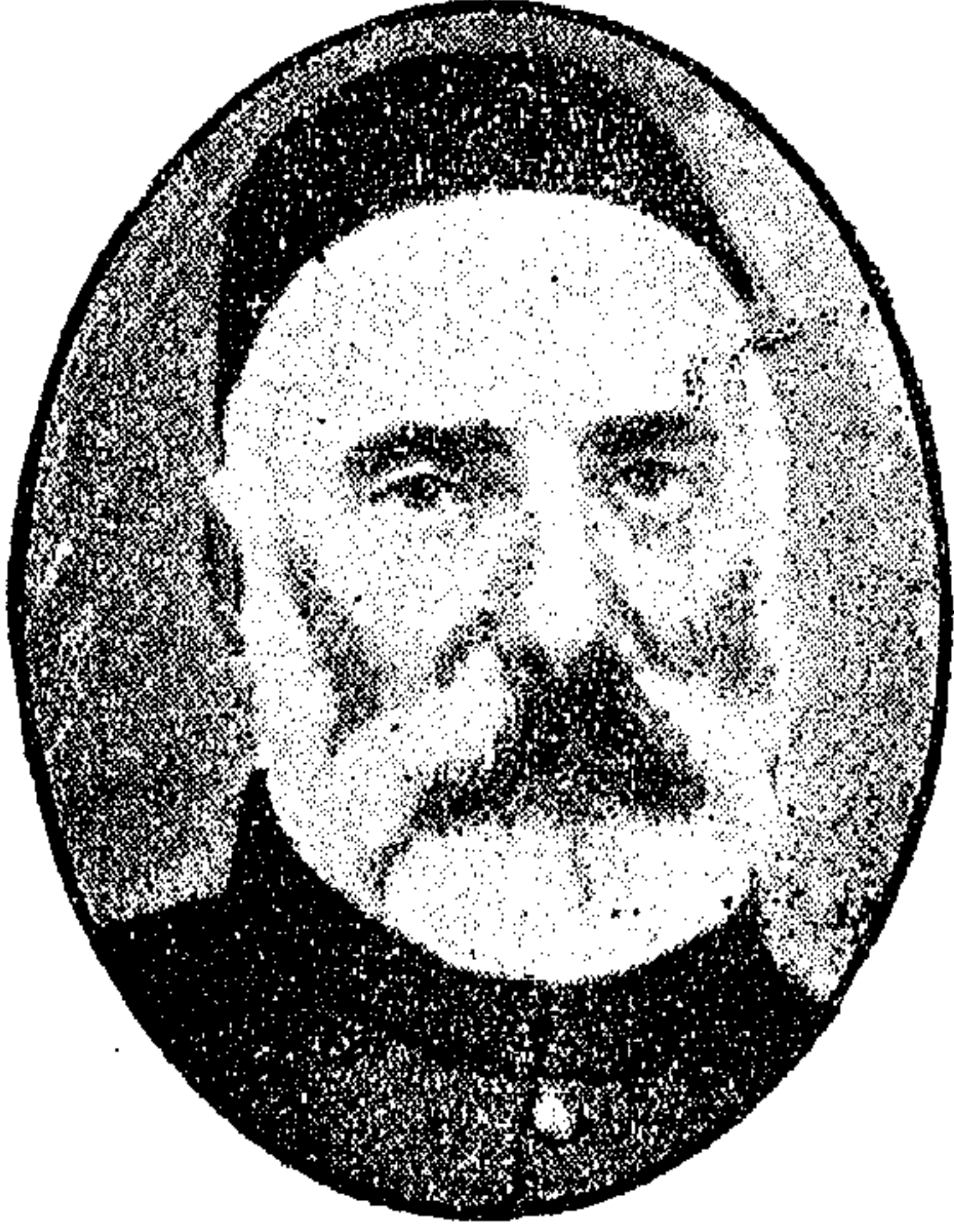
في سنة ١٨٦٠ وتوفي بها في سنة ١٨٦٨



أول بعثة أرسلها محمد علي إلى أوروبا وترى أسماؤها في الهامش *
أن يكون بعض أوطرط من هذا الخليط فعلا . على أن وجود أولاده وسط

== والآن وقد وصل بنا الحديث إلى ذكر الأرسليات فمن ذا الذي لم يسمع بالارساليات العلمية العظيمة التي أوفدها عزيز مصر محمد علي إلى الأقطار الأوربية للاعتراف من معين معارفها وعلومها؟ وإذا كنا قد اقتبسنا بعض ما خطه المنصفون عن أعمال محمد علي وضروب إصلاحاته فترانا مسوقين هنا إلى أن تتم الفائدة ونضع أمام القارئ صورة من أعماله في سبيل رفع شأن العلم ملخصاً عما كتبه صاحب « تاريخ مصر الحديث ». ونحسب أننا لسنا في حاجة إلى الاعتذار عن الاسهاب في الاقتباس فان ما أسداه محمد علي إلى مصر من الناحية العلمية جدير بأن يسجل بما الذهب وهي والحق يقال صحيفة من نور باقية أبد الآبدين. فالتقينا بالملك لتشهد هذه المعجزات التي قام بها ذلك العبقري الكبير « المعرب »

* في الصف الأعلى من اليمين إلى اليسار: مصطفى محرجي مهندس قناطر وجسور ورفاعة بك رافع ناظر مدرسة الآلسن وحسن بك ناظر البحيرة ومحمد بيومي مدرس بمدرسة المهندسخانة والصف الثاني محمد علي مدرس بمدرسة الطب ومحمد شباسي مدرس بمدرسة الطب وعلى باشا مبارك (في الوسط) ووادي بن كلهو ولد في ليمو ومختار بك ناظر المعارف والصف الأسفل محمد بك السكري مدرس بمدرسة الطب وأمين بك ناظر الكهرجالات ومظهر بك مهندس قناطر دجوه ومحمد شافعي ناظر المدرسة الطبية



يوسف بك حكيكيان
ناظر مدرسة المهندسخانة من سنة ١٨٣٤
الى سنة ١٨٣٨ بفرنسا



مصطفى مختار بك
وهر أول ناظر للمعارف من تلامذة
بعثة سنة ١٨٢٦ بفرنسا



وجد نحو ٣٠٠٠ ارتضوا حياة رفاة رافع بك أول ناظر لمدرسة اللغات والالسن

الصفوف بمرتبة جنود بسيطة لم يمنع
استمرار أزيز الرصاص بالقرب
من آذان المدربين الفرنسيين . لهذا
رؤى أنه يستحسن أن يحل محل
الألبان سودانيون . وقد جعل
ابراهيم يسوقهم أمامه إلى القشلاقات
حيث ظلوا معتقلين فيها إلى أن
ماتوا ميتة الضواري في أقفاصها .
ويقال أنه من بين ٢٠٠٠٠ سوداني

== ألف محمد علي مجلساً للمعارف العمومية غايته تعليم خدمة الحكومة الملكيين
والعسكريين ما يؤهلهم للقيام بأعمالهم . وفتح عدة مدارس لتعليم الشبان من أهل البلاد
وبعث بعضهم إلى أوربا لإتمام دروسهم وبلغ عدد من أرسلهم إلى أوربا في زمنه
٣١٩ تليداً أنفق عليهم ٢٢٤٠٠٠ جنيه .



لمير بك ناظر مدرسة المهندسخانة من حسين باشا الاسكندراني ناظر البحرية من
سنة ١٨٣٨ الى ١٨٤٩ تلاميذ بعثة سنة ١٨٢٦ بفرنسا

== وقد رأيت أن المدارس في مصر كانت في بداية أمرها تابعة للعسكرية فاغتنم محمد على فرصة عودة بعض طلبة إحدى الارساليات من أوروبا في سنة ١٨٢٦ وأنشأ مجلساً خاصاً بالمدارس سماه ديوان المدارس برئاسة مختار بك أحد الطلبة العائدين من أوروبا. وكان من أعضائه: كلوت بك وكياني بك وأرتين بك (والد يعقوب أرتين باشا) وهكيان بك وأرين بك ورفاعة بك ويومي أفندي ولميروهامون وروزل (سكرتير) وليس يفوتنا هنا أن نذكر أن محمداً علياً ساوى في هذا المحل بين الفرنسيين والأرمن والمصريين وكان هم هؤلاء متجهها نحو انشاء دولة اسلامية عربية في مصر عدا الدولة الاسلامية التركية.

وبعد أن تألف ديوان المدارس استأذن أعضاؤه محمداً علياً في الاكثار من المصريين في المدارس فأذن لهم، فأنشأوا مدارس ابتدائية وثانوية في كافة أنحاء القطر على نمط المدارس الفرنسية حيث كانوا يعلمون المواد الآتية: القرآن والخط واللغة العربية والتركية والفرنسية ومبادئ الحساب والتاريخ والجغرافيا والرسم. وكانت اللغة العربية هي طبعاً لغة التدريس. وبعد سنوات قلائل أصبح عدد المدارس التابعة للديوان المذكور ٧٠ مدرسة منها ١٦ مدرسة كبرى وهي:



عبدى شكرى باشا ناظر المعارف من سنة
١٨٥٠ الى ١٨٥٤ وهو من تلاميذ
بعثة سنة ١٨٢٦ بفرنسا

الجيش واستمروا يخدمون فيه . فلما
أعيت محمدا عليا الحيل التجأ في النهاية
إلى تجنيد المصريين فجاء إليه بفقرءاء
الفلاحين أو بالمغضوب عليهم من
العمدوسيقوا طوائف طوائف إلى
القشلاقات وفي أيديهم الأغلال . وقد
توفي كثيرون منهم في أثناء الطريق
ولكن اقوياءهم صاروا فيما بعد خيرة
الجنود المشاة . فلما أبصر زعماء
الالبانيين ذات يوم ست أورط

تاريخ تأسيسها	اسم المدرسة	تاريخ تأسيسها	اسم المدرسة
١٨٣١	مدرسة طب الحيوان	١٨٢٤	مدرسة الموسيقى العسكرية
١٨٣٤	» التعدين	١٨٢٤	» الحزبية في قصر العنى
١٨٣٤	» الهندسة	١٨٢٧	» الطب والصيدلة
١٨٣٧	» الزراعة	١٨٢٩	» الكيمياء العملية
١٨٣٧	» الولادة	١٨٣١	» المشاة
١٨٣٧	» الادارة الملكية والحسابات	١٨٣١	» الفرسان
١٨٣٧	» الألسن والترجمة	١٨٣١	» الطوبجية
١٨٣٩	» الصنائع والفنون	١٨٣١	» البحرية

وبلغ عدد التلاميذ في هذه المدارس ٩٠٠٠ كانت الحكومة تنفق على تعليمهم
وطعامهم ولبسهم وسكنهم وكان التلاميذ يدخلون المدارس كرهاً .

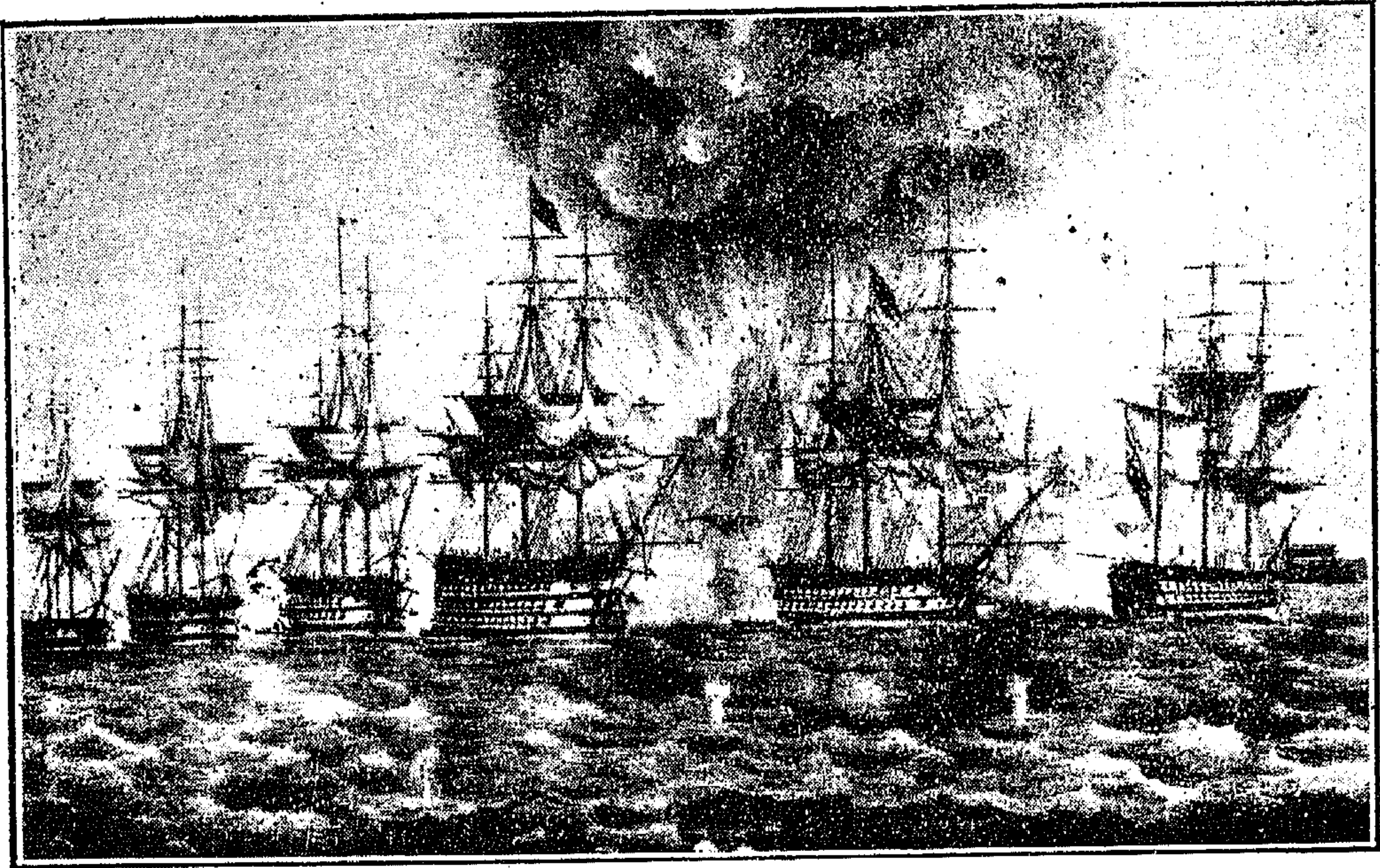
هذا فيما يتعلق بالتعليم الثانوى أما التعليم العالى فان ديوان المدارس قرر عجز مصر
عن القيام به لعدم وجود الاساتذة القادرين من جهة ولخلو اللغة العربية من الكتب
اللازمة لهذه العلوم من جهة أخرى . ومن ثم قررت الحكومة ارسال البعثات الى أوروبا
مع اشتراط معرفة لغة البلاد التى يرسل اليها الطلبة . ولهذه الغاية أنشئت مدرسة مصرية
في باريس تولى ادارتها مصرى اسمه اسطفان بك ووكيله الارمنى خليل افندى جيراكيان =



المرحوم الدكتور درى باشا الأستاذ الأول فى الجراحة بالقصر العيني
من الجنود النظاميين المصريين تجوب شوارع القاهرة يصحبهم ضباطهم
الفرنسيون ايقنوا أن يومهم قد فات فغادروا مصر فى الخامس مرعى
صالح جديد .

وفى سنة ١٨٢٣ كان لدى محمد على ٢٠٠٠٠ جندى نظامى بلغوا فى
سنة ١٨٢٦ نحو ٩٠٠٠٠ جندى . أما الطوبجية وهيئة أركان الحرب فقد
رفعها المدربون الفرنسيون إلى المستوى الأوربى . ثم ان مصر بفضل
المساعدة الفرنسية أصبح لها أسطول فى مياه البحر الأحمر وآخر فى البحر

وَأخذت الحكومة الفرنسية تعين اساتذتها . وذهب الى هذه المدرسة نحو ٤ طالب
منهم بعض أمراء الاسرة الخديوية كالامير حلیم والأمير حسين ابنا محمد على والامير
احمد والامير اسماعيل (الخديو) ابنا ابراهيم . وقد اتوى ابراهيم باشا الاهتمام بأمر هذه
المدرسة ولكن عاجلته المنية بعد عودته الى مصر من باريس فأغلقها فرنسا فى سنة ١٨٤٨
وليس يفوتنا أن نذكر هنا أن محمدا عليا هو الذى أنشأ المطبعة الاهلية بيولاى
على انقاض المطبعة التى جاء بها بونا برت كما أنه هو الذى أنشأ الوقائع المصرية ،
وديوان المهندسخانة وأمر بترجمة عدة كتب مفيدة فى لغات عديدة كالفرنسية
والتركية والفارسية .



معركة نافار بريشة المصور اليوناني كوستاس رومانيدس
المتوسط . وقد كانت السفن الحربية في مطهرها على الأقل جديدة باسطول
إحدى دول الدرجة الثانية . وبينما كانت قطع الاسطول الأول الذي حطم في
موقعة نافار مشتراة من الخارج كانت قطع الأسطول الثاني من صنع مصر .
وقد بلغ عدد قطع الأسطول المصري في سنة ١٨٣٢ ثمانى مدرعات و ١٥
بارجة بينما كان عدد الملاحين ١٢٠٠٠ . أما عمارة البحر الأحمر التي
حملت الابل أخشابها عبر البرزخ فهي والحق يقال أول من قطع دابر
القرصان في تلك المياه .

وهكذا اجتازت مصر ثورة رفعتها من مجرد ولاية محتقرة تابعة
لإمبراطورية مضمحلة إلى مستوى دولة عسكرية تخطو خطوات واسعات
في سبيل التقدم والرقى . فلا غرو إذا هاج هائج أوربا عند ما شهدت ما قام
به هذا الشرق الأوتقراطى من تجارب اشتراكية . وأماننا صورة بهيجة
لهذا الباشا العنيف ذى الحواجب الكثة واللحية البيضاء المدبية والطربوش
المعمم والسراويل الفضفاضة وقد شددت إلى حيازيمه أسلحته المرصعة

بالجواهر وهو مطرق الرأس يصغى إلى ما كتبه أرميا بنتام من خطابات مطولة في فلسفة السياسة بقصد تنويره وثقيفه . إلا أنه برغم هذا كله لم يسمح للساسة الفرنسيين بأن يغيروا شيئاً من أساليبه . فاذا ما جاءه مثلاً خباز يشكو حيفاً أصابه من العمدة أمر بالقاء هذا في فرن الخباز ليحترق . ولكننا إلى جانب هذا نراه يصفح عن بائس عضه الجوع فحاول اغتياله (محمد علي) . وقد كان الصفع من أن الاستيثاق أن استغاثته الماضية ذهبت أدراج الرياح . وقد مضى محمد علي معظم أيامه على ظهور الجياد بينما كان نومه على سجادة بجوار سريره الفرنسي ذي الأعمدة الأربعة^(١)



محمد علي باشا يستقبل سفراء الدول

صفات محمد علي وأخلاقه

(١) هذا ما يقوله المستريانج عن صفات محمد علي ومناقبه وإليك صورة صحيحة عن أخلاق هذا العمقري الكبير كما ذكرها صاحب «تاريخ مصر الحديث» وهي صفات جديرة بأن توحي إلى صاحبها باتيان ما أتاه من المعجزات «المعرب»
كان محمد علي متوسط القامة عالي الجبهة أصلع الرأس بارز القوس الحاجبي اسود العينين غائرهما صغير الفم مع ابتسام كبير الأنف متناسب الملامح مع هيئة ووداعة =

ولم يقتصر ما تركته هذه الثورة المصرية من الأثر في نفس أوربا على ما أثارته من الاهتمام بها بل كان لها فعلا أثر معين في سير الحوادث



قواد جيش محمد علي يقسمون على القرآن بالتفاني في خدمته

أيض اللحية كشفها مع استدارة وسعة جميل اليمين منتصب القامة جميل الهيئة ثابت الخطوات منتظمها سريع الحركة. كان بعيداً عن التألق ولذلك كان لباسه على طراز المماليك أي العمامة أو الطربوش. ثم ابدل اللباس العسكري في أواخر أيامه بلباس واسع بسيط لا يميزه عن لباس أتباعه.

كان يكره التفاخر بالحاشية ولهذا لم يكن يخضر بابه إلا لرجل واحد. وإذا استوى في مجلسه لا يتقلد السلاح بل يجلس وفي يده حق السعوط والمسبحة. وكان ولعاً بلعبة البليارد والداما ولا يتعالى عن مجالسة صغار الضباط، أما جلساؤه العاديون فالقناصل وكبار السياح وكانوا يحمونهم ويحترمونه ويلقبونه بمسيد المماليك أو مصلح الديار المصرية. وكان سليم القلب معدهاء وسياسة سريعة التأثير لا يعرف الكظم وكان كريم النفس سخى العطاء إلى درجة الاسراف في بعض الأحيان. وكان شديد التفاخر بعصاميته ويرتاح للتكلم عن سابق حياته. وكان شديد الولع بالاطلاع ولا سيما على الأخبار السياسية. وكان يجلس الصحف ويؤمن بتأثيرها في الحياة الاجتماعية ولذلك كانوا يترجمونها له فيطالعها بتمعن.

الأوربية. وكادت تسبب حرباً عامة في تلك القارة. ولما كنا لانروى تاريخ أوروبا بل تاريخ مصر فلن نفسح مجال الكلام عن هذا الجانب من نشاط محمد علي ونجاحه لأن غزواته في بلاد العرب والأناضول وبحر ايجيه وما أحرزه من انتصارات ضد متعصي الأعراب وثور اليونانيين وما أصيب به على أيدي أمراء البحر الانجليز وارسنقراطيينهم من الهزائم - كل ذلك لم يكن له أى أثر فعلى في تاريخ مصر .

وقد اتخذ محمد علي مبدأ جعله قاعدة سياسته الخارجية الاوهورشوة السلطان تارة والتشاجر معه تارة أخرى ليحمله على الاعتراف بسيادته وسيادة ذريته من بعده على مصر المستقلة استقلالاً داخلياً . أما مبدأ جعل مصر مستقلة عن الدول فقد كانت سياسته لتحقيق هذه الغاية ترمى إلى إيقاع هذه الدول بعضها في بعض أو تحريضها على الباب العالي . وكان من رأيه أن

= وكان يستيقظ حوالى الساعة الرابعة صباحاً ويقضى نهاره في شئون الدولة . وكان بارعاً في الحساب بغير تعلم لأنه شرع يتعلم القراءة والكتابة في سن الخامسة والأربعين (وهذا ما ينطق بفضله وبعد نظره وصفاء ذهنه ويبرهن على ما حبته به الطبيعة من قوة الادراك والحدق والمعدرة على تصريف المعضلات السياسية). وكان حازم المعاملة مع لين ورقة وحسن أسلوب ، وكان شديد التمسك بالاسلام مع شدة احترامه لتعاليم الأديان الأخرى وبخاصة الدين المسيحى فكان يقرب أصحابها منه ويعهد إليهم بأهم أعماله كما قام الدليل على ذلك في كثير مما مر بك .

وبالجملة فلقد كان الرجل أباً حنوناً لرعيته وصديقاً مخلصاً ونصيراً مسعفاً لذوى قرباه وأباً حقيقياً لأولاده . وهل أدل على ذلك من الحزن الذى لازمه حتى اللحد بعد ما اختطفتمهم يد المنون منه ، ولعمرك لا تلتفت يمنية أو يسرة سواء أفى مصر أم فى الشام أم فى السودان أم فى شبه جزيرة العرب إلا وجدت آثاراً ناطقة بما أثر ذلك الرجل الذى كان غرة فى جبين الدهر والذى أنشأ من العدم دولة كادت لولا الظروف المعاكسة أن تسير فى طليعة الدول الأخرى وأن تتبوأ المركز اللائق بها تحت قرص الشمس .



الشيخ محمد عبد الوهاب
مؤسس المذهب الوهابي

أنجع وسيلة للحصول على ما يشاء من
الآستانة هي في التظاهر بالقوة من جهة
وبحاجة تركيا اليه في الوقت نفسه من
الجهة الأخرى. ولما كانت أمام زميله
في الإصلاح الأوهو الخليفة السلطان
محمود مصعب تربو على مصاعبه فانه
كان لا يفتر عن المطالبة بكل ما يستطيع
أن تقدمه اليه مصر من المساعدة المالية
أو الحرية. وكان محمد علي بصفته من
أكبر أنصار الجامعة الإسلامية لا يرضى

بتقديم هذه المساعدة طالما كان في إمكانه التوفيق بينها وبين مصالحه الخاصة.
وقد كانت أول حرب أجنبية خاض بالجيش المصري غمارها هي
الحرب العربية: فان الأعراب قد صاروا خطراً يخشى منه على الإمبراطورية
العثمانية ومصر. لان العودة الى التمسك بمبادئ الدين الإسلامي الصحيحة
واقْتِنَاء أثر السلف الصالح مما كان يبشر به محمد بن عبد الوهاب (١٦٩٥ -
١٧٩١) قد أدى الى جمع شمل العشائر في بلاد العرب ووحدها تحت
زعامة أسرة ابن السعود^(١) وفعلاً وصلت هذه الحركة الى أوجها في عهد

(١) لعبت الحرب الوهابية دوراً مهماً في العلاقات بين مصر وسلاطين نجد مما
لا يزال أثره موجوداً إلى اليوم، ولما كان المذهب الوهابي لا يعرفه إلا القليلون خارج
الجزيرة العربية فقد رأينا أن نلقى عليه ضوءاً بسيطاً لتتسنى معرفة نشأة هذا المذهب
وكيفية انتشاره.

ولسنا نرجم بالغيب فيما نكتبه هنا. فلقد وقع اختيار حكومة جلالة ابن السعود على
مغرب هذا الكتاب في ربيع سنة ١٩٢٩ لمرافقة مستشار جلالتهم (الشيخ حافظ وهبه)
كسرتير له في إبان انعقاد مؤتمر البريد الدولي في لندن. ثم انتهزت الحكومة الحجازية
الفرصة وعهدت إلى مستشارها المذكور بإجراء مفاوضات مع الحكومة البريطانية =

ابن السعود الثاني وهو الذي استولى على الاماكن المقدسة وصار يهدد بغداد ودمشق . وما حانت سنة ١٨٠٦ حتى كانت شبه جزيرة العرب قد اعتنقت المذهب الوهابي وأوصدت أبوابها في وجوه المسلمين الآخرين

== لانشاء مفوضية حجازية في العاصمة الانجليزية . ولما كان حضرة المستشار يجهل اللغة الانجليزية فقد كان من الطبيعي أن أقوم أنا بدور المترجم حينما دارت المحادثات بين حضرته وبين فخامة المستر هندرسن وكبار رجال وزارة الخارجية خاصة بهذا الموضوع . ولما كان حضرة الشيخ حافظ قد لحظ أن الجمهور في إنجلترا لا يعرف عن الحركة الوهابية إلا القليل المشوه فقد رأى أن ينوره بالقاء خطبة في الموضوع عهد الى بوضعها باللغة الانجليزية والقائها في يوم ٥ يولية سنة ١٩٢٩ بدار الجمعية الآسيوية في لندن حيث كان الاجتماع برئاسة لورد النبي . وقد حضره جمهرة من أعلام الرأي وكبار المستشرقين الانجليز الذين تقاطروا على الدار لسماع كلمة رسمية عن هذا المذهب الذي كانوا يعدونه غريبا وغير مألوف .

ولهذا رأينا أن نقتطف هنا ما ورد عن التعاليم الوهابية ونشأة صاحبها في الخطبة المذكورة التي ألقيناها في دار الجمعية الآسيوية في لندن لأنها تعبر عن وجهة النظر الرسمية .

ظهور زعيم الوهابيين

ففي سنة ١٧٠٣ هـ ولد محمد بن عبد الوهاب في جهة العيينة في شمالي مدينة الرياض عاصمة نجد . فلتقى العلوم الابتدائية على أبيه وكان شيخاً فقيهاً فتمذهب بالمذهب الحنبلي ثم سافر فيما بعد لتمام دروسه في جهات الحضا والحجاز والبصرة . ومن ثم أصبح الشاب محمد حجة في الحديث وعلم الأصول واللغة كما اشتهر بالصلاح والتقوى والتقشف والمحافظة على قواعد الدين الأصلية البسيطة في النفور من البدع وشن الغارة عليها . ثم عكف على دراسة كتب ابن تيمية وتلاميذه وأخصصهم ابن القيم وابن كثير وراقته إلى أبعد حد لأنها تدعوا إلى البساطة الاسلامية .

وكانت بلاد نجد عند ما غادرها محمد بن عبد الوهاب مسرحاً للخلافات الطائفية والحروب الأهلية هذا فضلا عن تفشي الخرافات الدينية . فلما عاد إليها بعد أسفاره الآتفة الذكر وألقى عصا تسياره في بلدته العيينة وألقى بلاده على حالتها هذه شمر عن ساعده واعتزم أن يطهرها من أرجاسها وأن يعيدها إلى البساطة الاسلامية والدين الصحيح الخالي من الخزعبلات والبدع .

حتى الحجاج . ومن الجهة الاخرى فان قرصان الوهايين سدوا منافذ البحر الاحمر وانتشروا يعيشون في المحيط الهندي فسادا . وهكذا أصبح في وسع الوهايين أن يخزوا بالابر بهذه الأعمال امراطوريتين اثنتين

== وكان ينشر دعايته بالطرق السلية واتصل بكبار الفقهاء والمسلمين في البلاد الاسلامية الأخرى وما برح يبتهم شكواه مما نزل بالاسلام وأحاط به من الخرافات التي ليست منه في شيء . ويناشدهم أن يهبوا هبة قوية لتطهيره والعودة به إلى سيرته الأولى .

وكان محمد بن عبد الوهاب لا ينفك عن المطالبة بتطبيق أحكام القصاص الواردة في القرآن الشريف ومنها الحكم بالرجم على امرأة عاهرة جاءت تلتمس التوبة فصددها عدة مرات - نقول لما كان هذا كذلك كان طبيعيا أن تغضب تعاليمه أمراء العرب الذين بدأوا يتوجسون خوفا منها . فبعث أمير الحسا إلى شيخ العيينة ينذره بمهاجمة المدينة إن لم يطرد منها الشيخ محمد بن عبد الوهاب .

وما كاد نبأ هذا الطرد أن يتصل ببعض أتباعه ومريديه في جهة الدرعية وأميرها محمد بن السعود حتى استأذنوه في استقدام الشيخ محمد فأذن لهم . فلما قابله أحسن وفادته وبالغ في إكرامه . وسرعان ما تعاقد معه على العمل سويا لتطهير الجزيرة العربية من الخرافات والبدع ونشر التعاليم الدينية الصحيحة بين أهل البدو والحضر ووعده بمساعدته ضد كل من يحاول الوقوف في وجه هذه الدعاية . ولأول مرة شعر الزعيم الوهابي بأن الله قد شد عضده وأن النصر سوف يؤاتيه حقا .

التعاليم الوهابية

أما أساس مذهب محمد بن عبد الوهاب فهو أن الله وحده هو كل شيء ولا يجوز التوسل إليه بسواه . وتلخص تعاليمه فيما يأتي :

- (١) الصلوات الخمس (٢) وصوم رمضان (٣) وتحريم المسكرات (٤) وتحريم الزنا
- (٥) وتحريم الخمر والميسر (٦) والزكاة (٧) ومنع شهادة الزور والتشدد في معاقبة فاعلها
- (٨) وتحريم الربا (٩) والحج (١٠) ومنع التدخين (١١) ومنع الرجال من الزينة ولبس الحرير لأنه من أدوات النساء . (١٢) وهدم المزارات والقباب على أضرحة الأولياء لأنه يعتبر من الوثنية ويشغل الناس عن التوجه لوجه الله تعالى (١٣) وفتح باب الاجتهاد أمام كل من يستطيع الاستنباط من أحكام القرآن (١٤) والاعتماد للانسان إلا على ما يقدم من الأعمال الصالحة .

في موضعين من المواضع الحساسة. أما الامبراطورية التركية فانهم وخزوها في سلطتها الدينية كما انهم وخزوا الامبراطورية البريطانية في قوتها البحرية. وهذا ما حمل الانجليز على مد أيديهم الى محمد علي يدعونه الى عقد محالفة بحرية ضدهم. ولكن حذره من الانجليز كان أشد مما ينبغي كما يؤخذ من جوابه على اقتراح المستر بورخاردت مندوب جمعية افريقيا

== ولبت محمد بن عبد الوهاب ينشر الدعاية بالحكمة والموعظة الحسنة بينما كان محمد ابن السعود يبسط نفوذه على نجد وغيرها بالحسام. وأخيرا تزوج ابن السعود بابنة محمد ابن عبد الوهاب فزادت الروابط بينهما توثقا ثم استولدها ابنه عبدالعزيز الذي خلف أباه محمد بن السعود عند وفاته في سنة ١٧٦٥

وقد استمرت الحروب الدينية بين القبائل العربية بسبب الدعاية الوهابية زهاء ستين عاما ازداد في خلالها أنصار ابن عبد الوهاب وأصبحوا جنداً عديدين حمل بهم على أطراف جزيرة العرب.

وفي سنة ١٧٩١ توفي محمد بن عبد الوهاب وقام أولاده بعده بمهمة أيهم معتمدين على مساعدة ابن السعود. أما عبد العزيز بن السعود فقد كان عظيم الشجاعة شديد البطش وقد قتل غدرأ في أثناء الصلاة بيد أحد الفرس في سنة ١٨٠٣ خلفه ابنه سعود وكان قد تعود السكر والفر في حدائثه حتى أنه قاد الجحافل وهو في السنة الثانية عشرة من العمر. وانتشرت سطوة الأمير سعود وخشيت منه تركيا على أملاكها في الشام والعراق فأرسلت اليه حملة بقيادة سليمان باشا فشتتها. ثم حمل في ٢٠٠٠٠ رجل على كربلاء وفيها قبور أئمة الشيعة وصاح برجاله « اقتلوا هؤلاء الكفار الذين يشركون بالله » فلبى رجاله أوامره وهدموا القبور والأضرحة.

وفي ٢٧ ابريل سنة ١٨٠٣ استولى الأمير سعود على مكة ودخل الكعبة وأبطل التدخين وكف الناس عن تعاطي المسكرات وعكفوا على الصلوات وبعث كتابا إلى السلطان العثماني يطلب فيه عدم إرسال الحمل المصري إلى الحجاز مصحوبا بالطبول والزمور.

وفي هذه السنة نفسها دخل الأمير سعود المدينة المنورة وأخذ في نشر سيادته على بلاد العرب حتى بلغت حدود مملكته في سنة ١٨٠٩ شمالا صحراء سوريا وجنوبا بحر العرب وشرقا الخليج الفارسي وغربا البحر الأحمر.

البريطانية في هذا الصدد . فقد أجاب بهذه العبارة التي كانت تعتبر بمثابة نبوءة تستوقف الانظار وهي قوله « ان السمك الكبير يبتلع السمك الصغير ولسوف تستولى انجلترا يوماً ما على مصر كحصتها في تركة الامبراطورية العثمانية » . فهو كما يلوح لم يشأ استعجال حلول ذلك اليوم . على أن محمداً علياً لم يتوان في تلبية نداء السلطان كلما ناشده المساعدة . بل انه أرسل كافة رجاله الالبان المزعجين لينستعيدوا الاماكن المقدسة .



محمد علي ينذر مندوبى الوهايين قائلاً « سأرسل لكم ولدى ابراهيم لياتى بزعمائكم احياء أو أمواتاً »

فهما وبعد أن استفحل الخطر الوهابى السعودى وبلغ إلى هذا الحد رأى السلطان محمود الثانى أن يستعين بمحمد على والى مصر على صد هذا الخطر فلبى الأمر وبدأ بتنفيذه بعد أن خلا باله بذبح المماليك على نحو ما مري بك . استعدادات محمد على لصد الوهايين

فشرع محمد على يعد حملة بقيادة ابنه احمد طوسون باشا وكتب فى الوقت نفسه الى غالب شريف مكة يخبره بأنه سيرسل من ينقذه من الوهايين فأجابه هذا بالشكر ووعده بتقديم المساعدة .

وفيا هم يعملون على استعادتها وقعوا في كمين نصب لهم ففقدوا ثلثي قواتهم. ولا ريب في أن محمداً علياً بتملصه من مواطنيه الثقلاء قد خلص أيضاً مصر من بقايا هؤلاء المرتزقين المزعجين . وهناك اطمأن باله

== وعلم الأمير سعود بنوايا محمد علي فأعد ١٥٠٠٠ جندي لصد المصريين وكانوا قد أبحروا من السويس ونزلوا إلى ينبع فاستولوا عليها وغادروها إلى معسكر الوهابيين في صفر. والتحم الجيشان وأسفرت النتيجة عن فوز الوهابيين في بداية الأمر حتى إذا وصل مدد جديد لطوسون باشا من مصر زحف على المدينة المنورة وهدم أسوارها وأرغم حاميتها الوهابية على التسليم مما كان له أكبر صدى في سائر أنحاء الحجاز . ثم زحف طوسون على مكة فأجلى الوهابيين عنها وأرسل إلى أبيه بقائد حامية المدينة فبعث به مخفورا إلى الاستانة فقتلوه فوراً .

ولما حل الصيف استعاد الوهابيون بعض ما خسروه ورأى محمد علي أن الأمر يتطلب ذهابه بنفسه إلى ساحة القتال فسار بجند عظيم إلى جدة فوصلها في ٢٨ أغسطس

سنة ١٨١٣

وفي ١٧ أبريل سنة ١٨١٤ توفي الأمير سعود زعيم الوهابيين في درعية وحل محله ابنه عبد الله ولم يكن في كفاية أبيه فانحلت عزائم القوم حتى إذا نشبت المعركة الكبرى بينهم وبين جنود محمد علي في ١٠ يناير سنة ١٨١٥ وكان فيصل أخو الأمير عبد الله يقود القوة الوهابية ، دارت فيها الدائرة على الآخرين وتقدم طوسون إلى نجد ولكن نفاذ المؤذن أضطره إلى وقف الزحف .

واقترضت الظروف عودة محمد علي إلى القاهرة قبل إتمام مهمته في الحجاز . فوصل العاصمة في ٤ رجب سنة ١٢٣٠ هـ وشرع في تدريب الجند على النظم الأوربية وأخصها النظام الفرنسي .

وعاد في هذه الأثناء طوسون باشا فوجد أن قرينته وضعت ولداً اسمه عباس ثم أصيب طوسون بالحملی وفارق بعدها الحياة عاجلاً .

ثم استأنف محمد علي اهتمامه بمسألة الوهابيين وكتب إلى عبد الله بن مسعود يكلفه باحضار الأموال التي أخذت من الكعبة وأن يتأهب للذهاب إلى الاستانة . ولكن عبد الله اعتذر عن الحضور وقال : ان الأموال تفرقت في عهد أبيه ، وأرسل الهدايا إلى محمد علي ولكن هذا رفض قبولها وأوسع الوفد تهديداً وأنذرهم بأنه مرسل اليهم ابنه ابراهيم في حملة قوية ليأتي بزعمائهم أحياء أو أمواتاً .

وأمكنه أن يرسل جنوده المصريين النظاميين الى بلاد العرب حيث استعادوا مكة وفتحوا طريق الحج (١٨١٢) ويجدر بنا أن نذكر في هذا المقام انه كان يوجد بين الحكام الموالين لمحمد علي رجل يدعى « ليث » وهو اسكتلندي ممن أخذوا أسرى في حملة فريزر . وقد اعتنق ليث الاسلام وظل يعمل بجهد الى أن وصل الى مقدمة الصفوف بمحض كده واجتهاده . على أن ابن السعود التجأ الى حرب العصابات



ابراهيم باشا يستقبل في خيمته الامير عبد الله أمير الوهابيين

وفي ١٠ شوال سنة ١٢٣١ هـ سار ابراهيم بطريق النيل إلى قنا ومنها في الصحراء الى الاقصر ثم إلى ينبع فالمدينة ولبث يترقب وصول أوامريه وقد انضمت اليه القبائل الموالية. ولما التقى الجيشان كانت لابراهيم الغلبة فقبض على الزعيم الوهابي الأمير عبد الله وأرسله إلى أبيه محمد علي فوصل القاهرة في ١٨ محرم سنة ١٢٣٣ وفي ٢٠ محرم أرسله الى الاستانة حيث حكموا عليه بالاعدام .

وكافأ السلطان ابراهيم باشا بأن سماه والياً على مكة . فلما اتصلت هذه الأنباء بدرعية دب الرعب في قلوب أهلها فهدموا المدينة وتركوها قاعاً صفصفاً فاحتلتها الجنود المصرية وبذا انتهت الحرب الوهابية .

وكان النجاح حليفه فيها الى حد أن محمدا عليا اضطر الى تولى القيادة بنفسه وهي غلطة كادت أن تكلفه ثمنا باهظا ولذا لم يكررها وجملية الخبر ان الاتراك اتهموا فرصة تغيبه وبسطوا سلطانهم على القاهرة وبيتوا مؤامرة لاغتياله مما جعله يعجل بالعودة الى مصر حيث وطد سلطته بالوسائل المألوفة تاركا لابراهيم القيادة في بلاد العرب . وبعد أن توفي ابن السعود الكبير قمع ابراهيم الحركة الوهابية بقسوة صارخة وأسر زعيمهم عبد الله بن السعود وأرسله الى النطع في الاستانة (١٨١٦)
والآن وقد خلا بال محمد علي فيما يتعلق بحدوده الشرقية فانه شرع يولي اهتمامه شطر الحدود الجنوبية^(١) . فان المناطق الواقعة في أفريقيا

(١) سردنا عليك بعض ما اقتبسناه عن أعمال محمد علي وهي لتعددتها وكثرة نواحيها جديرة بأن يفرد لها الانسان مجلدا بأكمله لا أن يحشرها حشرا في هامش كتاب كالذي نقوم بتعريبه هنا . ولكن همنا الأول - كما قلنا في بداية هذا الكتاب - هو ان نسد بعض الثغرات التي تركها المستر يانج وأن نفصل بعض ما أجمله بما يهيم المصريين الاطلاع عليه . ولم نشأ سرد معلوماتنا شخصا بل توخينا الاقتباس عن المصادر الأخرى لأنها أبلغ في الاعتراف بعظم مزايا هذا المصلح الكبير .
وننتقل بك الآن إلى صفحة مجيدة أخرى فيها عظة لنا وهي الخاصة بفتح السودان .
وقد لخصناها عن كتاب « تاريخ مصر الحديث »
فتح السودان

سبق أن مر بك أن محمدا عليا أوفد الكولونيل سيف (أي سليمان باشا) عند هبوطه أرض مصر إلى السودان بقصد اكتشاف بعض المناجم وأن الكونيل سيف عاد بخفي حنين . ونقول لك الآن أن منشى مصر الحديثة كان كثير الاهتمام بمسألة المعادن الثمينة التي سمع انها مكنوزة في المناجم الواقعة في غرب النيل الأزرق ولذلك فكر في فتح السودان على أمل الحصول على تلك الكنوز هذا عدا ما يمكن أن يضع عليه يده من ضروب السلع التجارية القيمة والحاصلات الغريبة كالصمغ والريش والعاج والرقيق وهلم جرا . فحشد ما يبلغ ٥٠٠٠ من الجند النظامي وضم إليهم بعض البدو =

الوسطى ، تلك المناطق التي كان يجري فيها الى مصر مع مجرى مياه النيل
سيل لا ينقطع من الرقيق والعاج والذهب قد اجتذبت مطامع المغامرين.



قبائل الزنوج عند خط الاستواء

وكان مهاجرو الممالك وهم الذين وطدوا أنفسهم في السودان تدوقفوا

وزود الجميع بنحو ثمانية مدافع وسير هذه الحملة بقيادة اسماعيل باشا أحد أولاده .
وفي يونية سنة ١٨٢٠ أفلعت الحملة في النيل فاجتازت الشلالات الستة إلى أن وصلت
شندى والمتمة . وقد أخضعت بسهولة كل ما مرت به من القرى والدساكر . ومن شندى
قصدت إلى سنار على النيل الأزرق وراء الخرطوم . ولعل قبيلة الشائقية هي الوحيدة
التي أبدت المقاومة ولكنها سرعان ما ألفت سلاحها وواصل المصريون زحفهم إلى أن
استولوا على سنار وكوردفان . ومن ثم سار اسماعيل باشا إلى جهة « فزغل » حيث
ظن انه عثر على مناجم الذهب .

وفتك الوباء في رجال الحملة ولكن وصلته نجدة تبلغ ٣٠٠٠ جندي بقيادة صهره
احمد بك الدفردار فأقامه على كوردفان وقصد هو إلى المتمة في الشاطيء الغربي . ثم عبر
النيل إلى شندى في البر الشرقى لجباية المال وجمع الرجال . فاستدعى ملكها واسمه « نمر »
وقال له « أريد منك أن تأتي إلى قبل خمسة أيام بملء قاربي هذا من الذهب والفين من
العساكر » فحاول الرجل أن يستعطف اسماعيل ويحمله على التنازل عن شيء من هذا =

انحدار هذا السيل الرابع فتقرر ارسال حملة مصرية صغيرة بقيادة اسماعيل الى أعلى النيل لاعادة انحدار هذا السيل تمهيدا لاستخراج موارد ذلك القطر الخرافية . ولكن شبح المدن الذهبية جعل يتواري ويتقهقر أمام تلك الحملة الى أن اضطررت المستنقعات الملهكة مع ما تجمع حولها من جموع المتوحشين في المناطق الاستوائية الى أن تعود أدراجها (١٨١٢) وبينما كان اسماعيل منهمكا في توطيد الادارة المصرية في شرقي السودان احتلت قوة أخرى السودان الغربي بعد قتال عنيف بالقرب من كردفان وكان ذلك مؤذنا باندلاع الثورة في كل مكان حتى أن أحداها جعلت تتلو الاخرى بسرعة مدهشة مما كانت نتيجته أن اسماعيل نفسه ألقى في النار حيا هو وأركان حربه في احدى هذه الثورات بالقرب من شندي

== القدر. وأخيراً تم الاتفاق على قبول عوض عن الذهب وهو مبلغ ٢٠٠٠٠ ريال من الفضة فأجاب نمر الطلب ولكن لم تسعده الظروف بجمع القيمة في المدة المحدودة فجاء يطلب مد أجلها . فضربه اسماعيل بالشبق (الغليون) على وجهه قائلاً : « ان كنت لاتدفع المال فوراً فليس لك غير الخازوق جزاء » فتقبل الملك نمر هذه اللطمة بالصمت ولكنه أضمر لاسماعيل الشر وصمم على الانتقام منه فتظاهر بتطبيب خاطر اسماعيل ووعد به باتمام ما يريد . وفي تلك الليلة نفسها جاء نمر إلى اسماعيل وقبل يده والتمس منه تشريف وليمة أعددها اكراماً له فلبى اسماعيل الدعوة وذهب في نفر من أصدقائه قاصداً القصر الذي أعده نمر لنفسه وكان مصنوعاً من القش وليس به سوى منفذ واحد . وقد جمع وراء هذا القصر كثيراً من القش وسيقان الذرة لعلف خيول الباشا أثناء الزيارة . ولما استقر الباشا ورجاله في المكان اجتمع الرجال والنساء حوله ينفخون الارغول ويرقصون رقصة سودانياً خاصاً . فطرب اسماعيل وضباطه لهذا الغناء والرقص وغفلوا عن تقلبات الزمان . ثم أخذ عدد المتفرجين من الاهالي يزداد شيئاً فشيئاً الى أن خرجت المدينة كلها واغتم نمر فرصة هذه الجليلة لاشعال القش والكوخ في عدة مواضع بينما كان أعوانه يجمعون للمواد القابلة للالتهاب وإلقائها حول الأتون . فلما التهمت النار سقف المكان المعد لتناول الطعام ظهر الباشا وأصحابه ويدهم السلاح ولكن المجرمين جعلوا ==

فكان عقاب ذلك اجتياح السودان بنفس القسوة التي اجتاحت بها بلاد العرب من قبل . وهنا لك توطدت أقدام مصر في ربوعه بصفة دائمة . ومن ثم أنشئت عواصم جديدة في الخرطوم وفي كسلا وافتتحت طرق تجارية جديدة فيما بين سواكن ومصوع على البحر الأحمر . وفي أثناء زيارة محمد علي للخرطوم (١٨٣٨) أعلنت مصر - بتأثير الانجليز - ان النخاسة غير مشروعة ولكنها بالرغم من ذلك ظلت تجارة السودان الاساسية . وفي سنة ١٨٤٢ وصلت الجنود المصرية الى جوندوكورو . وهكذا ترامت حدود مصر حتى انتظمت مناطق لا تربطها بها أية رابطة جنسية ولا أرضية حقيقية ، أو بعبارة أخرى أن مصر صارت في الواقع امبراطورية قبل أن تكون أمة .

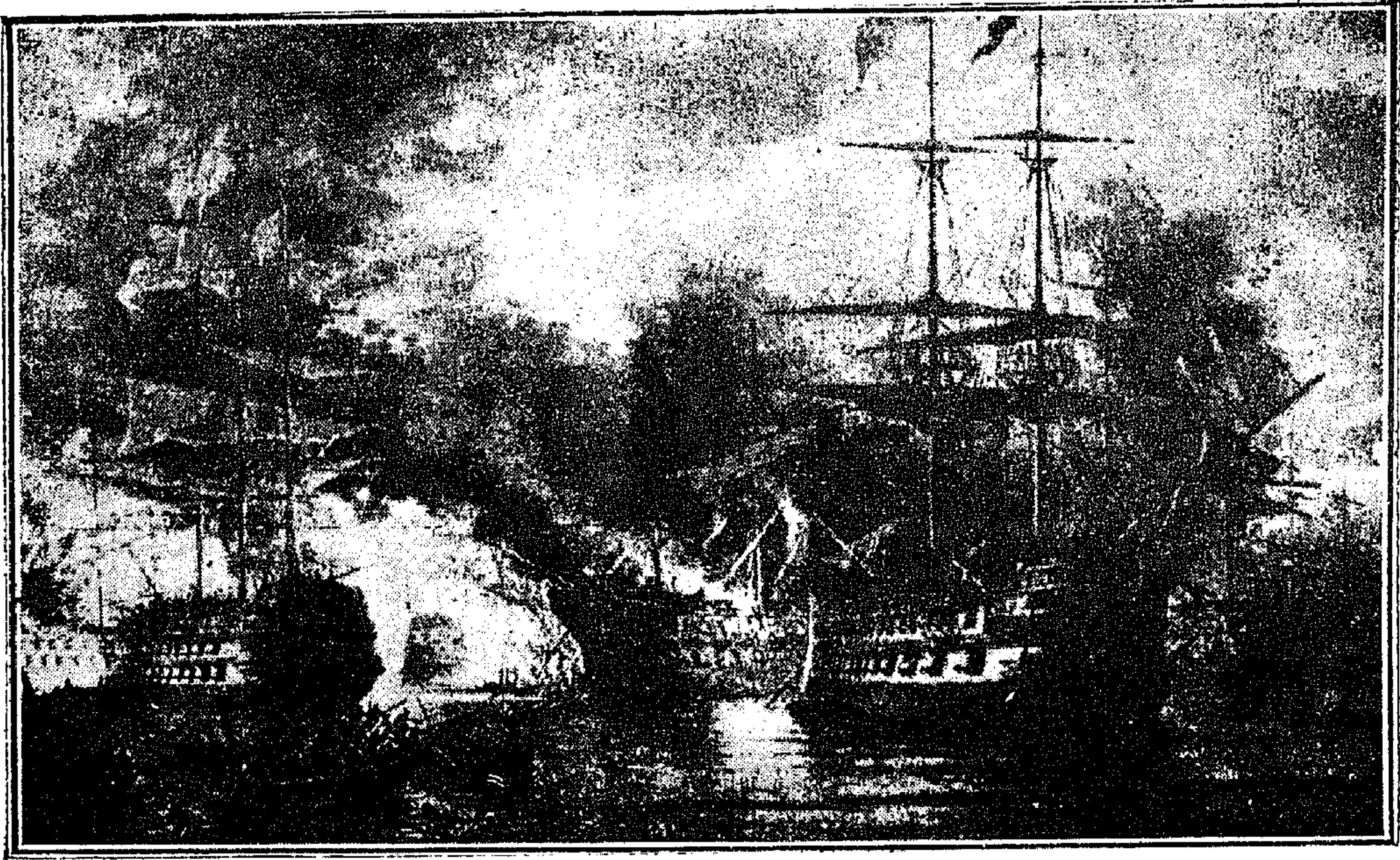
ولم تكن غاية محمد علي تختلف عن الغاية التي جعلها نابليون مطمح سياسته . فقد أراد كلاهما اتخاذ مصر مطية للوصول عن طريقها الى الامبراطورية العثمانية . لهذا تملك حب التوسع نحو الشمال كل حواسه . وقد كانت تمت طريقان الى الاستانة . الا وهي الطريق البحرية بواسطة « بحر ايجه » والاخرى الطريق البرية بواسطة الاناضول . وهذا ماجعله يلبي من فوره نداء السلطان محمود بطلب المساعدة ضد اليونانيين وهم الذين أرادوا الوصول الى الاستقلال باثارة الفتن . ولقد كان في الجنود المصريين والاسطول المصري الكفاية للقيام بما تقتضيه الاعمال الحربية والبحرية

== يرشقونهم بالسهام ويردونهم داخل الأتون إلى أن ماتوا محترقين . كل هذا ونمر يضحك ضحك التشفي والانتقام .

واتصل نبأ هذه الفاجعة باحمد بك الدفتردار فاشتعل غيظا وأقسم لينتقم من الفاعلين بقتل ٢٠٠٠٠ شخص من العدو بعد التفنن في تعذيبهم . وزحف بجيشه الصغير ولبث في المدينة حتى بر بقسمه . ثم هدأت الحالة وبذا تم فتح السودان وظل احمد بك الدفتردار على حكومة سنار وكوردفان لغاية سنة ١٨٢٤ حيث ابدل برستم بك .

المشتركة لكبح جماح اليونانيين أكثر من الاسطول والجيش العثمانيين
الذين لم ينظما بعد تنظيماتهما فضلا عن عدم إمكان الاعتماد عليهما . وهكذا
تم إخضاع كريد بلا كبير عناء (١٨٢٣) وأثنى كانت محاولة ابراهيم
الاولى لغزو شبه جزيرة المورة قد فشلت (١٨٢٤) الا أن محاولته
الثانية (١٨٢٥) قد قصمت ظهر الفتنة . يضاف الى هذا أنه جهزت حملة
جديدة في السنة التالية لقطع دابر الفتنة نهائياً ومطاردة مشيريهما الى آخر
معقل لهم في ميسواونجى التى سلمت بعد حصار طويل . وما كادت الحامية
تشق طريقها الى الخارج حتى وقعت مذبحه عامة ضد أهالى المدينة وكان
يلوح فى بدء الامر أن كل شىء انتهى على مايرام . ولكن أهالى المورة
أثاروا فتنة جديدة فى مؤخرة ابراهيم بعد أن دب الشقاق بين المصريين
وبين الاتراك الذين كان يقودهم خسرو باشا عدو محمد على القديم .
وهنا بدأ الاسطول البريطانى يعرب عن سخط الطبقة الاستقرابية التى
لم تكن تناست اليونان بفضل ما كان اورد بيرون ينفخه فيها من روح
التدمير والاستياء من أجل هذا فان ابراهيم عند ما بدأ يطبق على اليونانيين
سياسة الفناء التى أدت فى الماضى الى إخضاع بلاد العرب والسودان
رأى نفسه وجهاً اوجه ازاء شعور لا تنقصه المعدات لجعل أثره محسوساً .
ومن جهة أخرى فان شعور بريطانيا الذى تهيج قليلا ابان تطبيق سياسة
الفناء ضد اليونانيين قد انقلب غضباً عنيفاً عند ما بدأ ابراهيم ينفهم الى
مصر ويعاملهم معاملة الارقاء . ولكيما يوقف الانجليز هذه النخاسة دبوا
مظاهرة بحرية من أساطيل الحلفاء فى نافر كانت نتيجتها تحطيم الاسطولين
المصرى والتركى (٢٠ اكتوبر سنة ١٨٢٧) . وهى كارثة لم تخل من
فائدة لمحمد على ما كان ليحس بها فى بدء الأمر . ثم ما عم أن أيقن فيما بعد
أن الاسطول التركى لم يرسل إلى نافر إلا وهو يحمل تعليمات معينة

بإبعاد جيش إبراهيم إلى الأستانة . والآن وقد تخلص إبراهيم من الأتراك فإنه راح يكتسح اليونان ويعامل أهلها كالأرقاء عند نفيهم إلى مصر دون



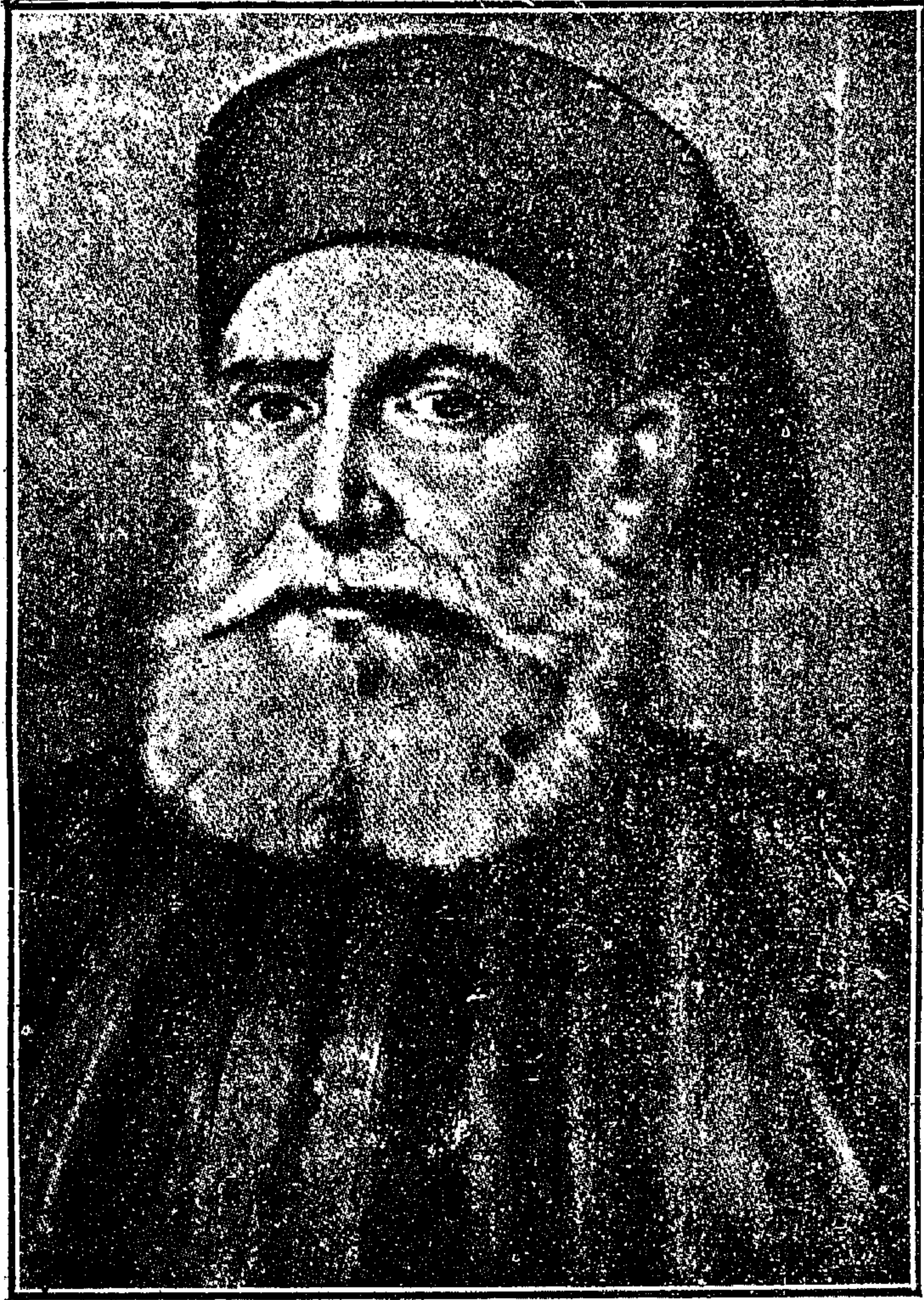
السفن المصرية التي اشتركت في معركة نافار

أى اكترات بما أرسله إليه كادر نجتون الأميرال الانجليزى من الأندارات الشديدة وقد تدمر إبراهيم من كادر نجتون فقال مترجمه الفرنسى « تالله إنى لم أشهد طيلة حياتى مثل هذا الفظ ولا سمعت كهذه النعمة التى يخاطبني بها » وهذه على التحقيق أول مرة وإن لم تكن الأخيرة التى اصطدم فيها المزاج البريطانى بالمزاج المصرى . وسرعان ما وقع بنا كان فى الحسبان . فان كادر نجتون رابط بأسطوله أمام الاسكندرية وأرسل إنذاراً نهائياً هدد فيه بإطلاق النار عليها . وفى الوقت نفسه نزلت حملة فرنسية فى شبه جزيرة المورة (سبتمبر سنة ١٨٢٨) وهنا اضطرت الجيوش المصرية إلى الجلاء عن المورة بناء على اتفاق وضع بين الانجليز وبين محمد على . وكان هذا الاتفاق

أول اعتراف رسمي بمركز محمد علي . وهكذا جاءت نتيجة الثورة المصرية شديده من بعض الوجوه بنتيجة الثورة الفرنسية . فأن كلتا الثورتين أدت إلى اتحاد الدول العظمى ضدها اوضع حد لتوسعتها الاستعماري (١)

ثم اشتد الكفاح بين محمد علي والسلطان محمود عشر سنوات كاملة تمكنت في خلالها الجيوش المصرية من اكتساح الأمبراطورية العثمانية وكادت بانتصاراتها المتوالية أن تزعزع أركان السلم الأوربي . ذلك لأن السلطان وضع نصب عينيه التخلص من هذا الوالي العنيد بينما أن خسرو الصدر الأعظم كان يتعطش للانتقام لنفسه مما أصيب به من الفشل بابعاده عن مصر . من أجل ذلك انتهز الاثنان فرصة تغيب محمد علي في مكة حيث قصد إليها في مهمة كلفه السلطان قضاءها فأرسلا إلى القاهرة والياً آخر يدعى لطيف بك لتدبير مؤامرة لاغتيال محمد علي . وصدرت في الوقت نفسه أوامر بتعيين ابراهيم أميراً لمكة أو بعبارة أخرى صار رئيساً لأبيه وهي تصرفات أدت إلى زيادة الشحنة بين محمد علي والسلطان . ثم جاءت مسألة كريد فزادت الطين بلة . فقد كان مقرراً من قبل أن تستولى مصر على سوريا مكافأة لها على ما أسدته للأمبراطورية العثمانية من المعونة في إخماد فتنة اليونان . ولكن استعويض عن سوريا بكريد التي ظلت في قبضة المصريين من سنة ١٨٣٠ إلى سنة ١٨٤١ على أن محمداً علياً وقد أحفظ صدره هذا التصرف انتهز فرصة هزيمة الباب العالي في الحرب

(١) من المحقق أنه لولا اتحاد الدول ضد مصر وتركيا لما قامت لليونان قائمة في تلك الحرب التي عاد منها ابراهيم باشا إلى مصر وعلى رأسه أكاليل الغار وقد قدر بعضهم ماتكلفته مصر في حملة المورة بعشرين مليون فرنك و ثلاثين الف مقاتل .



البطل ابراهيم باشا فاتح سوريا

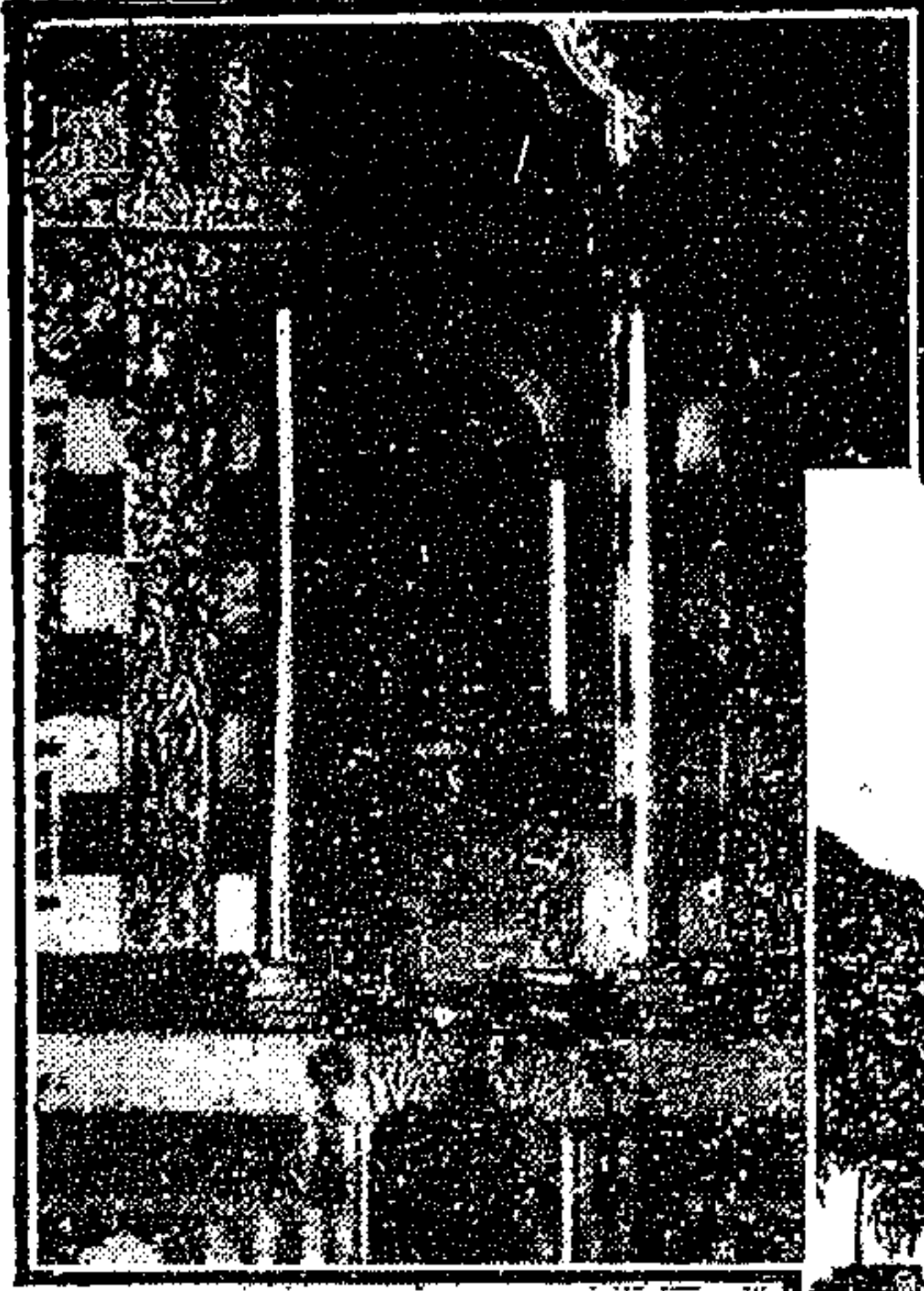


الأمير بشير الشهابي

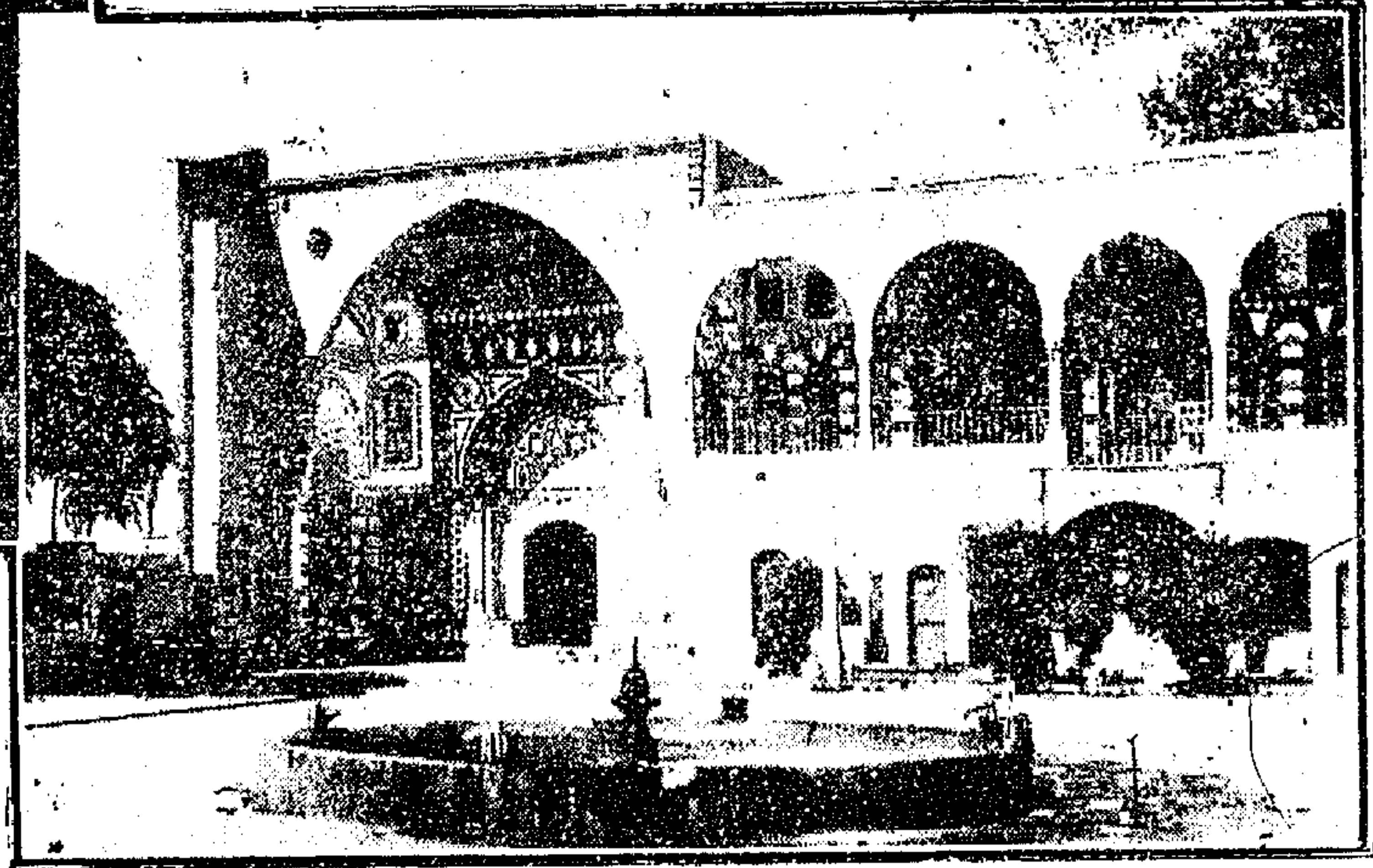
الروسية التركية فبدأ يغزو سوريا
قبل أن يهاجمه أحد (١) وسرعان
ماسقطت عكا في يد ابراهيم (مايو
سنة ١٨٣٢) وهي التي دوخت
نابليون من قبل وكان لهذا الانتصار
صدى كبير وهيبة أكسبت الجيوش
المصرية قوة على قوتها وجعلتها
تندفع إلى الأمام وتتخطى من فتح
إلى آخر عبر سوريا وبلاد الأناضول

فتح سوريا

(١) يعتبر فتح سوريا وما أتاه ابراهيم باشا فيها من ضروب الاصلاح صفحة
ذهبية خالدة في تاريخ محمد علي ولذا رأينا أن نشير اليها هنا بايجاز .
لقد رأيت مثلاً ما كان يجيش في صدر محمد علي من المطامع الكبيرة وما كانت
تحدثه به نفسه من العمل على جعل بلاده مصر دولة مستقلة عظيمة يحسب الغير حسابها .
فما كاد أن يدب الخلاف بينه وبين السلطان ويستفحل أمره حتى عقد النية على غزو سوريا
تنفيذا لخطة سبق أن دبرها مع الأمير بشير الشهابي الكبير أمير لبنان عند مجيئه إلى
القاهرة في سنة ١٨٢١ لالتماس شفاعته محمد علي بماله من الحظوة في أعين جلالة السلطان
في العفو عن عبد الله باشا والى عكا .
وطيب محمد علي خاطر بشير وأسكنه في بني سويف وأرسل في طلب العفو
المذكور ولبث ينتظر وصول الرد من الاستانة . ولكن سرعان ما انشغل باله بحوادث
المورة وتجريدة الحملة السالف ذكرها لتدويخ اليونان .
وفي أبان حرب المورة ورد الرد من الاستانة وفيه قبول شفاعته محمد علي وصدور
العفو عن عبد الله باشا . فعاد الأمير بشير إلى وطنه مغتبطاً أشد الاغتباط بصداقة
محمد علي مظهراً استعداده الكلي لرد هذا الجميل بمثله وذلك بمساعدة محمد علي على
تحقيق مطامعه في الشام متى حان الوقت الملائم لذلك .



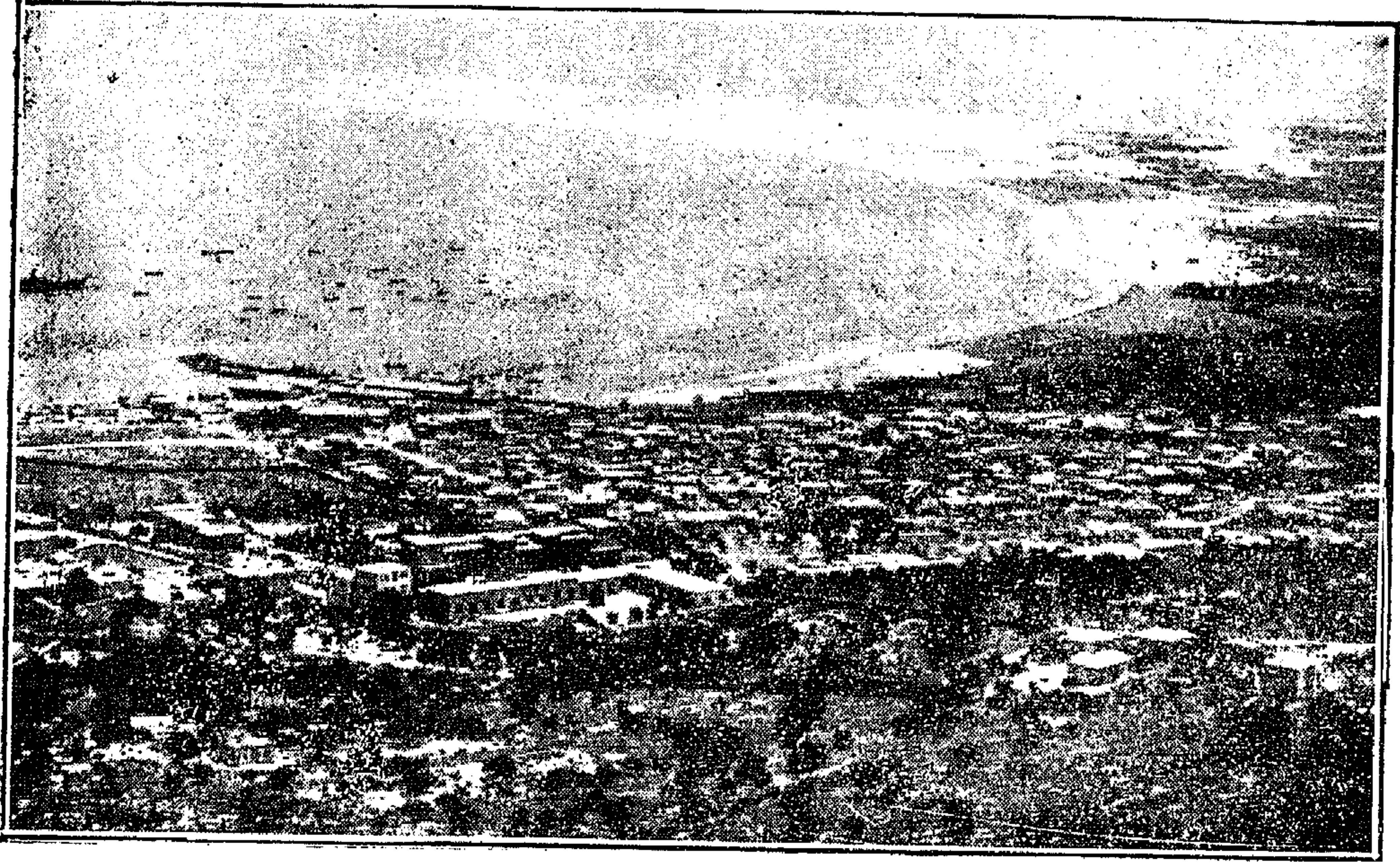
شكل الصالون في
« بيت الدين »



« بيت الدين » وهو قصر الأمير بشير الشهابي الذي نزل فيه ابراهيم باشا عند غزو سوريا = ولشد ما كان ابتهاج عبد الله باشا بهذا العفو الذي حمّله اليه الامير بشير . وكان المؤلف في أمثال هذه المناسبات الخاصة بالصلح أن تطلب الجنود العثمانية نفقات معينة ولكن عبد الله باشا لبقلة ذات يده اضطر إلى فرض ضريبة على المقاطعات والتجأ إلى معونة الامير بشير .

على أن عبد الله باشا قابل جميل الأمير بشير بضده ومن ثم ازداد الجفاء بينهما . ولما كان محمد علي قد استقر في روعه أن نجاحة في وساطة الشفاعة لعبد الله باشا سوف يضم الأخير والأمير بشير إلى جانبه عند قيامه بفتح سوريا فقد أحب أولاً أن يستوثق منهما . فابتدأ بالأمير بشير وأرسل طالباً بعض ما يحتاجه من الأخشاب لبناء السفن . فلي الأمير الطلب ولكن عبد الله باشا منعه . فحال ذلك محمداً علياً وعده مخالفة لأوامر الدولة لأن السفن المراد انشاؤها كانت في الواقع للحكومة العثمانية . فقرر الاقتصاص منه . ومن ثم جرد ضده في سنة ١٨٣١ حملة في البر والبحر بقيادة ولده ابراهيم باشا .

وسارت الحملة البرية بطريق العريش قاصدة فلسطين . وسرعان ما استولت على غزة ويافا بينما كان ابراهيم قد ركب البحر مصحوباً بحاشيته على أن يلتقي بالجيش في يافا . ومن ثم سار في طليعة جنوده إلى عكا فبلغها في ٢١ جمادى الآخرة سنة ١٢٤٧ =



حيفا وخليج عكا

== فضرب عليها نطاق الحصار برا وبحرا حتى كان يوم ٢٦ القعدة من السنة نفسها فحمل عليها حملة صادقة انتهت بتسليم المدينة . وكان بين من استسلم عبد الله باشا نفسه فأرسله ابراهيم باشا بناء على طلبه إلى الاسكندرية فوصلها في ٣ المحرم سنة ١٢٤٨ هـ ودخل على محمد علي فاستقبله استقبال الوزراء وعفا عن تقصيره السابق وبالغ في إكرامه وضيافته. وتخليدا لتاريخ فتح عكا أنشد الشاعر شهاب الدين هذين البيتين وقد نقلناهما مع الأبيات التالية الأخرى عن كتاب « تقويم النيل » لسعادة أمين باشا سامي :

لقد نصر المليك عزيز مصر وبلغه المنى عزاً وملكاً

فنادته العلا أن طب وأرخ بمجد العز تفتح ألف عكا

وفي ١٠ المحرم سنة ١٢٤٨ تحرك الجيش قاصداً دمشق فبلغ ضواحيها في ١٤ منه وما هي إلا ساعات حتى فر والها على باشا مصحوباً بالشوربجي والموظفين والأعيان عدا ١٥٠٠ فارس و ٥٠٠ من المشاة . ثم حضر إلى المعسكر نفر من الأهالي طالبين الأمن فأمنهم ابراهيم باشا . وعند شروق شمس اليوم التالي قصد إلى دمشق الأمير بشير في نحو ٥٠٠ من الفرسان والمشاة بينما ذهب إليها ابراهيم باشا نخرج إليه كبار الأعيان ومسحوا وجوههم بتراب أقدامه . وفي المساء دخل المدينة فأشاد بعضهم هذين البيتين ==

إلى أن بلغت أبواب الاستانة نفسها (فبراير سنة ١٨٣٣) هنالك



ابراهيم باشا داخلا عكا راجلا. على رأس جيشه
تدخلت روسيا في الأمر ورأت أن تحمي العاصمة التركية بجيوشها
وأساطيلها .

== تخليداً لتاريخ دخولها :

ولما جل شأن عزيز مصر ودان لعزه غرب وشرق
دعته الشام شرفي وأرخ ييمن العز قد ملكت دمشق
وقد أمر محمد علي في يوم ٢٢ المحرم بعمل نيشان مكتوب عليه اسمه باحجار
الماس النفيسة وأرسله إلى ابنه تذكراً وتهنئة بفتح عكا .
وفي ٩ صفر سنة ١٢٤٨ انتقل صاري عسكر ابراهيم باشا في خمس فرق من الجند
قاصداً حصص حيث كان ينتظر الجنود العثمانية بقيادة محمد باشا والي حلب وعثمان باشا
وعلي باشا والي دمشق السلف ذكره وغيرهم .

وفي ٨ يولية سنة ١٨٣٢ دارت معركة حامية بين الفريقين قتل فيها من الاتراك
٢٥٠٠ وأسر منهم ٢٠٠٠ بينما خسرت جيش ابراهيم ١٦٢ جرحى و١٠٢ قتلى وفر
الباشوات نحو حماه تاركين معسكرهم وبداخله ٢١ مدفعاً استولى عليها ابراهيم باشا كما
استولى على أوراق مهمة نساها محمد باشا . وسلمت حصص وأنشد شاعرهم هذين البيتين ==



صورة تذكارية لدخول ابراهيم باشا عكا وهذا ما معالى محمود فخري باشا إلى دار الكتب الملكية.

== مغلداً تاريخ الاستيلاء عليها :

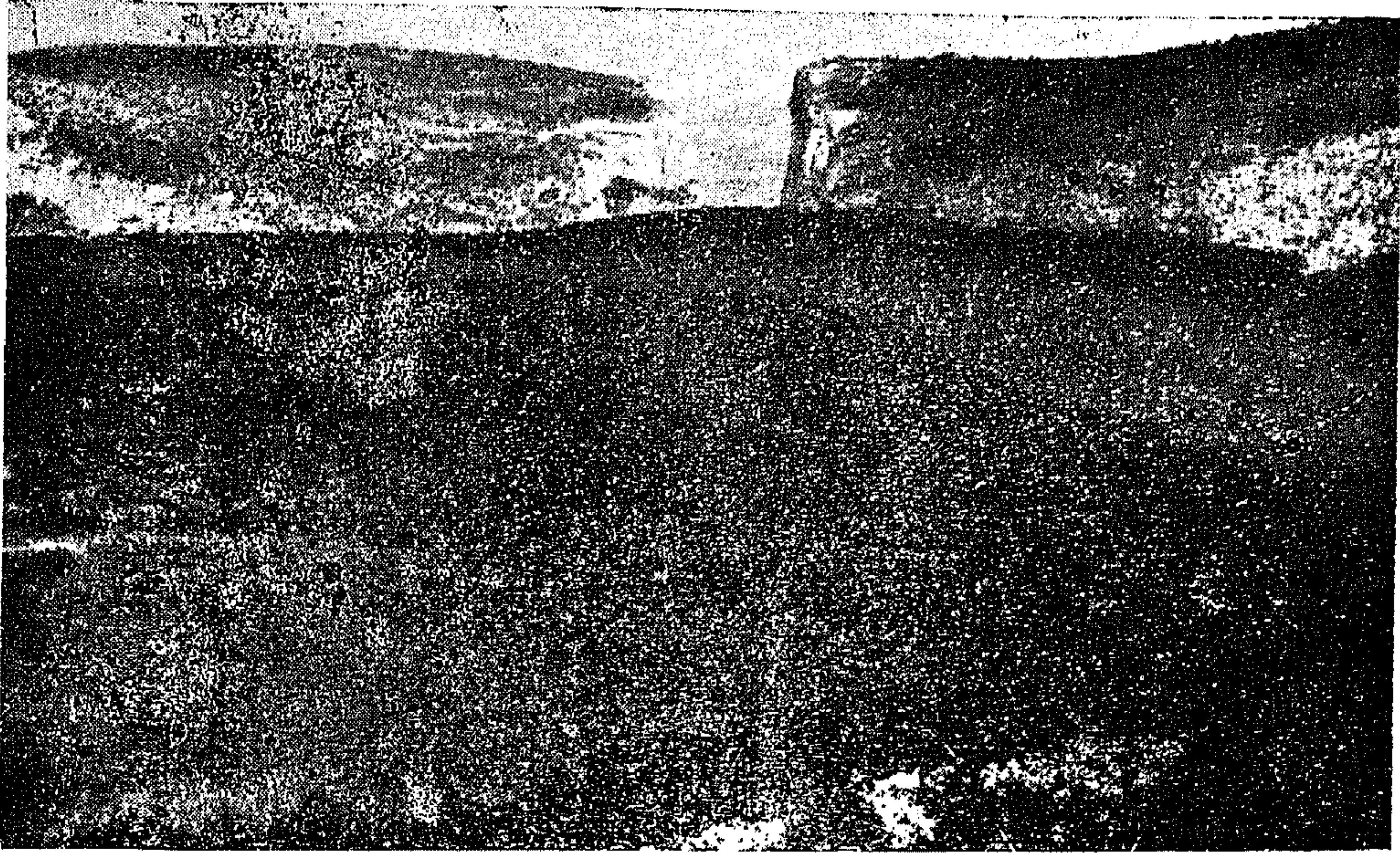
ياعزيزاً بمصر لازال يرقى في كمال ما أن يشاب بنقص
قر عيناً فالخط يدعوك أرخ حزت في جاه قوة ملك حص

وما كادت الركبان ان تسير بأبناء هذه الانتصارات حتى وقع الذعر في قلوب أهل
سوريا وأصبحوا يخشون سطوة هذا الفاتح العظيم . وما كاد أن يتحرك جيشه في ١١
صفر سنة ١٢٤٨ قاصداً حماه حتى استسلمت له المدينة بعد أن تخاذلت أمامه الجيوش
العثمانية وعددها يبلغ العشرة آلاف مقاتل . ففر منها نحو الف وخمسمائة مقاتل ووقع
الباقون في الأسر وقد أنشد بعضهم مؤرخاً يوم دخول حماه فقال :

عظيم مصر أدام الله سطوته حاز الممالك من دان ومن قاصى
هذى حماة وهذى حص أرختا مجد حوى الشام واستولى على العاصى

وفي ١٤ صفر تحرك الجيش قاصداً المعرة ومنها إلى تل السلطان في طريقه إلى
حلب فوصلها في يوم ١٨ صفر وخرج إليه الأهليون يستقبلونه بالعز والجلال معلنين
طاعتهم للصارى عسكر وأنشد شاعرهم :

الحظ أقبل بالبشائر والهنا وصفا الزمان وراقت الصبباء



البوابتان الشهيرتان عند مدخل مقاطعة كليكيافى الاناضول وهما تطلان على سهل جيهان
وقد نقرتهما يد الانسان ومنهما تهرت جيوش سميراميس واكزر كسين وداريوس
واسكندر الأكبر وهرون الرشيد وجود فرى دى بويون وسليم الاول
وابراهيم باشا لغزو الاناضول

ودعا السرور عزيز مصره ورخا ازف المجال وهذه الشهباء
وما كاد أن يستقر المقام براهيم باشا حتى أصدر فى اليوم التالى ١٥ صفر أمرا
بانتخاب أعضاء المجلس الذى أمر بانشائه عقب استيلائه على دمشق وكان مجموع
الأعضاء ٢٢ شخصاً . ولكى تعرف مبلغ حب هذا الفاتح العظيم فى إقامة موازين
العدل ومبلغ سهره على خير الرعية نسر ذلك ترجمة الأمر التركى الذى أصدر بهذه
المناسبة منقولاً عن كتاب « تقويم النيل » قال :

« انه بالنسبة للحديث القائل بأن كل راع مسؤول عن رعيته وجب علينا النظر
فى أمور الرعية وأحوالها بما فيه الراحة والرفاهية من كل الوجوه التى لا يحصل إلا
بنشر بساط العدل والاحسان عليهم وفصل الأحكام فيهم بالحق قد استحسنا تشكيل
مجلس مخصوص من خواص العقلاء وأصحاب الرأى من الأعيان والأكابر والتجار
والوجوه للنظر فى القضايا والمشورة فيها . ولذلك قد انتخبناكم من عموم أهل الشام =



السيد محمد باشا شريف
والي ألوية الشام ثم ناظر المالية



محمود بك الأرناؤطي ناظر الجهادية
وجد سعادة عزيز باشا عزت

وأذنا كم لسماع الدعاوى وبتحويل الشرعية فيها على الشرع الشريف والفصل في السياسية برأيكم وبعد المشورة وتداول الآراء بين أرباب المجلس جهراً واتفاق الآراء يحكم بما يتفق عليه ثم تقديم تقرير بما يتقرر لمتسلنا للتنفيذ . ويكون ذلك بغير ميل ولا غرض نفس ولا شهوة خاطر ولا انحراف لكبير ولا لصديق ولا لوجيه . وكل من أخفى رأيه لعله أو لعدم نقد كلام من هو أعظم منه من أرباب المجالس فيكون قد خالف أمره وبذلك يكون قد أوقع نفسه تحت الملامة . وقد صدر أمرنا هذا ليكون حجة عليكم فاغتموا ثواب الرعية ونخطة الخدمة الدينية الجليلة والحذر من الخلاف .

ولما وصلت جيوش ابراهيم باشا إلى عكا واستولت عليها وتجاوبت ارجاء الشام بأبناء هذه الانتصارات الباهرة استولى القلق على الباب العالي وأظلمت الدنيا في عينيه ورأى أن المسألة بعد أن كانت قاصرة على تأديب عبد الله باشا قد تحولت الى فتح سوريا ومحاولة الزحف على دار الخلافة . فاستقر الرأي على ارسال جيش تركي بقيادة الصاري عسكر حسين باشا لصد ابراهيم باشا . وقد انضم الى الأتراك محمد باشا والى حلب وغيره من البشوات المنهزمين . فتقدموا جميعاً الى مضيق بيلان الشهير وحصنوه أشد تحصين . ولما وصل ابراهيم باشا في ٢ ربيع الاول إلى هذا المضيق شرع ينظم جيشه ويوزعه بين الرنى والآكام . ثم نشبت المعركة حامية بين الفريقين فاسفرت عن هزيمة الأتراك وتركهم سلاحهم ومدافعهم عدا غنيمة كبرى بأيدي المصريين . وقد خرج أهالي بيلان للترحيب بالفتاح المصري وأنشد بعضهم قائلاً :

هاتان الصورتان أهداهما سمو الأمير عمر طوسون للعرب



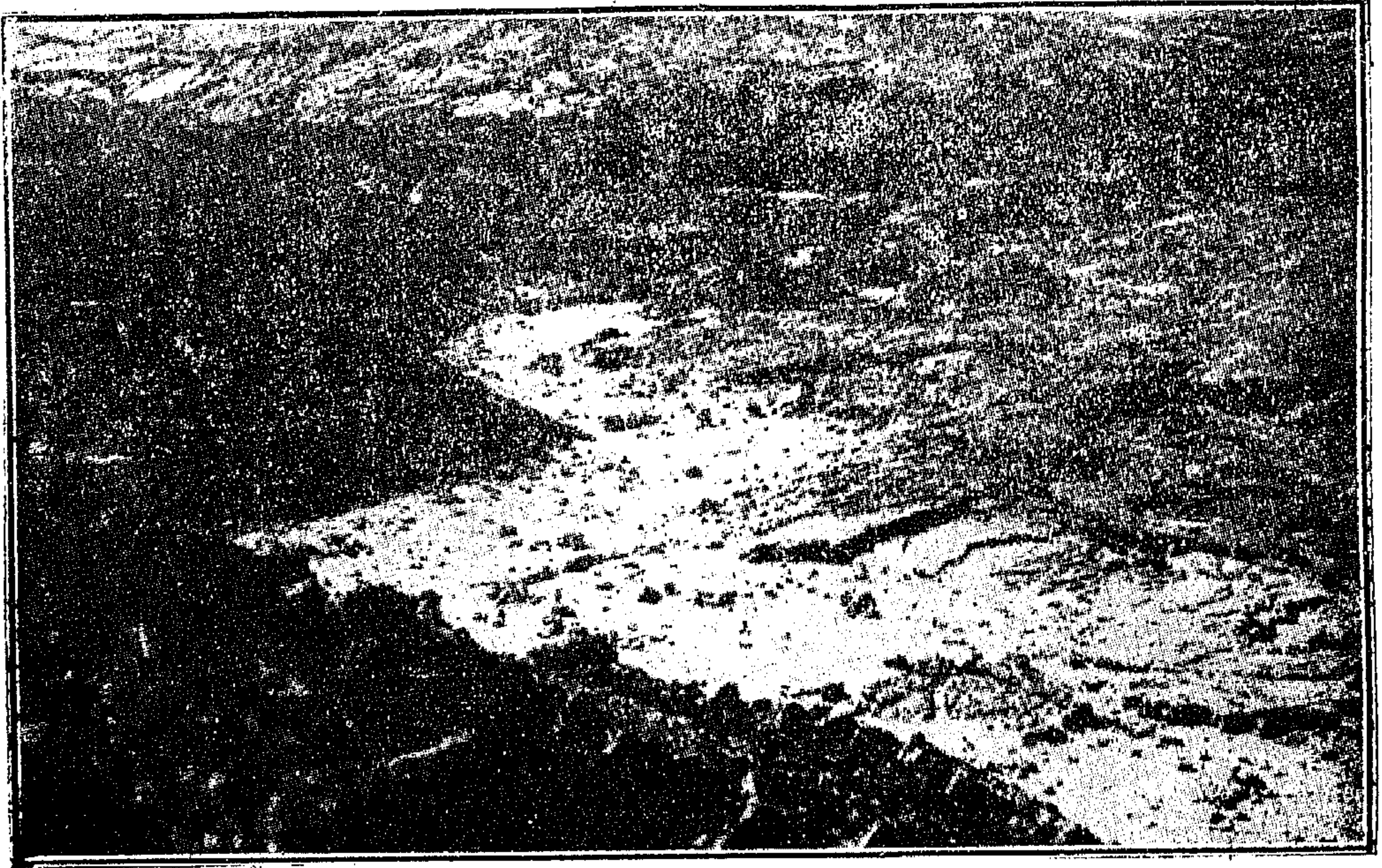
سريزى بك باشمهندس دار الصناعة



أدهم بك
مدير المهمات

ملك مصر أدام الله صولته وزاد دولته حسناً وإحساناً
علياء همته قالت مؤرخة مضيق بيلان حين الجهدى لانا
وبعد هذا النصر الباهر واصل ابراهيم باشا زحفه بلا كبير مقاومة فى آسيا الصغرى
فاجتاز جبال طوروس قاصداً الاستانة . وكان قد علم بأن الباب العالى أخذ يعد
جيشاً عرمرماً بقيادة رشيد باشا فشرع ابراهيم من ناحيته يجند الجنود ويتأهب
لملاقاة خصمه .
وبينما كان هذا يجرى فى سوريا كان ناظر الجهادية محمود بك الارنؤطى وهو جد
صاحب السعادة عزيز عزت باشا منهمكا فى مصر باعداد المعدات وتجنيد الجنود وتزويدهم
بالسلاح بأمر محمد على باشا لسد النقص فى صفوف القتال .
وفى يوم ١٤ ربيع الثانى صدر أمر محمد على باشا بتعيين قوله لى محمد شريف بك
الكتبخدا حكامداراً مستقلاً لايالة عربستان الملحقة بالحكومة المصرية وذلك بناء على
استحسان ابنه ابراهيم باشا .
وفى يوم ١٦ جمادى الأولى عين أدهم بك ناظراً للجهادية والمهمات الحربية وأخذ
يهتم أيضاً بتجهيز المدافع اللازمة للحملة المصرية فى سوريا .
وتم وقتئذ صنع خمس سفن حربية بدار الصناعة باسكندرية وبدىء بإنشاء خمس
سفن أخرى كل ذلك تحت مراقبة سريزى بك الفرنساوى باشمهندس دار الصناعة .
هذه الصورة أهداها للمعرب سمو الأمير عمر طوسون

فانسحبت الجيوش المصرية ولكن روسيا ما عتمت أن طالبت
تركيا بثمان هذه المساعدة وهي معاهدة (هونكاراسكلاسى) التي



صحراء الصفاء في جهة جبل الدروز حيث وقعت المعارك بين ابراهيم باشا والدروز في جهة اللجة

== وفي يوم ٢٧ رجب سنة ١٢٤٨ أرسلت إلى محمد علي باشا انباء بأن ابنه ابراهيم باشا
التقى في اليوم السالف الموافق أول ديسمبر سنة ١٨٣٢ بجيش رشيد باشا وعدده نحو
١٠٠٠٠ مقاتل بالقرب من قونية فشنت شمله وغنم المدافع والاسرى ومنهم سلاح
دار الصدر الاعظم وقائد الجيش محمد باشا الكريدلى . ومن ثم أصبح الطريق
للاستانة مفتوحاً أمام ابراهيم باشا فاخترق آسيا الصغرى وأصبح يهدد الاستانة .
وهنا بدأ الذعر يدب في قلوب الدول الأوربية وأقلقها ما أحرزه ابراهيم باشا
من الانتصارات الباهرة وخشيت أن يؤدي هذا الفوز إلى انهيار الأمبراطورية
العثمانية وفتح باب المسألة الشرقية قبل الأوان المناسب . فقررت هذه الدول وفي
مقدمتها روسيا التدخل في النزاع وأوفدت إلى مصر الأمير مورافيف لاقناع محمد
علي بضرورة وقف الزحف على الاستانة وتهديده في حالة الامتناع .

وضعت الأمبراطورية العثمانية تحت رعاية روسيا وحمايتها (٨ يولية
سنه ١٨٣٣) وقد قنع محمد علي بالاستيلاء على سوريا وأدته بمقتضى
معاهدة « كوتاهيا » وبصدور فرمان شاهاني بمنحه الباشوية (٦ مايو
سنه ١٨٣٣)

وهكذا أصبح قيام أمبراطورية في الشرق الأدنى حقيقة واقعة من



جيش محمد علي في لباسه العسكري

== وقد وفق الأمير في مهمته وأرسل محمد علي إلى ابراهيم بوقف الزحف . وبعد
مفاوضات مضية وضع في ٢٤ ذى القعدة سنة ١٢٤٨ الموافق ١٤ مايو سنة ١٨٣٣
مايسمونه « وفاق كوتاهيا » وبمقتضاه تكون سوريا قسما من المملكة المصرية وأن
يكون ابراهيم باشا حاكمها وجايبا لخراج أدنه .

ومن ثم رجع ابراهيم إلى سوريا ووجه اهتمامه إلى تدبير شؤونها بالعدل
والانصاف وبنى له بادية بدء قصر في انطاكية وأنشأ فيها القشلاقات وعين اسماعيل
بك واليا على حلب كما جعل احمد منكلي باشا واليا على أدنه وطرسوس واحتفظ لنفسه
بالنظر في الشؤون والاجراءات العسكرية .



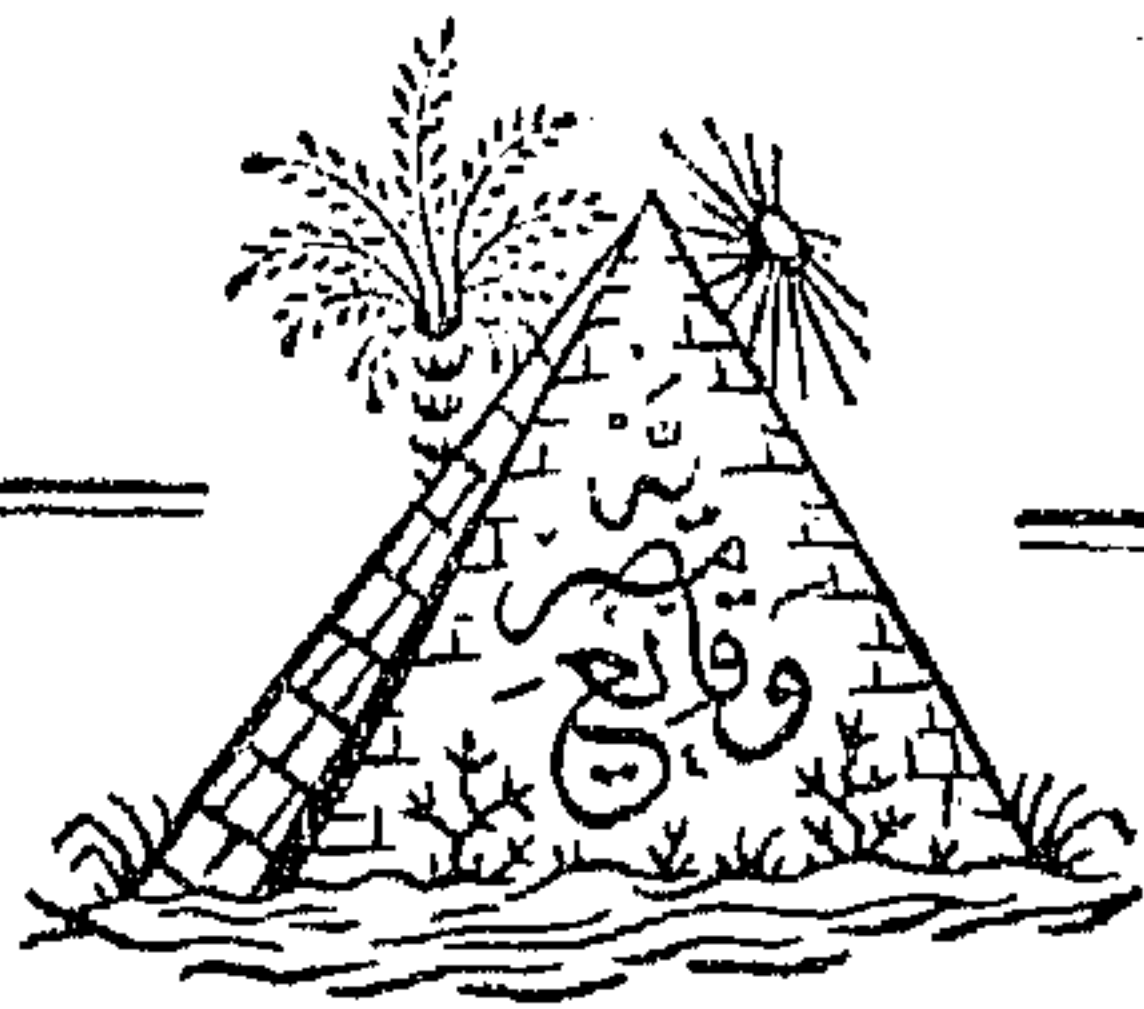
وقائع مصرية

الحمد لله نرى الامم والصلوة والسلام على سيد العرب والعجم اما بعد فان تحرير الامور الواثمة من اجتماع جنس بن آدم المتديجين في صيغة هذا العالم ومن اختلافهم وحركاتهم وسكونهم وبعاد لانهم ومعاشرتهم التي حصلت من احتياج بعضهم بعضا هي نتيجة الانقياد والتبصر بالتدبير والابقان واظهار القمة العمومية وسبب فعال منه بطلعون على كيفية الحال والزمان وهذا واضح لدى اولى الالباب ومن حيث ان الامور الدقيقة الحاصلة من مصالح الزراعة والحراثة وما في انواع الصناعات التي ناسته ماها يتاخر الرخا والتبصر هي اسباب للوصول على الرفاهة وعلى الاجتناب والاحتراز عما ينج منه الضرر والاذا خصوصا في مصر بل هي اساس نظام البلدان وتدير احوالها فكلها فكلها حضرت اعدنا ولي النعم في ترتيب احوال البلاد وعهدنا راعنا احوالها وتوحيدها وفي نظام القرى والبلدان ورفاهة سكانها وراحتهم ووضع ديوان الجرنال قاصدا من وضعه ان ترد الامور الجارية الناتج منها النفع والضرر الى الديوان المذكور وان ينقّب وينفع به منها ما هو ينفع النفع والا فانه حتى اذا ظهر عند المأمورين نوعا النفع والضرر ينقّب ما منه تصدر المنفعة ويجتنب عنه ما منه يحصل الضرر وهذه الارادة العالمة الصادرة من حضرة سعادة ولي النعم وان كانت قد جرت في ديوان الجرنال الى الان الا انها لم تكن عمومية انما الى ان فاراد ولي النعم ان الاخبار التي ترد الى الديوان المذكور تنفخ وينقّب منها ما هو مفيد وتنتشر عما يعر بعض الامور التي ترد من مجلس المذاكرة السامي والامور المتطورة بها في ديوان الخديوي والاخبار التي تاتي من اقطار الججاز والسودان ومن بعض جهات اخرى وذلك ليكون كانه نتيجة للحصول على الفوائد الحسنة التي هي مقصود ولي النعم ونفوقا لممارسة المأمورين النظام وباتى الحكام الكرام المذللين تدبر الامور والمصالح ومن كون هذا الذي ند لاح في ضميرنا لذات السنية ولي النعم صدر امره الشريف بطبع الامور المذكورة وانتشارها عموما مستعينا بالله وتوسلت واشهرت بالوقائع المصرية وباتته حسن التيه

جواهر محمد خنداناروزواهر نصليبة سلطان انبيا ابارك الله في بصره معلوم اوله كه نسخة مطبوعة عالمة نفيسة صوف مطورا لان نوع بن آدمك الطبع تمدت واجتماع وانلاف واختلاف لادن نشئت ابدن حركات وسكان وبكديكره احتياج اقتضا سله وانع اولان معاشرات ومعاملاتك معاني وقايع وماني موافق من طرد تحرير اياه بانه لرنده فويتواثر اياته رف مزاج وونه واقف وكثيبت حاله عارف اولمزي اذهر بجهت نه وعمرته مادي وبهرصورت ابقان وتبصره مؤدى رحالت ابدوكي فورا ومرآت قلوب اولى الالباب سيماطة مصر وريدا مصر كالمصالح فزراع وشجرات وانواع صناعات وحرف مواد لادن - وردة ظهور اولان ذوق رائق اموري ماها ابته مر جب رفاه ورخا اوله حتى اسباب ممكنه نك استحصاله سعي وكوشش ربه ميرت ضرر كرندي اولان كيفيات لادن اجتناب واحترازه جهد ورورش مرمية نظام وستظام عمارت قرا وبلاد ومدار واية آسائش وراحت اهالي وعياد اولديفندن فكل رديري انتظام عمارت قرا وبلاد مصرف وراي رديري رفاهيت وراحت فقراي عياده رفق اوله كلان آصف مرحت مع تاد اند مر ك جرنال ديوانك وضع وناسبتندن مراد معدت اعنياد اذ وراي اقاليم مصر به ما مورلي معرفت ربه حسب المصلحة متابع ومضاره دائر فله النان خصوصيات واقعه جرنال ديوانته كلك اول ديوانته تقبه ونفخ فلغني وفائده حاصل اوله حتى صورته قونلني واقضا ابدية نشر انوب هرر مصلحته كورين منفعته ومضرت حاتمورلك معلوم اري اوله حتى موجب نفع اولاني انتقاب ومسنلم ضرر اولادن اجتناب اولم حتى صورته اواب بواراده خبريه خديوي بوانه خدر جرنال ديوانته اولديفنه احرا اولتقدم ابيه ده لا يقبله نشر وعلان اولاني مجلس اوربده مذكره اولنان وديوان خديويده رؤيت فلنان خصوصا في ججاز وسودان ولايت لادن رسائر اطراف واكادندن كلان الاخبار وان ارد حتى فله النوب ذكر اولنان وقايع مطبوعه به علاوه فلغني مقصود اولان هو انك حسنة نك حسن حصوله مادي ومأمورين عظام رسائر حكام ذوي الاحترامك سوا فني مصلحت اولان صوف امورهم ان الله مؤدى اوله حتى واضح اولديفني ضميرها مسمير حضرت داوري به لايج اولوب طبع ونفخ ايله نك بترسه امر واراده لري سايخ اولديفندن حسنة بنا بالله الهين طبع وبثبته ما اثرت اوائس ووقايع مصر به ناميله اسم وشهرت ويركش درو بالله التوفيق

طبعت هذه الوقائع المصرية بعون خالق البرية بمطبعة صاحب الفتوحات السنية ببولاق مصر الجبه

صورة الصفحة الأولى من العدد الأول من جريدة الوقائع المصرية التي أنشأها ساكن الجنان محمد علي باشا ويرى إلى الجانب الأيمن المقال الافتتاحي باللغة التركية وترجمته باللغة العربية إلى اليسار



قد ورد الى الاسكندرية سفينة نمساوية من ترينته موسوقة بضاعة
وخشباً وفيها ثلثون الف ريال فرانساً على ذمة الخواجا حو بارودك في سنة
وعشرين يوماً وورد من مالطاني ثمانية ايام سفينة انكليزية موسوقة بضاعة
على ذمة الخواجا قورتبسي وورد من كرفو في ثلثة عشر يوماً سفينة شوية
على ذمة الخواجا دانستاسي بغير سوق فيها عشرة رجال من مسلمي المورة
مع اولادهم وعيالهم ووردت سفينة نمساوية من ترينته في ستة عشر يوماً
موسوقة خشباً وقد بلغت معها الى الخواجا دانستاسي صابرين
والى الخواجا تانكي خمسة الاف ريال فرانساً وذلك في اليوم الخامس عشر
من شهر رمضان

انقد عرض الى المجلس العالي نا كرافندي الذي كان سابقاً ناظر الترسانة
والآن ناظر تصايح رتبة المحمودية عرضاً قال به انه اذا انشئ شونة عند
مفرق النيل المبارك الى ناخيتي دسماط ورسد فساله قربة شلقان فيصير
نقل الغلال والاصناف من الاقاليم اليها سهلاً ورجع المراكب الموسوقة
بالغلال الى الاقاليم غير فارغة بل تنقل منها الغلال والاصناف الى الشونة
المذكورة بكل سهولة وقال ايضا انه لقد علم ان القرى الكابنة ما بين مصر
وجرتا بين كل فريتين منها ساعة سفراً وهي جمعها ستة وتسعون ساعة
وانه قد يسهل نقل الغلال والاصناف ويصير بحراً النيل بالمراكب بشرط
ان يتخصص على كل ثمان ساعات بما ذكره كرسندل يكون فيه رئيس واربعة
ملاحون وقواص ينظر على سير المراكب الواصلة والغبر واطمعة عند ذهابها
ويجيبها وان يرسل الى القبطانات المقيمين في الاقاليم القبلية قبل فيضان النيل
مائة قنطار زيت وخمسة قناطير قطران وعشرة قناطير مسامير وخمسة قناطير
مشاق ومائة عدد من الواح البغال ومائة ثوب من قماش الشراخ وخمسة الاف
عرش حتى اذا احتاج احد الريسا الى اصلاح مركبه وكان غير قادر على
ذلك ياخذ من القبطانات المذكورين ما يلزمه اسعافاً له وذلك من غير ربح
بل يخدمته سدياً وذلك ويرسل هذا السند الى ناظر شونة بولاق وهناك
يخصم بوجهه ثمن ما اخذ من اجرتهم وان هذا الترتيب ينبغي ان يكون
في رشيد ومبساط فن ثم نذا كراهل المجلس في هذا وحكموا بانه من حيث
ان المراكب تجرى عند فيضان النيل سريعاً فلا يلزم بها الشونة المذكورة
في المحل المذكور بل يتوجب تدبيره الاخر وهذا يلزم له امر وتبنيه
على مطوش بيل كي ينشئ اثني عشر صندوقاً بما يجعل احدها رتبة مقادير
مع شراعه وسائر ما يلزمه حيث نذا تاتي الى المحرسة بكل امراع ورجوا
ايضاً انه اذا لزم للريسا شي اخر يعطى لهم من خليل افندي ناظر الترسانات
بثمنه الاصل من دون ربح ويؤخذ منهم سدياً وذلك ويرسل الى ناظر شونة
بولاق وشم يخصم من اجرتهم ثمن ما اخذوا ثم انه لعله القلق عليه لزم ان يوفى
بالاولاد المقتدرين من الاقاليم لئلا يوا هذه الصنعة بحيث يكون عجزهم
من الاثني عشر سنة الى الخمس عشرة وبهذا الطريق يحصل الامتثال

رمتنا انك اورثتته ترينته دن رفندعه بجهه سبه سي كراسته وامتنعه
وارتوريلك فرانسه ايله حو بار مارركان اورريسه بكرمي التي كوند
ومالطه دن برقلعه انكليز سفينه سي بر مقدار امتنع حوله سبه قورتبسي
بازركان اورريسه طقوز كوند وقروره دن برقلعه شوية سفينه سي بلا حوله
موره ادا بسندن جولوف جو جوقله اون نفر مسلمان بولجياريله
دانستاسي بارر صكان اورريسه اون اوچ كوند و ترينته دن برقلعه بجهه
سفه سي كراسته حوله سبه ودانستاسي بازركان ذمتنه ايكي قلعه
سفيه ديره كي ونييل فرانسه ايله تانكي بازركان اورريسه اون التي كوند
اسكندرية ايماته كلت اردر

اقام ايدن اسكندرية به كوند بيله جل غلال واصنافك نقلته سهولت ايجون
نيل مباركك وشيدود مبساط طرفه بيه منقسم اوله جق محلهه كائن شلقان
قربه سي قارشوسنده قامش دن شونه اعمال اولنوب ما مورتلره محولا
كلان قايقلر بوش اعاده اوله برق غلال واصناف تحمليه شونه
مذكوره به كوند ريلسي ومحروسه مصر دن جبرجايه واربعه ايكي قربه
اراسي برقلعه اعتبار بيله طنسان التي ملقه اولوب بهر سكر ملقه به بررسندل
ديهرسندله درت طسافه ايله بررئيس شخصه واوررليه بررستند
قواص نصين قلنه برق امد شيد ايدن محول وعبر محول قايقلر كل محول
ما مورتلره سوق و سيرا ريلسي وقايق نصيره محتاج اولوب قدرتي
ايدسان ريلسره اعانه اولنق اورره اقاليم قربه طرفلرندم مقيم قبودانله
نقله دن ريلسي تلك نهبات نقل بديت ترايدي وسطى اولان اواندن
ايكي ماه اول بورقنظار ريلسي قنطار قطران واون قنطار مسهار بكرمي
بش قنطار مشاق وبور عدد قاطر جي تخته سي وبور عدد بلكن بزي
ونيلك عروش اعشا و تسليم اولنوب قاطر نصيره محتاج اولان ريلسره
بلاريج ثمن اصليه سله سندی الله زق زوي قدر اعطاء اول سندلر وقيله
بولاق شونه سي ناظر سه اسرا قلمسي وموجبه اجرتيلك نسقي
وبا حود ثلثي قطع وحجم اوله سي وبواصول رشيد ومبساط صورلنده دخي
اجرا وانه محولك اعشاري وغلل واصنافك سهولته نقل ونيلساري
خصوصه يادي اوله جفتي محمود به نعه سي نظم بيه ما مورسابق ترسانه
لنا ندرى ساكر افندي حصر تله محله عرض ايش واقضاسي بالمذاكره
ثلك مسنا تنده فاقدر سرعت سير ايله مرور وعبور ايدن جكندن شلقان
قارشوسنده شونه انسا سندن صرف نظر اولنوب سائر ترتيباتي بسند
اولنق وشاء علمه درت كوركانى اون ايكي عدد صندل مطوش بل
حضر تله مله قندين انشا اولوب تنه وبلكن وسائر اذات بله سريعاً
محيوسه مصره كوند ريلسي وقايقلر نصيره محتاج اولان ريلسره صرف
ايجون اعطاسي لازم كلان ادوات سائر سي ترسانه لنا ندرى خليل افندي
طرفندن فيسات اصليه سبه جاب وبلا ريج سديله صرف وسندلر

صورة الصفحة الأولى من العدد التاسع عشر من جريدة الوقائع المصرية بعد
تغيير شكلها وهي محررة باللغتين التركية والعربية



الوجهة الأديية بعد أن تمكنت
جيوش الفلاحين من صد
مستعمرهم الأتراك في ثلاث
معارك حاسمة وهي معركة حمص ،
وبيلان وقونية . وكانت الجيوش
العثمانية قد اختل نظامها بما أدخله
عليها السلطان محمود من الإصلاحات
وتسرب إلى قلوبها اليأس من جراء

ارتين افندى والد يعقوب باشا ارتين
وكيل مدرسة المهندسخانه من مايو الى
٢٠ سبتمبر سنة ١٨٣٤ وكان محمد علي

مانزل بهامن الهزائم على أيدي الروس
وخارت قواها بسبب خيانة خسرو

الذي حرم من تولى القيادة العليا على أن
الترحيب الذي استقبل به المصريون من الشعوب المستعبدة في الامبراطورية
العثمانية سرعان ما تلاشى أثره برفع سوريا وفلسطين راية العصيان (١) ولم

قيام الفتن وقمعها

(١) بعد أن وضع اتفاق كوتاهيا على ما امر بك عاد ابراهيم باشا إلى سوريا وشرع
يدير أمورها كما تقضى به أصول العدالة والانصاف ولكن محي الاصطياد في
الماء العكر ما لبثوا أن نفخوا في بوق الثورة فاشتعلت نار الفتن مما حمل ابراهيم باشا
على معالجة الأمور بمنتهى الحزم واستعمال الصرامة مع من ثبتت إدانتهم . ولما كانت
حوادث العصيان وما تلاها من الأهمية بمكان رأينا أن نقص عليك بعض تفاصيلها .
« المعرب »

في أواخر سنة ١٢٤٩ هـ وأوائل سنة ١٢٥٠ أي حوالى منتصف عام ١٨٣٤ ثارت
بعض الفتن في جهة الساط والكرك وامتدت إلى القدس . ثم سرعان ما امتدت إلى
السامرة وجبال نابلس كل ذلك و ابراهيم باشا مقيم في القدس .

وما كادت هذه الأنباء تصل بمحمد علي باشا عزيز مصر حتى أصدر أوامره في أوائل
صفر سنة ١٢٥٠ برسالة عدة الايات إلى غزة مزودة بمهمات ومدافعها . بل أن بعض =



أحد مشايخ الدروز

تقمع فتنة الدروز والموارنة إلا في سنة ١٨٣٨ ثم لا تنس بعد كل ما مر بك أن العبد كان فادحا بحيث كانت تنوء به قوة مصر . وأغلب الظن أن شعباً آخر عدا الشعب المصري ما كان في مثل هذه الأحوال يتردد في المناداة بالثورة احتجاجاً على

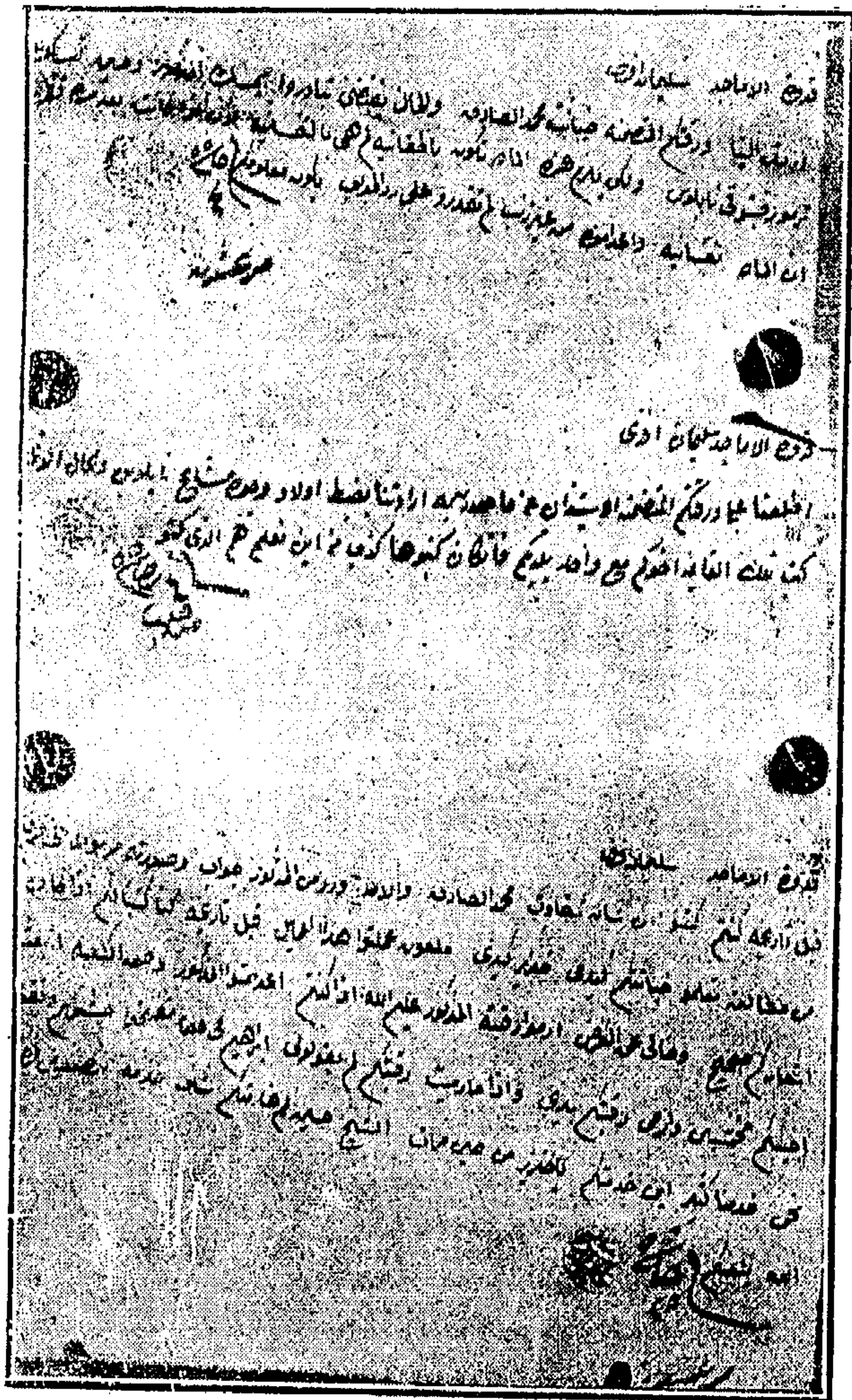
== الأليات التي كانت قد حشدت لارسالها إلى الحجاز قد صدرت إليها الأوامر بالذهاب إلى الشام . ولم يكتف محمد علي بذلك بل جند بعض عربان قبيلتي أولاد علي والجميعات وبعث بهم إلى غزة وأمرهم باستعمال الصرامة مع العربان الثائرين .

وفي إبان شهر صفر سنة ١٢٥٠ تمكن ابراهيم باشا من هزيمة أشقياء العربان في جهات نابلس والقدس . ولكن هذه الهزيمة ساعدت على انتشار الثورة في كافة أنحاء سوريا بما حدا بمحمد علي إلى السفر من الاسكندرية في أواخر الشهر المذكور قاصداً إلى يافا حيث جعل وجهاء البلاد يتقربون منه . وقد اجتمع محمد علي بولده ابراهيم وتباحثا فيما ينبغي اتخاذه من الاجراءات لقصم ظهر الفتنة التي كانت ماتزال مستعرة وبخاصة في جهتي نابلس والقدس .

وأخيراً أدت أعمال ابراهيم إلى التغلب على الثوار وقع الفتنة لا في جهة صفد وحدها بل وفي القدس ونابلس أيضاً . ثم توجهت الجنود المصرية إلى السلط والكرك فهدموها .

على أن الفتنة بعد أن نامت قليلاً عادت إلى الظهور مرة أخرى في جبال النصيرية حيث خرج جماعة من الأهالي للاشتباك بفرقة من الجنود المصرية كانت في طريقها من اللاذقية إلى حلب فأعادوها من حيث جاءت .

وكان الأمير بشير الشهابي قد أرسل في خلال ذلك الوقت ولده أميناً إلى محمد علي ليخبره بانتظار والده لأوامره بتسيير القوات اللازمة من صفد لقمع الثائرين . فأصدر إليه محمد علي الأوامر اللازمة . وما هو إلا قليل حتى اتحد ٧٠٠٠ من المصريين مع ٨٠٠٠ من الدروز والموارنة بقيادة الأمير خليل بن الأمير بشير أمير لبنان وسار الجميع إلى جبال النصيرية حيث تمكنوا من إخضاع الثائرين نهائياً وحملوهم على القاء سلاحهم ==



انموذج من سهر ابراهيم باشا على سير العدالة
 كما تشهد بذلك كتبه الثلاثة المذكورة في هذه الصورة إلى والي نابلس سليمان أفندي
 يأمره فيها باقامة العدل بالقسطاس المستقيم ويحذره من الانقياد للعواطف وحب الانتقام
 = وزيادة في الاحتياط وخوفا من العودة إلى الثورة شرع ابراهيم باشا في نزع
 سلاح السوريين. وقد تمكن من ذلك ولكنه لم يستطع تجريد اللبنانيين .
 وبعد أن خلا بال ابراهيم من نزع سلاح السوريين بدأ بمساعدة الأمير بشير في
 الهجوم على أهالي الشوف والمتن في لبنان وتجريدهم من سلاحهم وبذا استتبت السكينة
 في أنحاء البلاد وهدأت الأحوال فيها واستأنف ابراهيم أعمال الإدارة الصالحة بما عهد =



حسين محمد كياتي، وأحد طلبة بعثة محمد علي
في فرنسا

قسوة محمد علي ولكن الفلاحين
بدلاً من ذلك كانوا يموتون بالألوف
أو يفرون أو يشوهون أجسامهم
عمداً هرباً من الانخراط في سلك
الخدمة العسكرية البغيضة .

ولو كان محمد علي ترك وشأنه
لكان الأرجح أن يحجم عن تجديد
الكفاح ولكن بريطانيا ما كان
ليرضيها بحال ما أن تسد دولة شرقية
الطريق البري في وجهها. ولقد ترتب
على تخوف محمد علي من أنه إذا

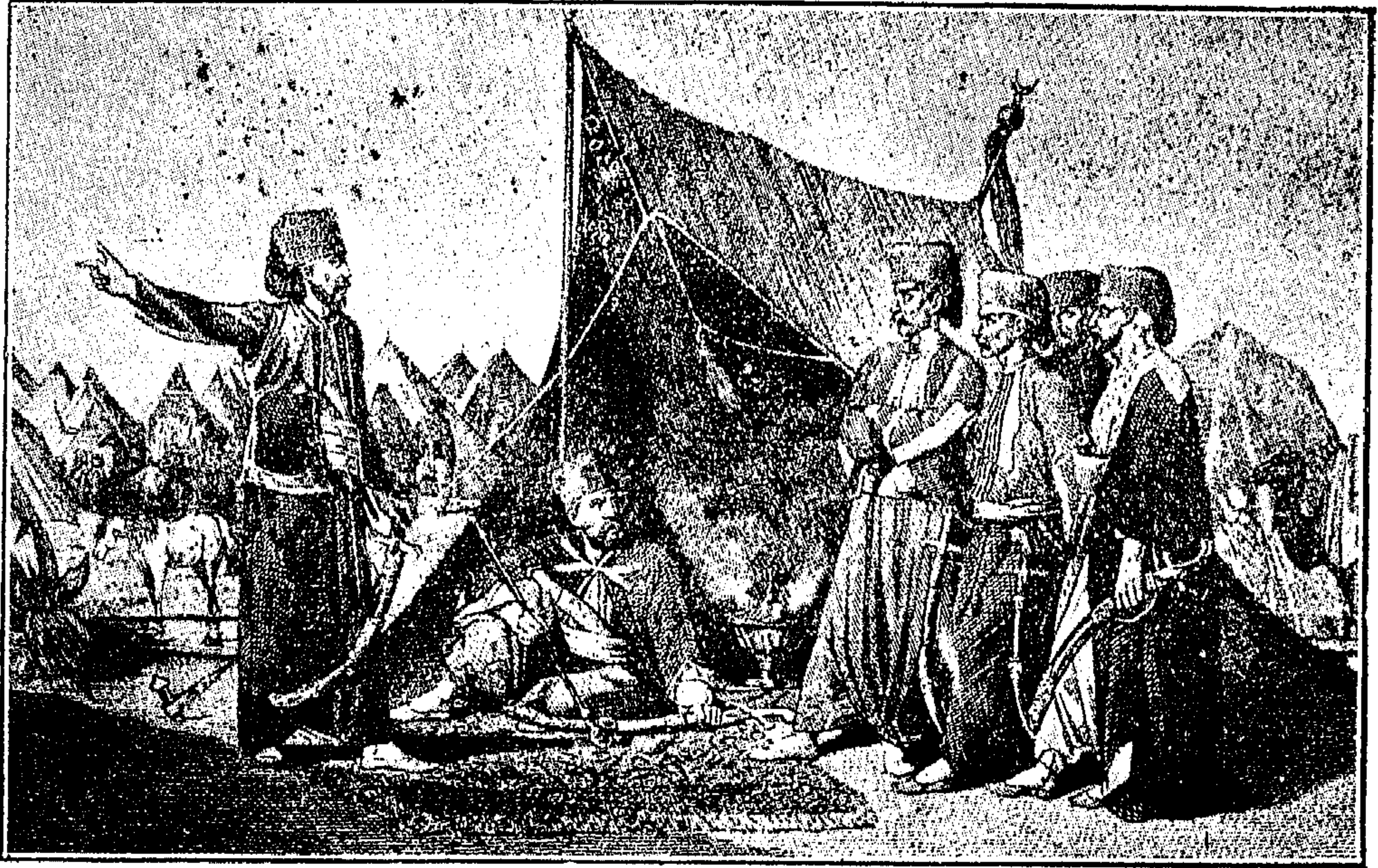
== فيه من الحزم المنطوي على حب العدالة والانصاف كما تشهد بذلك كتبه إلى والي نابلس
المنشورة في الصفحة السالفة. وقد طلب فيها معاملة الثائر محمد الصادق معاملة تنطوي على
العدل وعدم الانقياد لحكم العواطف. وزاد على ذلك أنه تهدده بالاعدام بعد إذ تبين
أن طلبه إعدام الثائر المذكور كان بلا وجه حق. وقد جاء في الخطاب الثالث قوله
« إذا كنتم أعدتموه فوحق الكعبة سأبعث أجبيكم مخشبين وأرمي رقبتكم يدي . .
وإذا لم أفعل فلن أكون ابراهيم . »

على أن محمداً علياً أحب استخدام سوريا لتوسيع دائرة حكمه فشرع في جمع الرجال
والخيول بالوسائل القهرية مما غضب له الباب العالي فعقد مجلساً في يناير سنة ١٨٣٩
وقرر إرسال تجريدة قوامها ٨٠٠٠٠ مقاتل تحت قيادة حافظ باشا وسيرها ضد
ابراهيم باشا بقصد إخراجه من سوريا .

تركيا تحاول إخراج ابراهيم باشا من سوريا

وكان شبح الذهب في الأقاليم الاستوائية ما يزال ماثلاً في مخيلة محمد علي. فعقد النية على
الذهاب إلى السودان للاشراف بنفسه على أعمال الكيميائيين القائمين بالبحث على المعادن في
تلك المناطق النائية. وهكذا شخص إلى السودان تاركا أمور مصر في أيدي حفيده عباس
الثاني وكان قد عين من قبل مديراً للغربية . ولشد ما كان اغتباط محمد علي عند مارأي
الآمن موطداً في السودان والعدالة تجري مجراها في كافة ربوعه .

أعطاهما شبراً من الأرض أن تطمع في ذراع ثم فيما هو أكثر من ذلك
وهكذا دواليك ، أنه رفض بتاتاً منحها امتيازاً بإنشاء سكة حديدية عبر



جيش إبراهيم باشا في نصيبين

برزخ السويس (١٨٣٧) وإذ كانت لندن تنظر بعين السخط الشديد إلى
انتشار سلطة مصر على بلاد العرب حتى الخليج الفارسي فانها انقلبت

== وبينما هو يجرى وراء سراب الذهب جاءت أنباء الحملة التي جردها السلطان محمود
بقيادة حافظ باشا لإخراج إبراهيم باشا من سوريا . فاهتم لهذا الخبر وقفل راجعاً إلى
مصر بعد أن كتب إلى ولده إبراهيم يكلفه بالاستئصال في الدفاع . فصمم هذا على
حشد قواته في حلب وشرع يعد عدته للفتك بالحملة التركية المذكورة .

وكان السلطان محمود لم يكفه توجيه تلك الحملة الهائلة برآبل قرر في الوقت نفسه
إرسال عمارة بحرية إلى المياه المصرية . والآن فاسمع ما أنزله القدر بالقوات التركية
البرية والبحرية.

ففي ١١ ربيع الثاني سنة ١٢٥٥ تقدم إبراهيم باشا من حلب لملاقاة جيش حافظ ==

تناضل بشدة عن مبدأ أصيانه سلامة الأمبراطورية العثمانية ولهذا احتلت عدن من قبيل الاحتياط لتكون بمثابة مخفر أمامي ضد مصر. ولكن فرنسا كانت من الناحية الأخرى تؤيد توسيع مصر. وسرعان ما وقعت الأزمة عند ماتين لمحمد علي أن المعاهدة التجارية بين إنجلترا وتركيا (١٨٣٨) أصبحت خطراً على نظام التجارة الحكومية بأسره إذ كان يعرف أن ماتعقده تركيا من



مدالية لمحمد علي باشا ضربت في باريس سنة ١٨٤٠
تذكراً للمعركة نصيين - الوجه الآخر للمدالية

المعاهدات يسرى مفعوله على مصر حتماً. ولذا طلب جعل مصر مستقلة

== باشا . وفي يوم ١٣ منه التقى به في جهة نازيب فنشبت معركة عنيفة بين الفريقين مدة ثلاث ساعات دارت فيها الدوائر على الجيش التركي ففر هارباً إلى مرعش بعد ما غنمه ابراهيم باشا من المدافع والمهمات والأسرى . وقد قدرت خسائر القوة التركية رسمياً بما يأتي ٦٠٠٠ قتلى و ١٦١٠٠ أسرى و ١٤٥ مدفع من جملة ١٦٠ مدفع . ثم واصل الجيش المصري زحفه فاستولى على نصيين واحتل مدائن عنتاب وقيصرية وملطية .

وفي ١٩ من هذا الشهر نفسه (أي ما يقابل سنة ١٨٣٩) وقبل أن تصل أنباء هذه الهزائم إلى الاستانة توفي السلطان محمود الثاني فجأة (وأشيح أن نخسرو هو الذي دس له السم) وخلفه على العرش ابنه السلطان عبد المجيد خان وهو بعد في سن الثامنة عشرة . وقد اعتلى العرش والدولة أشد ما تكون اضطراباً من جراء ما أحرزه ابراهيم من الانتصارات الباهرة .

أما العمارة البحرية فان قائدها أحمد باشا القبودان بعد أن رأى خوسرو باشا يتولى منصب الصدارة العظمى أجمع أمره على أن يسلم عمارته جملة واحدة لمحمد علي بدون حرب أو كفاح . وقد تم هذا كله في أوائل جمادى الأولى سنة ١٢٥٥ وكانت له رنة ==

عن الأمبراطورية من الوجهة التجارية . ولكن السلطان محمود رد على هذا الطلب بأن أعلن أن محمداً علياً تأثر . فبادر هذا بغزو سوريا . وهنا شرع إبراهيم من جديد يكرر انتصاراته القديمة بالرغم من انضمام الجنرال « فون مولتكه » الكبير إلى جانب الأتراك . وأخيراً اضطر السلطان إلى فتح باب المفاوضات مع محمد علي ولكنه انتقل إلى جوار ربه بعد أن دس له خسرو السم على الأرجح .

وقد أصبح هذا الأخير صدرًا أعظم في عهد عبد المجيد السلطان الجديد . وهنا أعلن قبودان باشا منافس خسرو وعدوه الآن — بتحريض

== فرح عظيمة في مصر مما جعل محمداً علياً يصدر أوامره باقامة المهرجانات والأفراح بمناسبة حضور احمد باشا المذكور وانزاله في قصر خاص كضيف على عزيز مصر . وفي ١٣ جمادى الأولى أرسل محمد علي كتاباً مطولاً إلى وزراء السلطنة العثمانية أعرب فيه عن ارتياحه لتبوؤ السلطان الجديد عرش السلطنة ويعلم خضوعه وعبوديته وينصح باقصاء خسرو باشا عن منصب الصدارة بعد أن نكبت الدولة بمشورته السيئة . وقد دافع عن عمل احمد باشا القبودان أحر دفاعاً قائلاً إنه كان موفقاً في ضم العمارة التركية المركبة من ٢٣ سفينة إلى العمارة المصرية حقناً للدماء ولتكون العمارتان عدة للدولة في مدلهات الخطوب .

وفي ٢٢ من هذا الشهر نفسه أصدر محمد علي منشوراً في كافة أنحاء القطر بأنه تبين من مكاتبه الصدر الأعظم أن جلالة السلطان الجديد أصدر نطقه الشاهاني بالعدول عن مجادلة والى مصر وصرف النظر عما حدث بينه وبين جنتمکان والده من أسباب الشحنة والخصام ووعده بارسال النيشان كالمعتاد ولهذا فهو يأمر باطلاق المدافع والدعاء باسمه في خطب المساجد .

فلو كان الحظ شاء أن يقع الاختيار لمنصب الصدارة على رجل آخر عدا خسرو باشا أو لو كان هذا الرجل رجل سلام لا تنهز فرصة جلوس جلالته السلطان الجديد على العرش ومبادرة محمد علي إلى اعلان خضوعه وعبوديته له لاعادة المياه إلى مجاريها وتوحيد الجهة إزاء الدولة الغربية التي كانت واقفة بالمرصاد ترقب أول فرصة لتحقيق أمانها في تقسيم تركية « الرجل المريض » .

الفرنسيين - أنه انضم الى محمد علي وفعلا سلمه الاسطول . هذا في حين أن الجنود العثمانية بدأت تتردد في ابداء ولائها (يولية سنة ١٨٣٣) وهكذا صارت تلك الأمبراطورية غنيمة باردة يسهل وقوعها في أيدي هذا الباشا العتيد .

على أنه كان من سوء الطالع بالنسبة لمطامع محمد علي الاستعمارية - بقدر ما كان من حسن الحظ بالنسبة لتكوين مصر كأمة - ان سياسة بريطانيا في هذه الازمة كانت نفس السياسة التي عرفت عن المرستون ، سياسة التورط المنطوي على الجرأة والنشاط . ولما كانت غايتنا التقليدية هي صيانة الأمبراطورية العثمانية ضد مطامع روسيا بالتآزر مع فرنسا فقد

== ولكن . . . نعم ولكن . . . شاء سوء الحظ أن يندفع خسرو بتأثير حقه القديم على محمد علي بمناسبة طرده من مصر - على ما امر بك - إلى دس الدسائس بقصد الكيد لخصمه القديم مما كانت نتيجته انزال النكبات بتركيا وبمصر جميعا .

الدول الأوربية تكيد لمحمد علي

والآن فآلق بالك إلى ما سنسرده عليك من هذه الدسائس كما لخصناها عن كتاب

« تقويم النيل » لأمين باشا سامي

ففي أوائل شهر رجب (سبتمبر سنة ١٨٣٩) عرض لورد بونسبني (سفير إنجلترا في الاستانة) على الباب العالي استعداد دولته لارغام محمد علي باشا على رد العمارة التركية بشرط تخويلها حق ادخال سفنها الحربية (سفن إنجلترا) في خليج الدردنيل والبوسفور لصد روسيا عند الضرورة .

ولكن فرنسا ما كادت تعلم بهذا السعي حتى كلفت الاميرال لالند قائد أسطولها في المياه التركية (١٨ ديسمبر سنة ١٨٣٩) بعدم الاشتراك مع السفن البريطانية في أية حركة عدائية ضد محمد علي .

وكان قناصل الدول في الاستانة قد خشوا عند سماع انضمام العمارة التركية إلى محمد علي أن يواصل ابراهيم زحفه على الاستانة بعد أن فقدت الدولة كافة جيوشها وأساطيلها فتدخل روسيا طبقاً لأحكام معاهدة (هونكار اسكلاسي) وترسل جيشاً لمحاربه فأرسلوا في ١٦ جمادى الأولى (٢٨ يولية سنة ١٨٣٩) مذكرة مشتركة إلى الباب العالي وقعها سفراء فرنسا وإنجلترا وروسيا والنمسا وبروسيا بالا يقرر شيئاً في صدد المسألة =



لورد بالمرستون وزير خارجية بريطانيا سابقاً

== المصرية إلا باطلاعهم واتحادهم وأبدوا له استعدادهم للتوسط بينه وبين محمد علي لحل الأشكال . فقبل الباب العالي وبعد يومين اجتمع السفراء في دار الصدارة العظمى للتشاور فيما ينبغي إعطاؤه لمحمد علي . وكان من رأى سفيرى انجلترا والنمسا ضرورة ارجاع الشام لتركيا وعارض في ذلك سفيرا فرنسا وروسيا وطلبيا منح محمد علي ملك مصر وولايات الشام الأربع . ثم انحاز سفير روسيا إلى الرأى الأول فتقرر بالأغلبية . وطلب كبير وزراء النمسا عقد مؤتمر دولى في فينا أو لندن لاتمام البحث في القضية المصرية ولكن طلبه هذا لم يقابل بالارتياح فوقف المباحثات . وتوالت الحوادث إلى أن أصدر محمد علي أمراً إلى حفيده عباس باشا الأول في ١٢ جمادى الأولى سنة ١٢٥٦ بأنه تحقق من وصول عمارتى انجلترا وفرنسا إلى بيروت وأنه وإن كان ارسلهما لا يدل على قصد سيء . مبيت إلا أن الضرورة تقضى باتخاذ الاحتياطات اللازمة الخ .

معاهدة لوندرا

وفى ١٥ جمادى الأولى الموافق ١٥ يولية سنة ١٨٤٠ امضيت معاهدة لوندرا وصدق

كان يلوح أن الحل البديهي الوحيد هو ان لا نعارض في دخول محمد على الاستانة حيث ينشئ الأمبراطورية نشأة جديدة. بيد أن حلا كهذا كان يقتضى بطبيعة الحال تحولا في مسلك السخط الذى سلكه بالمرستون حياى محمد على مما كان حريا بان يسىء الى شخصيته بقدر ما كان يحط من هيئته. أضف الى هذا اعتقاده بان النظام الاقتصادى الذى كان يتبعه محمد على كان على وشك الانهيار وفى هذا الصدد كتب الدكتور بورنج وهو ممن يتحملون أكبر نصيب من التبعة عن سير علاقاتنا الخارجية يقول «ان قوة الباشا وهمية بحيث يعتبر عاجزاً عن ابداء أية مقاومة جديدة» (راجع التقرير الخاص بمصر وكندا وكذلك الاوراق البرلمانية سنة ١٨٤٠)

علمها مندوب الدولة العلية بعد أن وافقت عليها روسيا وبروسيا والنمسا وانجلترا وهى تنص على ما يأتى :

أولاً : الزام محمد على بارجاع مافتحه للدولة العلية والاحتفاظ لنفسه بالجزء الجنوبى من الشام مع عدم دخول مدينة عكا فى هذا القسم .

ثانياً : أن يكون لانجلترا الحق بالاتفاق مع النمسا فى محاصرة فرض الشام ومساعدة كل من أراد من سكان بلاد الشام خاع طاعة المصريين والرجوع الى الدولة العلية وبعبارة أخرى تحريضهم على العصيان لشغل الجيوش المصرية فى الداخل حتى لا تقوى على مقاومة المراكب النمساوية والانجليزية .

ثالثاً : أن يكون لمراكب روسيا والنمسا وانجلترا معا حق الدخول فى البوسفور لوقاية القسطنطينية لو تقدمت الجيوش المصرية نحوها .

رابعاً : أن لا يكون لأحد الحق فى الدخول فى مياه البوسفور مادامت القسطنطينية غير مهددة .

خامساً : يجب على الدول الموقع مندوبوها على هذا الاتفاقى أن تصدق عليه فى مدة لا تزيد عن شهرين بحيث يكون التصديق فى مدينة لوندرا. وشفعت هذه المعاهدة بملحق مصدق عليه من مندوب الدولة العلية مبين فيه الحقوق والامتيازات التى يمكن منحها لمحمد على .

وهكذا ترى كيف فتحت هذه المعاهدة أبواب الشر وأكسبت الدول حقا بدخول مياه الأستانة للدفاع عن العاصمة التركية بما أنها حاولت تجريد محمد على من مغنمه فى سوريا . لذلك لم يكن عجيباً أن ينظر بعين السخط الى هذه المعاهدة ويرفضها لأنها =

ثم إن تقارير القناصل التي كانت على ما يظن تردد رأى الدوائر الرسمية في إنجلترا جعلت ديدنها اظهار عيوب تجار يبه الاقتصادية دون الالتفات الى ما كانت ترمى اليه هذه التجار ييب من الغايات . واذ كان بالمرستون في طليعة المستعمرين فقد كان دائماً على استعداد لان يأمر بقلب أوضاع العلاقات الدولية رأساً على عقب أو أن يصرم حبالها بتاتا حتى ولو أدى ذلك الى نشوب حرب أوربية . كل ذلك كان بالمرستون على استعداد لان يفعله حرصاً على مسألة شكلية خاصة بالهيبة الأبراطورية . وليس من شأننا هنا أن نبحث فيما اذا كان من حسن السياسة أو مما يخدم المصالح الأبراطورية أن ننضم

== بحفلة له وهو الرجل الذي كان قد أخضع سوريا بأسرها وأباد جيوش الدولة العلية وأساطيلها وأصبحت أمامه الطريق خالية إلى الأستانة هذا عدا ما كان لديه من القوات التي تديف عن ١٤٦٠٠٠ من الجنود النظامية و ٢٢٠٠٠ من الباشبورق منها ١٣٠٠٠٠ تحت قيادة ابنه ابراهيم في سوريا والباقيون متفرقون في الحجاز والسودان وكريدمصر فلما رأت الدول رفضه معاهدة لوندرا عرضت عليه أخذ ولاية عكا ترضية له وأن يضمها إلى مصر في مقابل انسحابه من سوريا . ولكنه رفض هذا العرض أيضاً .

رفض محمد علي لمعاهدة لوندرا

وما كادت الدول أن تضع هذه القرارات فيما بينها - دون أن تخبر بها محمداً علياً - حتى شرع عزيز مصر من ناحيته يصدر الأوامر إلى حفيده عباس باشا طبقاً لما تقتضيه الحالة السياسية وتطوراتها . ونظراً لأهمية هذه الأوامر ننقل لك بعضها ملخصاً عن كتاب «تقويم النيل» إذ هي برهان ناطق على مبلغ عدم اكتراث ذلك المصلح الكبير بتهديدات الدول وصدق عزيمته على مقاومتها وتضحيتها بكل شيء في سبيل رفعة مصر :

فقى ٢٢ جمادى الأولى أمره بالتريث في العمل ريثما تنجلي «الحالة الحاضرة المنظور

بأن عواقبها غير حميدة» .

وفي ٣ جمادى الأخرى صدر أمره إليه «بما أنه يرى من الحالة الحاضرة تحزب الدول الأجنبية وإعطاء قرار من مجلس لوندرا يمس مقاصدنا فلذلك يكون من الوجوب اتخاذ الاحتياطات اللازمة في سائر النقط الحربية الكائنة على سواحل مصر والشام»

الى روسيا العسكرية لاشيء سوى قهر حكومة لويس فيليب الصديقة
المسالمة ولاغظة الدولة الشرقية الوحيدة الناهضة . وعلى كل فان المرستون
كتب إلى السفير البريطاني في باريس (٥ يونيو سنة ١٨٣٨) باللهجة الآتية :

== والقيام للدفاع حرباً وضرراً عند حشد عساكر الدولة . . . وعندما تتحرك دول أوروبا
على مصر يكون حضوركم هنا بواسطة الوابورات بحراً أو براً والعسكر الواردة لطرفكم
من مضيق كوكلك يصير إعادتهم إلى محلاتهم الأصلية عن طريق طرسوس أو من جهة
أخرى وعلى أي حال يلزم التبصر بالحزم واتباع ما يصدر لكم في هذا الشأن .
وفي ١٥ جمادى الأخرى أمر آخر بأنه « غير معلوم صراحة نتيجة قرار لوندرا الآن
ولكن باستعمال المساعي بواسطة كتاب قناصل دول روسيا والنمسا وانجلترا صار الحصول
على شواهد القرار التي منها ذهب تلك الخيالات الباطلة وبث الفتن في أنحاء بر الشام
ومساعدة أهاليها في ذلك وإرسال ٦٠٠٠ عسكري من طرف الدولة العثمانية إلى قبرص
وإرسال أسلحة وبارود لتوزيعها على أهالي الشام أيضاً وصدور فرمان خطاباً للدير
بشير بالخروج عن طاعة محمد علي وإرسال صور من قرار لوندرا السابق ذكره بواسطة
وابور انجليزى لنشره بتلك الجهات بزعم تخليصهم من حكم محمد علي وهكذا من الحركات
غير السارة الحاصلة من تلك الدول وعزم دولة فرنسا على ارسال ١٠٠٠٠٠ عسكري
عند مسيس الحاجة وأنه يلزم استعمال الحزم وعدم تمكن خروج أجانب من البحر
إلى البر عند ورود سفن بحجة الكورتينة منعاً من نشر مكاتبات مهيجة إنما يكون ذلك
بالشدة واتخاذ قانون الكورتينة حجة للدفاع ومنع سائر الوسائط الموجبة
لاختلال الأمن .»

ولما كان ما ترتب على معاهدة لوندرا من النتائج الخطيرة له علاقة مباشرة بمستقبل
مصر فقد آثرنا أن نتوسع قليلاً في الاقتباس من المصادر الأخرى .
ففي هذا اليوم نفسه أبلغت نصوص معاهدة لوندرا رسمياً إلى محمد علي باشا وجاء
إليه قناصل الدول الأربع المتحدة يعرضون عليه باسم دولهم أن تكون ولاية مصر له
ولورثته وولاية عكا له مدة حياته . ثم أمهلوه عشرة أيام لاعطاء جوابه . وبعد أن
أعطوه صورة كتابية من هذا العرض أبلغوه أنه يجدر به الا يرتكن على مساعدة فرنسا
وأفهموه أن دولهم مصممة على تنفيذ هذه القرارات حتى ولو أدى الأمر إلى حرب
أوروبية عامة.



ابراهيم باشا يواسى بنفسه الجرحى من رجاله في ميدان القتال

== فكان جواب ذلك الجندي الكبير الرفض البات. وقد أفهمهم من ناحيته أنه مصمم على الاستبسال في الدفاع إلى آخر قطرة من دمه

ثم مرت مهلة الأيام العشرة فحضر له القناصل ومعهم مندوب الدولة العلية في يوم ٢٥ جمادى الآخرة (٢٤ أغسطس سنة ١٨٤٠) فأبلغوه أنه نظراً لرفضه قد سقط حقه في ولاية عكا وأن الدول لا تسمح له إلا بولاية مصر وحدها له ولذريته .

فاستشاط غيظاً وأمر بطردهم من حضرته قائلاً لهم « كيف يجوز أن أسمح لكم بالبقاء في بلادى وأتم وكلاء أعدائى في هذه الديار فانصرفوا » .

ولكنهم أمهلوه عشرة أيام أخرى وأخبروه أنهم ليسوا مسؤولين بعد هذه المهلة عما يلحق به من الضرر .

وقبل أن يصلهم جواب محمد على بالقبول أو بالرفض كتبوا إلى سفراء الدول في الاستانة ا حدث فاجتمع هؤلاء بالصدر الأعظم وقر قرارهم على أخذ مصر والشام

من محمد على .

« ينبغي علينا أن نؤيد السلطان بكل ما في وسعنا ، بمساعدة فرنسا اذا شاءت الاشتراك معنا ، وبدونها اذا رفضت ذلك » ثم أنه أبرق اليه فيما بعد (٨ يولييه سنة ١٨٣٨) يقول « ان الوزارة بجمعة على أنه لا يليق السماح لمحمد

= وانصرف محمد علي من ناحيته إلى تعزيز الاستحكامات وجمع الجنود . وفي ٢٧ رجب قطع قناصل روسيا والنمسا وانجلترا وبروسيا علاقتهم مع مصر .

انسحاب ابراهيم باشا من الشام

وسرعان ما سيرت بريطانيا الجنود والجحافل فنزلت في صيدا بينها كان ابراهيم باشا قد التجأ إلى جبل لبنان وتحصن فيه . وتوجه الأميرال نايبير في الوقت نفسه في عمارة بحرية قوية قاصدا بيروت فضرب عليها نطاق الحصار وكان سليمان باشا الفرنسي قد حصنها أشد تحصين ومعه فرقتان .

ولم تكتف السياسة الانجليزية بما جردته ضد الفاتح ابراهيم باشا من القوات البرية والبحرية بل نشطت في الدعاية للفت في عضد الجيوش المصرية . فقد أذيع كذبا أن ابراهيم باشا قتل في جبل لبنان وتشتت شمل رجاله .

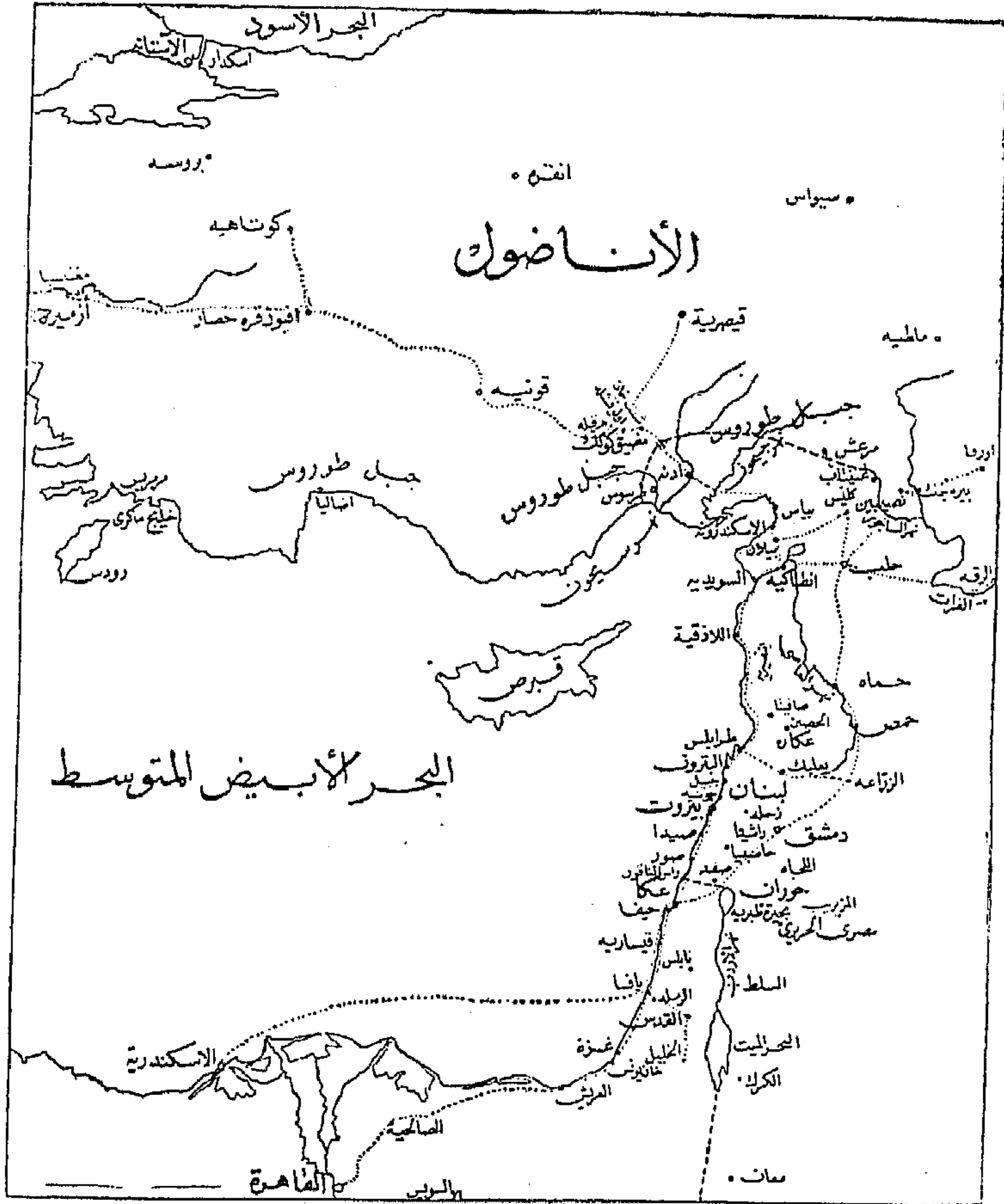
ولعلك تستطيع أن تتصور كيف كان وقع ذلك النبأ المحزن من نفوس الجيوش المصرية . فقد ذهل له سليمان باشا الفرنسي وخشى عواقبه . فقرر رأيه على الاستيثاق من صحته حتى إذا كانت الرواية صادقة ضم إليه ما بقي من جنود ابراهيم باشا واستمر في الدفاع .

فغادر بيروت بعد أن نصب عليها أحد أميراليات الفرقتين وهو صادق بك ولكن هذا سرعان ما دب الخوف إلى قلبه ففرو ترك المدينة يستولى عليها الانجليز بلا كبير عناء . وما لبث أن اتصل صادق هذا بسليمان باشا فتحقق منه أن الأشاعة القائلة بقتل ابراهيم باشا هي محض افتراء بل هو على العكس ما زال على قيد الحياة ولذا فهو يأمره بالاستبسال في الدفاع إلى أن يعود إليه . فأسقط في يد صادق وتملكته الحيرة وخشى الوقوع في شر أعماله فلم يجد مخلصا سوى الارتقاء مع رجاله في أحضان الانجليز .

وبعد أن خلا بال الأميرال نايبير من ناحية بيروت اتجه إلى عكا وحاصرها . وسرعان ما سلمت له المدينة بعد فرار اسماعيل بك منها .

وهكذا استطاع الأميرال نايبير أن يقطع باسطوله خط الاتصال بين ابراهيم باشا في الجبل وبين مصر .

على بأن يعلن استقلاله وأن يفصل مصر وسوريا عن الامبراطورية



بيان المواقع التي خاضها ابراهيم باشا أثناء فتح الشام

العثمانية... أما نحن فانا لعلنا استعداد لأن نقدم للسلطان المساعدة البحرية

ثم ما لبث أن قصد الأميرال المذكور إلى الاسكندرية في ١٥ رمضان سنة ١٢٥٦ بصحبة ست سفن حربية فعرض الصلح باسم الدول على محمد علي باشا فقبله. وبعد مفاوضات طويلة عقدت معاهدة نصت على جعل ولاية مصر وراثية لذرية محمد علي وأن يكون لجلالة السلطان الحق المطلق في أن يختار من يشاء من ذرية محمد علي لملء منصب الولاية على مصر.

اللازمة ضد محمد علي . وفي عزمنا إرسال اسطولنا إلى الاسكندرية .ه لست أكتب هذا إلا على زعم أن فرنسا أمينة وأنه يمكن الاعتماد عليها . ولكن فرنسا كما تصادف لم تكن لا هذا ولا ذلك . فبينما كانت تتظاهر بأنها لا تريد أكثر من الاعتراف بولاية محمد علي وذريته على مصر وسوريا ،

= وبعد عقد المعاهدة أصدر محمد علي أمره إلى جنوده في الشام بالانسحاب فعادوا وعددهم ٧٠٠٠٠ بينما كان عددهم في بداية الزحف على الشام ١٣٠٠٠٠
فرمان محمد علي على ولاية مصر

وفي ١٣ فبراير سنة ١٨٤١ (٢١ القعدة سنة ١٢٥٦) صدر فرمان همايوني بموافقة مندوبي الدول الأربع المتحدة المجتمعين في لوندرا بهيأة مؤتمر بتولية محمد علي على مصر .

الفرمان الهمايوني بتولية محمد علي واليا على مصر

وإليك أهم ما تضمنه فرمان من النصوص وهو في صيغة الخطاب لمحمد علي باشا :
« . . . تثبيتكم في الحكومة المصرية الميمنة حدودها في الخريطة المرسومة لكم من لدن صدرنا الأعظم وقد منحنكم فضلا على ذلك ولاية مصر بطريق التوارث بالشروط الآتي بيانها :

(١) « متى خلا منصب الولاية المصرية تعهد الولاية إلى من تنتخبه سدتنا الملوكية من أولادكم الذكور وتجري هذه الطريقة نفسها بحق أولاده وهلم جرا .

(٢) « إذا انقرضت ذريته الذكور لا يكون لأولاد نساء عائلتكم الذكور حق أي كان في الولاية وإرثها .

(٣) « ومن وقع عليه من أولادكم الانتخاب لولاية مصر بالارث بعدكم يجب عليه الحضور إلى الاستانة لتقليده الولاية المذكورة .

(٤) « إن حق التوارث الممنوح لوالى مصر لا يمنح رتباً ولا لقباً أعلى من رتبة سائر الوزراء ولقبهم ولا حقاً في التقدم عليهم بل يعامل بذات معاملة زملائه .

(٥) « جميع العهود المعقودة أو التي ستعقد في مستقبل الأيام بين بابنا العالى والدول المتحابة يتبع الاجراء على مقتضاها جميعها في ولاية مصر أيضاً .

وبينما كانت تتظاهر بالعمل بالاتفاق مع الدول الأخرى إذا بها كانت
تفاوض الباب العالي سراً وعلى انفراد لمصلحة محمد علي . فلما وقف
بالمستون على مساعيها هذه أرغم ملبورن تحت تأثير التهديد بالاستقالة

(٦) « كل ما هو مقروض على المصريين من الأموال والضرائب يجرى تحصيله باسمنا
الملوكي . ولكي لا يكون أهالي مصر وهم من بعض رعايا بابنا العالي معرضين للمضار
والأموال والضرائب غير القانونية يجب أن تنظم تلك الأموال والضرائب المذكورة
بما يوافق حالة ترتيبها في سائر الممالك العثمانية .

(٧) « ربع الإيرادات الناتجة من الرسوم الجماركية ومن باقى الضرائب التى تحصل
فى الديار المصرية يتحصل بتمامه ولا يخصم منه شئ ويؤدى إلى خزينة بابنا العالي العامرة .
(٨) « الثلاثة أرباع الباقية تبقى لولايتكم لتقوم بمصاريف التحصيل والإدارة المدنية
والجهادية وبنفقات الوالى وبأثمان الغلال الملزومة مصر بتقديمها سنويا إلى البلاد المقدسة
(مكة والمدينة) .

(٩) « يبقى هذا الخراج مستمراً دفعه من الحكومة المصرية بطريق تأديته المشروحة
مدة خمس سنوات تبتدىء من عام ١٢٥٧ أى من يوم ١٢ فبراير سنة ١٨٤١ .
(١٠) « ينظر فيما بعد فى تعيين لجنة مراقبة وملاحظة للوقوف على مقدار الإيرادات
السنوية والطرق المستعملة فى تحصيل العشور وبقاى الضرائب .

(١١) « تكون النقود الذهبية والفضية الجائز لحكومة مصر ضربها باسمنا الشاهانى معادلة
للنقود المضروبة فى ضربنا تاتنا العامرة بالاستانة سواء كان من قبيل عيارها أو من قبيل
هيئتها وطرزها .

(١٢) « يكفى أن يكون لمصر فى أوقات السلم ١٨٠٠٠ من الجنود للمحافظة فى داخلية
مصر ولا يجوز أن تتعدى ولا يتكتم هذا العدد . ولكن حيث أن قوات مصر العسكرية
معدة لخدمة الباب العالي كأسوة قوات المملكة العثمانية الباقية فيسوغ أن يزداد هذا العدد
فى زمن الحرب بما يرى موافقاً فى ذلك الحين .

(١٣) « تتبع أيضاً فى مصر القاعدة الجديدة المتبعة فى كافة ممالكنا بشأن الخدمة العسكرية
بأن يستبدل الجنود بعد الخدمة مدة خمس سنوات بغيرهم من العساكر الجديدة .

على أن يرسل إلى محمد علي انذاراً ينتهى أجله فى عشرة أيام بأن يتخلى عن سوريا . وهنا حاول الفرنسيون فتح باب المفاوضات من جديد ولكن

(١٤) « يجب أن لا تختلف حياة الملابس والعلامم التمييزية ورايات الجنود المصرية عن مثلها من ملابس ورايات باقى الجنود العثمانية وكذا ملابس الضابطان وعلامم امتيازهم وملابس الملاحين وعساكر البحرية المصرية ورايات سفنها يجب أن تكون مماثلة للملابس ورايات وعلامم رجالنا وسفنتنا .

(١٥) « للحكومة المصرية أن تعين ضابطان برية وبحرية حتى رتبة الملازم . أما ما كان أعلى من هذه الرتبة فالتعيين إليها راجع لارادتنا الشاهانية .

(١٦) « لا يسوغ لوالى مصر أن ينشىء من الآن فصاعداً سفناً حربية إلا باذننا الخصوصى .

(١٧) « يبطل هذا الامتياز ويلغى فى الحال عند عدم تنفيذ أى شرط من الشروط الخاضع لها اعطاء الامتياز الخاص بوراة ولاية مصر .

فرمان الولاية على السودان

وفى نفس اليوم الذى صدر فيه فرمان السالف الذكر (أى فى يوم ١٣ فبراير سنة ١٨٤١) صدر فرمان شاهانى آخر بتولية محمد على واليا على السودان . وإليك أهم ماورد فيه وهو أيضاً فى صيغة الخطاب .

(١) « . . . وقد قلدتكم فضلاً عن ولاية مصر ولاية مقاطعات النوبة ودارفور وكردفان وسنار وجميع توابعها وملحقاتها الخارجة عن حدود مصر ولكن بغير حق التوارث . فبقوة الاختبار والحكمة التى امتزمت بها تقومون بإدارة هاته المقاطعات وترتيب شؤونها بما يوافق عدالتنا وتوفير الأسباب الآيلة لسعادة الأهلىن .

(٢) « عليكم أن ترسلوا فى كل سنة قائمة إلى بابنا العالى حاوية بيان الايرادات السنوية جميعها .

ولعل المادة الآنية من أهم مواد ذلك فرمان فانها ترمى إلى قطع دابر النخاسة طبقاً لأوامر الشرع الاسلامى الحنيف وهى :

(٣) « حيث أنه يحدث من وقت لآخر أن تهجم الجنود على قرى المقاطعات المذكورة فياسرون الفتيان من ذكور وأناث وبيقونهم فى قبضة يدهم لقاء رواتبهم ، وحيث أن هذه الأمور مما تنفضى معها الحال ليس فقط لانقراض أهالى تلك البلاد وخرابها بل أنها =

بالمستون كان مصمما على إملاء التسوية التي يشاؤها . وولى الأмирال
نايير وجهه شطر سوريا بقصد مهاجمة ابراهيم فيها . وفعلا أنزل جنوده
في بيروت (سبتمبر سنة ١٨٤٠) وفي الوقت نفسه انتهر الباب العالي

بأمور مخالفة للشريعة الحنيفة المقدسة وكلتا هاتين الحالتين ليست أقل فظاعة من أمر آخر
كثير الوقوع وهو تشويه الرجال ليقوموا بخنجر الحریم ، ذلك مما لا ينطبق على ارادتنا
السنية مع مناقضته كل المناقضة لمبادئ العدل والانسانية المنتشرة من يوم جلوسنا المأموس
على عرش السلطنة العلية ، فعليكم مداركة هذه الأمور بما ينبغي من الاعتناء لمنع حدوثها
في المستقبل . ولا يبرح عن بالكم أن فيما عدا بعض أشخاص توجهوا إلى مصر على
أسطولنا الملكي فقد عفوت عن جميع الضابطان والعسكر .

(٤) رقى المأمورين الموجودين في مصر نعم أنه بموجب فرماننا السلطاني السابق إن تسمية
الضابطان المصرية لما فوق رتبة المعاون تستلزم العرض عنها لأعتابنا الملوكية إلا أنه
لا بأس من إرسال بيان بأسماء من رقيتم من ضباط جنودكم إلى بابنا العالي كي ترسل لهم
الفرمانات المؤذنة بتثيتهم في رتبهم الخ الخ ،

فقبل محمد علي باشا هذه الشروط على مضض ، وطلب من الدول مساعدته على
تخفيف محتوياتها مع الزمن . فوعده الدول بذلك .

وفي ١٩ ابريل سنة ١٨٤١ وافق الباب العالي بناء على مذكرة من الدول على
تحرير فرمان ١٣ فبراير سنة ١٨٤١ على الوجه الآتي كما ورد في كتاب « تقويم النيل »
ونظراً لأهمية الموضوع رأينا أن نثبته بنصه :

ان الحضرة السلطانية الفخيمة تلقت ماتعطفت عليها به الدول المتحالفة من النصائح
هذه الدفعة أيضاً وبمناسبتها قد منحت محمداً علياً باشا إحساناً جديداً هو التكرم منها
باعطائه الامتيازات الآتية ولكنها قد اشترطت عليه الانقياد التام إلى جميع الوثائق
والمعاهدات المبرمة حالا والتي ستبرم استقبالا فيما بين الباب العالي والدول المتحالفة .
وعلى ذلك أصبحت ولاية مصر تنتقل بالارث لمحمد علي باشا وأولاده وأولاد أولاده
بصورة أن يتولى الأكبر فالأكبر فيقلده الباب العالي منصب الولاية كلما خلا هذا
المنصب من وال . وقد تنازل الباب العالي عن استيلائه على ربع إيرادات مصر وسيعين
فما بعد قيمة الخراج الواجب على ولاية مصر دفعه وترتيب مقداره وطريقة تحصيله
كما يناسب حالة إيرادات الولاية أما عما خص التسميات في الرتب المختلفة في العسكرية
المصرية فمخصص لمحمد علي باشا أن يمنحها من نفسه حتى رتبة الميرالاي فقط . أما التسمية

هذه الفرصة فاعلن والاعتباط يمثلاً عطفيه خلع محمد علي وهنا اعلنت فرنسا (٨ اكتوبر سنة ١٨٤٠) أنها تعتبر كل محاولة لتجريد محمد علي

لما فاق على هذه الرتبة فيجب عليه أن يعرض بشأنه إلى الباب العالي . أما ما كان متعلقاً بالادارة الداخلية وكان اتباعه واجبا في مصر كاتباعه في سائر الممالك العثمانية فيظهر أن محمدا عليا باشا لا يرغب في التكلم بشأنه بما ينبغي من الصراحة مع كونه قد سبق تقرير ذلك في العقد المقرر التابع لمعاهدة المحالفة . ولكن كي لا يدع الباب العالي سبيلا للدول المتحالفة بالتضرر منه بأمر من الأمور كما لو حدث أن ارتكب محمد علي في المستقبل أعمالا مخالفة لنقطة مهمة مسندة على المعاهدة المحسكي عنها ، قد قرر وزراء الباب العالي والحالة على ما ذكر أمر شديد الأهمية وهو أن تطلب باديء بديء الايضاحات والتقارير الصريحة بهذا الصدد ولذلك تحرر هذا لسعادتكم رجاء إعطاء الايضاحات والتقارير المذكورة من قبلكم خطأ .

فلما أقرت الدول هذا الفرمان في ١٠ مايو سنة ١٨٤١ بادرت الحضرة الشاهانية في أول يونية سنة ١٨٤١ بتأييد ما جاء في هذا الفرمان . وفي ٢٠ يولية سنة ١٨٤١ صدر فرمان آخر يجعل ما تدفعه الحكومة المصرية إلى الدولة العلية في كل سنة ٨٠٠٠٠٠ كيسة أي ٤٠٠٠٠٠٠ جنيه .

والآن وقد رأيت هذه الفرمانات فلعلك . تسائل معنا عما أفادته الدولة العلية من جراء تدخل الدول الأوربية الأربع وهل كان ما أفادته يزيد أضعافا مضاعفة عما عسى كانت تجنيه لو أنها سدت باب التدخل في وجه الدول الأوربية المذكورة وتصلحت رأساً مع محمد علي وتركته يبسط سيادته على الشام ويؤدي لها حصتها من الوركو ؟ فاعلم يارعاك الله أن نكبة الامتياز التي ذاقت تركيا ومصر منها الأمرين إلى أن قبض الله لأولاهما أن تتخلص منها دفعة واحدة في معاهدة لوزان بينما ما تزال الأخرى تعاني ما تعانيه منها - نقول أن تلك النكبة تبتدىء بفرمانى ١٣ فبراير سنة ١٨٤١ و ١٩ ابريل سنة ١٨٤١ اللذين ما كانا ليأخذا مكانهما في سجل الحوادث التاريخية لولم يأكل الحقد صدر خسرو باشا ويحفزه إلى الانتقام من غريمه القديم محمد علي وذلك بالالتجاء إلى الدول الأجنبية والاستعانة بها عليه . وماذا عساك أن تقول في فداحة المصيبة التي جرها هذا الرجل على بلاده بهذين الفرمانين وفيهما حتمت الدولة العلية على نفسها أن تخضع هي وتجبر

من أملاكه سبياً للحرب. فكان جواب بالمرستون على ذلك ما قاله لسفيره في باريس وهو كما يأتي: « قل للمسيو تيير إن فرنسا إذا أرادت الحرب فلن تتأخر عن تلبية طلبها ولكنها إذا بدأتها فلسوف تفقد حتماً

مصر على الخضوع لجميع الوثائق والمعاهدات المبرمة حالاً والتي ستبرم في المستقبل بين الباب العالي والدول المتحالفة؟ فهل هناك محل للدهشة إذا رأيت تركيا أولاً ثم مصر تباعا لها ثنان من تلك الامتيازات؟ وهل تعجب اذا كانت الدول الأوربية استغلت هذه الامتيازات أسوأ استغلال وأصبح موقفها كموقف « يهودى البندقية » الذى صورته لنا شكسبير وهو يحرص على « رطله من اللحم كاملاً غير منقوص »؟

وعلى كل فقد أصبح منح الامتيازات بما لا يتفق مع روح العصر الحاضر. ولا ريب في أن مصر واصلة قريباً بحكمة جلالة مليكها فؤاد إلى الغاء الامتيازات والتخلص من ربقها كما تخلصت منها تركيا.

أما فيما يتعلق بالخراج أو الجزية التي فرضت على مصر فقد جاء في كتاب « تقويم النيل » أن مصر ظلت تدفع ٤٠٠.٠٠٠ جنيه سنوياً لغاية سنة ١٨٦٥ ثم زيد هذا المقدار إلى ١٥٠.٠٠٠ كيسة أى ٧٥٠.٠٠٠ جنيه عثمانى بمقتضى فرمان ٢٧ مايو سنة ١٨٦٦ عقب تنازل الدولة العلية لمصر عن مدينتى سواكن ومصوع ومديرية التاكا وتغيير ترتيب الوراثة في خديوية مصر في عهد ساكن الجنان اسماعيل باشا بأن حصرت الوراثة في الأكبر من أولاده ثم أولاد الأكبر ثم في أخوته عند عدم وجود ولد له ثم أولاد الاخوة على هذا الترتيب.

« وفي أول يولية سنة ١٨٧٥ صدر فرمان بتحويل إدارة مدينة زيلع إلى ساكن الجنان اسماعيل باشا بزيادة ١٥٠.٠٠٠ جنيه عثمانى على الخزينة. وفي ١٠ شعبان سنة ١٣٠٨ صدر أمر عال من المرحوم توفيق باشا الخديوى بالتعهد عن نفسه وعن خلفائه في الحال والاستقبال بأن تدفع الحكومة المصرية للخواجات روتشيلد وأولاده بلوندر وروتشيلد اخوان بياريس والبنك المملوكى العثمانى من أصل الوركو الواجب على الحكومة المصرية للحضرة الشاهانية مبلغ ٢٨٠.٦٢٢ جنيه انجليزى و ١٨ شلن و ٤ بنسات سنوياً لمدة ٦٠ سنة تبدأ من ١٠ ابريل سنة ١٨٩١

سفنها ومستعمراتها وتجارها كما أن جيشها في الجزائر لن يعود يقلق بالها بعد اليوم . أما محمد علي فليسوف نلقى به في مياه النيل .»
وهكذا نرى أن بالمرستون وتيير بمخادعة أخذها للآخر في بداية

== وهكذا أصبحت سلطة محمد علي بعد فرماني ١٣ فبراير و ١٩ ابريل سنة ١٨٤١ قاصرة على مصر والسودان . فأدى هذا إلى أن يتنازل عن ١٠٠٠٠ جندي من جنود سوريا بحيث لا يزيد عدد جيشه عن ١٨٠٠٠ المحدد في الفرمان بين مشاة وفرسان وغيرهم .

وما أن لحق أحمد باشا حاكم دار السودان بربه في شوال سنة ١٢٥٩ حتى قرر محمد علي تقسيم ذلك القطر العظيم إلى ست مديريات وأصدر أمره بتعيين أحمد باشا المنكلي في ١٢ منه حكاما على جبال الذهب بالسودان والاشراف على المديرات الست الآتية الذكر الذي تعين مديروها كآتي :

أمين باشا مديرا للتمة وشندي وملحقاتها
سليمان باشا لسنار وملحقاتها لغاية القضايف والقلايات
سليم باشا على فيز أوغلي وملحقاتها
مصطفى باشا على كردفان بما فيها تكلا وملحقاتها
لواحق باشا دنقلة وبربر وملحقاتها
فرحاد باشا التسكالحد مصوع وسواكن

ولما كان قد جعل غايته اصلاح مالية البلاد فقد أخذ بأسباب الاقتصاد وكان من أثر ذلك أن أغلق كثيرا من المدارس التي كان قد خصص مبالغ طائلة للانفاق عليها ومنها مدرسة شبرا الزراعية لذلك استبدل الأساتذة الأوربيين في المدارس الباقية بأساتذة مصريين أو أتراك . ثم عكف على ترضية السلطان وأنفذ له ابنه سعيد باشا لتقديم فروض العبودية .

محمد علي في أواخر أيامه

في إبان سنة ١٨٤٥ توعكت صحة ابراهيم باشا فاستقر رأي الأطباء على سفره إلى أوروبا في فصل الصيف ترويحاً للنفس وانتجاعاً للصحة . فامست قدماء الشاطيء الأوربي حتى شرعت الدول الأوربية تتسابق إلى الحفاوة به والمبالغة في استقباله ولا سيما في فرنسا وانجلترا .

الأمر ، ثم بازدرء كل منهما للآخر فيما بعد ، كادا أن يزجا بشعبين غربيين متصادقين إلى هاوية الحرب من أجل مسألة خاصة بالهيبة الامبراطورية ليس غير . أما أحدهما فكان مشاكساً بقدر ما كان الآخر «بلافاً» ولكن

وبعد أن تكاملت صحته صمم على العودة إلى مصر في أواخر صيف سنة ١٨٤٦ وكان والده محمد علي باشا قد سافر إلى الاستانة بدعوة رسمية لتقديم فرائض العبودية للسلطان بمناسبة صدور فرمان الوراثة لأسرة محمد علي سنة ١٢٦٢ المقابلة لسنة ١٨٤٦ مشتملا على امتياز حكم القطر المصري بمصادقة الدول الأوروبية . فوصلها في ١٩ يولية سنة ١٨٤٦ ونزل في سراي رضا باشا .

ولقد رحب جلالة السلطان محمد علي باشا عند ما أشرف بالمشول بين يدي جلالته بل إنه لما هم بتقبيل الأعتاب الشاهانية أمسكه جلالته بيديه وأجلسه إلى جانبه وسلخا نحو ساعة من الزمن في حديث صاف خرج بعده يلهج بالدعاء والشكر لجلالة الخليفة .

وأبت أخلاق محمد علي وتسامحه أن يترك الاستانة قبل أن يزور عدوه الالذ القديم خسرو باشا فذهب لزيارته في قصره وقضيا وقتا غير قليل يتذاكران أعمال الصبا ويتسم كل منهما في وجه الآخر وهو يذكر له الشاك والفخاخ التي كان أعدها لاقتناصه . وغادر محمد علي الاستانة في ١٧ أغسطس قاصداً قوله مسقط رأسه . فأنشأ فيها عدداً من الأبنية لتعليم الفقراء وعاونة الضعفاء والمساكين .

ثم قفل راجعاً إلى الاسكندرية نخف الأهلون لاستقباله والبشر على وجوههم . ولما عاد إلى القاهرة تقاطر الناس للسلام عليه وتهنئته على ما ناله من تعطفات جلالة السلطان فكان يستقبلهم وعلى صدره الطغراء الشاهانية التي أهداها له السلطان وهي تكاد تخطف الأَبصار ببريقها .

ويظهر أن مر السنين وما تخللها من حوادث جليلة قد أثقل ظهر محمد علي وأدى إلى اعتلال صحته فسافر في أوائل ربيع الأول سنة ١٢٦٤ الموافق لسنة ١٨٤٨ إلى الاسكندرية ومنها انتقل إلى ظهر إحدى السفن الفرنسية المخصصة له للقيام بنزهة بحرية اتجاعاً للصحة .

وهنا رأى عزيز مصر أن الأمور لم تعد تحتتمل التردد في تولية ابراهيم باشا . وفي شهر أغسطس سنة ١٨٤٨ توجه ابراهيم إلى الاستانة لأجل تثبيته على ولاية مصر خلفاً لآبيه وقد ثبته السلطان بنفسه .

شبح الحرب كان موجوداً على كل حال ولم يختف إلا بفضل ما أبداه لويس فيليب من الحكمة عندما عين جيزو مكان تيير. على أن ما أحرزناه من النجاح بفضل نشاط سياستنا الخارجية سرعان ما تلاه نجاح آخر أحرزته قواتنا البحرية ليس أقل من سابقه في الأهمية ذلك لأن الاسطول التركي الفار قد تبين أنه أصبح عبءاً ثقيلاً على مصر بدلاً من أن يكون نجدة لها . لأن الاسطول

وكانت نزهة محمد علي البحرية في ابان ذلك موفقة . فقد زار كريد ومالطا. وبعد أن شعر بتحسن صحته صمم على الذهاب إلى مارسيليا فباريس لزيارة صديقه الملك لويس فيليب . ثم عاد إلى نيس وعرج على إيطاليا والتقى في نابولي بولده إبراهيم باشا وهو عائد إلى مصر لإدارة شؤون البلاد . وأرسل محمد علي إلى كتبخدا باشا في مصر أنه سيبارح الأراضي الإيطالية يوم ٧ جمادى الأولى سنة ١٢٦٤

ووصل إبراهيم باشا إلى الاسكندرية في ١٠ جمادى الأولى وأقام فيها إلى يوم الاثنين ١٣ منه ثم سافر إلى القاهرة .

أما محمد علي باشا فكان قد أصدر في ٢٩ ربيع الثاني أي قبل اليوم الذي حدده لمغادرة إيطاليا إلى حفيده عباس باشا كتبخدا آخر أمر موقع منه وهو كالآتي :

« كان قيامي من نابولي في اليوم الرابع والعشرين من هذا الشهر الذي هو شهر ربيع الثاني وتيسر وصولي سالماً إلى الاسكندرية يوم تاريخه وكنت عازماً على الحضور إلى مصر لتسوية أمور مصالحنا لكن الأطباء أشاروا بعدم موافقة ذلك نظراً للوسم الحالي ولهذا يا ولدي يلزم حضورك هنا مستصحبا حضرات أحمد يكن باشا وشريف باشا مدير المالية وسامى باشا . »

وفي منتصف الساعة الخامسة من عصر يوم الجمعة ٢٤ شوال سنة ١٢٦٤ اجتمع الديوان المعتاد اجتماعه كل يوم جمعة بديوان الغورى بحضور العلماء والمشايخ وأشرف القاهرة ووقف الجنود والضباط في ميدان القلعة وفتح الفرمان الموجه إلى إبراهيم باشا بتوليته والياً على مصر والسودان .

ولما كانت مدة حكم إبراهيم لم تزد عن السنة والنصف سنة (أى من ابريل سنة ١٨٤٧ — نوفمبر سنة ١٨٤٨) فقد وجه عنايته بصفته جندياً إلى تقوية ثغور البلاد وتعزيز قواتها الحربية .

المصري قد نصب نفسه حارسا عليه وعلى بحارته المتدمرين . أما سوريا فانها باتت تمتعت المصريين بقدر ما كانت صديقة لهم عند دخولهم اليها .
وأما الجيوش المصرية فقد هزمت فيما دار بينها وبين الأتراك من المعارك هذا في حين أن الحملة البريطانية التي كانت تطلق قنابلها على عكا قد وفقت إلى نسف ما كان يملكه ابراهيم من الذخيرة . وفي نفس الوقت الذي تقهقر فيه ابراهيم تقهقره المشووم من دمشق إلى غزة ظهرت عمارة نايبير أمام

وفي خلال فترة حكمه القصير أصدر أمره بنشر جريدة رسمية أسبوعية تشمل على كل ما يهم أهل القرى الاطلاع عليه من أخبار التجارة والزراعة والاعلانات الملكية وتوزيعها بين أهالي القرى .

كذلك وجه عنايته رحمه الله إلى شؤون الرعية وعمل على اختصار الاجراءات المتبعة في سير القضايا فعمد إلى تنظيم مجلس في القاهرة وسماه جمعية الحقانية الثانية واسند رئاسته إلى اسماعيل بك تيمور زاده .

وما لبث أن أصدر أمره الكريم بما ذكر في الوقائع المصرية بترجمة الكتب المرغوبة الخاصة بالقوانين والتراتيب والآداب وسائر العلوم والفنون النافعة من اللغة الفرنسية إلى اللغة التركية والعربية وطبعها ونشرها كوسيلة لتعميم الثقافة . ولما كان هذا لاسيل إلى تداركه إلا بالحصول على المترجمين البارعين في اللغات الأجنبية والتركية والعربية فقد جاء بالعدد اللازم منهم وأفرد لهم إدارة ترجمة خاصة عهد برئاستها إلى أمير اللواء كافي بك لأنه كان خبيراً باللغات الأفرنجية وعين رفاعه بك رافع رئيساً للقسم العربي .

وفي ٢٢ القعدة سنة ١٢٦٤ سافر عباس باشا كتحدا باشا مصر إلى جدة قاصداً الحجاز لاداء فريضة الحج .

وظل ابراهيم سائرا في الحكم سيرته المرضية هذه حتى عاوده المرض وهو الرجل الذي كان لا يهرب الموت عندما كان يواجهه في ساحات القتال . ثم أخذت وطأته تشدد بسرعة حتى عاجلته المنية في يوم ١٤ الحجة سنة ١٢٦٤ الموافق ١٠ نوفمبر سنة ١٨٤٨ ولم تمض احدى عشرة ساعة حتى كانت جسثه تحمل إلى مقرها الأخير في مدافن الأسرة الخديوية بجوار الامام الشافعي .

ويمكنك أن تصور لنفسك مبلغ وقع هذه الصدمة الهائلة على محمد علي الذي كان ما يزال يعاني آلام المرض الجسدى والعقلى .

ثغر الإسكندرية . وقد ختم نابيير حديثه مع محمد علي عند زيارته له في قصر رأس التين بهذه الجملة . « يميناً لأطلقن عليك القنابل ولأضعن قنبلة حيث تجلس الآن إذا لم تصغ إلى ندائى غير الرسمى ! » وهى شقشقة أريد بها استهواء الاسماع فى انجلترا ليس غير ، إذ كان فى وسع الباشا — لو أراد — أن يصبح فى مأمن من مدافع الاسطول بان ينسحب إلى القاهرة

== وعلى أثر وفاة ابراهيم عمده المجلس لتسيير دفعة الأعمال الحكومية إلى حين عودة عباس باشا بن الحجاز . وقد أرسل فى طلبه فعاد إلى مصر على جناح السرعة ووصل القاهرة فى ٢٤ ديسمبر . وإذ لم يكن هناك اعتراض على توليته فقد صدر إليه فرمان الشاهانى بجعله والياً على مصر والسودان فاعتلى الأريكة .

وكان محمد على ما يزال مقيماً فى الإسكندرية وقد اشتدت عليه وطأة المرض ونفدت كل وسائل الطب لانقاذه .

وفى ٢ أغسطس سنة ١٨٤٩ الموافق ١٣ رمضان سنة ١٢٦٥ انشبت المنية أظفارها فى ذلك الرجل الذى أنشأ أمة . ولم تكن ثمة دهشة لوفاته نظراً لطول مدة النزاع التى قضاها رحمه الله .

وفى اليوم التالى نقلت جثته من قصر رأس التين إلى القاهرة حيث شيعت باحتفال مهيب إلى مرقدھا الأخير فى جامع القلعة عملاً بوصيته .

وهكذا انتقل إلى الأبدية ذلك الرجل العصامى الكير الذى خلف ميراثاً لا تبليه يد الزمان وأسس دولة وحقق لها استقلالها وأتم لها وحدتها وشيد دعائم نهضتها وحضارتها وأتى بمفرده من جلائل الأعمال ما لا يستطيع مئات الرجال مجتمعين أن يأتوا بعشر معشاره . وكيف لا وهو الرجل الذى تمكن برغم أميته من إعلاء شأن الجيش المصرى وقد كان مركباً من عساكر غير نظاميين (باشى بوزوق) وجعله جيشاً نظامياً حتى أن تركيا لم تر من الغضاضة على نفسها أن تلجأ إليه لأعارتها بعض الضباط المصريين للمساعدة على تنظيم الجيش التركى الجديد بعد إبادة طائفة الانكشارية .

وقد بلغ عدد جيش محمد على فى سنة ١٨٣٧ نحو ٢١٧٥٨٣ جندى من المشاه والفرسان وغيرهم عدا ٦٣٣٠ ضابط .

أما القوة البحرية فقد بلغت فى تلك السنة ٣٠٢ ضابط و ١٤٨٤٠ بحار عدا ١٨ طبيب ==

ولكن كان له من الحكمة والمهارة السياسية ما يجعله يفسح صدره للفريق الثاني حتى يفرغ جعبته من الألفاظ بشرط أن ينال هو مراده . ولهذا تظاهر بالنزول على ارادة السلطان والامثال لتهديد بالمرستون فسلم سوريا التي كانت قد أفلتت زمامها من يده فعلا وتخلي عن كريد التي كانت عديمة الفائدة ولكنه نال في مقابل ذلك اعترافاً رسمياً يجعله والياً على مصر ويحصر نظام الوراثة في أسرته كما أنه حقق لمصر استقلالها الاقتصادي عن الامبراطورية العثمانية . وصفوة القول كانت مصلحة مصر فيما تخلى عنه محمد علي في حين أن ما اكتسبه كان لاغنى عنه لها .

ولكن الأمر لم ينته عند هذا الحد بل كان لابد من إضاعة وقت آخر

و ٦٨ صيدلى و ٦٨ كاتباً وغيرهم . وقد اشتمل الأسطول المصرى على ٦٨ سفينة مسلحة بما لا يقل عن ٩٥٠ مدفعاً وأربع سفن طرادة و ١٤٤ نقالة وكان مجموع القوتين البحرية والبرية في سنة ١٨٣٧ نحو ٢٥١٩١٨ هذا مع أن تعداد سكان مصر كما أثبتته الجمعية العلمية التي كانت مرافقة للحملة الفرنسية كان في سنة ١٨٠٠ لا يزيد عن ٢٤٦٠٢٠٠ ولكن هذا العدد تضاعف في عهد محمد علي حتى بلغ في سنة ١٢٦٤ (١٨٤٨) بمقتضى التعداد الذى عمل وقتذاك نحو ٤٤٧٦٤٤٠ وهو التعداد الذى يرجع إليه في محفوظات الدفترخانة بالقلعة لمعرفة أفراد العربان عند طلب نسبتهم إلى قبائلهم لمعافاتهم من الخدمة العسكرية .

ثم ما قولك في رجل كانت إيرادات البلاد عند ما تولى شؤونها بعد انتهاء الاحتلال الفرنسى بثلاث سنوات وكسور تبلغ ١٥٨٧٢٤ جنيهاً تقريباً والمصروفات ١٣٥٨٨٧ جنيه تقريباً والفرق بينهما وقدره ٢٢٨٣٦ جنيه تقريباً يدفع كاتاوة للدولة العلية، فلم يحل عام ١٨٤٢ حتى بلغت الإيرادات ٣٢٠٢٠٥٥ جنيه تقريباً أى أن الإيرادات تضاعفت بنسبة ٢٠١٧ عما كانت عليه عند استلام محمد علي إدارة سفينة البلاد ؟

وكيف لا يكون محمد علي معجزة العصر وهو الذى استطاع بمثل تلك الميزانية الضئيلة - إذا قيست بميزانية مصر فى الوقت الحاضر - أن يدير حركة البلاد وينشئ فيها المصانع ودور الأسلحة والترسانات لانشاء السفن البحرية وأن يجيش الجيوش الجرارة التى سجلت صفحات خالدة فى تاريخ مصر سواء فى فتح سوريا أو حرب المورة أو فتح =

سدى على صفاف البوسفور والنيل وسكب كمية أخرى من المداد في وزارات الخارجية واهراق دماء زكية جديدة قبل أن يوضع هذا الاتفاق موضع التنفيذ لأن المرستون كان قد صدع الائتلاف الاوربي مما شجع الباب العالي على رفض الأذعان للاتفاق . وأخيراً تمكنت النمسا أن تحصل من الباب العالي على خطين هما يونين باعلان استقلال مصر أحدهما في ١٣ ابريل والآخر في ١٩ ابريل سنة ١٨٤١ ووافقت معاهدة لوندرة (١٣ يولية سنة ١٨٤١) على أن تعهد بحكم مصر الى محمد علي بضمان من الدول ثم من بعده الى الأرشيد فالارشد من أعضاء أسرته بعد استئذان حكومة الاستانة . ثم حددت المعاهدة قيمة الجزية التي تدفعها مصر كما حددت الجيش فجعلته ١٨٠٠٠ على أن تبقى المناصب الرئيسية فيه قاصرة على طبقة الاتراك الحاكمة . ولهذا نص في الاتفاق على جعل التعيين لهذه

السودان والحجاز هذا عدا أعماله المجيدة في بناء القناطر الخيرية وشق الترع وغير ذلك من أعمال الري وإرسال البعثات العلمية إلى أوربا ؟ وقد قدروا عدد الطلبة الذين أرسلوا إلى أوربا بنحو ٣١٩ طالباً كلفوا الخزانة المصرية ٢٧٣٣٦٠ جنيتها هذا مع أن ميزانية التعليم في سنة ١٢٥٥ (١٨٣٩) لم تكن تزيد عن ٤٦٧٨٤ جنيتها تقريباً وعدد الطلبة في المدارس يبلغ عن ٧٧٣٠ عدا تلامذة المدارس الحربية والمدرسة البحرية ومدرسة المعادن ومدارس أسوان وفرشوط والنخيلة وغيرها .

عناية محمد علي بالفلاح

ولقد عجب مستر ياجج مؤلف الكتاب الحالى لأن الفلاحين المصريين لم يشوروا على محمد علي أيام أن كان يحشدهم ويبعث بهم إلى سوريا لفتحها وفاته أن الفلاحين كانوا يتفانون في محبة هذا الرجل نظراً لسهره على مصالحهم وشدة عنايته بأمورهم ، وهل ترى مثلاً على حب العدل والتفاني في خدمة الرعية أعلى من المثال الذى نسوقه إليك هنا ؟ فقد صدرت الوقائع المصرية في نهاية جمادى الأخرى سنة ١٢٥٢ وبها أمر وجهه محمد علي إلى مفتش عموم الفاوريقات جاء فيه :

« قد اطلعت على شرح حكم المسطر على شقة معاون فاوريقات قبلى بشأن العمال والمهمات اللازمة لفاوريقة ملوى وعلم بما تنوه على هامشها حصول حبس الأشخاص الواردين بدون ضامن بنفس الفاوريقة . ألم أقل لك مرارا ان أولياء نعمتى اثنان : =

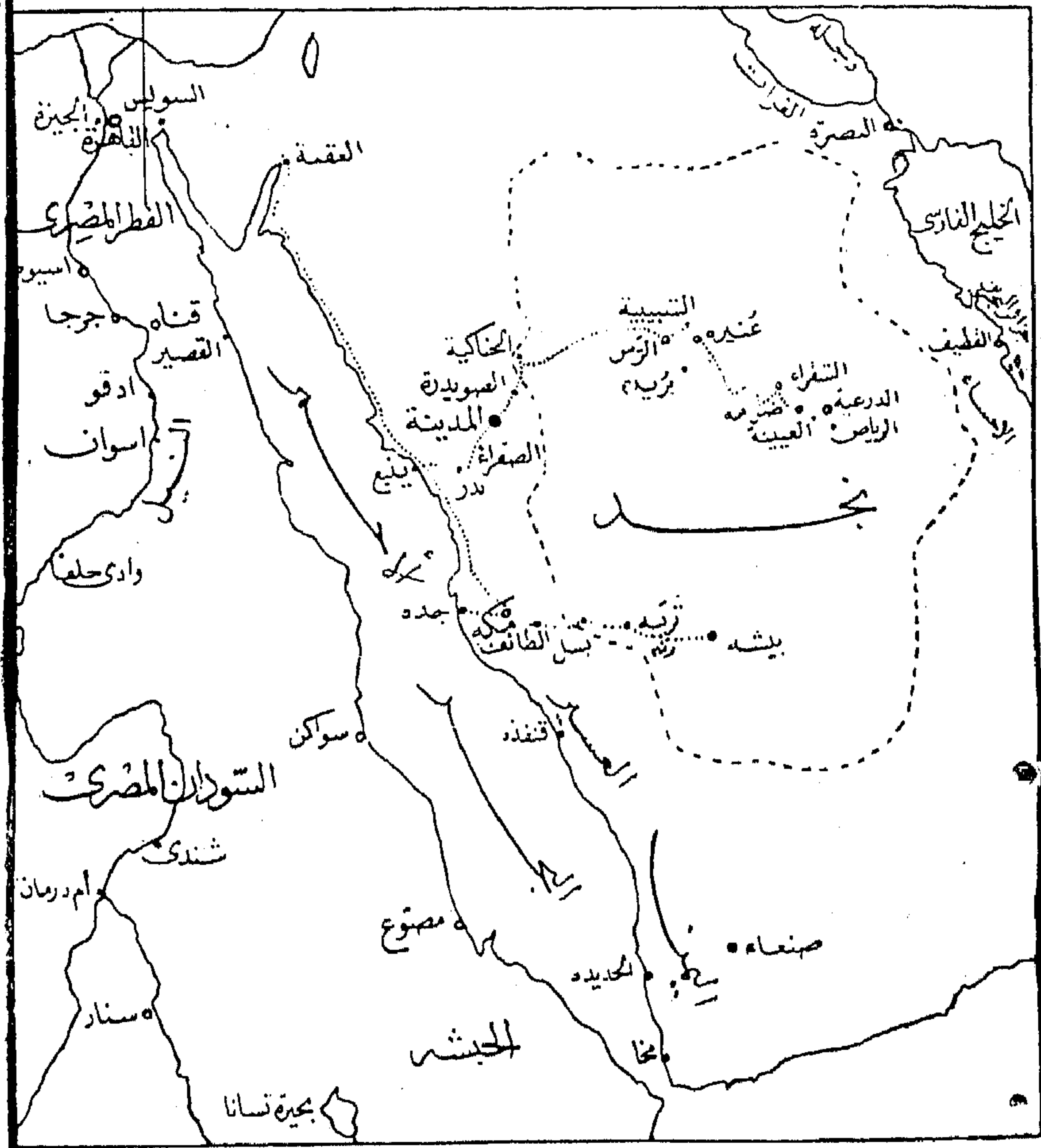
المراكز بموافقة السلطان ولا ريب في أن الأمر الأول حقق لمصر استقلالها من الوجهة الاقتصادية بينما جعلها الأمر الثاني خاضعة من الوجهة السياسية. نعم أن الباب العالي وافق على استقلال مصر الداخلي ولكنه استغل بمهارة عداء بريطانيا لمحمد علي فاحتفظ لنفسه بحق التدخل في شؤونها . على أن أسوأ ما في هذا كله أن هذا التضيق وقف حجر عثرة في سبيل نمو الديمقراطية المصرية. إذ لا يخفى أن الجيش هو أول مراحل الانتقال إلى الحياة الديمقراطية من الحكم الاستبدادي في الشرق بقطع النظر عما إذا كان ذلك حكم السلطان أم حكم الوالي . ولكن الانجليز وحلفاءهم الاتراك قد عملوا على تعجيز نمو الأمة المصرية بشكل خطير . وقد تبين فيما بعد أن هذه القيود كانت من الأسباب الرئيسية للاصطدام بالوطنية المصرية في عهد عرابي .

== أحدهما السلطان محمود والآخر الفلاح . وان قصدي من هذه الحكاية عدم النظر إلى الفلاح بعين العداوة وإزالة ذلك من الوجود لأن أخذنا وعطانا ونيلنا هذا الشرف هو من وجوههم أي بسببهم فعليه ولكون أن الفلاح ولي نعم الجميع ألم يجب النظر إلى ما فيه أصول رفاهيته وزيادة يوميات أولئك الشغالين ؟ فيلزم بوصوله عمل صورة مستحسنة لصرف أجورهم ليكون ذلك موجبا لرفاهيتهم وتشويقهم للصاحبة إذ بذلك تعود المنفعة عليها ويسر الجميع ويستوجب حضورهم للأشغال بانسراح قلب وبعد تقرير ما يلزم لما ذكر تعرض الكيفية لطرفنا .

هذا وأمثاله قليل من كثير . ونحسب أننا أطلقنا للقلم العنان لا نتهى بنا الأمر إلى وضع مؤلف بحاله عن عهد محمد علي لأن الانسان لا يلقى بنظرة على أية ناحية من النواحي الاجتماعية أو العمرانية أو العلمية أو الأخ في عهد محمد علي إلا وجد مجالاً شاسعاً للبحث والتقصي . لهذا رأينا الاكتفاء بما سردناه كأمثلة بسيط مما يقام به من جلائل الأعمال ذلك المصلح الكبير الذي كان يعتبر بحق آية عصره ومعجزة زمانه .

نظرة إلى تاريخ ابراهيم باشا

وننتقل الآن إلى ولده الذي كان يعتبر بمثابة ذراعه الأيمن . فلقد نشأ ابراهيم كما

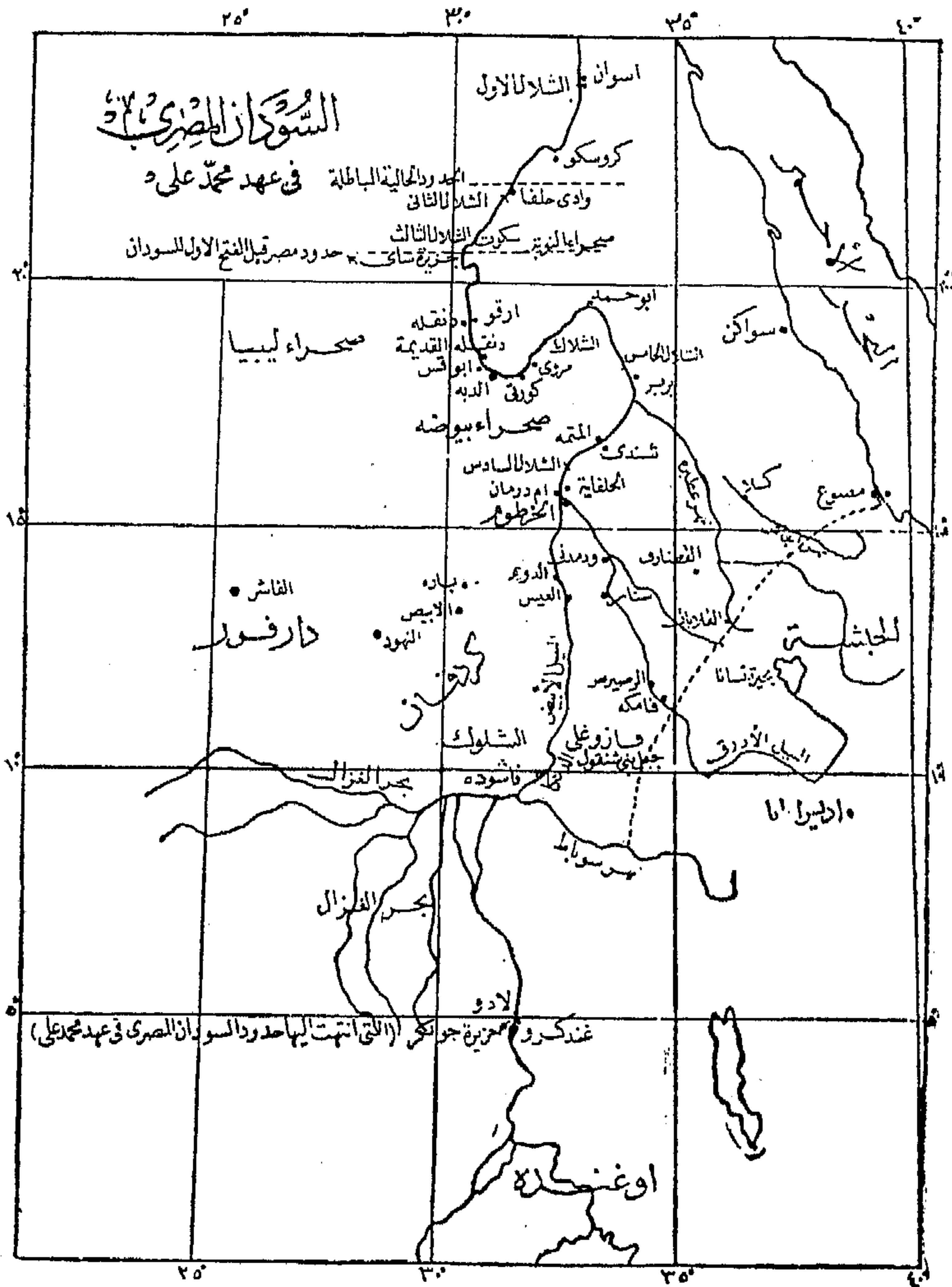


خريطة بلاد العرب وفيها بيان الجهات التي دخلها ابراهيم باشا في أثناء الحرب الوهاية

== مر بك وانصل تاريخه من البداية بتاريخ أبيه محمد علي . ولكنارغم ذلك نرى اتاما للفائدة أن نقول كلمة عن نشأته وعن بعض أعماله الحربية التي لم يتسع لها المجال في الصفحات الماضية وبخاصة في الحرب اليونانية التي كانت أصدق برهان على غدر السياسة وتربصها الفرص للنكايه بمصر وقد اقتبسناها عن الجزء الثالث من كتاب تاريخ الحركة القومية ، لصديقنا الاستاذ البحاثه عبدالرحمن بك الرافعي المحامي . قال حضرته ما خلاصته :

إن ابراهيم هو أكبر أولاد محمد علي . ولد كأبيه في قوله وكان ذلك في سنة ١٧٨٩ وهبط مصر مع أخيه طوسون في سنة ١٨٠٥ . وما كاد يشب قليلا عن الطوق حتى قذف به والده إلى معركة الحياة فحاضها بجسارة الأسود وأبلى فيها أحسن بلاء .

وفي سنة ١٨٠٧ أي قبل بلوغ سن العشرين تولى منصب الدفتردارية المصرية وهو ==



خريطة السودان في عهد محمد علي

وقد وصلت الفتوحات المصرية فيه الى كسلا ثم الى حدود الحبشة شرقا والى غندكرو جنوبا وهي آخر نقطة وصلت اليها الاكتشافات الجغرافية لأن أوغنده أو مديرية خط الاستواء لم تكن قد اكتشفت بعد

== يعادل وزير المالية اليوم . وكان أجل عمل له في منصبه هذا أن أمر بمساحة أطيان القطر المصري .

ثم ولي المناصب الحربية الكبرى وتجلت مواهبه وبطولته في الحرب الوهاية حيث اصطحب معه لأول مرة في تاريخ القواد الشرقيين طائفة من الأوربيين ومن بينهم ==

ويظن المؤرخون أن عهد محمد علي انتهى بحبوط مشاريعه الاستعمارية من الوجهة السياسية وأنه مات بعد ذلك بثمانية أعوام متأثراً من هذا الفشل . وهذا لعمر ك هو ما يقوله الإنجليز في الاتفاق المذ لور لا ما يقوله المصريون . ولكنتنا لو أنعمنا النظر في المفاوضات التي أدت إلى هذا الاتفاق وذكرنا أن بالمرستون كان يهدد ببأس الامبراطورية البريطانية كلها وأن الباب العالي كان يلجأ على التوالى إلى كل ما فى جعبة سياسة الامبراطورية العثمانية من التداير والحيل لخلع الأسرة المصرية وهدم الاستقلال المصرى — إذا ذكرنا ذلك كله أدركنا أن محمد علي بتحقيقه

== الضابط الفرنسى فيسير مع أن ذلك لم يكن مألوفاً ولا شائعاً . ولكن ابراهيم باشا دفعته صدق فراسته إلى الاعتقاد بأن الشرق لا ينهض إلا إذا اقتبس الخبرة عن علماء أوروبا وقوادها .

ثم انضم ابراهيم إلى أخيه اسماعيل لمعاونته فى فتح السودان . على أن اقامته هناك لم تطل بسبب ما ألم به من المرض . فترك لأخيه مهمة وضع الأسس التي أدت إلى فتح السودان نهائياً فيما بعد على ما تراه مبيناً فى الخريطة المنشورة فى الصفحة السابقة . فلقد وصلت حدود السودان شرقاً إلى البحر الأحمر بعد أن فتحت الجنود المصرية سنة ١٨٤٠ اقليم التاكا (كسلا) . ثم استولت أيضاً على القضايف فى غربى حدود الحبشة وكذلك القلابات . ثم دخلت سواكن ومصوع . ووصلت فى الجنوب إلى غندكرو وهى آخر نقطة وصلت إليها الاكتشافات الجغرافية الاقليمية لأن اقليم أوغنده لم يكن قد اكتشف بعد .

الحرب اليونانية

وما كاد ابراهيم يعود من السودان إلى مصر حتى ا كفه الرجو بسبب الحرب اليونانية فعهد إليه أبوه بقصم ظهر الفتنة اليونانية وتعليم اليونانيين درسا لا ينسونه فى المستقبل . ولسنا بحاجة إلى الدخول فى تفاصيل تلك الحرب . وبحسبنا أن نذكر طرفاً منها بعد أن ا كتفينا بالالماع إليها فى سياق الكلام على محمد علي باشا . فلقد تجمعت فى ثغر الاسكندرية عمارة مصرية تبلغ ٥١ سفينة حربية و ١٤٦ سفينة نقل تحمل ٢٢٠٠٠ جندي وقد وصفها المسيو دريو بأنها تشبه الأرمادا (التي أعدها فيليب الثانى ملك اسبانيا لمحاربة انجلترا فى القرن التاسع عشر) وانه لم يرفى الشرق حملة تدانىها فى ضخامتها منذ حملة بونا برت فكان

هذين الأمرين بصفة دائمة مع احاطتهما بسياسات منيع في شكل ضمان دولي قد جاء لمصر بمنافع كبيرة كثيرة في مقابل تخليه عن فتوحات كان الاحتفاظ بها مما ينوء به كاهله. أما فيما يختص بالقيود المشار إليها فان الجيش أحسن وقتئذ القيام بواجبه وإن لم يكن ينتظر أن يعيره محمد علي الأهمية السياسية التي فانت حتى السياسيين الذين جاءوا بعده بجيل كامل . ولم يكن محمد علي بعد هذا الفشل أدنى إلى الائتثار بأوامر الانجليز مما كان قبله . وقد حل الجيش وأعيد الأسطول التركي إلى الاستانة ولكن الاسكندرية كانت حصونها من القوة والمنعة بحيث كان يستحيل معها فرض شروط صارخة أخرى قبل هدم هذه الاستحكامات كما وقع بعد جيل .

== الشرق أراد أن يغزو الغرب جوابا على حملة أوروبا عليه . وهكذا تنقلب الأطوار في سير التاريخ .

وسافرت هذه العمارة من الاسكندرية للاتصال بالأسطول التركي الآتي من الدردنيل بقيادة خسرو باشا الذي كان قد ذاق الأمرين من الحراقات اليونانية (وهي سفن مشتعلة تقذف بنفسها على السفن العثمانية فتحرقها بنارها كلية) .

وبعد مناوشات طويلة مفضية مدة خمسة أشهر أدرك ابراهيم أن قهر اليونانيين لا يتحقق إلا بمقاتلتهم برآفاتهم الفرص وأنزل جنوده إلى بر الموره في جهة مودون . وبعد قليل نشبت أشد معارك الموره هولا وهي معركة نافارين . فقد حاصرها ابراهيم بحرا وزحف عليها برا وشتت شمل الجنود اليونانية . وبالجملة كانت معركة نافارين الأولى فاتحة الانتصارات في القارة الأوربية .

ولما كانت نافارين واقعة على البحر وإلى شمالها جزيرة اسفاختريا التي حصنها اليونانيون أشد تحصين فان الامدادات كانت ماتزال تصل إليها من تلك الجزيرة . فصمم على احتلالها وعهد بهذه المهمة إلى سليمان باشا الفرنسي .

ونشبت عدة معارك تشيب لحوها الولدان انتهت باخضاع هذه الجزيرة مما أدى في النهاية إلى الاستيلاء على نافارين في ١٨ مايو سنة ١٨٢٥

ثم توالى المعارك وخضدت شوكة الثوار ووصلت نجدات مصرية جديدة وفتح الطريق أمام الجيش التركي فاحتل أثينا . ونشطت الحراقات اليونانية في غضون ذلك ==

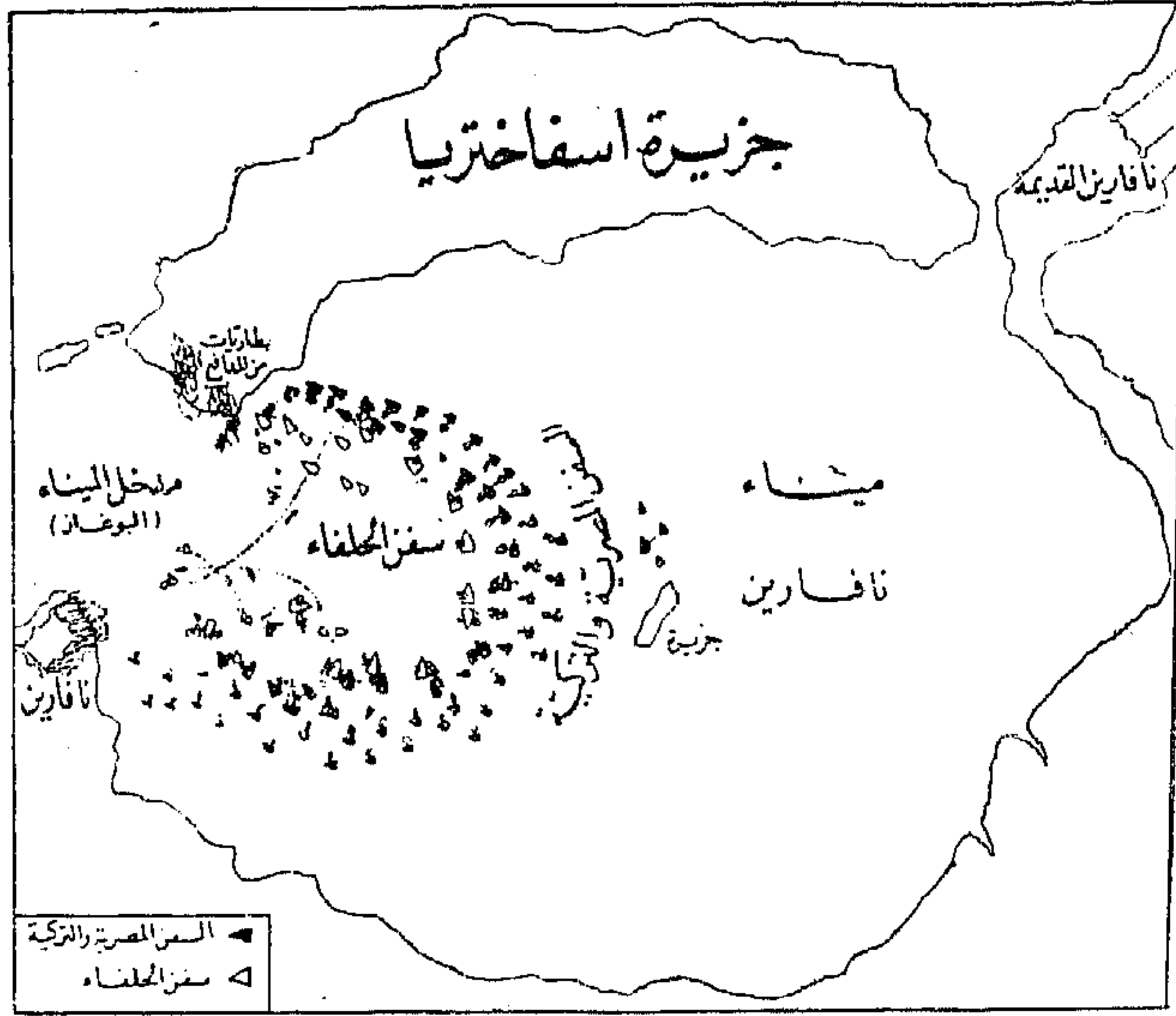


خريطة اليونان وفيها بيان الحرب التي اندلعت فيها السنة الثورة اليونانية والجهات التي استولى عليها ابراهيم باشا

= وحاولت الفتك بالأسطول المصري في الاسكندرية ولكن عادت بالخيبة والفشل . ومع أن الثوار اليونانيين قد غلبوا على امرهم في شبه جزيرة الموره إلا أنهم انبثوا في الجزر المجاورة وبخاصة في جزيرة هيديرا واسبتزيا كما تراه في الخريطة وأخذوا يعيشون في البحار فسادا فاستقر رأي محمد علي على اعداد حملة جديدة لاستئصال شأفة الثائرين .
تدخل الدول الأوربية

وقد حدثنا صديقنا المؤرخ المحقق الاستاذ عبد الرحمن الرافعي بك في كتابه الآنف الذكر عن تدخل الدول الاوربية لانقاذ الثائرين قبل أن يستأصل شأفتهم ابراهيم باشا فقال ما خلاصته :

إن المعارك السالفة الذكر وما أبداه الثوار من الاستبسال حركت في صدور الدول الاوربية روح العطف على مطالبهم وذهب شعراؤهم وفي مقدمتهم لورد بيرون في انجلترا وفيكتور هوغو وشاتو بريان في فرنسا يتغنون بمجد اليونان القديم ويضربون على الوتر الديني الحساس ليحملوا الدول على التدخل إلى أن تحركت روسيا في عهد قيصرها نيقولا الاول واعترمت التدخل بمفردها لصالح اليونان . ولكن انجلترا خشيت عاقبة انفرادها بالامر فانفذت الدوق ولنجتون سفيرا لها في روسيا واتفق الفريقان مبدئيا (٤ ابريل سنة ١٨٢٦) على تخويل اليونان استقلالاً داخلياً مع الاحتفاظ بالسيادة العثمانية .



خريطة موقعة نافارين وهي تبين موقف السفن المصرية أمام سفن الحلفاء

== وبعد سقوط ميسولونجى تجددت المفاوضات بين الدول وانضمت فرنسا إلى إنجلترا وروسيا وعقدت معاهدة لوندرا (٦ يولية سنة ١٨٢٧) على تحويل اليونان الاستقلال الداخلى وابقاء السيادة العثمانية والمطالبة بوقف القتال بين الفريقين تمهيدا للاتفاق ومطالبة الباب العالي بقبول المعاهدة فى خلال شهر وإلا التجأت الدول إلى القوة .

ولم تشترك النمسا فى هذا المسعى نزولا على مبدأ مترنيخ وهو عدم مساعدة أية ثورة يقوم بها شعب ضد حكومته الشرعية. ولما كان الحلفاء يتوقعون رفض تركيا قرروا ارسال أنساطيلهم إلى المياه اليونانية لتأييد مطالبهم بالقوة ولمنع وصول المدد المصرى العثمانى . فأنفذت إنجلترا إلى تلك المياه عمارة مركبة من ١٢ سفينة بقيادة الاميرال كودرنجتون ووصل بعده الاميرال رينى الفرنسى فى عمارة مركبة من سبع سفن ثم وصل الاسطول الروسى من بحر البلطيق وعدده قطعته ثمان . وتولى القيادة العامة الاميرال لودرنجتون الانجليزى .

وصول الحملة المصرية إلى نافارين

وفى هذه الأثناء فرغ محمد على من تجهيز الحملة وكلفها بالسفر إلى المياه اليونانية. فأقلعت من الاسكندرية فى أوائل أغسطس سنة ١٨٢٧ وكانت مؤلفة من ١٨ سفينة حربية مصرية و ١٦ سفينة تركية وأربع سفن تونسية وست حراقات وأربعين نقالة لنقل الجنود وعددهم ٦٠٠ جندى . ثم انتهزت العمارة فرصة غفلة الحلفاء وألقت مراسيها فى نافارين .==

وقد ظلت سياسته الخارجية على ما كانت عليه دون أن يطرأ عليها تغيير ما . فان ارتياحه في الانجليز وبعد نظره في التخوف منهم جعله يرفض منحهم امتيازاً بحفر قناة أو إنشاء سكك حديدية . على أنه لم تمر أربع سنوات على سياسة المرستون العنيفة حتى سمح محمد علي للضابط فاجهورن بتنظيم الطريق البرى مما أدى إلى تخفيض مدة البريد الهندى إلى شهر

== ومن ثم بدأ الحلفاء يتحرشون بها فشرع كودرنجتون (١٩ سبتمبر سنة ١٨٢٧) يطالب ابراهيم باشا بوقف القتال برا وبحرا طبقا لمعاهدة لوندرا وبعدهم ارسال قوات برية أو بحرية إلى أية جهة من اليونان أو إلى جزر بحر الارخبيل . وكان معنى طلبه ذلك الكف عن ارسال الحملة البحرية إلى جزيرة هيدرا (معقل الثوار) .

ودارت مقابلات بين أميرالية الحلفاء و ابراهيم باشا تقرر بعدها أن يرسل ابراهيم إلى أبيه يستطلع رأيه في الموقف ويتعهد بأن لا يخرج أسطوله من نافارين إلى المياه البحرية اليونانية .

ومع أن معاهدة لوندرا المذكورة كانت تقضى بوقف القتال من الجانبين فان الحلفاء سمحوا للثوار باتهازها لجمع أشتات قواتهم لمهاجمة الجيش المصرى مما كان يدل على وجود مؤامرة بيتها الحلفاء للقضاء على الأسطول المصرى والتخلص من منافسة هذه العمارة الفتية .

وفى أثناء هذه الهدنة وبالرغم منها اعترم اليونانيون مهاجمة بتراس فى شمالى الموره التى كان يحتلها المصريون . فلما شك ابراهيم باشا إلى كودرنجتون هذا التصرف لم يرد عليه رداً مقنعاً فقرر إرسال مدد إلى باتراس وبعث إليها بقسم من عمارته البحرية .

فشق ذلك على الحلفاء وعدوه نقضاً للهدنة مع أن ابراهيم لم يتعهد إلا بعدم مهاجمة جزيرة هيدرا فقط ولم يتعهد مطلقاً بعدم إمداد الحاميات المصرية فى الموره وبخاصة إذا هاجمها الأروام ناقضين أحكام الهدنة . وعلى كل فان كودرنجتون أرسل بعض سفنه اتعقب السفن المصرية وأذارها بالحرب إن لم تعد أدرجها إلى نافارين فعادت . وفى هذه الأثناء وصل رد محمد على فاذا هو يحتم على ابراهيم عدم التحرش بالحلفاء والانتظار ريثما يتلقى محمد على رد الباب العالى فى الموضوع .

ووقف ابراهيم موقف الدفاع ولكن أنى للحلفاء أن يقنعوا بهذا وهم الذين كانوا قد بيتوا بينهم أمرهم على سحق العمارة المصرية ؟

واحد كما أدى إلى مجيء مالا يقل عن ١٥٠٠٠ سائح إلى مصر سنويا .
وهكذا تمت سلسلة الحروب الطويلة التي أثارها ذلك الباشبوزق
المزمن ولم يكن عن طواعيته للحوادث أنه أخذ تدريجاً يسلم زمام الامور
الى ولده ابراهيم الذي انتهى به الأمر أن أصبح قائم مقام (١٨٤٧) ولكن
الأرجح أنه شعر بضعف في قواه العقلية كما يلوح من اعتماده ارسال
تجريدة عسكرية الى مارسيليا لإعادة صديقه اويس فيليب الى سرير الملك .
وقد انتهز بعد فراغه من عناء الأعمال أول فرصة للراحة عرضت له في حياته
الطويلة فأكب على الملاذ البريئة الانسانية البحتة فوضع بيده الحجر الأساسي
للقناطر الخيرية العظيمة المقامة على النيل تلك القناطر التي توجت بالنجاح

معركة نافرين - (٢٠ اكتوبر سنة ١٨٢٧)

وفي منتصف اكتوبر غادر ابراهيم نافرين زاحفا بجزء من جيشه داخل الموره
لأنجاد الحاميات بعد ما أوصى محرم بك قائد الأسطول المصري وطاهر باشا قائد الأسطول
التركي بترك التحرش بالهلفاء لأن الحرب لم تكن أعلنت بعد .
ومما يدل على الكيد المبني من جانب الهلفاء انهم عدوا زحف ابراهيم عملا مناقضا
لأحكام الهدنة وأنهم لذلك يلقون عليه تبعه ما يترتب على عمله هذا !! فانفذوا إليه رسو لهم
يحمل إنذارا بذلك مع عليهم برحيل ابراهيم باشا ومغادرته لنافرين . وبدلا من الانتظار
ريثما يصل كتابهم إلى ابراهيم باشا في الجهة التي سار إليها ويتمكن من الرد عليه حددوا
لقبول إنذارهم مدة يومين فقط !!

فلما جاء الرسول إلى نافرين في يوم ١٨ اكتوبر أي قبل نشوب المعركة بيومين
لم يجد ابراهيم باشا فعاد أدراجه إلى كودرنجتون . وهي مجرد مناورة للتخلص من
أسطول ابراهيم باشا .

واجتمع قواد الهلفاء في ذلك اليوم للتشاور فقررُوا دخول الأساطيل إلى نغر
نافارين لارغام ابراهيم باشا على قبول مطالبهم مع التظاهر في الوقت نفسه بأنهم
إنما يعملون داخل حدود معاهدة لوندرا بقصد منع الحرب !!
وكانت السفن المصرية والتركية داخل الميناء موزعة في ثلاثة صفوف متوازية .
وقد وقفت في الصف الأول البوارج والفرقاطات الكبيرة وفي الثاني سفن الكورفيت =



استقبال محمد علي باشا في الأستانة عند زيارته لها بدعوة رسمية من جلالة السلطان مساعيه المتواصلة في سبيل تجديد نظام الري العتيق في مصر . وهكذا ابتكر بها نظاما جديدا للري تركت لأعدائه مهمة إتمامه من بعده . وقد تآقت نفسه إلى رؤية الأماكن التي كانت فيها نشأته في سلانيك ومنها خرج إلى الأستانة حيث استقبل استقبالاً رسمياً . ولم ينس أثناء وجوده

وتليها سفن الابريق وغيرها . وكانت استحكامات قلعة نافرين مع بطاريات المدافع تحمي مدخل الميناء .

وفي أخرج الساعات وأشدّها خطراً في تاريخ مصر غادر الضباط البحريون الفرنسيون الذين كانوا يعملون في الأسطول المصري سفنهم بعد استئذان الاميرال محرم بك تلبية لنداء الأ ميرال الفرنسي تفاديا من مقاتلة مواطنيهم !!

وفي صبيحة ١٩ أكتوبر اجتمع قباطنة الحلفاء عند كبيرهم كودرنجتون على ظهر بارجه آسيا للبت فيما يعمل متى نشب القتال ! هذا في الوقت الذي كان فيه الاميرال المصري مطمئن البال معتقداً أن الحرب لن تنشب ، وصمم الحلفاء على تنفيذ مشروعهم واقتحام الميناء في ذلك اليوم . ولكن الريح كانت معاكسة . ولما كانت السفن تسير بالشرع وقد ذاك فقد أرجأوا الهجوم إلى اليوم التالي .



محمد علي باشا قبل سفره إلى باريس

فيها أن يزور خسرو زيارة ودية . ومن الغريب ان هذين الرجلين اللذين كانت منافسة أحدهما للآخر سبباً في اشعال النار في الشرق قضيا ساعات طويلة وهما يقهقهان لذكرى فشل كل منهما في اغتيال الآخر !!

== وفي الساعة العاشرة من صبيحة اليوم التالي ١٢٠ أكتوبر شرعت سفن الحلفاء تدخل الميناء وفي طليعتها البارجة آسيا مقلة الاميرال كودرنجتون . وعند منتصف الساعة الثانية بعد الظهر أصدر الاميرال الانجليزي أمره إلى السفن بالتأهب للقتال . وعند الساعة الثانية تماماً اقتحمت السفن البوغاز . وهنا أرسل الأدميرال محرم بك إلى الأدميرال كودرنجتون يطلب إليه منع أساطيل الحلفاء من الرسو في الميناء فأجابه الأدميرال الانجليزي في لهجة جافة بأنه « جاء لا يتلقى الأوامر بل ليبي أوامره » !! وأخذت سفن الحلفاء تتقاطر بعضها خلف بعض حتى وقفت في محاذاة السفن المصرية وعلى بعد بضعة أقدام منها كما تراه مبينا في الخريطة المنشورة في ص ١٦٧ .

وتعتبر وفاة مؤسس استقلال مصر (اغسطس ١٨٤٩) خاتمة ملامة



محمد علي باشا يستعرض الجنود الفرنسية في باريس عند سفره اليها

== وطلب قومندان البارجة دارتموت وقد وقفت على رأس الصف لتعطيل حركة الحراقات المصرية الراسية في مدخل الميناء ، إلى إحدى هذه الحراقات إما بأن يغادرها بحارتها وجنودها أو أن تنسحب من موقفها وهو طلب كان بمثابة ذريعة لأشعال نار القتال كما لا يخفى .

ذلك ان الرسول الذي أنفذته البارجة حاملا هذا الطلب الى السفينة المصرية قد ذهب اليها في قارب مسلح متحدياً متحفزاً للقتال .

وهنا يزعم مؤرخو الحلفاء أن رصاصة أطلقت من السفينة المصرية فأصابت أحد جنود الحلفاء في القارب المذكور . فلو سلمنا جدلاً بصحة هذه الرواية لما كان هناك غبار على تصرف قائد العبارة المصرية وهو الذي رأى الحلفاء يعثون بشروط الهدنة ويقتحمون البوغاز وفي نيتهم تدمير الأسطول المصري التركي .

ولقد كانت العبارة المصرية التركية عند بدء المعركة مركبة من ٦٢ قطعة بينما كانت أساطيل الحلفاء لا تزيد عن ٢٧ سفينة أى أنها كانت أقل منها عدداً ولكنها كانت ترجح الكفة المصرية التركية بكثرة بوارجها التي بلغت العشر في حين ان المصريين والترك لم يكن لهم أكثر من ثلاث بوارج . ثم لا ينبغي أن يفوتنا أن الحلفاء اقتحموا البوغاز وهم ==

للفصل الأول من قصة الأمة . وأحسب أنه قلما توجد بين قصص تاريخ
الوطنية كقصة مصر في غرايتها . فلقد استطاعت هذه الأمة قبل استيقاظ
الضمير القومي فيها بزمن طويل أن تكون نفسها أمة متحدة في غنى عن
الغير بفضل مطامع رجل مخاطر أجنبي . وانه لمن الأشمية بمكان أن
نلاحظ أن هذه المطامع المنطوية على حب المجازفة عندما بدأت تتجاوز
حدود النمو الوطني الحقيقي ردتها إلى الأرض الثابتة أيدي الملائكة الحراس

== مصممون على القتال بينما الجانب المصري لم يكن يتوقع حرباً ولا قتالاً لذلك فوجيء
باطلاق القنابل . زد على ذلك أن القلاع لم تطلق مدافعها بل تركت أسطول الحلفاء
يدخل الى البوغاز دون أن تتعرض له لأن القوم كما قلنا لم يتوقعوا قتالاً .

وعلى كل فلم تمض برهة على دخول أسطول الحلفاء الى البوغاز ومحاصرته السفن
المصرية التركية في مكان ضيق حتى بدأ القتال ودارت رحاه بمنتهى الشدة وتجاوب
الاسطولان الضرب فغدا المرفأ كأنه قطعة من الجحيم . ولم تكن تسمع إلا قصف المدافع
أو دوى انفجار السفن التي كانت تنسفها قنابل الحلفاء . واستبسل الجانب المصري التركي
ولم يسلم سفينة واحدة بل آثر الهلاك على التسليم للعدو . وكانت الموقعة قد بدأت في
منتصف الساعة الثالثة بعد الظهر فلم تحن الساعة الخامسة حتى كان قد قضى على العمارة
المصرية التركية وهلك معظمها نسفاً وغرقاً وجرح الباقي على السواحل وأحرق البحارة
أغلبها حتى لا تقع في أيدي العدو . وبلغ عدد القتلى المصريين والتركي ٣٠٠٠ في حين أن
خسائر الحلفاء لم تزيد عن ١٤٠ قتلى و ٣٠٠ من الجرحى .

وليس ريب في أن موقعة نافارين هي من المواقع القليلة التي يشمل فيها الغدر ونقض
العهود والمواثيق مجسماً . كيف لا وقد وقعت دون اعلان الحرب بين تركيا والدول
المتحالفة واغتال الحلفاء العمارة المصرية التركية دون إنذارها وهذا وغيره مما أتاه الحلفاء
مناف لا بسط قواعد الحروب المتفق عليها بين الدول المتعدنية .

وقد مر بك أن ابراهيم باشا كان متغيباً عن نافارين فلما بلغه تدمير العمارة المصرية
التي أنفق عليها أبوه ما أنفق عاد إلى نافارين وشهد بنفسه أثر الواقعة فحزن لها أشد
الحزن وأمر باعداد بعض السفن التي نجت من الكارثة وتعويم بعض ما أغرق وأنفذها
إلى الاسكندرية ورأى التزام خطة الدفاع باخلاء الموره والانتظار في ثغرى كورون
ومودون ريشا تصله أوامر أبيه .

من أمثال القيصر نيقولا والسلطان محمود واللورد بالمرستون . من اجل هذا قبلت مصر محمد اعليا كمنشئها . ويعتبر الاحتفال بمرور مائة عام على توليه الملك أول احتفال عمومي قامت به الامة المصرية نحو منشئها هذا

بين تركيا ومصر بعد الموقعة

وبرغم تدمير العمارة المصرية التركية فان تركيا ظلت ترفض معاهدة لوندرا وطالبت الحلفاء بتعويض عن تدمير أسطولها .

فأعلنت روسيا الحرب عليها واحتلت أدرنه وأرسلت فرنسا حملة الى اليونان لاجلاء الترك المصريين عنها . وانتهت الحرب الروسية التركية بعقد معاهدة أدرنة ١٤ سبتمبر سنة ١٨٢٩) وبمقتضاها نزلت تركيا على ارادة الدول المتحالفة كما ورد في معاهدة لوندرا بالاعتراف باستقلال اليونان الداخلي مع ابقاء السيادة العثمانية الاسمية عليها . وحدث بعد ذلك أن اتفقت كلمة الدول على تخويلها الاستقلال التام (٣ فبراير سنة ١٨٣٠)

أما مصر فان محمدا عليا أدرك بثاقب نظره أن ليس من الحكمة استمرار القتال بعد أن فقد عمارته وانقطعت المواصلات بين مصر وجيشها في الموره وبعد أن أنفذت فرنسا الحملة العسكرية التي عهدت اليها باجلاء المصريين والترك عن اليونان .

وفي هذه الأثناء مجاء الاميرال كودرنجتون الى الاسكندرية مصحوباً بعمارته وأندر بتخريب المدينة أو يرسل محمد علي أمراً باستدعاء إبراهيم من الموره . فتوسط في الأمر فنصل انجلترا الجنرال في مصر وعقد اتفاق مع الحلفاء على اخلاء الجيش المصري لبلاد الموره . وقد عاد فعلا في أكتوبر سنة ١٨٢٨ بعد حروب منهكة وتضحيات هائلة استغرقت أربع سنوات كاملة لم تفد مصر منها شيئاً اللهم إلا حسن سمعة جيشها ومقدرة قائده الاكبر ابراهيم باشا صاحب الترجمة .

وايس شك في أن ابراهيم باشا اكتسب خبرة وأى خبرة في الحرب اليونانية فقد حارب جيوشاً أوربية يقودها قواد مدربون على النظام الحربي الحديث وتغلب عليهم في أكثر من موقعة .

من أجل هذا جاء اشتراكه في الحرب السورية بمثابة الخاتمة السعيدة لبداية مجيدة . وقد تجلت عبقريته وأصبح اسمه مضراب الامثال ومقترناً بأسماء كبار الفاتحين وحسبك =

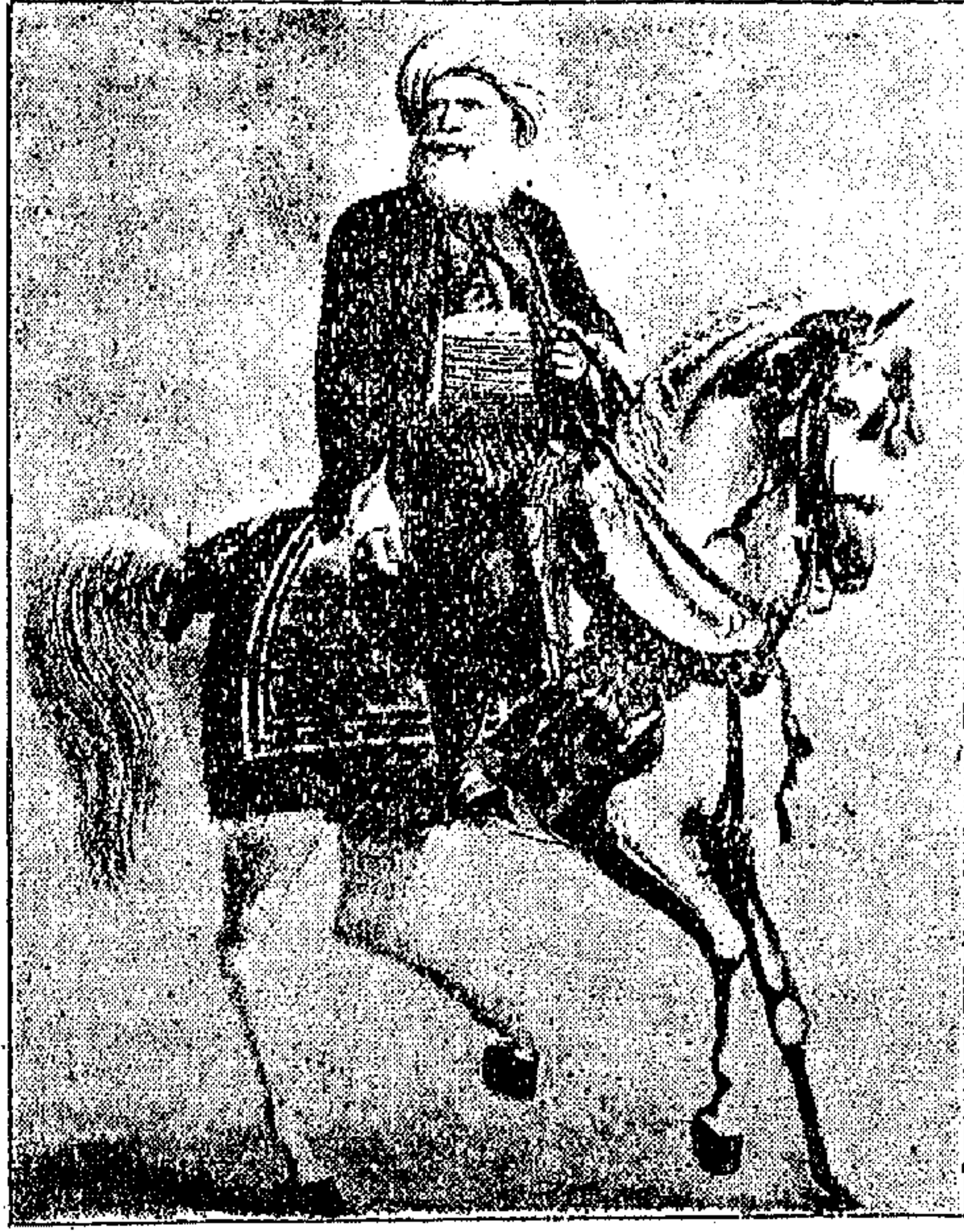
الذي كان بلا ريب فريد عصره وفخر الحكام المصلحين ممن ظهروا في البلدان المتاخمة لشاطئ البحر المتوسط من مراکش إلى تركيا . واذا جاز لأحد أن يقول أن الرجل كان من ناحية مغامرا ومستمترا لا يحسب حساب

== أن انتصاراته على تركيا قد أوقعت الدول الأوربية في أكبر حيرة وجعلتها تضطرب من عواقب انتصارات هذا الفاتح العظيم وخشيت أن تؤدي إلى فتح باب المسألة الشرقية قبل الأوان .

ولعل أبرز صفات ابراهيم شجاعته واقدامه وحبه للنظام وصرامته في تطبيقه ولذلك كنت تراه في ميدان القتال يعيش عيشة الجندي البسيط في المأكل والنوم يشارك جنوده السراء والضراء وكثيرا ما كان يقطع المراحل الشاسعة سيراً على الأقدام ليعطيهم مثلاً على ضرورة احتمال شدة الحروب مما جعلهم يتعلقون به ويستمتتون في القتال تحت رايته . وكان شديد الذكاء صادق الفراسة بعيد النظر في عواقب الأمور ميالاً إلى الاقتباس من أسس تقدم الأمم الغربية وكان شديد البساطة وهذا بعكس قواد الشرق وأمرائه . وقد ذكر البارون بوكونت أنه قابل محمداً علياً قبل مقابلة ابراهيم في طرسوس عقب انتصاره في معركة قونية و ابرام اتفاق كوتاهيا واستطلع آراء الاثنين السياسية فقال عن ابراهيم إنه « لم تتوافر عنده القوى على تأسيس الممالك كما توافرت عند أيه ولكنه كان متحلياً بما يكفي من المواهب للحفاظ على كيان الممالك وبقائها . . . » وأن ابراهيم حافظ على احترامه وإجلاله لأبيه ولم يداخله الزهو حتى بعد انتصاراته العظيمة إلى حد أنه لم يكن يسمح لنفسه بالتدخين في حضرته كما أنه كان لا يبرح وهو بعيد عن أيه يبدى له من الاخلاص والطاعة والاحترام ما اعتاده من قبل . »

وأشار البارون إلى الفوارق في آرائهما فقال أن محمداً علياً كان يمثل فكرة الحكم المطلق بعكس ابراهيم الذي كان يميل إلى الأخذ بالمبادئ الحرة . ثم هناك خلاف جوهرى بينه وبين أيه في مسألتين مهمتين : الأولى انه كان غير موافق على نظام الاحتكار الذي اتبعه محمد على في مصر وسورية مع انه نفذ أوامر أيه في هذا الصدد . والمسألة الثانية أن ابراهيم كان يميل إلى احياء القومية العربية كما تشهد بذلك أقواله وأقوال رجال حاشيته وبطانته بعكس محمد على الذي كانت نفسه متشعبة بالفكرة التركية . وكان من رأى ابراهيم أن يجعل أبوه من الأباطورية التي أسسها دولة عربية بحيث يكون حكمها ورعتها وجيشها من جنس واحد وأمة واحدة (الأمة المصرية) وأن يعيد إلى القومية ==

العواقب فلا يفوته الاعتراف من الناحية الأخرى بأنه كان نابليون الشرق
وبطل مصر الوطني ولهذا فان أعماله كما يقول القرآن « تشفع له » .



محمد علي باشا على جواده الأبيض المشهور الذي كان يركبه في الحفلات الرسمية

العربية وجودها واستقلالها أسوة بلغتها وآدابها وتاريخها .
ويدلك على تشبعه هذه الفكرة ما رواه البارون عنه من أنه « كان يقول في أثناء
فتوحاته في الشام أنه ينوي إحياء القومية العربية وإعطاء العرب حقوقهم وإسناد
المناصب لهم سواء في الإدارة أم في الجيش وأن يجعل منهم شعباً مستقلاً ويشركهم
في إدارة الشؤون المالية ويعودهم سلطة الحكم كما يتحملون تكاليفه » .
وذكر البارون أن ابراهيم كان يعد نفسه عربياً إلى حد أن أحد جنوده خاطبه
بالحرية التي كان ابراهيم يشجع عليها رجاله فقال له « كيف تطعن على الأتراك وأنت
منهم؟ » فأجابه ابراهيم فوراً « أنا لست تركياً فأتى جئت مصر صيباً ومن ذلك الحين قد
مصرتني شمسها وغيرت من دمي وجعلته دماً عربياً » .
ذلك هو ابراهيم باشا بطل حروب الاستقلال المصرية الذي فجعت فيه مصر قبل
أن تفجع في أيه ببضعة أشهر . فسلام عليهما بما شيداه من مجد أثيل أخذت تمتد ظلالة
الوارفة في عهد حفيدهما الأ كبر الجالس اليوم على عرش مصر « الملك فؤاد الأول » .

الفصل الثاني

المفلسون والسامسة

عباس - سعيد - اسماعيل

« فسلبوا المصريين » - سقر الخروج الأصحاح
« الثاني عشر الآية السادسة والثلاثون »

« سيبنى أحفادي ثمار ما زرعت ». بهذه الكلمات استقبل محمد علي الموت وهو في دور النزع . ويشاء الجسد العاثر أن تستخف العجلة والرعونة هؤلاء الأحفاد فلا يجنون من الثمار الا الحنظل بعد انهماكهم في شهوات الشباب .

ليس يخفى أن لحدوث الثورة عن طريق الديكتاتورية مزية عظيمة هي سرعة ذهابها إلى أبعد الحدود دون استنفاد شيء من القوة كما هو مألوف عند حدوث الثورة بواسطة اللجان الديمقراطية . نعم ان الحكمة وليدة الشورى ولكن لا جدال أيضاً في أن النظام الشورى يؤدي إلى إضاعة كثير من الوقت سدى . على أن هناك ضرراً من ناحية أخرى هو أن خلع الديكتاتور أو موته قد يترتب عليه أن تفقد الحركة قوتها الدافعة المدبرة وتضل اتجاهها وعندئذ يحدث رد الفعل الذي هو دائماً أبدأ بالمرصاد لأي وهن يطرأ على قوة الاندفاع السياسي . ومع أن القوة الابتدائية لهذا الاندفاع لن تفتأ تستجمع نفسها حتى تتم لها الغلبة في النهاية إلا أنه لا بد من إضاعة كثير أو قليل من الوقت ينقض في نزاع وفوضى قبل أن تستقر الأمور في نصابها من جديد وتستعيض الحركة

عما خسرتة من وقت . وسواء أكانت الثورة بالطريقة الأولى ، طريقة الديكتاتورية ، أم بالطريقة الثانية ، طريقة اللجان الديمقراطية ، فان مايندل في كل منهما من جهود أو ما يضيع سدى من الوقت يكاد يكون متساوياً .

وتتجلى مقدره محمد على في ادراكه أن لاسبيل إلى أى تقدم حقيقى فى أية ولاية من ولايات الأمبراطورية العثمانية إلا بتوفر شرطين اساسيين . أولهما الانفصال عن الباب العالى والثانى الاطمئنان من ناحية الدول العظمى . وقد حقق محمد على هذين الشرطين بحصوله على استقلال داخلى فى الشؤون المالية مع حصر نظام الوراثة فى أسرته ، وصيانة هذا الاستقلال بالسيادة العثمانية وضمائنه بمعاهدة دولية . فلم يبق إلا أن يوجد الحاكم الأوتقراطى الذى يستطيع بمقدرته أن يسهر على ذلك النظام الدولى . ومن ثم يعد المرحلة الأولى للانتقال من الأوتقراطية الشرقية إلى الديمقراطية الغربية . وقد كان فى استطاعة ابراهيم القيام بهذه المهمة وهو الذى كان له خلق أيه وإن أعوزته مقدرته ، لأن حكمه فى سوريا (١٨٣٣ - ١٨٤١) وإدارته الصناعية تشهد بكفاءته . ولكنه لحق بربه وهو يشغل منصب قائم مقام أيه فى ١٠ نوفمبر سنة ١٨٤٨ وقد جاءت تولية عباس الأول نكبة على مصر ١٨٤٩ - ١٨٥٤

نعم لقد هدم محمد على صرح استبداد المالك والأتراك ولكن لا ينبغى أن ننسى أنه هدم إلى جانب ذلك تلك السيادة العثمانية التى كانت درعا تتقى به جماعة اسلامية ، ماتزال فى سذاجة القرون الوسطى ، شره الجاليات الأجنبية والطوائف المسيحية وأرباب الامتيازات ممن يعتبرون العالم بأسره ووطناً لهم . أما ثورة عباس الرجعية ضد ما كان يقوم به جده من أعمال الترقى الجديد فإنها وإن كانت أضرب بمصر إلا أنها فى الوقت نفسه

قد كشفت عن سخط حقيقي من جانب المصريين حيال الاستغلال الأجنبي كائناً ما كانت مظاهره سواء أكان من ناحية الممالك أم من ناحية المرابين . نعم كان لابد من حدوث رد فعل كهذا يوماً ما ولكن عباس ولد جمعياً . يدل ذلك على ذلك أنه أبى في صباه تعلم اللغات الأجنبية كما رفض تلقن التربية الأوروبية حتى إذا دخل دور الرجولة اعتزل الناس وانزوى كسولا فريداً إلى أعماق دركات الغموض الإسلامى . ولقد أعطى لنا السير نايبير في كتابه « الحرب في سوريا المجلد الثانى سنة ١٨٤٢ » والسير ت مورى في كتابه المسمى « ترجمة وجيزة لحياة محمد على » صورة غير مرضية عن عباس الأول إذ أخبرنا أنه طالما أمر بجلد نسائه وإغراقهن في اليم ، وأنه قضى معظم أيامه بين كلابه وجياده ، وأنه أنفق أموالاً طائلة في زخرفة قصوره ، وأن شأنه كان كشأن غيره من الممالك في سلب أموال فلاحيه . يضاف إلى ذلك أنه سمح لموليه العديدين — وبينهم نوبار باشا الأرمنى — بأن يجمعوا له الأهوال بأحدث الطرق للضربات حتى إذا تكدست لديه بعثرها بأقدم الطرق في تشييد ثكنة في الصحراء تنقبض لها النفس لدفن نفسه فيها بالحياة بين حراسه الممالك^(١)

عباس باشا الأول

(١) لقد رأى القارىء ما كتبه المستر جورج يانج عن عباس باشا الأول ولا نحسبه تجاوز الحقيقة فيما قاله . فان أقل ما يمكن أن يوصف به عهد عباس الأول أنه عصر الرجعية أو « النكسة » في طريق النهضة القومية المصرية .

ولد في مصر سنة ١٨١٣ (١٢٢٨ هـ) أثناء غيبة أبيه طوسون باشا في الحجاز حيث كان يقاتل الوهابيين . ولما كان طوسون قد انتقل إلى دار البقاء بعد ولادة ابنه بقليل فقد جابه جده محمد على باشا بعنايته وبذل جهد الجبارة في تربيته بمدرسة الخانكة وإعداده لمنصب ولاية مصر في المستقبل باعتباره أكبر أفراد الأسرة سناً وأحقهم بولاية الحكم بعد ابراهيم باشا .



المغفور له عباس باشا الأول

ولذا قلده منصب مدير الغربية ثم منصب الكتخدائية وهو يعادل منصب رئيس الوزراء كما كلفه في كثير من الظروف بمرافقة عمه ابراهيم باشا في غزواته للبران على الشؤون العسكرية .

ولم يشتهر عباس بأية مزايا ولا ورث شيئاً من أخلاق جده محمد علي باشا أو عمه ابراهيم باشا بل اشتهر على العكس بقسوة القلب والميل إلى إرهاب الرعية مما حمل جده على توجيه اللوم إليه أكثر من مرة . ولما ولي ابراهيم باشا الحكم ضاق بقسوته ذرعاً فاضطره إلى الهجرة إلى الحجاز حيث بقي هناك إلى أن انتقل ابراهيم باشا إلى دار البقاء فعاد إلى مصر وتولى الحكم في ٢٤ نوفمبر سنة ١٨٤٨ (٢٧ الحجة سنة ١٢٦٤) وفي أثناء ولايته الحكم الذي ظل فيه خمس سنوات ونصف ظهر مافى أخلاقه الرجعية من شذوذ . فإلى جانب قسوة القلب أضيفت صفات أخرى كسوء الظن بالناس والتعير بالحوادث والرغبة في العزلة واختيار أبعاد الجهات عن العمران وأوحشها لبناء قصوره . فلم يكتف بسرأي الخرنفش وسراي الحلية بالقاهرة بل شيد قصرأ بالعباسية (التي سميت باسمه) وكانت إذ ذاك منقطعة عن العمران . وحسبك دليلاً على نخامة هذا القصر الموحش النأى أن نوافذه بلغت ٢٠٠٠ نافذة . ولم يكديفرغ من إنشاء هذا القصر المنيف حتى راح ينشئ قصرأ ثانياً في الدار البيضاء الواقعة بالجبل على طريق السويس المقفر (وتوجد آثاره إلى اليوم) وكذلك أنشأ قصرأ آخر في جهة العطف ثم غيره في بناها على النيل بعيداً عن المدينة وهو الذي قتل فيه .

وكانت باكورة اعماله عند ارتقائه الأريكة استبعاد مستشاري أبيه وجده جميعاً وطنيين وأجانب على السواء . نعم أن معظمهم لم تكن له قيمة حقيقية ولكن كان لاغنى عنهم لتسيير الادارة والسياسة على نظام مكررات الدولة . ولم يك من خرج حتى هذا الحين من اختلاط أموال الوالى الخصوصية بأموال الخزانة العمومية ولكن عباس أخذ

== وبلغ من سوء ظنه بالناس أن تشكك في اخلاص أفراد أسرته وأعلن عليهم حرباً عواناً وحاول قتل بعضهم فهاجر منهم إلى الأستانة من هاجر وبقي الآخرون وسيف البطش مسلط على رؤوسهم .

ولما كان نظام الحكم يقضى بتولية الأرشد فالأرشد من نسل محمد على أى أنه كان ينتظر أن يخلفه على العرش عمه سعيد باشا بن محمد على باشا ورئيس الدونامة المصرية فان عباس حاول تغيير هذا النظام لمصلحة ابنه الأمير ابراهيم الهامى وكان جميل الطلعة شديد الذكاء . فأرسله إلى الأستانة فى سنة ١٢٧٠ للتشرف بمقابلة جلالة السلطان عبد المجيد . وقد بذلت المساعى فى خلال تلك الزيارة لتحقيق رغبة عباس باشا بلا جدوى . على أن ذلك لم يمنع أن جلالة السلطان قد أحب الأمير ابراهيم وقربه إليه وغمره بنعمته وزوجه بابنته التى استولدها حضرة صاحبة السمو المغفور لها الأميرة أمينة الهامى الملقبة بأم الحسين

وبلغ من محاربة عباس لأفراد أسرته واتهامه لهم بالتآمر على حياته أن فرت عمته الأميرة نازلى هانم إلى الأستانة بينما لزم عمه سعيد باشا الاسكندرية لا يبرح سرايه بالقبارى مطلقاً .

ومن المألوف أن يصحب ظهور الرجعية فى بلد من البلاد تفشى الجاسوسية فيها فتروج سوق الوشايات وتدهور الأخلاق ولذا كان النبى إلى أقاصى السودان أخف عقاب لمن يوقعه سوء الحظ فى قبضة عباس .

وكان عباس مولعاً باقتناء الخيول والكلاب وركوب الهجن ولم يكن يعرف اقتصاداً فى سبيل اقتناء الجياد وبناء أنخم الاصطبلات لها .

وقف حركة التقدم

ولعل أظهر ما عرف عن عباس نفوره من كل ما امتاز به عصر جده الكبير .
فحركة النهضة والتقدم والنشاط والعمران - هذا كله كما كان فى نظر عباس من ==



المغفور لها الأميرة أمينة الهامى الملقبة بأُم المحسنين في شبابها

== الأمور المرذولة التي ينبغي محاربتها بكل ما أوتي من قوة ولذلك التفت إلى المدارس فأغلق ماتبقى منها وأقصى إلى السودان طائفة من كبار العلماء كرفاعة بك رافع ومحمد بيومي أفندي وغيرهما وأنشأ مدرسة المفروزة (وهي مدرسة تجهيزية حربية) و « فرز » لها بعض الطلبة من دون طلبة المدارس الأخرى .

ومع أنه لم يكن يعرف الاقتصاد عند اقتناء الجياد كما قدمنا فانه عمد إلى المصانع والمعامل فأغلق أبوابها جملة واحدة بحجة الاقتصاد !!

ولم يذهب إلى أوروبا في عهده من طلاب البعثات سوى ١٩ طالب فحسب هذا مع أنه كان قد استدعى معظم أعضاء البعثات الذين كانوا يتلقون العلوم في أوروبا منذ عهد جده العظيم !

ولم يكن غريباً وهذه طباع عباس واخلأقه أن تتدهور كافة مرافق الدولة في عهده وبخاصة الجيش والبحرية . نعم لقد عمل على تجديد بعض الاستحكامات وانشاء الطرق الحربية مما كان قد بدأ به ابراهيم ولكن الجيش نفسه ساءت حالته بعد أن كان مفخرة مصر فتفشى فيه الخلل وتضعضع نظامه . ومما زاد الطين بلة أن عباس أدمج فيه نحو ٦٠٠٠ من الأرنأؤود وجعلهم خاصة جنده وزودهم بالمسدسات وقربهم اليه مما جعلهم ==

ما في هذه من نقود وجعل مكانها أوراق « بنكنوت » باسمه . فما هي أن تداولتها الأيدي حتى عادت عليه بشكل إيراد الضرائب . ثم أنه عطل

== ينظرون بعين الاحتقار إلى الجنود المصريين . وهكذا أفسح عباس الطريق لهؤلاء الأرنأود لأن يعيشوا في البلاد فساداً .

نعم كانت قيادة الجيش ماتزال في أيدي سليمان باشا الفرنسي وليكن ماقيمة ذلك إذا كانت يده قد غلت عن القيام بما يراه ضروريا من الاصلاحات .

أما البحرية التي ازدهرت في عهد محمد علي فقد انحط شأنها في عهد عباس . ونظرا لأن سعيد باشا كان قائدها الأعظم فقد أدى حقد عباس عليه إلى إهمال شأن البحرية جملة ومحاربة كل اصلاح يرمى إلى رفع شأنها .

على أنه برغم تدهور الجيش والبحرية في عهد عباس فان الدولة العلية التجأت إلى القوات المصرية لمساعدتها ضد روسيا في حرب القرم (١٨٥٣) . وإذ ذاك عاد النشاط إلى الترسانة المصرية بعد أن كانت معطلة واستطاعت مصر أن تساهم في تلك الحرب بعيارتها التي كان يقودها الاميرال حسن باشا الاسكندراني أحد خريجي البعثات في عهد محمد علي وترى صورته في ص ٩٩ وفي الوقت نفسه سافرت حملة مصرية قوامها ٢٠٠٠٠ مقاتل بقيادة سليم باشا فتحى أحد القواد الذين حاربوا تحت لواء ابراهيم باشا . وقد أبلت العمارة والتجريدة المصرية خيرا بلاء في محاربة الروس إلى أن انتهت الحرب في عهد سعيد باشا .

ما تم من الاصلاحات في عهد عباس

ونظراً لانتشار الجاسوسية كما أسلفنا عليه القول فقد كان طبعياً أن يتضاءل عدد الأشقياء وقطاع الطريق ولذا توطدت دعائم الأمن العام في عهد عباس .

وكان أول ما عنى به عباس بعد اعتلاء الأريكة الشروع في مد خط السكة الحديدية بين مصر والاسكندرية (١٨٥٢) الذي تم في عهد سعيد . وقد عهد بهذه المهمة إلى المهندس الانجليزي المعروف روبرت ستيفنسن يساعده بعض المهندسين المصريين ممن اشتهروا بعد ذلك وشغلوا أكبر مناصب الدولة المصرية أمثال سلامة باشا ابراهيم وناقب باشا ومظهر باشا وبهجت باشا . ويلاحظ هنا أن عباس لم يعهد بهذا المشروع لشركة أجنبية

وشرع كذلك في إنشاء الخط بين اسكندرية وكفر الزيات (١٨٥٤) وقد تم في ==

المدارس وأغلق كل معهد عام عليه مساحة أوربية . وقد أحاط نفسه بحراسه
الالبيين والماليك فقضى بذلك على ما كان للجيش من صبغة وطنية وصفة
مصرية وخفضه الى بضعة آلاف من الجنود . ولم يكتف بأنه زعزع دعائم
الدولة من الوجهة الوطنية والقومية إلى الحد الخطر بل ذهب إلى أبعد من

== عهد سعيد باشا أيضا . وتم كذلك اصلاح طريق القاهرة والسويس وتعييده
ورصفه بالحجارة .

وقد وضع عباس بنفسه الحجر الأساسى لمسجد السيدة زينب وأقيم احتفال كبير
بهذه المناسبة حضره الاعيان ونحرت فيه الذبائح وأطعم فيه الفقراء .
ولقد علل بعض المؤرخين ومنهم حضرة الاستاذ المحقق عبد الرحمن بك الرافعى المحامى
الذى لخصنا عن كتابه «عصر اسماعيل» أكثر هذه المعلومات اتجاه عباس إلى إتمام هذه
الاصلاحات بتغلب النفوذ الانجليزى وقتئذ فى البلاط المصرى وتفوقه على النفوذ
الفرنسى . فان المسيو فردينان دلسبس حاول أن يضم عباس إلى ناحيته ويحصل منه
على ترخيص بشق قناة عبر برزخ السويس ولكن انجلترا حاربت تلك الفكرة خوفا
على طريق الهند وحملت عباس على الاكتفاء بتعميد الطريق بين السويس والقاهرة
ومد السكة الحديدية بين القاهرة والاسكندرية لتكون عدة لها عند الحاجة وتسيلا
للمواصلات البرية إلى الهند عن طريق مصر وسرعة نقل البريد البريطانى والسياح بين
الهند وانجلترا .

ويقدم أصحاب هذا رأى برهانا يؤيد نظريتهم إهمال عباس مشروعات
الاصلاحات التى ازدهرت فى عهد جده واستغناؤه تبعاً لذلك عن كافة الخبراء
الفرنسيين مما أدى بالتالى إلى تضاؤل النفوذ الفرنسى هذا فى الوقت الذى كانت
لتنصل بريطانيا الجنرال فى مصر وهو المستر مورى الكلمة المسموعة والمكانة
الأولى فى بلاط عباس .

ولا يستبعد أن تكون مكانة المستر مورى راجعة إلى رغبة عباس فى الاستعانة به
فى السعى لدى حكومة الاستانة عن طريق سفير انجلترا لتغيير نظام وراثه العرش
فى مصر كي يؤول إلى ابنه الهامى بدلا من عمه سعيد باشا أو لتوسيطه لدى الحكومة
البريطانية لمنع حكومة الاستانة من التدخل فى شؤون مصر والحيلولة دون تطبيق
القانون الأساسى المعروف بالتنظيمات ، على القطر المصرى .

ذلك فهدد استقلالها باستخزائه الشديد للسلطان . ويؤثر عنه أنه قال بهذه المناسبة « إذا كان لابد من أن يحكمنى أحد اثنين فأولى أن يكون الخليفة لا القناصل » . ولكن الواقع أن الخليفة والقناصل حصلوا جميعاً على كل

مقتل عباس

بسطننا لك بعض الأمثلة على شذوذ أخلاق عباس وأنه أقام له قصرآ في بنها بعيدا عن العمران . وقد كان مقتله في ذلك القصر وعلى هذا اتفقت الروايات وان اختلفت في أسباب القتل .

ويؤخذ من رواية اسماعيل باشا سرهنك كما أوردها في كتابه « حقائق الاخبار عن دول البحار جزء ٢ ص ٢٦٥ » ان جاشية عباس من المماليك قد استطالوا بالغمز والليز على رئيسهم خليل درويش بك الذى كان يعرف بحسين بك الصغير لأن عباس قربه اليه ومنحه عن غير جدارة رتبة قائم مقام مع حدائة سنه . فشكاهم الرئيس إلى مولاه فأمر بجلدهم وتجريدهم من ثيابهم العسكرية وإلباسهم الملابس الخشنة وإرسالهم لخدمة الخيل والاصطبلات . فتشفع فيهم مصطفى باشا أمين خزانة عباس لأنهم كانوا من أتباعه المقربين ولكن بلا جدوى . فوسط فى الامر أحمد باشا يكن و ابراهيم باشا الألفى محافظ العاصمة . فانتهزا فرصة وجود عباس باشا فى قصره ببنها وتشفعا فى الامر فأجاب شفاعتهما . وجاء المغضوب عليهم لرفع واجب الشكر للأمر وهم يضمرون الفتك به وتآمروا مع غلامين من خدم السراى يدعى أحدهما عمر وصفى والآخر شاكر حسين واتفقوا جميعاً على قتله . ولما كان من عادة عباس عند نومه أن يقوم على حراسته غلامان من مماليكه فى ليلة ١٨ شوال سنة ١٢٧٠ (١٤ يولية سنة ١٨٥٤) تولى الغلامان المذكوران حراسته . وفى غسق الليل جاء المؤتمرون ففتح لهم الغلامان الباب . فلما استيقظ عباس وحاول النجاة صده عمر وصفى وتكاثر عليه المؤتمرون وأجهزوا عليه وأوعزوا للغلامين بالهرب . وكتبوا الأمر إلى صديحة اليوم التالى . فلما لم يستيقظ الأمير استبطأه أحمد باشا يكن و ابراهيم باشا الألفى فدخلا عليه فوجداه قتيلا فدعرا للحادث وكتبا الخبر إلى أن نقلوا الجثة فى عربة إلى القاهرة وأوصلها إلى قصر الحليمية وهناك إذيع خبر مصرعه .

وحاول جماعة من أنصار القليل وعلى رأسهم الألفى باشا أن يجعلوا الحكم من بعده لولده ابراهيم باشا الهامى وكان وقتئذ بأورو با فأرسلوا يستدعونه وحاولوا منع =

ما ارادوه منه . فقد طبق عليه الباب العالى «التنظيمات» التى كانت بريطانيا قد فرضتها عليه نفسه من قبل . وقد اشتملت هذه التنظيمات فى الظاهر فقط على قبول الغاء الكبرياج والسخرة ولكنها كانت تتضمن فى الواقع اعترافا بحق الأتراك والانجليز جميعاً فى التدخل فى شؤون ادارة مصر . وبمقتضى معاهدة سنة ١٨٣٨ أصبح يحق للتجار الاجانب أن يتابعوا المحاصيل رأساً من الفلاحين على نظام الاحتكار الذى سنه محمد على وان كان قد ظل معمولاً به فترة أخرى من الزمن . يضاف إلى ذلك أن الانجليز صارت لهم يد فى الاشراف على الطريق البرى وهو ما كان يستحيل أن يسمح به محمد على . وقد نالوا هذا بفضل حصولهم على امتياز بانشاء

عمه سعيد من تولى الحكم وكان مقبلاً بسرايه فى القبارى . فكتبوا سرا إلى اسماعيل باشا سليم محافظ الاسكندرية بما اتفقوا عليه ولكنه كان على غير رأيهم لعلمه أن الحكم من حق سعيد . فذهب إلى سرايه وأطلعه على محتوى الرسالة فشكره على إخلاصه وذهب بصحبته إلى سراي رأس التين . وأعلن اعتلاءه على العرش وأجريت حفلة الجلوس وسط إطلاق المدافع . ثم سافر إلى القاهرة بصحبة أعضاء الأسرة الحاكمة وتوجه إلى القلعة وتولى زمام الحكم .

أما رواية مدام أولمب إدوار التى ذكرتها فى كتابها المسمى «كشف الستار عن أسرار مصر» فتعزو الحادث إلى مساعى الأميرة نازلى هانم عممة عباس إذ أنفذت من الاستانة مملوكين من مماليكها وكانا على جانب عظيم من الجمال بحيث يغريان وكيل الأمير على شراءهما . وفعلاً هبطا مصر ونزلا إلى سوق الرقيق ورآهما الوكيل وابتاعهما وأحضرهما إلى قصر مولاه فى بنها . فلما رآهما عباس أعجب بهما وعهد إليهما بحراسته ليلاً . وقد لبث المملوكان يستجمعان قوتهما إلى أن جاء دور قيامهما بالحراسة فاقتحما الغرفة وهاجما الأمير فى نومه وقتلاه دون أن يتركا له فرصة للاستغاثة أو للدفاع عن نفسه . ثم نزلا إلى الاصطبلات وتظاهرا بطلب جوادين لقضاء حاجة لمولاهما الأمير فلم يشك السائس فى الأمر . فركبا الجوادين وفرا إلى القاهرة ومنها إلى الاستانة حيث نفحتهما الأميرة نازلى بمكافأة سخية على نجاح المؤامرة .

سكة حديدية بين الاسكندرية والقاهرة . ثم إن عباس برغم حرمانه نفسه من الاختلاط بالاجانب ما استطاع إلى ذلك سبيلا كان يعمل بمشورة الانجليز أكثر مما كان يعمل بمشورة الفرنسيين حتى كان الحزب الموالي لبريطانيا في مصر وقتئذ هو حزب « طبقة الحكام » وهو مركب من الاتراك وأعيان البكوات وقد انتهزوا فرصة هذا الانقلاب فعملوا على احياء عهد ظلم الفلاح وارهاقه من جديد . حتى ان عباس عند ما توفي « بضربة الشمس » كما زعموا مع أن « الضربة » كانت ضربة حراسه أنفسهم لا ضربة الشمس تجلد المصريون في احتمال موجة البقيظ الشديد التي لفحهم بها الجو مصادفة في تلك الأيام اعتقاداً منهم بأن الجحيم قد فتحت أبوابها لتلقى أميرهم !!

وجاء سعيد (١٨٥٤ - ١٨٦٣) أصغر أولاد محمد علي سنأ وعم عباس فكان صورة مناقضة لصورة سلفه من كافة الوجوه . فقد كان عصرياً بقدر ما كان عباس رجعياً . ثم إن تساهله في تمدين مصر على النمط الأوربي كان بمثابة تخفيف مرغوب فيه لما ولدته رجعية عباس السخيفة من الكروب . وكان سعيد مثقفاً تثقيفاً فرنسياً ومن أكبر أنصار الأجانب الممتازين .

== ولعل أكبر حسنة يذكرها التاريخ لعباس الأول أنه تحاشى كل ما من شأنه أن يؤدي إلى التدخل الأجنبي في شؤون مصر . فلا هو مكن للأجانب الموجودين في القطر باعطائهم الامتيازات ولا هو مد يده إلى الاستدانة منهم بل ترك خزينة البلاد حرة من ائقال الديون الأجنبية . وكان يعمل دائماً على سد عجز الميزانية دون الالتجاء إلى القروض . وهي ميزة لا بد أن يسجلها التاريخ لعباس في معرض المقارنة بينه وبين خلفائه .

وهكذا ترى أن عهد عباس الأول كان عهد الرجعية وانتشار الجاسوسية وتدهور المرافق العامة والرجوع بالبلاد القهقري . فعنده يعتبر بحق عهد النكسة في تاريخ النهضة المصرية .

وقد وصفه لنا صديقه « إدمون أبوت » وصفا شعريا بقلبه فقال « كان هذا العملاق من أطيب الناس قلبا وأشدهم حبا لمعيشة الترف والبذخ وأعظمهم شهية لتناول أفخر أنواع الطعام والشراب وكانت يده من كبر الحجم بحيث يخجل الفيل أن يقارن يده بها . أما وجهه فكان عريضا وكثير الحمرة تزينه لحية هائلة كمعرفة الجياد شديدة الحشونة ولكنها تدل على الاستقامة والصراحة والشجاعة والخبث »^(١) وفي الحق إن هذا العملاق

سعيد باشا

ميلاده ونشأته

(١) ليس من شأننا هنا أن نذكر تاريخا مفصلا عن أمراء مصر بل كل غايتنا أن نسد الثغرات في كتاب المستر جورج يانج أو أن نبين وجهة النظر المصرية جنبا إلى جنب مع وجهة النظر الأجنبية وبخاصة الانجليزية . ولما كان « عصر اسماعيل » لصديقنا الاستاذ عبد الرحمن بك الرافعي كالمعين الذي لا ينضب لما احتواه من المعلومات النفيسة الدالة على حسن التقصى وسعة الاطلاع وحب البحث فقد رأينا أن نقتطف منه ما يتسع المقام لنشره عن سعيد باشا .

فهو ابن محمد علي الكبير . ولد في الاسكندرية عام ١٢٢٧ (١٨٢٢) فاهتم والده من البداية بتربيته وثقيفه حيث كانت له منزلة كبيرة في قلبه . واختار له السلك البحري حيث نشأ نشأة ديمقراطية . فقد أمر محمد علي بأن يعامل في السلك المذكور لا معاملة أحد الأمراء بل كأحد الملاحين . ولذلك كان سعيد ينظر الى الملاحين كأقرانه سواء بسواء لا يميزه عنهم الا بما قد يظهره من التفوق عليهم بالجد والعمل الصالح . وقد ظل يطبع رؤساءه كما حد الضباط العاديين ويتدرج رويدا رويدا في سلم الترقى في المراتب البحرية ويجوب البحار الى أن أصبح « سر عسكر الدونانمة » أى القائد العام للأسطول في أواخر أيام أبيه .

أخلاقه

وبديهى وهذه نشأته أن تشرب نفسه حب زملائه البحارة خاصة والمصريين عامة . ومن هنا كانت نزعتة الوطنية التي غرست في نفسه قبل تولى الحكم وترعرعت وقويت بعد اعتلائه الأريكة . وإلى هذه النشأة يمكن أن نعزو ما عمله سعيد للترفيه عن المصريين =

الهائل الشهية الذي بلغت زنته الثلاثة قناطير ونصف كان شديد المرح
طروبا محبا للفكاهة وقد جعل ديدنه أن يجمع شتات ما كان يظنه العرب
مضحكا عند الشرقيين وبالعكس لأنه كان من ناحية كأحد أولئك الخلفاء



المغفور له سعيد باشا

المذكورين في قصص ألف ليلة وليلة، ومن الناحية الأخرى كأحد متسكعي
الحى اللاتيني وكثيراً ما أطاح وهو في حالة المرح رؤوس المشايخ
متى أعوزهم الأدب كما أنه أمر مرة بصنع زينة باشعال النار في الدعاوى

== وتحريرهم مما حاق بهم من مظالم العصور الماضية وتخفيف الضرائب عنهم وبث روح
الوطنية فيهم وتشجيعهم على تقلد المناصب السامية بعد ان كانت وقفا على
الجزاكسة والاتراك .

وكان الى جانب ذلك يمتاز بطيبة القلب وسلامة الطوية والكرم والشجاعة
والصراحة والتسامح وحب العدل والنفور من الظلم . وكان محبا للعلم بارعا في الرياضيات
يجيد التكلم بعدة لغات شرقية وكذا الفرنسية . ولكنه كان الى جانب ذلك
كثير التردد ضعيف الارادة سريع الغضب سريع العفو . وقد أوقعه ميله إلى الاسراف
والترف في شباك البيوتات المالية . فكانت الاستدانة من تلك البيوتات السنة السيئة
التي وضعها سعيد لخلفائه . وكان طبيعيا ان يؤدي الاقتراض من الأجانب مع ==

المرفوعة بطلب مالا يقل عن ٨٠ مليوناً من القروش من الضرائب المتأخرة. وكان يسلي المملوك الأجانب بما يذكره لهم من الملح والطرف المضحكة الفرنسية. وقد أمر باشاواته يوماً أن يقتحموا الى جانبه كمية هائلة من مسحوق البارود الجاف وبأيديهم الشموع ليتمتحن مبلغ متانة أعصابهم. وقد أنشأ قناة السويس فغير بها طريق التجارة العالمية كما غطى ساحة الاستعراض بألواح من الحديد كي لا يثور التراب فيلوث ملبسه الباريسية. وفي الحقيقة لم يعرف الكتابة من عاش إلى جانب سعيد. وكثيراً ما كان يأمر باعطاء شخص من الأشخاص « مائتين » دون أن يعين هل يقصد مائتي كراباج أم مائتي دينار. وقد كان الشعب يحبه باعتباره أفكوهة عظيمة ولذا قدر له بعض اصلاحاته باعتبارها مجرد مداعبات كالغاء النخاسة

== ميله الشديد الى الفرنسيين خاصة وثقته الغير متناهية بالأوروبيين عامة الى بسط نفوذهم رويدا رويدا على مرافق البلاد وأصبحت للقناصل منزلة لم تكن لهم في عهد من العهود السالفة. وكان من جراء ذلك كله أن وقع تحت تأثير صديقه فردينان دلسبس ومنحه امتياز حفر قناة السويس.

إصلاحاته

لعل ابرز إصلاحات سعيد باشا الزراعية اللائحة السعيدية الصادرة في ٥ أغسطس سنة ١٨٥٨ (٢٤ الحجة سنة ١٢٧٤) التي أصبح للفلاح بمقتضاها الحق في امتلاك الاراضي الزراعية بعد أن كان محروماً من هذا الحق في عهد محمد علي. وهذه اللائحة هي أساس التشريع المتعلق بملكية الاطيان في القطر المصري.

وقد رأى سعيد أن يتم مفعول هذه اللائحة بالغاء نظام احتكار الحاصلات الزراعية التي امتاز بها عصر أبيه محمد علي. فاصبح للفلاح بذلك الحق في التصرف في حاصلاته وحرية اختيار أنواع الزراعة التي يريدونها.

وزيادة في الترفيه عن الفلاحين أمر سعيد بالتجاوز جملة واحدة عن الضرائب المتأخرة وقد بلغت في ذلك الوقت على مارواه المسيو مريو ٨٠٠٠٠٠٠ جنيه وهو مبلغ لا يستهان به إذا قيس بثروة ذلك العصر.

(١٨٥٦) والغاء عقوبة الجلد (١٨٦٣) والخدمة الإجبارية العسكرية .
أما نصيب سعيد في عملية رهن مصر فلم يك شيئاً مذكوراً بجانب
نصيب خلفه اسماعيل ولكن لا مناص من الاعتراف بأن سعيد هو واضع السنة
التي سار عليها اسماعيل فيما بعد . ولم يكن اسراف سعيد الشخصي أقل من
اسراف خلفه . أما استئثاره بأرباح الدولة مما كان ينبغى أن يردده إلى أموال
الخزانة فما كان ليرتب عليه شيء ما لو أنه حرص على بقاء الأداة سائرة .
ولا ريب في أن الغاء نظام احتكار الحاصلات الزراعية نهائياً مما
اتجهج له التجار الأجانب وإصراره على أن تكون الضرائب نقداً لا عيناً
مما ارتاح له الممولون الأجانب وسماحه بإعادة نظام الملكية

وبالغاء احتكار الحاصلات الزراعية أصبح في وسع الفلاح أن يؤدي الضريبة نقداً
بعد أن كان يؤديها عيناً . فلم يعد رجال الحكومة يتحكمون في حاصلات الفلاح أو
يبيعونها بالسعر الذي يقررونه كلاب صار الفلاح نفسه يبيعها بالثمن الذي يرتضيه ثم
يؤدي الضريبة نقداً . وهكذا نال الفلاح من الملكية العقارية وملكية الحاصلات وحرية
التصرف فيها وحياسة ثمنها أي أنه أصبح له وجود اقتصادي وصار مستقلاً عن الحكومة
وهو لعمر كبري إصلاح كبير نحسب أن المستر يانج لم يقدره قدره عند كتابة ما كتبه عنه
في هذه الصحيفة . واذ لم يكن في وسع الفلاحين أداء الضريبة نقداً فوراً فقد أمهاتهم
سعيد ريثما يتسنى لهم بيع حاصلاتهم الجديدة بالسعر المعقول وأداء الضريبة من
ذلك الثمن .

ومن أهم إصلاحاته الغاء نظام الدخولية التي كانت تجبي على الحاصلات والمتاجر
عند انتقالها من قرية إلى قرية ودخولها إلى المدن . وكانت الحكومة تتقاضى على المتاجر
نحو ١٢٪ من قيمتها عند دخولها المدن وهذا كان مصدر اعنات للأهالي فضلاً عن
أنه كان عقبة كأداء في سبيل رواج التجارة وانتشارها . وهذا إصلاح آخر رأى فيه
المستر يانج سبباً من أسباب عجز الميزانية العامة كما تراه في الصفحة التالية .

ولا تنس في باب الإصلاحات اللائحة السعيدية التي وضعها لمعاشات الموظفين
المتقاعدين فهي الأساس الذي وضع عليه نظام المعاشات المعمول به في مصر اليوم
لموظفي الحكومة .

العقارية (١٨٥٨) مما كان له أظيب أثر بين الفلاحين - إن حدوث هذا كله في وقت واحد كانت نتيجة الارتباك والخراب . ذلك لأن الفلاح وممتلكاته سرعان ما وقعوا غنيمته باردة في أيدي المراهين الأروام الذين كانوا قد قدموا له القروض اللازمة في الماضي أو في أيدي التجار الأجانب الذين ابتاعوا محصوله بالمزاد هذا بينما أن اختلال النظام المالى كانت نتيجة أن الدولة صارت أكثر من ذى قبل اعتماداً على ما تقترضه من الممولين الأجانب بفوائد فاحشة . نعم إن إلغاء الجمارك الداخلية « الدخولية » كان عملاً اقتصادياً نافعا ولكنه كان من الناحية الأخرى ضربة قاضية على الميزانية . ولطالما وصف لنا المؤرخون سعيد بأنه محرر مصر من تجارب أبيه الاقتصادية متناسين أن هذه

الإصلاحات العمرانية

ووجه سعيد اهتمامه إلى الأعمال العمرانية . ولما كانت ترعة المحمودية قد كاد أن يطمرها الطمي ويفسد استعمالها فقد أمر بتطهيرها . ولما كانت الأتربة التي ينبغى رفعها من هذه الترعة التي يبلغ طولها ٨٠ كيلو متر لا تقل عن ثلاثة ملايين متر مكعب فقد أصدر الأوامر للديريات بإرسال الانفار فأرسلت نحو ١١٥ ألف عامل فأتتموا عملية التطهير في ٢٢ يوماً وأنشئ طريق زراعى على جانب الترعة عرضه ١٠ أمتار . وعنى سعيد بالانفار وأحضر لهم الأطباء لملاحظة حالتهم الصحية طول مدة العمل .

وقد لفت أتمام ذلك العمل العمرانى الكبير في هذه المدة القصيرة الأنظار من كل ناحية إلى مقدرة الفلاح المصرى وجلده مما حرك في نفس المسيو فردينان دلسبس الشهوة إلى اغراء سعيد بتسخير آلاف الفلاحين لاحتفار قناة السويس . فأصغى سعيد إلى هذا الاغراء وقام باحتفار هذه القناة التي كانت وبالاً على مصر .

وقد مر بك أن عباس الأول شرع في انشاء خطين حديدين بين الاسكندرية والقاهرة وبين هذه والسويس ولكن المنية عاجلته قبل أتمامهما فيما في عهد خلفه سعيد . فالأول في سنة ١٨٥٦ والثانى في سنة ١٨٥٨ . ولم تكن هناك كبرى على النيل بل كان القطار عند اجتياز فرعى النيل ينقل على مراكب خاصة من بر الى بر .



المغفور له العلامة محمود باشا الفلكي



العالم الأثري ماريوت باشا
مؤسس المتحف المصري

== وأنشأ سعيد خطوطاً تلغرافية على الطريقة الحديثة بخلاف طريقة «شاب» القديمة التي كانت في عهد أبيه .

وأدى إنشاء السكك الحديدية إلى رواج الإسكندرية والسويس ومن ثم شرع سعيد في إصلاح الميناء الثانية وإنشاء مدينة باسمه وهي بورت سعيد .
وعنى سعيد بالاحتفاظ بالآثار المصرية وكلف ماريوت باشا العالم الأثري المعروف بجمعها في مخازن خاصة في بولاق كما عهد إلى محمود باشا الفلكي بالذهاب إلى السودان للقيام بالأعمال الفلكية . وقد وضع بأمر سعيد عند عودته خريطة مفصلة للقطر المصري .
الاهتمام بالجيش

كانت نشأة سعيد على ظهر الأستطول سبباً في تعلقه بالحياة الحربية برية كانت أم بحرية ولذلك اهتم بالجيش وكانت تطيب له الإقامة وسط جنوده وكثيراً ما صرف أياماً طويلة بينهم .

وقد عنى بترقية الجيش مادياً ومعنوياً . فقرر تقصير مدة الخدمة العسكرية وجعلها اجبارية للجميع بحيث لا تزيد عن سنة واحدة بعد ان كانت قاصرة على أبناء الطبقات الدنيا مما حيب الجندي إلى الأهالي وأدخل إلى قلوبهم الطمأنينة على مصير فلذات أكبادهم .
ثم أن تعميم الخدمة ومساواة الأغنياء بالفقراء أدى إلى تكريم الجندي ورفع شأنها . ==

التجارب كانت قائمة على نظام اقتصادى معمول به وقتئذ في مصر وفي الشرق . أما التجارب في تطبيق مبدأ حرية التجارة وما الى ذلك من وسائل يحتمل أن تكون ناجعة عند الانجليز في أوائل عهد الملكة فيكتوريا فقد كانت ضارة بالاساليب الزراعية التي ألفها الفلاحون منذ عهد الفراعنة . وقد نت التجارة الأجنبية طبعاً بعد الغاء نظام الاحتكار ولكن لم يكن في الاستطاعة فرض ضرائب عليها بسبب الامتيازات هذا فضلاً عن أنها قتلت في المهد تلك الصناعات الوطنية التي كانت ما تزال موجودة . ومن جهة أخرى فان سخاء سعيد السياسى وكرمه الحياتى الشخصى كان على التحقيق بمثابة إحراق للشمعة من طرفها الاثنى . كذلك تكلفت تجار يه في

== واهتم سعيد بتحسين غذاء الجنود وملابسهم ومسكنهم ومظاهرهم عامة مما رغب الفلاحين في الجندية بعد أن كانوا يرهبونها وينظرون إليها شذراً .

والتفت سعيد إلى الناحية المعنوية في الجيش فعمل على ترقية كثيرين من الضباط المصريين إلى المراتب العسكرية السامية بعد أن كانت وقفاً على الأتراك والجرالكسة . ولم يفت عرابى باشا أن يشير في مذكراته ص ١٦ إلى خطبة ألقاها سعيد باشا في مأدبة كبيرة أقامها في قصر النيل إذ قال مخاطباً العلماء والرؤساء وأفراد الأسرة الحاكمة وكبار الموظفين العسكريين والملكيين :

وأياها الاخوان إني نظرت في أحوال هذا الشعب المصرى من حيث التاريخ فوجدته مظلوماً مستعبداً لغيره من أمم الأرض فقد توالى عليه دول ظالمة له كثيرة كالعرب . الرعاة (الهكسوس) والأشوريين والفرس حتى أهل ليبيا والسودان والرومان وهذا قبل الاسلام . وبعده تغلب على هذه البلاد كثير من الدول الفاتحة كالأمويين والعباسيين والفاطميين من العرب والترك والأكراد والجركس وكثيراً ما أغارت فرنسا عليها حتى احتلتها في أوائل هذا القرن في زمن بونابرت . وحيث أنى أعتبر نفسى مصرياً فوجب على أن أرى أبناء هذا الشعب وأهذه تهدياً حتى أجمعه صالحاً لأن يخدم بلاده خدمة صحيحة نافعة ويستغنى بنفسه عن الأجانب . وقد وطدت نفسى على إبراز هذا الرأى من الفكر إلى العمل .»

المشروعات الهندسية الأوربية نفقات باهظة كانت أفدح من أن تضم إلى إسرافه الآسيوى . مثال ذلك أن زخرفة قاعة الاستقبال فى قصر عابدين بلغت نفقاتها عشرة ملايين فرنك أى ٤٠٠ ر ٠٠٠ جنيه ولكن هذا لم يكن شيئاً مذكوراً أو قيس بها تكلفته الخزانة من جراء مشروعاته

== واستطرد عرابى باشا فقال تعليقا على هذه الخطبة إنه لما انتهى سعيد من إلقائها خرج المدعوون من الأمراء والعظماء غاضبين حانقين مدهوشين مما سمعوا . وأما المصريون فخرجوا ووجوههم تتهلل فرحاً واستبشاراً . ويعتبر عرابى هذه الخطبة أول حجر فى أساس مبدأ مصر للمصريين . ثم قال «وعلى هذا يكون المرحوم سعيد باشا هو واضع أساس هذه النهضة الوطنية الشريفة فى قلوب الأمة المصرية الكريمة »
وبديهى أنه لو سادت هذه الروح لما كان العراييون بحاجة الى استعمال العنف فى تحقيق مطالبهم وكان سعيدا لم ينس الدرس الذى ألقته حملة بونابرت على المماليك عند زحفها على القاهرة بطريق النيل ولذا أنشأ بقرب القناطر الخيرية القلعة السعيدية لصد الهجمات عن القاهرة بطريق النيل .

وكان تردد سعيد وتذبذبه سببا فى اضعاف الجيش تارة وتقويته تارة أخرى كما حدث فى سنة ١٨٥٦ عندما سرح معظم الجيش أثناء رحلته إلى السودان ثم إعادته إياه سيرته الأولى عند توتر العلاقات بينه وبين تركيا فى سنة ١٨٦٠ بسبب مسألة قناة السويس إذ وصل عدده الى ٦٤٠٠٠ على ما أحصاه اسماعيل باشا سرهنك . ويظهر أنه كان ينوى محاربة تركيا هذا الجيش الذى لم يلبث أن أضعفه مرة أخرى عند ما عادت العلاقات بينه وبين تركيا إلى مجاريها . ويقرر المسيو فردينان دلسبس أن سعيدا أنقص الجيش من ٦٠٠٠٠ الى ٨٠٠٠-١٠٠٠٠ وذلك لتخصيص أكبر عدد من المقترعين الفلاحين لأعمال حفر القناة .

ضعف البحرية

كان أكبر هم سعيد وهو الذى نشأ وترعرع على ظهر الأسطول أن يقوى شأن البحرية فى أيامه ولذا بدأ باصلاح السفن العائدة من حرب القرم وشرع فى انشاء سفن جديدة . ولكن انجلترا خشية على مركزها فى البحر المتوسط أوعزت إلى الباب العالى بمنع سعيد من المضى فى تجديد الأسطول المصرى وأفهمته أن تقويته قد تغرى ابن محمد على بتقليد أعمال أبيه ضد تركيا . فنزل سعيد على ارادة تركيا وأمر بفك أجزاء ==

العامة . فقد اضطر إلى عقد قرض خاص في باريس (١٨٥٨) لإنشاء خط حديدي من الاسكندرية إلى القاهرة وآخر من القاهرة إلى السويس . وليس يخفى أن تورطه في مشروع قناة السويس هو الذي دفع بمصر إلى عقد أول قرض عام من بيت فريهينج وجوشن في لندن (١٨٦٢) وكانت

السفن وبيع أخشابها وتسريح ضباطها وملاحيها . . وما زاد في ضعف البحرية المصرية في عهد سعيد اكتشاف البخار واستخدام الدول لة واستبدال السفن الحربية الشراعية بالسفن البخارية مما عجزت معه ميزانية مصر عن مجاراتها فيه وأدى في النهاية الى تدهور البحرية المصرية .

شركات ملاحية أجنبية

على أن سعيدا وإن كان قد أخطأ في إهمال شأن البحرية الحربية إلا أنه عني بالملاحية التجارية الداخلية فوافق في سنة ١٨٥٧ على إنشاء أول شركة أجنبية برؤوس أموال أوربية مجردة من أية صبغة مصرية فعلية اللهم إلا الاسم فقط إذ سميت « بالشركة المصرية للملاحية التجارية » وكانت غاية سعيد من ذلك تسهيل المواصلات بين الاسكندرية وداخلية البلاد التي كانت السفن الشراعية تستغرق في نقل حاصلاتها الى الاسكندرية أكثر من ١٥ يوماً بسبب معاكسة الريح في حين أن البواخر دانت تقطعها في نحو ٣٦ ساعة .

وكان العضو المصري الوحيد في هذه الشركة رئيسها الفخرى ذو الفقار باشا وزير المالية . وقد جعل امتيازها ١٥ سنة ونص في عقد تأسيسها أنه إذا حدث خلاف بين الشركة والحكومة فيحسم النزاع بواسطة التحكيم كما نص على أن ترفع البواخر الراية المصرية باعتبارها تابعة لشركة مصرية ولو في الاسم فقط .

ولما فرغ بال سعيد من مسألة ربط داخل البلاد بعضها ببعض ببواخر هذه الشركة التفت الى ربط مصر بما حولها من البلاد المتاخمة للبحرين الأحمر والأبيض المتوسط . فوافق في سنة ١٨٥٧ على إنشاء شركة الملاحية البحرية وسميت باسمه « القومبانية المجيدية » نسبة الى اسم السلطان عبد المجيد سلطان تركيا وقتئذ . وكانت الشركة برئاسة الأمير مصطفى فاضل بن ابراهيم باشا وتولى ادارتها مجلس مختلط من أجاناب ومصريين ومنهم نوبار باشا وغيره وغيره . وكانت الغاية من انشاء هذه الشركة تسيير البواخر في البحر الأحمر الى المحيط الهندي والخليج الفارسي ونقل الحجاج إلى الحجاز على نحو

شروط القرض تنذر بالشر وقد بلغ مقداره ٣٣٠٠٠٠٠٠ جنيهه وفائدته ٧ المائة وثمان السهم فيه ٧٥ ولما أدركت سعيدا الوفاة (١٨٦٣) بلغ مجموع ما على مصر من الديون الخارجية التي عقدت بشروط لهذه ١٠٠٠٠٠٠٠٠ جنيهه . ولكن بعض الكتاب الانجليز وبينهم لورد

== ماتفعله الآن شركة الملاحة المصرية التي يرأسها سعادة المالى الكبير أمين يحيى باشا وشركة النقل التي يغذيها بنك مصر والتي ابتاعت أخيرا السفن الأربع بفضل همته وواضع أساس استقلال مصر الاقتصادى سعادة محمد طلعت حرب باشا الذى يصح أن يسمى « دينامو » مصر الاقتصادى .

وقد جعل امتياز هذه الشركة ٣٠ سنة وترفع بواخرها الراية المصرية وتحسم المنازعات بواسطة المحاكم التجارية المصرية ولها مستودعات ومحطات فى السويس ومصوع . على أن هذه الشركة ما لبثت أن تدهورت بسبب اختلال ادارتها فى أواخر عهد سعيد فتولت الحكومة تصفيتها فى عهد ساكن الجنان اسماعيل باشا .

ونظراً لكثرة حركة العمران فى السويس بعد ربطها بالقاهرة بالسكة الحديدية وانشاء الشركة الجديدة قرر سعيد إصلاح مرفأها فعهد بذلك إلى شركة « ديسو » الفرنسية التي انشأت حوضاً عاماً لإصلاح السفن ووسعت الميناء وهى اصلاحات لم تتم إلا فى عهد اسماعيل باشا .

اشتراك مصر فى الحروب الأجنبية

حرب القرم

مر بك أن تركيا لجأت إلى القوات المصرية فى عهد عباس الأول لمساعدة الحلفاء (تركيا وفرنسا وانجلترا) فى حرب القرم وأن العمارة البحرية سافرت بقيادة حسن باشا الاسكندراني بينما سافرت التجريدة العسكرية بقيادة سليم باشا فتحى . وقد انتقل عباس إلى جوار ربه والحرب المذكورة ما تزال مستعرة . وقد أبلى المصريون فيها أحسن بلاء . فلما استشهد سليم باشا فقدت مصر بفقده قائداً مغواراً وشعرت — على ما ذكره المسيو « فانترينييه » فى كتابه المسمى « سليمان باشا » « بالألم الشديد لوفاة إذ فقدت فيه قائداً فذاً فى الكفاءة الحربية ورجلاً نزيهاً محباً للخير ا كتسب بشجاعته إعجاب رؤسائه ومحبة زملائه » . وقد ولى سعيد بعده فى القيادة احمد باشا المنكلى وأركان حربه الاميرالاي على بك مبارك (باشا) وكان وقتئذ ناظراً للهندسخانة .

كرومر يقدرونها بثلاثة ملايين جنيه فقط ولكنهم يتناسون على ما يظهر مقدار الدين السائر .

ولما كان معظم هذه الديون إنما عقد للانفاق على القناة لم يكن في فداحة هذه المبالغ الطائلة ما يمكن وقتئذ أن يخشى منه على مستقبل الأمة المصرية

== وليس يفوتنا في هذا المقام أن نسجل بعض ما كتبه مؤرخو الأفرنج عن كفاءة الجنود المصرية في حرب القرم - وكانوا يسمون بالعرب - تشبيهاً لهم بشجاعة العرب واقدامهم وذكائهم وحسن نظامهم « قال المسيو ريو في كتابه مصر الحديثة ص ٤٢ : « إن كفاءة الفلاح المصرى في فهم النظام الحربى واتباعه إياه وما اشتهر به من الثبات والشجاعة في مواجهة الأعداء كل هذه المزايا قامت عليها البيئات لافى ميادين القتال بجزيرة العرب وسوريا في عهد محمد على فحسب بل بحسن دفاع الجيش المصرى عن سلستريا وايباتوريا في حرب القرم الأخيرة » .

أما العمارة البحرية فقد حدث أنها عادت الى الاستانة لاصلاح بعض سفنها ولكن الريح عاكستها عندمدخل البوسفور حيث كان الضباب مخيماً فارتطمت السفينة «مفتاح جهاد» بالسفينة « البحيرة » وانكسرتا وغرق من فيهما من جنود وضباط وكان عددهم ١٩٢٠ لم ينج منهم الا ١٣٠ وكان لسوء الحظ بين الغرقى حسن باشا الاسكندرانى والاميرال سنان بك .

ووضعت حرب القرم أوزارها في سنة ١٨٥٦ وانتهت بهزيمة روسيا .

حرب المكسيك

ربما استغرب القارىء اشتراك مصر في حرب المكسيك التى لاتربطها بها رابطة ما ولكن هكذا شاء سعيد نزولا على ارادة صديقه نابليون الثالث امبراطور فرنسا عندما طلب معونة القوات المصرية للجيش الفرنسى بالمكسيك .

وقد تسأل عن سر ذهاب الفرنسيين الى المكسيك فنجيبك بأن نابليون الثالث انتهن فرصة نشوب الفتن فى تلك الجمهورية الثائرة ومحاولة بعض الأهل إلى إسقاط رئيسها جوارز (١٨٦١) فانضم إلى جانب الثائرين وكان يقصد بذلك بسط نفوذ فرنسا على البلاد فيما بعد . ثم تذرع بما لحق بعض الأوربيين من الأذى والخسائر فى خلال الفتن وشرع يطالب الحكومة المكسيكية بتعويض عن هذه الخسائر . ولكنها رفضت فألب عليها انجلترا واسبانيا ولكنهما سرعان ما انفضتا يدهما من هذه المشكلة المعقدة وانفردت



بعض ضباط الأورطة المصرية في المكسيك
وقد جلس شارل جلياردو بك وإلى يمينه صالح بك حجازي ووقف خلف جلياردو
بك اليوزباشي إدريس نعيم وفي الوسط الصاغ فرج وني افندي وإلى يمينه البكباشي
عبد الله سالم افندي

== نابليون بالأمر فأرسل إلى المكسيك جيشاً دارت عليه الدوائر وهذا ما جعله يستنجد
بصديقه سعيد فبادر بامداده بكتيبة من الجنود السودانيين قوامها ١٢٠٠ مقاتل بقيادة
البكباشي جبرة الله محمد السوداني والساغ محمد افندي الماس واليوزباشي إدريس نعيم ==

من الوجهة المالية . أما من الوجهة السياسية فربما كان يكون خيراً لمصر لو أن سعيداً أنفق تلك الأموال كلها في زخرفة حجر الاستقبال . لأن امتياز قناة السويس قد ترتب عليه أن مصالح بريطانيا في مصر بعد أن كانت مجرد إحساس معنوي غامض بما يحتمل أن يكون لمصر من

والصاغ فرج وني أفندي والبكباشي عبد الله سالم أفندي . وقد رافق هذه الأورطة شارل جلياردو بك صاحب متحف بونايرت وسكرتير الجمعية الجغرافية وصالح بك حجازي وترى صورتهم في الصفحة السابقة .

وفي سنة ١٨٦٢ أبحرت هذه الأورطة إلى المكسيك وأبليت في الحرب خير بلاء حتى وصفها المارشال فوري قائد الجيوش الفرنسية بالشجاعة إذ قال عن جنودها كما رواه اسماعيل سرهنك باشا في الجزء الثاني من كتابه ص ٢٧٦ « إن هؤلاء ليسوا من الجنود بل هم أسود ! »

وانتصر الفرنسيون في بداية الأمر ولوا الارشيدوق مكسيميليان النمساوي امبراطورا على المكسيك (١٨٦٤) ولكن كانت الغلبة في النهاية للثوار فجلا الفرنسيون والمصريون عن البلاد وقتل الامبراطور مكسيميليان بالرصاص (١٨٦٧) بعد أن قاتلت الجنود المصرية في تلك البلاد النائية أكثر من أربع سنوات قتل في خلالها البكباشي جبرة الله وخلفه الماس أفندي . ولما عادت الأورطة المذكورة إلى فرنسا (بعد ان لم يبق منها إلا ٣٠٠) استعرضها نابليون الثالث بصحبة القائد المصري شاهين باشا وأعجبا بنظامها وهنا الامبراطور الماس أفندي على شجاعة الأورطة ووزع الأوسمة على الممتازين من رجالها . ولما عادت إلى الاسكندرية في مايو سنة ١٨٦٧ استعرضها ساكن الجنان اسماعيل باشا في قصر رأس التين وأمر بترقية طائفة منها وأقام لها لطيف باشا وزير البحرية مأدبة شائقة تكريماً لها .

السودان في عهد سعيد

لا يسع من يكتب عن تاريخ مصر في عهد سعيد باشا أن يمر بالسودان دون أن يقف عنده ليقول كلمة موجزة . فلقد رأيت كيف أهمل عباس ذلك الاقليم المتمم لمصر وكان كل ما عمله من ضروب الاصلاح إنشاء مدرسة ابتدائية في الخرطوم . ولكن سعيداً سار على غير هذا النحو وكأنه اتخذ من أعمال أبيه الكبير نبراساً يهتدى به في حكم السودان وطريقة إدارته .

الأهمية في نظر سياسة الامبراطورية البريطانية ، قد تحولت إلى اعتبارات مادية جداً لها ارتباط بالمسائل العسكرية والتجارية مما يؤثر أكبر تأثير في قوة بريطانيا البحرية وسيادة إنجلترا في الهند . ثم أن بريطانيا كانت إلى هذه اللحظة قانعة بمنع الفرنسيين من أن تكون لهم السيطرة على القاهرة كما منعت

فكانت با كورة أعماله فيه أن ولي على باشا شركس حكمدارية السودان وبعث أخاه الأمير عبد الحلیم للتفتيش على إدارته واصلاح شؤونه ولكن الأمير لم يلبث طويلا بل اضطره ظهور الأوبئة إلى العودة الى مصر .

ثم استقر رأى سعيد على زيارة السودان بنفسه فسافر في رهط من خاصة رجاله ومعهم المسيو دالسبس فوصل الخرطوم في ١٦ يناير سنة ١٨٥٧ فهرع الأهليون لاستقباله ورفعوا إليه شكاواهم من فداحة الضرائب ومظالم الحكام . فأصغى إلى أقوالهم وعطف عليهم . وقد فكر يوماً ما في إخلاء السودان وتركه لأهله لولا توسل أعيان ذلك القطر به وإلحاحهم عليه بالعدول عن رأيه حتى لا تندهور حالة السودان وتسود فيه الفوضى .

فلما عدل عن فكرة إخلاء السودان قرر إصلاحه فبدأ باعفاء الأهلين من المتأخر عليهم من الأموال وخفض الضرائب تخفيضاً عظيماً وجعل نسبة ما يدفع من الأموال بنسبة عدد السواقي في الأطنان إذ هي ميزان خصوبة الأرض وفرض ضريبة على الأطنان التي تروى من ساقية واحدة ٢٠٠ قرشا أما ما يروى بلا سواقي فجعل ضريبة الفدان الواحد ٢٠ - ٢٥ قرشا .

وعزل الحكام الأتراك لظلمهم . ولكيما يعود الأهالي على حكم أنفسهم أنشأ لهم مجالس محلية من أعضاء يختارون من رؤساء العشائر وكبار العائلات على ما ذكره المسيو دي لسبس في كتابه « ذكريات أربعين سنة » وقد أطلق سراح كثير من المعتقلين . وأصدر أمره بالغاء السخرة وحتم على مديري الأقاليم حسن معاملة الأهالي وتجنب ارهاقهم في جباية الضرائب ومنع استخدام الجنود في تحصيلها بسبب قسوتهم .

ونظم البريد في أنحاء السودان وأنشأ في صحراء كروسكو محطات لتسهيل نقل البريد والمسافرين بين مصر والسودان ومنعاً لتجارة الرقيق ومطاردة النخاسين أنشأ نقطة عسكرية على نهر سوبا .

من قبل سيطرة الروس على الاستانة . ولكن مصلحتها الحيوية صارت من الآن فصاعداً تتطلب انفرادها بالسيطرة على القاهرة دون سائر الدول الأخرى . على أن وقتاً غير قليل قد انقضى قبل أن تندمج هذه النظرية

== ثم ألغى منصب (حكمدار السودان) وقسم ذلك القطر إلى خمس مديريات مستقلة في إدارتها بعضها عن بعض مع رجوع كل منها في شؤونها إلى وزارة الداخلية في مصر شأن مديريات القطر المصري . ولكنه رجع رحمه الله إلى إعادة ذلك المنصب بعد أن رأى من مديري الأقاليم بسبب استقلالهم جنوحاً إلى الظلم وميلاً إلى ارهاق الأهاليين . وما يؤخذ على سعيد في هذا المقام تعصيده للرحلات والاكتشافات الجغرافية التي كان يقوم بها المكتشفون الأجانب في أنحاء السودان بدلاً من إيفاد بعثات مصرية كما كان يفعل أبوه من قبل .

وقد سافر سعيد في كتيبة من جنده إلى الحجاز في يناير سنة ١٨٦١ وزار المدينة المنورة في غير موسم الحج واستغرقت الزيارة شهرين والمقول أنها كانت تمحلاً لآذار في رفض اجابة دعوة الحكومة التركية بالذهاب إلى الاستانة .

تدهور الحياة العلمية

من الغريب أن سعيداً لم يعمد إلى النهوض بالتعليم بل ترك مستواه يتدهور . نعم إن عباس هو البادىء « بالنكسة » في التعليم ولكن المرء ليحار حقاً في قعود سعيد عن رفع مستواه . وبحسبك أن الفرنسيين وهم أشد الناس إعجاباً بسعيد لم يجدوا ما يبررون به ذلك الجمود . انظر ما كتبه المسيو مريو في كتابه « مصر الحديثة » ، إذ قال :

« لا يخفى أن المدارس قد أهملها عباس فأصابها الاضمحلال والتدهور وبلغت حين تولى سعيد الحكم درجة من التقهقر والفوضى جعلت الباشا يرى من الحكمة اقفالها نهائياً بدلاً من السعى في تنظيمها إذ كان هذا السعى عبثاً لا يجدى !! » وهو دفاع خير منه الاتهام إذ أين هذا مما فعله محمد على الكبير الذي أنشأ من العدم وجوداً وخلق من الجمود حركة ؟ فهل اكتفى بما ورثه عن المالك أم أنشأ البلاد نشأة أخرى ؟

وقد مر بك أن عباس أغلق محجة الاقتصاد في النفقات كثيراً من المدارس التي كانت في عهد أبيه ثم جاء سعيد فأجهز على البقية الباقية فألغى ديوان المدارس (وزارة المعارف) وكان يديره وقتئذ عبدى شكرى باشا المنشورة صورته في ص ١٠٠

وفي سنة ١٨٥٤ ألغى مدرسة المهندسخانة وكان ناظرها على بك مبارك (باشا) ==

بسياستنا حيال مصر وتطبعها بطابعها . وبينما لا يوجد دليل على وجود خطة موضوعة لمضاعفة متاعب مصر المالية أو استغلالها لتحقيق السيطرة على القناة فإن الأدلة عديدة على أن الوزارات البريطانية من الحزبين

وأنفذه سعيد ضمن الحملة التي أرسلت في حرب القرم . ثم اغتتم فرصة غيابه وألغى المدرسة كما ألغى مدرسة المفروزة (١٨٥٥)
وعهد إلى رفاة بك بنظارة المدرسة الحربية التي أنشأها بالقلعة وسماها مدرسة أركان حرب .

على أن سعيدا ما لبث أن عاد في سنة ١٨٥٨ إلى فتح مدرسة المهندسخانة وجعلها مدرسة حربية ونقلها إلى القلعة السعيدية بالقناطر الخيرية وسميت المدرسة الحربية كما أعاد فتح المدرسة البحرية بالأسكندرية .

وفي عهده أقيمت مدرسة الطب بقصر العيني ثم أعيد فتحها في سنة ١٨٥٦ وأنشأ بها مدرسة للقبالات . أما حركة البعثات العلمية فقد خمدت ولم يرسل إلى أوروبا في عهده سوى ١٤ طالبا . ومن أقوى الأدلة وأغربها على ميل سعيد إلى الأجانب أنه بينما كان متراحيا في النهوض بالتعليم إلى الحد الذي رأته كان لا يرضى على البعثات الأجنبية الدينية بمساعداته كي تفتح مدارسها . لهذا منح إعانات سنوية لراهبات البون باستور (الراعي الصالح) وكانت لهن مدرستان بمصر والاسكندرية ولراهبات الصدقة بالاسكندرية ووهب للبعثة الاميريكية بناء بمصر لتتخذ مدرسة لها وأعطى أول مدرسة إيطالية أنشأتها الحكومة الإيطالية بالاسكندرية اعانة قدرها ٢٤٠٠٠ جنيه ووهب لها قطعة أرض في أجود جهات الاسكندرية لتنشئ المدرسة . وهكذا كانت عنايته بنشر التعليم الأجنبي أكبر من عنايته بنشر التعليم الأهلي وذلك من أغرب المتناقضات !

نظام الحكم في عهد عباس وسعيد

وإلى جانب هذه المعلومات النافعة التي اقتبسناها من كتاب « عصر اسماعيل » للاستاذ المحقق عبد الرحمن الرافعي بك نقتبس ملخص ما كتبه حضرته أيضا عن نظام الحكم في عهد عباس وسعيد وهو في نظرنا من خير ما كتب في هذا الصدد .
فقد ظل حكما مطلقا يتولاه ولى الأمر وفي يده كافة السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية . وقد أهمل مجلس المشورة الذي ألف في عهد محمد علي وانعقد في أيامه حيناً واعتبر نواة لنظام الشورى .

السياسيين البريطانيين كانت وقتذاك غير مبالاة لتحمل أية مسؤولية في مصر. وإليك دليلا على ذلك رفض الحكومة الانجليزية الأصغاء إلى ما عرضه قيصر روسيا من جعل مصر وكريد شن نصيب إنجلترا إبان المحادثات

== أما المجلس الخصوصي الذي كان قد أنشأه محمد علي في سنة ١٨٤٧ وجعل اختصاصه النظر في شؤون الحكومة الكبرى وسن اللوائح والقوانين وإصدار التعليمات لجميع مصالح الحكومة وكان يرأسه إبراهيم باشا ، هذا المجلس قد أعاد عباس الأول تأليفه بمقتضى لائحة بتاريخ ٨ ربيع الآخر سنة ١٢٦٥ (١٨٤٩) وتولى الكتخدا باشا رأسه باعتباره أكبر موظف بالحكومة. أما أعضاؤه فكبار الذوات والعلماء واختص بنظر المسائل العامة للحكومة وسن اللوائح والقوانين وتنصيب رؤساء المصالح الكبرى . وبالجملة كان هذا المجلس بمثابة مجلس النظار وتولى السلطة التشريعية وشاركه فيها مجلس الأحكام وهو المجلس الذي ظل قائما إلى أن خلفه مجلس النظار في عهد اسماعيل باشا

الوزارات

في سنة ١٨٥٧ أعاد سعيد تنظيم الدواوين فجعل منها أربع وزارات الداخلية وقد عهد بها إلى الأمير أحمد رفعت والمالية وقد عهد بها إلى الأمير مصطفى فاضل والحرية وقد تولاها الأمير محمد عبد الحلیم والخارجية وقد تقلدها اسطفان بك أحد خريجي البعثات في عهد محمد علي .

النظام القضائي

مجلس الأحكام

كان يوجد في البلاد منذ عهد محمد علي هيئة قضائية عليا تدعى « جمعية الحقانية » أنشئت سنة ١٨٤٢ ولكن أطلق عليها فيما بعد سنة ١٨٤٩ اسم « مجلس الأحكام » وهو الذي كان له شأن كبير في عهد سعيد واسماعيل لأنه كان بمثابة الهيئة الاستئنافية العليا في البلاد وأعضاؤه تسعة من الكبراء واثنان من العلماء أحدهما حنفي والآخر شافعي وكان أيضا يشارك المجلس الخصوصي في السلطة التشريعية .

مجالس الأقاليم

ظلت المحاكم الشرعية على ما كانت عليه في عهد محمد علي وظل لها اختصاصها في المسائل المتعلقة بالأحوال الشخصية وانتقال الملكية ولكن أنشئت محاكم أو مجالس جديدة للفصل في المسائل المدنية والتجارية سميت « مجالس الأقاليم » بلغ عددها خمسة ==

الشهيرة التي دارت مع سيمور (٢١ فبراير سنة ١٨٥٣) لتقسيم أملاك « الرجل المريض ». بيد أن هذا الاحساس من ناحية الجمهور وكان يعتبر المستعمرات عبءا ينبغي التخلص منه ويعد التسليح عملا شيطانياً لم يلبث طويلاً وحسبك أن دزرائيلي الذي كان يشتم سلفاً رائحة الجهة التي ينوى

في بداية تأسيسها وهي (مجلس طنطا) للنظر في قضايا الغربية والمنوفية والبحيرة و (مجلس سمود) خاص بالدقهلية والشرقية والقليوبية (و مجلس الفشن) وينظر في قضايا الجيزة والمنيا وبنى مزار وبنى سويف والفيوم و (مجلس جرجا) وينظر في قضايا أسيوط واسنا وقنا و (مجلس الخرطوم) وينظر في قضايا السودان .

وكان المجلس الخصوصي ومجلس الأحكام يصدران اللوائح والقوانين لمجالس الأقاليم وقد تمكن سعيد من أن ينال من السلطان حق اختيار القضاة بعد أن كان قاضي القضاة المولى من قبل السلطان هو الذي يعينهم وهذا اصلاح سد الباب في وجه كثير من أعمال الفساد وانشار الرشوة .

ونظراً لتردد سعيد وعدم استقرار رأيه على وتيرة واحدة ألغى مجلس الأحكام في سنة ١٨٥٥ وبعد أن حول القضايا المنظورة أمامه إلى الأمير اسماعيل باشا (الخديو) عاد في السنة التالية وأمر بتأليف المجلس المذكور من جديد برئاسة الأمير اسماعيل باشا. ثم انقضت فترة ورجع سعيد إلى غضبه على المجلس فأغاه مرة أخرى في سنة ١٨٦٠ كما ألغى مجالس الأقاليم . وفي سنة ١٨٦١ أعاد مجلس الأحكام من جديد برئاسة محمد شريف باشا ناظر الخارجية وقتئذ كما أعاد مجالس الأقاليم مع الاكتفاء بمجلس طنطا لنظر قضايا الوجه البحري ومجلس أسيوط لقضايا الوجه القبلي .

وكان القانون العثماني وما أصدره سعيد من القوانين هو المحور الذي تدور عليه الاعمال أمام مجلس الأحكام ومجالس الأقاليم .

وكان مجلسا طنطا وأسيوط مختصين بالحكم ابتدائياً في المخاصمات فاذا استؤنفت فيكون ذلك أمام مجلس الأحكام .

هذا كله فيما يختص بحالة القضاء الأهلي. أما من حيث القضاء الأجنبي فقد ظل العمل جارياً في القاهرة والاسكندرية إلى عهد اسماعيل باشا بنظام « مجالس التجار » أو محاكم التجارة التي أنشأها محمد علي بينما كانت المحافظات والضبطيات تنظر في المشاكل الخاصة بالاجانب. ثم أنشئ في سنة ١٨٦١ « قومسيون مصر » أو مجلس القومسيون للفصل في

الهر ان يقفز اليها قد سبق إلى ايجاد عصر جديد في تاريخ بناء الامبراطورية .
ومنذ ذلك الحين صارت مصر لا غنى عنها لتكملة بناء هيكل امبراطورية
عهد الملكة فيكتوريا .

وليس من ريب في أن القناة كان لامناس من انشائها إما عاجلا أو

مشاكل الأجانب لازدياد عددهم . وكان القومسيون هيئة مختلطة رئيسها مصرى وفيها
عضوان مصريان عدا عضو أوروبى وآخر يونانى وآخر اسرائيلى وآخر أرمنى . وكان هذا
القومسيون ينظر في قضايا الأجانب المرفوعة على الرعايا المصريين وللقناصل أن يرسلوا
مندوبا من قبلهم لحضور جلساته وتستأنف أحكامه أمام مجلس الأحكام . ولم يكن من
اختصاص القومسيون النظر في المسائل المتعلقة بالعقار لأنها كانت من اختصاص المحاكم
الشرعية وحدها باعتبارها المحاكم العادية في البلاد .

قناة السويس

ولما كنا قد أخذنا على عاتقنا سد الثغرات في كتاب المستر يانج وذكر ما يهم القراء
ذكره فنحسب أن الواجب حيال التاريخ يقضى بأن نقف هنيهة لنقول كلمة في موضوع
قناة السويس وهى أكبر غلظة ارتكبها سعيد بل هى أكبر نكبة نكبت بها مصر
وما تزال تعاني من جرائها ما تعانيه . ولا بد من التويه من جديد بما كتبه الأستاذ
الرافعى بك في هذا الصدد .

فليس شك في أن تلك القناة ما كانت لتحفر لولم تكن ميول سعيد نحو الأوربيين
عامة والفرنسيين خاصة كما رأينا . بل إن مصر ربما كانت احتفظت باستقلالها لو أن
الذى تقدم إلى سعيد بطلب الامتياز بحفر القناة شخص آخر عدا فرديناند دلسيس
أو لو كان رجلا غير ماهر في ركوب الجياد الصافيات !! وإذا كان الأقدمون قد قالوا
إن معظم النار من مستصغر الشرر فلسنا نعدو الحقيقة إذا قلنا إن مصير مصر لعشرات
السنين أصبح مرتبطا بقفزة ماهرة قفزها فرديناند دلسيس بجواده !!

موجز تاريخ المشروع

فلقد رأيت فيما كتبه المستر جورج يانج نفسه وفيما سردناه عليك في هذا الهامش
حرص محمد على الكبير على اقضاء النفوذ الأجنبي عن مصر . ولم تكن مذبحه الممالك
وزج جنوده الألبانيين في المواقع النائبة ، بل إن حروبه ضد الانجليز وضد تركيا نفسها
كل ذلك كان باعته الرغبة في منع النفوذ الأجنبي من التسرب إلى مصر . وقد بلغ من

أجلا . ولكن كان في الاستطاعة باقتفاء أثر سياسة محمد علي تاجيل الشروع فيها ريثما تستقر حالة مصر كدولة بحيث تصبح ولا خطر على استقلالها مما يقتضيه المشروع من ديون مالية وأعباء خارجية . ولم تكن إنجلترا

== شدة حرصه على ذلك أن الإخصائيين والخبراء الذين كان يأتي بهم من فرنسا وإنجلترا وغيرهما كان يتحتم عليهم عند دخولهم في سلك الخدمة المصرية أن يلبسوا الزي المصري والعمامة على ما كان شائعا في عهد عزيز مصر . ثم إنه كثيرا ما رفض منح إنجلترا أي امتياز لخوفه، على حد تعبير المستر يانج، من أنه إذا منحها شبرا أن تطمع في متر وهكذا دواليك حتى تستولي على البلاد بأسرها . وعلى هذه السنة الصالحة سار ابراهيم باشا في الفترة الوجيزة التي قضاها في الحكم .

ومهما قيل عن مساوية عهد عباس الأول فليس شك في أنه سار على سنة جده وعمه في عدم التمكين للأجانب بل وعدم التفكير في منح أي امتياز لأية شركة أجنبية .

أما سعيد الذي كان لا شك يعلم أن أباه العظيم برغم ميوله الشديدة إلى الفرنسيين لم يمنحهم امتيازاً كهذا الامتياز بل كان معارضا فيه ، قد كان أولى به أن يكون أبعد عن التورط فيما تورط فيه . فما فعله كان إذن مخالفة صريحة لوصايا أبيه الذي يعتبر القناة بمثابة بوسفور ثان يجعل مصر واستقلالها عرضة للاخطار .

وليس فكرة حفر القناة حديثة بل هي ترجع إلى عهد الفراعنة . وإنما تم الاتصال بين البحرين الأبيض والأحمر بواسطة النيل حيث كانت تتفرع منه ترعة الفراعنة القديمة وتسير بمحاذاة وادي الطميلات ثم تتثنى إلى الجنوب مخترقة البحيرات المرة حتى تصب في البحر الأحمر .

وجاء الفتح الاسلامي فأنشأ عمرو بن العاص ، الخليفة ، المعروف بخليج أمير المؤمنين بأمر عمر بن الخطاب (ر) في سنة ٢٣ هجرية ليصل النيل بالبحر الأحمر فيبدأ من مصر القديمة إلى القاهرة ومنها إلى المطرية فالعباسة ثم يتبع آثار ترعة الفراعنة القديمة . وفي إبان الحملة الفرنسية فكر نابليون في المشروع وعهد بدراسته للمهندس الكبير لويير فقضى نحو عامين في البحث والدرس ووضع تقريرا عن المشروع يقضى بحفر قناة من السويس إلى البحيرات المرة على أن يعاد حفر خليج أمير المؤمنين إلى أن يتلاقى ببحر مويس بقرب الزقازيق ومن هناك يتصل بفرع دمياط ومنه إلى ترعة الفرعونية ==

وقتذاك ميالة إلى فكرة انشاء القناة لأنها كانت لأسباب عسكرية تفضل طريق رأس الرجا الصالح وإن كانت أبطأ من الطريق الأخرى . ثم إن

ومنها إلى فرع رشيد ومنه إلى الاسكندرية بواسطة ترعة الاسكندرية . ولقد جذب ذلك المهندس في الوقت نفسه فكرة وصل البحر الأبيض بالبحر الأحمر رأساً ولكنه أخطأ التقدير إذ حسب أن منسوب المياه في البحر الأحمر أعلى بنحو تسعة أمتار عن منسوب المياه في البحر الأبيض .

دلسبس في مصر

وفي سنة ١٨٠٣ عين المسيو ماتيو دلسبس والد فرديناند دلسبس قنصلاً لفرنسا في مصر . وسرعان ما اتصلت بينه وبين محمد علي أوشاج الصداقة . ومرت الأعوام وغادر ماتيو هذا العالم وعين ابنه فرديناند في سنة ١٨٣١ مساعداً للقنصل الفرنسي في مصر في عهد محمد علي . وسرعان ما شمله عزيز مصر بالعناية نظراً للصداقة القديمة وعهد إليه بتربية ولده سعيد تربية رياضية . فشرع يمرنه على الفروسية وركوب الخيل وغير ذلك من أنواع الرياضة إلى أن استحكمت بينهما الصلات الودية وأصبحا لا يفترق أحدهما عن الآخر .

وحدث أن فرديناند عثر وهو في الاسكندرية على تقرير المسيو لويير وأكب على دراسته ومنذ ذلك الحين تشبعت نفسه بفكرة تحقيق المشروع . ثم نقلته دولته من القطر المصري حيث قضى ردها طويلاً من الزمن متقلباً بين مختلف المناصب .

وفي سنة ١٨٤٦ جاءت إلى مصر لجنة دولية لدرس المشروع في أواخر عهد محمد علي ورأت أن عقبة الفرق بين منسوب المياه في البحرين يمكن التغلب عليها بشق ترعة تجتاز الدلتا ولكن محمداً علياً كان يعد المهندسين والماليين الأوربيين ويمنهم ويضمهم في الوقت نفسه عدم الموافقة على تنفيذ المشروع وهكذا إلى أن انتهى عهده وخلفه ابراهيم ثم عباس . وفي إبان عهد ثانيهما عاد المسيو فرديناند دلسبس إلى الاهتمام بالمشروع وحاول التأثير في عباس وإقناعه بصلاحيته ولكن عباس كما رأينا من أخلاقه كان كثير الشذوذ لا يثق بالأجانب فأعرض عن الفكرة واكتفى باصلاح الطريق بين القاهرة والسويس . وما كاد سعيد يتبوأ الأريكة حتى طارت نفس فرديناند فرحاً وشعر بأن الأئمنية التي كانت تجول في صدره منذ ثلاثة وعشرين عاماً توشك أن تتحقق . فأبرق إلى صديقه القديم يهنئه بارتقاء العرش ويخبره بأنه اعترم الحضور إلى مصر لتهنئته شخصياً . فرد =

الطريق البرى كان فى نظرها كافياً لسد حاجتها إلى مصلحة بريد سريعة إلى الشرق. أما فرانسافان المشروع كان يهملها من الناحية العلمية والأدبية . إذن فغرور الأسرة الحاكمة وما تكدرت تحت أيديها من موارد أنتجت أعمال السخرة فى مصر فى خلال السنوات الأخيرة وما رأتها من السهولة فى عقد القروض الأجنبية إبان الأعوام الماضية كل ذلك ساعد على إنجاز المشروع فى أنحس وقت بالنسبة لمصلحة الأجيال المصرية المقبلة .

== عليه سعيدشا كرا له تهنئته واستدعاه إلى مصر فلبى الدعوة وحضر إلى الاسكندرية فى نوفمبر سنة ١٨٥٤ فبالغ الأمير فى الحفاوة بصديقه القديم ودعاه إلى اصطحابه فى رحلة برية عظيمة كان يقوم بها من الاسكندرية إلى القاهرة عن طريق الصحراء الغربية على رأس جيش يبلغ ١٠٠٠٠ مقاتل .

وقد قلنا لك إن فرديناند كان ماهراً فى ركوب الخيل . وقد أهداه سعيد جوادا أصيلاً . وفى أثناء الرحلة وعلى مرأى من حاشية سعيد قفز فرديناند بجواده على أحد الحواجز الحجرية قفزة طار لها لب الجماعة وتمشت قلوبهم فى صدورهم من فرط الإعجاب وهزوا رؤوسهم علامة الإغتناب بأن يكون لمولاهم صديق ماهر كفرديناند . وكان ذو الفقار باشا وزير المالية وأعظم رجال الحاشية منزلة عند سعيد أشدهم إعجاباً بهذه المهارة .

منح الامتياز بسبب قفزة جواد !!

ويشاء حظ مصر العاثر أن يكون منح دلسبس امتياز حفر القناة فى هذه الرحلة المنحوسة وعلى أثر هذه القفزة المشؤومة .

فلقد ذكر فرديناند نفسه فى الصفحة الرابعة من الجزء الأول من كتابه المسمى « مراسلات ويوميات ووثائق عن قناة السويس » أنه انتهم فرصة وقوع الحاشية تحت تأثير الإعجاب بمهارته فى تلك القفزة وفتح سعيدا فى اليوم التالى فى أهمية المشروع وما قد يكسبه تحقيقه من حمد العالم له وثنائه عليه بسبب هذه الخدمة الكبيرة التى يسديها للإنسانية . ولطالما كان سعيد يصرح بأنه لن يخالف وصايا أبيه فى هذه المسألة ولن يوافق على حفر القناة . ولكن أنى له بعد ما رأيناه فى أخلاقه من الضعف والتردد أن يقاوم صديقه القديم أو أن يحزر نفسه من تأثير الإعجاب بمهارة قفزانه ووثباته ! ؟

وغير خاف أن ماللقناة من الأهمية العظمى في سير العلاقات الدولية كان ولا يزال يعتبر إحدى الصعوبتين الرئيسيتين اللتين تحولان دون حصول مصر على سيادتها التامة . أما الصعوبة الثانية فهي طبعاً ما للبريين من مصالح إمبراطورية في السودان . فالقناة إذن أهم عامل في سبيل

== فضعت عزيمة سعيد أمام نصائح فرديناند ووعدته بمنحه الامتياز . وليته حتى بعد إعطائه هذا الوعد تريت في الأمر واحتاط له واجتنب مواصلة البحث فيه ريثما يصل إلى القاهرة فيستدعي إليه كبار المهندسين ويكلفهم بدراسة المشروع دراسة فنية وأن يوازوا بين مزاياه ومضاره . كلا إن شيئاً من ذلك لم يحدث بل لقد استدعى سعيد إليه قواد جيشه وكانوا ما يزالون متأثرين إعجاباً بقفزة فرديناند ومهارته فما كاد أن يفاتحهم في رغبة فرديناند حتى سارعوا إلى استحسان المشروع دون التفات إلى مزاياه أو مضاره . ولا يذكر التاريخ شعباً نكب في استقلاله وأصبح طعمة للطامعين من ذئاب الاستعمار كما نكب الشعب المصري ، وتلك النكبة وما تلاها من المصائب التي ماتزال تعانيها مصر إلى اليوم هي بسبب قفزة ماهرة قام بها قنصل أجنبي !!

ونحسب أن فرديناند لم يكن يتوقع أن يستولى على قلب سعيد وحاشيته بهذه السرعة أو لعله لم يكن ينتظر في مشروع فني خطير كهذا أن يكتب سعيد باستشارة القواد ورجال الحرب والجلاد دون المهندسين ورجال الفن . ولذا رأيناه يكتب في هذا الصدد بلمحة التهمك اللاذع في كتابه « أصول قناة السويس ص ١٥ » يقول :

« جمع سعيد باشا قواد جنده وشاورهم في الأمر . ولما كانوا على استعداد لتقدير من يجيد ركوب الخيل ويقفز بجواده على الحواجز والخنادق أكثر من تقديرهم للرجل العالم المثقف (كذا كذا) ، انحازوا إلى جانبي ، ولما عرص عليهم الباشا تقريرى عن المشروع ، بادروا (كذا) إلى القول بأنه لا يصح أن يرفض طلب صديقه (كذا) وكانت النتيجة أن منحني الباشا ذلك الامتياز العظيم . »

وكأنما أراد فرديناند أن يسجل أمام التاريخ مسؤولية سعيد وحاشيته وكيف أنهم استخفوا بمصير بلادهم وبمستقبل الاجيال المقبلة إلى هذا الحد فسارعوا إلى البت في هذا المشروع الحيوى الذى لا يفقهون فيه شيئاً بلا رجوع إلى أهل الفن فقال في ص ٥٠ من كتابه الأخير ما نصه :



صورة فريدة للمغفور له سعيد باشا بالزي الشرقي

== « بعد أن قبل سعيد باشا المشروع استدعى قواد جنده ودعاهم إلى الجلوس أمامه وقص عليهم الحديث الذي دار بيننا وطلب إليهم أن يبدوا رأيهم في مشروع «صديقه» فلم يكن من هؤلاء المستشارين وقد فوجئوا بهذا الاقتراح وهم أقدر على إبداء الرأي في مناورات الخيل منهم في التكلم عن مشروع عظيم لا يستطيعون فهم مراميه ، إلا أن ينظروا إلى بملء أعينهم ، كأنما يريدون إفهامي أن صديق مولاهم الذي رأوه يقفز على الحائط راكباً جواده بتلك المهارة لا يمكن أن يدلى إلا بأراء صائبة . (كذا !!) وكانوا أثناء الحديث يرفعون أيديهم إلى رؤوسهم بين آونة وأخرى علامة على الموافقة » !
ولسنا نتجنى على أحد عند ما قلنا أن رجال الحاشية وسعيدا نفسه لم يعرفوا من هذا المشروع لا قليلا ولا كثيرا بل أقرود فقط لأنه مشروع «الصديق» فردينا ند صاحب ==

وضع مصر تحت الإدارة البريطانية مدة ربع قرن كامل . لذلك نرى من حق الانجليز أن يعلنوا على رؤوس الاشهاد أنهم لم يلزموا مصر بحفرها بل إن مهندسى نابليون كانوا أول من فكر فيها لولا خطأهم في تقدير منسوب المياه مما لم يصحح نهائياً إلا في سنة ١٨٤٧ فتدزعموا أن مياه البحر المتوسط أوطأ بثلاثين قدماً من مياه البحر الأحمر بدلاً من أن تكون في مستواها .

== القفزات الماهرة . وهذا ما قاله فرديناند نفسه عن سعيد في ص ٥٧ من كتابه الأخير إذ قال إن سعيداً قال له بعد أن منحه الامتياز « أعترف لك بأني لم أفكر طويلاً في الموضوع ، وإنما هي مسألة شعور وليس من عادتي أن أقلد الناس فيما يتبعون ويعملون ،

منح الامتياز

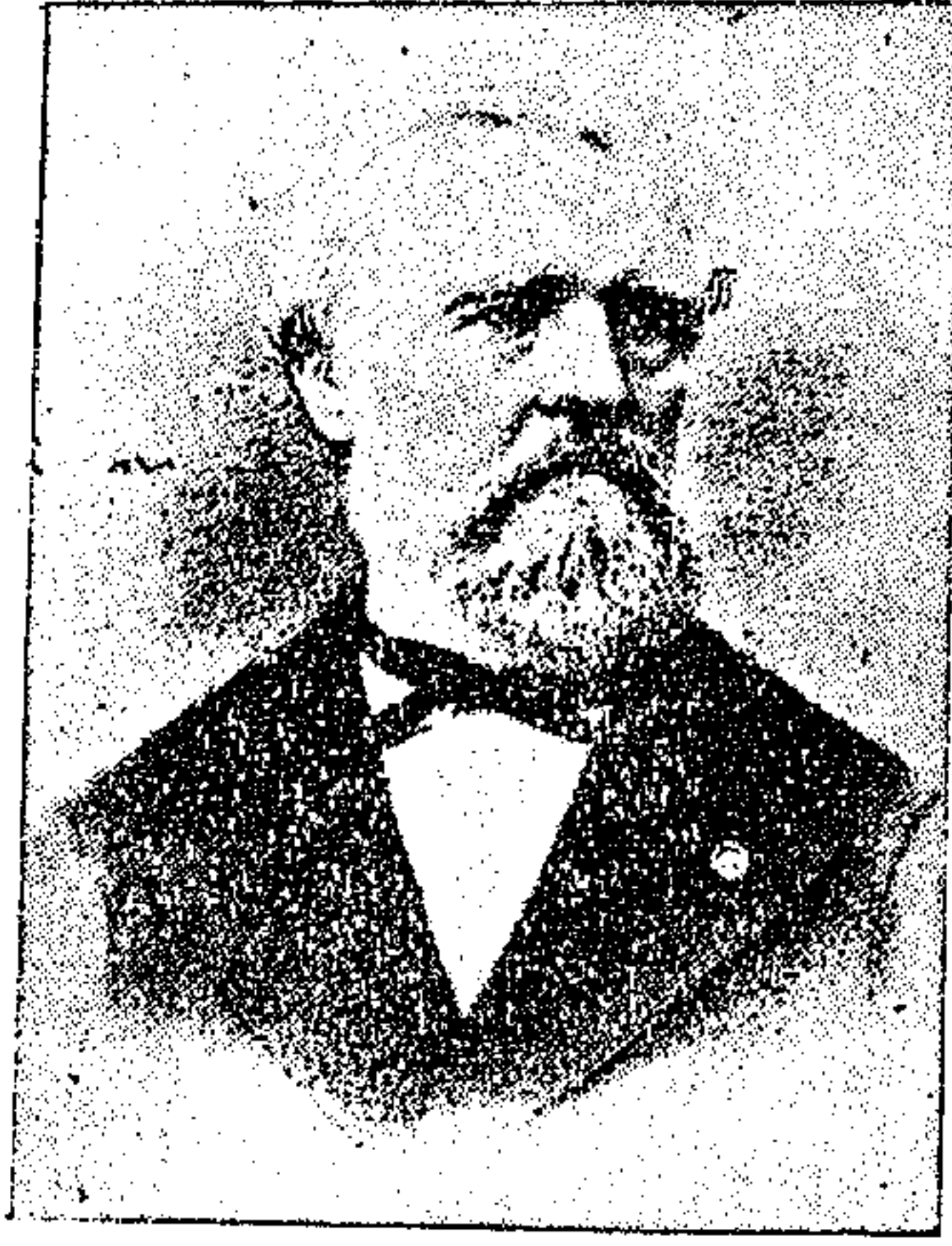
٣٠ نوفمبر سنة ١٨٥٤

ثم واصل سعيد رحلته إلى القاهرة مصحوباً بصديقه القديم فرديناند فلما بلغاها أنزله ضيفاً عنده وأحاطه بكافة مظاهر الاكرام والرعاية . وما هي إلا أيام حتى منحه بمقتضى العقد المؤرخ في ٣٠ نوفمبر سنة ١٨٥٤ امتياز تأسيس شركة عامة لحفر قناة السويس واستثمارها لمدة ٩٩ سنة ابتداء من تاريخ فتح القناة للملاحة .

وقد فتحت القناة فعلاً للملاحة في يوم ١٧ نوفمبر سنة ١٨٦٩ أى أن مدة الامتياز تنتهى في ١٦ نوفمبر سنة ١٩٦٨ فتصبح القناة بعد ذلك ملكاً لمصر .

ويعرف هذا العقد بعقد الامتياز الاول تمييزاً له عن عقد الاتفاق الثانى بتاريخ ٥ يناير سنة ١٨٥٦

ويظهر أن سعيداً أراد بعد كل هذا - وبعد أن سبق السيف العزل - أن يريح ضميره ولو من جهة الشكل فقط وأن يتحقق من إمكان تنفيذ المشروع . فأمر المهندسين الفرنسيين لينان دى بلفون وصورته منشورة في ص ٨٢ وموجيل بك المنشورة صورته في الصفحة التالية بمرافقة المسيو فرديناند إلى برزخ السويس لدرس المشروع وتطبيقه على طبيعة الأرض ورفع تقرير إليه . فقاما بالمهمة (طبعاً!) ووافقا وهما فرانسيان على وجهة نظر المسيو فرديناند بأن تنشأ القناة مستقيمة في أضيق نقطة في البرزخ بين موقع بيلوزه (بور سعيد الآن) على البحر المتوسط والسويس على البحر الأحمر .



فاستحالة حفر قناة تكون في
مستوى واحد مع البحر بسبب
هذه الغلظة الوهمية يضاف اليها
ممانعة محمد علي لأسباب عسكرية -
كل ذلك أدى الى ارجاء تنفيذ
المشروع . وفضلا عن ذلك لم تكن
عقبة مياه البحر الأحمر أقل من
عقبة البرزخ من حيث صعوبة الملاحة

المسيو موجيل مهندس حوض دارالصناعة
ومهندس القناطر الخيرية
فيه إلا إذا حل البخار محل الشراع في نقل الركاب وتم تطهير البحار

مساعي دلسيس المسالية

== وبدأ دلسيس مساعيه لتكوين الشركة وجمع من بعض الممالين حصص التأسيس
جاءت قيمة الحصة ٥٠٠٠ فرنك (٢٠٠ جنيه) وخصص قيمة نصف الحصص
لنفقات المشروع الأولية على أن تحول هذه القيمة إلى أسهم خاصة في الشركة عند
إتمام تأليفها .

وفي نوفمبر سنة ١٨٥٥ انتخب فرديناند باتفاقه مع سعيد لجنة دولية لدرس المشروع
ثانية وهو في نظرنا دليل على أن سعيدا بدأ يحس بفداحة مسؤوليته أمام التاريخ
ومخالفته لوصايا أبيه . فحضر أعضاء اللجنة إلى برزخ السويس وبعد الاطلاع على
تقرير لينان بك وموجيل بك وإجراء المباحث الهندسية وافقوا على المشروع بعد أن
ثبت لهم أن مستوى الماء في البحرين واحد وان الأرض صالحة لامتنياز القناة الملحقة .
وهكذا بدأ الناس يطمثون إلى نجاح المشروع وأقبلوا على الاكتتاب في أسهم الشركة
عند تأليفها .

شروط الامتياز

٥ يناير سنة ١٨٥٦

وما أن فرغت اللجنة الدولية من وضع تقريرها حتى رفعه دلسيس إلى سعيد باشا . ==

الضيقة من القرصان . وقد استغرقت نقالات بيرد في سنة ١٨٠١ ثلاثة أشهر كاملة لقطع الطريق من بومباي الى الاقصر بينما أن النجيدات كانت ترسل فيما بعد حول طريق الرأس .

== فأصدر له عقد الامتياز الثاني بتاريخ ٥ يناير سنة ١٨٥٦ وقد صدق فيه على الامتياز السابق منحه لدلسبس وضمنه شروط الامتياز المخولة للشركة وهي شروط من الفداحة بحيث لا يسع أية حكومة وطنية مسؤولة أن ترضى بها . وهاك نصها كما ورد في كتاب الأستاذ الرافي بك « عصر اسماعيل » وسوف تعتريك الدهشة لها !

أولاً - منحت الحكومة الشركة امتياز انشاء قناة السويس من خليج الطينة على البحر الأبيض المتوسط والسويس على البحر الأحمر ، وانشاء ترعة للمياه العذبة صالحة للملاحة النيلية تستقي من النيل وتصب في القناة الملحة ، وإنشاء فرعين للرى والشرب يستمدان مياههما من الترعة المذكورة ويصلان إلى السويس والطينة (بور سعيد) (مادة ١ من عقد الامتياز الأول) .

ثانياً - تنازلت الحكومة للشركة مجاناً عن جميع الأراضي المملوكة لها والمطلوبة لإنشاء القناة الملحة وترعة المياه العذبة وتوابعها . وهي مساحات شاسعة على طول القناة والترع المزمع إنشاؤها بعرض كيلو مترين من الجانبين (كما أورده المسيو دلسبس في الجزء الثاني من كتابه المسمى مراسلات ويوميات ودقائق عن القناة ص ٣٥٦) وقد تنازلت عنها الحكومة بلا مقابل مع اعفائها على الدوام من الضرائب ، وتنازلت أيضاً عن جميع الأراضي القابلة للزراعة لتستصلحها الشركة وترويه وتزرعها مع إعفاء هذه الأطيان من الضرائب مدة عشر سنوات من تاريخ استثمارها .

ثالثاً - خولت الشركة (عدا ما تقدم) حق انتزاع الأراضي المملوكة للأفراد مما ترى لزومها لاجراء الأعمال والانتفاع بالامتياز في مقابل أن تدفع الشركة لأصحابها تعويضات « عادلة » (مادة ١٢) ومعنى ذلك نزع ملكية الأفراد لمصلحة الشركة .

رابعاً - على أصحاب الأطيان الواقعة أملاكهم على ضفاف الترع التي تنشئها الشركة إن أرادوا رى أراضيهم بمياهها أن يحصلوا على ترخيص بذلك من الشركة في مقابل تعويض يؤدونه لها مادة (٨)

خامساً - منحت الحكومة الشركة طوال مدة الامتياز الحق في أن تستخرج من المناجم والمحاجر الأميرية كل المواد اللازمة لأعمال المباني وصيانتها وملحقات ==

وبعد أن عين المسيو دلسيس قنصلاً عاماً لفرنسا أخذ يهتم بالمشروع وكان قد أحكم عرى الصداقة مع سعيد وهو في باريس عند مانفاه عباس إليها . فبفضل لجاجته التي كانت تعتبر منافية للآداب لو أنها كانت خاصة بمسألة تافهة قد تمكن من حمل هذا العملاق الحسن النية على منحه امتيازاً

المشروع دون دفع أى رسم أو ضريبة أو تعويض (كذا) وتعفى الحكومة الشركة من الرسوم الجمركية والعوائد على جميع الآلات والمواد التي تستوردها من الخارج (مادة ١٣).

سادساً — صدر أجل الامتياز بمدة ٩٩ سنة من افتتاح القناة البحرية للملاحة وبعد انتهاء هذه المدة تؤول القناة إلى الحكومة المصرية (مادة ٣٦)

ولكن هذه المادة قيدت هذا الحق بشرط قد يؤدي إلى تعطيله أو يفتح باب المشا كل وهو وجوب أخذ الحكومة في هذه الحالة جميع المهمات والمعدات المخصصة لأعمال المشروع البحرية وأن تدفع للشركة قيمتها التي تقدر سواء بالتراضى أو بناء على تقدير الخبراء .

وأنت ترى أن ليس ثمت ما يحول دون مغالاة الشركة في أثمان هذه المعدات كي تبهظ عاتق الحكومة المصرية ابتغاء خلق العقبات التي تعترض حق مصر في استرداد القناة .

وهناك ما يضاعف الدهشة في هذا العقد المدهش . وهو أن المادة ١٦ من هذا الامتياز لم تذكر شيئاً عن المباني والمنشآت التابعة للقناة . وقد كانت المادة (١٠) في عقد الامتياز الأول نصت على أن حكمها كحكم القناة في رجوعها إلى الحكومة بلا مقابل . وهو دليل على أن العقد الثاني كان أكثر سخاء بالنسبة للشركة وأشد اجحافاً بالنسبة لمصر . ومن يدري فقد يكون سعيد عهد إلى « صديقه » دلسيس أن يكتب في العقد كما يشاء وأن يوقعه أمير البلاد دون التفات إلى ما ينطوى عليه من ضروب العنت والاجحاف ؟

سابعاً — خولت الشركة حق فرض ما تشاء من الرسوم على السفن التي تمر في القناة البحرية أو الترع والثغور التابعة لها على شرط أن لا تزيد في النهاية العظمى عن عشرة فرنكات عن كل طن وعن كل شخص من المسافرين (مادة ١٧)

بحفر القناة. ولو أن هذا حدث في وقت عصيب آخر لحرص بالمرستون
جهد طاقته على أن يبقى الامتياز حياً على ورق . ولكن قنصلنا الجنرال
عند ما سأله سعيد هل تؤيده إنجلترا في رفض الاقتراح الفرنسي كان
جوابه بالنفي لأن فرنسا كانت قد انضمت إلينا وقتئذ في حرب القرم

== ثامناً - في مقابل الأراضي والامتيازات الممنوحة للشركة تحصل الحكومة
المصرية على حصة قدرها ١٥٪ من صافي الأرباح السنوية (مادة ١٨)
ويشاء الجد العاشر أن تخسر مصر حتى هذه الحصة الضئيلة في سنة ١٨٧٩ بسبب
ارتباك الأحوال المالية . إذ باعتها الحكومة المصرية للبنك العقاري بفرنسا مقابل ٢٢
مليون فرنك .

تاسعاً - يكون أربعة أخماس العمال من المصريين (مادة ٢) وتعهدت الحكومة
ببذل مساعداتها للشركة وتكليف جميع موظفيها وعمالها في جميع دوائر المصالح أن
يمدوا الشركة بمساعداتهم لها (مادة ٢٢) وإن من نكد الطالع أن تفسر الشركة هذه
النصوص بأنها تعهدت من الحكومة بتسخير (كذا) أربعة أخماس العدد الذي تطلبه
الشركة من العمال وإن يكونوا من الفعلة والفلاحين المصريين لاجراء أعمال الحفر
والانشاء ووضعهم تحت تصرف الشركة لتشغيلهم فيما تريده من الأعمال مقابل
دفع أجورهم .

وأعجب العجب أن يخلو عقد الامتياز الثاني من مزية تضمنها العقد الأول . فقد
تضمنت المادة الثانية على ما يخول الحكومة حق تعيين مديري الشركة . ولكن هذه
المزية قد اختفى أثرها في عقد الامتياز الثاني الذي يقضى بإلغاء كافة النصوص الواردة
في عقد الامتياز الأول مما يخالف أحكام العقد الثاني . وقد اقتضت المادة (٢٠)
من العقد الثاني على هذا النص الأبر وهو « يرأس الشركة ويديرها صديقنا ووكيلنا
المسيو فرديناند دلسبس بصفته المؤسس لها طوال المدة التي تستغرقها الأعمال ، ثم لمدة
أخرى قدرها عشر سنوات تبتدىء من تاريخ استغلال الامتياز » أي أن مصر خسرت
في العقد الثاني حق تعيين مديري الشركة وحفظ لها فقط حق تعيين « مندوب » عنها
لدى الشركة لتمثيل حقوق الحكومة ومصالحها في تنفيذ العقد .

للحيلولة دون وصول الروس الى الاستانة ولم يكن في وسع المرستون أن يفعل أكثر من أن يؤجل موافقة الباب العالي رسمياً على الامتياز عامين كاملين . على أن سعيداً قد عوضنا عن هذا الامتياز بأن منحنا امتيازاً بمد خط حديدى بين الاسكندرية والقاهرة وهو ما كان يمانع فيه أبوه

== وأمر غريب آخر فى هذا العقد الثانى فقد أغفل ماورد فى (المادة ٤) من العقد الأول بخصوص الحصون التى قيل فيها إن الحكومة إذا رأت لزوماً لإنشائها فى منطقة القناة فلا تتكلف الشركة بنفقاتها . فلما أغفل ذكر هذا النص فسر إغفاله بان لاحق للحكومة فى إقامة الحصون فى هذه المنطقة !!

فهل رأيت شروطاً أفدح من هذه الشروط التى خولت الشركة حقوقاً واسعة جعلتها فى الواقع بمثابة حكومة داخل حكومة ؟ ولكن أنى لك أن تعجب إذا كان دلسيس هو الذى كتب ما شاء من الشروط فوقعها الأمير سعيد باشا كماهى دون بحث فيها لا لشيء إلا لأن الرجل صديق قديم ويحسن القفز من على ظهور الجياد الصافات ؟ !
انجلترا تقاوم مشروع القناة

وقد اشترط سعيد لصحة الامتياز أن يصادق عليه السلطان محافظة على الشكل فقط لأنه تعهد لصديقه دلسيس بمساعدته بصرف النظر عن هذا التصديق . لأن معاهدة لندن التى نالت بمقتضاها مصر استقلالها الداخلى لا تحتم الحصول على مثل ذلك التصديق . وهناك لقى مقاومة عنيفة من سفير بريطانيا بايعاز من لورد المرستون وزير الخارجية الانجليزية .

وأنت تدرك أن معارضة السياسة الانجليزية للمشروع كان أساسها الخوف على طريق الهند . ولذا دفعت تركيا إلى عدم المصادقة على المشروع وراحت من الناحية المالية تلقى المخاوف فى صدور المسالين من نجاح المشروع وتصفه بأنه مشروع خيالى .

تعزيد سعيد للمشروع

ولكن سعيداً كان قد عقد النية على مساعدة صديقه دلسيس على إتمام مشروعه . ولذا لم يتردد فى أن يبذل له ما كان متوفراً وقتئذ فى خزائن الحكومة وقدره ١٠٠٠٠٠٠ جنيه للاستعانة بها على بدء العمل .

أشد ممانعة ، كما وافق على انشاء البنك الاهلى (١٨٥٦) وأكثر من ذلك أنه حولنا حق إرسال الجنود عن طريق البر لقمع الفتنة الهندية .



ابتداء العمل في حفر القناة (٢٥ ابريل سنة ١٨٥٩)
وترى المسيو دلسبس ممسكا بيده معولا للحفر وحوله العمال
المصريون يبدأون في حفر القناة

ولم تكن الشروط التي منح امتياز القناة بمقتضاها أصون لسمعة
أوروبا مما تورطت فيه مصر فيما بعد من شروط الامتيازات والقروض

تأليف الشركة

== وفي ٥ نوفمبر سنة ١٨٥٨ عرض دلسبس اسهم الشركة للاكتتاب العام في فرنسا وغيرها من البلدان وبلغ من كثرة الاقبال ان غطيت أسهم الأكتتاب عدة مرات. ومن ثم تألفت الشركة في ديسمبر سنة ١٢٥٨ على أن يكون رأس مالها ٢٠٠ مليون فرنك (٨٠٠٠٠٠٠٠ جنيه تقريباً) موزعة على ٤٠٠٠٠٠٠ سهم قيمة السهم ٥٠٠ فرنك (٢٠ جنيتها) ثم قسم السهم إلى نصفين فصار عدد الأسهم ٨٠٠٠٠٠٠ وبلغت قيمة السهم الأصلي في سنة ١٩٣٢ حوالي ١٥٠٠ فرنك (٦٠ جنيه) بعد أن كانت ٥٠٠ و ذكر المسيو دلسبس في كتابه « وثائق عن القناة » جزء ٨٤ ص ١٣٣ أن سعيد باشا ا كتتب ب ١٧٧٦٤٢٢ سهما أي بما يقرب من نصف مجموع الأسهم ودفع جزءاً من ثمنها فوراً وقسط الباقي على سنوات .

بدء العمل في القناة

٢٥ ابريل سنة ١٨٥٩

== ثم بدأ الحفر في القناة يوم ٢٥ ابريل سنة ١٨٥٩ فذهب المسيو دلسبس ومعه ==

الأخرى . فان دلسيس برفضه العمل بنصائح مروجى المشروع الأصليين وهم شركة سانت سيمونيان البريطانية واعتماداً على صديقه ومناصره سعيد ، لم يكن أكثر مراعاة لحساب الضمير من أى صاحب امتياز آخر فى مصر . واذا كانت مسألة السويس لم تنقلب إلى فضيحة عمومية كفضيحة بناما

== أعضاء مجلس إدارة الشركة إلى شاطئ البحر المتوسط وفى المكان الذى انشئت فيه بعد ذلك مدينة بورسعيد وأقيم احتفال كبير ضرب دلسيس أول معول فى حفر القناة كما يراه القارىء فى الصورة المنشورة فى الصفحة السابقة وقد اقتدى به الحاضرون . وكان هذا المعول فى الواقع أول معول فى هدم صرح استقلال مصر برضى أميرها سعيد باشا !!

وقد حدث هذا قبل صدور فرمان التركى بالتصديق على الامتياز . فكأن سعيداً أراد وضع تركيا وانجلترا أمام الأمر الواقع بتعصيده المشروع بكل ماله من حول وقوة ومال . فلم يكن عجباً أن تقوم انجلترا وتقعده لهذا التصرف . وقد تمكنت من حمل تركيا على منع فرمان . وشاء حسن حظ انجلترا المؤقت أن تشب الحرب فى مايو سنة ١٨٥٩ فى ايطاليا بين النمسا وفرنسا فرأت فرنسا أن من الحكمة محاسنة انجلترا ، ولذا أظهرت تراخياً فى تأييد المشروع . وكادت أن تنجح انجلترا فى مساعدتها وفعلاً دبرت مع تركيا خلع سعيد باشا . وسافر فى هذه المهمة الأسطول البريطانى فى شهر يونية سنة ١٨٥٩ على ما ذكره دلسيس فى كتابه « مراسلات ويوميات ووثائق عن القناة » جزء ٣ ص ١٢٤ ولكن اخفق التديير وعهد سعيد إلى شريف باشا وزير الخارجية بإرسال كتاب إلى دلسيس بوقف العمل .

وتألق نجم فرنسا ثانية إذ وضعت الحرب أوزارها بينها وبين النمسا وعقدت هدنة « قىلا فرنكا » وأصبحت لفرنسا الكلمة النافذة فى السياسة الدولية فعادت إلى مناصرة المشروع . وعادت انجلترا إلى معارضته بحمل السلطان على إصدار أمر إلى سعيد باشا بوقف أعمال الحفر . وفعلاً سافر مندوب تركى يدعى مختار بك إلى مصر يحمل هذا الأمر إلى سعيد .

ولكن هذه المساعي ذهبت كلها هباء ، لأن نابليون الثالث سرعان ما بذل نفوذه لدى تركيا لالغاء هذا الأمر وبذا اطمأن سعيد إلى تعصيد الحكومة الفرنسية فأطلق لدلسيس العنان وسخر له الفلاحين وجلب من القرى ما لا يقل عن ٢٥٠٠٠ منهم جعلوا ==

كليون سبب ذلك أن المصريين لا الفرنسيين هم الذين ذهبوا ضحية هذا الحيف والظلم. واذ ذكرنا أن الاعتمادات كانت تأتي بسهولة بينما أن عملية الحفر كانت خالية من المصاعب الفنية حق لنا أن نقول انه كان يصح

== يشتغلون في هذا الممل المضنى إلى أن جرت مياه البحر الأبيض إلى بحيرة التمساح في ١٨ نوفمبر سنة ١٨٦٢ وهي آخر مرحلة وصلت إليها أعمال الحفر في عهد سعيد في ذلك المشروع .

ونقف الآن هنيهة لتسائل عما اكتسبته مصر من ذلك المشروع الذى كان نكبة عليها إذ كانها ضياع استقلالها دون أن تفيد منه شيئاً مادياً . ولم يكن يمكن ستر خطر ذلك المشروع أو حجبها عن الأعين . وقد أدرك الأوربيون تلك الحقيقة من البداية . وفي ذلك الصدد كتب المستر بروس قنصل إنجلترا في مصر وقتئذ إلى حكومته ينبها بمنح امتياز حفر القناة وقال في ختام رسالته : « . . . وإن فتح القناة سيؤدى إلى ازدياد المواصلات التجارية بين أوروبا والبلاد الواقعة على البحر الأحمر ، وستنشأ طبعاً مراكز للدول الأجنبية في هذه البلاد ومن المنتظر أن تحدث منازعات بينها وبين تلك الشعوب فتتخذ ذريعة إلى التدخل المساح في شؤونها وهذا التدخل يفضى إلى الاحتلال الدائم ويتوقع أن تحدث هذه النتائج في مصر ذاتها » .

أضف إلى ذلك أن إنجلترا في أثناء معارضتها للمشروع كان مما اشترطته للموافقة عليه احتلالها السويس وحمايتها للقناة . نعم إنها عدلت عن ذلك الشرط ولكن ألم يكن ذلك كافياً لفتح أعين سعيد باشا إلى خطورة المشروع ؟

وليس من شك في أن منح الامتياز إلى شركة أجنبية قد فتح على مصر أبواب التدخل الأجنبي ، وكان الشرى يكون أهون حتما لو أن العمل قامت به مصر لحسابها . وقد مر بك ما خوله سعيد للشركة من حقوق واسعة وامتيازات فادحة جعلتها شريكة مصر في سيادتها .

أما من الناحية الاقتصادية فقد خسرت مصر بفتح القناة إذ تحول طريق التجارة من داخل مصر إلى القناة المائية التي أصبحت ملك شركة أجنبية .

وحتى لو ضربنا صفحا عن كل هذه المضار بالنسبة لمصر فإنها أنفقت عليه ما لا يقل عن ١٦٠٠٠٠٠٠ جنيه في أسهم اكتتب فيها وأملك تنازلت عنها وأعمال قامت بها وتعويزات للشركة .

أن تنشأ مصاعب ما في سبيل المشروع لو توخى القائمون به قليلاً من الاقتصاد وأبدوا شيئاً من الكفاءة . فإن عملية الحفر نفسها لم تكن سوى مجرد جرف رمال هذا في حين أن الجو كان صالحاً للعمل والعمال المحليون متوفرون يؤدون أعمالهم على أكمل وجه وبدون أجر .

— ولئن عادت هذه القناة إلى مصر يوماً ما — وهيئات! — فإن مصر تكون قد خسرت إلى جانب هذه الملايين العديدة ما هو أثمن من المال والنفس ألا وهو حرمانها من استقلالها كل هذه السنوات .

ومن يدري ونحن نرى كل هذا التقدم في عالم الطيران أن لا تنأمر الدول يوم حلول موعد إعادة القناة إلى مصر فتطالب بجعلها مياه دولية تكلف مصر بحراستها لحساب الغير؟ وقد تتحول التجارة وحركة النقل عن طريق البحار إلى طريق الجو فلا تستعيد مصر القناة إلا بعد أن تكون قد تلاشت قيمتها وأصبح وجودها وعدمها سياتان؟ والآن نرى مصلحة الكل قد تلاشت من أجل مصلحة الجزء وأصبحت شؤون مصر ثانوية بالنسبة لقناة السويس أو كما قال ساكن الجنان اسماعيل باشا . . . أريد أن تكون القناة تابعة لمصر لا أن تكون مصر تابعة للقناة . . . وكأنا قضى على هذا الشعب المسكين أن يكذب ويكده ويحفر القناة لما أسموه خير الإنسانية لا ليفيد من وراء ذلك بعض الفائدة ولكن ليظل إلى الأبد في عداد المستعبدين !

وإذا كانت السياسة الإنجليزية تتلون لنا كل يوم بلون جديد وتظاهر بالود مرة على أن تعود إلى الجفاء مرة أخرى — فذلك كله للاحتفاظ بالسيطرة على قناة السويس . وقد يكون من العبث أن يتصور انسان عاقل أن تعقد السياسة البريطانية مع مصر اتفاقاً لا يترك لها السيطرة الكاملة على القناة وان كانت للسياسة البريطانية في نظرنا ندحة عن هذا التشبث .

ونذكر بهذه المناسبة أن المرحوم المستر ولفرد بلنت للسياسي الإنجليزي المشهور الذي لعب دوراً مهماً في الحركة العراقية قدمنا في سنة ١٩٢١ بان مفاوضات المغفور له سعد باشا في لندن للسياسي البريطاني المبرز المستر ماسنجهام محرر مجلة النيشن ولما كانت الحركة الوطنية ماتزال في عنفوانها فقد باحثنا المستر ماسنجهام فيما يمكن أن توافق عليه بريطانيا من شروط الاتفاق مع مصر . ثم عرض الحديث لقناة السويس . فقال المستر ماسنجهام إنه مع عطفه الشديد على قضية مصر لا يرى سبيلاً لاتفاق لا يترك

يضاف إلى كل ذلك أن قيمة الامتيازات كانت فادحة . فقد تضمن عقداً بايجار أراضي زراعية صالحة لمدة ٩٩ سنة مع حق استخراج ما فيها من المعادن على أن يعمل العمال بالسخرة طيلة ثلاثة أرباع المدة اللازمة لإنجاز المشروع وقد قدرت بست سنوات . وقد نص على فرض رسم قدره

==بريطانيا السيطرة على قناة السويس . فأظهرنا له دهشتنا من إفلاس السياسة في إيجاد حل لهذه المشكلة التي لا نعدّها جوهرية . ثم قلنا ان بريطانيا طالما كانت لها السيطرة في البحرين الأبيض المتوسط والأحمر فهي في غير حاجة إلى استبقاء حامية في قناة السويس وبالتالي لا معنى إذا لاحتلال مصر . أما إذا فقدت بريطانيا هذه السيطرة في معركة بحرية مع إحدى الدول الطامعة في غزو القطر المصري فإن مركز الحامية الانجليزية في القناة يصبح محفوفاً بالمخاطر وبخاصة إذا كان هناك تفاهم سابق بين المصريين والجيش المهاجم على إخراج البريطانيين من مصر . وفي كلتا الحالتين لا معنى لوجود الحامية ، وسحبها كفيل بايجاد حسن التفاهم مع شعب يقدر الجميل ولا ينكث بالعهود كشعب مصر الذي تستطيع بريطانيا أن تعتمد على صداقته ومعونته عند الحاجة وما أكثر حاجاتها بسبب اتساع نطاق امبراطوريتها .

وقد راققت هذه الفكرة لدى المستر ماسنجهام والمستر بلنت وراح أولهما يكتب في مجلته أن الطريق الوحيد للتفاهم مع مصر هو الجلاء عن وادي النيل . ولكن رجال العسكرية الانجليزية ردوا على ذلك بأن القناة لازمة لسلامة بريطانيا كأن تلك السلامة كانت في خطر دائم أيام أن كانت مواصلات العالم كلها حول رأس الرجاء الصالح ! وليت أولئك العسكريين يقنعون بالاحتفاظ بالقناة وحدها كلاب ترى لهم منطلقاً غريباً يدفعهم إلى المطالبة باحتلال مصر بأسرها في سبيل الاحتفاظ بهذه القناة . فهم يقولون مثلاً إن رجال الحامية في القناة في حاجة إلى المياه العذبة التي تصلهم عن طريق ترعة الاسماعيليه ولما كانوا يتوهمون أن الترعة المذكورة قد يطمرها المصريون في أثناء الحرب بين إنجلترا ودولة أخرى فتراهم يطالبون بالاحتفاظ بها من منبعها بالقرب من القاهرة . وبديهي أن الاحتفاظ بمنبع الترعة العذبة يقتضى تباعاً لذلك احتلال القاهرة نفسها واحتلال العاصمة يقتضى احتلال مديرتي الجزيرة والقلوية ولا سبيل إلى الدفاع عن هذين الاقليمين إلا باحتلال الاراضي المجاورة لها وهكذا دواليك إلى أن ينتهي الامر بأن الاحتفاظ بالقناة يقتضى احتلال مصر والاحتفاظ بالقطر المصري يقتضى احتلال==

١٠ فرنكات عن كل مسافر أو عن كل طن . وتم الاتفاق على أن تقسم الأرباح بحيث ينال حملة الأسهم ٧٥ ٪ ومروجو المشروع ١٥ ٪ والحكومة المصرية ١٠ ٪ . ولهذا الغاية اتخذت الاجراءات فوراً بعقد قرض قيمته ٢٠٠ مليون فرنك أي ٨ ملايين جنيهه (١٨٥٨) لتتبت فرنسا بنصفهوا كتبت تركيا ومصر بالنصف الآخر . وقد بدأ العمال الحفر

= السودان الخ هذه الحلقة المفرغة التي لا أمل في الوصول إلى أحد طرفيها . وقد لانكون مبالغين إذا قلنا إن القناة كانت نقمة على كثير من الشعوب بقدر ما كانت نقمة على مصر . ففلسطين وشرقي الأردن والعراق ما كانت لتعرض لما نشهده من ضروب العنت من السياسة الاستعمارية لولا تلك القناة التي إذا صح أن أحدا استفاد منها فهو غير مصر . ثم لاتنس أنه لولا القناة لما وقعت موقعة التل الكبير في إبان الثورة العراقية ولا كان احتلال مصر . فهذه القناة التي حفرت في بداية الأمر خدمة للإنسانية قد أظهرت التجارب أنها نكبة على مصر والمصريين وأحد الأسباب في تعريض كثير من الشعوب المجاورة لجور السياسة الاستعمارية واستبقاء شعوباً أخرى كالهند وغيرها تحت نير الارهاق الاستعماري .

ألا ليت سعيداً قد فطن إلى كل ذلك فوفر على بلاده وجيرانها كل هذه المتاعب والأهوال !
سعيد وسنة الاقتراض من الأجانب

وكما أنب سعيداً هو الذي فتح على مصر باب الشر بموافقته على امتياز القناة فانه كذلك سن لخلفائه أسوأ سنة بالتجائه لغير حاجة أو ضرورة ماسة إلى الأجانب وعقد القروض بالفوائد الفاحشة تخالف بهذا وصية أبيه وأخيه ابراهيم وهما اللذان نهضا بالبلاد - كما شهد بذلك أحد الكتاب الفرنسيين - وجاهدا في سبيل استقلالها ذلك الجهاد الذي كلل بالنصر دون أن يكون لديهما من الموارد المالية سوى ميزانية لاتتجاوز خمسين مليون فرنك (مليوني جنيه) ،
وإليك إحصاء بما عقده سعيد من القروض الأجنبية .

ففي سنة ١٨٦٢ عقد أول قرض ثابت من مصرف فريهلنج وجوشن في لندن ومقداره الاسمي ٣٢٤٢٨٠٠ جنيه مع أنه لم يستلم منه إلا ٢٤٠٠٠٠٠ جنيه ! وقد جعلت فائدته ٧ ٪ على أن يقسط على ثلاثين سنة بحيث يكون القسط السنوي مع فوائده =

فعلا (٢٥ ابريل سنة ١٨٥٩) قبل وصول اذن الباب العالي . على أن سعيداً لم ينتقل إلى الدار الاخرى (١٨٦٣) حتى كانت المصاعب قد قامت فعلا في سبيل المشروع

= ٢٦٤٠٠٠ وبذا يكون مجموع الأقساط ٧٩٢٠٠٠ مع أن أصل الدين هو ٢٤٠٠٠٠ فتأمل!

ثم إذا به يلتجئ إلى ما يسمى بالديون السائرة وهي أشد خطراً من الديون الثابتة إذ لا سبيل إلى ضبطها أو مراقبتها . فقد كان يستدين من المرابين بواسطة سندات يحررها على الخزانة بالقيمة المقترضة . وهي كما ترى من أخطر وسائل الاقتراض . وقد أحصى الكاتب الفرنسي الذي ألمعنا إليه في كتابه « تاريخ مصر المالي » ديون سعيد باشا عندما انتقل إلى العالم الثاني فاذا بها ١١١٦٠٠٠٠ فاذا طرحنا من هذا المبلغ لدين الثابت المأخوذ من بنك جوشن بلغت الديون السائرة ٧٨٦٨٠٠٠ وهو دين باهظ لم تكن تحتمله مالية البلاد وقتئذ .

وفاة سعيد باشا

سافر سعيد في أواخر أيامه إلى أوروبا للاستشفاء من مرض عضال أصابه ولكن لم تنجح فيه حيل الأطباء فعاد إلى الاسكندرية في أواخر سنة ١٨٦٢ بعد أن استفحل الداء وما زال يشتد من جهة وتدهور صحته من جهة أخرى إلى أن عاجلته المنية في صباح يوم ١٨ يناير سنة ١٨٦٣ (٢٧ رجب سنة ١٢٧٩) وله من العمر ٤٢ سنة وقد دفن بمسجد النبي دانيال باسكندرية بعد أن حكم البلاد ثمانية أعوام وتسعة أشهر وستة أيام على ما جاء في كتاب التوقيعات الالهامية للواء المصري محمد مختار باشا . وهكذا ودع سعيد هذا العالم بعد أن طوق جيد أمته بأغلال امتياز القناة وسن تلك السنة السيئة في عقد القروض الأجنبية بالفوائد الفاحشة .

ومن يدري ماذا كان يكون شأن مصر لو سلم عهد سعيد من هاتين المسألتين؟ الأرجح أن تكون الطريق قد هيئت لمستقبل زاهر بعد ما شهدناه من وطنية سعيد وحبه لشعبه والعمل على رفع شأنه . ولكن قدر فكان .

وإذا كنا قد أطلنا الاقتباس عن الكتب الأخرى فلأنتنا أردنا أن نضع أمام القارئ صورة صحيحة للحوادث التي وقعت في ذلك العهد إذ ليس يخفى مالها من الارتباط الوثيق بما وقع بعد ذلك من الحوادث التي أدت إلى كارثة الاحتلال البريطاني . فالتوسع في الاقتباس إنما يراد به في الواقع تنوير الأذهان ولفت الأنظار إلى ما تلا ذلك من الحوادث المهمة ليتسنى ربط المسببات بأسبابها والمعلولات بعلمها .



ساكن الجنان
الحديو اسماعيل باشا



الامبراطور نابليون الثالث
الذى قام بدور الحكم بين الشركة وبين
ساكن الجنان اسماعيل باشا

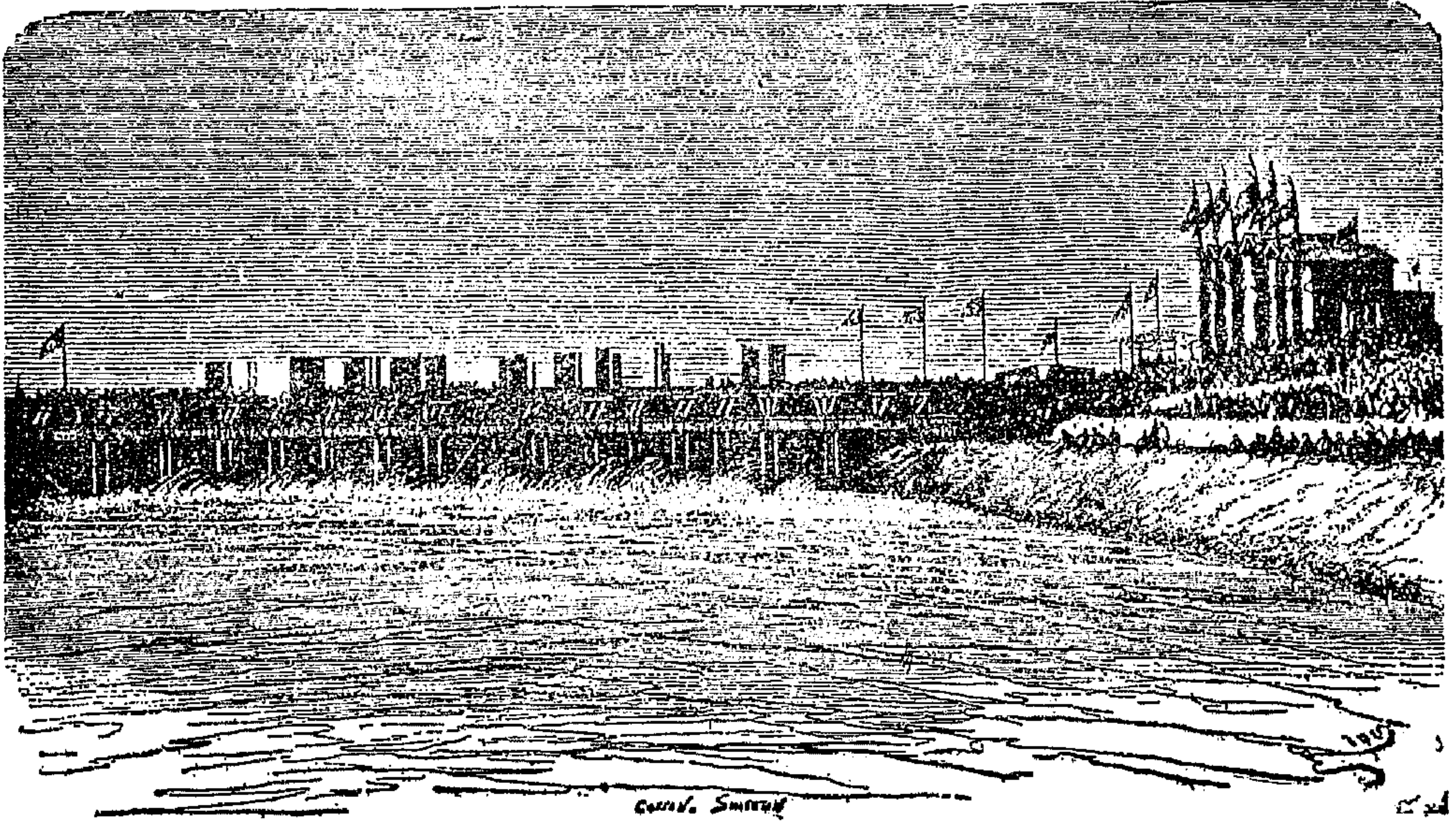
ولما تبوأ اسماعيل باشا
الأريكة أعيد النظر في شروط
الامتياز ووضع المشروع
بمخالفته على بساط البحث من
جديد . ذلك لأن وفاة سعيد
عجلت بحل الشركة الشخصية
التي كانت قائمة بينه وبين دلسيس
مما شجع خصوم المشروع على
مضاعفة جهودهم لعرقلته . وبهذه
المناسبة صرح اسماعيل باشا مرة
فقال « لا يوجد من هو أشد مني
رغبة في إنجاز المشروع ولكني

اسماعيل باشا

ولد سنة ١٨٣٠ وتولى سنة ١٨٦٣ وتوفي سنة ١٨٩٥
إذا ذكرنا عهد اسماعيل باشا فقد ذكرنا عهد الحضارة والعمارة التقدم والترقي
عهد الرفعة والسؤدد والمجد عهد النهضة الأدبية والمادية عهد السمو بمصر إلى مصاف
الأمم الراقية وبالجملة فهو عهد تصدق عليه كلمة اسماعيل باشا نفسه عند ما قال إنه
يحاول جعل « مصر قطعة من أوروبا » وإذا كان محمد علي قد تمكن من تحقيق استقلال
مصر في شؤونها الداخلية فإن حفيده الكبير اسماعيل باشا قد سار على سنته وزاد على
ذلك أنه رفع مصر إلى مصاف الدول المتقدمة بما أتاه من الأعمال العمرانية التي
جعلت من مصر جنة تبهج الناظرين .

وإذا كان بعض كتاب الأفرنج قد طاب لهم في الماضي أن يكيلوا المطاعن جزافاً
لاسماعيل باشا فإن الحق يأبى إلا أن تسطع شمس يوم ما . وهانحن قد أصبحنا قاب قوسين
أو أدنى من اليوم الذي ينصف فيه التاريخ اسماعيل ويعترف له الخصوم بما كان له من
أياد بيضاء على هذه البلاد . لا بل لسوف ترى أن كثيراً مما يأخذه هؤلاء الخصوم
على اسماعيل قد أسىء تأويله وفهمه وأن الحق كان في أغلب الأحيان إلى جانبه .

ونبادر بهذه المناسبة فنذكر أول كتاب وضع بالإنجليزية في عام ١٩١٠ بقلم المستر



معالم الزينة والابتهاج بإنشاء قناة السويس وترى الأهالي واقفين على ضفة القناة
والأعلام والرايات تخفق فوق رؤوسهم

== روذستين يتضمن الأشادة بفضل اسماعيل باشا. والمستر روذستين هذا هو روسي الجنس
فر من بلاده هربا من عسف الحكم القيصري وخط رحاله في العاصمة الإنجليزية . وتوافر
بعد معايشرة المستر بلنت السياسي الانجليزي المشهور على دراسة المسألة المصرية درسا
واقفا إلى حد أن اختاره الزعيم الكبير المغفور له مصطفى باشا كامل لرياسة تحرير
جريدة الأيجبشيان ستاندارد التي كان يصدرها في مصر . ولقد سلخ المستر روذستين نحو
١٥ سنة في العاصمة الإنجليزية إلى أن وضعت الحرب أوزارها وانهار الحكم القيصري
على أثر شوب ثورة البلاشفة فاختره الزعيم لينين ليكون سكرتير اخصوصيا له . فعادر
لندن إلى منصبه الجديد وبعد وفاته عينته حكومته سفيرا لها في إيران ولكن سرعان
ما طلبت الحكومة البريطانية إرجاعه إلى بلاده خشية من الدعاية التي كان يبثها
ضدها في الهند .

وقد وضع المستر روذستين هذا أثناء اقامته في لندن كتابا على جانب عظيم من الأهمية
أسماه « خراب مصر » ضمنه خلاصة أبحاثه عن القضية المصرية . فجاء كتابا قيما من خير
ما كتب عن مصر إذ جاء مشفوعا بالوثائق الرسمية ومصدرا بمقدمة بليغة من قلم المستر بلنت .
ولا نعرف فيما وضع باللغة الإنجليزية لغاية سنة ١٩١٠ كتابا تضمن انصافا لعهد
اسماعيل ككتاب « خراب مصر » فلقد حل فيه الكاتب مسألة الديون التي يأخذونها ==

أريد ان تكون القناة تابعة لمصر لا ان تكون مصر تابعة للقناة . «
وما كان أشد اغتباط الحكومة البريطانية بسنوح الفرصة لوقف العمل

على اسماعيل وأثبت بما لا سبيل إلى دحضه من البراهين القاطعة أن خديو مصر كان ضحية مؤامرة من ذئاب المالمين الذين تأمروا عليه فثبوهوا أعماله واتهموه بلا وجه حق بالأسراف والتبذير مع أنه أنفق معظم ما استدانه في المرافق العامة وفي سبيل «جعل مصر قطعة من أوربا» ويعتبر كتاب المستر رودستين أول بصيص من النور يلقي على عهد اسماعيل فيبدد ما كان يحيط به من ظلمات الشك وأقوال البهتان .

وإذا كان بعض الكتاب قد ابتسموا ابتسامة التشكك وعدم التصديق بما أورده المستر رودستين من الحقائق عن عهد اسماعيل وعدوه مغالاة فقد قيص الله من درس ذلك العهد دراسة القاضى الزيه الذى لا يتوخى من قضية معينة معروضة أمامه إلا كشف الحقيقة مهما كانت مرة بلا تحيز إلى فريق دون فريق . فلقد توصل المستر كراييتس من قضاة المحكمة المختلطة بالقاهرة بعد درس «دوسيه» قضية اسماعيل باشا وبعد موازاة ماله وما عليه إلى أن يضع فى يولية سنة ١٩٣٣ كتابه المسمى «اسماعيل أو الخديو المظلوم» الذى عنيت بنشره شركة جورج روتلج وأولاده بلندن وهو كتاب نحسب أن العنوان وحده يكفى للدلالة على أن هناك ظلماً صارخاً وأن الوقت قد حان لرفعه .

جلالة الملك فؤاد والوثائق المصرية

وبطيب لنا فى هذا المقام أن نذكر أن صاحب الجلالة مولانا الملك فؤاد أولاً بصفته ابن ساكن الجنان اسماعيل باشا وأولى الناس وأحتمهم بتبديد ما حاكه المغرضون من خيرط الأوهام حول أبيه العظيم ، وثانياً بصفته ملك البلاد ويهمه أن يقف الشعب المصرى ثم العالم المتمدين على مبلغ ما قطعتة مصر من المراحل فى طريق الحضارة فى خلال القرن التاسع عشر قد وجه جزءاً من عنايته السامية الى جمع كافة المعلومات والوثائق الخاصة بمصر من بداية عهد محمد على الى نهاية عهد اسماعيل . ومع ان هذه الوثائق هى من أخص شؤون الدولة فان جلالته رأى أن يكون هذا العمل وما يتضمنه من جهود شاقة على نفقة الجيب الملكى الخاص . وإن الانسان ليدهش حقاً كيف أن جلالته برغم انهما كه فى تسيير سفينة البلاد وحرصه على الوصول بها الى بر السلامة برغم ما يكتنفها من الأعاصير وما يعوق طريقها من الصخور والعثرات — نقول يدهش الانسان كيف ان جلالته رغم هذا يجد من وقته الثمين ما يتسع للعناية بمثل هذه المسائل التى تنوء به كواهل العصابة أولو القوة .

وخاصة وقد كان لها ما تستند إليه من الحجج والمعاذير . لأن التساهل في استعمال السخرة في مثل هذا العمل الكبير مع عدم الأصغاء لوحى

== وما نحن نقص عليك طرفاً من هذه الجهود الجبارة في سبيل جمع شتات الوثائق التاريخية الخاصة بمصر .

فلقد أدرك جلالتك ان تلك الوثائق موزعة بين لندن وباريس وايطاليا وفينا ووشنطن ووارصوفيا وبتروغراد وأثينا هذا عدا الموجود منها في مصر .

ولعلك تستطيع أن تصور لنفسك مبلغ ما يتطلبه العثور على وثائق موزعة بين تلك العواصم من جهود ونفقات . ولكن هل كان هذا بما يمكن أن يثبط عزيمة أبي الفاروق؟ كلا! والآن فائق بالك لتر ماذا صنع .

أولاً : فيما يختص بالوثائق الخاصة بمصر الموجودة في لندن وباريس فقد عهد جلالتك للمسيو ديوان من كبار مديري شركة قناة السويس بجمعها وتبويبها وطبعها على نفقة الجيب الملكي الخاص .

وقد وفق المسيو ديوان في مهمته كل التوفيق وحصل على كافة المستندات المذكورة ونشرت الجمعية الجغرافية بعضها والبعض الآخر يعد للطبع وسيظهر قريباً .

ونذكر بهذه المناسبة أن المسيو ديوان عنى بوضع كتاب في خمسة أجزاء يتضمن تاريخ اسماعيل باشا وهو الآن تحت الطبع في إيطاليا وسيظهر الجزء الأول قريباً وتتلوه الأجزاء الأخرى تباعاً .

ثانياً : وأما الوثائق الموجودة في ايطاليا فقد عهد بها جلالتك الى السنيورانجلو سان ماركو من أساتذة التاريخ في المدارس الايطالية . ونقف هنيهة هنا لنقول إن وثائق ايطاليا اقتضت مجهوداً خاصاً يزيد أضعافاً مضاعفة على الجهود المطلوب بذلها في الجهات الأخرى . لأنك تعرف إن ايطاليا كانت مقسمة إلى عدة دويلات صغيرة ولكل دولة منها دار محفوظاتها . وإلى اليوم لم تنتظم هذه الدور كلها في دار محفوظات واحدة . ومن هنا كانت الجهود مضاعفة .

وبرغم هذه المصاعب فإن الأستاذ سان ماركو قد تمكن من جمع هذه الوثائق وطبع منها إلى الآن حوالي خمسة أو ستة مجلدات في حين أن الباقي ما يزال تحت الطبع .

ثالثاً : ومتى خلا بال الأستاذ سان ماركو من وثائق ايطاليا وجه اهتمامه إلى جمع الوثائق الموجودة في دار المحفوظات في فيينا ونحسب انه موثق في مهمته باذن الله وبفضل عناية الملك .

الضمير كانت نتيجته وقوع فظائع وحشية فاضحة لم يفزع لها الرأى العام الانجليزى وحده بل والرأى العام الفرنسى أيضاً . وأظهر الباب العالى

= رابعاً : أما فيما يختص بواشنطن فقد نبي الى المسامع الملكية السامية أن دار محفوظاتها تحتوى على وثائق هامة ومعلومات قيمة فأمر بنسخها بأكملها على نفقة الجيب الخاص . وقد تأخذك الدهشة اذ تعلم انها نسخت فى ٢٠ مجلد وهى تشمل كل ما كتب عن مصر منذ عهد محمد على الى نهاية عهد اسماعيل هذا عدا الخرائط وأقوال الصحف الخ .
خامساً : لما كان محمد على قد وقع اختياره فى أثناء الحرب السورية على بعض كبار الضباط البولونيين لتدريب الجنود المصرية فى أثناء الحرب السورية فان وثائق على أعظم جانب من الأهمية ما تزال موجودة فى دار محفوظات وارصوفيا خاصة بالفترة فيما بين سنتى ١٨٣٣ و ١٨٣٦ ولذا فقد عهد جلالاته إلى أحد كبار الاخصائيين بجمع هذه الوثائق وترتيبها .

سادساً : أما الوثائق الروسية الخاصة بمصر فيقوم بجمعها جناب رينيه قطاوى بك مدير عام شركة كوم اسبر .

سابعاً : والوثائق اليونانية قد شرع فى طبعتها المسيو انسطاس بوليتيس من رجال السلك السياسى اليونانى .

أما الوثائق الموجودة بمصر فان الادارة الأورنية بديوان حضرة صاحب الجلالة الملك جادة فى ترتيب كافة المحفوظات المحلية العربية والتركية والأفريقية .

ومما يدلك على أن عناية جلالة المليك ليست منصرفة إلى تدوين تاريخ الأسرة المحمدية العلوية فقط بل إلى تاريخ مصر من أقدم عصور التاريخ أنه عهد بهذه المهمة الى المسيو هانوتو السياسى الفرنسى المشهور . وقد تولى جنابه العمل فأظهر للملأ نتيجة أبحاثه فى تاريخ مصر من أبعاد العصور الى الآن . وقد ظهرت بعض أجزاء هذا التاريخ فعلا

ثم لاتنس بهذه المناسبة كتاب « الوجيز فى تاريخ مصر » ويقع فى ثلاثة أجزاء وهو يشمل تاريخ مصر من قبل التاريخ الى آخر عهد اسماعيل باشا .

وقد سمعت بالكتاب القيم المسمى « الفن المصرى فى عصور التاريخ » الذى تكفلت لجنة باشراف السير دنيسن روس باخراجه بأمر جلالة الملك . ثم كتاب مصر لمؤلفيه بواسونا وترمينليه وقد عاون جلالاته بقسط وافر فى مصاريف الطبع ليتمكن المؤلفان من إخراج الكتاب .



المستر كراييتس صاحب كتاب
اسماعيل الخديو المظلوم

استعداده للتدخل في الموضوع
والمطالبة بالعدول عن السخرة في
حفر القناة لمخالفتها للأصلاحيات
الشاهانية المنصوص عليها في التنظيمات
هذا في حين أن اسماعيل طالب برد
ما منحه سعيد للشركة من الأراضي
المجاورة وما فيها من المعادن باعتبارها
امتيازاً لا يتفق وحقوق السيادة
المصرية . وهناك طالبت الشركة
بتعويضات ووقع الاختيار على

== وإليك عملاً جليلاً آخر خليقاً بهمة أي الفارق وهو الخاص بالفرمانات الصادرة
إلى ولاية مصر وعددها ١٠٦٤ فرمان . فقد أمر جلالتهم بجمعها ثم أخذت مصلحة
المساحة صورته منها وطبعتها في ثمانية مجلدات .

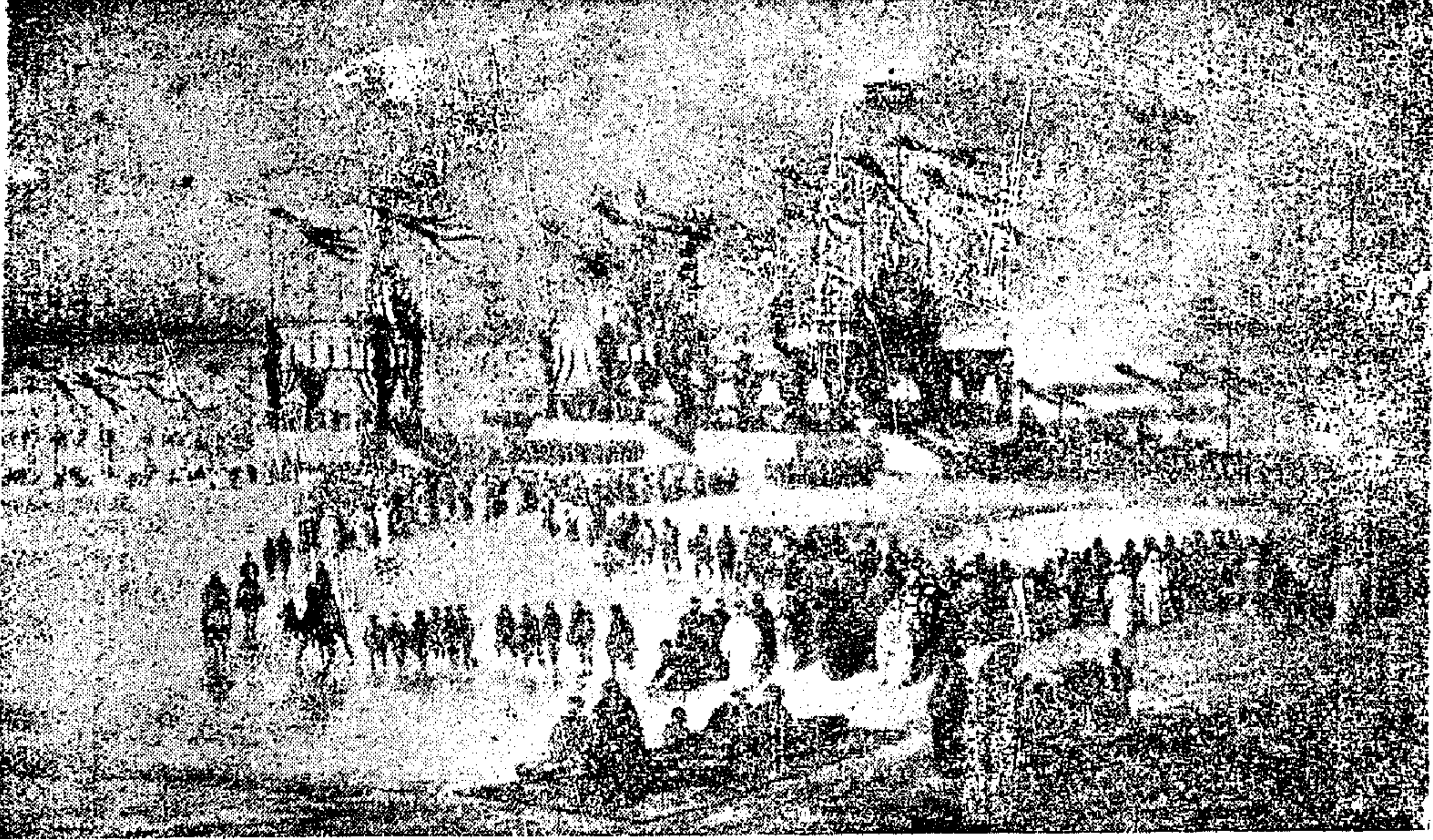
وبديهي أن فك طلاسم هذه الفرمانات وتحليل أغازها وتلخيصها يحتاج إلى
جهد كبير . ومن ثم يقوم صاحب السيادة حليم ناحوم أفندي الخاخام الأكبر للطائفة
الأسرائيلية بمصر بهذه المهمة الدقيقة بأرادة جلالة الملك

أليست هذه الجهود الجبارة تشهد بعناية جلالة الملك بتاريخ بلاده وحرصه على
تدوينه مهما اقتضى من جهود ونفقات ؟

وبمناسبة كتاب المستر كراييتس نقول إن جلالة الملك فؤاد قد سمح للمؤلف
بالاطلاع على الوثائق التاريخية الهامة الخاصة بعهد ساكن الجنان اسماعيل باشا
والاستئناس بها في كتابه الآنف الذكر الذي ستسمح لنا الفرصة للاقتباس منه فيما بعد .
وقد تولت فحص هذه الوثائق وترتيبها بحيث يسهل تناولها والاطلاع عليها الإدارة
الافرنجية بديوان صاحب الجلالة الملك .

وإذا كنا نأسف لشيء هنا فأسفنا أننا قد أخذنا في كتابة هذه العجالة عن ساكن الجنان
اسماعيل باشا قبل أن يفرغ القلم المذكور من مهمته وقبل أن يتاح لنا الوصول إلى ==

نابليون الثالث ليكون حكماً بين طرفي النزاع. فقضى (في يولية سنة ١٨٦٤) بان



حفلة افتتاح قناة السويس

== هذه الوثائق التي سوف يثلج لها قلب كل من يحاول الكتابة عن اسماعيل بالنزاهة التي هي من حق ذلك الحديو العظيم على التاريخ .

ولد اسماعيل باشا في قصر المسافر خانة بحي الجمالية بالقاهرة في يوم ١٢ يناير سنة ١٨٣٠ (مخلاف ما أجمع عليه المؤرخون وهو ٣١ ديسمبر سنة ١٨٣٠) وهو ابن ابراهيم باشا بن محمد علي باشا الكبير. كان لوالده ابراهيم باشا ثلاثة أولاد وكان أوسطهم صاحب الترجمة. أما الابن الأكبر فهو الأمير أحمد رفعت (ولد في ٨ ديسمبر سنة ١٨٢٥) والأصغر هو الأمير مصطفى فاضل (ولد في ٢٢ فبراير سنة ١٨٣٠)

وقد عنى ابراهيم باشا - كما كان ينتظر - بتعليم أولاده وتثقيفهم ليكونوا عدة من بعده ولتعهد ما غرسه هو ووالده العظيم محمد علي باشا من بذور الحضارة في أرض الفراغنة . وكان محمد علي قد أنشأ في قصر العالي مدرسة خصوصية لأولاده وأحفاده وفيها تلقى اسماعيل باشا مبادئ العلوم واللغات العربية والتركية والفارسية وقليلاً من الرياضيات والطبيعات . وفي سن الرابعة عشرة بعث به والده إلى فينا حيث لبث عامين ومنها انتقل إلى باريس للانخراط في سلك البعثة المصرية التي كان بين تلاميذها الأمير احمد رفعت شقيقه الأكبر والأميران عبد الحليم وحسين من أبناء محمد علي .

تدفع مصر غرامة مالية قدرها ٣٣٦٠٠٠٠ جنيه منها مبلغ ١٥٢٠٠٠٠٠ جنيها
تعويضاً عن عمال السخرة و ١٢٠٠٠٠٠٠ عن كافة الامتيازات في الأراضي
الواقعة على بعد أكثر من ٢٠٠ متر من ضفة القناة و ٦٤٠٠٠٠٠ جنيه
عن حقوق الشركة في التركة العذبة . وقد دفعت الغرامة في سنة ١٨٦٩
ثم أنجزت عملية الحفر بأدوات مصرية وبواسطة عمال مصريين يتقاضون
أجوراً جىء بهم من الجهات . وقد افتتحت القناة (في ١٧ نوفمبر سنة ١٨٦٩)



أول سفينة تعبر قناة السويس وسط ابتهاج الناس على الشاطئ

= وسلخ اسماعيل باشا بضع سنوات في دراسة العلوم والرياضيات وبخاصة الهندسة
التي أغرم بها وظهر في نفسه أثر ولعه بها عند اعتلاء الأريكة فيما بعد حيث كان شغوفاً
بتنظيم الشوارع وزخرفة البناء . . . وقد أقبل على تعلم اللغة الفرنسية والوقوف على
أسرارها حتى غدا كإحد أبناءها فأجادها قراءة وكتابة . وكان اسماعيل باشا ذكياً بفطرته
كأخيه الأمير أحمد رفعت الذي كان يعتبر من النوابغ .

وعند ما انتهى اسماعيل باشا من التحصيل عاد مع أفراد البعثة إلى مصر في عهد أبيه
ابراهيم باشا . ولما انتقل هذا إلى الرفيق الأعلى واعتلى الأريكة بعده عباس الأول بدأ =

وسط حفلات تكلفت نفقات تناسب المقام . على أن هذا الإسراف كان



بعض الرؤوس المتوجة في حفلة افتتاح القناة

- (١) الأمبراطور يوجيني إمبراطورة فرنسا (٢) الأمير هيرتر البروسي
(٣) الأمبراطور فرانس جوزيف إمبراطور النمسا (٤ و٥) أمير وأميرة هولندا

== يكيد لأفراد الأسرة على ما مر بك . ثم اشتد الخصام بسبب التركة بين عباس وبقية
الأمراء على أثر وفاة محمد علي باشا الكبير فرحل اسماعيل باشا مع من رحل من الأمراء
إلى الاستانة لرفع أوجه النزاع إلى السدة السلطانية فاوفدت رسولين لتسوية الخلاف
في مصلحة الأمراء الذين عادوا بالتالي إلى مصر بينما ظل اسماعيل باشا في الاستانة حيث قرب به
جلالة السلطان إليه وأنعم عليه برتبة المشوية وعينه عضواً في مجلس أحكام الدولة العلية .

يوجد إلى جانبه إسراف آخر في شكل الآمال العريضة التي عقدت وقتئذ على



الوليمة التي أقامها اسماعيل باشا لملوك أوروبا وأمرائها بمناسبة افتتاح القناة

== وبعد أن قتل عباس وخلفه سعيد على العرش عاد اسماعيل إلى مصر في سنة ١٨٥٤ حيث لقي عطفاً كبيراً من عمه الذي ولاه رئاسة مجلس الأحكام وهو أكبر هيئة قضائية في البلاد على ما مر بك في تاريخ سعيد . وقد قطع تنوطاً كبيراً في إصلاح ذلك المجلس ونظمه على منوال مجلس الأحكام العثماني .

وعربوناً على ثقة سعيد بكفاءة ابن أخيه اسماعيل أوفده في سنة ١٨٥٥ إلى الإمبراطور نابليون الثالث للحصول على مساعدته لدى الدول لتعديل معاهدة لوندرا وتوسيع استقلال مصر جزاء لها على ما قدمته للحلفاء من المساعدة في حرب القرم . فاضطلع اسماعيل بالمهمة وقام خير قيام بما كلفه به عمه إلى حد أن الإمبراطور نابليون قطع له وعداً ليساعدن مصر على تحقيق رغائبها في مؤتمر الصلح . ولكن وعود السياسة لا ينبغي الارتكان إليها . فقد أخلف الإمبراطور وعده . وكانما شاءت الأقدار أن يترك أمر ذلك التوسيع إلى اسماعيل باشا نفسه بعد أن يرتقى العرش . وفي هذه الرحلة نفسها قابل اسماعيل باشا قداسة البابا « ييوس التاسع » موفداً من سعيد باشا فكان موضع حفاوة كبيرة من رب الفاتيكان .

ما عسى أن تفيد مصر من هذه الخدمة التي ادتها إلى أوروبا. ونقول «إسرافاً» لأن



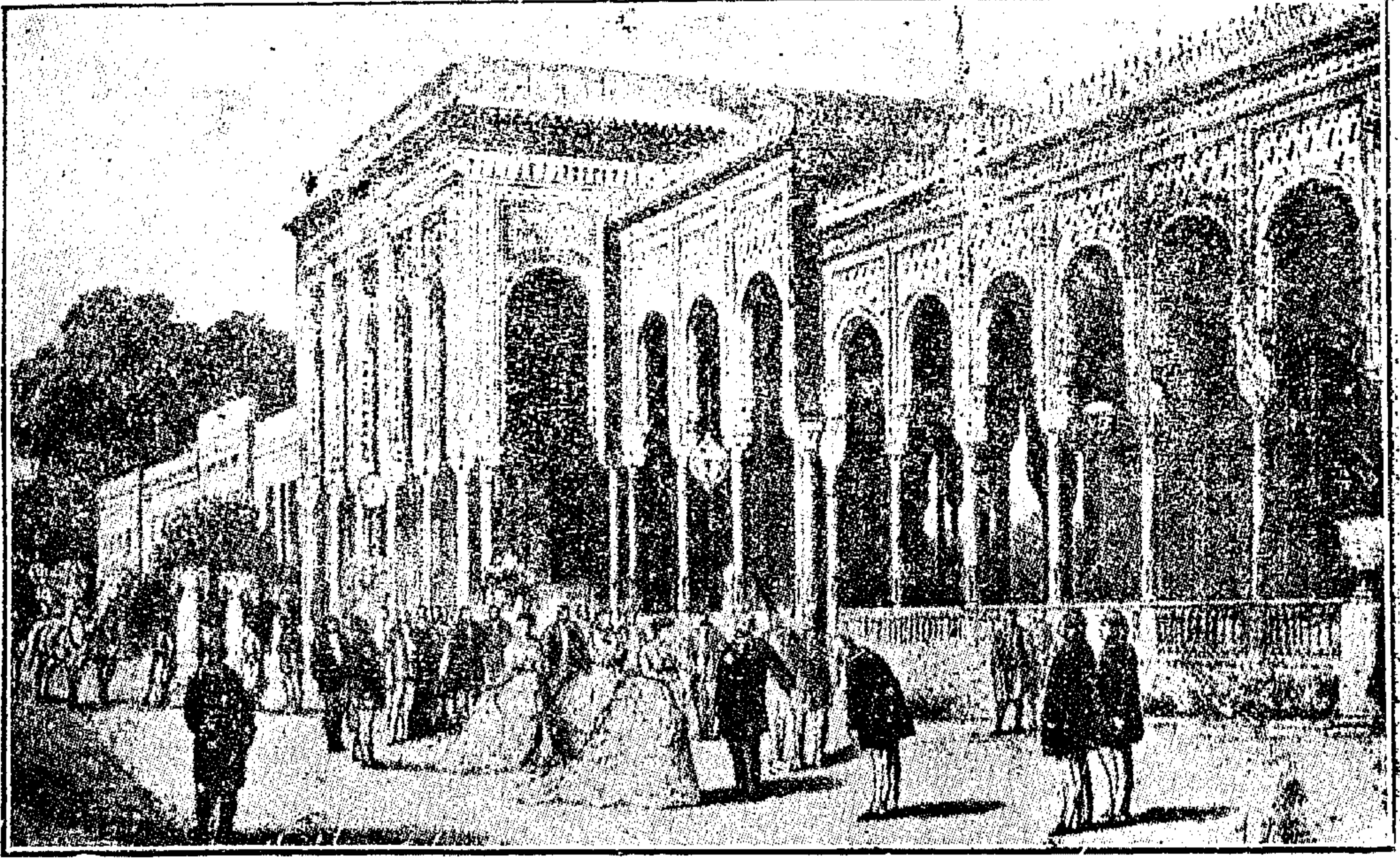
نزهة الملوك في صحراء السويس عند افتتاح القناة

== قام اسماعيل بما قام به دون أن يفكر يوماً في أن يؤول إليه العرش بعد سعيد . لأن أخاه الأمير أحمد باشا رفعت كان أكبر منه سناً وهو لذلك أولى منه بالعرش . ولكن إرادة الأقدار فوق إرادة الإنسان .

فقد حدث في سنة ١٨٥٨ أن أولم سعيد باشا وليمة في الاسكندرية دعا إليها كافة الأمراء فلبوا جميعاً الدعوة بما فيهم ولي العهد الأمير أحمد رفعت باشا . وبعد الفراغ من الوليمة عاد إلى القاهرة بقطار خاص أحمد رفعت باشا وبصحبته الأمير عبد الحلیم ومن معهما من رجال الحاشية وعددهم نحو ٣ شخصاً . وتصادف عند وصول القطار إلى كوبرى كفر الزيات أن الكوبرى كان مفتوحاً لمرور السفن . فلم يتنبه السائق لهذا الخطر إلا بعد فوات الأوان . ومن ثم سقط القطار في النيل وغرق من فيه إلا عبد الحلیم باشا . وبذا رأى اسماعيل نفسه نجاةً ولياً لعهد الأريكة المصرية بحكم نظام الوراثة المعمول به وقتذاك .

ولم يأت عطف سعيد على اسماعيل اعتباطاً أو بلا سبب . كلا فقد جربه في كثير ==

مصر لم يكن ينتظر أن تحصل على فوائد كثيرة بعد أن فقدت شطراً عظيماً



الأميراطورة يوجيني في قصر الجزيرة وإلى يسارها ساكن الجنان اسماعيل باشا

== من مناصب الدولة حيث كان يضطلع بها خير اضطلاع . ففي سنة ١٨٥٩ زار سعيد سوريا وترك اسماعيل قائم مقام بدله . وفي أوائل سنة ١٨٦١ سافر إلى الحجاز تمحلاً للاعتذار عن الذهاب إلى الاستانة فخل محله اسماعيل في هذه المدة أيضاً . وقد ارتاح سعيد إلى الطريقة التي أدى بها اسماعيل أعمال النيابة في كلتا المرتين حتى أنه عينه بعد عودته من الحجاز سرداراً للجيش المصري وعهد إليه في اتحاد الفتنة بين بعض القبائل السودانية . وقد وفق اسماعيل في مهمته وأخذ نار الفتنة ، ولكن دون سفك قطرة واحدة من الدماء . وهي شهادة تنطق له وهو بعد في سن الشباب باللباقة وسعة الحيلة والذكاء والمهارة في تسوية المشا كل باللين لا بالعنف .

وفي يوم ١٩ يناير سنة ١٨٦٣ التحق سعيد باشا بالرفيق الأعلى فانتقلت ولاية مصر إلى ساكن الجنان اسماعيل باشا وهو خامس ولادة الأسرة المحمدية العلوية .

سياسة اسماعيل باشا الخارجية

لعلك تذكر مقاله المستر يانج عن مسلك محمد علي باشا الكبير حيال تركيا في ص ١١٥ من هذا الكتاب إذ قال ما نصه : « وقد اتخذ محمد علي مبدأ جملة قاعدة ==



المستر دزرائيلي
رئيس الوزارة البريطانية

مما كان يعود عليها من الأرباح من
جاء نقل السائحين بطريق البر كما
فقدت الحصص التي خصصها لها
الامتياز في أرباح القناة في المستقبل .
وفي سنة ١٨٧١ هبط سعر أسهم
القناة من ٢٠ جنياً إلى مادون
السبعة الجنيهات ولم توزع أرباح
البتة على حملة الأسهم ولكن مؤتمراً

تتسبب سياسته الخارجية ألا وهو رشوة السلطان تارة والتشاجر معه تارة أخرى ليحمله على
الاعتراف بسيادته وسيادة ذريته من بعده على مصر المستقلة استقلالاً داخلياً . أما مبدأ
جعل مصر مستقلة عن الدول فقد كانت سياسته لتحقيق هذه الغاية ترمى إلى إيقاع
هذه الدول بعضها في بعض أو تحريضها على الباب العالي ، وكان من رأيه أن أنجح
وسيلة للحصول على ما يشاء من الاستانة هي بالتظاهر بالقوة من جهة وبمحاكاة تركيا
إليه في الوقت نفسه من الجهة الأخرى

ذكرنا لك ذلك لتدرك الأساس الذي سار عليه محمد علي باشا الكبير في تحقيق
استقلال مصر . فلم يكن عجباً أن يحذو حفيده الكبير اسماعيل باشا حذو جده فيجعل
أول همه تحقيق استقلال مصر . وإذا كان محمد علي قد اعتمد في سياسته حيال تركيا على
قوة الجيش المصري من ناحية وعلى سلاح المال والرشوة من ناحية أخرى . فلم يكن
يعقل وهذه غاية اسماعيل النبيلة أن يعتمد على الجيش بعد أن انحطت مكائنه في عهد سعيد
أو أن يتخرج في تحقيق هذه الغاية عن الالتجاء إلى الوسيلة الأخرى وهي المال والرشوة
وبخاصة بعد أن رأى اجماع دول أوربا على سلب مصر كل حق تكتسبه عن طريق
القوة كما حدث في حروب محمد علي حيث لم تغنه انتصاراته العظيمة شيئاً .

وهنا لا نرى مناصاً من مخالفة ما ذهب إليه صديقنا البحاثة الكبير الأستاذ
عبد الرحمن الرافي بك فيما كتبه في كتابه القيم « عصر اسماعيل » ص ٧٧ خاصاً بسياسة
اسماعيل باشا حيال تركيا . فقد أخذ على اسماعيل اعتماده « على سلاح المال والرشوة
يئذيها لرجال الأستانة ليحصل على الفرمانات التي وسع بها نطاق الاستقلال ، بينما
كان محمد علي باشا الكبير يعتمد على قوة الجيش المصري .

الاستانة قرر فرض ضريبة إضافية قدرها ٣٠ ٪ ومن ذلك الحين أصبحت القناة سلعة تغل ربحاً وفيراً ولكن لا لمصر التي حفرتها لأن دزرائيلي بالنيابة عن الحكومة البريطانية انتهز في سنة ١٨٧٥ فرصة افلاس اسماعيل فابتاع بمعونة بيت روتشيلد بمبلغ ٤٠٠٠٠٠٠٠ جنيهه أسهمه التأسيسية وكان وقتئذ يعرضها في باريس ضماناً لعقد قرض جديد ، هذا

== وقد استطرد الأستاذ الرافعي بك فقال منتقداً « وليس يخفى أن وسيلة محمد علي هي صفحة مجيدة من تاريخ مصر الحديث تقرأ فيها الأجيال المتعاقبة مفاخر الجهاد القومي أما وسيلة اسماعيل فلا تستثير في النفوس إحساس المجد والفخار (كذا !) هذا فضلاً عن أنها من الأسباب التي دعت اسماعيل إلى الاستدانة من البيوت المالية الأجنبية فكانت من هذه الناحية من العوامل التي أدت إلى تصدع بناء الاستقلال الحقيقي . وقد بذل اسماعيل تضحيات مالية جسيمة في سبيل الحصول على الامتيازات التي نالها إذ لم تكن حكومة الاستانة تصدر فرماناً إلا في مقابل الأموال الطائلة من الرشايا والهدايا يقدمها اسماعيل لرجال الاستانة على اختلاف مراتبهم ولا يستثنى منهم السلطان ذاته والصدور العظام فبلغت هذه الأموال طوال حكمه اثني عشر مليوناً من الجنيهات . »

وبحسبنا أن نقول للاستاذ إذا كان سعيد باشا قد ترك وراءه دينا يبلغ كما قدره مؤلف « تاريخ مصر المالي » ١١١٦٠٠٠٠ جنيه في مدة حكمه التي لم تزد على ثمانى سنوات ونيف مع أنه لم يبذل أية تضحيات مالية جسيمة في سبيل الحصول على نيل أية امتيازات ، فهل يؤاخذ اسماعيل إذا كان قد دفع نحو ١٢٠٠٠٠٠٠ مليون جنيه طيلة مدة حكمه أى ستة عشر سنة في سبيل الحصول على الامتيازات الجسيمة التي نالها ؟

لأنظن أن من الانصاف مجازاة كتاب الأفرنج في الأسراف في مؤاخذة اسماعيل من هذه الناحية . وقد كان كل ذنب اسماعيل - إذا صح أن يسمى ذلك ذنباً - أنه توخى العجلة في سبيل رفع مصر إلى مستوى الأمم الراقية وجعلها « قطعة من أوربا » . وليشهد معنا القارىء على أن هذه الاثني عشر مليون جنيه التي أنفقت في الاستانة لم تذهب هباءً نسر دأمامه ما حصل عليه اسماعيل باشا من الامتيازات العظيمة منقولا عن كتاب الرافعي بك نفسه .

زيارة السلطان عبد العزيز لمصر

في ابريل سنة ١٨٦٣

فمنذ عهد السلطان سليم الذي فتح مصر لم يهبط وادى النيل سلطان عثمانى آخر سوى ==

في حين ان ال ١٥ ٪ وهي حصته في أرباح القناة قد تم التنازل عنها فيما بعد وفاء لدين قدره ٧٠٠٠٠٠٠ جنيه مستحق للمولين الفرنسيين وهم الذين جمعوا من هذه الحصص في السنوات السبع التالية ما يزيد عن ضعفى ما أقرضوه من المبالغ . ويقدرون الآن ثمن أسهم اسماعيل وحصص مصر الآنفه الذكر بما لا يقل عن ٣٠ مليون جنيه

== السلطان عبدالعزيز . ولما كانت مصر وقتئذ إحدى ولايات تركيا الممتازة فلا غرو أن يعتبر تنازل عاهل الاستانة لزيارة مصر تكريما كبيرا لاسماعيل وتعظيما لشأنه على ما اعترف به الأستاذ الرافعى بك الذى استطرد فقال « إن اسماعيل انتهر هذه الفرصة فاستغل المرتبة التى نالها يكتسب من تركيا حقوقا ومزايا جديدة (كذا ! كذا !) واستخدم إلى جانب ذلك المال يبدله بسخاء فغمر السلطان وحاشيته بالهدايا والتحف الفاخرة وزود الصدر الأعظم فؤاد باشا وحده برشوة قدرها ٦٠٠٠٠٠ جنيه . وقد عاد السلطان عبد العزيز مغتبطا بما لقيه من الاكرام ومهدت هذه الزيارة الطريق أمام اسماعيل لينال رغائبه . »

ونحن من جانبنا لا نرى أى ماخذ جدى على اسماعيل فى هذا العمل لأن الرجل الذى كان يطمح إلى استكمال استقلال بلاده كان عليه أن يختار بين طريق العنف أو طريق المجاملة وبذل المال وهو أخف الأمرين وأوكدهما .

تغيير نظام توارث العرش

وفرمان ٢٧ مايو سنة ١٨٦٦

وبعد هذه الزيارة وجه اسماعيل اهتمامه إلى تغيير نظام توارث العرش فبعد أن كان فرمان سنة ١٨٤١ يقضى بأيلولة العرش لأكبر أفراد الأسرة المحمدية سنا بما كان من شأنه أن يفتح باب الدسائس على مصراعيه بين المطالبين بالعرش ويصرف صاحب التاج عن الاهتمام بالمستقبل مادام لا يضمن ان ابنه مثلا هو وارثه فى الملك فضلا عن أنه يودى الى زعزعة أساس العرش ويعرضه للزوال، تمكن اسماعيل وكانت غايته جعل مصر قطعة من أوربا — من استصدار فرمان ٢٧ مايو سنة ١٨٦٦ بانتقال مسند ولاية مصر وملحقاتها وقائمقاميتى سواكن ومصوع إلى أكبر أولاده ومن هذا الى أكبر أبنائه وهلم جرا . نعم ان هذه المساعى كلفت اسماعيل ٣٠٠٠٠٠٠٠ جنيه على قول الأستاذ الرافعى بك ولكن ألم ينص فى هذا فرمان على مزايا عظيمة ترخص فى مقابلها هذه ==

هذا باختصار هو تاريخ هذه الصفقة التي كانت شؤماً على مصر من الوجهة المالية والاقتصادية والسياسية . وقد كان ينبغي على أوروبا أن تقوم هي بانجاز هذا المشروع الذي خدم مصالحها الاقتصادية وغيرها وذلك

== الملايين الثلاثة؟ ونحن نورد هنا بترتيبها حسب ما ذكره الأستاذ فيليب جلاد في كتابه «قاموس الإدارة والقضاء» جزء ٦ ص ٧٣٠ فقد نص في ذلك الفرمان على الأمور الآتية:

أولاً : زيادة الجيش المصرى الى ٣٠٠٠٠ جندي .
ثانياً : إقرار حق مصر في ضرب نقود مختلفة العيار عن نقود السلطنة العثمانية .
ثالثاً : منح الرتب المدنية لغاية الرتبة الثانية .
على أن هذا الفرمان ألحق بفرمان آخر في ١٥ يونية سنة ١٨٦٦ بترتيب نظام اللوصاية على من يتقلد مسند الولاية إذا كان قاصراً .

فهذه المزايا وخاصة أولها المتعلقة بزيادة عدد الجيش هي بمثابة خطوة واسعة في سبيل الاستقلال . ومتى تقرر هذا فلا يمكن أن نستكثر ما دفع من الثمن في سبيلها وقديماً قالوا « ومن طلب الحسنة لم يغلبها المهر . »

بل إن هذا الفرمان قد أكسب مصر صفة دولية - وهي مزية لها أهميتها - لأن تركيا أبلغت الفرمان الى الدول العظمى التي اشتركت في وضع معاهدة لوندرا وبذا أصبحت تركيا مرتبطة دولياً ازاء مصر بحيث لا تستطيع تعديل الفرمان إلا بموافقة مصر . أفليست هذه إذن خطوة خطيرة مهمة في سبيل استقلال مصر ؟

فرمان ٨ يونية سنة ١٨٦٧

والحصول على لقب خديو

ولكن هل كان يمكن أن يكتب اسماعيل بهذه المزايا دون أن يسعى لنيل غيرها ؟ كلا . ولذا رأيناه يبذل المال من جديد على ضفاف البوسفور إلى أن حصل في ٨ يونية سنة ١٨٦٧ على فرمان جديد يخوله هو وخلفاءه لقب (خديو) بعد أن كان (والياً) وبهذا ارتقى صاحب العرش بهذا اللقب السامى - كما يعترف الأستاذ الرافعى بك - إلى مرتبة تقرب من مراتب الملوك والسلاطين .

على أن اسماعيل لم يكن ينسبه العرض عن نيل الجوهر . فهو في الوقت الذي حصل فيه في الفرمان المذكور على لقب (خديو) حصل أيضاً على هذه المزايا التي نحسب أن ==

بالحصول من مصر على امتياز بانجازه على أن تدفع لها في مقابل ذلك ما يكفي لسداد ديون مصر وبأن تعطىها من أرباح القناة حصة تعوضها عما تخسره (مصر) في حركة المرور. ولكن مصر أرغمت على دفع ثمن فادح بتنازلها عن الأراضي اللازمة للمشروع وبأداء نفقات الجزء الأكبر منه ثم إنها

== الأستاذ الرافعي بك يوافقنا على أهميتها وهي كالاتي منقولة عن ستاه السالف الذكر:
أولاً : إقرار حق الحكومة المصرية واستقلالها في إدارة شؤونها الداخلية والمالية.
ثانياً : إقرار حقها في عقد المعاهدات الخاصة بالبريد والجمارك ومرور البضائع والركاب في داخلية البلاد .

ثالثاً : إقرار حقها في شؤون الضبط للجاليات الأجنبية .

فهل قنع اسماعيل بهذه الامتيازات العظيمة ؟ كلا وربك فانه كان دائب السعي لتحقيق استقلال البلاد مهما كلفه من المال وهو أهون ثمن .

فلقد روى الأستاذ الرافعي بك عن كتاب محمود باشا فهمي المسمى «البحر الزاخر» ج ١ ص ١٩٩ أن اسماعيل باشا طلب من تركيا في إبان حملة كريت أن تخوله حق تعيين سفراء لمصر لدى الدول الأجنبية . وقد غضب الباب العاني لهذا الطلب (طبعاً !) لأنه رأى فيه ميلاً من ناحية إسماعيل إلى الاستقلال .

وكانما أراد اسماعيل أن يظهر للبلاد أنه مستقل عن الباب العالي فعلاً وإن لم يكن كذلك إسماعيل . فشرع أولاً يفاوض الدول الأوروبية في صدد إنشاء النظام القضائي المختلط دون وساطة الباب العالي .

ثانياً : اشترك في معرض باريس القائم سنة ١٨٦٧ وظهر فيه بمظهر الملك المستقل وأقام به قسماً خاصاً لمصر جمع فيه صنوف البهجة والعظمة ليكون جديراً بتمثيل مملكة مستقلة .

ثالثاً : أوصى المعامل الفرنسية بصنع ثلاث بوارج حرية مصفحة وعدة آلاف من البنادق الحديثة الطراز لتسليح الجيش المصري .

فلما استولى على تركيا القلق لهذه الانباء وداخلها الشك في نوايا اسماعيل تواترت الأشاعات بأنها اعتزمت محاربه فأخذ يستعد للدفاع وأنشأ حصوناً جديدة بين الإسكندرية وبور سعيد ورمم الحصون القديمة وابتاع من معامل ارمسترنج بانجلترا نحو ٢٠٠ مدفع من المدافع الضخمة سلح بها تلك الحصون وما تزال هذه المدافع موجودة إلى اليوم ==

خرجت بعد كل هذا دون أن تكون لها حصة في الأرباح . ولا ريب في ان مالقيه الفلاحون المصريون من ضروب الشدة والغنت سواء أكان في إبان أعمال السخرة في مكان القناة أم أثناء حركة الاغتصاب المالى فيما بعد

== في حصون الاسكندرية وأبي قير ودمياط ورأس البر . وقد أكلها الصداً ويوجد على أكثرها تاريخ السنة التي صنعت فيها وهي سنة ١٨٦٩

رابعا : كان اسماعيل معتماً إعلان استقلال مصر بعد الانتهاء من حفلات افتتاح قناة السويس بعد توجيهه الدعوة إلى ملوك أوروبا ورؤساء حكوماتها دون وساطة الباب العالي مما غضبت له تركيا واحتجت عليه دون أن يأبه به اسماعيل . ولولا تردد بعض الحكومات الأوربية في مشايعة أغراضه لإعلان استقلال مصر وقتئذ ولكان العيد بافتتاح القناة هو أيضاً يوم عيد الاستقلال المصرى .

فرمان ٢٩ نوفمبر سنة ١٨٦٩

ولهذا استاءت تركيا من تصرفات اسماعيل هذه وأرسلت إليه فرمان ٢٩ نوفمبر سنة ١٨٦٩ عقب انتهاء حفلات افتتاح القناة وكان أهم ما ورد فيه من القيود أنه لا يعقد قروضا جديدة دون أن يبين وجه الحاجة إليها وقبل الحصول على إذن من السلطان بعقدها .

فكان طبيعياً أن يستاء اسماعيل لورود هذا فرمان ، وكان طبيعياً أيضاً أن يعمل على نحو أثره . ولذا سافر إلى الأستانة في صيف سنة ١٨٧٢ بصحبة اسماعيل صديق باشا وزير المالية ونوبار باشا وزير الخارجية فبدلوا جميعاً مساعيهم إلى أن عادت المياه إلهم مجاريها بين عاهل الأستانة وعاهل القاهرة .

وفي خريف هذا العام (سنة ١٨٦٩) حصل على فرمان بتثبيت ماناله من قبل من الامتيازات وبنسخ القيود الواردة في فرمان سنة ١٨٦٩ وخطا شريفاً في ٢٥ ديسمبر سنة ١٨٧٢ بتأكيده مزاييا فرمان ١٠ سبتمبر وإطلاق يده في عقد ما يشاء من القروض بلا شرط ولا قيد . وهو فرمان الذي تقبله اسماعيل باشا بمنتهى مظاهر الابتهاج والارتياح .

الفرمان الجامع (٨ يونية سنة ١٨٧٣)

وبدلاً من هذه الفرمانات الممنوحة (بالقطاعى) سعى اسماعيل باشا لنيل ما يسمونه بالفرمان الجامع . وقد سافر لهذه الغاية إلى الأستانة في صيف سنة ١٨٧٣ وفي ركابه نوبار باشا واسماعيل صديق باشا ورياض باشا مستشار مجلس الوزراء (المجلس العالى) ==

لأداء فوائد دين القناة وضع في عنق أوربا ديناً ثقيلاً، ديناً خاصاً بالشرف ، ديناً من واجب أوربا أن تؤديه لمصر ، ديناً لم نسمع أحداً يشير إليه بكلمة واحدة وسط الضجة التي أثاروها وملأوا بها العالم عن الديون الأخرى

== وغيرهم وغيرهم . وهناك تمكن بفضل سلاح المال من الحصول على فرمان ٨ يونية سنة ١٨٧٣ المسمى بالفرمان الجامع وتلخص مزاياه فيما يلي :

أولاً - توارث عرش مصر في أكبر أنجال الخديو ومن بعده إلى أكبر أولاد هذا الأكبر وهلم جرا .

ثانياً - تشمل أملاك الخديوية المصرية مصر وملحقاتها (السودان) الجارية إدارتها بمعرفتها مع ماصار إلحاقه بها من قائمقامي سواكن ومصوع وملحقاتهما .

ثالثاً - حق الحكومة المصرية في سن القوانين والنظامات الداخلية على اختلاف أنواعها .

رابعاً - حق عقد الاتفاقات الجمركية والمعاهدات التجارية .

خامساً - حق الاقتراض من الخارج من غير استئذان الحكومة التركية .

سادساً - زيادة الجيش إلى أي عدد يتبغيه الخديو .

سابعاً - حق بناء السفن الحربية ما عدا المدرعات التي يجب لإنشائها استئذان

الحكومة التركية .

ونحب أن نسأل الأستاذ الرافعي بك أليس هذا الفرمان الجامع أهلاً لأنفاق الأموال في سبيل الحصول عليه إن صح ما نسبته المؤرخون إلى اسماعيل باشا من تهم الأسراف والتبذير ؟

لقد جارينا الأستاذ الرافعي بك إلى الآن فيما ذهب إليه على اعتبار أن اسماعيل باشا كان كما وصفه مؤرخو الأفرنج المغرضون . ولكننا نرى أن الوقت قد آن لرفع يدنا في وجه أصحاب تلك المزاعم ونقول لهم « لفي كفي فلم يكن اسماعيل كما وصفتموه ولم يقترض ما اقترض لأنفاقه في ملاذه الشخصية ، بل كان مثال الحاكم العادل الساهر على مصالح رعيته . ولئن كنتم قد اعتدتم تشويه سمعة هذا الرجل واختلاق الأراجيف عليه طيلة هذه السنوات فلقد آن للحقيقة أن تبزغ شمسها فتبدد ظلمات الترهات وتفضح ما أذاعه المغرضون من التخريصات . »

التي استدانتها مصر من أوروبا لغاية أبعد عن الشرف من هذه الغاية. وعلى أن تفاخر الفرنسيين بعمل دلبس الباهر وابتهاج الانجليز بصفقة

نظرة اجمالية في إصلاحات اسماعيل باشا

وبهذه المناسبة نقبس الجدول الوارد ضمن مقال للستر مولهول نشرته مجلة كوتمبروري ريفيو في شهر اكتوبر سنة ١٨٨٢ عن ما أنفقه اسماعيل باشا في الأعمال العامة وهذا الجدول هو في الوقت نفسه شهادة تدحض ما ذهب إليه الأفاكون من أن اسماعيل كان يبذر الأموال في ملاذه الشخصية كما أنه دليل على ما قام به ذلك العاهل من الإصلاحات الكبرى. وقد مهد الكاتب للجدول بالجملة الآتية :

«... ومع أن حملة القراطيس طالما غرسوا في أذهان الناس أن اسماعيل باشا بدد ما حصل عليه من أوروبا من الأموال فليس ريب في أن ما أتمه من المشروعات العامة استنفد أكثر من جميع الأموال التي حصل عليها من القروض. والجدول الآتي لا يتضمن الفوائد المستحقة على مقاولات الأعمال، بل يقتصر فقط على ما دفع فعلا في هذه الأعمال من النفقات.

نوع الأعمال	النفقات بالجنيه	ملاحظات
قناة السويس	٦٧٧٠٠٠٠٠	هذا بعد خصم قيمة الأسهم التي بيعت في عهد اسماعيل باشا.
الترع النيلية	١٢٦٠٠٠٠٠٠	وقد حفر من الترع ما طوله ٨٤٠٠٠ ميلا وبلغت نفقة الميل الواحد ١٥٠٠ جنية.
الكبارى	٢١٥٠٠٠٠٠	أنشأ ٤٣٠ كوبرى تكلف كل منها ٥٠٠٠ جنية.
مصانع السكر	٦١٠٠٠٠٠٠	أنشأ ٦٤ مصنعا وجلب لها الأدوات من الخارج.
ميناء الاسكندرية	٢٥٤٢٠٠٠٠	وقد أعطيت المقاوله لشركة جرينفيلد واليوت
أحواض السويس	١٤٠٠٠٠٠٠	» » » ديسو
وابور مياه الاسكندرية	٣٠٠٠٠٠٠٠	وقد وافقت شركة باريسية على الثمن
السكك الحديدية	١٣٣٦١٠٠٠٠	وقد مد خطوطا جديدة يباغ طولها ٩١ ميلا
التلغرافات	٨٥٣٠٠٠٠٠	وقد مد من الأسلاك التلغرافية ما طوله ٥٢٠٠ ميلا
المناثر	١٨٨٠٠٠٠٠	أنشأ نحو ١٥ من المناثر في البحرين الأبيض المتوسط والأحمر
جملة النفقات	٤٦٢٦٤٠٠٠٠	جنيه

دزرائيلي المالية لا ينبغي أن ينسبهم أن مصر في هذه المسألة بعينها كان من حقها أن تجزيها أوروبا أطيب الجزاء وأنه قد غدر بها غدرا خاليا من

== ثم استرسل المستر مولهول فقال : « إن النرع النيلية التي حفر منها اسماعيل نحو ١١٢ ترعة ستظل تعتبر على الدوام أعظم إصلاح حدث في عهده . . . فلقد تمكن الأهالي بفضل هذه الترع من تحويل ١٣٧٣٠٠٠ فدان من أرض بور إلى أرض زراعية أنتجت وقتذاك من المحصولات ما قيمته ١١٠٠٠٠٠٠ جنيه في حين أن إيجارها لم يتجاوز ١٤٠٠٠٠٠٠ جنيه سنويا . فزادت بهذا مساحة الأراضي الزراعية في مصر من ٤٠٥٢٠٠٠ فدان في سنة ١٨٦٢ وهي آخر سنوات حكم سعيد إلى ٥٤٢٥٠٠٠ فدان في سنة ١٨٧٩ وهي السنة التي عزل فيها اسماعيل باشا . وقد ذكر البارون فون مالورتي في كتابه المسمى « مصر والتدخل الأجنبي » والمستر بيرو في كتابه المسمى « الارتباك المصري » بأن واردات مصر في هذه المدة قد زادت من ١٩٩١٠٠٠٠ جنيه إلى ٥٤١٠٠٠٠٠ جنيه كما زادت الصادرات من ٤٤٥٤٠٠٠٠ جنيه إلى ١٣٨١٠٠٠٠٠ جنيه هذا فضلا عن أن عدد السكان زاد من ٤٨٣٣٠٠٠٠ إلى ٥٥١٨٠٠٠٠ نسمة . »

وبهذه المناسبة كتب المستر دي ليون قنصل أمريكا العام في مصر ص ٣٦٢ في كتابه « مملكة الخديو » ما نصه : « طالما قيل بطيش ورددت الألسن بطيش أيضا شفويا وكتابة أن الخديو اقترض نحو ٩٠ مليون جنيه لا لشيء سوى بناء بضع قصور من الخشب والطين ! وهي دعوى ظالمة وطاقثة بقدر ما هي كاذبة . . . فالحقيقة التي لا سبيل إلى الشك فيها هي أن ما أدخل من التحسينات على المشروعات العامة التي ابتدأت وتمت في مصر في خلال الأثني عشر عاماً الماضية كانت فوق الوصف بل هي فوق أن تقارن بها مشروعات مملكة أخرى . »

وذكر المستر ستانلي لين بول في ص ١٧٩ من كتابه المسمى « مصر » في سنة ١٨٨٩ وهو من خيرة الكتاب الذين خبروا شؤون مصر ووقفوا على وقائعها ما ملخصه : « لتمد أدخلت على الإدارة عدة إصلاحات لم يكن يحلم بها أحد من حكام مصر السابقين لأن النظام الإداري المؤسس في عهد محمد علي أدخل عليه الآن تعديل كبير وطرأ عليه التحسين من عدة وجوه . كما أن نظام الجمارك على ما ذكره مالورتي « وضع على أساس جديد تحت إشراف نفر من خبراء الأوربيين . ثم إن مصلحة البريد التي كانت حتى الآن ملكا للأفراد اشترتها الحكومة ووضعها تحت إدارة موظف من موظفي إدارة عموم البريد في لندن . وفوق هذا وذاك أدخل تعديل على النظام القضائي . فقد أنشئت ==

الرحمة هذا فضلا عن أن حفر القناة قد أوقع الارتباك فيما بين الأباطورية
البريطانية ومصر من العلاقات لأنه حول هدف سيادة بريطانيا البحرية

== المحكمة المختلطة التي وضعت حداً لاعفاء الأجانب من طائلة العقاب في كثير من الأمور
الواقعة في دائرة القانون المدني . ثم استبدلت العقوبات المنصوص عليها في الشريعة
الاسلامية بعقوبات القانون النظامي الأوربي . ولا يفوتنا أن نذكر الاجراءات الشديدة
التي اتخذت في ذلك العهد لالغاء الرق والقضاء على تجارة الرقيق وهو إصلاح جدير بأن
تلهج بالثناء على من قاموا به نظراً لما كلف الخزانة المصرية من النفقات الهائلة مع أن
الخدويو بالغائه الرق كان يأتي أمراً مخالفاً لتعاليم دينه وتقاليده شعبه ومصالح الجمهور
(كذا !) أضف إلى كل ما تقدم مساعي الحكومة لترقية التعليم « في عهد سعيد باشا
كما ذكره المستردي ليون » لم تزد ميزانية التعليم عن ٦٠٠٠ جنيه سنوياً ولكنها بلغت
في عهد اسماعيل باشا ٨٠٠٠٠ جنيه هذا عدا ما أضيف إليها فيما بعد من إيراد بعض
الأراضي التي اشترت ثانية من شركة قناة السويس بمبلغ عشرة ملايين فرنك لجعل
التعليم مجانياً وليعيش الطلبة على نفقات الحكومة من مأكل ومشرب وملبس . وفي
ذلك العهد أيضاً أسست لأول مرة لافى مصر فقط بل في الأباطورية العثمانية
بأسرها ، مدارس البنات وأنشئت دار الآثار العربية في بولاق وأضيف إلى دار الكتب
عدد من أنفس الكتب حتى أصبحت من أشهر مكاتب العالم .

وإلى هذا التقدم أشار المستردي ليون في كتابه السالف الذكر ص ١٦٠ بقوله : « لقد
كان التقدم في التعليم والمعارف في عهد اسماعيل باشا مما يستوقف الأنظار إعجاباً وسيبقى
معدوداً كذلك في كل بلاد العالم . »

بل إن القنصل الأنجليزى العام فى الاسكندرية ذكر فى تقريره عن سنة ١٨٧٧
ص ٣٠ « أن مصر لم يكن بها فى سنة ١٨٦٣ سوى ١٨٥ مدرسة ولكن لم يأت
عام سنة ١٨٧٥ حتى بلغ عدد تلك المدارس ٤٦٨٥ مدرسة تحتوى على ما لا يقل عن
١١١٨٠٣ من الطلبة عدا الكثير من المدارس العالية التابعة للحكومة وللجاس البلدية
كما قد أنشئت أيضاً مدارس خاصة للجند لكل أورطة مدرسة . » وقد أكدت لجنة
التعليم العسكرى فى سنة ١٨٧٢ على ما ذكره القنصل البريطانى فى القاهرة سنة ١٨٧٣
ص ٣١ « أنه لم يكن يوجد فى الجيش المصرى بأجمعه من الأميين سوى ٢٤ شخصاً فقط . »
وعلى أن الاعتراف بالواقع لم يفتت جريدة التيمس نفسها وقد كانت ألد أعداء ==

ونقل محور اهتمامها الأمبراطورى فى الشرق الأدنى من الاستانة إلى

== اسماعيل باشا . فقد ذكرت فى عدد ٢٧ سبتمبر سنة ١٨٧٩ « أن مصر تقدمت تقديما مدهشا فى عهد اسماعيل باشا . . . فقد ضاعف موارد البلاد المادية إلى أقصى حد سمحت به معارفه وتجاربه . كما أن السكك الحديدية والموانى وقناة السويس هى من صنع يده زد على ذلك أنه سعى فى تحسين الزراعة بأن أدخل بذورا جديدة وطرقا حديثة وبذل كل جهد لأصلاح الإدارة من الوجهة القانونية والتنفيذية . »

اسماعيل باشا كما هو

دحض الأكاذيب القديمة

ليس أثلج لقلب المصرى من أن يرى كاتباً من كتاب الأجانب يتقدم لتبديد سحب الأكاذيب التى عقدت حول اسم أمير من الأمراء المصريين . وإذا كنا قد اقتبسنا عن كتاب حضرة الأستاذ عبدالرحمن الرافعى بك وخالفناه فيما ذهب إليه من الاستنتاجات عن اسماعيل وعهد اسماعيل فانه يطيب لنا الآن أن نقبس - وأن نقبس طويلا - من كتاب المستر كراييتس المسمى « اسماعيل أو الخديو المظلوم » . وإنما تفعل ذلك لأننا نريد أن نضع أمام القارىء صورة لاسماعيل كما هو قبل « الرتوش » التى أضافها أصحاب الأهواء ممن كانوا لا يصدرن إلا عن الهوى والغرض .

وإلى القارىء الكلمة الهادئة المتواضعة التى افتتح بها الكتاب . قال المستر كراييتس : « لست أنا مؤلف هذا الكتاب وإن كان اسمى موجودا على صفحة عنوانه . فهو فى الواقع عبارة عن سلسلة وثائق . ولا فضل لى إلا فى جمع مادة المعلومات وتركها لتلقى رسالتها على الملأ . »

« وإنما فعلت ذلك لأن هذه الصفحات ليست إلا تحديا لخرافة تاريخية . إذ هى تأتى بتاتا الانضمام إلى الأنشودة التى رددتها جوقة المرتلين بقيادة ملنر وكولفن وكرومر وترفض كل الرفض الموافقة على أن اسماعيل باشا أول خديو لمصر كان مبذرا وشهوانيا ولصا . وأحسب أن لا وزن لرأى الشخصى فى مسألة كهذه ولكن حتى الأسماء الكبيرة ليس يسعها التصدى للحقائق أو تحدى الأرقام المقتبسة عن المصادر الرسمية . »

« ولقد مرت خمسون سنة منذ أن ذهب اسماعيل المظلوم إلى المنفى وأحسب أن قد حان الوقت لتحرى الحقيقة عن عهد اسماعيل من أدلة المعاصرين التى لا يرقى الشك ==

القاهرة . فنظراً لكل هذه العوامل أصبح من العسير على مصر مهما

== إليها. لأن هذا الكتاب لو كان من بنات أفكارى بالمعنى الصحيح لما خرج عن كونه يعبر عن رأى الشخصى ضد آراء زمرة كبيرة متسلسلة من عيون المؤرخين . ولكنه فى شكله الحالى لا أثر لشخصيتى فيه .

« فالأدلة التى أسوقها هنا هى تحدى لما طالما رددته ألسن مشاهير الكتاب من العبارات . وإنى لأرفض بتاتا قبول توكيداتهم واستنتاجاتهم . بل بالعكس أورد مقتبساتى الخاصة بعهد اسماعيل من صلب الوثائق المعاصرة لنقض ما زعموه بحسن نية دون التعرض لجوهر الموضوع . إذ الغاية التى أرمى إليها هى هدم خرافة تحولت مع الزمن إلى عقيدة . وإنى إذ أفعل ذلك لا أفعله عن طريق المهاترة والهجو بل باقتباس النصوص وكتابة الحواشى وعندى أن اظهر الحقيقة هو أفضل بكثير من التفاخر بالتأليف . »

وقد أشار المستر كراييتس إلى ما اعتمد عليه من المصادر لجمع المادة اللازمة لكتابه فأشاد بذكر جلالة الملك فؤاد وسماحه له بلا شرط ولا قيد بالاتصال بقسم المحفوظات الملكية بقصر عابدين حيث عثر على كافة المعلومات والوثائق التى لم تر النور من قبل . ولما كان قنصل أمريكا الجنرال المستر ادوين دي ليون قد لعب دورا مهما فى حمل أنصار ابراهيم باشا الهامى بن عباس باشا الأول عن التنازل عن مناوأة سعيد باشا وافساح الطريق له ليتوأ العرش بصفته صاحب الحق بعد عباس باشا فقد كان طبيعيا أن تكون دار المفوضية الأمريكية فى القاهرة حافلة بالوثائق الخاصة بعهد اسماعيل باشا . على أن المستر كراييتس لم يشأ إحراج ولاية الأمور فى المفوضية المذكورة بل لجأ إلى تعزيز أقواله وأدلته بما عثر عليه فى دار المفوضية المصرية بواشنطن التى كانت قد تلقت الأذن من دار المحفوظات التابعة للحكومة الأمريكية بواشنطن بأن تأخذ صوراً شمسية لكافة الوثائق الخاصة بعهد اسماعيل باشا الموجودة تحت يد الحكومة الأمريكية .

وقد أراد المستر كراييتس أن لا يطالع الناس بتاريخ اسماعيل قبل أن يضع أمام أعينهم صورة لعهد سعيد باشا وهى فى مجملها مشابهة للصورة التى أوردناها نحن فى هذا الكتاب . غير أنه روى حكاية طريفة عن كيفية حدوث التعارف بين محمد على باشا الكبير وبين ماتيو دلسبس أول قنصل عام لفرنسا عين فى مصر بعد توقيع معاهدة اميان فى سنة ١٨٠٢ لا نرى بأساً من ذكرها .

كان الجالس على عرشها من أوسع الأمراء حيلة وأشدهم ذهاء ومهما

== فقد كان محمد علي وقتئذ ضابطاً صغيراً في الجيش التركي فدعى بين من دعاهم المسيو دلسبس ذات يوم إلى وليمة فاخرة في دار القنصلية الفرنسية . ثم تبين في اليوم التالي أن أحد المدعويين استل عدداً كبيراً من الملاعق والشوك الفضية التابعة للقنصلية . فقامت الشكوك حول محمد علي وبخاصة لأن سراويله الواسعة - على نحو ما كان يلبسه القوم - كانت بحيث تساعد على إخفاء الشيء المسروق . فأمر المسيو دلسبس بإجراء تحقيق من أجل « شرف فرنسا وشرف مدعوها » . فأظهر التحقيق إدانة شخص آخر عدا محمد علي وهنا حذب القنصل العام الفرنسي على محمد علي وأظهر أمام الملاء مبلغ احترامه له .

فهذا الحادث لعب دوراً مهماً في توثيق الصلات بين مصر وفرنسا . وطالما أشار إليه محمد علي بعد اعتلائه الأريكة أمام فرديناند دلسبس بن ماتيو دلسبس عند ماعين الأول قنصلاً عاماً في مصر مكان أبيه وحضر إلى بلاط محمد علي في سنة ١٨٣٢ ليهنئه مع بقية رجال السلك السياسي على ما أحرزه إبراهيم باشا من الانتصارات في سوريا . ثم عهد محمد علي إلى فرديناند بتدريب ابنه سعيد باشا على الفروسية وركوب الخيل وخلافه من الأعمال الرياضية التي أشرف عليها عند الكتابة على عهد سعيد باشا .

ثم استطرد المؤلف فكتب عن عهد سعيد بما لا يخرج على ماسطرناه وأشار إلى مسألة لعبت دوراً مهماً في توثيق الصداقة بين مصر وفرنسا ، وهي ولع سعيد باشا بكل « المكارونة » . ولما كان سعيد وهو في ريعان شبابه ممتلياً الجسم فقد حظر عليه أبوه أكل الأطعمة الدسمة وكان يكلفه بالأعمال الرياضية العنيفة مدة ساعتين ولا يسمح له بزيارة بيت أحد عدا بيت المسيو ماتيو دلسبس . ومن ثم نشأت الصداقة بين الأمير الشاب وبين فرديناند . وكثيراً ما كان سعيد ياجأ في غفلة أبيه إلى بيت القنصل ليلتئم مع فرديناند مالد وطاب من أطباق المكارونة الدسمة . ولما انتقل ماتيو إلى باريس وسافر سعيد إليها لإتمام دراسته ساقته قدماءه ومعدته مرة أخرى إلى بيت دلسبس حيث توثقت بينه وبين فرديناند عرا الصداقة .

لهذا لم يكن عسيراً وهذه صداقتهما في الصغر أن يفتح فرديناند سعيداً في أمر مشروع حفر القناة في الرحلة الصحراوية كما قدمنا وإن كان المؤلف قد ذكر أن مهارة فرديناند في الرماية وإعجاب حاشية سعيد بها هي التي أتاحت له فرصة الكلام في مشروع القناة . وسواء أكانت مهارة فرديناند في ركوب الخيل أم في الرماية فالنتيجة واحدة وهي ==

كانت حكومات الأرض ديمقراطية أن تحول بين الأباطورية

== أن ذلك السياسي الفرنسي استغل صداقة الشباب بينه وبين سعيد وحصل منه على امتياز بحفر القناة مع ما في عقد الامتياز من الشروط الفادحة وبخاصة أعمال السخرة واستغلال الأراضي المتاخمة للقناة بلا مقابل .

وقد ذكرنا لك المواد الأثني عشرة التي تضمنها عقد الامتياز الذي كان سعيد يكتر فيه من الإشارة إلى « صديقه دلسيس » وترديد عبارة « إلى صديقي المخلص الكريم المحمد والرفيع المقام المسيو فرديناند دلسيس . »

ونقطة مهمة في ذلك العقد لفت إليها المستر كرايتس الأنظار في معرض كلامه عن المصاعب التي واجهت اسماعيل عند اعتلاء العرش . وكانت هذه النقطة موضع خلاف كبير بين شركة القناة من جهة واسماعيل باشا من جهة أخرى . وهي الخاصة بتقديم (أو تسخير) العمال المصريين في أعمال حفر القناة . فان المسيو دلسيس تخاشى ذكر كلمة « التسخير » في صلب العقد بما أوهم الملاء بأن الحكومة المصرية هي التي كانت من تلقاء نفسها تسخر هؤلاء العمال . ولو ذكر دلسيس كلمة « التسخير » أو لو أنه ألمح إليها لأثار عاصفة شديدة من المعارضة في إنجلترا وأمريكا حيث كانت تدور رحا حملة عنيفة لمحاربة النخاسة وتجارة الرقيق . لأن المسألة ما كانت تفسر وقتئذ بغير معناها الحقيقي الوحيد وهو الرغبة في إنشاء هذا الطريق المائي لخدمة الانسانية بعرق جبين عمال السخرة !!

وقد مر بك أن سعيدا كان قد قرر إلغاء النخاسة وأنشأ في السودان محطة لمحاربتها ولكن سماحه لفرديناند بتسخير أربعة أخماس العمال اللازمين لحفر القناة كان له معنى خاص . وليس يجوز في الأذهان افتراض أن سعيدا لم يتوقع أن يؤدي سماحه هذا إلى إحياء عهد النخاسة تحت ستار آخر . وخلاصة القول أن اسماعيل عند ما تبوأ العرش وجد تجارة الرقيق رائجة وبحسبك أن وجود ٢٥٠٠٠ من عمال السخرة في أعمال حفر القناة لصفة دائمة كان طبعاً يقتضى « توريد » ضعف هذا العدد على الأقل من « الأنفار » لسد العجز الطارئ وملء الثغرات من آن إلى آخر .

واستطرد المستر كرايتس فقال ما خلاصته : ليس هذا كل ما واجه اسماعيل عند اعتلائه العرش . بل هناك حرب المكسيك التي تورط فيها سعيد قبيل وفاته بثمانية عشر يوماً فقط وكانت خليقة بأن تستنزف المال والرجال من مصر دون أن تفيد هذه شيئاً منها . وهذه الحرب التي لم تكن لمصرفها ناقة ولا جمل تكفي للدلالة على مبلغ ما كان لفرنسا ==

البريطانية وبين وضع حامية في البرزخ لتقوم بواجب السهر على خط

== من قوة النفوذ في وادي النيل . ولسنا نتجنى على الحقيقة إذا قلنا إذن إن سياسة مصر الخارجية كانت تجرى تبعاً لأهواء باريس . فان مجرد توسيط نابليون لدلسبس ليلتمس من سعيد بأن يمدده بكتيبة من الجنود السودانية للاشتراك في تلك الحرب النائية ومبادرة سعيد باجابة الالتماس المذكور لينطق بعظم النفوذ الفرنسي وهو ما كان يتبرم به الشعب المصري وقتئذ ويعارض فيه أشد المعارضة كما شهد بذلك أحد القضاة الهولنديين بالمحاكم المختلطة المصرية في ص ٤٦ من الجزء الأول من كتابه «مصر وأوروبا» إذ قال ما نصه : « إن قناة السويس والسيطرة الفرنسية لهما من الأمور التي يمجها المصريون فان مصر هي التي قامت بدفع كافة نفقات حفر القناة تقريبا . وليس يخفى أن القناة قد حفرت عبر الصحراء وهي لذلك منعزلة عن الدلتا . وقد أدى حفرها إلى تجريدنا من ذلك الممر التجاري الدولي الذي جعل من مصر ذلك الطريق الذي نعرفه والذي كان ينتظر أن يتعاضم شأنه مع الزمن . ولكن دللسبس خدع سعيدا كما خدع اسماعيل (كذا !) فقد حملهما على الاعتقاد بأن القناة لن تكون فخرا لمصر بل وتكون أيضا مشروعا راجحا تنفيذ منه البلاد . » وإلى جانب هذا كله واجه اسماعيل عند اعتلاء العرش ما خلفه سعيد من الديون التي قلنا إنها تضيف عن أحد عشر مليون جنيه .

وإلى هذه الحقائق أشار البارون دي ما لورتى في ص ٧١ من كتابه : « مصر - الحكام الوطنيون والتدخل الأجنبي » المطبوع في لندن سنة ١٨٨٢ بقوله : « لقد ترك سعيد لخلفه ديناً يبلغ ١٠٠٠٠٠٠٠ جنيه وإدارة متعفنة وفوضى ضاربة . أطنابها في كل مكان هذا عدا امتياز قناة السويس الضار بمصر وما ينطوى عليه من تعهدات محزنة دسها ذلك الساحر الكبير دللسبس على سعيد وحمله على توقيعها دون قراءتها كما أكد لي ذلك أحد وزراء سعيد . والبلاد تعج بأكبر مظاهر التدمير من أقصاها إلى أقصاها . »

وقبل أن نعرض لكتاب المستر كراييتس القيم بالتفصيل لا نرى ندحة عن أن ننقل للقارىء بعض ما كتبه المستر « إلود » تقريراً فيه وقد نشرته مجلة الاسفنكس بتاريخ ١٦ ديسمبر سنة ١٩٣٣ . ووجه الأهمية في إثبات هذا التقرير ان المستر إلود كان قد وضع كتاباً أسماه «المرور بمصر» تناول فيه اسماعيل بمر الاتقاد . ويظهر انه كان كمن سلفه من الكتاب الأفرنج ممن عرضوا لحكم اسماعيل بالنقد والتجريح . ولكن المستر إلود ==

مواصلات حيوى كهذا يسهل الاعتداء عليه . على أن العجلة التي سار بها

يختلف عن أولئك الكتاب بحسن نيته ورجوعه الى الحق متى ظهرت له بوادره . فلقد عاش ليرى ما أورده المستر كرايبتس في كتابه فبادر إلى كتابة التقرير المشار إليه وقد ورد فيه :

« إن ميزة كل ما يكتبه المستر كرايبتس أنه لا يترك في نفس القارىء أى شك في وجهة نظره ، ومن هنا ترى عبارته تمتاز بالسهولة والبساطة . ويرى المستر كرايبتس أن العالم قد كون فكرة مشوشة عن اسماعيل ، ولما كان مؤمناً بعدالة القضية التي تولى الدفاع عنها فقد شحذ غزيمته وهمته لكتابة تاريخ هذا الأمير من جديد . وفي الحق إن اسماعيل لفي حاجة الى محام تفيض روحه بالعطف بعد ما ظهر من قسوة التاريخ على ذكره . وليس شك في أن اسماعيل كان أحد الأمراء الأفاضل ولكنه كان إنساناً . ولكونه كان كذلك كان طبيعياً أن لا يكون كاملاً في تصرفاته وأعماله . بيد أنه كان رجل المتناقضات الغريبة والأضداد الباهرة . وقد انحصر اهتمام الناس في أخطاء اسماعيل بلا التفات الى حسناتيه الرئيسيتين وهما إلغاء النخاسة في مملكته وإنشاء المحاكم المختلطة . ومن الصعب أن يتصور الانسان الآن مبلغ الفوضى التي كانت ضاربة أطنابها في مصر قبل إنشاء هذه المحاكم

ثم استورد الكابتن لجود فقال :

« وكتاب المستر كرايبتس لا يقرأ فقط مجرد ما حواه من المزايا العديدة ولكنه يصلح أن يتخذ كصحح لما كتبه عن اسماعيل المؤلفون السابقون الذين عددهم المستر كرايبتس في ص ٣٣ من كتابه أمثال الماركيز زتلند ولورد كرومر والمستر كولفن ولورد ملنر والمستر لجود - كاتب هذا التقرير - والمسيو فريسينيه والكونت بنيديتي . وللكتاب الحاضر ميزة واحدة على الأقل لم تتوفر فيما سبقه من الكتب ألا وهي ان صاحبه قد تمتع بحق الاطلاع على دار المحفوظات في قصر عابدين بلا شرط ولا قيد وبعد أن تزود منها بما شاء صدر الكتاب بمثابة تحد لما سمي « بخرافة تاريخية » رسخت في الأذهان عن حكم اسماعيل . وقد خصص المؤلف ثلاثة فصول بأكملها لهدم الخرافة القائلة بأن اسماعيل كان مبذراً مستهترا ووفق بالعكس إلى إقامة الدليل على ان الخديو كان يبذل أقصى العناية في الاحتفاظ بموارد البلاد . وقد ذكر لنا على صحة قوله مثلاً صالحاً لم يتنبه له أكثر الكتاب السابقين ألا وهو أن اسماعيل بعد أن باع لانجلترا أسهمه =

اسماعيل بالبلاد في سبيل الأفلاس ووضعها تحت الحراسة المالية الأجنبية

== البالغ قدرها ١٧٧٠٠٠ كان لا يزال متمسكا بحصة مصر في أرباح قناة السويس وقيمتها ١٥٪. وقد باع خلفه توفيق هذه الحصة المهمة بعد اعتلاء العرش بتسعة أشهر فقط . وهنا يقوم سؤال لمصلحة اسماعيل وهو لماذا باع توفيق أو مستشاروه هذه الحصة؟ ولم يشأ المؤلف أن يخوض في هذا البحث لأن كتابه خاص باسماعيل لا بالفوضى التي خيمت على البلاد في أثناء وجود المراقبة الثنائية .

وختم المقرظ أقواله بأن المستر كراييتس جعل غايته انقاذ سمعة اسماعيل من الوجهة المالية تاركاً التعرض للوجهات الأخرى إلى كتاب آخر يصدره في المستقبل .

أصحاب السمو الأمراء ومسؤوليتهم حيال التاريخ

وما دمنا بصدد ما وضعه كاتب أجنبي كالمستر كراييتس عن عهد اسماعيل فليس يسعنا إلا أن نلاحظ أن معظم الكتاب الأجانب - إذا افترضنا فيهم حسن النية - إنما يكتبون عن مصر وأمرائها بناء على ما تصل إليه أيديهم من المعلومات . ومن التجني أن نطالبهم بالتحرى أو التدقيق في تلك المعلومات . وما لا ريب فيه أنه لولا اهتمام جلالة الملك فؤاد بتاريخ مصر وأولاً بتاريخ الأسرة المحمدية العلوية ثانياً وبتاريخ والده اسماعيل باشا ثالثاً لما استطاع كاتب كالمستر كراييتس أن يتوصل إلى جزء من الحقائق التي أذاعها في كتابه والتي تعد بمثابة محاولة صادقة لكتابة التاريخ من جديد .

وليس من العدل في شيء أن يطلب إلى جلالة الملك فؤاد وحده أن يعنى بتاريخ أسرته في حين أنه يوجد عدد من أصحاب السمو الأمراء ولديهم من الوقت ما يتسع للبحث والتقصي والتدقيق في تاريخ الأسر بما ليس لدى جلالة الملك مثله . ففي رقبة أصحاب السمو الأمراء إذن بصفتهم مصريين دين كبير لا بالنسبة لتاريخ الأسرة وحدها بل بالنسبة لتاريخ مصر أيضاً ينبغى أدائه ويعد التقاعس عنه تقاعس في أداء أقدس الواجبات .

سمو الأمير محمد علي وعباس باشا الأول

وهذه الملاحظة تجرنا طبعاً إلى العودة إلى ساكن الجنان عباس باشا الأول . فلقد اطلع صاحب السمو الأمير محمد علي على ما ذكر هنا خاصة بتاريخ عباس الأول فأبدى اهتماماً كبيراً لولا أنه جاء لسوء الحظ دون ما ينتظر من أمير مصرى حباه الله تعالى بنعمتي الصحة والثروة الضخمة وظل أمداً طويلاً ولي عهد الدولة المصرية . ولسنا ننكر نشاط سمو الأمير وعنايته بتدوين رحلاته العديدة في مشارق الأرض ومغاربها ==

تجاوزت عجلة زملائه الأمراء في البلاد المجاورة لشاطئ البحر المتوسط

وما يضمنها من الملاحظات الدقيقة . بل ونذكر أنه عهد إلينا بترتيب وتبويب رحلته الأخيرة إلى الهند ، ولكن هذا النشاط المحمود كان ينتظر من سموه أن يبدي نشاطاً مثله إن لم نقل ضعفه فيما يختص بالجانب المصري بصفته ابن المغفور له توفيق باشا الذي نشبت الثورة العراقية المشؤومة في أيامه وبصفته شقيق سمو الخديو السابق الذي نشبت الحرب العالمية السابقة في أثناء حكمه ثم بصفته أميراً كانت ولا تزال تربطه عدة روابط وثيقة بكثير من أبلطة أوربا وأسرها وكبار ساستها ، نقول نظراً لصفات سموه هذه كان المنتظر أن يعنى سموه بعض العناية بتدوين ما يعرفه من معلومات وثيقة عن تاريخ مصر وخاصة في عهد عباس الأول والمغفور له والده توفيق باشا مما يصح أن يكون قد أغفله كتاب الأفرنج أو تعمدوا تجاهله لحاجة في نفس يعقوب . وإذا كنا نعتمد في كتابة تاريخ بلادنا على المؤرخين الأفرنج فليس يحق لنا أن نغلو في لومهم وانتقادهم إذا رأيناهم انصرفوا عن جادة الصواب أو تجافوا عن مواطن الصدق والنزاهة فيما يكتبون .

بين المعرب وسمو الأمير عمر طوسون

وما كان أشد انتقاد سمو الأمير محمد علي علي ما أوردناه هنا عن عهد عباس الأول منقولاً عن المصادر الأفرنجية . ومن ثم طلب إلينا حضرة سكرتيره بأمر سموه أن نتصل بسمو الأمير عمر طوسون ليثفضل بتزويدنا بما لديه من المعلومات عن عباس الأول . ولما كنا نحرص على الحصول على الحقائق التاريخية مهما كلفنا الأمر فقد بادرنا بالكتابة إلى سمو الأمير عمر وأرفقنا بكتابنا الجزء الخاص بعهد عباس الأول ليطلع عليه سموه .

ولما كان سموه قد اعتاد أن يرد على كل من ياجأ إليه في البحث عن حقيقة تاريخية فقد تفضل حرسه الله وكلف حضرة باشمعاون الدائرة بأن يرد علينا بالخطاب التالي الذي رأينا من حق التاريخ أن نثبته بحذافيره . قال حضرة الباشمعاون بعد الديباجة : —

اطلع حضرة صاحب السمو الأمير علي خطابكم وعلى ما كتبتموه عن عباس الأول في كتابكم الذي تؤلفونه الآن وقد كلفني سموه أن أبلغكم أن مسألة تاريخ حياة عباس في الحكم ليست بالمسائل الهينة وأن ما كتب عنه من مؤرخي الأجانب ليس كله صحيحاً وليس كله خطأ والأمر يحتاج إلى مزيد بحث وتفريغ ورجوع إلى مصادر تاريخية وسمو الأمير ليس عنده من الوقت ما يساعده على بحث هذا الموضوع من جميع أطرافه وكما يجب أن يبحث . وغاية ما يمدن سموه أن يخبركم به وهو على ثقة =

من الشرق إلى المغرب ومن فارس إلى استامبول. ويكاد يكون هذا



سمو الأمير عمر طوسون *

= ويقين هو أن الأمن في عهد عباس كان في غاية الاستتباب والمالية المصرية كانت موضوعاً على أسس وموازين ثابتة وهما ركنان عظيمان لا يستهان بهما في نظام الحكومات. فتوافرها لعباس من الأمور التي تعد مفخرة لحكومته. وقد روى لنا ذلك الجلة من الذين أدركوا حكمه وأكده لنا على وجه أخص المغفور له رياض باشا. ولقد ذكرت في الكلمة التي كتبتها عن هذا الوالي مانصه: —

« ولم يذهب إلى أوروبا في عهده من طلاب البعثات سوى ١٩ طالب » والحقيقة أنه أرسل إلى أوروبا أكثر مما ذكرتموه في هذه الكلمة التي نقلتموها عن غيركم بالطبع وأول من قالها المرحوم جورج زيدان بك من كتاب العربية على ما نعلم وتبعه فيه أمين باشا سامي في كتابه «التعليم في مصر» ص ١٤ ثم تبعهما كثيرون منهم عبد الرحمن بك الرافعي في كتابه «تاريخ الحركة القومية»

* هذه الصورة استعارها المغرب من سمو الأمير عمر طوسون.



السيد عبد الله نديم
خطيب الثورة العراقية

الأفلاس المقرون بالاحتلال
الأجنبي ظاهرة مألوفة من مظاهر
الاحتلال في إبان دور الانتقال من
دولة إسلامية إلى مستوى أمة غربية
في كل من مراكش والجزائر وتونس
ومصر وتركيا . وعلى أنه لولا
وجود القناة لأمكن بسبب المنافسات
الدولية تسوية الأزمة المالية في القاهرة
بالشكل الذي سبق أن سويت به
الأزمة المالية في الأستانة وذلك

= وحقبة عدد من أرسلهم هذا الوالي للتعلم في أوروبا مجهولة لدينا . ولكننا أثبتنا
منهم في كتاب لنا تحت الطبع وسيظهر قريباً واحداً وأربعين . على أن المرحوم السيد
عبد الله نديم حصر عددهم فقال ثمانية وأربعين . الخ الخ

وفي الحق ليس يسعنا إلا تقديم الشكر لسمو الأمير عمر على ما يبذله من الوقت والجهود
في تقصي وجهات النظر المصرية وما ينشره من المقالات والكتب بين آن وآخر خاصاً
بشؤون مصر مما يساعد على تنوير الأذهان ويثلج صدور الشعب لما يرونه من اهتمام أحد
أمرأهم بشؤون بلاده . وليس شك في أن سموه أكثر الأمراء نشاطاً وأعظمهم يقظة
وأشدهم غيرة على مصر وكل ما يمس سمعة مصر وحبذا لو اتخذ بقية أصحاب السمو
الأمراء منه قدوة صالحة يعملون على منوالها .

ملاحظات سمو الأمير محمد علي

وقبل أن يصل رد سمو الأمير عمر طوسون تشرفنا بالمشول بين يدي سمو الأمير
محمد علي في قصره بالمنيل وتناول الحديث ما كتبناه في صدد عباس الأول .
وقد بدأ سموه الحديث بملاحظة سديدة وهي أن كتاب الأفرنج بالغاً ما بلغ من =



صورة فريدة لسمو الأمير محمد علي

== حسن نيتهم لن يراعوا الحقيقة أو يتوخوا النزاهة فيما يكتبونه عن مصر وأمراء مصر .
ومع إيماننا بهذه النظرية فقد لاحظنا لسموه أن أمراء مصر مطالبون قبل غيرهم بتنوير
الأذهان في كل ماله مساس بأرومتهم .

وهنا دخل سموه في الموضوع رأساً فقال ما خلاصته :

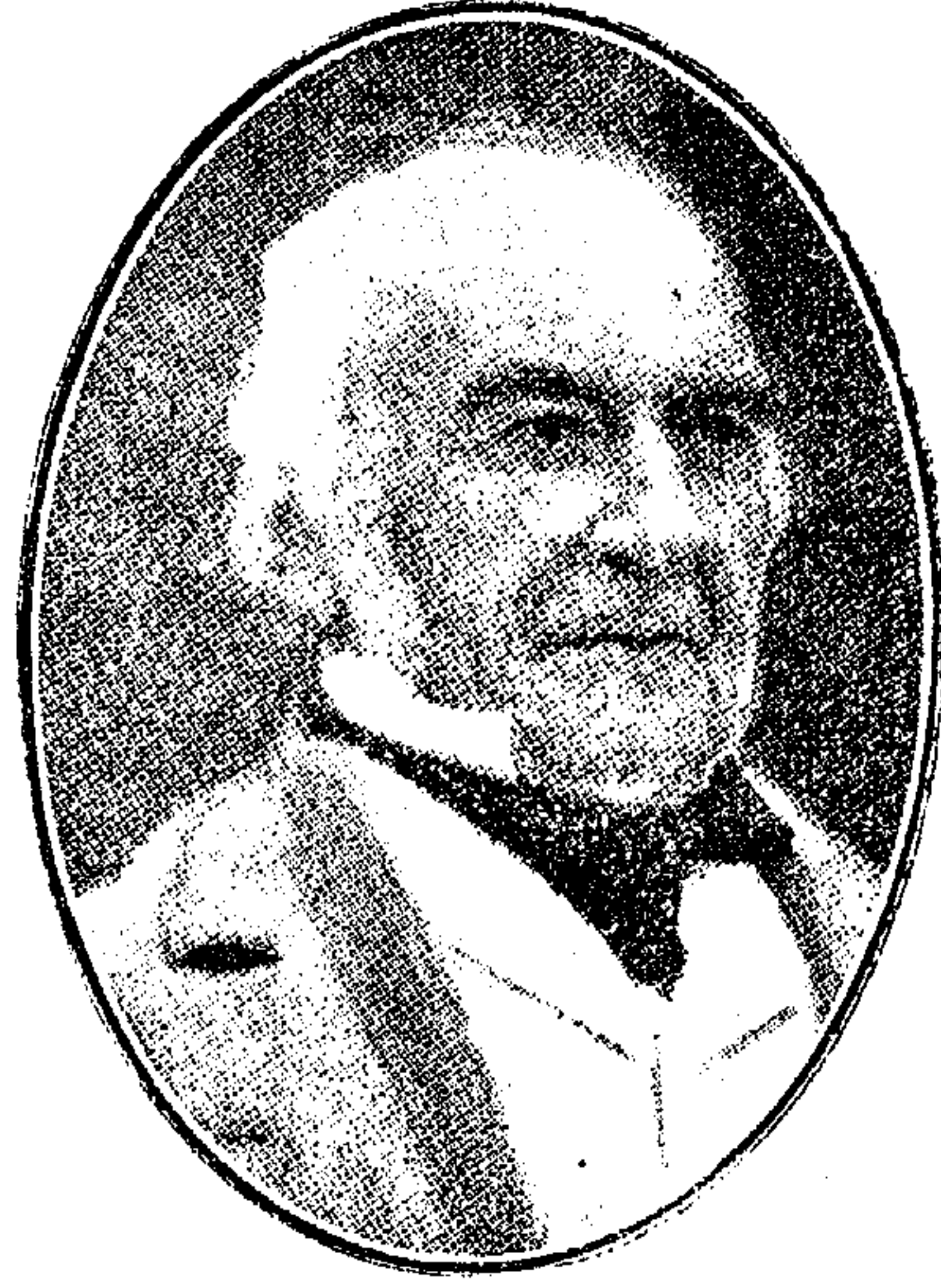
يعرف كل إنسان كم كان جدنا الكبير محمد علي باشا ميالا للفرنسيين وكم أفسح
لأبناء جلدتهم في غرس بذور ثقافتهم في وادي النيل . وقد أخذ هذا الميل يزداد مع
الزمن إلى أن نشبت الحرب السورية حيث تقدمت الجيوش المصرية بقيادة ابراهيم باشا
إلى قرب الاستانة .

ولشد ما كانت خيبة آمال محمد علي عند ما رأى فرنسا تنضم إلى خصومه في عملية
حرمان مصر من ثمرة تلك الفتوحات العظيمة وخاصة إخراجها من سوريا بصفقة المغبون .
وهذا المسلك الذي سلكته فرنسا حيال محمد علي هو الذي جعله يصرح في كل
مناسبة بأنه لا يتوقع أي خير من الفرنسيين . وبديهي أن تصريحات كهذه يفوه بها =

بوضع رقابة مالية من نوع ما . ولكن القناة هي التي شقت وزاره غلادستون



المستر جون برايت الوزير البريطاني
الذي احتج على احتلال مصر واستقال
من وزارة المستر غلادستون



المستر غلادستون رئيس الوزارة
البريطانية ورئيس حزب الأحرار
والذي تم احتلال مصر في أيامه

= منشىء الأسرة المحمدية العلوية على مسمع من اولاده وأحفاده لم يكن ينتظر أن تمر دون
أن تترك أثراً في نفوسهم . ومن هنا كانت الشعور الذي عرف عن عباس باشا
أزاه الفرنسيين .

ولكن هناك مسألة أخرى تركت أثراً غير حميد في نفس الأمراء ضد فرنسا . ففي
موقعة نافارين عند ما تألبت أساطيل فرنسا وروسيا وانجلترا على العهارة التركية المصرية
وقبيل أن تفتح عليها النار ظلما وعدوانا انسحب الضباط البحريون الفرنسيون الملحقون
بخدمة الأسطول المصري وتخلوا عن مناصبهم في أخرج الأوقات وأدقها بالنسبة لمصر .
وعمل كهذا لم يكن غريبا أن أدى إلى اشمزاز عباس باشا من الفرنسيين لأن فرنسا
كانت لها ندحة عن سلوك هذا المسلك . فلقد كان في وسعها قبل نشوب الحرب - التي كانت تعلم
سلفا بوقوعها - أن توعد إلى أولئك الضباط بالاستقالة من خدمة الأسطول المصري
ليتسنى للحكومة المصرية في الوقت المناسب أن تعين بدلا منهم . ولكن عمل فرنسا ومقابلتها
مصر وأمير مصر الذي كان شديد الميل إليها بهذا الأمر الواقع كان له أسوأ الأثر لا في
نفس محمد علي وحده بل في نفس أولاده وأحفاده .

ولقد كان من أعظم مزايا محمد علي باشا ترفعه في أثناء القتال عن اغتصاب الأملاك =



الأميرال نايبير

قائد العمارة البحرية البريطانية التي
حاربت ابراهيم باشا في سوريا
كما تراه في ص ١٥٧ من الكتاب

على نفسها وجعلت الاحتلال البريطاني أمراً
لامناص منه .

على أن فشل اسماعيل في الشؤون المالية
ليدعو إلى الحيرة حقاً . فان هذا الأمير بدأ
حياته المالية أحسن بداية وسار سيراً حميداً
في الشؤون الأخرى . ولما كان سعيد قد
مكنه من التدريب على معالجة الشؤون العامة
فانه سرعان ما برهن على أنه من خيرة رجال
الأعمال في إدارة الضياع الشاسعة التي خلفها

الخصوصية التابعة لرعايا الأعداء . ولم يك هذا شأنه مع الرعايا الأتراك فحسب أثناء
الحرب السورية بل أنه برغم خصومته لانجلترا ترك طريق الهند مفتوحة أمام الانجليز
مما جعل شركة الهند الشرقية تضرب ميدالية خاصة باسمه وتقدمها له دليلاً على اعترافها
بموقفه المشرف . ومن هنا كان تقدير الانجليز له .

عباس باشا وبغضه للفرنسيين

فلما أن تبوأ عباس باشا الحكم كان كما قلنا تحت تأثير بغضه للفرنسيين بسبب موقفهم
حيال جده محمد علي في الحرب السورية وفي معركة نافارين . ونظراً لأن الحروب التي
أشعل محمد علي و ابراهيم ناراها في كافة أنحاء الأرض دون أن تفيد مصر شيئاً منها
كانت قد انهكت عاتق البلاد فان عباس رأى أن يلجأ إلى الاقتصاد في بعض المصروفات
العامة . فشرع في الاستغناء عن كثير من المدرسين الفرنسيين وإحالتهم إلى المعاش . فلما
ارتبكت الحالة في المدارس بسبب الاستغناء عن أولئك المدرسين الفرنسيين رأى عباس
تعطيل هذه المدارس .

على أن ذلك لم يكن معناه أنه أغفل شأن التعليم بتاتاً . كلا فقد افتتح مدرسة «المفروزة»
وهي المدرسة التي طارت شهرتها في الآفاق . فقد نشأ فيها كافة الضباط العظام ممن
كانوا عدة اسماعيل باشا فيما أقدم عليه بعد من الفتوحات العظيمة في السودان وغيره .
ومما يشهد بحسن سياسة عباس وبعد نظره أنه رأى أن يريح بلاده من متاعب

له أبوه ابراهيم وفيما جمعه من ثروة خاصة هائلة . وفي الحق إنه نجح ايما

= الحروب التي ذاقت مرارتها في عهد جده وعمه ولذا لزم خطة السلام . وهي بلا ريب خطة حميدة كانت نتيجتها أن مالية البلاد ظلت سليمة .

شهادة عباس

نعم إن عباس لم يسمع الناس عنه كثيرا لعدم اتصاله بالأفرنج وبغضه لهم ولكن سوف يعرف الناس حقيقته بعد نشر مذكرات نوبار باشا التي يباشر طبعها ابنه البكر . ومما رواه نوبار باشا في هذه المذكرات عن عباس شهادته وحده على موظفيه . وقد ضرب مثلا على هذا بالحكاية الآتية :

فلقد وصل إلى أسماعه مرة أن الموظفين لم يتقاضوا مرتباتهم مدة ثلاثة أشهر كاملة فتولته الدهشة وقال « كيف يكون هؤلاء المساكين محرومين وخزائني مكدسة بالأموال ؟ » ثم أمر من فوره باخراج كل ما في خزائنه من الفضة وإرساله إلى دار الضرب بخانة لصكه نقودا وتوزيعه على هؤلاء الموظفين قائلا « إنهم أولى مني بذلك الكنز . » ولقد كانت لعباس الأول نظريته فيما يختص بأملك التاج . فعند ما أرسل جلالة السلطان دولة فؤاد باشا الصدر الأعظم إلى مصر لأزالة ما كان من سوء التفاهم بين عباس وبقية الأمراء بسبب تقسيم تركة محمد علي كان من رأى عباس أن يبقى كل ما خلفه محمد علي ملكا للتاج يتصرف فيه الجالس على العرش لمصلحة الدولة وليس يحق لأمير من الأمراء أن يطمح إلى شيء منه . أو بعبارة أخرى إنه كان يرى أن محمدا عليا لم يؤسس ذلك الملك العظيم ليكون تراثا خاصا يتقاسمه الأبناء والأحفاد كلا بل ليبقى ملكا للدولة ويكون لرئيس الدولة وحده أى الجالس على العرش حق التصرف فيه على أن ينتقل كاملا إلى حيازة من يخلفه على العرش وهم جرا . ولكن كان الأمراء الآخرون على غير هذا الرأى وتوسط جلالة السلطان في الأمر وقضى بينهم بتقسيم التركة .

عباس باشا وعنايته بجوارى البلاط

على أن أهم ما عرف عن عباس أنه أول من عنى بمستقبل جوارى البلاط . فان أمراء الأسرة كثيرا ما استولدوا جواريتهم أمراء تركوا لهم ثروة ضخمة لم تفد الأمهات منها شيئا لا لسبب إلا لكونهن لسن أميرات . وقد تطعن إحدى هؤلاء الجوارى في السن دون أن تجد ما يمسك رفقها اللهم إلا ما يتصدق عليها به ابنها الذي قد يكون من الأمراء ذوى الثروة العريضة التي تلقاها عن أبيه .

نجاح بفضل حسن إدارته في مضاعفة مساحة ضياعه عدة مرات . فبعد

= لذا قرر عباس تخصيص معاش هولا الجوارى الطاعنات في السن وهي حسنة طالما ذكرها له بعض الأمرء فيما بعد بمن سدت في وجوههم الأبواب فلم يجدوا ما يلجأون إليه إلا معاش والداتهم .

ولم ينس اسماعيل باشا أن يشيد بهذه الحسنة لعباس وأن يذكرها له فيما بعد بالخير . وإلى هنا انتهت ملاحظات سموه . وكما كنا نتمنى أن يكرس سمو الأمير جزءا من وقته لوضع تاريخ مسهب عن عهد عباس الأول دون أن يترك الناس متلهفين على ما ستحدثهم به مذكرات نوبار باشا . ولكن

ما كل ما يتمنى المرء يدركه تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن

عود إلى حديث اسماعيل قبل اعتلاء العرش

حبه للاقتصاد

ونعود الآن بعد هذا الاستطراد الطويل إلى حديث اسماعيل باشا لتبين كيف كان قبل اعتلاء العرش الرجل المشار إليه في الشؤون الاقتصادية والعناية بموارد البلاد حتى لقب بأمر الفلاحين .

فلقد حدثنا المستر كرايتس نقلا عن البارون دي مالورتي « أن اسماعيل رأى طيلة السنوات التسع التي قضاها سعيد على العرش أن الحكمة تقضى بأن يظل خلف الستار لا يشغل باله إلا بالشؤون الزراعية وإدارة أملاكه الشاسعة . »

وهذا ما يؤيده المستر ادوين دي ليون القنصل الأمريكي في اسكندرية من ٢٦ نوفمبر سنة ١٨٥٣ إلى ٤ مارس سنة ١٨٦١ إذ قال :

« إن اسماعيل كان يرقب الفرصة المناسبة للظهور غير حافل الا بالشؤون الزراعية تاركا الأعلان عن نفسه خوفا من إثارة حسد سعيد باشا مهتما فقط بتوسيع أملاكه باعتبارها إحدى تساليه إلى أن أصبح بحق أكبر مزارع في مصر بأسرها . »

وإلى هذه الميزة أشار الكاتبان الفرنسيان « اميدى ساكرى ولويس اوتريبون » في كتابهما المسمى « مصر والحديو اسماعيل باشا » المطبوع في باريس سنة ١٨٦٥ ص ١١ إذ قالوا مانصه :

« لقد أصبح اسماعيل بفضل سخاء محمد علي من أغنى المزارعين إن لم نقل أغناهم في مصر . فلقد عرف جيد المعرفة كيف يدير أملاكه بفضل ما حبته به الطبيعة من غريزة =

ان كانت ٦٠٠٠٠ فدان زادها اسماعيل إلى نحو مليون فدان . هذا

= الذوق العام العملي وروح الاقتصاد وهما الخلتان اللتان تقوم عليهما ثروة الرجل الذي يدير المزارع الشاسعة ، وقد استخدم إيراده بطريقة منظمة في الأكتار من ابتياع الأراضي الجديدة إلى أن زادت ثروته ثلاثة أضعاف . ولقد بلغ من جودة محصول القمح والسكر في أراضيه أن ثمنهما في السوق كان أعلى ثمن دفع لهذين الصنفين وكثيرا ما تسابق المشترون لابتياع أقطانه لأنه كان كثير العناية بحرث أطيانه لتأتي بأطيب المحصول ومن ثم تعود عليه بأرباح الأسعار . وكان كثيرا ما يشار إليه باعتباره المثل الأعلى لطبقة المزارعين في مصر . ولكنه مع كل هذا كان بعيدا عن شؤون الدولة .

بل إن بعض الكتاب الإنجليز أنفسهم أيدوا هذه الشهادة . وإليك ما قاله المستر ما كوان الصحفي البريطاني إذ قال :

« إن اسماعيل بفضل ما أوتيته من الهممة التي لا تعرف الملل وثاقب الرأي والمقدرة الإدارية قد حصر اهتمامه في إدارة مزارعه الخاصة إلى أن تمكن من أن يجعل نفسه أغنى مزارع في مصر . »

وقد اشترك المستر مويرلي بل مراسل التيمس في القاهرة وعضو اسماعيل باشا الألد في الأثارة بهذه الحقيقة إذ قال في كتابه « الخديويون والباشاوات بقلم شخص يعرفهم » المطبوع في لندن سنة ١٨٨٤ ص ١١ ما نصه :

« قبل اعتلائه الأريكة كان اسماعيل معروفا كمزارع شديد الاقتصاد حتى بلغ من حرصه أن لا ينفق القرش إلا في محله . »

فلا غرو بعد كل هذه البيانات أن نصدق دي مالورتي عند ما أكد في كتابه « مصر - حكماها الوطنيون والتدخل الأجنبي » ص ٧١ « أن إيراد اسماعيل عند اعتلائه الأريكة بلغ ١٦٠٠٠٠٠ جنيه سنويا وأن أراضيه الشاسعة كانت خالية من الديون أو الرهن وهذا ما أكدته لي أحد وزرائه . »

كل هذا عرف عن اسماعيل في الوقت الذي كان فيه أخوه الأمير أحمد وليا للعهد .

ديون اسماعيل

لقد رأيت فيما مر بك اجماعا من كافة الكتاب الأجانب على أن اسماعيل هو الذي أتى من ضروب الإصلاح ما جعل مصر تنهض فخرا على شعوب الشرق بما حوته من بذور المدنية مما يساعدها على أن تخطو خطوات واسعة في سبيل الترقى كادت =

فضلا عن أنه مألها بالمصانع ووصل أجزاءها بشبكة من السكك

== معها أن تلحق بل لحقت فعلا بكثير من شعوب أوربا وبرزتها وسبققتها .
وإذا كان هناك إجماع على هذه النقطة المهمة لم يصادف لحسن الحظ حتى هذه
اللحظة شذوذا أو خروجا فهناك أيضاً إجماع ثان على نقطة مهمة أخرى كان إلى الآن
قائما على وهم محض وأصبح لحسن الحظ لا يحتمل التحليل أو النقد البريء .
فاذا كان الكتاب الأفرنج أجمعوا على أن اسماعيل أبو الإصلاحات الحديثة التي
شهدتها مصر فانهم أجمعوا كذلك على أن القروض التي عقدها هي سبب ما أصيبت به
البلاد فيما بعد من المتاعب التي أدت إلى المراقبة الثنائية ثم التدخل الأجنبي الذي انتهى
بالاحتلال البريطاني .

ولكن الأجماع الأخير قد بدأ لحسن الحظ يتلاشى ويحل محله تقدير لاسماعيل
وإنصاف لتصرفاته فيما يختص بمشكلة القروض . ويرجع السبب في هذا التحول إلى
ما بدأ يظهر من الحقائق والوثائق الخاصة باسماعيل مما أشرنا إليه في صدر هذا الفصل
ويرجع معظم الفضل فيه إلى يقظة وغناية جلالة الملك فؤاد .

ونقول الآن مع المستر كراييتس إن الوقت قد حان للبحث في مسألة القروض وهل
كان اسماعيل كما وصفه لورد ملنر في سنة ١٨٩٢ في كتابه «انجلترا في مصر» وهو الكتاب
الذي كان بمثابة الأساس الذي قام عليه هيكل الاتهام ضد الخديو المظلوم ؟ قال لورد ملنر :
« يعتبر اسماعيل أصدق مثال للتبذير والأسراف يمكن أن يعثر عليه الإنسان
سواء في التاريخ أم في الاقاصيص . وليس يوجد من يشبه هذا المبذر المستهتر في التمتع
بما كان يتمتع به اسماعيل من سيطرة تامة على موارد هائلة . فلقد تبوأ الأريكة في الوقت الذي
ظن الناس فيه أن لا حدود لثروة مصر الكامنة . ولقد كانت البلاد ملكا له يتصرف
فيها كيفما أراد . وكان العالم بأجمعه على قدم الاستعداد ليقدم له ماشاء من الأموال
لتحسين هذه الأراضي وتنميتها . وفي الوقت نفسه كان اسماعيل مجموعة صفات منها
المليح ومنها القبيح مما لا بد منه لجعل المتصف بها مثلاً أعلى للمبذر . فهو وإن كان
ميالا للترف شهوانيا كثير الأَطماع مجبا للمظاهر لا مبدأ له إلا أنه كان إلى جانب ذلك
تجيش نفسه بالمشروعات الباهرة التي يراد بها تحسين البلاد تحسينا مادياً كبيراً
فضلا عما أضاعه من الملايين تلو الملايين في الولائم والحفلات والملاذ وبنا
لقصور العديدة التي ضمت إلى عفونة البناء قبح الشكل ، فانه بذر كذلك عدة ملايين ==



لورد ملنر
واضع كتاب « انجلترا في مصر »

الحديدية . وكان لشدة عطفه على
الفلاح يلقب « بأمير الفلاحين »
وقد أظهر عند اعتلائه الأريكة ميلا
إلى مراعاة الاقتصاد بأن فصل بين
الأيرادات الخاصة والأيرادات
العامة واختص نفسه هو وحاشيته
بمبلغ ٧٠٠٠٠٠ جنية في العام . وهذا
المبلغ وإن كان ضعيف مخصصات
قصر الملكة فيكتوريا إلا أنه كان
على كل حال أقل بكثير من مخصصات

أخرى في مشروع هائل للأصلاح الزراعي . وقد بدىء بالمشروع دون الأخطاة بأساسه
وأنفق في سبيله ثمن فادح .

واسترسل لورد ملنر فقال :

« لقد بذلت محاولات عديدة في إحصاء المبلغ الذي صرفه اسماعيل في خير البلاد
من القروض التي عقدها في زمنه . ولكن نظراً للفوضى التي عرفت بها الحسابات في
السنوات التي سلفت على سنة ١٨٧٦ قان أمثال هذه المحاولات تعتبر عقيمة لا يرجى
لها سوى الفشل . ولكن هناك أمر مقرر ثابت وهو أن ذلك المبلغ كان ضئيلا جدا .
وإني ليخامرني الشك فيما إذا كان المبلغ الذي خصه اسماعيل من ضمن قروضه
لأعمال الخير الدائمة — بغض النظر دائماً عن قناة السويس — تجاوز ١٠٪ من مجموع
ما عقده من الديون . »

وقد علق المستر كرايبتس على هذه التهم بقوله : « إن القارىء يخرج من كتاب

لورد ملنر بهذه النتيجة وهي :

« إن من مجموع الديون البالغ قدرها ٨٩ مليون جنية التي كانت مصر مدينة بها في

سنة ١٨٧٩ قد بدد اسماعيل نحو ٦٠٧٣٢٢٠٠ وقد وصل المستر كرايبتس إلى هذه النتيجة
كما يأتي :

فقد طرح من مبلغ ٨٩ مليون جنية

القصر في عهد سعيد . على أن اسماعيل وجه في الوقت نفسه عنايته لإنجاز

= أولاً : الدين الذي خلفه سعيد باشا كما أحصاه لورد ملنر وقدره ٣٢٩٢٧٠٠
ثانياً : نفقات قناة السويس كما قدرها تقرير لجنة كيف وقدرها ١٦٠٧٥٠٠٠
ثالثاً : نسبة ١٠٪ التي قال لورد ملنر إن اسماعيل أنفقها في أعمال الخير وقدرها
٨٩٠٠٠٠٠ جنيه

فيكون مجموع ما بدده اسماعيل ٦٠٧٣٢٢٠٠
أو بعبارة أخرى يرى لورد ملنر أن حكم اسماعيل باشا (الذي ظل ١٣ سنة)
كلف خزانة البلاد نحو ٤٦٧١٧٠٨ جنيه سنوياً .
ولكن لورد كرومر الذي ظهر كتابه « مصر الحديثة » بعد كتاب لورد ملنر بنحو
١٦ سنة قد زاد دين مصر من ٨٩ مليون جنيه إلى ٩١ مليون جنيه وقال إن حكم
اسماعيل كلف الخزانة المصرية نحو ٧ مليون جنيه سنوياً لمدة ١٣ سنة . واستنتج
كرومر كما استنتج ملنر أن اسماعيل فيما عدا ١٦ مليون جنيه وهي نفقات القناة قد بدد
كافة ما عقده من الديون .

ومما يقنعك بأن القوم يصدر عن رأي واحد أن المركيز زتلند الذي ظهر كتابه
بعد أربع وعشرين سنة من كتاب لورد كرومر قد قبل الأرقام التي ذكرها كرومر
على علاتها كأنها عقيدة منزلة ولم يكلف نفسه عناء تمحيصها ولا حاول أن يوفق بين
التناقض الذي ذكره عن ميل اسماعيل إلى الاقتصاد قبل اعتلائه الأريكة أولاً ثم
ميله فيما بعد إلى الأسراف والتبذير !

هل كان اسماعيل مبذراً ؟

صورة من نشاطه وجده

ولقد تساءل المستر كرايبتس فقال كيف يعقل أن ذلك الأمير الذي اشتهر وهو
ولي عهد الدولة بحب الاقتصاد ينقلب بين عشية وضحاها والياً مسرفاً مستهتراً ؟ وكيف
أن هذا الرجل الذي كان ينفق إيراده في ابتياع الأراضي ومضاعفة ثروته يعتمد إلى
عقد القروض الأجنبية لأنفاقها في اللهو والترف . فهل كان التحول فجائياً ؟

ولقد أصاب المستر كرايبتس المحز إذ قال : « إن من يقرأ كتاب لورد ملنر يخرج
منه بأن اسماعيل كان رجلاً شهوانياً بدد الملايين في إقامة الولائم والحفلات وإشباع
شهواته . وأن الصورة التي يتصورها القارئ عن اسماعيل بعد قراءة تلك الكتب هي =

أعمال الترقى والتقدم . فمثلا المواصلات والزراعة والتجارة والصناعة

== أنه كان رجلا يقضى الليل في أعمال الطيش فاذا طلع النهار احتواه فراشه حتى اذا ما حل العصر قام ليتبها من جديد لتسلية المساء ودعارة الليل .

ولكن هل كانت هذه صفة اسماعيل حقا ؟ كلا بل كان في الواقع كما وصفه المستر ادوين دى ليون القنصل الأمريكى الذى كان شديد الاتصال به فقد قال :

« إن الخديو رجل شديد الميل للعمل . ولما كان من ألزم لوازم الحكم الأوتقراطى أن تكون الرأس المسيطرة ملية بكل شىء ومهيمنة على كل شىء حتى أتفه التفاصيل فان اسماعيل مضطر إلى الاستيقاظ فى ساعة مبكرة وقضاء النهار كله إلى ساعة متأخرة من الليل مزاولا العمل الذى يحبه ألا وهو الهيمنة على إدارة دولاى أعمال الدولة بأسرها . وقد بدأت هذه المشاغل تؤثر فى صحته كما تبين من مظهره الخارجى فى الشتاء الفارط . ومع أن الأفراد العاديين فى وسعهم التمتع بالراحة وبالأجازة فان أصحاب التيجان محرومون منها وبخاصة فى مثل هذه الظروف الحرجة التى تحيط بالخديو . »

وبلاحظ أن المستر دى ليون كتب هذا فى يولية سنة ١٨٧٧ أى فى نفس الوقت الذى كان لورد ملنر ولورد كرومر وغيرهما يحاولون فيه إظهار اسماعيل بظهر « الحاكم الخليع الذى يقضى ليله إلى جوانب الغيد الحسان ويقضى النهار فى الفراش . »

ولم يكن المستر دى ليون وحده الذى قال عن اسماعيل ما قال بل إن المستر ماكوان أيضاً — وكانت صلته بالخديو وثيقة — كتب بدوره هذه الجملة الصغيرة الكبيرة إذ قال « إن الدولة هى الخديو ، ثم راح يفصل ما أراده بعد أن ذكر أن المجالس والوزراء ليسوا إلا مجرد آلة للخديو فقال :

« كان اسماعيل محيطاً بما جل أو دق من الشؤون العامة . فن المباحثة لعقد معاهدة أو لعقد قرض أو المصادقة على عقد إلى ابتياع الفحم أو الآلات . . . لا بل كان ملهاً حتى بما كان عادياً يسير من تلقاء نفسه ولا يمكن أن يتم شىء قبل أن تقع عليه عينه . . . »

« وبالاختصار فان سموه ليس مليكاً فقط بل هو الحاكم الفعلى وتهمين يده القوية على سائر البلاد من الأسكندرية إلى وادى حلفا ثم ما وراء ذلك بما ترك لغوردون باشا أن ينوب عنه فى حكمه . »

فاسماعيل الذى كان فى نظر ملنر رجلا محباً للترف ولعاباً بالمظاهر كان فى نظر المستر ماكوان على عكس ذلك على خط مستقيم . فلقد كان يعيش عيشة البساطة بالنسبة لمعيشة أمير ==

والتعليم والقضاء كل هذه المرافق قد شملها بعنايته ونظمها تنظيماً عسرياً

== بلغ إيراده السنوي كما بلغ إيراد اسماعيل عند اعتلاء العرش ١٦٠٠٠٠٠ جنيه هذا عدا مخصصات السراي .

وإليك ما ذكره المستر ما كوان في كتابه « مصر كما هي » قال :

« إن الوزارات المختلفة موزعة في نواح تبعد نحو ميل عن قصر عابدين الذي يقطنه الخديو . . . وقصر عابدين هو قصر متواضع من الواجهة المعمارية وإن كان فسيح الأرجاء . ذلك أن جناحاً منه قد خصص لمكاتب الحكومة ولغرف الاستقبال التي يقيم فيها سموه الولاة والحفلات من فترة لأخرى . وفي هذا القصر أيضاً يوجد الجناح الصغير الذي يضم الغرف التي يزاول فيها سموه الأعمال ويستقبل فيها ضيوفه على مقربة من سكرتيره الخاص الموجود في الغرفة الملاصقة ومن اثنين فراشين واقفين على رأس الدرج . وغرفة اسماعيل لا يمكن أن يقال إنها تنطوي على الأبهة لا من حيث الأثاث ولا من حيث النقش فهناك سجادة من صنع إيران عليها ديوان مكسو بالدمقس وبضعة كراس بالكسوة نفسها هذا إلى نافذة عليها ستار من القماش نفسه ومكتب صغير مذهب يجاس وراه الأمير الخ الخ . »

وليس يمكن اتهام المستر ما كوان بالتحيز أو بطلب الحظوة لدى اسماعيل عند كتابة هذه العبارة . لأنه كتبها في الوقت الذي بدأ فيه نجم الخديو المظلوم في الأفول . ونحسب أن اسماعيل وهو الذي كان إيراده الخاص كأمر يبلغ ١٦٠٠٠٠٠ جنيه سنوياً ما كان ليتمه أحد بالتبذير أو بالميل إلى الترف والمظاهر الكاذبة لو أنه غير من شكل قصر عابدين فغلاً عند اعتلائه العرش ليصبح أكثر تناسباً مع مظاهر ذلك الأمير الثرى .

ولسكن المستر ما كوان لا يكتفي بوصف ذلك القصر المتواضع بل راح يحدثنا في ص ٩١ من كتابه عن برنامج اسماعيل اليومي . وإليك ما قاله :

« وهنا (أي في حجراته المتواضعة) يتبوأ سموه مقعده في الساعة الثامنة من صباح كل يوم فيستقبل قبل كل شيء أولاده وأحدهم رئيس المجلس الخاص والثاني وزير المالية والثالث وزير الحربية والرابع وزير الأشغال ثم يستقبل من عداهم من الوزراء أو كبار الموظفين ممن تقضى أعمالهم باستشارة مولاهم أو ممن جاءوا للمشول بين يديه بناء على موعد سابق . . حتى إذا ما فرغ من هؤلاء ظل إلى منتصف النهار في استقبال القناصل العموميين أو من عداهم من الأجانب ممن يكونون قد حضروا بواسطة القناصل ==

هو وسع دائرتها . لا بل قد أدرك حاجة البلاد إلى قسط من النمو الديمقراطي .

== أو بدونهم مدفوعين بالرغبة في رؤية ذلك الأمير العظيم إما أشباع الشهوة حب الاستطلاع في نفس السائح وأما لتقديم شروط ملائمة لعقد صفقة تجارية . وعند الظهر - حيث ينطلق مدفع القلعة إيذاناً بحلوله - ينسحب سموه لتناول طعام الإفطار وفيما عدا القليل النادر حيث يذهب في إحدى المركبات المتواضعة للنزهة عصرأ مدة ساعتين في شارع شبرا أو شارع العباسية - يستأنف سموه مقعده ويبدأ من جديد سلسلة المقابلات ويبحث في أثناء ذلك في مختلف الشؤون إلى أن تدق الساعة السابعة مساءً فينقطع عن العمل مدة ساعة لتناول الطعام . فإذا كان عمل اليوم قد انتهى لجأ سموه إلى شرفة القصر لقضاء ساعتين أو ثلاث في السمر في هواء القاهرة العليل مع بعض الوزراء ممن تكون لهم الحظوة في الدخول على سموه في أى وقت ويبدأ بعد ذلك إلى مخدع نومه حوالي الساعة الحادية عشرة . أما إذا لم يكن قد أنجز أعمال اليوم فإن سموه يستأنف العمل في مكتبه بعد الطعام ويظل يواصله إلى منتصف الليل أو أحياناً إلى ما بعد ذلك .

ثم استطرد الكاتب فقال :

« في خلال هذه الأثنتي عشرة أو الأربعة عشرة ساعة المخصصة للعمل الجدى الذى يزاوله الخديو ما لا يقل عن ثلثائة يوم في السنة لا يمكن بغير إستشارة سموه أن يسمح بالبت في أصغر التفاصيل وأقلها شأنًا مما يرتفع قليلاً عن مجرد الأعمال التى تتم من تلقاء نفسها . فالخديو هو فى الواقع كل شىء وهو يحيط علماً بكل شىء ويقوم بنفسه بأعداد كل شىء . »

فهل الأمير الذى يقضى معظم وقته فى مراجعة شؤون الدولة صغيرها وكبيرها يمكن أن يقال أنه أمير شهوانى مبذر لا هم له إلا مجالسة الغانيات ؟ ! أليس الأصح أن هذا الرجل الذى اشتهر بحب الاقتصاد وهى ولى عهد الدولة ظلت تلازمه هذه الصفات عند اعتلائه العرش ؟

وليس يفوتنا أن نذكر بهذه المناسبة أن خصوم اسماعيل - ومنهم ملنر وكرومر - قد قدروا ما أنفقه اسماعيل على أعمال الإصلاح بنحو ١٠ فى المائة من مجموع الديون عدا طبعاً مبلغ الـ ١٦ مليون جنيه التى ذهبت فى أعمال قناة السويس ولكنهم تناسوا مبالغ طائلة أخرى لم تذكرها لجان التحقيق أنفقت فى وجه الخير دون أن تنتج غلة أو أنها أنتجت فعلاً غلتها ولكن فى غير عهد اسماعيل . فمن النوع الأول ما أنفقه ذلك الخديو المظلوم مثلاً فى قطع دابر النخاسة ومطاردتها فى أوكارها . وبديهي أن الحاكم الساهر على ==

هذا بينما أن الأراضي الزراعية قد ازدادت مساحتها في عهده كما أنه وطد

== خير رعيته لا يكتفي برعاية مصالحها المادية بل لا بد أن يعنى أيضاً بشؤونها الأدبية والأخلاقية . فاذا كان اسماعيل قد بذل ما بذل في محاربة ذلك الوباء الأخلاقي دون أن يسجل الخصوم تلك المبالغ لرصيده فإن ذلك لن يضير الخديو شيئاً فلقد عمل ما عمل لخير البلاد وللأجيال المقبلة دون أن ينتظر جزاء ولا شكورا على أعماله .

أما النوع الثاني فهناك ما سردنا عليك طرفاً منه من أعمال العمران والأصلاح كبناء الجسور وشق الترع وغيره . فلقد كلفت هذه الإصلاحات الخزانة ما كلفت مما عده الخصوم إسرافاً وتبذيراً لا لشيء إلا لأنها لم تؤت أكلها في أيام اسماعيل . وليس يخفى أن تلك الأعمال الإصلاحية كانت لها نتيجتها في تحسين الزراعة وتصحيح الأراضي فيما بعد ولكن هل نسب الخصوم ذلك إلى اسماعيل كلاب زعموه من نعم غيره !

وإليك نبذة من تقرير المستر بيردسلي القنصل الأمريكي العام بتاريخ ١٥ سبتمبر سنة ١٨٧٣ أى بعد جلوس اسماعيل على العرش بعشر سنوات . ولعل من الأوفق أن نذكر أن القنصل المذكور كتب تقريره دون أن يتوقع أن تراه الشمس يوماً ما . وقد كان الرجل صريحاً لم يألف بعد تقاليد البروتوكول لأنه كان حديث عهد بوظيفته . وقد عين في منصبه لأنه كان ممن ساهم في تقديم المساعدة في أثناء الانتخابات الأمريكية لرئاسة الجمهورية . ولعل القارىء يشاطرنا الرأي بأن ما يقوله مثل هذا القنصل هو أقرب شيء إلى الحقيقة البريئة الغير مشوبة بالأغراض والغايات . كيف لا وهو إنما يمثل دولة لم تكن لها في مصر مطامع استعمارية أو سياسية ؟ فانظر ماذا كتب :

« لقد ارتقى اسماعيل العرش في يوم ١٨ يناير سنة ١٨٦٣ وقد جاء إلى أداء واجباته بقدره عجيبة على معرفة الناس وأحوال العالم ومقدرة إدارية باهرة ندر أن يوجد مثلها بين الأمراء الشرقيين . فنذ ارتقائه العرش قد وجه عنايته بعزيمة لا تعرف الكلل لتحسين شؤون مصر الداخلية . »

فكيف بربك يمكن التوفيق بين هذا الرجل الذي لا ينفك عن العمل ساعة واحدة وبين الصورة التي صوره بها حاسدوه وخصومه ؟ لقد زعموا زوراً وبهتاناً أنه كان من عشاق الغانيات يقضى ليلته بجوارهن . ومعلوم أن الذاكرة هي أول ما يتأثر في الجسم بالأفراط في الشهوات . فان صح ما زعموا فكيف بربك كانت لاسماعيل تلك الذاكرة المدهشة التي أشاد بها المستر موبرلى بل مراسل التيمس وعدو الخديو الآلد ؟ أنظر ماذا قاله في هذا الصدد :

دعائم استقلال البلاد عن تركيا . ولكن هذه الاصلاحات العظيمة ذهبت

== « كانت ذاكرة اسماعيل عجيبة حقاً ، وحدث مرة أنى اختلفت معه على نص من النصوص الواردة في المفاوضات الأساسية الخاصة بقناة السويس فما هو إلا أن بادرني بترديد ما لا يقل عن عشرين سطر قد وردت في إحدى الوثائق الغير مهمة التي لا بد أن تكون قد وقعت عليها عيناه منذ عشرة أعوام على الأقل . فدونت أقواله ثم رجعت بعد زمن إلى الوثائق وكم كانت دهشتي عند ما رأيتها بنصها وفصها كما ذكرها اسماعيل ! »
اعتراف الأجانب بفضل اسماعيل

وقبل أن ننتقل بك إلى ناحية أخرى من نواحي اسماعيل المتعددة نرى أنفسنا مضطرين إلى الوقوف هنيهة أمام ذلك التقرير الفذ الذى وضعه المستر بيردسلى القنصل الأيرلندي العام ، لنضع أمام عينيك ما يسعه المقام من عبارات هذا التقرير الذى قلنا إنه يمثل النزاهة والأخلاص لبعده عن الغرض والهوى . وقد أسعدنا الحظ بالاطلاع على صورة منه فى دار المحفوظات الملكية بقصر عابدين وقد ترجمه إلى الفرنسية ادوارد الياس أفندى (باشا فيما بعد) مترجم وزارة الداخلية وقتذاك .

فلقد نوه القنصل المذكور بفضل اسماعيل فى رفع مستوى التعليم وقال إن عدد التلاميذ بعد أن كان فى عهد محمد على يناهز ٣٠٠٠ بلغ ٦٠٠٠٠ فى العشر سنين الأولى من حكم اسماعيل أى من سنة ١٨٦٣ إلى سنة ١٨٧٢ ثم قال إن هذا العدد بلغ فى العام التالى أى سنة ١٨٧٣ نحو ٨٩٨٩٣ تلميذ وهذا عدا من كانوا يدرسون دراسة عالية أو الذين كانوا فى سلك تلاميذ المدارس الأهلية .

ولم يشأ ذلك القنصل النزيه أن يترك هذه المسألة دون أن يؤكدها بحكومته أهمية مغزاها فقال إن وجود هذا العدد من التلاميذ فى بلد لا يزيد عدد سكانه عن ٥٢٥٠٠٠٠ مع ما يقوم من المصاعب الجمة فى وجه التعليم ليجعل نسبة المتعلمين نحو ١.٧٢ فى كل ١٠٠٠٠ نسمة وهى نسبة تحسدها عليها بعض البلدان الأوروبية فى روسيا مثلاً بلغت نسبة المتعلمين وقتذاك ١٥٠ فى كل ١٠٠٠٠ نسمة .

وذكر القنصل المذكور أول مدرسة للبنات افتتحها اسماعيل فقال إنها لم تكن الأولى من نوعها فى مصر وحدها بل فى الشرق أجمع وأشار مع الإعجاب إلى اعتزام الخديو تحطيم الأغلال التى ترسفت فيها المرأة المصرية مما كان سبباً فى شل حركة نصف شعبه . وقد صارت مدرسة البنات هذه والمدارس الأخرى التى كانت فى دور الانشاء تحت ==

لسوء الحظ هباء بسبب الجماعة المالية الغربية .

= رعاية اسماعيل مباشرة وهذا دليل على اهتمامه بهذا الموضوع الحيوى واعتزامه إكاله
مهما كلفه من جهود ونفقات .

ومقارنة بسيطة بين اعتمادات التعليم فى عهد سعيد ومقدارها فى عهد اسماعيل
تقنعك مع المستر بيردسلى بفضل ذلك الخديو العظيم .

فى سنة ١٨٦٢ أى فى أواخر عهد سعيد بلغت الاعتمادات المذكورة ٧٤ كىسا
أى نحو ١٨٧٥٠ دولار . أما الآن (أى فى سنة ١٨٧٢ وهى السنة التى كتب فيها
المستر بيردسلى تقريره الذى نقتطف منه هذه المعلومات) فقد بلغت اعتمادات التعليم
١٦٠٠٠ كىس أى ٤١٠٠٠٠ دولار ولا يدخل فى هذا ما كان ينفقه الخديو وأولاده
من جيبيهم الخاص فى مساعدة المدارس المستقلة أو المدارس الأهلية .

ولم يفت القنصل الأمريكى أن يلاحظ لطفة المصريين وشغفهم بتحصيل العلم
ولا ما كانوا يظهرونه من الاستعداد العظيم لورود مناهله العذبة . وختم المستر بيردسلى
ملاحظاته فى هذا الباب بقوله إن مصر من حيث حركة التعليم فى خلال السنوات العشر
الماضية (أى بين ١٨٦٣ - ١٨٧٣) تستطيع أن تقارن نفسها بكثير من دول أوروبا
الغربية . وهى شهادة لها خطرها وقدرها .

ثم راح جنابه يذكر أعمال اسماعيل العمرانية الأخرى كالسكك الحديدية وغيرها
فقال إن الخطوط الحديدية فى مصر بلغ طولها ٢٤٥ ميل فى سنة ١٨٦٣ فلم تنقض
السنوات العشر الأولى من حكم اسماعيل حتى زاد هذا العدد إلى ٧٣٦ ميل عدا خطوط
أخرى طولها ٢٠٨ ميلا ماتزال فى دور الأثناء . أما فى السودان فإن الخط الحديدى
بين وادى حلفا وشندى وطوله ٨٨٩ كيلو متر فقد كلف الخزانة المصرية فى عهد
اسماعيل ما لا يقل عن أربعة ملايين من الجنيهات . ولعل السادة خصوم اسماعيل
تناسوا هذا المبلغ أثناء انهماكهم فى تقدير ما صرفه اسماعيل فى الأعمال الإصلاحية .

ثم الأسلاك التلغرافية وقد بلغت ٥٥٨٢ كيلومتر فى سنة ١٨٧٣ بعد أن كانت
٥٨٢ كيلو متر فقط فى سنة ١٨٦٣ . وقد أصبحت معظم مدن القطر المصرى - على
ما ذكره القنصل الأمريكى - مرتبطة بعضها ببعض بالتلغراف كما أنه يوجد ما لا يقل
عن ٢٠٠ كيلو متر من الخطوط التلغرافية فى أنحاء السودان .

وقد عرض القنصل الأمريكى إلى قناة السويس فذكر كثيرا من التفاصيل عنها =

ومثل هذا التناقض الغريب يلاحظ في شخصية اسماعيل أيضا . فبينما

== وحظ مصر في أسهمها ونوه بفضل اسماعيل في إلغاء السخرة وجعل العمل في القناة حرا يتقاضى عنه العامل الأجر المعقول .

وخصص المستر بيردسلي جزءا كبيرا من تقريره لمحصول السكر باعتباره أهم محصول مصرى بعد القطن وأسهب فيما أبداه الخديو من الجهود لتحسين هذا المحصول . وقد توصل اسماعيل إلى تحقيق غايته في هذا السبيل بدليل أن الصادر منه للخارج بلغ نحو ٤٥٦٨٥٨ قنطار سنة ١٨٧٢ بعد أن كان ١٠٩٠ قنطار فقط في سنة ١٨٦٦ وبحسبك أن تعلم أن الخديو أنشأ من جيبه الخاص ١٧ مصنعا (فاوريقة) لتكرير السكر عدا خمسة أخرى كانت مازال في دور الإنشاء لتيقن أن هذا الرجل العظيم كأنما هداه بعد نظره إلى أن يدرك وجه الخطر على استقلال مصر سياسيا واقتصاديا من اعتمادها على محصول واحد وهو القطن .

التلاعب المالى فى عهد اسماعيل

كثيراً ما حاول بعض الناس وفي مقدمتهم الأجانب أن يعزوا ما حدث في مصر من الارتباك إلى إدارة اسماعيل باشا المالية وفاتهم ماسبق هذا الارتباك من التلاعب المالى المشين . وهالك المستر ما كوان يسجل فى كتابه « مصر كما هى » الصادر فى سنة ١٨٧٧ ص ١٧٤ قوله : « مهما كانت متاعب مصر المالية المؤقتة فانها لم تؤثر مطلقا فى هبوط تجارتها لأن موارد البلاد لم تزد فى زمن من الأزمان الحديثة كزيادتها فى عهد اسماعيل باشا كما أن حركتها التجارية لم تكن أنشط مما هى عليه الآن وحسبك أن الفائدة على ثمن أسهم الموحد تبلغ ١٤ ٪ »

وقد اتهم بعضهم اسماعيل باشا بالتعجل فى القيام بهذه الإصلاحات فرد عليهم المستر (الذى أصبح فيما بعد السير جون فاوولر مهندس الخديو الاستشارى والعلمى بالشؤون المصرية) فى خطاب أرسله إلى التيمس فى يوم ٢٨ اكتوبر سنة ١٨٧٥ بقوله : « أنفقت مصر فى العشرة الأعوام الماضية مبالغ طائلة على مشروعات عظيمة كانت من أسباب ترقيتها السريعة ووضعت الأساس لسعادتها فى المستقبل . . وقد يقال إن هذه المشروعات تمت فى وقت أقصر مما كانت تسمح به حالة البلاد المالية وهو ما يسلم به من بعض الوجوه ولكن ليس فى استطاعة أحد أن ينكر أنها كانت ضرورية للتقدم الوطنى . » ==



السير صمويل بيكر باشا مدير خط الاستواء في عهد اسماعيل باشا
وحوله أركان حربه وهم القائم مقام عبد القادر حلمي بك
فالمهندس هييجنبوتام فالملازم بيكر

== ولم يشأ السير صمويل بيكر الذي عهد إليه اسماعيل باشا، بالضرب على النخاسة
أن تمر به هذه المجادلات دون أن يرد عليها في كتابه « إصلاح مصر » فقال في ص ٥٣٩
مانصه : « لقد أحدث الحديد فيما بين سنتي ١٨٦٤ و ١٨٧٨ تغييراً مدهشاً لا عيب فيه
إلا أنه تم بأسرع مما كانت تتحمله الخزانة ولكنه كان على كل حال تغييراً في مستقبل
التقدم وقد بذر بواسطته بذور العظمة المقبلة . »

ولكن مهما قيل عن القروض التي عقدها اسماعيل باشا فلا ينبغي تناسي هذه
الحقيقة المرة التي سلم بها الجميع حتى التقرير الذي وضعته لجنة التحقيق في مالية مصر
المسماة « بلجنة كيف » هذه الحقيقة هي أن أصحاب القروض أنفسهم وسماستهم كثيراً
ما اختلسوا الملايين الفادحة من اسماعيل باشا. فمع أن مصر حتى آخر سنة ١٨٧٥ كانت إسبانيا
مدينة بمبلغ ٦٨ مليون جنيه عدا الديون السائرة إلا أن ما دخل خزائنها فعلا لم يتجاوز ==

لم يكن مظهره الخارجى مما يباهى به صاحبه نظرا لقصر قامته وطربوشه

== ال ٤٤ مليون جنيه أما الفرق وقدره ٢٤ مليون جنيه فقد وجد طريقه إلى جيوب أصحاب القروض وأعوانهم إما بصفة سمسة أو كمسكافة أو غير ذلك من النفقات الكالية . وكأما تأمرت المالية العليا في لندن وباريس رسمياً على سلب الخديو . إذ ما لبثنا أن رأينا المصارف الزائفة ذوات الأسماء الطنانة كبنك الأنجلو إجنسيان تتسابق في جنح الظلام لالسبب سوى إغراء الخديو بعقد قروض جديدة بفوائد فاحشة .

وقد أشار المستر رودستين في كتابه « خراب مصر » إلى تلك الألاعيب فقال : « لعل أصدق مثل لذلك التلاعب المروع القرض الأخير وقدره ٢٨ مليون جنيه الذى عقد في سنة ١٨٧٣ لتسديد الديون السائرة (على ما جاء في تقرير لجنة كيف ص ٨) فقد جعل مقداره الاسمى ٣٢ مليون جنيه بفائدة ٧ ٪ . وتخصيص ١ ٪ . للاستهلاك . ولكن البنك لم يسلم الخديو سوى ٧ و ٢٠ مليون جنيه واحتفظ بالباقي وهو ما يقرب من ١٢ مليون جنيه كضمان من الطواريء !! وليت البنك اكتفى بذلك بل إنه بعد التهديد والوعيد أرغم الخديو على قبول ما قيمته ٩ مليون جنيه من سندات دينه السائر بسعر ٩٣ للسهم مع أن ثمن السهم وقتئذ لم يزد على ٦٥ وهو مادفعه البنك فعلا عند شراء تلك الأسهم . فلا غرو إذا قام بين الأنجليز من يغار على سمعة بلاده فيكتب في بدء سنة ١٨٧٦ (كما ورد في مجلة فريزر عدد يناير سنة ١٨٧٦ ص ١٢ بعنوان تركيا ومصر والمسألة الشرقية) مانصه :

« إن هذا الدور الذى لعبته المالية الحديثة هو دور يخفق بالأنجليزى الصميم أن يحمر وجهه خجلا عند ذكره وأن يخفى رأسه فراراً من العار عند ما يعلم أن مواطنيه كان لهم ضلع في هذه الأعمال الشائنة التى جرت على ملايين عديدة من البشر بؤساً وشقاء لانظير لها . »

وليس شك في أن هذا التلاعب وغيره مما نضرب عليه الأمثال هنا هو السبب الرئيسى فى ارتباك الحالة المالية فى عهد اسماعيل . وهاك اعتراف تقرير لجنة كيف ص ٦ فقد جاء فيه :

« إن هذه الاحصاءات - عن الواردات والصادرات والتعليم وغير ذلك - تدل على أن مصر فى عهد خديوها الحالى اسماعيل خطت فى سبيل التقدم خطوات واسعة فى عدة جهات . ولكن موقفها المالى الحاضر برغم هذا التقدم الباهر . . . نعم بالخطر . فالمصروفات وإن كانت باهظة إلا أنها لا تؤدى وحدها إلى الأزيمة الحاضرة التى يمكن أن يقال إنها ==

الواسع وسترته « الاستامبولية ، الطويلة الأكام وسراويله المفرطحة

لم تنشأ إلا عن شروط القروض الفادحة التي كان معظمها خارجاً عن طوق الخديو لقضاء طلبات مستعجلة ، كذا ! كذا !

والمستر كيف لم يكن في وقت ما صديقاً لاسماعيل . فهو يصرح بأن « شروط القروض الفادحة ، هي منشأ الأزمة الحاضرة أو الارتباك المالي الذي كان سائداً وقتئذ . فمن الظلم البين إذن أن يتهم المليون وأعوانهم اسماعيل بالتبديد والتبذير . لأنهم يعلمون كما لا يعلم غيرهم أن تلك التهمة ليست إلا مجرد إفك وعدوان . وفوق ذلك هم يعلمون أنهم هم الذين وضعوا مصر على حافة الخراب وأنهم كما وصفهم المستر ولسون في مقاله بعنوان « موقف مصر المالي ، المنشور في « مجلة فريزر ، عدد يونيه سنة ١٨٧٦ ص ٨٠٦ إذ قال عنهم « إنهم الأفاقيون المحتالون الذين جعلوا أصابعهم في آذانهم حتى لا يصل إليها أنين المصريين البائسين . »

وإذا غضضنا الطرف مؤقتاً عن جماعة المالمين وسماستهم فليس يفوتنا أن نذكر المقاولين الذين كانوا يبيعونه سلعهم بأثمان باهظة أو تعهدوا بتنفيذ ما ابتكره من المشروعات المفيدة في مقابل أثمان من الفداحة بحيث لا نغالي إذا قلنا إنها كانت تسوقهم إلى المجامع لو أن هذه المشروعات نفذت في أوطانهم .

ولكي لا نترك في ريب مما نقول نذكر لك أن بناء ميناء الاسكندرية زادت نفقاته بنحو ٨٠ في ٪ عن نفقاته الحقيقية . كما وأن السكك الحديدية بلغت نفقات إنشائها أربعة أضعاف نفقاتها الأصلية . وهذا القول ينطبق على أعمال اسماعيل الإصلاحية الأخرى كصانع تكرير السكر ووابورات المياه وغيرها وغيرها .

ومن سخرية الأقدار حقاً أن حيل أولئك المقاولين وما لجأ إليه الناوون من الألاعيب كثيراً ما كانت تتخذ دليلاً على «إسراف» اسماعيل حتى أن المستر ادوارد ديسي في مقاله المنشور في مجلة «القرن التاسع عشر» عدد ديسمبر سنة ١٨٧٧ تحت عنوان «الخديو ومصر» حمل على اسماعيل حملة شعواء لأنه وافق على مبلغ ١٣ مليون جنيه باعتبارها ثمن السكة الحديدية في حين أن نفقاتها لم تزيد في الواقع عما قدرها جنابه بمبلغ ثلاثة ملايين جنيه . أو بعبارة أخرى إن المستر ديسي بينما يتهم اسماعيل باشا بالإسراف يقرر ضمناً أن المقاول الذي قام بمد السكة الحديدية كان بعيداً عن الأمانة والنزاهة . هذا من جهة ومن جهة أخرى نرى أننا مطالبون عدلاً بأن نذكر أن السكك

وحذائه « اللستك » ، فان عدم الاكترات بالبزة لم يكن من شأنه

= الحديدية كانت وقتئذ في بداية انشائها لا في مصر وحدها بل وفي بلاد أخرى وأخصها إنجلترا . وقد كان من الصعوبة بمكان بل كان خارجا عن مقدرة أى مهندس أن يضع « مقايسة » - ولو تقريبية - عما يتكلفه انشاء السمكة الحديدية من النفقات . وإلى هذه الحقيقة أشار المستر ما كوان في كتابه « مصر كما هي » ص ٣٨٤ فذكر عدة أمثال عن فوضى المقايسات لأنشاء السكك الحديدية في إنجلترا نفسها .

بل إن الحكم الذى أصدره نابليون الثالث فى النزاع القائم بين شركة القناة وبين اسماعيل باشا (وقدره ٣٠٠٠٠٠ ر. ٢٦٠ ر. ٣٠٠ جنيه دفعتمها مصر للشركة) يمكن أن يضمه المنصف إلى أعمال أولئك المقاولين الأوربيين . وهل تريد مثلا صارخا على الأجحاف بالنسبة لمصر أنكى وأشد من حملها على دفع هذا المبلغ الهائل مع إن مشروع حفر القناة كان من أشأم المشروعات على مصر وأكثرها متاعب لامن الناحية الاقتصادية والمالية فحسب بل والسياسية أيضا . فقد حفرت فى ركن سحيق من أركان البلاد لا يتصل بالمناطق الزراعية إلا بواسطة لسان صغير من الأرض . يضاف إلى ذلك أن حفر القناة كان سببا فى تحويل تجارة مصر « الترانسيت » عن مجراها القديم وهو طريق الاسكندرية إلى طريق السويس . وأشد وأنكى من هذا كله أن حفرها أدى فى النهاية إلى الاحتلال البريطانى وتثبيت قدمه محاقظة على تلك القناة باعتبارها واقعة فى طريق الهند .

لقد ذكرنا لك هذه الأمثلة الدالة على التلاعب لاعلى سبيل الحصر كلا بل لتعرف فساد زعم الزاعمين عند ما يتهمون اسماعيل بالأسراف والتبديد ولتدرك أن مصر إذا كانت قد أصبحت مدينة بمبلغ ٩١ مليون جنيه فذلك لأن جمهرة المرابين والمقاولين قد تآمروا جميعا على خديوها المظلوم بقصد انتهابه واستغلال بلاده .

ومن أشد دواعى الأسف حقا أن خصوم اسماعيل الذين طالما رموه بالتبذير والأسراف لأن ديون مصر بلغت فى عهده على قول لورد كرومر ٩١ مليون ، تناسوا ما أوردته لجنة كيف من الأرقام التى تكفى لقطع جهيزة قول كل خطيب . وقد نقلها المستر كرايتس فى كتابه تحت باب المصروفات فى عهد اسماعيل أى فى مدة ١٣ سنة كما يلى :

نفقات لإدارة شؤون الحكومة ٤٩١ ر ٦٨ ر ٨٦٨ ر ٤٨٠ جنيه

مجموع الجزية المدفوعة للباب العالى ٧٠٥٩٢ ر ٨٧٢ ر ٧٠٥٩٢ جنيه

نفقات الأعمال النافعة الخ ٣٠٠٥٨ ر ٢٤٠ ر ٣٠٠٥٨ جنيه

نفقات غير عادية بعضها فى أعمال مشكوك فى نفعها والبعض

الآخر فى أعمال أنجزت تحت ضغط أشخاص لهم مصلحة ١٠٠٥٣٩ ر ٥٤٥ ر ١٠٠٥٣٩ جنيه

المجموع ٩٧٠٢٤٠ ر ٩٦٦ ر ٩٧٠٢٤٠ جنيه

إلا أن يضاعف من لذة الاستماع لسحر حديثه ومن إخفاء ما حبته به الطبيعة

= وهذا هو الرقم الذى دون فعلا فى التقرير الذى رأى لورد كرومر أن يتحاشى مناقشته فى الوقت الذى اتهم فيه اسماعيل بتبديد ٩١ مليون جنيه ما خلا ١٦ مليون جنيه قال إنها أنفقت فى أعمال القناة .

وقد عرض المستر كرايتس إلى أرقام تقرير لجنة كيف وحللها تحليلا عادلا تلخصه فيما يلى :

فقد بدأ بالرقم الأول وهو مبلغ ٤٩١ ٨٦٨ ٤٨٠ جنيه وقال إنه أنفق فى أعمال الحكومة العادية وما يتبعها مدة حكم اسماعيل باشا أى فى خلال ١٣ سنة أو بعبارة أخرى إن كل سنة من سنوات حكم اسماعيل كانت تتقاضى الخزنة ١١٤ ٧٥٩ ٣٠٠ جنيه بما فى ذلك نفقات لإدارة ونفقات القصر ومرتبات أصحاب السمو الأُمراء ومرتبات موظفى الحكومة ومعاشات المتقاعدين واعتمادات الوزارات المختلفة الخ وليس يسع منصفنا أن يقول أن مبلغ ١١٤ ٧٥٩ ٣٠٠ جنيه سنويا وهو ميزانية المصروفات كان مبلغا باهظا . أما الرقم الثانى الخاص بالجزية للباب العالى فليس يمكن الخوض فيه لأنه محدد بمعااهدة ولا حيلة فيه لاسماعيل باشا .

أما الرقمان الأخيران الخاصان بالأعمال النافعة والأعمال المشكوك فيها فكأن تقرير اللجنة يقول إن اسماعيل أنفق فهما زهاء ٤٠ مليون جنيه . وقد سبق أن ذكرنا لك فى ص ٢٤٥ من هذا الكتاب المقال البارع الذى نشره المستر موهول فى مجلة كوتمبرورى ريفيو فى شهر أكتوبر سنة ١٨٨٢ وأثبتنا الجملة التى مهد بها جنابه لمقاله وهى : «... ومع أن حملة القراطيس طالما غرسوا فى أذهان الناس أن اسماعيل باشا بدد ما حصل عليه من أوربا من القروض فليس ريب فى أن ما أمته من المشروعات العامة استفد أكثر من جميع الأموال التى حصل عليها من القروض الخ ثم أتى المستر موهول على جدول شامل خرج منه بأن أعمال الإصلاح التى قدرتها لجنة كيف بأربعين مليون جنيه - كلفت اسماعيل باشا أكثر من ٤٦ مليون جنيه . وهذا الجدول منقول عن تقرير « الميزانية المصرية » الذى وضعته الحكومة المصرية .

ونقطة أخرى على جانب عظيم من الأهمية وهى أن لجنة كيف لم تذكر شيئا عن مبلغ ٦٠٠ ٠٠٠ ر ١٢٠ جنيه لأُنشاء الترعى ومبلغ ٠٠٠ ١٥٠ ٢٠٠ جنيه للكبارى التى أنشأها اسماعيل باشا وذكره المستر موهول فى الجدول السالف الذكر . كما أنها أغفلت بتاتا ما أنفق اسماعيل باشا فى محاربة النخاسة وفى حرب الحبشة التى أرغم على خوضها =

من الذكاء الخارق . وبقدر ما كان موفقا في غزو قلوب ربوات الجمال في

== إرغاما وفي البعثات العلمية التي أرسلها إلى أواسط إفريقيا لاكتشاف منابع النيل الخ
كذلك أغفلت اللجنة الإشارة إلى المصارف التي أنشأها اسماعيل في القرى على
نمط البنك العقاري لحماية الفلاحين من شرور المرابين وهي المصارف التي كلفته
٩٠٠ ألف جنيه .

وإذا كان لورد ملنز قد أخذ على اسماعيل باشا أنه « بذر كذلك عدة ملايين أخرى
في مشروع هائل للأصلاح الزراعي وقد بدىء بالمشروع دون الأخطاة بأساسه وأنفق
في سبيله ثمن فادح ، نقول إذا كان لورد ملنز أخذ ذلك على اسماعيل - كما أوردناه في
صفحتي ٢٦٤ و٢٦٥ من هذا الكتاب فإنه قصد بلا شك مبلغ الـ ١٠٠.٠٠٠.٠٠٠ جنيه
الذي قال المستر مولهول في جدول السالف الذكر إن اسماعيل باشا أنفقه في إنشاء
مصانع تكرير السكر .

ومن العدل أن نذكر أن اسماعيل باشا كان مسوقا لإنشاء هذه المصانع بدافع
الحرص على إنقاذ بلاده من الأزمة المالية الخطيرة التي كانت تهددها وقتذاك فإنه ارتقى
الأمريكية سنة ١٨٦٣ أي في إبان الحرب الداخلية الأمريكية . وقد ظلت تلك الحرب مستعرة
من سنة ١٨٦١ إلى سنة ١٨٦٥ . فكان بديها والقطن الأمريكي مخزون في بلاده أن يتهاقت
العالم على القطن المصري الذي ارتفعت أثمانه حتى في عهد سعيد باشا . وقد أخذ الفلاحون
في مصر يتهاقون على توسيع مناطق زراعة القطن طمعا في الربح الجسيم .

فلما وضعت الحرب أوزارها وظهر في موسم سنة ١٨٦٦ القطن الأمريكي الذي
كان مكدسا في الموانئ الأمريكية أربع سنوات كاملة بدأت الأسعار تتدهور في سوق
القطن بغير انتظام . وقد أحدث هذا رد فعل سيء في مصر وشرع اسماعيل يتلفت حوله
ليجد مخلصا من تلك الأزمة التي أخذت تهدد مصر . ولما كان يعرف أن القناة ستفتح
للملاحة في سنة ١٨٧٠ وأنها ستكون مصدر خير كبير على مصر رأى بثاقب بصره -
رحمه الله - أنه لو ساعد على الأكار من زراعة القصب ببضعة ملايين من الجنيهات
نعوض الفلاحين عما يخسرونه في زراعة القطن بما يربحونه من بيع محصول السكر
ولا استطاع أن ينشئ في مصر صناعة جديدة تغذي الشرق الأوسط والأدنى مع الزمن
بمحتاجتهما من السكر المكرر .

ومن ثم رأى أن ينفق مبلغ الـ ١٠٠.٠٠٠.٠٠٠ جنيه لإنشاء مصانع تكرير السكر
الآنفة الذكر فأنت ترى أن غايته كانت اقتصادية بحتة وتدل على بعد نظر وتفكير سليم ==

ويتعذر على المرء وهو ينعم النظر في الأسراف الذي أدى بإسماعيل

ونكتفي بهذا القدر وننتقل بك الآن إلى فاتحة الجهود العتيدة التي بدأ بها اسماعيل حكمه ونعني بها الجهود الخاصة باصلاح شروط امتياز قناة السويس .

اسماعيل باشا ونفوره من السخرة

قد ذكرنا لك أن اسماعيل باشا كان ذا ثروة ضخمة أيام أن كان ولي عهد الدولة وأنه كان شديد الاقتصاد والحرص بحيث لا ينفق القرش إلا في محله وكان يعنى كل العناية بتحسين نتاج أطيانه حتى لقبوه بأمرير الفلاحين . ونقول الآن عرضاً أن رجلا ينال هذا اللقب لا يناله إلا بشدة عطفه على فلاحيه وكل من يعملون في أراضيه فلاغرو إذا كان قد عني وهو بعد أميراً برفع مستوى الفلاحين عامة والترفيه عنهم ولاغرو أيضاً بعد أن رأى ما هم فيه من البؤس الموروث منذ عشرات الأجيال أن يعتمد بعد اعتلائه العرش إلى رفع نير الذل عنهم وإلغاء ذلك النظام الممقوت ألا وهو نظام السخرة . وقد تلفت اسماعيل يمنة ويسرة لتحقيق أمانيه في هذا السبيل فكان أول ما لفت نظره ما في شروط امتياز قناة السويس من ضروب الأجحاف والأرهاق لا بالنسبة للخزانه المصرية فحسب بل وما تضمنته من فرض « السخرة » على الفلاحين المصريين أيضاً . ولسوف نسرده لك في سياق الكتاب مع شيء من التفصيل مساعي اسماعيل للقضاء على السخرة في مختلف أنحاء مصر . أما الآن فنجتريء بسعيه بعد اعتلاء الأريكة لتحسين شروط امتياز القناة من حيث السخرة ومن حيث مساسها واجحافها بخزانه الدولة .

خطته إزاء قناة السويس

ولقد مر بك ما قاله المستر يانج في ص ٢٢٦ من هذا الكتاب حيث قال : ولما تبوأ اسماعيل باشا الأريكة أعيد النظر في شروط الامتياز ووضع المشروع بحذايره على بساط البحث من جديد ذلك لأن وفاة سعيد عجلت بحل الشركة الشخصية التي كانت قائمة بينه وبين دلسبس مما شجع خصوم المشروع على مضاعفة جهودهم لعرقلته . وبهذه المناسبة صرح اسماعيل باشا مرة فقال : « لا يوجد من هو أشد مني رغبة في إنجاز المشروع ولكني أريد أن تكون القناة تابعة لمصر لا أن تكون تابعة للقناة . » وتفصيلاً لما أجمله المستر يانج نقول :

حدثنا المستر كراييتس في ص ٤٣ من كتابه أن قنصل فرنسا العام في القاهرة أرسل إلى حكومته تقريراً سريراً عن أول تصريح عام ألقاه اسماعيل باشا بعد اعتلائه

إلى هاوية الخراب أن يحدد ماذا كان نصيب السياسة التي وضعها نصب

= الأريكة على مسمع من قناصل الدول الأجنبية وقد وردت في تقريره هذه العبارة :
« لقد أكثر اسماعيل باشا من الضرب على نعمة السخرة إلى حد أنه بين بصفة إجمالية
الفوارق بين ما يستعمل منها للخدمات العامة وبين ما يستعمل في خدمة الحكومة .
أو بعبارة أخرى كان تلميح الباشا لأعمال قناة السويس شديدا وواضحا حتى أن عيون
الحاضرين التفتت جميعها نحوى .»

واستطرد المستر كراييتس فقال مامعناه : إن قنصل فرنسا العام وهو ذلك السياسي
المدرّب الذي بعث به نابليون إلى مصر ليساعد المسيو فرديناند دلسبس على تحويل
مصر إلى مستعمرة فرنسية قد رأى من أول تصريح عام ألقاه اسماعيل أنه رجل كفاح
يحتقر أضعف نقط المقاومة . أو بعبارة أخرى إن ممثل نابليون قرأ بين أسطر أول
خطاب افتتح به اسماعيل عهدہ أنه ليس ممن يسعى وراء عيشة الراحة والكسل كلا بل
أنه معتزم النزول إلى حومة الكفاح لتحسين حالة شعبه .»

ويحق لنا أن نستنتج أمرين مهمين من هذا التصريح أولا اعتزام اسماعيل بذل
كل ما في استطاعته بذله لتحسين حالة شعبه حتى ولو أدى به ذلك إلى اغضاب بعض
الدول الأجنبية وبخاصة فرنسا ، وثانيا أن عمل اسماعيل هذا ينفي بتاتا بل ويقضى على
الخرافة التي ألصقها به حاسدوه وأعداؤه من أنه كان رجلا خليعا يميل إلى قضاء الوقت
إلى جانب الغيد الحسان ويؤكد ما سردناه عليك هنا من أقوال المستر ما كوان والمستر
موبرلى بل وغيرهما عن ميل اسماعيل إلى الجد والعمل ونفوره من حياة الراحة والكسل .
وناهيك بما ينطوى عليه من الخطر إقدام أمير شرقى لا يستند إلى قوة مادية كاسماعيل
على مغاضبة فرنسا وهي وقتئذ صاحبة الكلمة النافذة في شؤون العالم . فلو أنه كان كما
زعموا لكانت له ندحة عن مغاضبة أقوى دول الأرض بأسا بل لقدعت به حياته الخاملة
التي افتروها عليه عن التعلق بمثل هذه الأمانى الكاذبة ولا أثر حياة اللهو والمرح والخمول
والكسل عن ملوك هذا المسلك الوعر الذي يجعله يقف وجهها لوجه أمام دولة عظيمة
البأس كفرنسا

موقف بريطانيا واسماعيل في المشروع

ونظراً لأن إنجلترا انتهزت فرصة وفاة سعيد باشا لاستئناف معارضتها لمشروع
حفر القناة فإن بعض الكتاب زعم أن اسماعيل باشا كان بالتالى مدفوعا في معارضته
بأيدى انجليزية . وهو زعم باطل كذبه المستر كراييتس في كتابه إذ ذكر أن السفير =

عينه من هذا الأسراف وهي السياسة التي رمى من ورائها إلى أن يتناع

البريطاني في الاستانة بدأ يباح حقا على الباب العالي في وجوب رفض المشروع ولكن معارضة اسماعيل كانت تختلف في جوهرها عن معارضة انجلترا .

لأن السفير البريطاني المذكور « السير هنري بلوار » رأى أن في حفر القناة خطرا من جانب فرنسا على سيادة انجلترا البحرية ولذا راح يستغل عدم صدور الفرمان الشاهاني باقرار الامتياز من الناحية القانونية لمحاربة المشروع .

أما اسماعيل فكان على عكس ذلك . فانه مع استصوابه للمشروع أراد استغلال عدم صدور الفرمان لتحسين شروط الامتياز وتعديلها أولا تعديلا جوهريا مطابقا للوجهتين الانسانية والمالية .

وليس أدل على ذلك مما رواه المستر كراييتس إذ قال إن اسماعيل صرح للفصل الجنرال الفرنسي في نهاية شهر يناير سنة ١٨٦٣ بما يأتي :

« إنى أعد نفسي أشد ميلا لحفر القناة من المسيو دلسيس . ولكن لي رأي الشخصي في المشروع . فاذا كنت على يقين من أنه لا يوجد ما يفوق المشروع من حيث العظمة ولا من حيث الفوائد المنتظر أن يدرها على مصر فليس يفوتني في الوقت نفسه أن أذكر أن الأسس التي يقوم المشروع عليها غير ثابتة وينقصها التحديد والأيضاح . وهذا ماسأ تولاه بنفسى . وإذ ذاك ابن سلنى وأمضى في تنفيذ المشروع إلى نهايته . »

ومن هنا ترى أن انجلترا واسماعيل اتفقا على محاربة السخرة ولكن اتفاقهما كان إلى حد معين ولباعتين مختلفين . فالأولى عارضت في السخرة لتتوصل بذلك إلى وقف حفر القناة بينما كانت معارضة اسماعيل لها لأسباب إنسانية واقتصادية .

السخرة وقناة السويس

ولكى لا تفوتك مهارة اسماعيل باشا في محاولته استغلال معارضة انجلترا للسخرة ليصل إلى الغاية الرئيسية التي جعلها نصب عينيه ألا وهي تعديل شروط الامتياز نلخص لك ما ذكره المستر كراييتس في الفصل الرابع من كتابه وهو كما يأتي :

لقد حرص المسيو دلسيس على مامر بك على أن لا يذكرك كلمة « السخرة » ولا أن يلمح إليها تليحا في عقد الامتياز . ولكن قرار ٢٠ يولية سنة ١٨٥٦ أشار من طرف خفي إلى تلك الكلمة المشؤومة . إذ ورد فيه : « تقدم الحكومة المصرية العمال الذين يشتغلون في حفر القناة بناء على طلب مهندسى الشركة وطبقا لما تقضى به الحاجة . »



نوبار باشا

لمصر من الاستانة مركزا استقلاليا
دوليا . ذلك لأن مصر كانت
بفضل السياسة البريطانية ماتزال
تعتبر في نظر القانون الدولي ولاية
عثمانية . ومن ناحية أخرى فان
النص على جعل الوراثة من نصيب
الأرشد فالأرشد بدلا من حصرها
في الابن الأكبر فتح بداهة الباب
واسعا على مصر اعياه أمام دسائس

= ولما كان المهندسون قد طلبوا أن يتولى أعمال الحفر بصفة دائمة من ٢٠ إلى ٢٥
ألف عامل فقد كانوا يستبدلون بغيرهم كل شهرين أو ثلاثة لأنهم كانوا - كما أكد
المستر فارمان القنصل الأمريكي العام في القاهرة - « يعاملون أسوأ معاملة ويموتون
كالذباب . » وقد ترتب على هذا أن بلغ عدد العمال الذين أنيطت بهم أعمال الحفر
٦٠٠٠٠ حرمت منهم التربة المصرية مما أدى بالتالى إلى الأضرار بحالة البلاد الاقتصادية.
ولقد أثيرت مناقشة في مجلس العموم البريطاني حول السخرة مما جعل سعيدا يتردد
في تقديم العمال المطلوبين لعملية الحفر ولكن وكيل وزارة الخارجية البريطانية صرح
في ١٦ مايو سنة ١٨٦٢ بأن القانون الدولي يحول دون تدخل إنجلترا في مسألة خاصة
بمصر . ولم يكن اسماعيل قد اعتلى الأريكة بعد عند صدور هذا التصريح ولكن لم يفته فيما
بعد أن إنجلترا إذا كانت لا تستطيع بمقتضى القانون الدولي التدخل لمنع السخرة في
أعمال القناة فان فرنسا بالأولى لا تستطيع كذلك أن تتدخل لأرغام مصر على تقديم
عمال السخرة إذا شامت مصر وضع حد لذلك .

وقد استطاع نوبار باشا وزير خارجية اسماعيل باشا أن يحصل من سفير إنجلترا
في الاستانة على توكيد قاطع « بأن الخديو إذا أبي تقديم عمال السخرة وحاولت فرنسا
إرغامه على تقديمهم فان إنجلترا على استعداد لشد أزره . » كذلك صرح لورد بالمستون
في مجلس العموم « بأن إنجلترا سوف تقدم كل مساعدة إيجابية للسلطان والخديو . » ولما =

الاستانة وكانت بلا جدال عقبه كأداء في سبيل التسلسل . على أن

== كان الأمر يعنى انجلترا وتركيا واسماعيل من نواح مختلفة فقد ألحقت الأولى على الثانية لترسل لاسماعيل بتاريخ ٢ ابريل سنة ١٨٦٣ احتجاجا على تسخير العمال في حفر القناة .

وهنا تجلت مهارة الخديو . فمع أن احتجاج الباب العالي كان يحميه من غضب نابليون إلا أنه آثر أن لا يحفل بالاحتجاج كثيرا لأن الأمر يخص مصر أكثر مما يخص تركيا ولذا لم يصدر أمره في الحال إلى الشركة بوقف الأعمال بل رأى أن يلغى السخرة على طريقته هو .

ولما كانت شروط الامتياز كما ذكرناها لك في هذه الصفحات نصت بين ما نصت عليه على التنازل للشركة عن كافة ما لا يوجد له مالك من الأراضي المتاخمة للترعة العذبة التي قررت الشركة حفرها لتوصيل القناة بالنيل وهي الأراضي التي رأى فيها دلسيس أنها ستدر فيما بعد أرباحا هائلة على حملة الأسهم كما رأى اسماعيل بثاقب رأيه أنها تجعل من الشركة حكومة داخل حكومة لأنها ستحرم مصر من مساحات واسعة من صميم أراضيها سوف يكون لها شأن كبير بعد تصقيعها - نقول لما كانت شروط الامتياز كما ذكرنا رأى اسماعيل أن الوقت قد حان لتعديلها وانتهاز فرصة معارضة انجلترا وتركيا لأعمال السخرة لتحويل عقد الامتياز بشكل يلائم مصلحة وطنه .

ولما كان اسماعيل يريد لفت أنظار العالم إلى عدالة قضيته تمهيدا لعرضها على محكمة الرأي العام فقد كلف وزيره نوبار بالسفر إلى باريس والاتصال بمديرى شركة القناة وعقد اتفاق جديد معهم . وسرعان ما أبرق دلسيس للمديرين ألا يتصلوا بنوبار . ولكن هذا الرجل الداهية ما كان يمكن إسكاته بمثل هذه المناورة . ولما كان نوبار ممن يؤمنون بميل الفرنسيين للعدالة فقد شرع يحادث الصحف ويسهب في شرح قضيته مما لفت إليها أنظار العالم . وقد بدأ حملته بإبداء التشكك في مشروعية الامتيازات التي نالتها الشركة من سعيد باشا مما حمل الشركة على رفع قضية قذف عليه تنظر أمام محكمة السين المدنية . ولكن نوبار دفع دفعا فرعيا فحكمت المحكمة في ٢٨ فبراير سنة ١٨٦٤ بأن نوبار بطعنه في مشروعية الامتياز ألحق ضررا بسمعة الشركة كذلك حكمت بأن دلسيس لم يكن من حقه الإعلان في الصحف عن القضية المرفوعة من الشركة قبل أن تنظر فيها المحكمة . وكان هذا الحكم بمثابة أمر من المحكمة لطرفي النزاع بأن يسويا الخلاف فيما بينهما . ولما أدرك دلسيس أن انجلترا ممارضة للشروع بينما كان السلطان مترددا وافق على ==

تعديل النص المذكور ما كان ينتظر أن يقابل بلا اعتراض من الاستانة

= عرض الخلاف للتحكيم . وقد وافق المسيو دلسيس بالنيابة عن الشركة ونوبار باشا بالنيابة عن الحكومة المصرية على اختيار الأمبراطور نابليون الثالث حكماً كما اتفق الطرفان المتنازعان على النقط المراد عرضها للتحكيم .

نقط الخلاف المعروضة للتحكيم

وكانت هذه النقط أربعاً كما أوردها الأستاذ عبد الرحمن بك الرافعي في كتابه وهي :
النقطة الأولى : وتختص بتقديم العمال المصريين الذين تستخدمهم الشركة لغاية ٢٠٠٠٠ ر. وادعاء الشركة بأن لها الحق في مطالبة الحكومة المصرية بتعويض في حالة توقفها عن تقديم هذا العدد .

النقطة الثانية: وتختص بملكية الشركة لترعة المياه العذبة التي تعهدت بإنشائها واستغلال رى الأطيان المملوكة للأفراد على ضفتيها في مقابل أجر تأخذه منهم حسب تقديرها .
النقطة الثالثة : وتختص بملكية الشركة لكافة ما تحتاجه من الأراضي لحفر القناة وإنشاء الترعة العذبة وإعفاؤها بصفة دائمة من دفع الأموال الأميرية عنها وكذا ملكيتها لكافة ما تستصلحه وتزرعه من الأراضي مع إعفاؤها من دفع الأموال الأميرية عنها مدة عشر سنوات .

النقطة الرابعة : اضطرار الحكومة إلى نزع ملكية الأطيان المملوكة للأفراد متى احتاجت إليها الشركة لاستغلال امتيازها .

وكان مبدأ إلغاء السخرة أقوى حجة اعتمد عليها اسماعيل في إلغاء النقطة الأولى بينما اعتمد في إلغاء النقطة الثانية على أن مصر بصفقتها إحدى الولايات العثمانية ليس من حقها أن تتنازل للأجانب عن ملكية الأراضي والعقارات .

أما من حيث النقطة الثالثة فاجتناباً للنزاع الخاص لتملك الشركة لترعة العذبة وانزاعها ملكية الأفراد من الأطيان التي يقتضيها إنشاؤها ، قد تمكن اسماعيل بأصل القرأيه من عقد اتفاق مع الشركة في ١٧ مارس سنة ١٨٦٤ تعهدت فيه الحكومة بإنشاء الترعة في الجزء الممتد بين النيل ووادي الطميلات ووصلها بالجزء الذي أنشأته الشركة من ترعة الوادي إلى القناة . وقد أمر اسماعيل بأن يطلق اسمه على هذه الترعة من منبعها إلى مصبها .

ومن لندن فقط بل كان ينتظر على التحقيق أن تعارض فيه الطبقة التركية

صدور الحكم

وفي يوم ٦ يولية سنة ١٨٦٤ أصدر نابليون الثالث حكمه في النزاع فاهتزت له محافل أوروبا القضائية وعدته في غاية الجور والأجحاف . ولم يكن ينتظر أن يأتي الحكم في مصلحة مصر للأسباب الآتية :

أولا : لأن نابليون كان إمبراطور فرنسا فهو بهذه الصفة خصم وحكم في آن واحد .
ثانيا : كان معروفا بتأييده للشركة .

ثالثا : كان شديد العطف على المسيو دلسيس بسبب القرابة البعيدة التي كانت تربطه بالإمبراطورة يوجيني .

وإليك ما حكم به نابليون الثالث :

أولا : إبطال حق الشركة في مطالبة الحكومة بتقديم العمال المصريين وإلزام الحكومة بمقابل ذلك بدفع تعويض مالي للشركة قدره ٣٨ مليون فرنك .

ثانيا : تنازل الشركة للحكومة عن كل حق في ترعة المياه العذبة وتعهد الحكومة المصرية باتمامها مع احتفاظ الشركة بحق الانتفاع بها وإلزام الحكومة في مقابل هذا التنازل بدفع تعويض للشركة قدره ١٦ مليون فرنك .

ثالثا : جعل الأرض المملوكة للشركة واللازمة لإنجاز المشروع ٢٣٠٠٠ هكتار تقريبا . (والكتهار نحو فدانين) منها ١٠٠٢٦٤ هكتار على جانبي القناة وملحقاتها و ٨٦٠٠ هكتار للترعة العذبة و ٣٠٠٠ هكتار لمباني الشركة .

رابعا : إعادة الأراضي الأخرى التي اتضح عدم لزومها للمشروع ومساحتها ٦٠٠٠٠ هكتار على أن تدفع الحكومة تعويضاً قدره ٣٠ مليون فرنك .

وبهذا يكون مجموع ما دفعته الحكومة من التعويضات ٨٤ مليون فرنك (نحو ٣٠٦٠٠٠٠٠ جنيه) تدفع على أقساط سنوية لمدة ١٥ سنة . وحسبك دليلا على فداحة هذه التعويضات أن تعرف أنها تبلغ تقريبا نصف رأس مال الشركة ولكن هكذا شاءت السياسة أن تتحمل مصر هذه الأعباء الثقيلة في بداية نهضتها لا لذنوب ارتكبتها ولكن لأن سعيدا شاء أن يضع توقيعها على اتفاق عرضه عليه صديقه دلسيس دون أن يكاف نفسه عناء قراءته .

ولقد اعتبر بعض كتاب حياة دلسيس هذا الحكم فوزا للحكومة المصرية وإن كانت روحه ونتيجته تدل على أنه جاء فوزا مبينا للشركة إذ ضمن لها مواصلة العمل إلى النهاية =

الحاكمة في مصر وأمرء البيت الحاكم أنفسهم . ومع ذلك فان اسماعيل في

أوصفه المسيو دلسبس بأنه «السند الأساسي للشركة ووثيقة الكفالة والاطمئنان لها»
فاذا ذكرنا أن اسماعيل ارتقى العرش في يوم ١٩ يناير سنة ١٨٦٣ وأن حكم نابليون
صدر في يوم ٦ يولية سنة ١٨٦٤ — أي بعد سبعة عشر شهرا وثلاثة عشر يوماً من
تاريخ اعتلائه الأريكة — فليس يمكن عدلًا أن يقال — كما زعم المغرضون — أن اسماعيل
كان رجلاً شهوانياً مستهتراً الخ هذه الأنشودة الممجوجة. ألا إن رجلاً كاسماعيل يقضى العام
والنصف الأول من تاريخ جلوسه على الأريكة في مثل هذا المجهود الغنيف ضد فرنسا
صاحبة الكلمة المسموعة في أنحاء العالم ليدلك على أنه كان رجل جد وعمل لا رجل
خمول وكسل . وكيف لا والرجل لم يكن همه إشباع شهواته أو التظاهر بالفخفة كلابل كان
همه تحسين حال الفلاحين وصيانة السيادة المصرية والاحتفاظ للبلاد بهذه التربة العذبة ؟
ولا تنس بعد هذا مهارة اسماعيل واستطاعته انهاء هذه المفاوضات العتيدة الشائكة دون
الاصطدام بالمصاعب التي كانت تعترض سبيله . فقد كان عليه أن يكافح فرنسا التي كانت
ميالة لإنجاز المشروع وتخفيف حدة انجلترا الغاضبة على المشروع وترضية تركيا صاحبة
السيادة على مصر وقد كانت واقفة موقفاً وسطاً بالمرصاد بين فرنسا وانجلترا . لعمرى
إن التاريخ لن ينسى لاسماعيل حذقه في الأفلات من هذا المأزق بأخف ضرر على بلاده .
وفي ٣٠ يناير سنة ١٨٦٦ عقد اسماعيل مع الشركة اتفاقاً تكميلياً لتسوية النزاع
بينهما مع مراعاة حكم نابليون . وهو يقضى :

أولاً : بتحديد مواعيد أقساط التعويضات للشركة .

ثانياً : باستعمال الأراضي المخصصة للشركة بصفة ملحقات للقناة الملاحية .

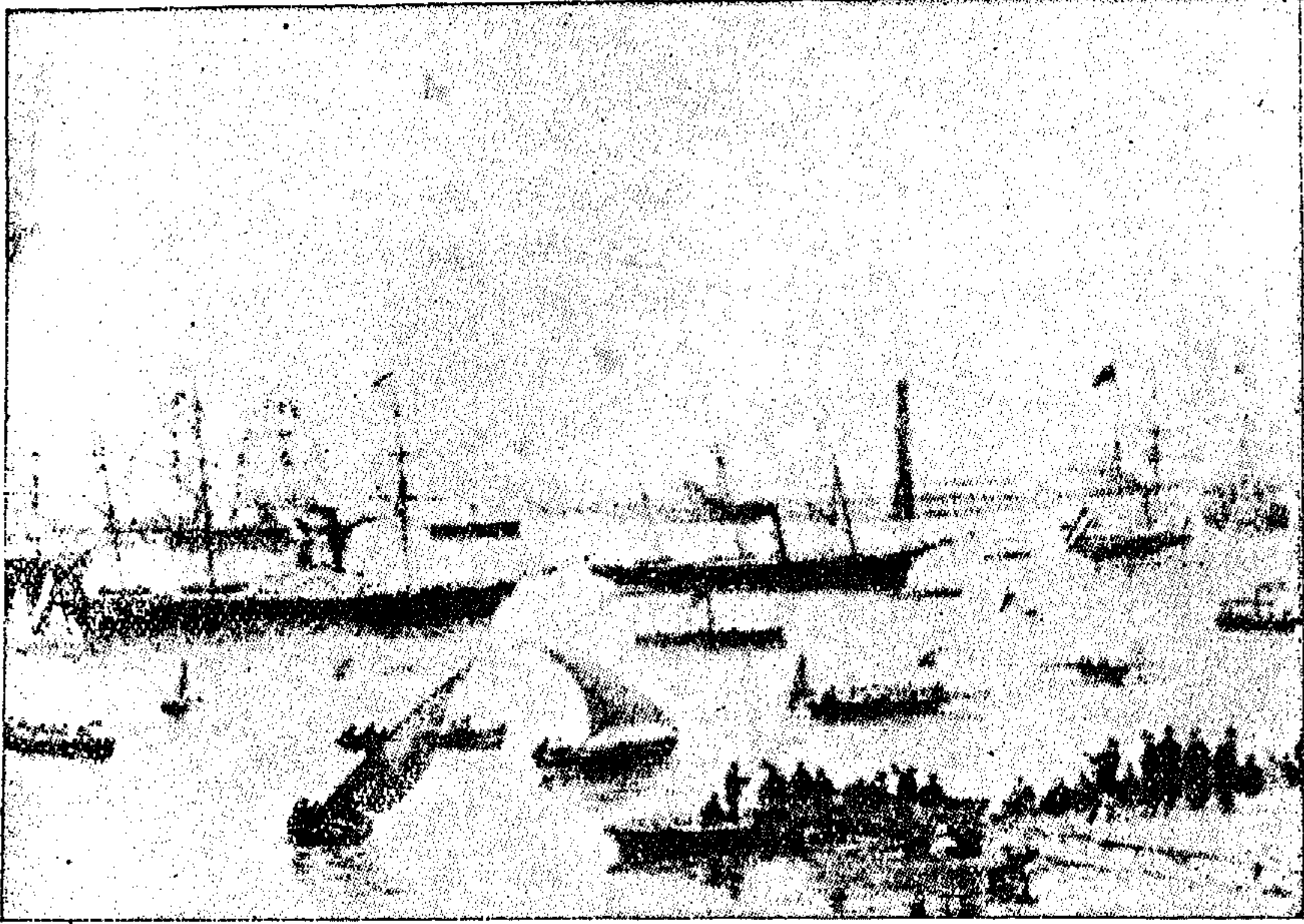
ثالثاً : بتنازل الشركة عن التربة العذبة مع ما يتصل بها من الأراضي والمباني
والأعمال الفنية التابعة لها بشرط أن تدفع لها الحكومة ثمن هذه المباني .

رابعاً : ببيع أراضي تفتيش الوادي للحكومة بمبلغ ١٠ مليون فرنك (٤٠٠ ألف
جنيه) وهذا التفتيش تبلغ مساحته ٢٣٧٨٠ فدان كانت الشركة قد اشترتها من شركة
الهامى باشا بمبلغ زهيد قدره ١٧٠٠٠٠٠ فرنك (أى ٦٨٠٠٠٠ جنيه) ولم تدخل
في التحكيم باعتبارها ملك خاص للشركة .

خامساً : حق الحكومة في احتلال أى جهة في الأراضي المعتبرة حرماً للقناة وأى

موقع حربي لازم للدفاع عن البلاد بشرط ألا يكون الاحتلال المذكور عائقاً للملاحة .
وهذا حق كبير ناله اسماعيل لمصر .

مقابل مضاعفته مبلغ الجزية السنوية ودفعت مليون جنيه نقداً وإهداء السلطان



دخول البواخر المقلدة للبلوك والأمراء قناة السويس في صبيحة ١٧ نوفمبر سنة ١٨٦٩
إيداناً بافتتاح القناة للملاحة
وترى في مقدمة البواخر السفينة (ليجل) تقل الأمبراطورة يوجيني

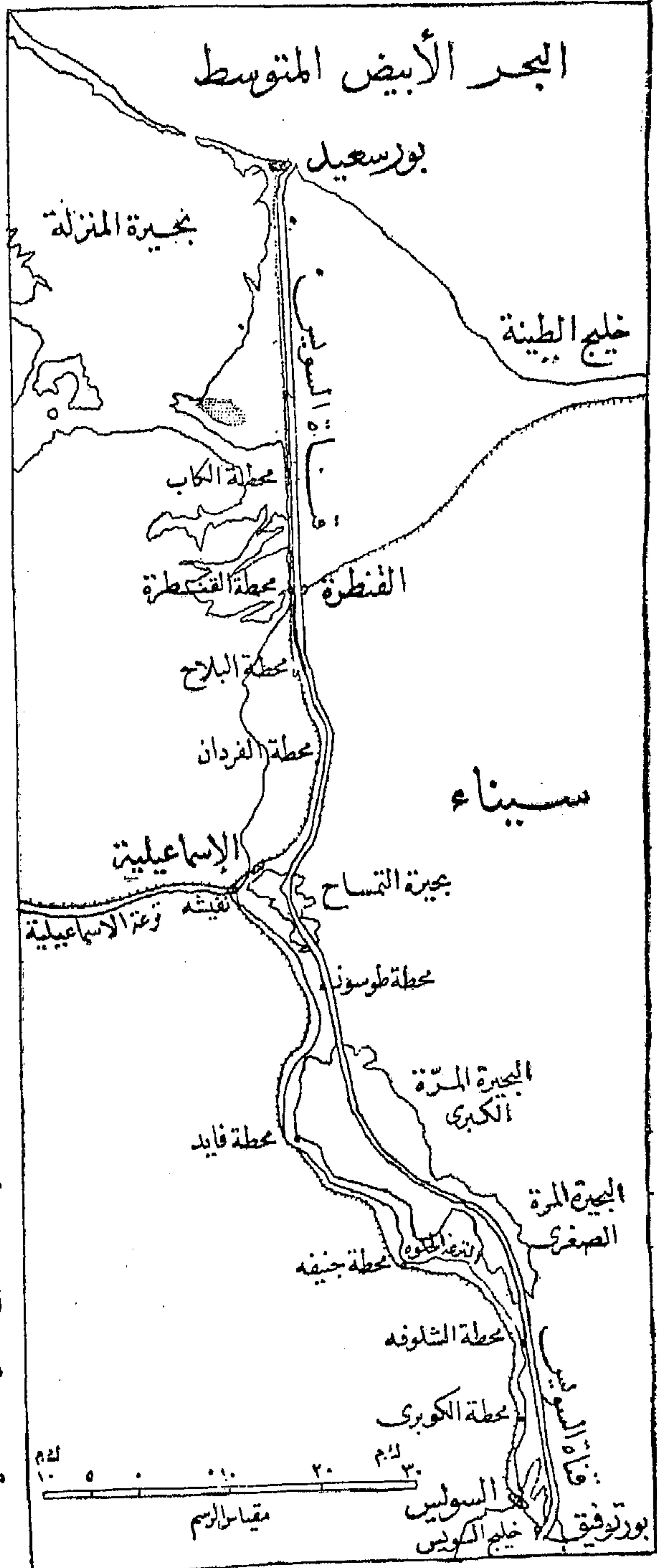
== سادسا : للحكومة أن تشغل ماتراه من تلك الأراضي بمبانٍ تنشئها لمصلحتها كالبريد
والشكنات والجمارك وغيرها على شرط مراعاة ما تقضى به ضرورة الانتفاع بالقناة
وبشرط أن تدفع الحكومة للشركة ثمن ماتكون قد أنفقته هذه على تلك الأمكنة .
وفي ٢٢ فبراير سنة ١٨٦٦ أبرم اسماعيل مع الشركة اتفاقاً شاملاً يتضمن الشروط
الواردة في عقد الامتياز الأصلي مع ما دخل عليه من التعديلات .
وفي ١٩ مارس من هذه السنة صدر فرمان شاهاني بالتصديق على اتفاق ٢٢
فبراير سنة ١٨٦٦ .

وفي ٢٣ أبريل من العام التالي عقد اسماعيل اتفاقاً آخر مع الشركة ألغى فيه الشرط
الخاص باعفاء مستوردات الشركة من الخارج من الرسوم الجمركية وأعطاهم مقابل
ذلك تعويضاً قدره ٢٠ مليون فرنك كما تنازلت الشركة للحكومة عن بعض المباني
والمستشفيات مقابل ١٠ مليون فرنك .

قناة السويس

وتواريخها المرحمة

- ٣٠ نوفمبر سنة ١٨٥٤
- منح سعيد باشا امتياز القناة إلى المسيو دلسبس
- ٥ يناير سنة ١٨٥٦
- شروط الامتياز
- ٢٥ ابريل سنة ١٨٥٩
- ابتداء العمل في حفر القناة
- ٦ يولية سنة ١٨٦٤
- صدور حكم الامبراطور نابليون الثالث
- ١٧ نوفمبر سنة ١٨٦٩
- افتتاح القناة للملاحة
- ٢٥ نوفمبر سنة ١٨٧٥
- بيع أسهم مصر في القناة إلى إنجلترا
- ٧ ابريل سنة ١٩١٠
- رفض الجمعية المصرية تجديد الامتياز
- ١٦ نوفمبر سنة ١٩٦٩
- إنتهاء الامتياز وعودة القناة إلى مصر



هذه الخريطة والمعلومات التي بجانبها وسائر الخرائط الأخرى منقولة عن كتاب الأستاذ عبد الرحمن الراجحي بك

طاقما ذهبيا للمائدة مرصعاً بالجواهر والأحجار الكريمة وتوزيع ما قيمته ١٠٠٠٠٠٠ جنيه من الهدايا قد استطاع أن يحصل من السلطان في سنتي ١٨٦٦ و ١٨٧٣ على فرمانين لا ينصان فقط على حصر الوراثة في أرشد أولاده بل يتضمنان الاعتراف الكامل الصريح باستقلال مصر الداخلي من الوجهة الإدارية . وإذ قد استطاع أن ينال موافقة الباب العالي على رفع القيد الخاص بعدد القوات البرية والبحرية في مصر وتحويله الحق في عقد المعاهدات مع مراعاة عدم خروجها عن مضمون المعاهدات التي تعقدها الأمبراطورية العثمانية وحق عقد القروض باسم الدولة ، فإن

افتتاح القناة للملاحة (١٧ نوفمبر سنة ١٨٦٩)

بعد عمل مستمر استغرق عشر سنوات تم حفر قناة السويس وتدفقت مياه البحر الأبيض المتوسط إلى البحر الأحمر وقام الدليل ناصعاً على فساد الزعم الذي كان سائداً في إبان وجود الحملة الفرنسية في مصر خاصة بارتفاع منسوب مياه البحر الأحمر عن البحر المتوسط . وقد بلغ طول هذه القناة التي كلفت مصر ما كلفت ١٦٤ كيلومتر وأنشأت شركة القناة على شاطئها مدينة بور سعيد شمالاً ومدينة الاسماعيلية جنوباً . كما تراه في الخريطة المنشورة في الصحيفة السابقة

ثم تقرر فتح القناة للملاحة في ١٧ نوفمبر سنة ١٨٦٩

اسماعيل باشا وحفلة الافتتاح

محاولة إعلان استقلال مصر

لقد مر بك في ص ٢٤٣ أن اسماعيل كان يرمى إلى إعلان استقلال مصر في أثناء تلك الاحتفالات التي قرر إقامتها بمناسبة افتتاح القناة للملاحة ودعا إليها أ كبر الرؤوس المتوجة في أوربا لولا عدم اتفاق كلمة الدول الأوروبية . ورجل هذه غايته الشريفة لم يكن ينتظر منه أن يظهر بمظهر الشح في وقت اتجهت فيه أنظار العالم نحو مصر وأمير مصر . فلا غرو إذا رأيناه وهو الرجل الزراعي الذي يحسب حساب القرش فلا ينفقه إلا في وجهه الصحيح يشد في هذه الحفلات عن القاعدة ويخرج عن خطة الاقتصاد إلى المبالغة في السخاء والعطاء .



بعض ضيوف اسماعيل باشا في حفلة افتتاح القناة

في الصورة العليا الجنرال اجناتيف سفير روسيا في الاستانة

في الصف الأسفل من اليمين البارون دي بوست ثم الكونت اندراسي من وزراء النمسا

== وليس يفوتنا بمناسبة حفلة الافتتاح هذه وما أنفق في سبيلها من نفقات أن نشير إلى حقائق فريدة تضمنها كتاب المستر كرايتس وهي تضيف صفحة ذهبية جديدة إلى تاريخ اسماعيل . فانه كان قد تفاهم مع الملك فيكتور عمانويل على أنه إذا ما أعلن اسماعيل استقلال مصر وحاولت تركيا التدخل في الأمر فان الجيش الإيطالي يتولى الزحف على بعض الأراضى التركية النائية .

أما الأمبراطور نابليون الثالث فانه ما كاد أن يسمع بهذا حتى رفض الفكرة رفضا باتا . قلما رأى اسماعيل أن محاولته تحقيق استقلال مصر بحمد الحسام لن تقابلها أوربا بالرضى فضلا عما تقتضيه من نفقات وتضحيات لجأ إلى طريقة أخرى ألا وهي استخدام ==

اسماعيل قد حصل لمصر في الواقع على مركز دولة ذات سيادة ولكنه صادف صعوبات عظيمة في سبيل الحصول من السلطان على لقب ملائم لأسرته . وكان أسمى ماناله بعد الجهد الجهد لقب «الخدو» وهو لقب فارسي الأصل غامض المعنى . وكان هذا من أشد ما يبعث على الأسف

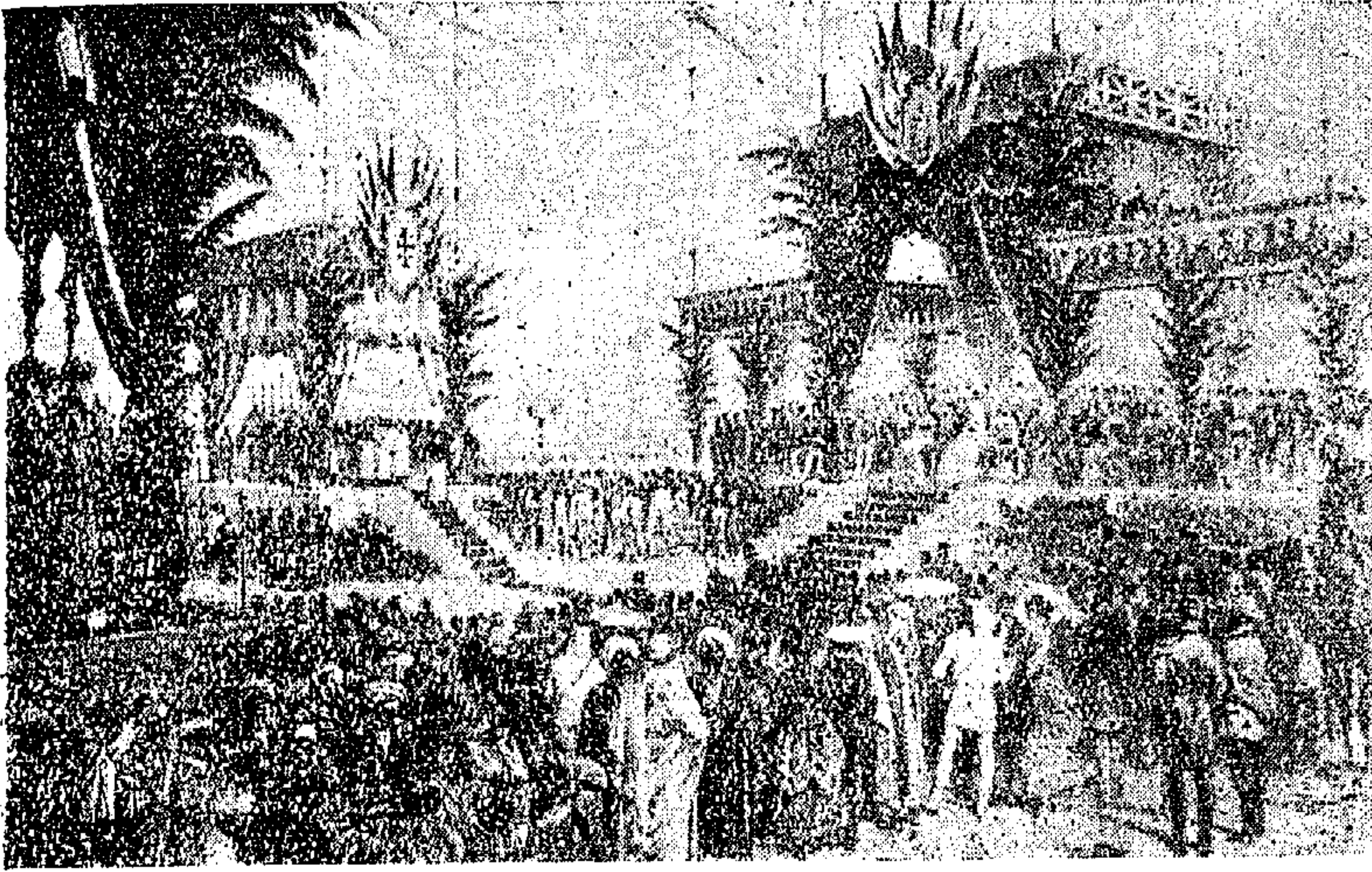
المال باعتباره أخف الأمرين . ولقد بذل في هذا السبيل الشيء الكثير لحل الدول الأوربية على الموافقة على إنشاء نظام المحاكم المختلطة في مصر وبذا يتسنى جعل الأجانب المقيمين في مصر يحاكمون أمام المحاكم المختلطة وهي محاكم مصرية تصدر أحكامها باسم أمير البلاد .

وقد لقيت هذه الفكرة ترحيبا من انجلترا ثم بروسيا ثم النمسا . وشيئا من المال أنفقه اسماعيل في الاستانة بواسطة وسيطه الشهير المدعو «ابراهيم بك» الأرمي كفل له موافقة تركيا وروسيا .

بقيت فرنسا . ولكن نوبار عاج المشككة بلباقة وحذق . فلقد أرسل من باريس في يوم ٥ مارس سنة ١٨٦٩ إلى اسماعيل باشا أي قبيل افتتاح قناة السويس للملاحة يخبره بأن الجنرال فلوري الفرنسي أشار عليه بطلب مقابلة الأمبراطورة يوجيني ليخبرها بأن مولاه اسماعيل باشا كلفه بالسؤال عما إذا كانت جلالته سوف تتكرم بزيارة مصر بمناسبة افتتاح القناة . فاذا كان الرد بالإيجاب فان اسماعيل قد اعزم أن ينهز فرصة تشریفها ليجعل حفلة الاستقبال من الفخامة والروعة بحيث تتناسب مع مقام جلالته السامي . وقد ذكر نوبار باشا أن الجنرال أكد له أن هذه الخطوة جديدة بأن تتعلق الأمبراطورة باعتبارها صاحبة السيطرة على المسيو لافاليت وزير الخارجية ، وأن إشارة ارتياح منها للوزير المذكور كفيلة بتحقيق رغبات اسماعيل باشا في هذا الصدد . ولم يشأ نوبار مقابلة الأمبراطورة قبل استئذان الخديو .

وبالطبع كان الخديو اسماعيل من إصالة الرأي بحيث وافق على اقتراح فلوري وكتب من فوره إلى نوبار يكلفه بمقابلة الأمبراطورة .

وفعلاتم المقابلة وارتاحت جلالته لما أشار إليه نوبار من فخامة حفلات الاستقبال حتى أن ذلك الداهية استطاع في ٢٤ من الشهر نفسه أن يرسل إلى مولاه في القاهرة يهنئه لأنه حصل على تأكيد من الحكومة الفرنسية بأنها ستوافق على مشروع إصلاح القضاء في مصر الذي يرمى إلى إنشاء نظام المحاكم المختلطة .



اسماعيل باشا يحتفل بضيوفه في بور سعيد في ١٦ نوفمبر سنة ١٨٧٩
أى في اليوم السابق لافتتاح قناة السويس للملاحة

وقد أقيمت في هذه الحفلة ثلاث منصات خصصت المنصة الكبرى للبلوك والأمراء
وكبار المدعوين والثانية لرجال الدين الإسلامي والثالثة لرجال الأكليروس وجلس في
المنصة الكبرى الخديو اسماعيل وأوجيني إمبراطورة الفرنسيين وفرنسوجوزيف إمبراطور
النمسا وملك المجر وفردريك ويلهلم ولى عهد بروسيا والأمير هنرى أخو ملك هولندا
والأميرة قرينته والسير هنرى إليوت سفير إنجلترا بالآستانة وعقيلته والأمير مورا
والأمير محمد توفيق باشا ولى العهد والأمير هو هنلوه والجنرال اجناتيف سفير روسيا
في الآستانة وعقيلته والأمير محمد سعيد طوسون بن سعيد باشا ووالد سمو الأمير عمر
طوسون وشريف باشا وزير الداخلية ورئيس المجلس المخصوص العالى (مجلس الوزراء)
ونوبار باشا وزير الخارجية وشاهين باشا وزير البحرية والبحرية ورياض باشا خازندار
الخديو والمسئوفرديناند دلشبس والأمير عبد القادر الجزائرى والبارون دوبست
والكونت اندراسى . وقد ألقى الشيخ ابراهيم السقا في هذا الاحتفال كلمة تبريك باللغة
العربية وتلاه المونسنيور (بوير) واعظ نابليون الثالث الذى جاء خصيصاً من فرنسا .
وألقى خطبة تبريك بالفرنسية .

إذ كانت النتيجة أن رغبة اسماعيل في اظهار مقامه كحاكم ذي سيادة في أعين أوروبا جعلته يمعن في الأسراف والبذخ. وعلى كل فلو أننا نظرنا إلى الأمر إجمالاً لوجدنا أن ما بذله اسماعيل في سبيل إتمام عمل جده

== فأنت ترى إذن السر في تعمد اسماعيل أن تكون الاحتفالات بمناسبة افتتاح القناة بالغة منتهى الروعة والفخامة .

وعلى أننا برغم ذلك كله لسنا نميل إلى تصديق الرقم الذي قدروه لأقامة الحفلات المذكورة فقد زعموا أنه بلغ ١٤٠٠٠٠٠٠ جنيه وهو مبلغ لا يظن أن طبيعة اسماعيل التي اشتهرت بحب الاقتصاد تسمح بانفاقه في سبيل الغاية الشريفة التي جعلها نصب عينيه . ويشاء حظ مصر العاشر ألا تتفق كلمة الدول الأوربية على إعلان استقلال مصر في أثناء الاحتفالات فكانت صدمة عرف اسماعيل كيف يصمد لها .

خسائر مصر في إنشاء القناة

لقد مر بك فيما نقلناه من انتقادات لورد ملزر ولورد كرومر وغيرها أن إنشاء القناة كلف مصر نيفاً و ١٦ مليون من الجنيهات . وإليك مفردات هذا المبلغ كما ذكره الاستاذ الراجحي بك :

قيمة أسهم مصر في القناة	٣٤٢٦٠٠٠٠٠	جنيه
قيمة التعويضات المحكوم بها للشركة	٣٣٦٠٠٠٠٠٠	»
ثمن أراضي تفتيش الوادي	٤٠٠٠٠٠٠	»
تعويض مدفوع للشركة بمقتضى اتفاق ٢٣ ابريل ١٨٦٩	١٢٠٠٠٠٠٠	»
نفقات التربة العذبة	١٢٠٠٠٠٠٠	»
نفقات حفلات افتتاح القناة وهذا رقم تخميني كما بيناه سابقاً	١٤٠٠٠٠٠٠	»
فوائد وسمسة و نفقات التحكيم الخ	٥٨١٤٠٠٠٠	»
المجموع	١٦٨٠٠٠٠٠٠	»

هذا ما خسرتة مصر من جراء إنشاء هذه القناة . فاذا قورنت هذه الخسائر بما أنفقته الشركة من رؤوس أموال في إنشاء القناة بأكملها ويبلغ مجموعها ١٨ مليون جنيه لتبين لك أن مصر هي التي تحملت أكبر عبء من هذه النفقات . وليتها أفادت منها شيئاً . ولكنها بعد تلك الخسائر الفادحة وبعد ما أصيبت به تربتها من جراء حرمانها من الأيدي العاملة بسبب أعمال السخرة ، منيت بالاحتلال البريطاني فكان أكبر الخسائر وإن لم يكن خاتمتها .

لم يكن بالثمن الفادح خصوصاً وأن نفقاته كانت أقل بكثير مما أنفقه محمد على في مشروعاته وخططه العسكرية (كذا ! كذا !)

بيع الأسهم المصرية في القناة

ذكرنا لك في ص ٢١٨ من هذا الكتاب أن المغفور له سعيد باشا اكتتب بـ ١٧٧٠٦٤٢ سهماً من مجموع أسهم القناة وقدرها ٤٠٠.٠٠٠ ر. سهم أي أنه - رحمه الله - اكتتب بما يقرب من نصف أسهم الشركة .

نعم إن الحكومة المصرية اضطرت فيما بعد أن تبيع ١٠٤٠ سهماً بحيث صار مجموع ما تبقى لها ١٧٦٠٢٠٢ سهماً ولكن هذا الباقي - لولا تساهل سعيد باشا مع صديقه دلسبس - كان يخولها حق الاشتراك في أعمال مجلس إدارة الشركة والسهر على المصالح المصرية على الوجه الأكمل .

ولقد دفع سعيد باشا في هذه الأسهم ٣٠٤٢٦٠٠٠ جنيه . ولم يحل شهر نوفمبر عام ١٨٧٥ حتى رأى اسماعيل باشا نفسه مضطراً لأن يبيع هذه الأسهم في مقابل أربعة ملايين جنيه دفعتها له الحكومة البريطانية فوراً .

بين دزرائيلي وروتشيلد

وحكاية ابتياع هذه الأسهم طريقة بحيث تحسن الإشارة إليها هنا بايجاز وقد لخصها المستر دزرائيلي في مذكراته . فلقد بينالك كيف أن ساكن الجنان اسماعيل باشا أصبح في حاجة ماسة إلى المال وخاصة بعد ما أداه من التعويضات الجسيمة التي أرغمت مصر على أدائها لشركة القناة بعد حكم نابليون المشهور وبعد أزمة القطن التي أصابت مصر في أوائل عهده السعيد وبعد الطاعون البقري الفادح الذي اكتسح البلاد مما جعل اسماعيل يدفع لأصحاب المواشي في سنة ١٨٧٤ إعانة تقرب من الأربعة ملايين جنيه .

وهنا طرأت له فكرة بيع أسهم مصر في القناة مع الاحتفاظ بحصتها في الأرباح .
وقدرها ١٥ ٪ .

فما كادت هذه الرغبة أن تتردد في نفسه ويسر بها إلى أخلص رجال حاشيته حتى علم بها الداهية دزرائيلي من جواسيسه في باريس . وهنا ترك رئيس الوزارة البريطانية يقص علينا خلاصة ما حدث .

ولا ريب أن فصل مصر عن مجرى الفساد العثماني كان خدمة جليلة لا تقل عنها خطوته الأولى المهمة في سبيل تحريرها من تدخل الجاليات

== كان البرلمان الأنجليزى فى عطلته الاعتيادية . فلما وصل إلى سمع الوزير البريطانى الكبير نبأ ما اعتزمه اسماعيل باشا - وكان فى منتصف الليل - أرسل من فوره من أحضر له المستر روتشيلد كبير آل روتشيلد المالىين . فلما مثل أمامه سأله هل يستطيع أن يقدم له أربعة ملايين جنيه فى الحال . فأجابه المالى الكبير بأن المبلغ موجود . ولكن ماهى الضمانه وخاصة البرلمان معطل ولن يتسنى الحصول على موافقته على هذا القرض - إذا افترض أنه سيوافق - إلا بعد مرور عدة أسابيع أى بعد عودة اجتماع البرلمان ؟ هنا استولى الغضب على الوزير الكبير وقال لمحدثه إنه بصفته رئيس وزراء بريطانيا يطلب هذا المبلغ . فلما لم تن قنائة روتشيلد اضطر المستر دزرائيلى أن يضرب على نعمة التهديد ويتوعده بما سوف يحل به إن هو تردد فى تقديم هذا المبلغ فورا متى كانت مصلحة بريطانيا العظمى الملحة تحتم ذلك .

فلم يسع صاحبنا إزاء هذا الأصرار والتهديد إلا أن يعد بتسليم المبلغ فى الصباح وفعلا أرسله إلى دزرائيلى وهذا أمر بارسالة إلى مصر . كل ذلك والبرلمان لم يجتمع بعد . فلما اجتمع البرلمان بعد العطلة وقف دزرائيلى مدافعا عن خطته هذه وسوغ فعلته بأنه لولا إسراعه فى عقد تلك الصفقة لفازت بها فرنسا وتعرضت مصالح إنجلترا فى الهند وفى الشرق لأفدح الأخطار .

وبعد مناقشات أفلاطونية طويلة أقر البرلمان ما حدث ولعله رأى أن ليس ثمة فائدة عملية من المناقشة بعد أن أوقفه رئيس الوزارة أمام الأمر الواقع .

موقف اسماعيل حيال بيع الأسهم المصرية

ونحسب أن من الانصاف أن نقف لحظة هنا لنتلقى نظرة على عمل اسماعيل وتساءل هل كان حكما فى بيع هذه الأسهم أم أنه كان مغامرا فيما فعله وأنه لذلك جدير بغضب المنتقدين لأنه أضاع على مصر - كما زعموا - المزية الباقية لها من مشروع القناة . لطالما حدثناك بحب اسماعيل فى الاقتصاد وحرصه على ألا ينفق القرش إلا فى وجهه الصحيح . فمثل هذا الرجل الاقتصادى ما كان ليقدم طوعا على بيع هذه الأسهم إلا إذا كانت هناك بواعث قوية . فلننظر إلى الأرقام فى الحكم الفصل بين اسماعيل وخصومه . فأنت تعرف بما سردناه عليك فى ص ٢١٨ أن قيمة السهم بلغت عند تأليف شركة ==

والتجارة الأجنبية والذي كان آخذاً في الازدياء تحت ستار الامتيازات .
فلقد تضاعف عدد الأجانب في مصر عشر مرات فبلغوا ٢٠٠٠٠٠ ر .
ثم إن ما كان يتمتعون به من حقوق لا يتمتع بها الأهالي أنفسهم أصبح

== قناة السويس في أواخر سنة ١٨٥٨ نحو ٥٠٠ فرنك (أى ٢٠ جنيهاً) . ونحن نورد
لك قيمة السهم بالفرنك في كل من السنوات الست التي تلت افتتاح القناة وهي منقولة
عن كتاب « قناة السويس » الذي وضعه سنة ١٩٣١ الأستاذ هالبرج من كبار أساتذة
جامعة سيراكيوز بالولايات المتحدة .

ففي سنة	كانت قيمة السهم	فرنك
١٨٧٠	» » »	٢٧٢ر٨٦
وفي سنة ١٧٧١	» » »	» ٢٠٨ر١٣
وفي سنة ١٨٧٢	» » »	» ٣٥٥ر١٣
وفي سنة ١٨٧٣	» » »	» ٤٣٤ر٩٣
وفي سنة ١٨٧٤	» » »	» ٤٢٢ر١٩
وفي سنة ١٨٧٥	» » »	» ٦٧٤ر٠٥

أى أن السهم الذي كانت قيمته ٥٠٠ فرنك (نحو ٢٠ جنيهاً) في سنة ١٨٥٨ هبط إلى ٢٧٢
فرنك في سنة ١٨٧٠ ثم إلى ٢٠٨ فرنك (نحو ٨ جنيهاً) في سنة ١٨٧١ ثم أخذ يرتفع قليلاً
إلى أن بلغ ٦٧٤ فرنك (نحو ٢٧ جنيهاً) في سنة ١٨٧٥ . أو بعبارة أخرى - إذا شئنا التساهل
في التعبير - إن مستقبل أسهم القناة كان تحت رحمة الأقدار . ولما كان اسماعيل رجلاً اقتصادياً
عملياً وكان في حاجة ماسة إلى المال بعد ما أصيبت به مصر من تعويضات لشركة القناة
وتدهور في أسعار القطن وطاعون فتاك أصاب المواشى مما قدرت لادى دوف غوردون
خسائره بأثنى عشر مليون جنيهاً - لم يكن أمامه إلا أحد سبيلين . إما الالتجاء إلى عقد
قروض أجنبية بفوائد باهظة وإما بيع هذه الأسهم التي كان مستقبلها في كفة القدر .
فاختار الأمر الثاني وهو أهونهما . ويلاحظ أن اسماعيل برغم حاجته إلى المال
اختار أنسب وقت لبيع الأسهم . فان الحكومة البريطانية عرضت عليه مبلغ ٣٩٧٦ر٥٨٠
جنيهاً أى بمعدل السهم الواحد ٢٢ر٤ جنيهاً انجليزي أو بعبارة أخرى ٥٦٢ فرنك وهو
يزيد عن سعره في سنة ١٨٥٨ وعن سعره في سنة ١٨٧٤ .

وإذا ذكرنا أن سعيد باشا اشترك بـ ١٧٧ر٦٤٢ سهماً بلغ ثمنها ٣٩٧٦ر٥٨٠
وأن اسماعيل باشا باع للحكومة البريطانية فعلاً ١٧٦ر٦٠٢ بمبلغ ٣٩٧٦ر٥٨٠ جنيهاً ==

من الأمور الداعية إلى الارتباك والحيرة . ولما أدرك أن الطريق المثلى للتخلص من نفوذهم بعد أن صاروا بمثابة حكومة في داخل حكومة بسبب اختصاص القناصل وبفضل نظام الامتيازات فكر في إيجاد تشريع

== فيكون بهذه العملية قد ربح ما يبلغ ثلاثة أرباع المليون جنيهه — نقول متى ذكرنا هذا فلا يمكن القول بأن اسماعيل كان مغامرا في هذه الصفقة.

قد يقال إن هذه الأسهم قد ارتفع ثمنها فيما بعد حتى بلغت في نهاية سنة ١٩٢٩ ٧٢ مليون جنيهه وربحت منها الخزانة البريطانية (إلى أواخر سنة ١٩٢٩) ٣٨٦٠٠٠٠٠٠ جنيهه ولكن اسماعيل باشا احتاط للأمر فلم يشأ التنازل عن حصة مصر في الأرباح وقدرها ١٥ ٪ . ولعله رحمه الله رأى أن يبيع الأسهم بالثمن السالف الذكر فيوفر على الخزانة عبء عقد قرض أجنبي مع فوائده الباهظة مع استبقاء حصة الـ ١٥ ٪ التي قدر أن تنتفع البلاد منها فيما لو أظهرت التجارب بشكل قاطع صلاحية قناة السويس . على أن النقد إذا كانوا لم يتورعوا عن كيل التهم جزافاً لاسماعيل لأنه باع أسهم مصر في ١٨٧٥ بربح قدره ثلاثة أرباع المليون من الجنيهات فهل لهم أن يذكروا لنا لماذا سكتوا عن المراقبة الشائبة ولم يوجهوا إليها أي لوم بمناسبة بيعها حصة الـ ١٥ ٪ في سنة ١٨٨٠ أي في العام التالي لخروج اسماعيل باشا من مصر ؟

وليس ينبغي أن يفوتنا أن اسماعيل باع أسهم مصر في وقت كان فيه مستقبل القناة معلقاً في كفة القدر . ولكن السادة الذين تولوا الاشراف على مصائر مصر في عهد المراقبة الشائبة جازفوا ببيع حصة الـ ١٥ ٪ في الوقت الذي أصبح فيه مستقبل القناة مضموناً ولا خوف عليه كما تدل على ذلك الأرقام التالية :

في سنة ١٨٧٥ أي في السنة التي باع فيها اسماعيل أسهم مصر بلغ سعر السهم ٦٧٤٠٥ فرنك

وفي سنة	بلغ سعر السهم
١٨٧٦	٧٠١٦٣ فرنك
١٨٧٧	٦٧٧٨٧
١٨٧٨	٧٥١٧٣
١٨٧٩	٧٢٤٤٠

وفي سنة ١٨٨٠ (أي في السنة التي بيعت فيها حصة الـ ١٥ ٪) بلغ سعر السهم ١٠٧٥٨٨ فرنك (نحو ٤٣ جنيهه)

يستطيع تطبيق قواعد القانون الأوربي وأساليه . فانشأ بمساعدة نوبار محكمة جديدة هي المحكمة المختلطة . وكان بديها أن يؤدي إنشاؤها إلى الاصطدام بالمشايخ والعلماء . لابل إنها لم تنشأ فعلا إلا بعد

== ولقد بيعت الحصة المذكورة للبنك العقاري الفرنسي في مارس سنة ١٨٨٠ بمبلغ ٨٨٠٠٠٠٠ جنيه وقد بلغ ثمن هذه الحصة في سنة ١٩٣٢ نحو ٢٥ مليون جنيه وتغل إيرادا سنويا بلغ في سنة ١٩٣٢ نحو ٤٥٤٠٠٠٠٠ ر. ٢٠٠٠ جنيه .

لقد أبى اسماعيل في أيام الشدة أن يمس هذه الحصة مفضلا أن تنتفع بها البلاد من بعده ولكن الذين تولوا شؤون مصر بعد خروجه منها جازفوا ببيعها . ولبتهم ذكروا فضل اسماعيل عند بيع هذه الحصة بل زعموا أن الخديو توفيق اضطر إلى بيعها من جراء ديون اسماعيل باشا !! فهلا ذكروا أنه كان في وسعهم « رهن » هذه الحصة لعقد قرض جديد يخفف ويلاط البلاد إذا صح ما زعموه من أن البلاد كانت بعد خروج اسماعيل في أشد حاجة إلى المال ؟

ألا إن التاريخ ان يغفر لأولئك المصلحين مجازفتهم ببيع تلك الحصة الثمينة في الوقت الذي كانت الأحوال تبشر فيه بأن الحصة المذكورة سوف تدر على مصر خيرات عميمة وحسبك أن إيرادها الحالي يزيد عن المليون جنيه سنويا .

ما كسبه اسماعيل لمصر من مشروع القناة

إلى الآن قد ذكرنا لك خسائر مصر المالية والسياسية من القناة وقبل أن نقفل هذا الباب نرى أن من الأنصاف أن نذكر ما استرده اسماعيل لمصر من ذلك المشروع . فلقد تناسى الناقدون من رجال الأموال الذين لا يعرفون إلا منطق الأصفر الرنان أن اسماعيل استطاع أن يحقق لبلاده هذه الأمور الجوهرية الآتية :

أولا : لقد أبى أن تنشأ القناة العذبة على حساب عمال السخرة وقد كلفه هذا الدفاع عن الفلاح ١٥٢٠٠٠٠٠ جنيه حكم به عليه نابليون الثالث .

ثانيا : أنه استرد من مخالب شركة القناة ما يبلغ ٦٠٠٠٠٠ هكتاراً أي ١٢٠٠٠٠٠ فدان تقريبا وحال بذلك دون انشاء مستعمرة فرنسية على حدود الدلتا . وإذا كان نابليون قد حكم على مصر بأن تدفع للشركة وقتئذ تعويضا عن هذه الاراضي قدره ١٢٠٠٠٠٠٠ جنيه فان ذلك لا يمنعنا من أن نقدرها الآن بثمن أعلى من ذلك ويزيد كثيرا عن التقدير السابق .

عزل شيخ الإسلام . كذلك أدى انشاؤها إلى التشاحن مع فرنسا التي كان من نتيجة معارضتها أن أرجىء إنشاء المحاكم الابتدائية الثلاث في القاهرة وفي الاسكندرية والمنصورة ومحكمة الاستئناف في القاهرة وقيامها بأعمالها

== ثالثا : ثم التركة العذبة وهي ترعة الاسماعيلية فقد استردها اسماعيل بعد أن أدرك ببعد نظره ما ينتظر أن يعود منها من الخير في المستقبل . ولقد كان دلسبس يبنى نفسه بأن تبقى هذه التركة للشركة لأن بقاءها معناه إزدياد العمران في تلك الجهات وبالتالي زيادة أرباح الشركة . ومن الصعب تقدير فائدة هذه التركة الآن وتحديد هذه الفائدة بالجنهيات . وحسبك أن تذكر أن نابليون قرر دفع تعويض عن استردادها قدره ٢٤.٠٠٠.٠٠٠ جنيهه فاذا أضفت إلى ذلك المبلغ ما علبى ضفتى التركة من المساحات الواسعة التي كانت هذه التركة سببا في تصقيعها وما عاد على الأهلين من الفوائد بسبب أعمال الري وخلافه فإن القيمة تصبح أضعافا مضاعفة .

وإذا شئنا في النهاية أن نحسب قيمة ما استرده اسماعيل من الشركة بحساب الجنيه فلا أقل من أن نقدر مبلغ ١٢ مليون جنيهه للستين ألف هكتار المذكورة يضاف إلى هذا المبلغ مبلغ ٢٥ مليون ثمن حصة ال ١٥ ٪ التي تملكها اسماعيل لمصر . هذا عدا ثمن التركة العذبة وما إليه من تصقيع الأراضي الواقعة على ضفتيها .

أما إذا نظرنا إلى أعمال اسماعيل في هذه الناحية من جانبها الأدبي فبحسبك أنه تمكن من الغاء السخرة في أعمال القناة وصيانة سيادة الأراضي المصرية ضد خطر الاستعمار الأجنبي وحفظ المرافق العامة المصرية برفضه السماح لشركة القناة من استغلال امتياز أصبح يعد الآن من حقوق الدولة .

ولعل القارىء قد لاحظ أننا توسعنا في ذكر موقف اسماعيل حيال شركة القناة . وقد تعمدنا هذا لأن كثيرا من الناس ومن بينهم بعض مؤرخينا مع الأسف أخذوا على اسماعيل مضيه بمشروع القناة إلى النهاية وكأنهم أرادوا أن يلحقوا إلى إنه كان في مقدوره أن يأمر بوقفه والعدول عنه . وكأنهم تناسوا ما كان يحيط بالمشروع من مختلف الملابسات . فاعلمهم يعرفون بعد ما ذكرناه أن ذلك الرجل العظيم لم يكن يسعه أن يفعل أكثر مما فعل . وإذا كانت وقفته لألغاء السخرة قد أقامت عليه فرنسا وعاهلها نابليون وكان ما كان من نتائجها فكم كانت تقوم القيامة وتعصف الأعاصير بمصر لو أن ==

سنوات عديدة (١٨٧٧) وإنه لما يبعث على السرور أن نسجل هنا أن انجلترا أيدت هذا المشروع من صميم فؤادها وساعدت على تذليل معارضة الباب العالي وغيره من الدول في التعرض للامتيازات

== اسماعيل رفع يده في وجه الشركة ليأمر بوقف العمل في القناة؟ إن على الناقدين قبل أن يقولوا كان ينبغي على اسماعيل أن يفعل كيت وكيت أن يسألوا أنفسهم أولا ماذا عسى كان يحدث لو أنه فعل كيت وكيت .

والآن وقد انتهينا من مسألة القناة وملايساتها فننتقل إلى ناحية مهمة أخرى من نواحي اسماعيل المتشعبة ألا وهي محاربة النخاسة .

محاربة النخاسة

السير صمويل بيكر

لا تذكر النخاسة وما اتخذ اسماعيل باشا من التدابير لمحاربتها إلا ذكر معها السير صمويل بيكر . فكان اسمه علم عليها إذ إلى مجهوداته يرجع أكبر فضل في سبيل القضاء عليها في أوكارها .

وقبل أن نخوض في مسألة النخاسة لا بد أن نلاحظ أن بعض مؤرخينا المصريين ومنهم الأستاذ الرافعي بك يأخذون على اسماعيل باشا أنه عهد في الحملات والتجاريده المصرية لا إلى ضباط الجيش المصري على نحو ما كان يفعله ساكن الجنان محمد علي باشا الكبير بل كلف بها جماعة من الإنجليز فكان ذلك على قول الأستاذ موطن الضعف في سياسة اسماعيل لأنه مهد الطريق للسياسة الإنجليزية التي كانت ترمى بعد فتح القناة إلى احتلال مصر والسودان .

وقد ذهب الأستاذ في تأييد رأيه إلى أن الأمير ادوارد ولي عهد انجلترا عرض على اسماعيل باشا أثناء وجوده بمصر في حفلات القناة أن يعهد إلى المستر صمويل بيكر بمطاردة الاتجار في الرقيق في السودان باسم الحكومة المصرية وأن الخديو سرعان مالي الطلب توددا للإنجليز لأن الغرض من هذه المهمة لم يكن لخدمة الإنسانية بل تحقيقا لمآرب سياسية كما ذكر الأستاذ !!

أما المستر كرايتس فقد خالف الأستاذ الرافعي بك فيما ذهب إليه وقال إن الخديو تعرف فعلا بالمستر صمويل بيكر في حفلة رقص تنكرية أقيمت أثناء حفلة افتتاح القناة وكان قد جاء من انجلترا للأشراف على الترتيبات التي عملت لاستقبال سمو ولي عهد بلاده ==

وإليك ما كتبه بهذه المناسبة لوردستانلي في ١٨ أكتوبر سنة ١٨٧٦ إذ قال :

« إن حكومة جلالة الملكة لا تميل طبعاً إلى أن يكون لها اختصاص

== وهنا ذكر المستر كراييتس أن الخديو هو الذي فاتح سمو ولي عهد إنجلترا مقترحاً تكليف المستر بيكر بقيادة تجريدة مصرية ترافقه إلى جهات النيل الأبيض للعضاء على تجارة الرقيق وتوطيد دعائم الأمن في السودان . فأبدى سمو الأمير ادوارد ارتياحه لهذا الاقتراح وانضم إلى اسماعيل باشا في اقناع صمويل بقبول المهمة .

وقد قال المستر كراييتس في تعليل أسباب التجاء اسماعيل باشا إلى صمويل في محاربة هذه التجارة أن الخديو رأى بالتجربة أن أعوانه في الخرطوم وفي فاشودة لا يمكن الاعتماد عليهم في تعقب تجار الرقيق لأنهم كانوا يتغاضون عنهم في مقابل ما يتناولونه من الرشاوى . ولعل المستر كراييتس لم يعد الحقيقة في قوله هذا . لأن تجارة الرقيق كانت ماتزال رائجة حتى إلى بداية حكم اسماعيل باشا وهو ما يسلم به الأستاذ الرافي بك نفسه إذ قال مانصه :

« . . . وكان الاتجار بالرقيق ممنوعاً من عهد محمد علي ولكن هذا المنع لم يكن إلا إسمياً وبقيت تجارة الرقيق في السودان قائمة إلى عهد سعيد باشا بعين الحكومة وبصرها (كذا !) وبتأييد موظفيها (كذا !) وكان يتولاها تجار أقوياء لهم بيوت تجارية كبيرة تتجر في حاصلات السودان وفي الرقيق وتربح من كل ذلك الأرباح الطائلة . وكان تجار الرقيق لما لهم من النفوذ والسطوة والمال يقيمون في مختلف الجهات معاقل حصينة اتخذوها مراكز للتجارة واصطياد الرقيق .

فلبا تبوأ اسماعيل عرش مصر اعتمز أن ينضم إلى حركة العاملين على تحرير الأرقاء في أنحاء العالم وأن يكسب ثناء الانسانية في مقاومة تجار الرقيق (كذا !) وبذل جهوداً كبيرة في هذا السبيل .

وفي سنة ١٨٦٣ (أي في السنة التي تولى الحكم فيها) أرسل إلى موسى باشا حمدي حاكم دار السودان يأمره بتعقب تجار الرقيق وحرهم . . .

ثم استورد الأستاذ فقال : وقد عهد الخديوي أيضاً إلى السير صمويل بيكر ثم إلى غوردون باشا من بعده العمل على تحقيق هذه الغاية . . . إلى أن قال : « ففي الحق إن الخديو اسماعيل قام بعمل مجيد ، وأسدى إلى الانسانية خدمة جليلة في منع هذه التجارة الممقوتة . . . »

غير عادى فى مصر بل إنها لترحب من أعماق قلبها بكل تحسن فى النظام القضاى قد يسوغ موافقتها على العدول عن اتخاذ إجراءات قضائية خاصة فى مصر». وبعد أن أسهب الكاتب فى وصف « مساوىء هذا الاختصاص

== فهل لنا أن نسأل حضرة الأستاذ الرافعى بك كيف يوفق بين اعترافاته هذه ودعواه السابقة بأن « الغرض من مهمة السير صمويل بيكر لم يكن لخدمة الأنسانية بل لتحقيق مآرب سياسية » ؟

وكيف يلام اسماعيل إذا كان فى سبيل اعترافه استئصال شأفة هذه التجارة الممقوتة قد لجأ إلى مساعدة ذلك الأنجليزى وهو السير بيكر بعد أن اعترف الأستاذ الرافعى بك بأن تجارة الرقيق كانت قائمة إلى عهد سعيد باشا بعين الحكومة وبصرها وأن منعها لم يكن إلا إسمياً فقط ؟

ونترك القارىء يحكم على أقوال الأستاذ وندتقل إلى بعض مجهودات اسماعيل فى محاربة النخاسة وهى مجهودات تضيف إلى تاريخه صفحة ذهبية جديدة بجانب الصفحات الذهبية الخالدة التى مر بك طرف منها .

بدأ المستر صمويل بيكر من تلقاء نفسه رحلاته إلى أواسط أفريقيا فى عهد سعيد باشا وكان يرمى إلى اكتشاف منابع النيل الأبيض وكانت تصحبه عقيلته النبيلة التى كانت المثل الأعلى للزوجة الصالحة التى تحفز بعلمها فى سبيل المجد وتذليل الأخطار بما تظهره أمامه من الشجاعة والأقدام مما جعله يشيد باسمها ويعزو إليها ما أصابه من التوفيق فى اكتشاف بحيرة البرت نيانزا فى ١٤ مارس سنة ١٨٦٤

وكانت الجمعية الجغرافية البريطانية قد أوفدت من قبل الرحالتين « اسبيك » و « جرانى » لاكتشاف منابع النيل فجاء بطريق زنجبار واكتشفا فى يوم ٢٨ يولية سنة ١٨٦٢ بحيرة « ايكروى » ومنبع النيل منها وسمياها بحيرة فكتوريا نيانزا .

وكان المستر صمويل بيكر يؤمل أن يصل إلى تلك البحيرة مع الرحالتين المذكورين وأن يقاسمهما ألقاب الشرف والمجد . ولكن شاءت المقادير أن يسبقاه إليها وأن يستمر وحده تصحبه عقيلته الشجاعة فى تحقيق الغاية التى وضعها نصب عينيه .

وقد اختار طريق الخرطوم ومنها إلى غوندوكرو وفوصلها فى ٢ فبراير سنة ١٨٦٣ وهى آخر نقطة وصلت إليها حملات البكباشى سليم بك قبطان فى عهد محمد على فى ==

وجوده» قال: إن حكومة جلالة الملكة لا تميل طبعا إلى استمرار اختصاص لا تكسيها المعاهدة إياه وإلا كان مثل ذلك العمل في نظرها بمثابة اغتصاب - وإن كانت الظروف هي التي ساعدت على إيجاده - وهو

== سنة ١٨٤٠ وفيما هو يعد عديته لمواصلة رحلته في أعالي النيل التقى بالرحالين اسبيك وجرانت فأخبراهما باكتشاف بحيرة فيكتوريا وبما سمعاه من الأهالي عن وجود بحيرة أخرى لم يتم اكتشافها بعد . فواصل السير حتى بلغها في ١٤ مارس سنة ١٨٦٤ وسماها بحيرة البرت نسبة إلى الأمير البرت زوج الملكة فيكتوريا .

وفي أكتوبر سنة ١٨٦٥ عاد المستر صمويل بيكر إلى إنجلترا عن طريق غوندوكرو والخرطوم وبربر وسواكن واستقبلته لندن كما تستقبل الغزاة الفاتحين . وبمناسبة الترقيات والتعيينات التي تصدر في رأس السنة أنعمت عليه الملكة فيكتوريا بلقب سير

سنة ١٨٦٦

وظل السير صمويل بيكر بعيدا عن مصر إلى أن حان موعد إقامة الحفلات بمناسبة افتتاح قناة السويس فعاد إلى القاهرة في سنة ١٨٦٩ للاشتراك في إعداد معدات استقبال ولي عهد إنجلترا .

ولما كان الخديو إلى جانب اهتمامه بتوسيع حدوده في الجنوب قد أعلن عزمه على استئصال شأفة النخاسة وأنشأ لهذه الغاية محطة عسكرية في فاشودة ووضع فيها حامية تبلغ ١٠٠٠ جندي ، ونظرا لأعجابه بأعمال السير صمويل بيكر وجرأته أصبح يعتقد أنه الرجل الذي يصلح للقضاء على النخاسة في أوكارها . لذلك صمم على إدخاله في سلك خدمته .

ثم كانت الحكاية التي نقلناها عن كتاب المستر كرايبتس وتوسيط سمو ولي عهد إنجلترا في مفاتيح السير صمويل بيكر في دخول خدمة الحكومة المصرية .

وعاد السير صمويل بيكر بعد انتهاء حفلات القناة إلى لندن لتجهيز معدات رحلته ولتحقيق الغاية النبيلة التي عهد إليه اسماعيل بتحقيقها .

ولما رجع إلى مصر أصدر الخديو اسماعيل مرسوما للسير صمويل بيكر نرى أن نقل بعضه عن كتاب المستر كرايبتس ليتبين القارئ غاية ذلك الخديو العظيم من فتح السودان قال المرسوم :

ضار بالمصالح البريطانية بقدر ما هو حاط بكرامة الإدارة المصرية و صفتها .
و مما يبعث على أشد الأسف من الناحية الأخرى أن يكون اسماعيل ومن

« نحن اسماعيل خديو مصر

« نظرا لشراسة أخلاق القبائل المقيمة في حوض النيل

« ونظرا لعدم وجود حكومة ولا قوانين ولا أمن في تلك الأصقاع

« ونظرا لأن الانسانية تجار بضرورة الضرب على أيدي صيادي الرقيق الذين يقطنون

تلك الاصقاع بعددهم العديد

« ونظرا لأن نشر التجارة المشروعة في تلك الأصقاع يعتبر خطوة عظيمة في

سبل المدنية مما يؤدي حتما إلى فتح طريق الملاحة البخارية في البحيرات الكبرى

الواقعة في منطقة خط الاستواء في أواسط أفريقيا وقيام حكومة نظامية دائمة

« قد قررنا وأصدرنا أمرنا بما يأتي :

« إعداد تجريدة تكون غايتها

« أولا : إخضاع الأصقاع الواقعة في جنوبي غوندوكرو لسيادتنا

« ثانياً : منع تجارة الرقيق

« ثالثاً : إدخال نظام لنشر التجارة بطريقة منظمة

« رابعاً : فتح البحيرات الكبرى في منطقة خط الاستواء للملاحة

« خامساً : إنشاء سلسلة محطات عسكرية في أواسط أفريقيا ومستودعات تجارية

يبعد بعضها عن بعض بمسيرة ثلاثة أيام وأن تكون غندوكرو قاعدة الأعمال

الحربية . وقد عينا السير صمويل بيكر لمنصب القيادة العليا لهذه التجريدة لمدة أربع

سنوات تبدأ من أول ابريل سنة ١٨٦٩ . كما أننا منحناه أكبر سلطة على كل من

يشترك في التجريدة بما في ذلك سلطة الحكم بالأعدام .

« كذلك منحناه نفس السلطة المطلقة على كافة الأصقاع الواقعة في حوض النيل

جنوبي غندوكرو . »

فانت ترى من هذا المرسوم أن اسماعيل لم يجعل غايته منع النخاسة وحدها بل

فتح البحيرات الكبرى للملاحة ونشر التجارة المشروعة وهي جميعاً ثلاث غايات حميدة .

وقد تظن أن تجريدة السير صمويل بيكر كانت من الأعمال الكجالية التي كان في وسع

اسماعيل الاستغناء عنها . ولكن ماذا عساك أن تقول إذا علمت أن منع النخاسة =

خلفه من الإنجليز في أعمال الإصلاح هم أول من أسف لأن التدخل الأجنبي وجد الباب مفتوحاً للتدخل عن طريق هذا المعهد الدولي الذي

= كان من الأعمال المستحيلة إن لم يقترن في الوقت نفسه بانتشار التجارة وفتح البحيرات للملاحة . وهذا ما أكدته الجنرال غوردون نفسه عند ما كتب إلى شقيقته قبل سفره إلى السودان في أول بعثة قام بها إذ قال في صفحة ٩٠ من كتابه « خطابات غوردون إلى شقيقته » المطبوع في لندن سنة ١٨٨٨ مانصه :

« لقد شاء الله تعالى أن تظل سوق الرقيق رائجة عدة أعوام . وبما أن النخاسة بمثابة طبيعة ثانية للأهالي فإن استئصالها يقتضى أكثر من تجريدة واحدة . فلو فتحت البلاد للتجارة والملاحة لتلاشت هذه التجارة الممقوتة من تلقاء نفسها . »

وقال بعد أيام في خطاب آخر ورد في الصفحة التالية من كتابه السالف الذكر :
« إنى اعتقد أن الخديو لو عمر السودان لتمكن من إلغاء تجارة الرقيق . ولكن لا أمل له في فعل شيء من ذلك إلا إذا استطاع التنقل في أنحاء البلاد . وعندى أنه ينبغي فتح البلاد بتمهيد طريق الملاحة البخارية والبحيرات الكبرى وإذ ذاك يكون في مقدورى أن أعرف من هم مروجو تجارة الرقيق فأطلب إلى الخديو إلقاء القبض عليهم . »
ولقد شاءت المقادير أن يوفق اسماعيل باشا في استئصال شأفة النخاسة وأن ينشر الأمن في ربوع السودان حتى أن السير صمويل بيكر أشاد بهذه الحقيقة حتى في سنة ١٨٨٤ التي كانت فيها نيران الثورة المهدية تكتسح البلاد في عهد خلف اسماعيل باشا . قال السير صمويل بيكر في مذكراته ص ٢٨٥ :

« كان الأمن العام في عهد اسماعيل مستتباً في كافة بلاد الخديو وكان الغريب المسيحي على طول الطريق من الإسكندرية إلى الخرطوم يشعر بطمأنينة تزيد عما يشعر به أحد أبناء لندن في حديقة هايدبارك بعد الغسق ولكن السودان الآن أى في سنة (١٨٨٤) أصبح في فتنه عامة . »

ولتزداد اقتناعاً بأن تجريدة السير صمويل بيكر لم تكن كإلية تقتطف لك نبذة من مذكراته التي نشرها قبل أن يتعرف باسماعيل أو يقع تحت نفوذه . والمذكرات تستند إلى ملاحظات يومية كان يدونها السير صمويل بيكر في سنة ١٨٦١ أثناء زيارته لأواسط أفريقيا قال :

« لا يمكن رفع أفريقيا إلى أى مستوى يقرب من مستوى المدنية ما لم تمنع النخاسة =

لا يزال يعرض مصر للتدخل الأجنبي ما بقى موجودا . وقد اعترف أحد

== بتاتا . وأول خطوة لاغنى عن اتخاذها فى سبيل تحسين شؤون القبائل المتوحشة الضاربة فى حوض النيل الأبيض هى القضاء على تجارة الرقيق قضاء مبرماً . فالى أن يتم هذا فلا سبيل إلى نشر التجارة المشروعة فالبلاد موصدة تماماً فى وجه أى إصلاح . «
ولقد حدثنا السير صمويل بيكر فى مذكراته حديثاً طريفاً عن بعض مشاهداته فى السودان وعن طريقة صيادى الرقيق فى مهنتهم الممقوتة . فقال ما ملخصه :

« عند وصولى إلى غوندوكرو فى أول يناير سنة ١٨٦٣ كان الناس يظنوننى من جواسيس الحكومة البريطانية وكلما اقتربت من خيام أية قبيلة كنت أسمع فك الأصفاد قبل وصولى إلى الخيام وإذ ذاك يتم تهريب الرقيق وإخفاؤهم فى مكان بعيد عن الأنظار . وكان أحد تجار الرقيق من أبناء الطائفة القبطية وهو أبو القنصل الأمريكى فى الخرطوم . وبما أثار دهشتى أن السفينة التى وصلت إلى غوندوكرو مقلّة بعض أولئك اللصوص كان يخفق عليها العلم الأمريكى !

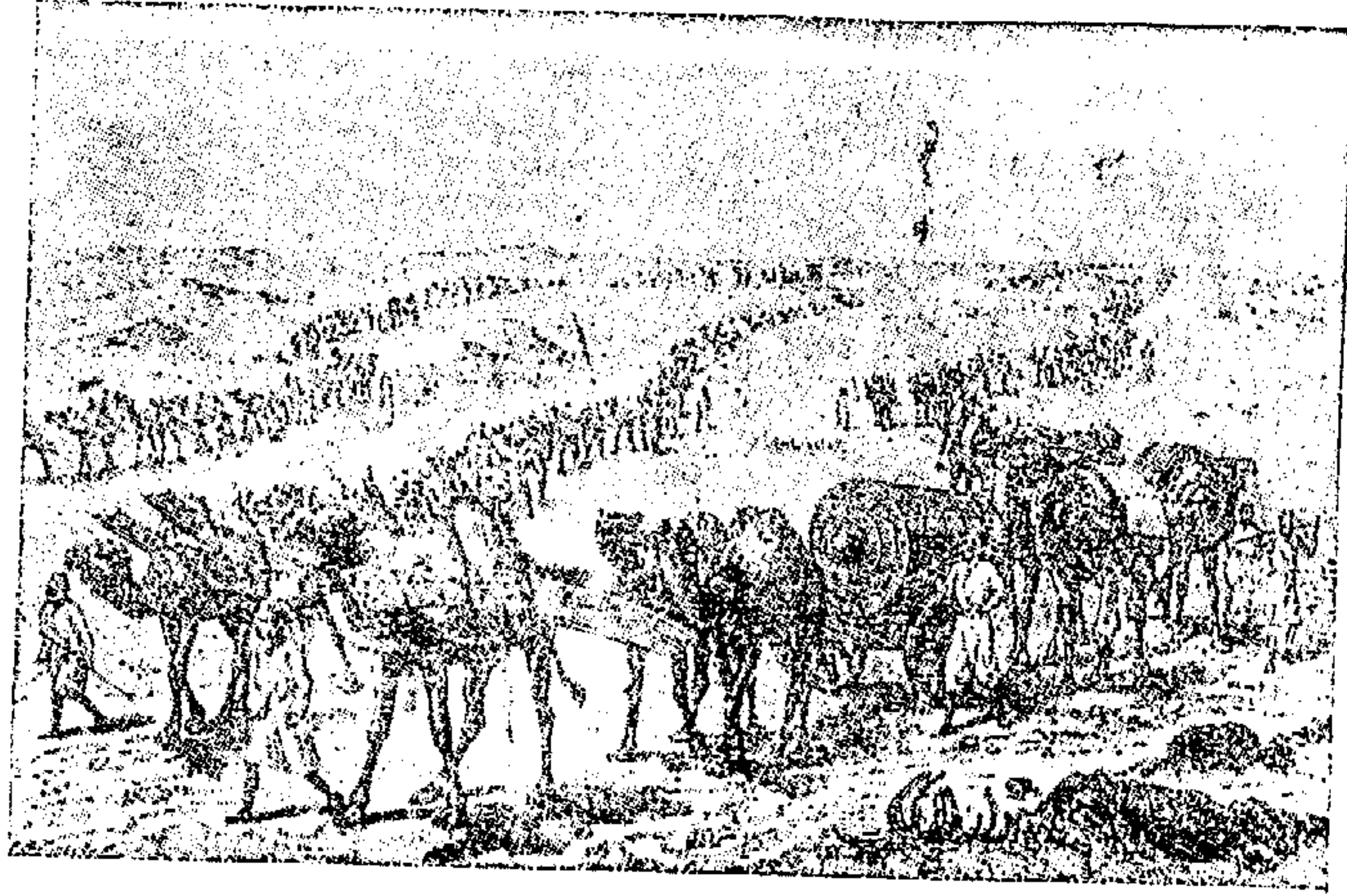
ثم استطرد السير صمويل بيكر فقال :

« لولا تجارة النيل الأبيض لأصبحت الخرطوم ولا وجود لها . أما تلك التجارة فهى النخاسة واغتيال الناس . ولا حاجة بعد ذلك إلى الأسهاب فى وصف أخلاق أبناء الخرطوم . أما كمية العاج الوارد من بلاد النيل الأبيض فهى من الضالة بحيث لا يصح أن تدخل ضمن احصاء الصادرات إذ لا يزيد مقدارها السنوى عن ٤٠٠٠٠ ر . جنيه . «
ثم راح يحدثنا عن نوع التجار فى بلاد النيل الأبيض فقال :

« هناك نوعان من التجار أحدهما ذو مال والثانى عبارة عن طائفة من المغامرين المفلسين . أما نظام العمل فواحد فى الحالتين ويمكن معرفة سلوك الأول من وصف سلوك الثانى .

« فالرجل المفلس يؤلف حملة ويقترض عليها النقود اللازمة بفائدة ١٠٠ ٪ . ويوافق على دفع القرض عاجباً بنصف ثمنه فى السوق . ومتى حصل على المال اللازم استأجر عدداً من السفن ورهطاً من الرجال يتراوح عددهم بين ١٠٠ و ٣٠٠ وجلبهم من الأعراب أو من حثالة البلاد المجاورة بمن فروا من وجه العدالة ووجدوا ملجأً حصيناً فى مخابىء الخرطوم . ثم يبتاع لرجاله عدداً من البنادق وكمية هائلة من القذائف هذا عدا بعض مئات الأبطال من الخرز . فاذا ما أتم إعداد حملة القرصنة هذه دفع لكل رجل من رجاله مرتبه لمدة ==

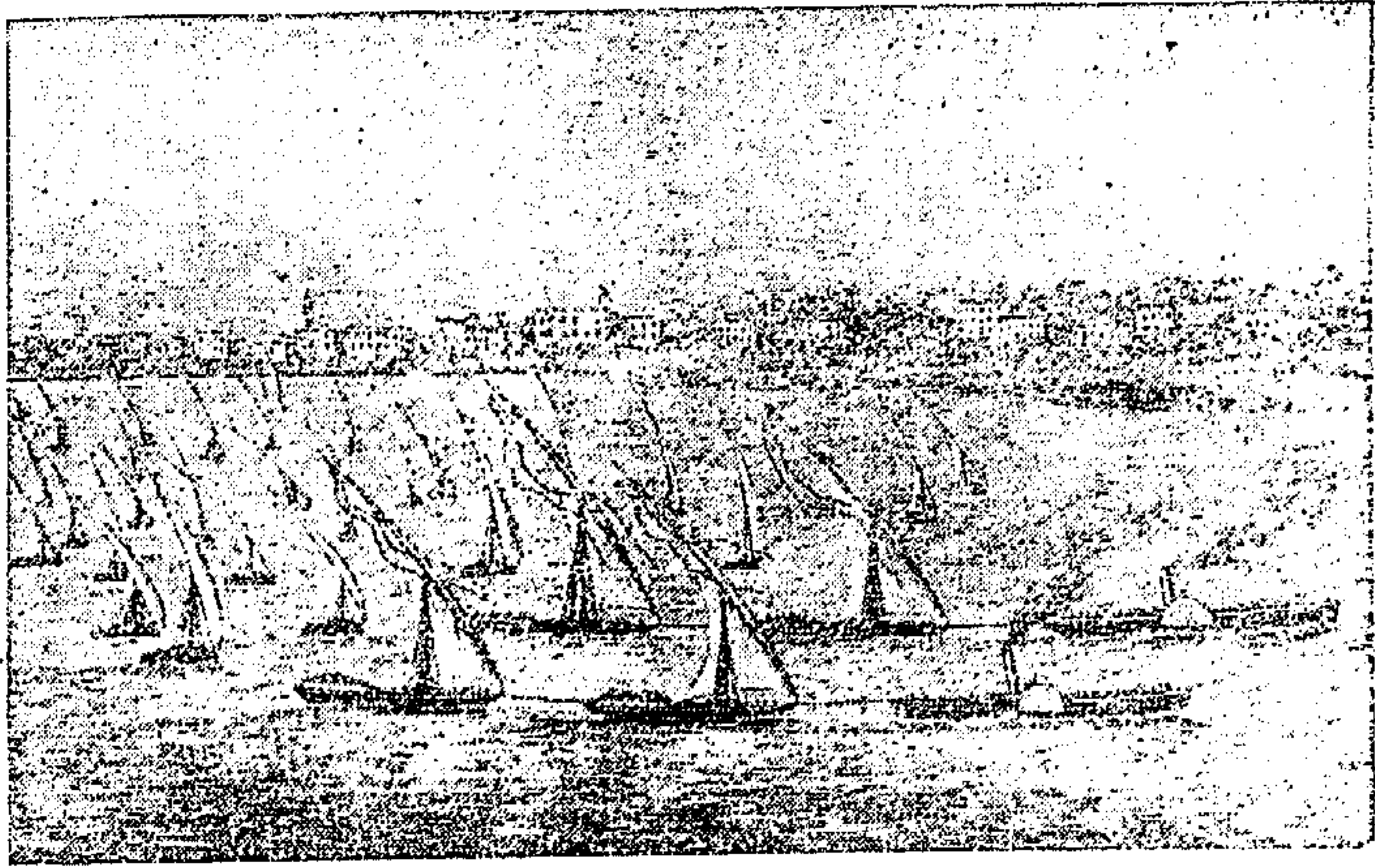
قضاة المحاكم المختلطة بهذه الحقيقة فقال في كتابه «مصر وأوروبا ص ٢١»
ما نصه:



نقل أجزاء البواخر النيلية على ظهور الأبل من مصر إلى السودان
في صحراء النوبة في أواخر سنة ١٨٦٩ استعداداً لفتح إقليم خط الاستواء

== خمسة أشهر سلفاً بمعدل تسعة شلنات في الشهر على أن يدفع لهم ستة عشر شلناً
أخرى عن كل شهر آخر بعد انقضاء الخمسة أشهر السابقة .
« وتقلع السفن عادة في شهر ديسمبر وعند وصولها إلى الناحية المطلوبة ينزل ركبها
إلى البر متوغلين في داخل البلاد إلى أن تسوقهم الأقدار إلى قرية أحد زعماء الزوج ممن
تكون الروابط قد توثقت بينهم وبينه من قبل . فاذا ما ملأه الإعجاب بهؤلاء الأصدقاء
الجدد ممن يحس في نفسه بتفوق سلاحهم لا يتردد في انتهاز الفرصة لتلس تحالفهم ولأغرائهم
بمهاجمة عدو من أعدائه في الجهات المجاورة . وإذ ذاك تسير الجماعة في الليل بارشاد مضيفهم
الزوج إلى أن يصلوا بعد مسيرة ساعة إلى القرية الآمنة التي يكون قد تقرر مهاجمتها
قبيل الشروق بنحو نصف الساعة . فاذا ما حانت ساعة الهجوم أحيط بالقرية المنكودة من
جميع جوانبها وسكانها يغطون في نومهم . ثم إذا بالمهاجمين يوقدون النار في أكواخ القش
من كل جانب . وليتهم يكتفون بهذه النيران لتلثم الضحايا الآمنين كلا بل تراهم يطلقون
بنادقهم عليهم . وفي وسط هذا الذعر العام تهجر الضحايا المساكين أكواخها طلباً للنجاة من
هذا الجحيم المستعمر فيحصدهم رصاص البنادق حصداً بينما النساء والأطفال يهرعون من هنا إلى
هناك وسط هذا الخطر والازدحام فيتخطفهن المهاجمون ويحكمون وثاقهن . وسرعان ==

« إن أحكام هذه المحاكم قد خدمت أجل خدمة مجموعة الأجناب الذين



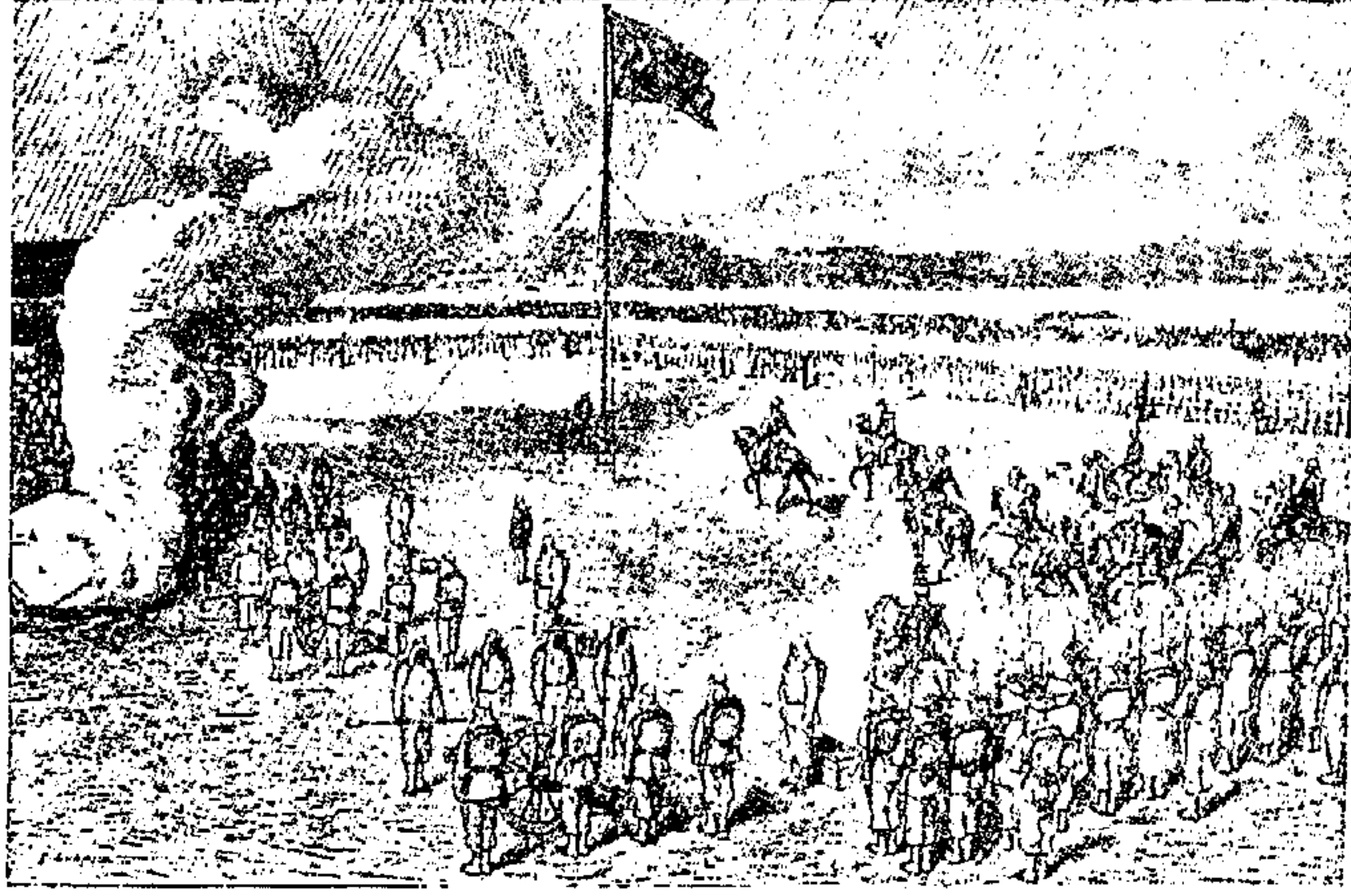
الأسطول النيل الذي تحرك من الخرطوم في يوم ٨ فبراير سنة ١٨٧٠ لفتح إقليم خط الاستواء وكان مؤلفا من ٣٠ سفينة شراعية وباخرتين

== ماتستولى الجماعة على المواشى في زرائبها ويسوقونها أمامهم كجزء من الغنيمة .
أما النساء والأطفال فينقلونهم إلى أحد أسواق الرقيق .

وقد قدر السير صمويل بيكر عدد العاملين فيما يسمونها « تجارة العاج » في حوض النيل الأبيض بنحو ١٥٠٠٠ من المصريين هذا عدا التجار السودانيين . وكان لكل من أولئك التجار منطقتة الخاصة تمتد فيها محطاته العسكرية وفي كل محطة ما لا يقل عن ٣٠٠ شخص وله الحق في امتلاك ما يشاء من الأراضي الواقعة داخل حدود منطقتة . ومن هنا تستطيع أن تدرك عظم نفوذ تجار الرقيق وكيف أن مساحات واسعة من السودان كانت محتلة بعصابات مساحة من أهالي الخرطوم . وبديهي أنه كان في استطاعة هؤلاء التجار عقد اتفاقات مع الأهالي لمهاجمة وإبادة جيرانهم واختطاف نسائهم وأطفالهم وغنم أكبر ما يمكن غنمه من الماشية والضأن على نحو ما مر بك .

ولم نذكر لك تلك التفاصيل التي نقلناها عن كتاب المستر كرايتس إلا لنبين لك مبلغ ما كان لتجار الرقيق من قوة عسكرية منظمة ومساحة أتم تسليح . فاذا كان اسماعيل قد قرر القضاء على أولئك التجار فإنه لم يفته ما كانوا عليه من القوة والمناعة وتفوقهم عليه في كل شيء .

يستغلون خيرات البلاد ومواردها.» وأدعى إلى الأسف من كل ما تقدم



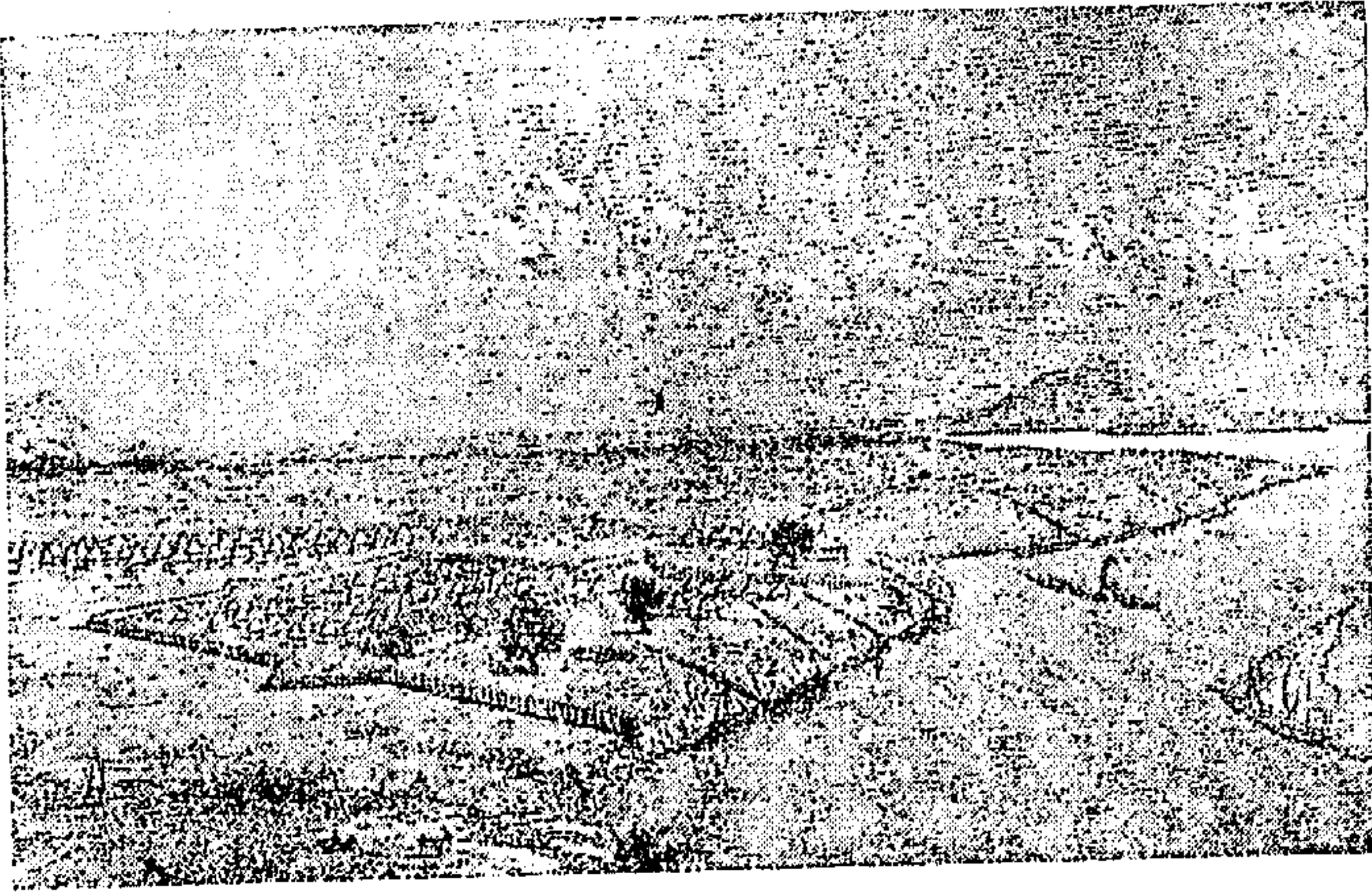
حفلة رفع العلم المصرى على غوندوكرو وإعلان ضمها إلى مصر
(٢٦ مايو سنة ١٨٧١)

والآن وقد عرفت فداحة مهمة السير صمويل بيكر وما كان يواجهه من ناحية خصومه الأقوياء من تجار الرقيق فبحسبنا أن نقص عليك أنه بعد تسلم المرسوم الذى أعطاه إياه اسماعيل باشا على نحو ما مر بك وبعد أن جعل مرتبه السنوى عشرة آلاف من الجنيهات وتقرير معاش لأسرته إذا أدركته الوفاة فى أثناء رحلته ، سافر إلى لندن لتجهيز الحملة فأوصى بإنشاء بعض السفن الخفيفة الصالحة للملاحة النيلية واتفق مع مصنع السفن أن يكون التسليم لافى الاسكندرية أو القاهرة بل فى الخرطوم !!

وفى وسعك أن تتصور مقدار ما تكبده السير صمويل بيكر من المصاعب فى نقل أجزاء البواخر النيلية على ظهور الأبل عبر صحراء النوبة . لأن الشلالات كانت تحول دون سفر البواخر المذكورة مما دعا إلى تفكيك أجزاءها وحملها على ظهور الأبل . ولم تنقل الأبل أجزاء البواخر فقط بل نقلت المهمات الثقيلة هذا بينما سافر السير صمويل بيكر بحرا إلى السويس ومنها إلى سواكن فالى بربر على ظهور الأبل ثم إلى الخرطوم على ظهر البخرة . وفى ٨ فبراير سنة ١٨٧٠ غادر الخرطوم على رأس حملة عددها ١٦٥٤ جندي عدا ٢٠٠ من الخيالة الغير نظاميين وبطارتين من المدافع . وقد نقلت هذه الحملة ثلاثون سفينة شراعية وباخترتان .

ولما وصل إلى ملتقى نهر السوبات بالنيل جنوبى فاشودة أنشأ محطة التوفيقية =

أن يكون عزل اسماعيل سبباً في تعطيل ما كان قد شرع فيه من أعمال



المعسكر المصري في غوندوكرو (الاسماعيلية) سنة ١٨٧٢

= نسبة إلى سمو الأمير محمد توفيق ولي عهد الأريكة الخديوية . وبعد مدة سافر إلى غوندوكرو وفوصلها في ١٥ ابريل سنة ١٨٧١ ورفع عليها العلم المصري في ٢٦ مايو في احتفال كبير أعلن فيه رسمياً ضم هذه البلاد إلى الأراضي المصرية .

وكان يوم الاحتفال بضم هذه المدينة إلى أملاك مصر يوماً مشهوداً . فقد وقف السير صمويل بيكر تحت السارية وطولها ٨٠ قدماً واصطف الجنود ومعهم مدافعهم ولما فرغ السير صمويل من تلاوة الأعلان الرسمي بضم هذه الجهات إلى أملاك مصر رفعت الراية المصرية فحياها الجنود وأطلقت المدافع تحية واجلالاً .

وسرعان ما استبدل السير صمويل بيكر اسم غوندوكرو باسم الاسماعيلية نسبة إلى الخديو وجعلها عاصمة مديرية خط الاستواء .

وفي ٢٢ يناير سنة ١٨٧٢ استأنف السير صمويل بيكر السير في النيل الأبيض وأسس نقطا عسكرية بأعلى النيل ومنها الابراهيمية (نسبة إلى ابراهيم باشا) على بحر الجبل وأنشأ حصونا أخرى .

ولم يلبث أن ضم السير صمويل بيكر مملكة اونيورو المتاخمة لبحيرة البرت شرقاً إلى أملاك مصر بعد خلع ملكها كبريقه وتولية قريبه ريونجا وكان ذلك في ١٤ مايو سنة ١٨٧٢

ثم مالبت ملك أوغندا « أميتسي » أن أعلن ولاءه لخديو مصر وتبذلت الهدايا بينه وبين السير صمويل بيكر . وبفضل هذا الولاة فتحت الطريق بين أعالي النيل وزنجبار .

إصلاح المحاكم المدنية الأهلية وتضييق اختصاص المحاكم الشرعية وجعله



ريونجا ملك أو نيورو يضافح بيكر باشا والجنود المصرية مصطفة
لاستقباله بقيادة القائم مقام عبد القادر حلمي بك (سنة ١٨٧٢)

= وفي ابريل سنة ١٨٧٣ انتهت مدة خدمة السير صمويل بيكر فعاد إلى الاسماعيلية بعد أن استخلف مكانه في قيادة الجيش رؤوف بك ورجع إلى الخرطوم بالقاهرة حيث حظي بمقابلة الخديو (في أغسطس سنة ١٨٧٣) فألعم عليه بالنشان العثماني كما أنعم على القائم مقام عبد القادر بك حلمي برتبة الميرالاي جزاء خدماتهما في بسط سلطة مصر في منطقة خط الاستواء .

وعبد القادر بك حلمي هو أركان حرب بيكر باشا وقد صار بعد عبد القادر باشا حلمي حاكم دار السودان سنة ١٨٨٢ صاحب المواقع المحمودة في الدفاع عن سلطة مصر في السودان (وهو والد السباح المشهور اسحاق حلمي) .

وقبل أن تنتهي خدمة السير صمويل بيكر أرسل إلى اسماعيل باشا يخبره بأنه لا ينوي تجديد عقد خدمته وأنه يقترح تعيين ابن أخيه الضابط جوليان بيكر مكانه. وفي فبراير سنة ١٨٧٢ رد عليه اسماعيل ردا رقيقا قال فيه إنه مازال ينظر في الاقتراح دون أن يجيب عليه فوراً. ثم وقع اختيار اسماعيل فيما بعد على غوردون باشا ليحل محل السير صمويل بيكر . وقبل أن تنتقل إلى الجنرال غوردون نذكر للقارىء أن اسماعيل باشا كان طوال حملة السير صمويل بيكر شديد الاهتمام بها . ونحسب أننا لا نكون إلا قد وفينا الخديو بعض حقه إذا اقتبسنا بعض فقرات الخطاب الذي أرسله في فبراير سنة ١٨٧٢ =

قاصراً على الأحوال الشخصية الإسلامية مما كان لابد أن يؤدي مع

== إلى السير صمويل بيكر وسبقت الإشارة إليه . فهذا الخطاب الذي نقله عن كتاب المستر كرايبتس يصح أن يتخذ منها جازماً لما توحى به الدبلوماسية لرجل له عبقرية اسماعيل وهو يبين لنا في الوقت نفسه معنى الاستعمار الذي يراد به نفع البلاد المستعمرة (بالفتح) . قال الخديو مخاطباً السير صمويل :

« لقد وصلت الآن إلى بلاد تعتبر جميلة وخصبة في وقت واحد وأنت تعلم أنه يحيط بك من القبائل أناس انتزعت من نفوسهم الثقة وانقلبوا أعداء ألداء بفعل صيادي الرقيق في الماضي وهو ما وفقتم في مهمتكم في وضع حد له . ولكن خطوط مواصلاتك مع الخرطوم غدت مترامية وصعبة ولهذا يلوح لي أن من خطل الرأي أن تتقدم إلى الأمام وتترك وراءك من رجال القبائل من لم يسلس قيادته بعد ولا عاودته الثقة فينا . فقف عند غوندوكرو وحصن مركزك وابدأ عمالك ولا تن في الإعلان عنه بين مشايخ القبائل . »

ولم يشأ اسماعيل أن يكتفي بهذا التعميم بل انتقل إلى التخصيص فقال :
« احتكر التجارة كما اقترحت . ولست أقول ذلك لأنني ممن يؤمنون بمزايا الاحتكار كلا بل لأنني أرى ما يسوغه في الحالة التي نحن بصدددها . وليس لك عنه غنى للتخلص من أولئك التجار الذين يتخذون من الرقيق واسطة للتعامل . ولكن استخدم الاحتكار استخداماً واسع الأطراف ومنطويها على السخاء ولن تلبث بعد آن قصير حتى تجعل الأهالي يستبدلون مصلحة غير مشروعة بمصلحة مشروعة . »

ثم استطرد الخديو فأشار إلى عدة مسائل رأينا أن نثبتها هنا قال :
« بودى أن أعرف السلع التي يهيم الأهالي المساومة عليها . ويوجد معك هيجونبوتام ولا أحسب أن مهندساً واحداً فيه الكفاية ولذا سأبعث إليك بمهندس آخر يعمل تحت إشرافه . وأولى لك أن تفكر في أنجح الطرق لتسهيل مواصلاتك مع الخرطوم . وقد أصبحت الآن متسلطاً على قبائل «باري» فالتزم العدل معهم وبدا تزداد ثقتهم فيك ويتأكدون أنك إنما هبطت إلى ديارهم بقصد تعليمهم وإرشادهم .

« وليس يفوتني أن كل هذا العمل المادي والأدبي يستغرق وقتاً طويلاً . ولكن لو سهرت عليه حتى يثمر فكن على يقين بأنك تكون بذلك قد فتحت أمامك الطريق إلى البحيرات دون أن تخطو خطوة واحدة خارج غوندوكرو حتى ولو كانت هذه البحيرات تفصلها عنك مئات الأميال . »

الزمن إلى الاستغناء عن المحاكم المختلطة .



المؤرخ المحقق الأستاذ عبد الرحمن بك الرافعي الذي اقتبسنا الكثير من كتابه القيم

== « لقد رسمت لك إجمالاً حدود الخطة التي أريدك على سلوكها ولكنني أدع لفظتتك الطرق والوسائل لتحقيق هذه الغاية . وبالاختصار لا تتقدم إلى الأمام بل علم الناس وعمر البلاد وحول القبائل إلى أصدقاء لك فمتى أدركت هذا فسر إلى الأمام على بركة الله. » فإذا عساك أن تستخلص من هذا الخطاب الذي تفيض من جوانبه الحكمة وتتجلى فيه الرحمة والمقدرة السياسية ؟ وقل لي بربك أكان يمكن أن رجلين خطيرين كيكبر وغوردون لهما مكانتهما السامية بين مواطنيهم الانجليز يستقتلان في الدفاع عن اسماعيل ويظهران سلوكه لولا إعجابهما به ؟ ألا إن الخديو اسماعيل ما كان ليظهر في كتب هذين الرجلين بمظهر البطولة والعظمة لولا أنهما أحياه وقدر ما كان يسديه للإنسانية وللمدنية من الخدمات برغم ما أثاره الدائنون حوله من جلبة وضوضاء .

تخوف أوروبا من توسع اسماعيل في السودان

لقد ذكرنا لك مآخذ الأستاذ الرافعي بك على سياسة اسماعيل في السودان ودعواه بأن الخديو عمل ما عمله تنفيذاً لرغبة إنجلترا . ونحسب أن ملاحظات حضرة الأستاذ النكيماستقيم مع أبسط قواعد المنطق كانت تقتضي عقلاً أن أوروبا أو بالأحرى إنجلترا ==

وقد تجلت هممة العهد الأسماعيلي في حماية التعليم . فالنظام الذي وضع بمقتضى قانون سنة ١٨٦٨ للمدارس الابتدائية والثانوية والفنية كان

== تترك لاسماعيل الحبل على الغارب ليتوسع في السودان مادام هذا التوسع هو في النهاية لخدمة المصالح الانجليزية ولو عن طريق غير مباشر ربما غاب عن اسماعيل وقتئذ ولو لكنه لا يعقل أن يكون قد غاب على السياسة الانجليز . كما حدث عند ما بعثت انجلترا بالرحالة ستانلي لاحتلال أوغندا فسبقها اسماعيل إلى احتلالها كما فصله سمو الأمير عمر طوسون في ص ٣١٩ من هذا الكتاب

والقارىء يسلم معنا بذلك . ولكن الواقع كان غير هذا على خط مستقيم . وفوق ما تقدم فان اسماعيل سرعان ما اضطره حملة الأسهم إلى أن يخنزل أعمال الفتح والتعمير في السودان . وأنت تعرف أن هناك على الدوام صلات خفية وعلاقات مبهمه بين المالية العليا ومحترفي السياسة . فلو لم تكن السياسة راغبة في منع اسماعيل عن التوسع في السودان لوجدت ألف سبب وألف مسوغ لصد أصحاب الأسهم عن مضايقة الخديو . ولكن كلا بل إن السياسة هي التي دفعت أصحاب الأسهم إلى العمل . فما كادوا يضغطون على اسماعيل حتى رأيناه يرسل بهذا الخطاب المرير (الغفل من التاريخ) إلى السير صمويل بيكر وهو خطاب يشعر بأن الرجل اضطر اضطراراً إلى التخلي عن السير صمويل وترك ما عمره في السودان تذروه الرياح السافيات . قال :

« عزيزى السير صمويل

« لقد حملتني على الاعتقاد عند بدء ذهابك إلى السودان بأن نفقاتك بينما تظل فادحة في خلال السنة الأولى فانها ستقل فيما بعد شيئاً فشيئاً وسنة بعد سنة . بل إنك تنبأت فعلاً بأصا به مكاسب عظيمة .

« ولكنني لاحظت في البيان الذى يصلنى سنوياً من الجهات التى ترابط فيها أن النفقات لم تخفض بتاتاً وأنها لا تزال فى مثل المستوى الذى كانت فيه فى السنوات الأولى

« ولعلك تدرك يا عزيزى السير صمويل أن السودان يتطلب أموالاً طائلة لإنجاز ما لاغنى عنه من المشروعات العمرانية فى السكك الحديدية وما إليها من المرافق العامة . « ومتى كان الأمر كما ذكرت فانتى مضطر يا عزيزى السير صمويل لأن أرجوك أن ترتب الأمور بشكل يساعد على تخفيض نفقات تجريدك إلى المستوى الضرورى للبحث ==

جديراً بأن تفاخر به أية دولة أوربية . وحسبه أنه أدى إلى زيادة عدد المدارس من ١٨٥ في سنة ١٨٦٢ إلى ٥٨٢٠ مدرسة في سنة ١٨٧٨ كما بلغ عدد التلاميذ فيها نيفاً و ١٠٠٠٠٠٠ على أن العسر المالى الذى أصاب الميزانية فى العام التالى أدى إلى إنقاص هذا العدد إلى الربع وفضلا

== ولاحظ أنى إذ أطلب ذلك إليك فلنكفم يكون من المستطاع إنجاز ماتقتضى مصالح السودان إنجازه من الأعمال العامة .

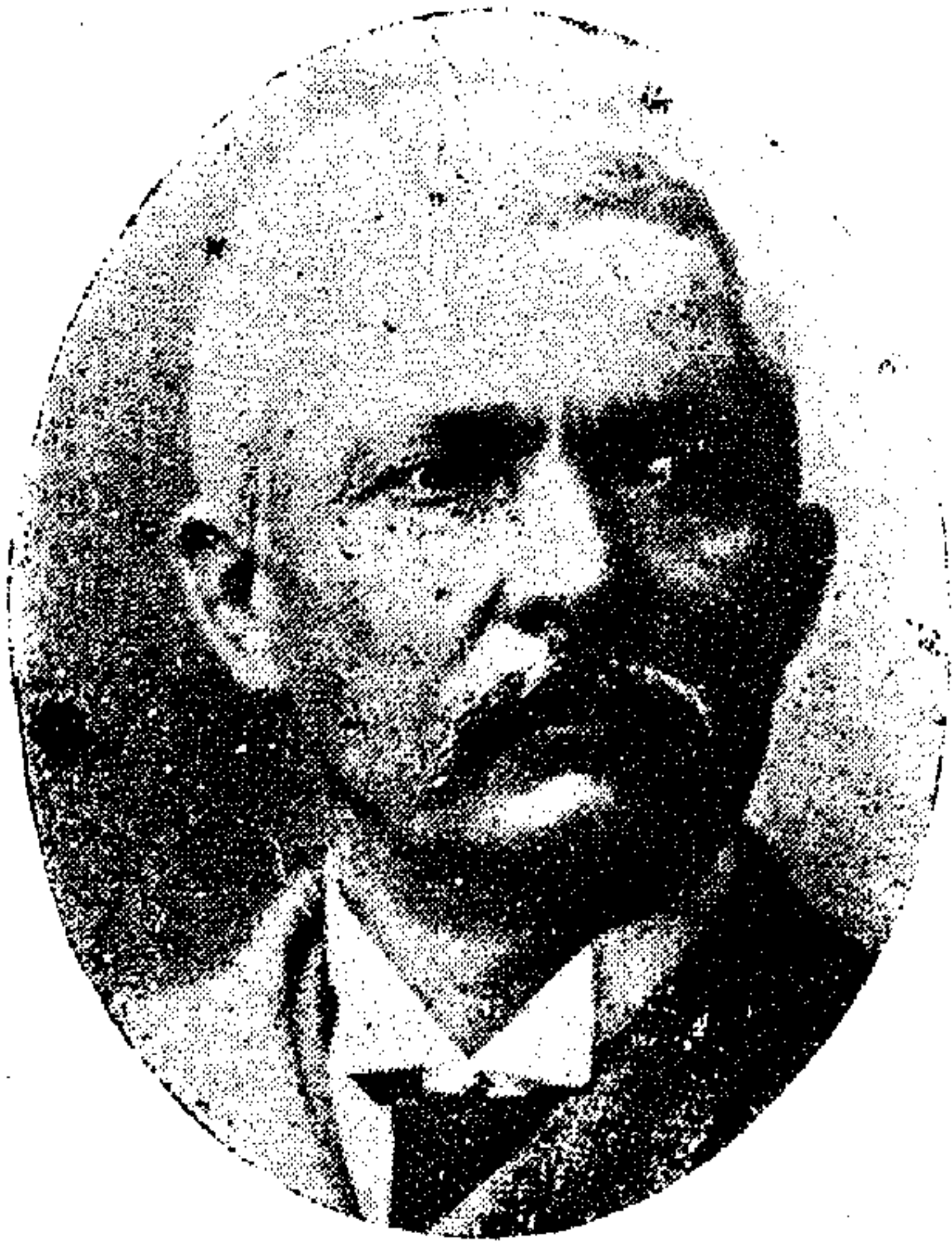
أليس فى ذلك الخطاب الحججة الدامغة على أن وزارات الخارجية الأوربية أدركت ببعد نظرها أن ما يقوم به اسماعيل من أعمال التعمير فى السودان ليس له معنى إلا محاولة تخليص نفسه وتحريرها من رقابة الغرب وسيطرته ؟ ولسنا نعدو الحقيقة إذا قلنا إن هذا الاستقلال فى الرأى هو الذى أثار القلق فى نفوس الساسة الأوربيين وجعلهم ينظرون إلى اسماعيل نظرة الريب المقرون بالخوف .

ذلك لأن فرنسا كانت طيلة عهد سعيد تعتبر مصر شبه مستعمرة فرنسية مما جعل انجلترا تتوجس خيفة على مصير وادى النيل وخاصة بعد حفر قناة السويس وقرب افتتاحها . ولذا لم تأل جهداً فى تأييد اسماعيل باشا فى معارضته لشروط امتياز مشروع القناة كما مر بك .

ولكن لم يكن معنى محاولة اسماعيل تخليص مصر من الشباك الفرنسية أن يقذف بها فى أحضان انجلترا . كلا بل كان يعمل ويعمل بنظام وترتيب وبفطنة ولباقة على تحقيق استقلال مصر . ولما كان يخشى أن يودى هذا إلى الاضطدام بتركيا يوماً ما فإنه آثر الا يستخدم فى تنظيم جيشه لاضباطا إنجليز ولا فرنسين بل ارتأى بثاقب رأيه أن يستخدم الضباط الأمريكان بعد ما أبدوه من ضروب الشجاعة فى الحرب الداخلية ولبعدهم عن الغايات والمطامع السياسية فى مصر .

اسماعيل يستخدم الضباط الأمريكان

وكان طبيعياً فى أثناء وجود العلاقات السياسية بين أمريكا وتركيا ألا يقدم اسماعيل جهازاً على استخدام الضباط الأمريكان فى جيشه بقصد توجيههم ضد تركيا . ولكنه استطاع بواسطة الكولونيل « ثاديوس موت » الأمريكى الذى كان ملحقاً بحرس الخديو أن يعقد عقود استخدام مع ثلاثة قواد وهم « ستون » و « لورنج » و « سيبلى » =



الكولونيل شالى لونج بك * وقد كلفه ساكن الجنان اسماعيل باشا بالذهاب إلى أوغندا وعقد محالفة مع ملكها ففعل
ستانلى الرحالة المعروف * وقد أرسلته إنجلترا لاحتلال أوغندا فسبقه الكولونيل شالى لونج إلى احتلالها

== و ٢٢ أمير الإي وهم «شالى لونج» و «كولستون» و «ديريك» و «داى» و «فيلد» و «جينيفر» و «كينون» و «لو كيت» و «ما كيفور» و «ماسون» و «بيردى» و «بروت» و «الكسندر رينولدز» و «فرانك رينولدز» و «ريد» و «رهت» و «روجارز» و «سافدج» و «ألن» و «وارد» و ثلاث بمباشيه وثمانية صاغات و ثلاثة يوزباشية و ثلاثة جراحين . وقد نص في عقد الاستخدام الذى أمضاه هؤلاء الرجال قبل مغادرة الشاطئ الأمريكى على أن يبادروا بمقاتلة كافة أعداء الخديو أينما كانوا مع معافاتهم من محاربة قوات الولايات المتحدة (طبعا)

على أن الكولونيل شالى لونج كتب فيما بعد أنه أبلغ هو وزملاؤه بصفة سرية أنه عدا تنظيم الجيش المصرى فان مهمتهم الحقيقية هى مساعدة مصر على التحرر من السيادة التركية وقد أكد الكولونيل قوله هذا بما ذكره فى المجلد الأول من كتابه ص ١٧١ عن مقابله الأولى لاسماعيل باشا إذ قال له الخديو:

« إني أعتمد على فطنتك وإخلاصك وهمتك لتساعدنى على تحقيق استقلال مصر فتم هذا - وهو ما سيتم باذن الله ومشيتته - فسأنعلم عليك بأسمى المراتب . »
* هاتان الصورتان أعارهما سمو الأمير عمر طوسون للمعرب .

عن تلقي التعليم كان نصف التلاميذ يتناولون الوجبات الثلاث مجاناً بينما كان النصف الآخر يتناول وجبة واحدة على الأقل . وقد حل التهاافت على التعليم محل الدراسة الإجبارية التي لجأ إليها محمد علي للملء

اسماعيل لم يكن منفذاً للسياسة الأنجليزية

وما دمننا في صدد التكلم عن الكولونيل شالى لونج فيحسن أن نذكر لك ما كتبه الأمير البحائة سمو الأهير عمر طوسون في جريدة الأهرام بعددها الصادر في ٢٩ مايو سنة ١٩٣٣ في مقال عنوانه « مديرية خط الاستواء » قال سموه حفظه الله :

عين الكولونيل شالى لونج رئيس أركان حرب الجنرال غوردون في ٢٠ فبراير سنة ١٨٧٤ عند ما عين غوردون باشا مديراً لمديرية خط الاستواء . وقد كتب الكولونيل كتاباً اسمه « حياتي في أربع قارات » جاء في الصفحة ٦٧٠ منه قوله : « عند ما دخلت على الخديو اسماعيل كان يمشى بخطوات واسعة في قاعة الاستقبال وهو متوتر الأعصاب وكان برفقتي نونينو بك التشريفاني الذي أدخلني عنده فسألني :

س رأيت الجنرال غوردون ؟

ج نعم يا مولاي ولقد قضيت معه أكثر الليل

فقال الخديو :

« حسناً جدا والآن أعرنى أذنك . لقد وقع الاختيار عليك لتكون رئيس أركان حرب لعدة أسباب : أهمها المحافظة على المصالح المصرية فهناك في لوندرا يوشك أن تنظم حملة بقيادة رجل يقال له ستانلي أمريكي الجنسية على ما يزعمون والغرض من هذه الحملة حسب الظاهر نجدة الدكتور ليفنجستون أما الغرض الحقيقي منها فهو رفع العلم البريطاني على ربوع أوغندا فتوجه أنت إلى غوندوكرو وأسرع في الذهاب إلى أوغندا ولا تضع أوقاتك واسبق حملة لوندرا وأبرم معاهدة مع ملك أوغندا فتمسى مصر مدينة لك سرمديا بواجب الشكران معترفة بالجميل . إذهب وليكل مسعاك بالنجاح إن شاء الله . فذهب كما أمره مولاه . ومن هناك كتب في كتابه « مصر ومديرياتها المضيفة » ص ٢٤ ص ٢٥ مانصه : « لقد توصلت إلى إصابة الهدف السياسي الذي كانت ترمى إليه مأموريتي ونجحت في ذلك إلى أبعد مما كنت أرجو وعقدت معاهدة مع الملك أميتسي اعترف فيها بوضع مملكته تحت حماية مصر . وقد أبلغت المعاهدة إلى الخديو واتخذت أساساً للذكرة الرسمية التي أصدرتها مصر وقررت بموجبها ضم جميع الأراضي الواقعة حول بحيرات فيكتوريا والبرت الكبرى . »



السير ريجنالد ونجيت

الحفظ منه إلى القياس والاستنتاج المندوب السامي البريطاني في مصر سابقا

مدارسه بالطلبة . وكثيراً ما كنت ترى شبانا يتعاونون فيما بين أنفسهم على أن يقوموا بأداء نفقات أحدهم في المدرسة في مقابل تعهده بتعليمهم في أحد الفصول الليلية . ولا ريب في أن تنبه المصريين الفجائي هذا إلى مزايا التعليم الأوربي أدى بطبيعة الحال إلى تباين النتائج . وعلّة ذلك أن العقل المصري أكثر ميلاً إلى

== وقد اختلفت هذه المذكرة من دار المطبوعات بمصر وهي المذكرة التي أرسلها شريف باشا ناظر الخارجية إلى قناصل الدول وقد جاء بعد تعداد المواقع التي خاضتها الجنود المصرية ما نصه :

« وعلى ذلك قد تم إلحاق جميع البلاد الواقعة حول فيكتوريا والبرت بمصر وفتحت البحيرتان وروافدهما ونهر السومرست للملاحة وصارت ممهدة للاستكشافات التي يقوم بها غوردون باشا . »

ولعلك توافقنا على أن اسماعيل في عمله هذا لم يكن يصدر عن رغبة انجلترا ولا كان منفذا لسياستها كما يؤخذ من أقوال الأستاذ الرافي بك .

ونستسمح القارىء في هذا الاستطراد ونعود الآن إلى الموضوع فنقول إن الضباط الأمريكان بدأوا أعمالهم في الجيش المصري في ٣٠ مارس سنة ١٨٧٠ وكان استخدامهم بمثابة بداية عهد جديد في تاريخ مصر إذ حرر اسماعيل بلاده من الأعباء سياسة العالم القديم وصمم على أن يكون سيد بلاده المطاع اسماً وفعلاً . ذلك لأن كل انسان كان يعلم أن أولئك الضباط لم تكن لهم علاقة بالسياسة مطلقاً ولا كانوا خداماً لواشنطن في ثياب الجيش المصري .

ولقد أشار السير ريجنالد ونجيت حاكم السودان العام سلفاً إلى هؤلاء الضباط فقال في كتابه المسمى «المهدية والسودان المصري» المطبوع في سنة ١٩٨١ ص ٢٠٤ . انصه : ==

وهو ما جعل التلاميذ يحفظون القواعد الرياضية عن ظهر قلب كما لو كانت



الزير رحمت باشا

« كان الجيش المصري قبل سنة ١٨٨٢ يجرى تدريبه على أيدي ضباط أمريكيان وهم رجال عسكريون ذوو تجارب مختلفة ولكن لم يكن يسمح لهم بتدريب الجنود الفعلي لا في قليل ولا في كثير بل كان عملهم قاصراً على واجبات أركان الحرب فيما كانت له علاقة بالشؤون الطبوغرافية ونحوها وفيما يقومون به من الاستكشافات في السودان وفي الصحارى الواقعة بين النيل وبين البحر الأحمر . »

ولسوف نشير في سياق الحديث إلى بعض أعمال هؤلاء الضباط وهي أعمال تضيف إلى تاريخ اسماعيل صفحة ذهبية أخرى . وقد ظل أولئك الضباط الأبحاد يعملون إلى أن أرغموا في سنة ١٨٧٢ على مغادرة الجيش المصري بعد أن تجهم أصحاب القراطيس لاسماعيل وأبوا إلا أن يحشوا جيوبهم ويشبعوا نهمهم بما كان ينفقه من الأموال في خدمة الأنسانية والمدنية في السودان .

وقبل أن نختم كلامنا عن الرق لا بد من الإشارة إلى الزير رحمت باشا باعتباره أكبر تجار السودان وبخاصة تجار الرقيق وكانت دائرة أعماله ومركز سلطته إقليم بحر الغزال .

ونحن نلخص هنا ما نقله الاستاذ الرافعي بك من كتابي نعوم باشا شقير وإبراهيم باشا فوزى عن حياة هذا الزعيم السوداني الذي استولى على بحر الغزال بعد أن فتك بملك هذا الإقليم وجعل عاصمته في «ديم الزير» وامتدت سلطته وجمع لنفسه جيشاً =



الأمير عبد الحميد نجل السلطان ابراهيم سلطان دارفور

== عمر ما لتأييده ولاقتناص الرقيق وفتح طريق التجارة من بحر الغزال إلى كردفان .
وفي سنة ١٨٦٩ فتك الزبير برجل يدعى « البلالى » جاء إلى بحر الغزال من الخرطوم
لاحتلال الاقليم باسم الحكومة المصرية . ثم خشي الزبير عاقبة مغاضبة الحكومة
المصرية فأعلن ولاءه للخديو .

واستولى الزبير على بلاد « شكا » بين دارفور و بحر الغزال وقدم للحكومة المصرية
كافة ما فتحه من البلاد تعين فيها من تشاء عربونا على ولائه فشكره اسماعيل باشا وأنعم
عليه بالسكوية وعينه حاكما على ما فتحه من البلاد باسم الحكومة المصرية فصار مديرا
لبحر الغزال وجعل مدينة شكا عاصمة مديريته .

فتح سلطنة دارفور سنة ١٨٧٤

ثم مازال الزبير يرغب اسماعيل باشا أيوب حاكم السودان في فتح دارفور وكانت
مستقلة فعلا برغم الفرمانات التي ادخلتها اسما في عهد محمد علي ضمن أملاك مصر إلى
أن عهد الخديو لأيوب باشا بفتحها . وكان سلطانها ابراهيم وولى عهده الأمير عبد الحميد
من ألد أعداء الزبير .

وفي ٢٥ أكتوبر سنة ١٨٧٤ اشتبك جيش الزبير وعدده ٢٠.٠٠٠ مقاتل بجيش
السلطان ابراهيم في جهة منواشى فدارت الدائرة على ابراهيم وقتل في المعركة وتم فتح
دارفور وضمنت إلى أملاك مصر بعد أن دخل جيش اسماعيل باشا أيوب مدينة الفاشر
في ١١ نوفمبر سنة ١٨٧٤

رقية من السحر يلقنهم إياها أحد السحرة الأجانب كما أنهم عكفوا على



الجنرال غوردون باشا

== وابتهج الخديو بفتح دارفور لأنها ضمت إلى مصر ما لا يقل عن ثلاثة ملايين من السكان وأنعم على أيوب باشا برتبة الفرئق كما أنعم برتبة اللواء على الزبير باشا وبلغت تحيات وثناء الخديو إلى كافة أمراء الجيش في احتفال مهيب أطلقت فيه المدافع ابتهاجاً وإجلالاً كما ذكر في عدد ٥٨٥ من الوقائع المصرية الصادر بتاريخ ٣ ديسمبر سنة ١٨٧٤ وأخذ أيوب باشا يعمر الفاشر وبنى فيها حصناً وداراً للحكومة وأقام فيها سوقاً للتجارة ثم أظهر الزبير استيائه من فداحة الضرائب التي ضربها الفرئق أيوب باشا على الأهالي فشكاه هذا للخديو فنهاء اسماعيل باشا عن التعرض للحكمدار وإذ ذلك استأذن الزبير الخديو في الحضور إلى مصر لعرض حقيقة الحال . فلما أذن له اسماعيل باشا حضر الزبير إلى القاهرة فأكرم الخديو وفادته ولم يأذن له بالعودة إلى السودان . فأدرك هذا أنه يراد إبقاؤه كرهينة لولائه للحكومة فأذعن للبقاء والأقامة في مصر مشمولاً بعطف الحكومة وإكرامها .

غوردون باشا

وهل كان اسماعيل مرغماً على تعيينه ؟

ذكرنا لك أن السير صمويل بيكر باشا عند اعتزازه مغادرة الخدمة اقترح على اسماعيل باشا تعيين ابن أخيه الضابط جوليان بيكر مكانه وأن الخديو أجابه بخطاب رقيق سنة ١٨٧٢ يطرئ فيه أخلاق جوليان وصفاته ولكنسه ذكر له أن مسألة فتح أو اسط أفريقيا ==

حفظ الأجرومية الفرنسية حفظهم للقرآن دون ان يتعلموا اللغة نفسها .

== في وجه العلم والتجارة والحضارة قد تملك حواسه بحيث تقضى عليه بوجوب التريث واستعمال منتهى الحذر في اختيار من يخلفه في منصبه الخطير ولذا فهو يرجى البت في الموضوع إلى وقت آخر .

فمن ذلك ترى أن السير صمويل بيكر لم يكن - عند اقتراح تعيين ابن أخيه جوليان في منصبه - يصدر عن رأى الحكومة الانجليزية وإلا لتعين على اسماعيل قبول الاقتراح ولو من باب المجاملة . كذلك كان الخديو يعمل بمطلق حرية وفي داخل حدود واجباته بصفته الحاكم الأعلى ذى السيادة المطلقة عند ما وقع اختياره على الجنرال غوردون باشا ليخلف السير صمويل .

ولكن الأستاذ الرافعى بك ذهب في كتابه إلى أن الحكومة البريطانية هي التي اختارت غوردون وهي التي حملت اسماعيل على تعيينه مكان السير صمويل بيكر لقضاء لباياتها الاستعمارية . ولو صح ذلك لسكان أول ما ينبغى حدوثه أن يحمل اسماعيل على تعيين غوردون بمرتبة سنوى لا يقل عن مرتبة بيكر إن لم يكن أكبر منه . ولكن كان الواقع غير ذلك .

وإليك الحكاية التى رواها المستر كراييتس عن تعيين غوردون . فى ٦ فبراير سنة ١٨٧٤ وصل إلى القاهرة الكولونيل غوردون لتسلم مهام منصبه كخلف لبيكر . وبعد أول مقابلة بينه وبين الخديو كتب إلى صديقه القسيس هوريس والار بتاريخ ١٤ فبراير سنة ١٨٧٤ - كما جاء فى ص ١٥ من كتاب « غوردون والسودان » المطبوع فى لندن سنة ١٩٣١ يقول : « إن الخديو رجل أمين وقد أحبته جداً ولذا فلن أترك مهمتى للغير . » واستطرد المستر كراييتس فقال إن غوردون ألقى ما يشبه القبلة فى معسكر هذا «الغير» بقبوله مرتباً سنوياً قدره ٢٠٠٠ جنيه ورفضه مرتبة العشرة آلاف جنيه الذى كان يتقاضاه سلفه السير صمويل بيكر .

فماذا يستنتج من هذه العبارة ؟ يستنتج منها أن اسماعيل عند ما رأى أصحاب الأسهم يريدون اختزال أعماله فى السودان التفت يمنة ويسرة باحثاً عن رجل كفء يمكن أن يتمم مهمة السير صمويل بيكر ولكن بمرتبة أقل من مرتبه . فتقدم إليه الكثيرون فوقع اختياره على غوردون باعتباره أقلهم جشعاً . وقد دلت التجارب فيما بعد على أنه كان أكثرهم كفاءة أيضاً . ونحسب أن هذا الاستنتاج معقول وإلا لما قال غوردون فى خطابه لصديقه ==



محمد أحمد المهدي زعيم الثورة المهديّة

== « فإن أترك مهمتي للغير » وهي عبارة يفهم منها أنه كان له منافسون في المهمة. وقد علل غوردون نفسه أسباب قبوله ذلك المنصب بذلك المرتب الزهيد بقوله : « إن الخديو رجل أمين وقد أحببته حباً جما ولذلك فلن أترك مهمتي للغير. » ونحسب أن في هذا الكفاية للتدليل على أن اسماعيل لم يكن مرغماً على تعيين غوردون .

وكانت أول مقابلة بين اسماعيل وغوردون كافية لأن تربط نفسيهما الكبيرتين بأكبر الروابط وأن تحكم صلوات الود والصدقة بينهما أيما إحكام وأن تجعلهما ينظران إلى مستقبل أواسط أفريقيا بعين واحدة . ويلوح أن ما عاناه السير صمويل بيكر من الأهوال - التي شرحنا لك بعضها - في مطاردة النخاسة جعل الخديو وغوردون يقرران مبدأ جديداً نحوها وهو تنظيمها أولاً ثم منعها في النهاية . وقد يخيل إليك أن في هذا شيئاً من المبالغة . ولكن الأمر الثابت هو أن غوردون كان يعتبر مسألة النخاسة مسألة اقتصادية أكثر منها أخلاقية وأن ما ينبغي عمله أولاً هو منع تهريب الرقيق حتى إذا ما انتشرت المدنية في أنحاء السودان طغى تيارها على تلك التجارة الممقوتة فتلاشى من تلقاء نفسها .

ويخيل إلينا من الخطابات التي أرسلها اسماعيل إلى السير صمويل وسردناها عليك هنا أن الخديو كان يرى أيضاً أن مطاردة النخاسة ليست بالمسألة التي يكفي حلها استعمال السيف والمدفع . أولاً لأن القائمين بها كانوا أناساً أقوياء في السودان يؤيدهم أعيان البلاد وتتألف منهم طبقة كبيرة من الأهليين . وثانياً لأن تلك التجارة كانت مصدر ثروة ==

ولكن لا ينبغي أن ننسى أن التلاميذ في المدارس الإنجليزية العمومية كانوا



الدرأويش يهاجمون غوردون باشا ويقتلونه أثناء حصار الخرطوم

== للجميع فضلا عن أن عمال الزراعة ورعى الماشية وغيرهم كانوا جلهم من الرقيق . ثم إن أعيان السودان والطبقة الوسطى من أهله كانوا قد ألفوا نظام الرقيق منذ أجيال ماضية وتواضعوا عليه فكان تحرير الرقيق دفعة واحدة مفاجأة لهم لم يكن غريبا أنهم صمدوا لها وعرقلوا سيرها بكل ما كان في استطاعتهم من حول وقوة لا في زمن اسماعيل فقط بل وفي زمن خلفه توفيق . وإلى هذه الأسباب يعزو بعضهم نشوب الثورة المهديّة . ==

في نفس هذا الوقت يحفظون بدورهم نظريات يوكليدس الهندسية والمرآثي اللاتينية عن ظهر قلب . وكان اهتمام اسماعيل الشخصي بهذه النهضة العلمية



اسماعيل باشا صديق الملقب بالمفتش

غوردون يذهب إلى السودان

وما كاد الكولو نيل غوردون أن يخرج من حضرة الخديو حتى اعتزم الرحيل إلى السودان لإنجاز المهمة التي كلفه بها اسماعيل . وسرعان ما شخص إلى الخرطوم عن طريق البحر الأحمر وهناك أعد حملة من الجيش المصري على رأسها الضابط ابراهيم أفندي فوزي (الذي صار لواء فيما بعد) وشهد وقائع السودان من سنة ١٨٧٤ إلى نشوب الثورة المهدية ثم مقتل غوردون في سنة ١٨٨٥ إلى وقت استرجاع السودان في سنة ١٨٨٩ ووضع كتابه المسمى « السودان بين يدي غوردون وكتشبه » .
حتى إذا وصلت الحملة إلى فاشودة استأنفت السير إلى محطة سوبات (عند ملتقى نهر سوبات بالنيل) ومنها إلى غوندو كرو جنوبا (الاسماعيلية) حيث رأى غوردون =

عظيماً لا بل إنه أخذ بنصيبه العملي فيها . مثال ذلك أنه لم يكتف بمنح التعليم



التعايشي خليفة محمد أحمد المهدي

== أن مناخها غير ملائم فنقل مركز الحكومة إلى « اللادو » وجعلها عاصمة مديرية خط الاستواء .

و بعد أيام قليلة واصل غوردون السير جنوباً إلى بحيرة البرت واستولى على سفن بعض الأهاليين واستخدمها في استكشاف شواطئ البحيرة ثم استقدم من الخرطوم ما يلزمه من البواخر النيلية ومن آلات الترسانة المصرية بالخرطوم وعمالها وأنشأ في « الدفلاي » شمالي بحيرة البرت ترسانة لتنظيم الملاحة في أعالي النيل وفي البحيرة وذلك بفك قطع البواخر وتركيبها بالتالي .

ثم شرع غوردون في إنشاء عدة نقط حصينة على شواطئ النيل وحصن النقط التي أنشأها بيكر باشا من قبل . وكان مما أنشأه — كما حدثنا الأستاذ الراجعي بك — نقطة « سوبايط » و « الناصر » و « شامبه » و « يوره » و « اللادو » و « لاوري » و « الرجاف » و « الدفلاي » و « بحر الجبل » و « مكركه » و « مرولي » و « مقانقو » وكلها مبينة بالخريطة الموجودة في صفحة ٣٣٠ .

وبديهي أن هذه الفتوحات النائية كلفت الجنود المصرية متاعب لا توصف بسبب رداءة الجو وبعد المواصلات وانتشار الأمراض والأوبئة مما يسجل لهم ولخديوهم اسماعيل أنصع صفحة في سجل التاريخ المصري .



لورد كيتشنر

بسط حماية مصر على أوغندا سنة ١٨٧٤

ذكرنا لك في صفحة ٣١٢ أن ملك أوغندا «أميتسي» أعان في شهر مايو سنة ١٨٧٢ ولاءه لخديو مصر وأن الهدايا تبودلت بينه وبين السير صمويل بيكر .
وفي ١٠ مايو من هذه السنة أرسل السير صمويل إلى اسماعيل باشا خطابا من جهة « ماسيندي » ينبئه بنتائج حملته في منطقة البحيرات فكان مما قاله :
« أصبح بيني وبين بحيرة البرت نيازا ٢٠ ميلا أى مسيرة يوم واحد إلى الغرب في حين أن المسافة بيني وبين غوندوكرو (الاسماعيلية) ٣٩٤ عن طريق البر .
ثم استطرد السير صمويل فقال :

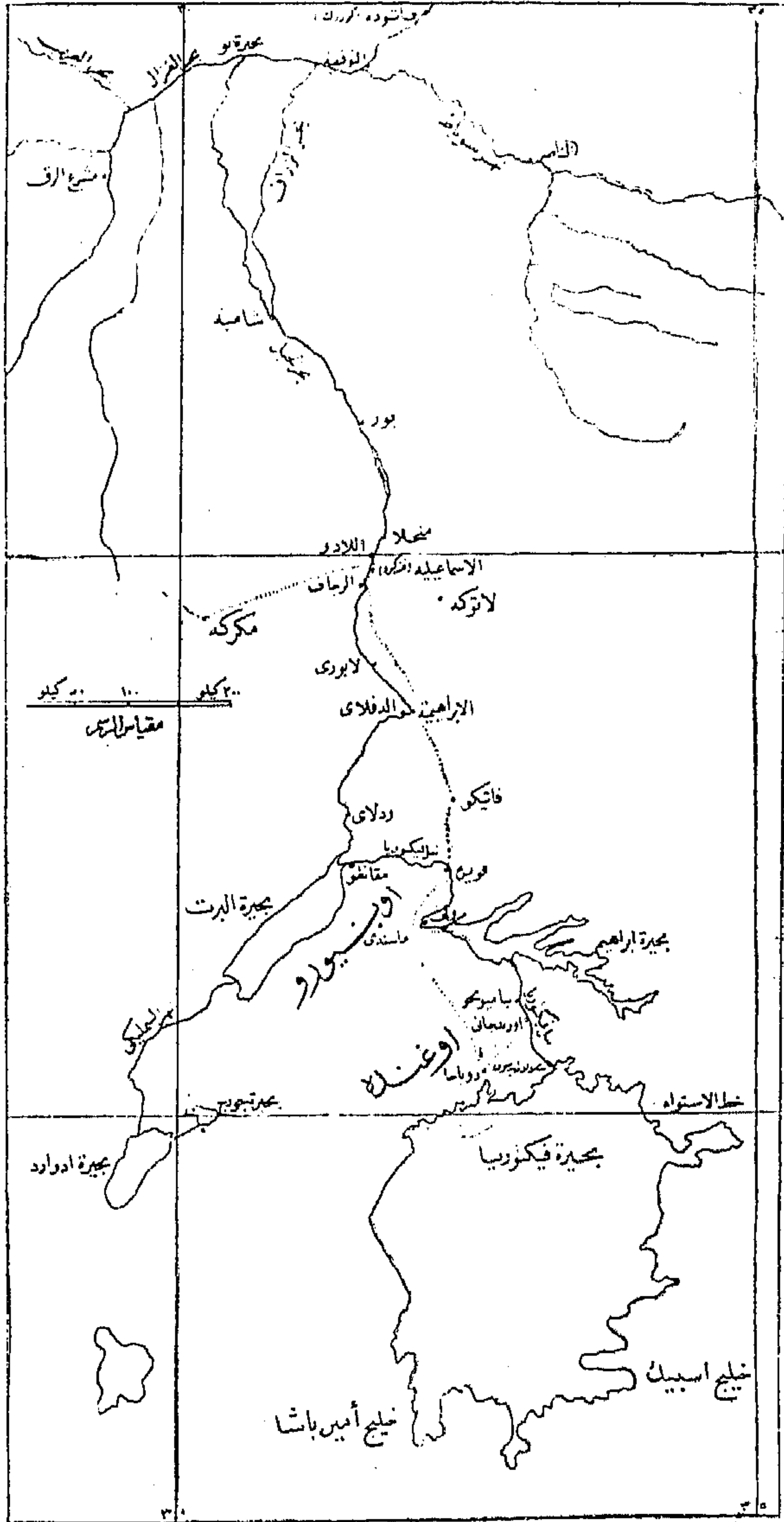
« وانى لأرجو يا صاحب السمو أن تكون مرتاحا إلى أعمالي . ولقد كان ما واجهته من المصاعب مما لا يمكن تذليله ولكن لله الحمد قد تغلبت عليها جميعا . والآن وقد قطعنا دابر تجار الرقيق وأقصيناهم عن البلاد فان الأهالى ينظرون بروح الثقة إلى حكومة سموكم .

« وقبل عودتى سأكون وفقت في وضع الراية المصرية على الأقل عند الدرجة الأولى جنوبى خط الاستواء وبذا يمتد ملك مصر إلى نحو ٣٣ درجة في جنوبى الإسكندرية .
ولم يشأ السير صمويل أن يختم خطابه السابق دون أن يشفعه بما حوذة صغيرة المبنى والكنها كبيرة المعنى وهى :

« لقد اعتنق ملك أوغندا الإسلام وأنشأ فعلا مسجدا للصلاة . وسأشرع من فورى

في بناء مدرسة . »

تصديقاً عادلاً من ميزانية الدولة بل وقف بعض أملاكه الخاصة على المدارس



(خريطة مديرية خط الاستواء)

والخط المنقوط يمثل الطريق الذي سلكه الكولونيل شالي لونج بك في سيره إلى أوغندا حيث عقد مع ملكها في سنة ١٨٧٤ المعاهدة التي قبل بمقتضاها حماية مصر على مملكته

وأشأ مكتبة وطنية ملاًها مما عنده من المحفوظات القيمة والكتب الثمينة

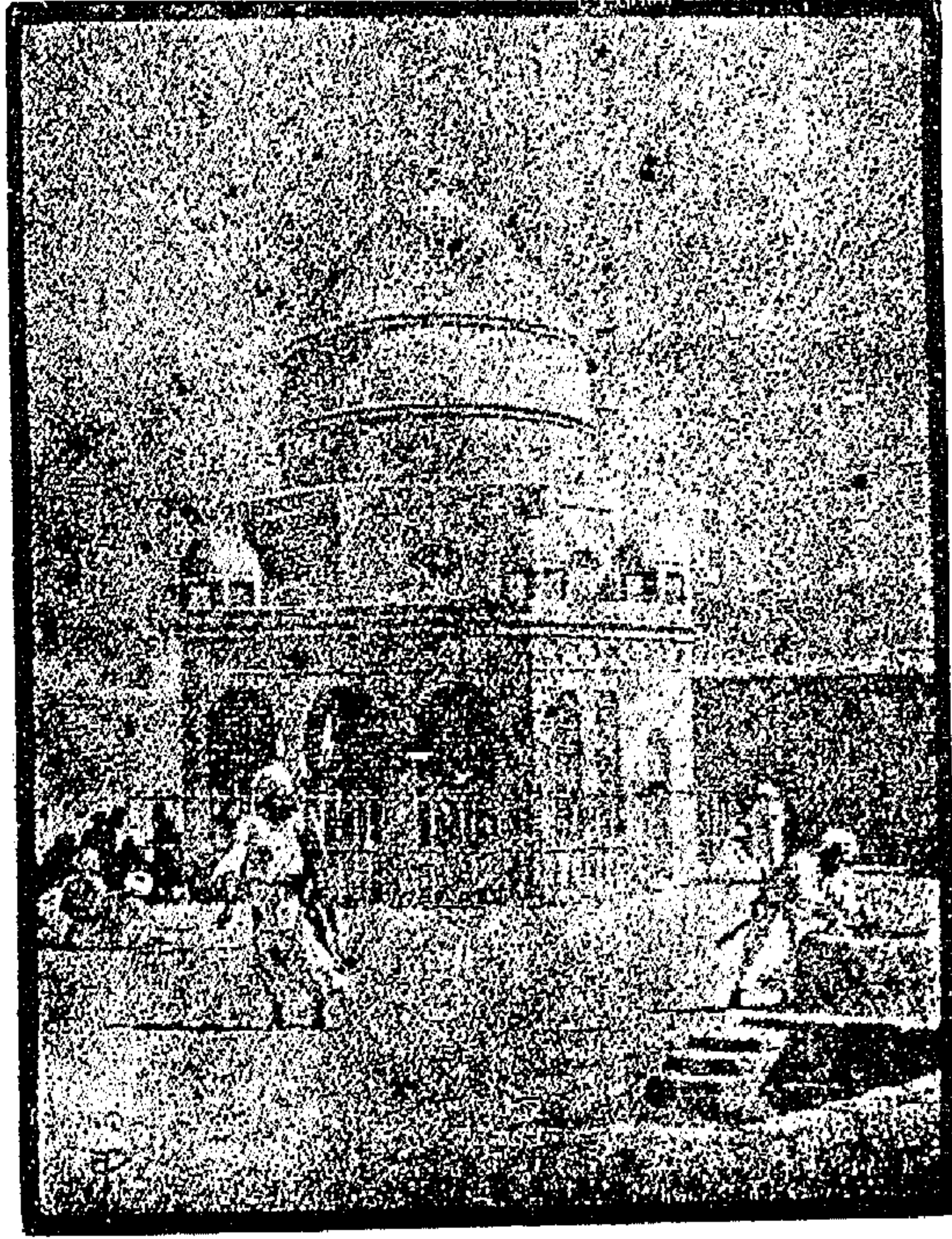


الدرأویش يقدمون رأس غوردون إلى التعايشی

== ومتى علمت أن الملك أميتسى هذا كان من عبدة الأوثان فان ملحوظة السير صمويل تدل على أن حملته لم تؤد إلى قطع دابر النخاسة فقط بل وأيضاً إلى تغلب الدين الإسلامى على الوثنية . ثم إن إنشاء المدرسة المذكورة كان معناه بداية محاربة الأمية . ويظهر أن ولاء ملك أوغندا لخدو مصر أثار القاق في نفوس رجال السياسة مما دفع بانجلترا إلى تجهيز حملة غرضها الظاهر معاونة الدكتور ليفنجستون بينما كانت ترمى في الحقيقة إلى الحيلولة دون توطيد العلاقات بين مصر وأوغندا . وقد أدرك اسماعيل هذه الغاية فكان ما كان من تكليفه الكولونيل شالى لونج بك بالأسراع بالذهاب إلى بسط حماية مصر على تلك المملكة كما فصله سمو الأمير البحائة عمر طوسون في ص ٣٢٠ ومن حق الكولونيل شالى لونج بك على المصريين أن يذكره بالخير لأن الرجل كما توسم اسماعيل فيه وفي بقية زملائه الأمر كان لم يفتأ يدافع عن مصر في كافة ما خطه يراعه في الكتب التي تعتبر من أهم المراجع في تاريخ السودان الحديث ومنها كتاب « مصر ومديرياتها المضيفة » التي سبقت الإشارة إليه ثم كتاب الأنبياء الثلاثة غوردون والمهدى وعرابي ، وكتاب « افريقيا الوسطى » هذا عدا مئات المقالات التي نشرها بالصحف دفاعاً عن مصر .

و بعد المحادثة التي دارت بين شالى لونج وبين اسماعيل باشا ذكر ذلك الضابط بالشهم أن غوردون أنفذه إلى عاصمة الملك أميتسى فعقد المعاهدة التي وضع الملك بلاده =

النادرة كما انه أرسل جميع الأمرء إلى المدارس .



قبة قبر المهدي حيث كان يزورها الدراويش إلى أن أمر لورد كيتشنر بنسفها

بمقتضاها تحت الحماية المصرية وقد أرسلها شالي لونج إلى الخديو فأبلغها شريف باشا إلى
الدول ولكنها فقدت فيما بعد من وزارة الخارجية المصرية ضمن وثائق أخرى نفيسة!!
وبهذا سبق شالي لونج الحملة الإنجليزية التي لاحظت عند وصولها إلى أوغندا
في ابريل سنة ١٨٧٥ وجود ارنست لينان دي بلفون (بن لينان باشا مهندس القناطر
الخيرية) ضمن حاشية الملك اميتسى ممثلا للحكومة المصرية وكان الملك اميتسى يفاخر
بتبعيته لخديو مصر .

وليس يسعنا أن نترك الكلام على الكولونيل شالي لونج دون أن نذكر أنه هو
مكتشف بحيرة ابراهيم (ويراها القارىء في الخريطة ص ٣٣٠ شمالي بحيرة فكتوريا)
وقد أطلق عليها هذا الاسم لأنه اسم أبي الخديو بعد أن كان يطلق عليها في الماضي اسم
« كيوجا » . ومما يدعو إلى الأسف أن جغرافي الأفرنج لا يزالون يطلقون الاسم
القديم على هذه البحيرة كأنهم لا يريدون أن يسمعوها باسم مصرى بين سلسلة الأسماء
الأفريقية التي أطلقت على البحيرات الأستوائية .

ولا تنس الإصلاح السياسى الذى خططت البلاد فى سبيله خطوة أخرى

= و بينما كانت تجرى هذه الأعمال الباهرة التى يقوم بها الكولونيل شالى لونج بك كانت أعمال الفتح فى أنحاء السودان الأخرى و بالقرب من سواحل البحر الأحمر سائرة على قدم وساق بفضل عزيمة حكامدار السودان اسماعيل باشا أيوب .

اهتمام اسماعيل بشاطيء البحر الأحمر

لم يكن لاسماعيل باشا مفر من متابعة فتوحاته فى أوسط افريقيا لاستئصال شأفة النخاسة و قطع دابر صيادى الرقيق و فتح أبواب مجاهل افريقيا للهدنية . على أنه سرعان ما أدرك أن الحيلة تقضى بسد طريق البحر الأحمر فى وجه تجار الرقيق . و من هنا أخذ يهتم بالاستيلاء على الجهات المتاخمة لشاطيء ذلك البحر .

ضم زيلع وبربره

فبعد أن أتم فتح دارفور اتجهت نيته إلى ضم زيلع وبربره لانظرا لأهميتهما التجارية فحسب بل لموقعهما الجغرافى والحربى أيضا لأن من يستولى عليهما يستطيع التسلط على الملاحة فى خليج عدن إلى مدخل البحر الأحمر .

وربما يهيك أن تعرف أن من بين بلاد زيلع بلدة (جبرت) التى ينتسب إليها أجداد الجبرتي المؤرخ المصرى المشهور وقد هاجرت أسرته إلى مصر واستوطنت بها . ولقد مر بك أن اسماعيل تمكن من حمل الباب العالى على التنازل له عن زيلع وبربره التابعتين للواء الحديدية وذلك بمقتضى فرمان أول يولية سنة ١٨٧٥ فى مقابل زيادة فى الجزية السنوية قدرها ١٣٣٦٥ جنيه مصرى ثم اهتم الخديو بعمران تلك الجهات و أقام فيها عدة منشآت كلفته فى بربره وحدها على حسب تقدير غوردون باشا ٧٠ الف جنيه . و بضم زيلع و بربره امتدت حدود مصر على سواحل البحر الأحمر من سواكن إلى جردفون على المحيط الهندى .

ولبثت هاتان المحافظتان ملكا لمصر إلى أن أخلتتهما الجنود فى إبان الثورة المهدية فى مايو سنة ١٨٨٥ حيث احتلتها الجنود الإنجليزية ولا تزال هما إلى الآن .

الاستيلاء على هرر فى سنة ١٨٧٥

واتجهت نية اسماعيل بعد ذلك إلى الاستيلاء على سلطنة هرر الواقعة شرق الحبشة وغربى زيلع وهى إمارة اسلامية يبلغ عدد سكانها المليونين تقريبا . ولما كان أميرها قد ساق الأهلين سبل الأرهاق والعسف حتى جأروا بطلب الخلاص =



محمد رؤوف باشا

==منه فانهم لم يبدوا مقاومة تذكر عند ما استولت الجنود المصرية بقيادة محمد رؤوف باشا في سبتمبر سنة ١٨٧٥ على بلادهم . وفي ١١ أكتوبر من السنة نفسها سقطت العاصمة هرر بأيدي المصريين وضممت السلطنة إلى أملاك مصر .
ثم عين رؤوف باشا حاكما عاما عليها كما عين أميرها السابق محافظا لمدينتها . ولكن رؤوف باشا لسبب غير معروف تربص بالأمير وقتله وظل حاكما لتلك الأمانة إلى أن اقاله منها غوردون باشا بعد أن عين حاكما عاما للسودان . ثم ظل الحكم المصري قائما في تلك الجهات إلى أن حان وقت الجلاء عن السودان في إبان الثورة المهدية فانسحبت الجنود المصرية من هرر بأمر الحكومة الإنجليزية في سنة ١٨٨٥ وكان عددهم مع بقية الموظفين ورجال البوليس والعمال نحو ٨٥٧١ وتسلم السلطنة بعد انسحاب المصريين أمير من الأمراء الذين كانوا يحكمونها قبل الفتح المصري ولكن ما لبث أن أغار عليها الأحباش وفتحوها وضموها إلى بلادهم ولا تزال خاضعة لحكمهم إلى اليوم .

فتح بلاد السومال

غير أن اسماعيل لم يشأ الاكتفاء في الاستيلاء على شواطئ البحر الأحمر بالقوات الموجودة في السودان بل رأى أن يعززها بقوات أخرى يرسلها عن طريق المحيط الهندي . ففي الوقت الذي كانت فيه الجنود المصرية تستولى على هرر اذا بالحديو - بالاتفاق مع غوردون باشا - يجهز حملة عسكرية بقيادة الكولونيل شالي لونغ على أن تتولى نقلها عمارة ==

في عهد اسماعيل . فان محمدا عليا كان قد سبقه إلى إيجاد معاهد نيابية وذلك

= مصرية يقودها الأميرال ما كيلوب باشا وكانت الحكومة الأنجليزية قد عاقبته على خرق نطاق الحصار البحري في الحرب الأمريكية باحالةه على الاستيداع فعينه اسماعيل باشا مديرا للهوائى، والمنارات المصرية . وكان في تلك الحملة ضابط أمريكي آخر هو الكولونيل « وورد » من ضباط الأسطول الأمريكى كما كانت تضم أيضا الضابط الإيطالى فريدريكو باشا . وكل ذلك مما يدل على أن اسماعيل كانت له مطاق الحرية في اختيار من يحوز ثقته بين الضباط الأجانب دون النظر إلى جنسياتهم .

وقد حدثنا المستر كراييتس أن الكولونيل شالى لونج كان في القاهرة عندما صدرت إليه أوامر اسماعيل في ١٦ سبتمبر سنة ١٨٧٥ بالسفر حالا إلى السويس لقيادة الحملة المصرية المتجمعة هناك على ظهر الباخرتين « طنطا » و « دسوق » ثم جاءه رسول خاص في منتصف ليلة ١٨ سبتمبر يحمل تعليمات سرية محتومة مصحوبة بخطاب من الخديو بالأمر بيفض الاختتام إلا متى أصبح على بعد ٥٠٠ ميلا جنوبى السويس .

وفي يوم ١٩ سبتمبر سافرت الحملة المصرية قاصدة خليج عدن حتى إذا قضت في البحر ثلاثة أيام قال الأمير ما كيلوب باشا للكولونيل شالى لونج إن العهارة قد قطعت المسافة المطلوبة وأنه في انتظار تعليمات جديدة .

وهنا فوض الكولونيل الاختتام وقرأ التعليمات التي أصدرها إليه اسماعيل بخطه في يوم ١٤ سبتمبر سنة ١٨٧٥ فاذا هي كالآتي :

« توكيدا لما صدر إليك من الأوامر الشفوية يتعين عليك السفر إلى السويس حيث ترى ثلاث آلايات معهم ذخائرهم الخ نخذهم إلى بربره على ظهر الباخرتين « طنطا » و « دسوق » . ثم عليك أن تسلم لما كيلوب باشا ما تحمله من التعليمات . وسينزل ما كيلوب باشا الآن إلى البر في بربره ثم يستأنف السفر إلى جوبا فوراً . ولست أرانى في حاجة لأن أكرر مرة أخرى بأننى أريد أن يبقى أمر هذه الحملة سرا مكتوما إلى أن تصل إلى جوبا . وقد كتبت بهذا المعنى إلى ما كيلوب باشا ولكنى أكلفك أيها الكولونيل بأن تكرر هذه الأوامر له شفويا . وإنى أعتمد على غيرتك ونشاطك وذكائك . »

وفي الوقت نفسه كتب نوبار باشا إلى ما كيلوب باشا خطابا بتاريخ ٦ سبتمبر سنة ١٨٧٥ لافتاً نظره إلى ضرورة تكتم أبناء هذه الحملة . وقد عثر المستر كراييتس على هذا الخطاب في دار المحفوظات الملكية وإليك ما جاء فيه :

بتوسيع سلطة مجلس أو جمعية الأعيان وسلطة الديوان أو المجلس الخاص

« سيبلغك الكولونيل لونج الأوامر الخاصة بك . وستجد فيها ما ينبغي عليك عمله . فالمهمة الموكول إليك أداؤها من الأهمية بمكان وهي في حاجة إلى أن يقوم بها رجل يجمع إلى الذكاء طيبة القلب . وهذا ما جعل الخديو يقع اختياره عليك . وليس لي إلا أن أوصيك بأمر واحد وأعتقد أني أصدر فيه عن رأي الخديو وهو أن تتوخى اللباقة وأن تكون في منتهى الدهاء والحذر فيما لو اتصل بك الوكلاء السياسيون المعينون في بلاط سلطان زنجبار ودعوك إلى الانسحاب إما باسم السلطان أو باسم دولهم .

« وعندي أن هذا الافتراض بعيد الاحتمال إن لم يكن مستحيلا إلا إذا كانت الحكومة التي يقوم مندوبها السياسي بمثل هذا المسعى قد عولت على أن تضع نفسها علانية مكان السلطان . وعلى كل فلا توجد حتى الآن حكومة تقدمت بمثل هذا الزعم . ولكن لو افترضنا حدوث هذا الاحتمال فما عليك إلا أن تحيل هذا الوسيط أو المندوب السياسي إلى الخديو فورا ، فإلى سموه ينبغي أن تكون المكاتبات لأنك إنما تكون مجرد منفذ لأوامره . ولست في حاجة إلى أن أخبرك أن كل ما يمكن أن يدعيه السلطان من المزاعم لأساس له على الإطلاق . وقد كلفني مولاي الخديو بأن أقول لك بأنه ينبغي عليك أن تبقى الغاية من رحلتك سرا مكتوماً بل أكثر من سر مكتوم . وفيما عدا الكولونيل لونج الذي يعلم حقيقة الواقع فلا ينبغي أن يعرف أحد على ظهر السفينة بأنك ذاهب إلى جوبا . وقد يهملك أن تطلع على ما أرسله ذلك الخديو العظيم من التعليمات السرية إلى ما كيلوب باشا بتاريخ ٧ سبتمبر سنة ١٨٧٥ . ولكيما نطفي ظمأ تطلعك نخبرك أن الخديو بعد أن أشار إلى الخمسة آلايات التي ستكون تحت قيادة الكولونيل شالي لونج قال :

« لكما تكون متشعبا بروح المهمة التي تقوم بأدائها بحيث تستطيع مواجهة ما عسى أن يواجهك من الظروف الحسنة أرسل لك برفقة هذا صورة من الأوامر التي أرسلتها للجنرال غوردون (أرجو أن يلاحظ الاستاذ الرافي بك هذا ليعلم أن اسماعيل لانجلترا هو الذي كان يأمر غوردون) وسوف ترى من هذه التعليمات أنها ترمى إلى فتح طريق للمواصلات بين البحيرات والأوقيانوس في وجه التجارة . ففي هذا العمل - المعهود أتمامه إلى غوردون - يجب أن تتعاون .

« أما المنفذ الذي أوضحته لغوردون باشا فهو مصب نهر الجوبا . فإلى هناك ينبغي ذهابك . وعليك أن تنزل إلى البر في تلك النقطة حيث تنتظر وصول الجنرال غوردون »



الوزير الخطير المغفور له حسين باشا نخري والد معالي محمود
نخري باشا وزير مصر المفوض في باريس وإليه يرجع الفضل في وضع
مشروعات قوانين المحاكم الأهلية في مصر في عهد اسماعيل باشا

== أو وصول تعليماته إليك لأن أول ما ينبغي عليك عمله أن تعرف مكانه وأن تتصل به .
وقد وضحت التعليمات التي ينبغي أن يتبعها ماكيلوب في أثناء انتظاره وصول
غوردون وحددت تحديداً تاماً . وكان من بين هذه الأوامر ما تضمنته الفقرة الآتية :
« في خلال زيارته للقاهرة فاتحنى سلطان زنجبار فيما يزعمه لنفسه بخصوص شاطئه
الاقيانوس لغاية رأس « حفون » ولم أهتم بمجادلته لأنه كان ضيفي وكان يتعين على
الصمت عملاً بواجبات اللياقة والكرم . وقد أخبرني أن في نيته بمجرد عودته إلى دياره
أن يرفع رايته على جوبا ورأس حفون . فاجتنباً للشا كل الأخرى ولمنعه من تنفيذ
عمل اغتصابي وغزوه أراضينا ، كل هذه الاعتبارات هي التي جعلتني أعجل بترحيلك .
فتي رفعنا رايتنا فوق مصب الجوبا يمكن وقتئذ بتثبيتنا حقوقنا بهذه الصفة اجتناب ==

ثم ما عثم أن ألغى عباس المجلس المذكور ولكن اسماعيل أعاده من

== ما سوف يترتب على تنفيذ السلطان لنواياه من عواقب داعية إلى الأسف .
« وإني لعلني يقيناً بأنك متى هبطت إلى جوبا فلن تجد هناك راية ولا سلطة موطدة .
وأن نزولك إلى البر سيتم بسلام . ولكن علينا أن نحسب حساب احتلال المسكن
اسمياً أو فعلياً . فينبغي عليك في كلا الأمرين أن تقترب من المحتملين بروح ودية وأن تدعوهم
إلى مغادرة المكان . فإن أبوا فما عليك إلا الانتجاع إلى ما أودعته تحت تصرفك من
الوسائل العسكرية لأن علينا أن نعود إلى امتلاك أراضي تابعة لحكومتنا . وأريدك
أن تكون متنبها غاية التنبه إلى هذه النقطة وهي أن مصب نهر الجوبا تابع لنا . نعم إن
يقتى أن أكون في سلام مع سلطان زنجبار ولكنني لا أستطيع أن أسمح بأن يغتصب
السلطان شيئاً من حقوقى أو يحتل أرضاً تابعة لحكومتى . »

وليس يسعنا أن نمر بهذه الأوامر الصريحة دون أن نقف هنيهة لوسائل صديقنا
الأستاذ الرافعى بك إذا كان لا يزال يظن أن اسماعيل كان فى كل معاملاته مع غوردون
يصدر عن رأى السياسة الإنجليزية أو ينفذ رغباتها ؟ وما قول حضرتته فى موقف اسماعيل
إزاء سلطان زنجبار المشمول برعاية إنجلترا ؟ أليس يعتبر موقف اسماعيل بمثابة تحد
خفى لنفوذ بريطانيا فى تلك الجهات ؟

وسواء أكان من حق اسماعيل أن يتطلع إلى امتلاك تلك المناطق أم لم يكن فقد
كان المنتظر أن تعطف أوربا على مطالب الخديو وأن تفرك يديها تحمسا له
باعتباره مثل قضية الحرية بدلا من شد أزر سلطان زنجبار الذى كان يعتبر معقد آمال
تجار الرقيق .

وعلى كل حال فقد سافرت هذه الحملة باسم الله مجراها ومرساها قاصدة خليج عدن
ومنها إلى رأس حفون جنوبى رأس جردفون ثم إلى « براوة » حتى وصلت إلى مصب
نهر الجوبا فى ١٦ أكتوبر سنة ١٨٧٥ ولكن التيار الشديد حال دون نزول الجنود إلى
البر فسار ما كيلوب باشا بالحملة جنوبا إلى جهة « قسامبو » أو « بور اسماعيل » فاستولى
عليها ودعا القبائل إلى الدخول فى طاعة الحكومة المصرية فلبت الطلب .

وقد وجدت الحملة المصرية فى قلعة « قسامير » اثنى عشر مدفعا وكمية من الأسلحة
ونحو ٤٠٠ جندى تخفق عليهم راية زنجبار . ولم تبد الحامية أية مقاومة للجنود المصريين
بل سلمت على بكرة أيها . واذ ذاك عشر الكولونيل شالى لونج على ٥٠٠ من الرقيق داخل
القلعة على أهبة الاستعداد ليشرحهم تجار الرقيق عند سنوح أول فرصة مناسبة .

جديد . نعم إن المجلس لم يجتمع إلا مرة واحدة في العام للموافقة على

== وقد كان طبيعياً أن تزعج هذه الحملة بالسياسة العليا على نحو ما قرره الأستاذ الرافعي بك وبخاصة بعد اعتزامها السير غرباً في اتجاه بحيرة فكتوريا لفتح طريق المواصلات الجديد بين الأقيانوس والبحيرات الذي كان يطمح إليه اسماعيل كما ورد في تعليماته إلى ماكيلوب باشا . وقد تدخلت السياسة البريطانية دفاعاً عن سلطان زنجبار فلم يسع اسماعيل إلا الكف عن متابعة الحملة مجاملة لانجلترا .

أما تفصيل ذلك فهو أن ماكيلوب باشا تلقى في ٢٩ أكتوبر أمراً بالانتقال جنوباً إلى نقطة تسمى « فورموزا » باعتبارها أصلح مناخاً من جوبا . ثم ما هي إلا أيام قلائل حتى وصلتته رسالة من القاهرة بأن سلطان زنجبار احتج للحكومة البريطانية على احتلال المصريين لقسمايو . ثم وصلتته رسالة ثالثة بعد ذلك بتوكيد الأنباء السالفة وتضيف إليها بأنه « إذا لم يكن قد ذهب فعلاً إلى فورموزا فالأولى ألا يذهب إليها . »

وبعد أن أورد المستر كراييتس هذه التعليمات التي عثر عليها في دار المحفوظات الملكية استطرد فقال « إن اسماعيل بدأ يشعر بوطأة الضغط من ناحية دولة أخرى أعظم شأناً من زنجبار فاضطر إلى العدول عن تلك الحملة . »

ثم استشهد المستر كراييتس بما ذكره الكولونيل لونيغ في هذا الصدد إذ قال « لم تكن قسمايو مدينة سيئة السمعة فحسب بل لم تكن للأهالي صناعة سوى التخريب واقتناص الرقيق . وأحسب أن تجريدتنا باحتلالها قسمايو قد استحققت شكر العالم المتمدين وبخاصة وأنها قد لقيت وأطلقت سراح ما يزيد عن ٤٠٠ رقيق . »

ولكن ... نعم ولكن كل هذه النفقات التي أنفقت في سبيل الخير هذه ذهبت هباء لأن دولة كبيرة كانجلترا لها أسى اعتبار في نظر الدول الأوروبية وتعد في طليعة العالم المتمدين لم تشأ أن يواصل اسماعيل سيره في الطريق التي رسمها لنفسه وهي بسط سلطة مصر على شواطئ المحيط الهندي ومنها إلى منابع النيل . أليس هذا كله معناه أن هذا الرجل العظيم كان يعمل ما يعمل مستلهماً وحتى ضميره وعقيدته لا يتأثر إلا بمقتضيات الإنسانية ولا ينبغي جزاء ولا شكوراً على سعيه للوصول بالسودان إلى مصاف البلاد المتمدينة ؟

ولا بد من ملاحظة صغيرة نسوقها هنا رداً على الأستاذ الرافعي بك . فقد ذكر في سياق كلامه عن حملة السومال أن الحملة البرية التي كانت احتلت قسمايو وتأهبت ==

التقرير السنوى المقدم إليه من المجلس الخاص دون أن يكون له الحق

== للسير غرباً قاصدة بحيرة فيكتوريا أبطأت في الزحف من قسمايو وأن شالى بك لونج قال «إن من أسباب اخفاقتها اغضاء غوردون عن الاتصال بها رغم الأوامر الصادرة إليه من اسماعيل» ويعزو لونج بك هذا الأغضاء إلى احتمال وصول تعليمات من لندن إلى غوردون توجب عليه عدم التعاون مع هذه الحملة . وراح الأستاذ الرافعى بك يستنتج من هذه الاحتمالات عدم إخلاص غوردون لمصر وعدم ولائه للحكومة المصرية الخ الخ

ولسنا تتولى هنا الدفاع عن غوردون وإنما نرى إحقاقاً للحق أن نذكر أن غوردون باشا أثبت العبارة الآتية في مذكراته اليومية بتاريخ ٢١ يناير سنة ١٨٧٥ على ماورد في ص ٦٥ من كتاب «الكولونيل غوردون في أواسط افريقيا من سنة ١٨٧٤-١٨٧٩» المطبوع في لندن سنة ١٨٨١ ما نصه :

« لقد اقترحت على الخديو أن يبعث في إحدى السفن بمائة وخمسين جندي إلى خليج ممباسا على بعد ٢٥٠ ميلاً في شمالى زنجبار وهناك ينشؤون محطة ثم يتوغلون في جهة «معتزة» فان توصلت إلى تحقيق هذه الأمنية اتخذت قاعدتى في ممباسا واستغنيت عن الخراطوم ومتاعب السفن البخارية . . . ومن ثم يمكن فتح أواسط افريقيا بالطريقة الناجعة ... فأرجو أن يفعل الخديو هذا ... »

ومن هذا ترى أنه كان يستصوب فتح منطقة البحيرات من ناحية الأقيانوس بدلا من اتباع مجرى النيل . فاذا كان هذا رأيه وإذا كان هو الذى اقترح على الخديو إرسال الجنود إلى خليج ممباسا فكيف يمكن منطقياً اتهام الرجل بالأغضاء لحاجة في نفس يعقوب؟ ألا إن الواقع هو أن الخديو بعد تدخل الإنجليز بسبب احتجاج سلطان زنجبار هو الذى أمر بوقف الزحف إلى منطقة البحيرات كما ذكرناه لك . ونحسب أن عاقلاً لا يمكن أن يلوم الخديو على عدم تورطه في مجافاة السياسة البريطانية وقتذاك .

اعتراف إنجلترا بسلطة مصر فى السومال

ثم ما لبثت الحكومة البريطانية أن عقدت معاهدة مع الحكومة المصرية فى ٧ سبتمبر سنة ١٨٧٧ وردت نصوصها فى قاموس الإدارة والقضاء للأستاذ فيليب بك جلاذ الجزء الثانى ص ٤٩٠ وفيها تعترف إنجلترا لمصر بامتلاكها سواحل بلاد السومال لغاية رأس جردفون ثم رأس حفون .

في مناقشته هذا فضلا عن أن « الانتخاب » لهذا المجلس كان تعييناً أكثر

== وناب في توقيع هذه المعاهدة شريف باشا عن الحكومة المصرية والمستر فيفيان
قنصل إنجلترا العام بالنيابة عن الحكومة الإنجليزية .

ويأبى القدر الساخر إلا أن تستولى إنجلترا بعد اخلاء السودان على زيلع وبربره
وملحقاتهما كما أخذت فرنسا تاجورا وملحقاتها وإيطاليا رأس جردفون .

معاهدة لمنع الرقيق بين إنجلترا ومصر

كانت إحدى نتائج الحرب الشعواء التي أعلنها اسماعيل باشا وغوردون على النخاسة
أن بريطانيا العظمى عقدت مع مصر في يوم ٤ أغسطس سنة ١٨٧٧ معاهدة نصت
بين ما نصت عليه على أن تحرم مصر جلب الرقيق إلى بلادها وأن تتعاون الدولتان
المتعاقدتان على منع النخاسة في البحر الأحمر .

وبديهي أن العبرة في المعاهدات هي في طريقة تنفيذها . وإذا كان اسماعيل يصدر
عن روح مخلص في كل ماله علاقة بالنخاسة ووسائل منعها فقد أراد أن يظهر من
جديد حرصه على استئصال شأفة هذه التجارة الممقوتة بأن طلب إلى حكومة لندن أن
تمده بأحد الضباط البحريين للتعاون معه على أداء تلك المهمة الإنسانية في سواحل
البحر الأحمر .

فاقترحت لندن الكومندور مالكولم الذي أنعم عليه اسماعيل برتبة الباشوية
وجعله مديراً عاماً لمصلحة منع تجارة الرقيق .

ويأبى سوء الحظ إلا أن تستحكم حلقات سوء التفاهم بين مالكولم وغوردون
ويصبح التعاون بينهما مستحيلاً إلى حد أن مالكولم قدم استقالته للخديو الذي تردد
أولاً في قبولها ثم اضطر فيما بعد إلى تلبية صاحبها إلى طلبه مؤثراً الاحتفاظ بغوردون .

استعفاء غوردون باشا

لوجارينا خصوم اسماعيل جدلاً فيما رموه به من المطاعن والمثالب لما رأينا واحداً
منهم - بالغاً ما بلغت خصومته - يجرؤ على اتهام الخديوى بقصر النظر وتجاهل صاحبه
الخصوصية وبخاصة متى كانت متفقة مع المصلحة العامة . بل بالعكس نرى الخصوم
بمحمدين على حدة ذكاء الرجل وفرط نباهته وحصافة رأيه .

فانصح أن غوردون باشا كان مدسوساً من ناحية السياسة الإنجليزية على الخديو ==

بما كان انتخاباً وكان أعضاؤه عمد القرى ومن عداهم من الأعيان . ومهما

== فما كان أولى باسمه أن يرحب باستغفاء غوردون بل لما كان يعقل أن يسعى ليحمه على العودة إلى خدمته بعد الاستقالة كما حدث .

ولقد ذكر الأستاذ الراجعي بك في ص ١٣٣ من كتابه القيم تحت عنوان « استقالة غوردون » ما نصه :

« بقي الكولونيل غوردون مديراً لعموم خط الاستواء إلى أن استعفى من منصبه سنة ١٨٧٦ وعاد إلى القاهرة ومنها إلى إنجلترا . ولعله رحل إليها ليطلع حكومته على أحوال المنطقة التي تولى حكمها ولتلقى تعليماتها الجديدة فيما تأمره به فإنه لم يلبث في إنجلترا ثلاث سنوات إلا قليلاً حتى تدخلت الحكومة الإنجليزية لدى الخديو لتعيينه في منصب أكبر من منصبه القديم إذ جعله حكمدار عموم السودان فصارت أقاليم السودان تحت مطلق تصرفه . »

ولعل غوردون هو أولى الناس بمعرفة الأسباب الخفية الحقيقية التي دفعته إلى الاستقالة كما أنه أيضاً أعرف الناس بالأسباب التي حملته على استئناف التعاون مع الخديو . هذه الأسباب في كلا الأمرين تتنافى مع ما كتبه صديقنا الكبير الأستاذ الراجعي بك . وإليك البيان :

ففي ص ١٢٠ من كتاب « خطابات غوردون لشقيقته » — وهي خطابات لم يكن غوردون يتوقع نشرها يوماً ما — وصف غوردون اتجاه مجرى النيل بعد خروجه من بحيرة فيكتوريا ودخوله إلى بحيرة البرت فقال :

« يغطي مدخل بحيرة البرت عدد من الجزر . والماء في البحيرة ساكن وراكد ومنظرها غير بهيج . أما الأهالي ففي سكون ونواياهم حسنة بالنسبة لنا . ولقد رأيت قطعاً من الفيلة اليوم يتناول الطعام ويدل منظره على الاغتباط ، وهو يحشر البرسيم حشراً في أفواهه بنفس السرعة التي تبصق بها الماء من فمك في حوض واسع . والمكان جد موحش هنا . فليست تسمعين صوتاً ولا ترين أثراً للحياة والمناظر كلها تغم النفس وتقبضها . وفي عزمي — إذا شاء المولى — أن أقصد من هنا إلى جهة فويره ثم أرسم تلك الناحية ومن ثم أذهب إلى مرولى فأروندجاني ثم إلى ستزا (أو مساقط ريبون) وأرفع الراية المصرية على بحيرة فيكتوريا ثم أرسم مجرى النهر من كوسيتزا إلى أروندجاني ثم منها إلى مرولى . والمسافة من كوسيتزا إلى أروندجاني . ٤ ميلاً بالبر والنهر هناك غير صالح للملاحة ==

كان شأن هذا المجلس فانه كان برغم ذلك معهداً وطنياً مهماً عمل

ولكنه على عكس ذلك بين أروندجاني ومرولى . ولما كنت قد انتهيت من رسم النهر بين مرولى وفويره . فسأكون إذ ذاك قد انتهيت من رسم مجرى النيل بأمله ...
فهل يدري القارىء ما كان يعانيه غوردون من المصاعب فى سبيل إتمام مهمته هذه ؟ إليك ما كتبه فى هذا الصدد إلى شقيقته فى ٦ أغسطس سنة ١٨٧٦ إذ قال :

« لقد أشرفت على الهلاك . فلقد اقتضى رسم مجرى النيل مسافة ثمانية أو عشرة أميال أن أسير وسط الأحراج مسافة ١٦ ميلاً فى مطر منهمر انساب من السماء كما لو كان قد انساب من أفواه القرب . وعلى كل فقد تم رسم المجرى وفى يقينى أن شخصاً آخر لن يحاول القيام بهذه المهمة مرة أخرى . »

وكان قد كتب إلى شقيقته قبل ذلك بعدة أسابيع ما تراه فى صفحة ١١٩ إذ قال :
ما أسوأ الجو هنا فاني لا أكاد أذوق للنوم طعاماً . . . وكل شىء معوج لا يؤدي إلى الغاية المرجوة . ويحتمل أن مرض الكبد هو الذى يجعلنى أظن ذلك . . . كم أتمنى أن أتم هذه المهمة . إنه لا يزال أمامى شهران من هذا العناء والنصب . فهل أذل ما أمامى من المصاعب ؟ من يدري ؟ »

ثم عاد غوردون إلى التكلم عن مرض الكبد فقال مخاطباً أخته :
« فى وسعك أن تقدرى مبلغ غمى لعدم استطاعتى رسم الثغرات فى مجرى نهر نيل فيكتوريا (وهو الاسم الذى يطلقونه على النيل بين بحيرة فيكتوريا وبحيرة ابراهيم) ولست أدري هل أوفق فى هذا أم لا . . . فان عاودتى الصحة فعلت ولكنى أشعر من يوم لآخر بثقل وطأة مرض الكبد . »

وبعد ذلك بيومين كتب يقول :
« إن حالتى الصحية سيئة بسبب الدماء المنهمة من أنفى وقد كدت أن أختنق مساء أمس بسبب هذا الرعاف الشديد . »

ففى سبيل من كانت كل هذه الجهود ؟ قد يقال إن غوردون كان يعمل لحساب انجلترا ولكن هاك ما كتبه إلى خيرى باشا حامل الختم الخاص ومنه ترى مبلغ ما كان يعلقه غوردون من الأهمية على تنظيم الملاحة فى بحيرة فيكتوريا . وهذا الخطاب موجود فى دار المحفوظات الملكية وقد افتتحه غوردون بهذه العبارة :

« هناك مسألة ينبغى على مصر النظر إليها بعين الحذر وهى ألا تجرى فى بحيرة فيكتوريا سفن تابعة لدولة أخرى عدا مصر . ولقد سبق أن كتبت لك أنه عند ما يتم =

اسماعيل على تسميته قبل عزله . وكانت البلاد في اiban ذلك العهد تحكم بطريقة

== رفع الراية المصرية على بحيرة فيكتوريا - وهو ما سيتحقق في القريب العاجل إن شاء الله - فان أول ما ينبغي أن تعنى به مصر هو أن تحتفظ بملكيتها لبحيرة فيكتوريا وأن تحول دون الملاحة فيها بواسطة سفن غير مسموح لها بذلك من الحكومة المصرية . وكان قد كتب لاخته قبل ذلك يقول :

د في نيتي مواصلة السير إلى أن أبلغ البحيرة (يقصد بحيرة فيكتوريا نيانزا) وأن أرفع الراية وأمكن الخديو من إدخالها ضمن أملاكه .

فهذه الخطابات كلها تضرب على نغمة واحدة هي أن غوردون برغم ثقل المرض وبرغم ما كان يقوم أمامه من المتاعب التي تنوء بها كواهل العصابة أولى القوة كان قد وطد عزيمته على الوصول إلى بحيرة فيكتوريا ورفع الراية المصرية عليها لا باسم إنجلترا بل باسم اسماعيل .

وما نحسب أن غوردون الذي اشتهر باستقامة الخلق كان كاذبا في خطاباته الخاصة لشقيقته أو أنه كان فعلا صحيح البدن معاني عند ما كتب لها بعكس ذلك أو أنه كان ينوى رفع الراية المصرية على البحيرة بينما كان يضمم رفعها باسم إنجلترا ومصر .

بل إن من الطبيعي بعد أن حقق غوردون مهمته التي انتدبه لها اسماعيل وبعد أن تفاقمت حالته الصحية حتى أصبحت مهددة بالخطر أن يعجل بالعودة إلى وطنه .

فما هو أن وصل إلى القاهرة حتى ذهب - كما كتب بخط يده - إلى مقابلة شريف باشا وطلب إليه أن يخبر سموه بأنه عول على اعتزال الخدمة .

وفي يوم ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٧٦ وصل غوردون إلى لندن وفي نيته عدم العودة إلى مصر .

فلو صح أنه كان مدسوساً على اسماعيل - وهي حقيقة لانظنها كانت تخفى على ذلك الخديو العظيم - لحمد الله على أن خلاصه من ذلك الداهية الانجليزية . ولكن اسمع ما نقصه عليك .

لم يكد غوردون يقضى عطلة عيد الميلاد بين أهله وذويه حتى وصلته البرقية التالية من اسماعيل وتراها في ص ١٣٦ من كتاب وخطابات غوردون لشقيقته ، وهي كما يأتي :-
د عزيزي غوردون باشا .

د لقد أطلعني المستر فيفيان (قنصل بريطانيا العام في مصر) على الرسالة التي طلبت إليه فيها أن يخبرني بأن الصروف لا تسمح بعودتك إلى مصر. ولقد أخذني العجب كل =

أو تقراطية لأن اسماعيل رغم ثقافته الأوربية كان يحكم البلاد كالحاكم الشرقي

== مأخذ لسماع هذا بعد محادثتنا في قصر عابدين تلك المحادثة التي أرى من حقى أن أملق
نفسى بشأها لأننى استطعت فى خلالها أن أقنعك بضرورة مواصلة العمل الذى بدأناه
سويآ وطلبت إليك أن تعود إلى منصبك فى مصر . ولما افترقنا كانت كلمة الوداع
الصادرة منك هى « إلى اللقاء . »

« فليس يمكن والحالة هكذا أن أعزو برقيتك إلا إلى ما تشعر به من الارتياح الطبيعى
لوجودك فى وطنك وبين عشيرتك وأهلك . وليس فى وسعى أن أصدق أن سيداً كغوردون
يحاول - لسبب من الأسباب - التلمص من الوعد الذى قطعه لى . ولهذا لا يمكنى يا عزيزى
غوردون النظر جديآ فى برقيتك بل سأرقب عودتك حسب وعدك . » الامضاء
« المخلص اسماعيل »

فلما تسلم غوردون هذه البرقية ذهب فوراً لاستشارة القائد الأعظم للجيش البريطانى
الذى أفهمه أن واجبه يحتم عليه الانصياع لألحاح الخديو . فأبرق غوردون لاسماعيل
يبلغه أنه يقبل العودة على شرط أن يعين حاكماً عاماً للسودان بدلاً من اسماعيل باشا
أيوب الذى كثيراً ما أقام العقبات فى سبيله (غوردون) . ولما كان غوردون يعلم أنه
بمطالبته الخديو بعزل أيوب باشا يضعه فى مركز حرج فانه آثر الاستقالة فى الدفعة
الأولى .

فعلام تدل كل هذه الحكاية ؟ إنها تدل كما قلنا على أن اسماعيل استخدم غوردون
لأنه ارتاح إلى إخلاصه وصدق عزيمته . فلو أنه اشم منه - ولو من بعيد - رائحة العمل
لحساب السياسة الأنجليزية لما صبر على إبقائه فى الخدمة بل ولما كان ألح فى المطالبة
بعودته بعد الاستقالة .

ولم نكتب هذا دفاعاً عن غوردون بل كتبناه لننفي عن اسماعيل تهمة الاستخذاء
للسياسة البريطانية والنزول على إرادتها فيما كان له مساس بالقطر الشقيق .

مديرية خط الاستواء

وبحسبنا ما كتبناه فى هذا الباب فننتقل بعد ذلك إلى مصير مديرية خط الاستواء .
بعد استقالة غوردون فى سنة ١٨٧٦ . فانه عين مكانه الكولونيل بروت وهو أحد
الضباط الأمريكان الذين أبلوا أحسن بلاء فى خدمة مصر والجيش المصرى .
ولما عاد غوردون إلى السودان وعين حكمداراً له جعل ابراهيم بك فوزى مديراً ==



أمين باشا

خط الاستواء . ثم فصله وعين مكانه الدكتور أدوارد شنتزر وكان طبيباً ألمانياً صحب غوردون في السودان واعتنق الإسلام وأصبح يعرف باسم أمين بك وبقى مديراً لمديرية خط الاستواء إلى أن نشبت الثورة المهديّة ولم تفلح في الاستيلاء على تلك المديرية التي ظل يحكمها باسم الحكومة المصرية ونقل عاصمتها من اللادو إلى فرادلاى جنوباً وبقى في مركزه . وقد أنعم عليه الخديو توفيق بهذه المناسبة برتبة الباشوية جزاء إخلاصه لمصر . ولما تقرر إخلاء السودان أبلغه نوبار باشا رئيس مجلس الوزراء ذلك القرار وتركه وشأنه . ولكن أمين باشا ظل في منصبه مخلصاً لمصر وحكومتها معتمداً على ولاء الضباط والجنود المصريين والسودانيين إلى أن جاء ايتانلي وحمله على الجلاء عن ذلك الاقليم بما ساعد انجلترا على احتلال أوغندا وبسط حمايتها عليها (سنة ١٨٩٣) وألحقت بها الجزء الجنوبي من مديرية خط الاستواء .

ولا بد هنا من كلمة نقولها عن غوردون بعد عودته من إنجلترا . ذلك أن الخديو لما أجابه إلى طلبه باحالة اسماعيل باشا أيوب حكامدار السودان إلى المعاش ، جعله هو حكامداراً عاماً مكانه في ١٧ فبراير سنة ١٨٧٧ وخوله سلطة واسعة إذ صدر فرمان لغوردون باشا بالولاية على جميع أصقاع السودان بما فيها دارفور وبحر الغزال وخط الاستواء وهرر وسواحل البحر الأحمر مع مصوع وسواكن وزيلع وبربره وخوله - على ما جاء في عدد الوقائع المصرية رقم ٦٩٨ الصادر بتاريخ ٢٥ فبراير سنة ١٨٧٧ - =

المنفرد بالحكم . ولم يكن وزير خارجيته - نوبار - إلا عبارة عن وسيط

== في حكمه سلطة مطلقة عسكرية ومدنية . وكان ساطان مصر قد بلغ وقتذاك أقصى مداه إذ امتد من سواحل البحر الأحمر وخليج عدن إلى الأقيانوس الهندي شرقا وإلى حدود وادى غربا والبحيرات الاستوائية جنوبا .

وينبغي ألا يفوتنا هنا أن نقول أن غوردون مع اهتمامه بمحاربة النخاسة قد وجه عنايته إلى احتكار العاج وكان ذلك أحد بذور الثورة المهديّة كما ذكره الكولونيل شالى لونج إذ قال في كتابه « مصر ومديرياتها المضيفة » ص ١٨٦ ما نصه :

« إن أمر غوردون باحتكار الحكومة محصول العاج ، قد أثار تجار العاج على الحكومة وهؤلاء التجار كانوا سادات السودان الحقيقيين . فكان هذا العمل المنطوي على الظلم النواة الأولى للثورة المهديّة وكانت إدارة غوردون فوضى . وبالجملة فقد تولى حكم السودان والأمن واليسار يسودانه ولما غادره سنة ١٨٧٩ كان ينوء تحت أعباء الديون والثورة تتمخض في أحشائه . »

ولسوء حظ غوردون أن مدة حكمه داريته العامة للسودان - على ما ذكره الأستاذ الرافعي بك - كانت مملوءة بالفتن والاضطرابات ، وكان عهده نذيرا بنشوب الثورة المهديّة . ومما ساعد على شبوب الفتن تشدده في إبطال الرقيق واحتكار العاج ونقص قوة الجيش المصري في السودان ، بما أخذته الحكومة من صفوفه من الأمداد التي أرسلتها إلى تركيا في حرب البلقان (سنة ١٨٧٧) .

ومن الثورات التي نشبت في عهد غوردون ثورة سليمان بن الزبير رحمت باشا سنة ١٨٧٧ انتقاما لاعتقال أبيه في مصر ولكن غوردون أخمد ثورته . على أنه عاد إلى الثورة فأنفذ إليه غوردون جيسى باشا فقتل عليه وقتله (يولية سنة ١٨٧٩) مما أحزن أباه الزبير ولكنه ظل على ولائه لمصر .

ثم ثار أحد قواد الزبير واسمه الصباحي ولكن الجنود المصرية طاردته حتى أدركته وحكم عليه بالأعدام أمام مجلس عسكري (مارس ١٨٧٩) .

وثار في دارفور الأمير هارون الملقب بالرشيد وبايعه الأهليون سلطانا عليهم في أوائل سنة ١٨٧٧ فقاتلته الجنود المصرية طويلا مقاتلة أسفرت عن قتله في أوائل سنة ١٨٨٠ على ما ذكره مسداليا بك في كتابه « دارفور في عهد غوردون » .

وسعى غوردون في الاتفاق مع يوحنا ملك الحبشة على تحديد التخوم بينه وبين مصر فلم يوفق . وفي أواخر سنة ١٨٧٩ عاد إلى مصر وكان ذلك في أوائل حكم ==



المرحوم السير لى ستاك سردار الجيش المصرى

== توفيق باشا وقدم استعفائه من منصبه فعيّنت الحكومة بدله محمد رؤوف باشا حكامدارا عاما للسودان فكان آخر الحكمدارين وآخر الولاة المصريين قبل الثورة المهدية . وبعد استرجاع السودان فى سنة ١٨٩٨ أرغمت مصر على توقيع اتفاقية سنة ١٨٩٩ التى جعلت حكم السودان شركة بين مصر وانجلترا وعدلت حدوده فبعد أن كانت تنتهى عند بحيرة فيكتوريا صارت بعد اتفاقية سنة ١٨٩٩ تنتهى عند منجلا شمالى غونندوكرو.

ثم جاءت حوادث سنة ١٩٢٤ المشؤومة ومقتل المرحوم السردار السير لى ستاك فتقرر إخراج الجيش المصرى من ربوع السودان بعد أن بذلت مصر فى سبيل فتحه ما بذلت من الأموال والأرواح .

حرب الحبشة

وكيف أرغم اسماعيل على دخولها

لم تهبط مصر لجنة التحقيق المسماة لجنة السير واصطيفان كيف، إلا للبحث فى الميزانية المصرية ولألصاق كل ما تستطيع إلصاقه من التهم باسماعيل باشا وحكومته ورميهم جميعا بسوء الإدارة المالية . ولجنة كهذه لم يكن يعقل ولا ينتظر منها أصلا أن تدافع عن أعمال اسماعيل أو أن تقول كلمة طيبة فيها . ولكن النظر ما قالته فى حرب الحبشة كما ذكره المستر ما كوان فى ص ٣٨٩ من كتابه . قالت :

مالى بينما كان اسماعيل باشا صديق المعروف بالمفتش هو المهيمن الفعلى على

« لقد تورط الخديو إلى حد معين فى هذه المسائل (تقصد حرب الحبشة) بقصد القضاء على تجارة الرقيق. ولهذا نقول إن الحرب الحبشية قد فوجىء بها اسماعيل مفاجأة وأرغم على دخولها إرغاماً . »

وإنه لمن المؤلم حقاً أنه بينما توجد لجنة انجائزية كلجنة السير كيف همها التنديد بأعمال اسماعيل والتشهير بها بالحق أو بالباطل تعترف فى تقريرها بأن « الخديو أرغم على دخول حرب الحبشة إرغاماً ، إذا بمؤرخ مصرى كبير معروف بالاتزان والنزاهة كالأستاذ الرافعى بك يقول فى ص ١٥٢ من كتابه مانصه :

« ومن أى ناحية نظرنا إليها (يقصد حرب الحبشة) نجد أن مصر لم تكن فى حاجة إليها ولا مصلحة لها فى خوضها . وإنما ساق إليها النزق وسوء التدبير فاتته بالهزيمة والخسران . » وقال فى موضع آخر « لم يجاهر اسماعيل بنيته فى فتح الحبشة ولكن سياسته أزاءها كانت تم عن هذه الغاية فقد تحرش بها (كذا) وعمل على إثارة الحرب معها على غير جدوى » الخ الخ

ونكتفى بهذه الملاحظة ونترك للقراء الحكيم على أقوال الأستاذ الكبير .

أسباب النزاع بين البلدين

عرض الأستاذ الرافعى بك لأسباب النزاع بين مصر والحبشة وهى تتلخص فى أن اسماعيل كان يرغب فى مد خط حديدى بين مصوع وكسلامارا « بسنيت » تسهيلات للهواصلات بين السودان والبحر الأحمر وأنه كان يعتبر الجهات الواقعة بين البلدين وبخاصة سنيت أرضاً مصرية منذ عهد محمد على . ولكن النجاشى تيودورس ملك الحبشة عارض اسماعيل فى المشروع فوق الجفاء الذى مالبت أن استحكمت حلقاته بوقوع الخلاف بين الأنجليز والأحباش فى سنة ١٨٦٧ عندما اعتقل تيودورس بعض التجار الأنجليز ومنهم قنصل إنجلترا . فلما طالبت هذه باطلاق سراح المعتقلين رفض . فاشتد الخلاف بين الفريقين وانضم اسماعيل باشا إلى الجانب الأنجليزى وأرسل فى سبتمبر سنة ١٨٦٧ خطاباً للنجاشى يطالبه بالأفراج عن المعتقلين وتهده فى حالة الرفض بنشوب الحرب بينه وبين الأنجليز وبأنه فى تلك الحالة لا يمانع الأنجليز فى اجتياز الأراضى المصرية لمهاجمته . ولكن النجاشى أشاح بوجهه عن كل هذا التهديد وإذ ذاك أرسلت إنجلترا فى سنة ١٨٦٧ حملة عسكرية بقيادة لورد نايبير . وهنا قرر الخديو مساعدة الأنجليز بأن أمر =

الإدارة . وقد انحصرت مهمته في جباية الضرائب . وهي مهمة برهن فيها

== عبد القادر باشا الطوبجى محافظ مصوع بمعوتهم في النزول إلى البر كما أنه وضع الأسطول
المصرى تحت تصرفهم فنقل مهماتهم من السويس إلى مصوع .

ودارت رحى الحرب وأسفرت عن فوز الإنجليز واحتلالهم لمدينة « مجدلا »
شمالى أديس بابا وقتل النجاشى تيودورس في سنة ١٨٦٨ وبدا آل عرش الحبشة
إلى « يوحنا » الذى كان الإنجليز يعاونونه ضد تيودورس .

ثم نشبت الحرب بين يوحنا وبين قبائل الجلا فاغتنم منزنج باشا الفرصة وزين
لاسماعيل فتح الحبشة .

ومنزنج هذا هو سويسرى الجنس هبط مصر ومنها إلى السودان حيث طاف
بأنحاءه وأنحاء الحبشة وأقام في مصوع منذ سنة ١٨٦٠ وتزوج بسيدة حبشية من أهالى
البوغوس وشغل منصب قنصل فرنسا في مصوع وقدم للإنجليز أكبر معونة في حربهم
ضد الحبشة .

ثم عينه اسماعيل في سنة ١٨٧٠ محافظا لمصوع ورقاه فيما بعد محافظا لسواحل
البحر الأحمر ومديرا لشرقى السودان وأنعم عليه برتبة البكوية ثم الباشوية . وعين
لمحافظة مصوع أراكيل بك نوبار أحد أقرباء نوبار باشا .

فتح إقليم البوغوس

فلما زين منزنج لاسماعيل — كما يقول الأستاذ الرافعى بك — فتح الحبشة نظرا
لما كانت عليه من الضعف والفوضى عهد إليه اسماعيل بفتح إقليم البوغوس — ويراها
القارىء في خريطة مديريات السودان في عهد اسماعيل المذكورة في صحيفة تالية .
فذهب منزنج من مصوع في قوة تبلغ ١٥٠٠ مقاتل قاصدا « سنهيت » عاصمة الإقليم
واستولى عليها باسم الحكومة المصرية . ثم فتح الإقليم كله وابتاع مقاطعة « ايلت »
من حاكمها وكان على خلاف مع النجاشى وأصبحت سلطنة منزنج تشمل سواكن ومصوع
وبلاد البوغوس والتاكا والقضارف والقلابات وأميديب وبركه أى السودان الشرقى
في أقصى حدوده .

وكان بديهياً أن ينقم يوحنا على مصر هذا التوسع ويضم لها الشر . وسرعان
ما نشبت الحرب بين البلدين . وقد جهز اسماعيل عند الحبشة حملتين في وقت واحد .
الأولى تهاجها من الشمال عن طريق مصوع بقيادة الكولونيل ارندروب وهودانركى ==

على شدة وطأته المقرونة بعدم النزاهة. ولما تضخمت ثروة المفتش وتضاعف

== الأصل جاء إلى مصر للاستشفاء وتعرف بالجنرال إستون باشارئيس أركان الحرب فرغب إليه الخدمة في الجيش فقبل وتولى قيادة هذه الحملة وعددتها ٢٥٠٠ مقاتل. أما الحملة الثانية فبقيادة منزجر باشا نفسه لمهاجمة الحبشة من الجنوب عن طريق تاجورا. هذه هي رواية الأستاذ الرافعي بك. أما المستر كراييتس فيقول إن غارة منزجر على إقليم البوغوس واحتلالها كجزء من محافظة زيلع إنما كان باعثة تقليم أظافر الأحباش الذين كانوا يحط آمال تجار الرقيق بعد أن ضيق السير صمويل بيكر والكولونيل غوردون عليهم الخناق في أنحاء السودان. فامتداد القتال إلى أراضي الحبشة هو بقصد محاربة النخاسة وهذا ما يتفق تماما مع ما ذهبت إليه لجنة كيف الآنفه الذكر.

يوم ١٥ نوفمبر المنحرس

ويظهر أن يوم ١٥ نوفمبر سنة ١٨٧٥ كان يوم نحس على هاتين الحملتين. فلقد تقدمت حملة أرندروب لغاية « الحماسين » جنوبي سنهيت دون أن تلقى مقاومة وتقدمت في ناحية جوندويت حيث التقت بجيش عرمرم جمعه الملك يوحنا ويبلغ عدده ٣٠٠٠٠ مقاتل. فاشتبك الفريقان في القتال في يوم ١٥ نوفمبر على ما ذكره المستر كراييتس ودارت رحى المعركة على ضفاف نهر المارب وقد أسفرت عن ارتداد الجيش المصري إلى مصوع بعد أن لقي أرندروب بك وأراكيل بك حتفهما.

أما منزجر فقد غادر مصوع إلى تاجورا ومنها إلى بحيرة أوسا حتى بلغها في ١٤ نوفمبر. وفي طريقه إلى البحيرة قابل المدعو ابن الشيخ محمد الحدة أمير ذلك الإقليم فتظاهر الشيخ بالولاء لمصر ليحكم إعداد الشرك بمنزجر. وقد خدع هذا فيه واتخذه دليلا ومرشدا. وسارت الحملة إلى قرب البحيرة. وفيما كانت الجنود المصريون نياما في منتصف ليلة ١٥ نوفمبر سنة ١٨٧٥ هجم عليهم رجال القبائل غيلة بقيادة ابن الشيخ محمد الحدة وأعملوا فيهم السيف حتى أفنؤهم على بكرة أبيهم ودارت الدائرة على الجيش المصري وهو في فراش النوم وقتل منزجر وزوجته وارتد الباقيون إلى زيلع.

حملة راتب باشا سنة ١٨٧٦

ولما أن سمع اسماعيل هذه الأنباء المحزنة هاج لها أشد هياج وخشى عواقبها المعنوية والسياسية فصمم على تأديب الأحباش وغسل الإهانة التي لحقت الجيش المصري.

دهاؤه وخبثه دعاه اسماعيل إلى النزهة وهناك أودع على ظهر الباخرة حيث
لقى حتفه .

== فجرد حملة يبلغ عددها مع فلول حملة أرندروب ١٢٠٠٠ وعقد قيادتها لراتب باشا
السردار وولى الجنرال لورنج باشا الأمريكى منصب رئاسة أركان الحرب .
وصحب هذه الحملة الأمير حسن باشا نجل الخديو وكان قد عاد حديثا من المانيا
بعد دراسته مبادئ الفنون الحربية .

ومن تطوع فى القسم الطبى للحملة بعض كبار اطباء مصر فى ذلك العهد كالدكتور
محمد على باشا البقلى الذى قتل فى الحملة والدكتور محمد بك بدر ثم السيد محمد عبد الله
حكيمباشى الطوبجية المصرية والد الأستاذ على فكرى الأمين الأول بدارالكتب الملكية .
وتولت سفن الأسطول المصرى وبواخر الشركة الخديوية نقل هذه الحملة من
السويس إلى مصوع فوصلتها فى منتصف شهر ديسمبر سنة ١٨٧٥ وانظرا لصعوبة المواصلات
وسوء حالة هيئة أركان الحرب لم تستأنف الزحف على الحبشة إلا فى منتصف شهر يناير
سنة ١٨٧٦ وبعد اجتياز مفاوز شاقة وجبال لا علم للمصريين بها ومناطق لم يعرفوا
عنها شيئا من الناحية الطبوغرافية وصلوا إلى أوائل السهل الممتد من ممر (قياخور)
إلى قورع وتبعد هذه الأخيرة عن مصوع نحو ٥٥ ميلا . ثم شرع الجيش المصرى
يعسكر فى المدينة الأخيرة ويقم فيها الاستحكامات والحصون .

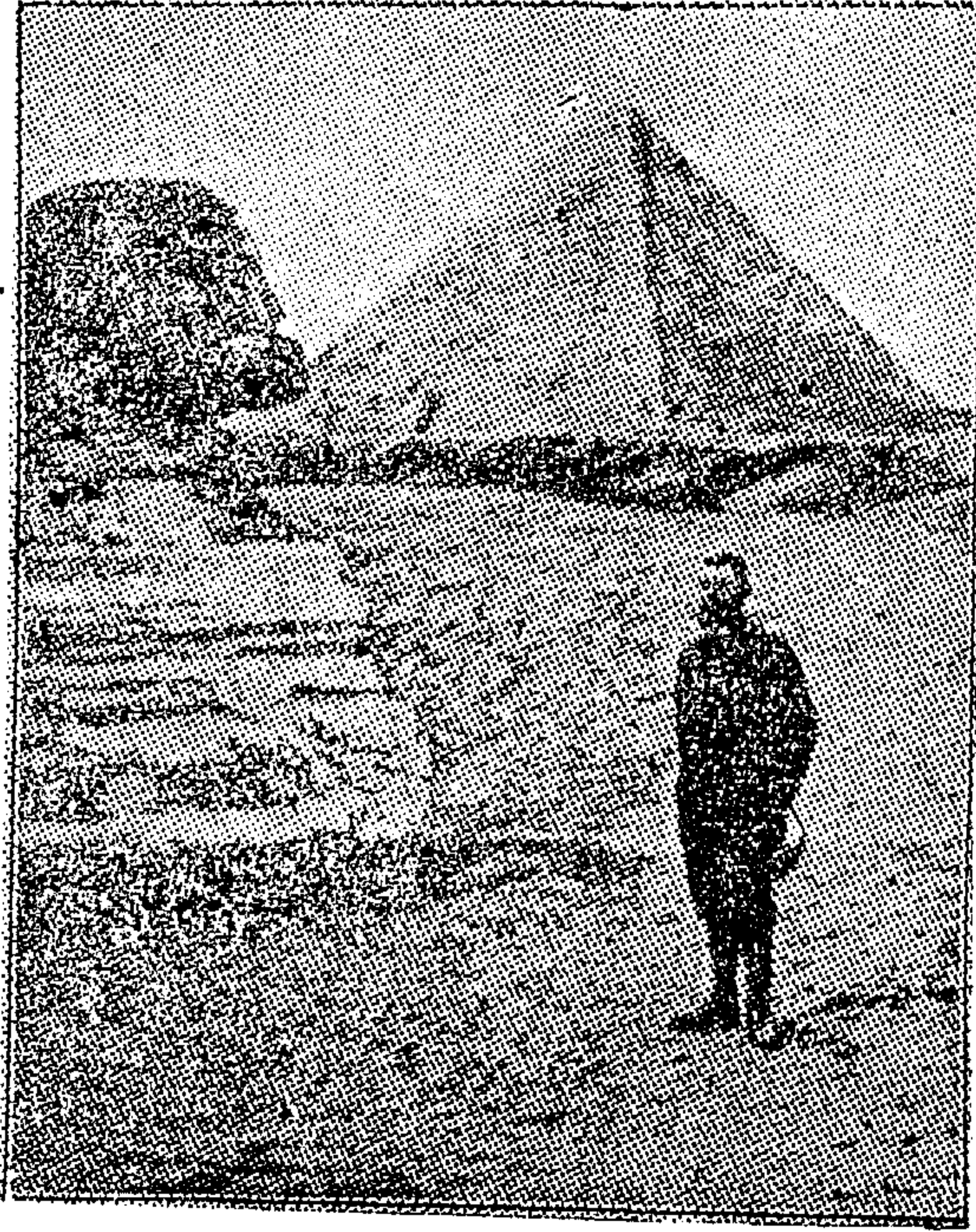
معركة قورع فى ٧ مارس سنة ١٨٧٦

ولكن الملك يوحنا جاء فى ٤٠٠٠ من رجاله والتحم فى يوم ٧ مارس سنة ١٨٧٦
بالجيش المصرى فى معركة قورع وكانت معركة حامية أصيب فيها الفريقان بخسائر فادحة
وأسفرت عن هزيمة الجيش المصرى بعد أن خسر نحو ٤٨٠٠ بين قتلى وجرحى ولم
يتمكن من الفرار إلا نحو ٥٣٠ شخص بينهم راتب باشا وبعض كبار الضباط وكانوا
قد أشرفوا على الموت .

وكان بين الأسرى محمد بك رفعت رئيس القلم التركى بديوان الجهادية فاستطاع أن
يقنع النجاشى بوجوب عقد الصلح على أساس انسحاب الجنود المصرية من أرض
الحبشة ورد الأسرى إلى مصر وفتح طريق التجارة بين مصوع والحبشة .

وفعلا تم الصلح ، وظلت سنهيت فى حيازة مصر وعاد الأسرى مع فلول الحملة
إلى مصوع حيث أبحرت إلى السويس وهكذا كانت الحرب الحبشية أول صدمة أصابت
الجيش المصرى فى أثناء فتوحاته العظيمة .

ومع أن «أفندينا» كان أوتقراطياً شرقياً فقد عمد إلى إصلاح النظام



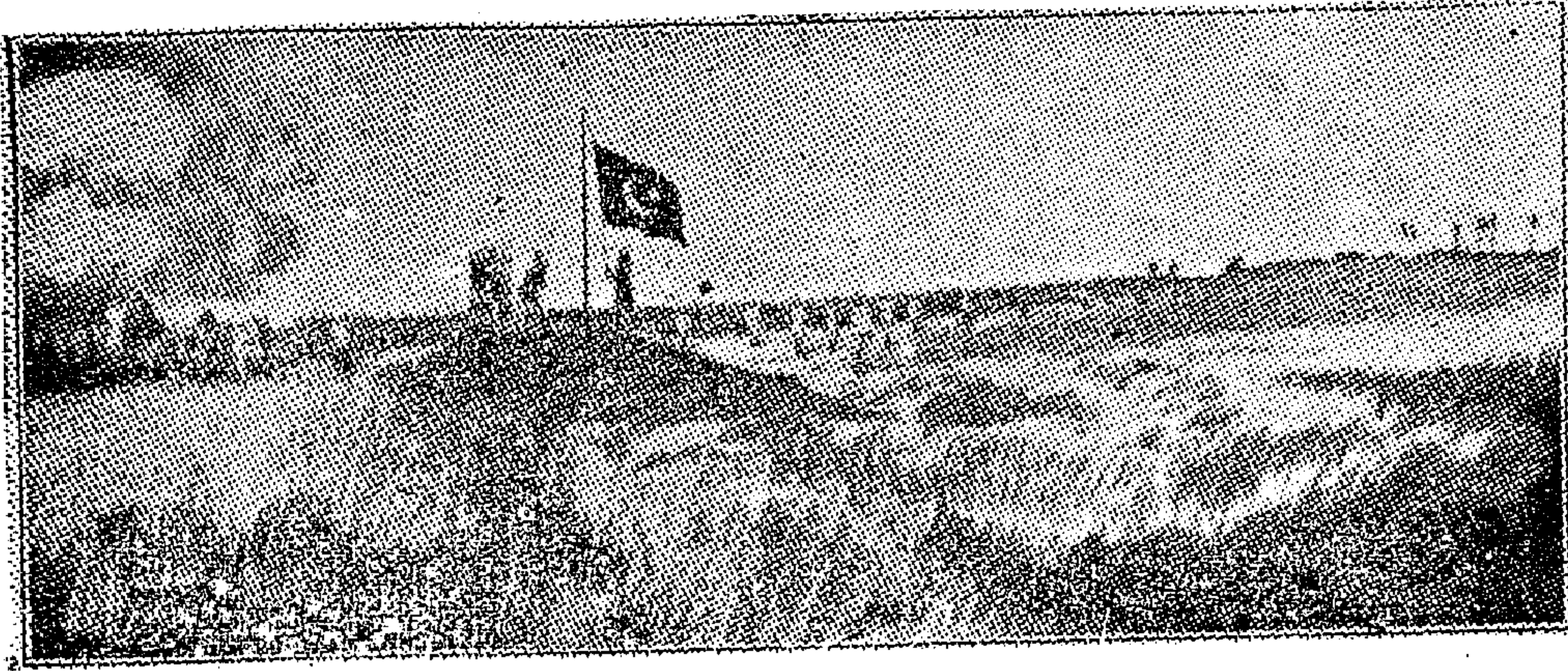
الكولونيل مارشان أمام أهرام الجيزة

— وليس يفوتنا أن نذكر مع الأسف أن ما نزل بالجيش المصرى من الخسائر فى تلك الحرب المشؤومة — التى أرغم اسماعيل على خوضها كما ذكرت لجنة كيف — كانت له عواقب سياسية بعيدة الغور أولها وأهمها إغراء السياسة الأنجليزية باحتلال القطر المصرى فيما بعد بعد أن تجلى لها ضعف الجيش المصرى وعجزه عن الدفاع عند الحاجة عن البلاد ضد الخطر الأجنبى .

خلاصة اجمالية عن السودان فى عهد اسماعيل

يصح بعد كل ما فصلناه لك عن الفتوحات المصرية فى السودان أن نقول إن الفضل يرجع لاسماعيل باشا فى بسط الحكم المصرى فى أنحاء ذلك القطر الشقيق ومد رواق الحضارة فيه ، وليس من سبيل إلى نكران أن الخديو اسماعيل هو الذى وصلت حدود السودان فى عهده الزاهر إلى حدود مصر الطبيعية التى تشمل وادى النيل وملحقاته —

الاجتماعى الإسلامى على النمط العصرى . وقد كان هذا النظام يقوم



الجنود البريطانية ترفع الراية المصرية على فاشودة

من البحر الأبيض المتوسط شمالا إلى منابع النيل والأقيانوس الهندي جنوبا ومن البحر الأحمر شرقا إلى صحراء ليبيا غربا .

فكأنما أكمل اسماعيل العمل الذى بدأه محمد على فى السودان . ذلك أن حدود السودان المصرى وصلت فى عهد مؤسس مصر الحديثة إلى البحر الأحمر وضمت إقليم التاكا (كسلا) الواقع شرقى نهر عطبرة ثم وصلت من جهة الحبشة إلى القضارف والقلابات ودخلت فى نطاقها سواكن ومصوع هذا إلى أن الحملات والتجاريده العسكرية وصلت جنوبا إلى جزيرة (جونكر) تجاه غوندوكرو الواقعة على النيل الأبيض .

أما فى عهد اسماعيل فقد تضمنت الفتوحات المصرية فتح مديرية فاشودة وهى التى أثار احتلال الكولونيل مارشان وكتيبته الفرنسية إياها أزمة شديدة بين إنجلترا وفرنسا فى سنة ١٨٩٨ وكادت أن تؤدى إلى الحرب بينهما . وقد غير الإنجليز اسمها وسموها الآن (كودوك) كما جعلوا اسم المديرية مديرية النيل الأعلى مع أن تشاجر إنجلترا مع فرنسا بسببها كان بحجة أن تلك الأراضى تابعة لمصر فلا يحق لفرنسا احتلالها ! وبعد فاشودة ضمت مصر محافظتى مصوع وسواكن نهائيا إلى أملاكها وحصل اسماعيل على فرمان بذلك فى مقابل زيادة الجزية المصرية المقررة للباب العالى على نحو ما فصلناه لك .

ثم استولت مصر على إقليم خط الاستواء ومملكة أونورو وبسطت حمايتها على

على دعامة الاسترقاق وعزلة النساء و سيطرة رب الأسرة إلى غير ذلك من دعائم



محمد بك المليك من سلالة
ملوك أدفو وهو ممن انضموا
إلى مصر

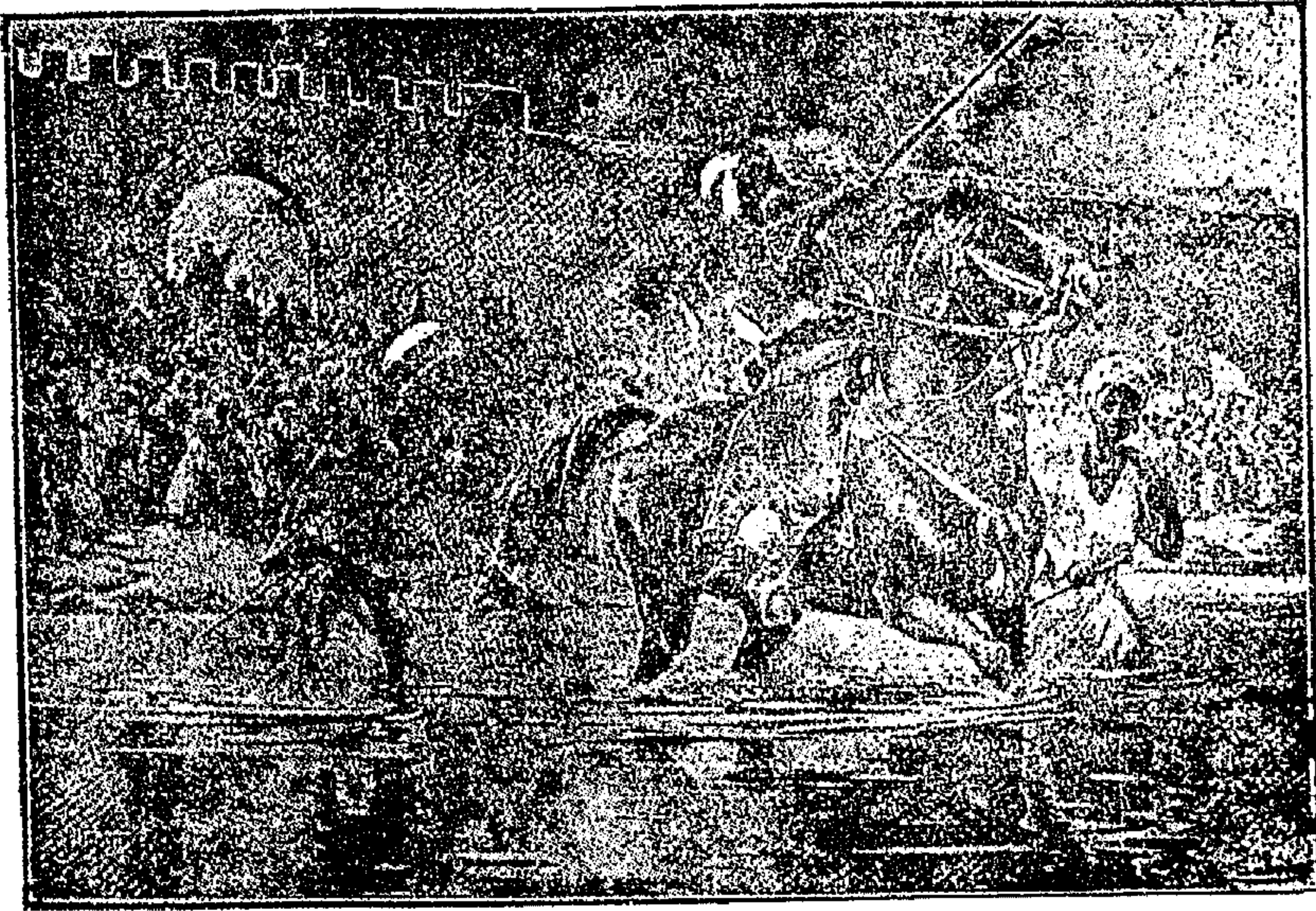


طبيب المهدي

أوغندا وفتحت إقليم بحر الغزال وسلطنة دارفور واتسعت أملاك مصر بين الحبشة والبحر الأحمر بفتح سنهيت وبلاد البوغوس وامتدت سلطتها إلى سواحل البحر الأحمر حتى بوغاز باب المندب وضمت محافظتي زيلع وبربره كما فتحت سلطنة هرر الواقعة جنوب شرقي الحبشة وأدخلت فيها سواحل السومال الشمالية حتى رأس جردفون على الأقيانوس الهندي ثم إلى رأس حفون . وهكذا وصلت فتوحات مصر جنوبا إلى بحيرة البرت وبحيرة فكتوريا وشرقا إلى البحر الأحمر وخليج عدن وغربا إلى حدود واداي . فاذا ما ذكر المصريون اسماعيل فليذكروا أنه هو معمر السودان وإليه يرجع الفضل في تدمينه وتمصيره كما أنه هو الذي قضى فيه على تجارة الرقيق الممقوتة واستئصال شأقتها . ونذكر بهذه المناسبة حكاية طريفة عن السير صمويل بيكر .

هذه الحكاية هي أن المستر تشارلس ألن سكرتير الجمعية البريطانية الأجنبية لمحاربة الرق أرسل يدعو السير صمويل بيكر إلى حضور حفلة يويل الجمعية المذكورة . ولكن السير صمويل بيكر رد عليه بالخطاب التالي الذي رأينا أن نثبته بنصه لأنه شهادة رجل انجليزي كبير على ما لاسماعيل من الفضل في عمل انساني كادت الشهوات السياسية

الدولة الإسلامية (كذا!) . فالاسترقاق الذي كان سبباً في بقاء كثيرين من



عبد الله التعايشي يقطع النيل عند أم درمان ويحرض رجاله على القتال

== أن تحجبه عن الأبصار بينما عين التاريخ لن تغمض عن تدوين الحقائق كما هي . قال السير صمويل في رده الذي أرسله من محل إقامته لسكرتير الجمعية المذكورة :

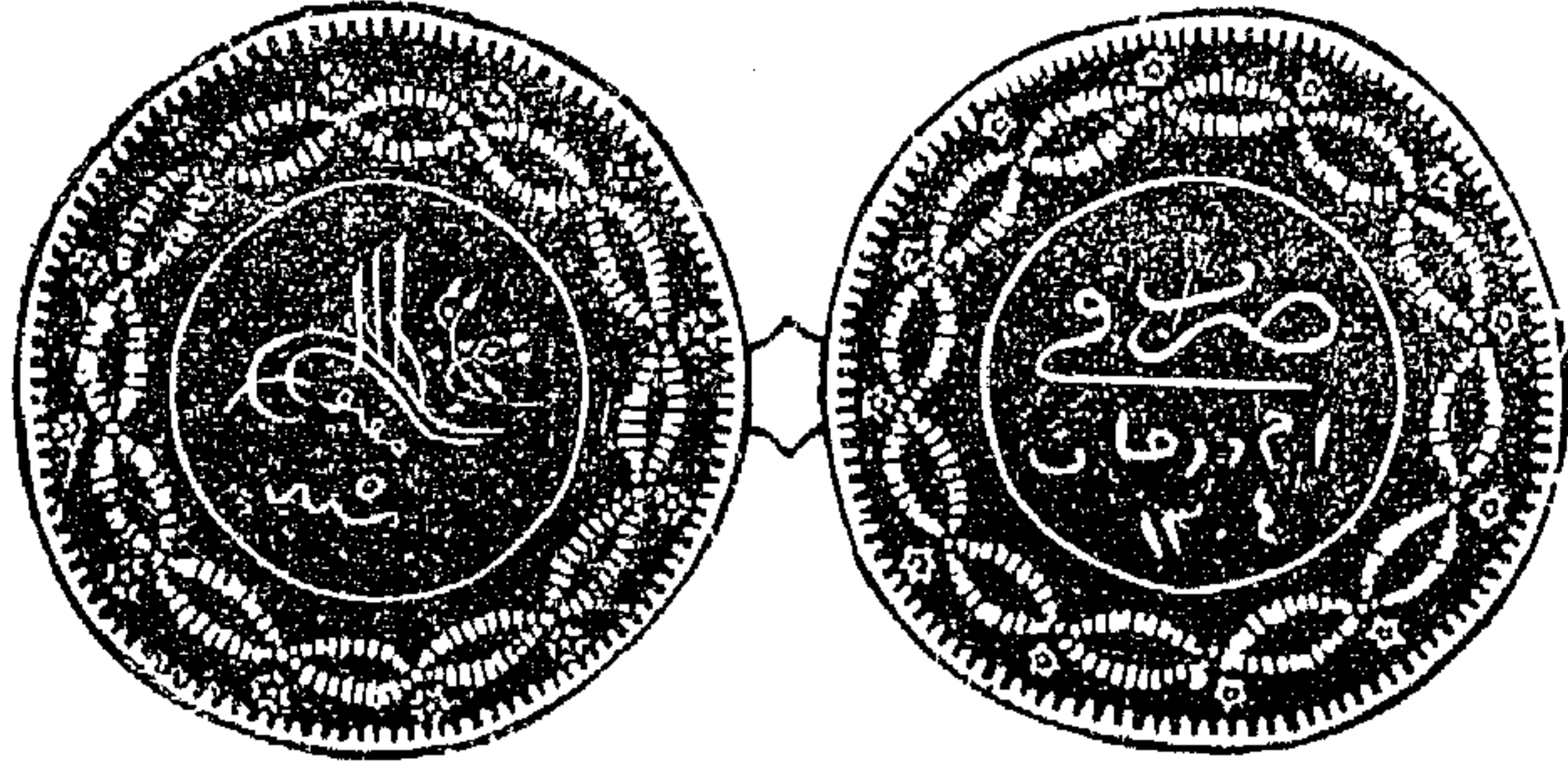
« ساند فورد أورلي

« تحريراً في ٣٠ يولية سنة ١٨٨٤

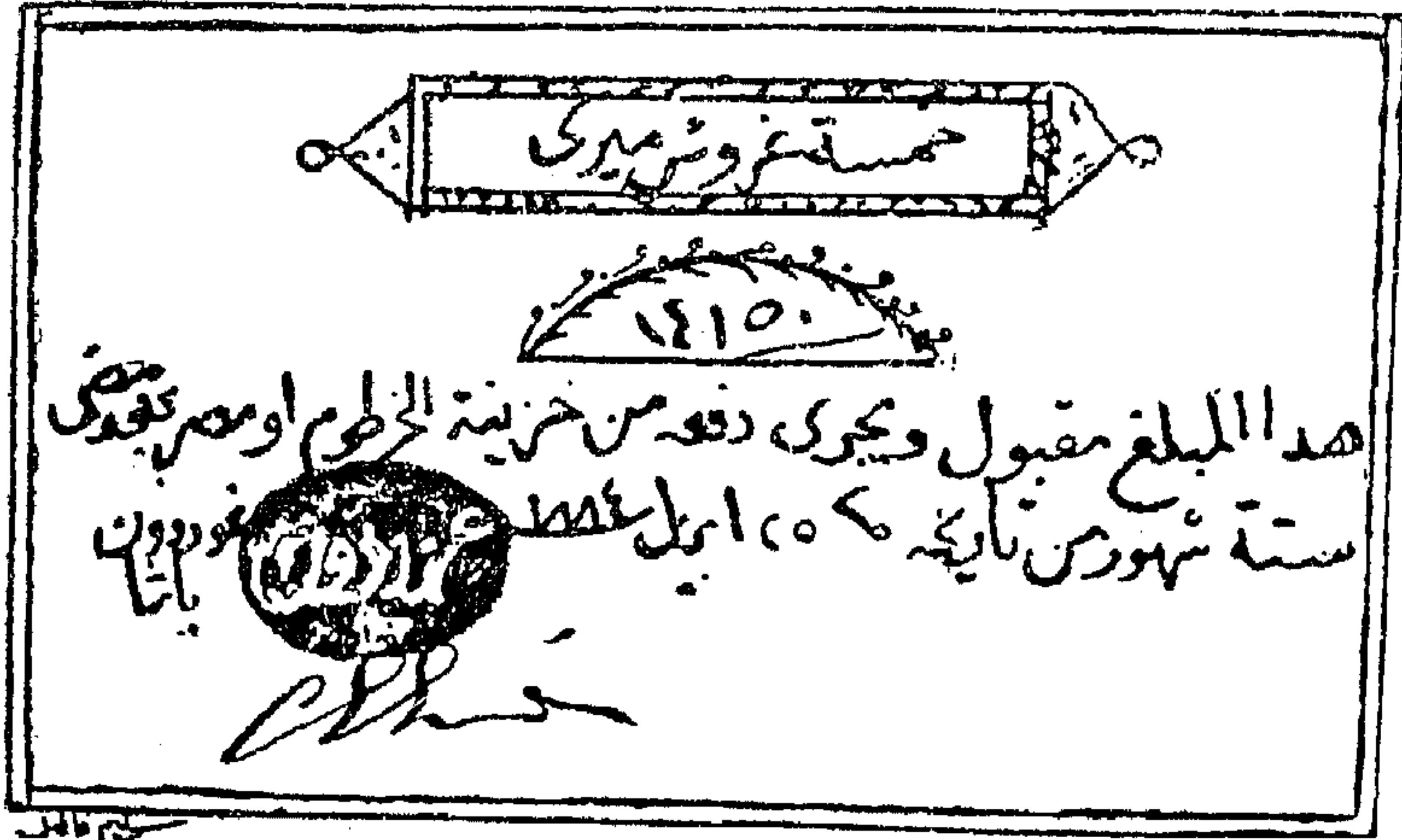
« إني أستشعر الأسف لأن تغيب عن لندن يحول دون حضوري حفلة يويل جمعية محاربة الرق بمناسبة مرور خمسين سنة على الغاء الرق في الممتلكات البريطانية ولا أستطيع أن أعتقد في الوقت نفسه أن أحداً من وزراء جلالة الملكة تسول له نفسه الحضور في جمعيتكم في الموقف المخجل الذي يوجد فيه السودان الآن . (وعلى كل فإن الجمعية لا صبغة سياسية لها .)

« فالحكومة البريطانية باصدار أوامرها التعسفية للخديو وإرغامه على التخلي عن الخرطوم والسودان جملة واحدة قد طعنت طعنة نجلاء كافة ما بذلناه من الجهودات للقضاء على النخاسة . فهذه التجارة الممقوتة لم تستمد الحياة مباشرة من مثل هذه السياسة فقط بل إن قوة الحماية قد سحبت من كل بمن آزرنا في العمل الطيب الذي قمت به ==

المهاليك على قيد الحياة كان مايزال يعتبر جزءا من حياة الطلقات الحاكمة.



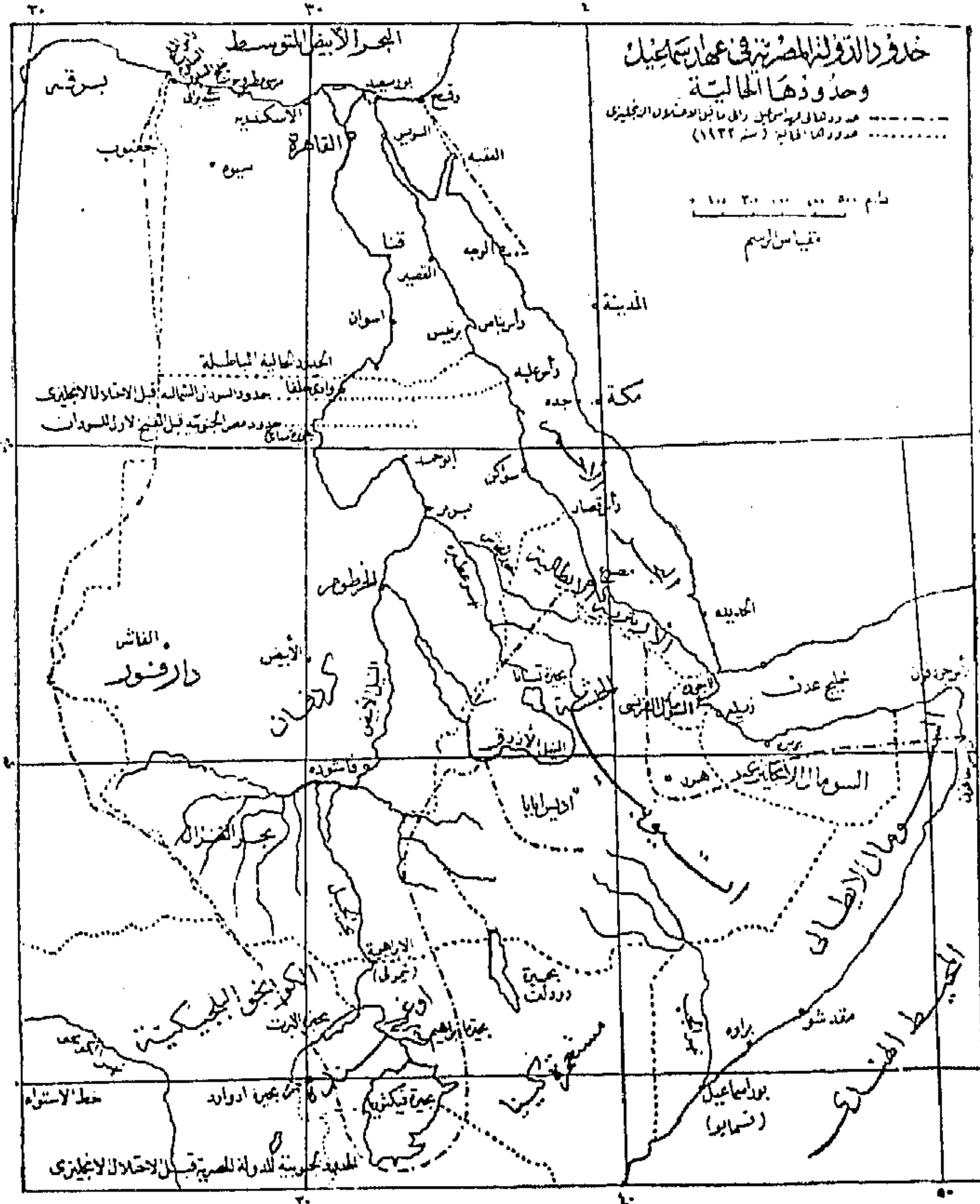
نقود المهدي



نقود غوردون باشا

== أنا وغوردون وبذلك بادر أهل الفساد في زهو الانتصار إلى احتلال العرين بعد أن خلا من حماته . فهذا بلا ريب عمل الحكومة البريطانية الصادر عن عمد وسبق نية وهو أن تتخلي عن غنائم المعركة وتتنازل عنها لصيادى الرقيق الظافرين وأن تخلى حومة القتال التي يجرى فيها التشاد بنفس الطريقة التي انسحبنا فيها من الترنسفال أمام مقاتلة البوير المغاوير .

« ولست أستطيع أن أتصور كيف يمكن للفرد الأنجليزى أن يفاخر برفع رأسه أو أن يهنىء بعضنا بعضا في يوبيل تقيمه جمعية مقاومة الرق بوصف أننا الذين الغيناها . ويخيل إلى أن عملا كهذا هو غاية النفاق والرياء . فنحن لم نكتف بالتخلي عن كل شيء لعنصر صيد الرقيق في أفريقيا الوسطى بل إننا فضلا عن ذلك تركنا غوردون يلقى ==



حدود الدولة المصرية في عهد اسماعيل ومقارنتها بحدودها الحالية

حقيقه . . . وما دامت هذه الصورة المخجلة المنطوية على الجبن والرياء ماثلة أمام عيني فلست أستطيع أن أفهم معنى لا إقامة الاحتفال باليوبيل في إنجلترا .
 « ثم إنني أشد ما أكون أسفا لأن التقرير الخاص بما بذل من الجهود المختلفة للقضاء على النخاسة لا يتضمن أى ذكر لصاحب السمو الخديو اسماعيل باشا . مع أن سموه كان أول حاكم شرقي طعن تجارة النخاسة الطعنة النجلاء في الصميم . ثم لا ينبغي أن يتناسى أحد أنني لم أكن أنا وغوردون إلا موظفين من موظفي سموه وأنه إذا كان ثمة فضل فيما قمنا به من العمل فإن هذا الفضل يرجع إلى سموه وحده . »
 هذا هو اسماعيل وهو بلا ريب الذى أوصل مصر إلى حدودها الطبيعية كما يتبين لك من إلقاء نظرة على الخريطة المنشورة فى هذه الصحيفة التى تبين حدود الدولة المصرية فى عهده وحدودها الحالية . وهو هو الذى رفع السودان إلى المستوى الذى جعل الأجنب يشيدون به .



الدكتور جنكر



الماجور استيجان

شهادة الثقات الأجانب

في الحكم المصري في السودان

وقد تكون أمام ما نسجه أصحاب الغايات في حاجة إلى أن نضع تحت عينيك شهادات بعض الثقات الأجانب في الحكم المصري في السودان في عهد اسماعيل . فإليك ما كتبه المايجور استيجان الذي حكم مديرية خط الاستواء في العهد الجديد أي بعد قيام الحكم الإنجليزي فقد قال في صدد حكم الزوج في ص ٩٩ من مؤلفه المسمى « خط الاستواء » ما نصه :

« كان الأهالي في عهد الحكومة المصرية القديمة كما يستنتج من التداير الوقتية التي اتخذت في ذلك العهد أكثر عدداً وأحسن نظاماً وترتيباً وأشد جنوحاً للسلم منهم في العهد الحاضر . »

أما الدكتور جنكر الروسي الذي قضى عدة سنوات في أواسط أفريقيا فقد كان شاهداً عادلاً على حسن الإدارة المصرية في تلك الجهات إذ ذكر في كتابه المسمى « رحلة في أفريقيا » ص ٥٠٠ جزء أول ما نصه :

« ... ويرجع الفضل إلى المسلمين الذين تعزى إليهم المطاعن والمثالب في إلزام الزوج لضرورة المعيشة في هدوء وسلام مع القبائل المجاورة لهم وبالأقامة على قدر الأمكان في دورهم وبزراعة حقولهم . وبما يشرف الحكومة المصرية و وضع بلاد الزوج تحت =

فقد كان الرقيق يشتري بنحو ٤٠ جنياً ثم لا تمر أعوام حتى تفتح



رودلف سلاطين باشا الذي أسره المهدي ثم تظاهر باعتناق الإسلام

== سيطرتها مما مكنها من أن تفتح فيها بابا لانتشار المدنية في مستقبل الأيام . «
وقد لخص الأستاذ الرافعي بك ما كتبه رودلف سلاطين باشا في كتابه « السيف
والنار في السودان فقال ما نصه :

« إن السودان المصري يحكمه الآن (١٨٩٥) الخليفة عبد الله التعايشي الرئيس
المستبد لدعاة المهدي . وقد كانت السنوات العشر من حكم المهديين كافية لنشر العبودية
في نواحيه . ومن الحق أن نقول أن السودان ظل سبعين سنة ونيفا منذ عهد محمد علي
مستظلا بالحكم المصري مفتوحا للحضارة والمدنية . والمتاجر المصرية والأوربية تزدهر
في عواصمه والدول الأجنبية توفد قناصلها إلى الخرطوم والسائحون على اختلاف أجناسهم
يجولون خلال البلاد دون أن يلقوا بممانعة بل كانوا يلقون عطفًا ورعاية من ولاية
الأمور . وانتظمت طرق المواصلات والتلغرافات وإدارة البريد فسهلت الاتصال
بين أرجاء السودان القاصية ، وأدى الناس الشعائر الدينية سواء في المساجد أو في
الكنائس ، وقامت مدارس البعثات إلى جانب مدارس الحكومة . وعلى الرغم من
تعدد القبائل التي تسكن السودان وما كان بينها من العداة وتحفزها للاقتتال فإن حزم
الحكومة وسطوتها كانا كافيين لتوطيد دعائم الأمن والسلام في مختلف أصقاعه .

وقال في موضع آخر يصف تبدل الحال بعد غلبة الثورة المهديّة :



القائد عثمان دجنة من أشهر قواد المهدي

== « لقد شهدنا في السودان منظرا محزنا إذ رأينا الحضارة الجديدة التي دخلته مع الحكم المصري تتداعى أركانها ويندك صرحها بأيدي أقوام جهلاء يكادون يكونون من الهمج فأسسوا على أنقاض هذه الحضارة حكومة وضعوا لها نظاما يشبه في بعض أشكاله نظام الحكم المصري ولكنهم قضوا على ما ازدان به من العدل والتهديب ، فأقاموا في السودان صرح الظلم والانحطاط . ولا يكاد المرء يشهد في التاريخ الحديث بلاد أخرى سادت فيها الحضارة الناشئة زهاء نصف قرن من الزمان ثم انقلبت إلى حالة أقرب ما تكون إلى الهمجية . فان الخليفة والقبائل التي تناصره بعد أن اغتصبوا سلطة الحكم وانتزعوها من أيدي المصريين يحكمون الآن الأهلين التعساء حكما جائرا ويسوقونهم بعصا من حديد ويسومونهم من الخسف والنكال ما جعلهم يتوقون إلى التخلص من هذه الدولة ويتطلعون إلى حكومة يجدون في ظلها الراحة والسلام . وليس أدل على مبلغ ما عاناه السودان في عهد المهديين أكثر من فناء ما يقرب من ثلاثة أرباع أهله ممن اجتاحتهم الحرب والمجاعات والأمراض المختلفة والتقتيل والتشكيل . »

وكتب سلاطين باشا في موضع آخر من كتابه السالف الذكر مما يعد خير شهادة لحكم اسماعيل باشا في السودان فقال :

« لقد بعد العهد بحالة السودان تحت حكم اسماعيل إذ كانت الحكومة المصرية تحمل في ربوعه لواء الحضارة والمدنية على حين كانت البقاع الخارجة عن منطقة النفوذ المصري ==

أمامه أبواب الجاه والثروة. أما الرقيقات أو الجوارى فقد كن أربعة أقسام قوقازيات أو حبشيات أو زنجيات أو جلايات (نسبة إلى قبائل الجلا)



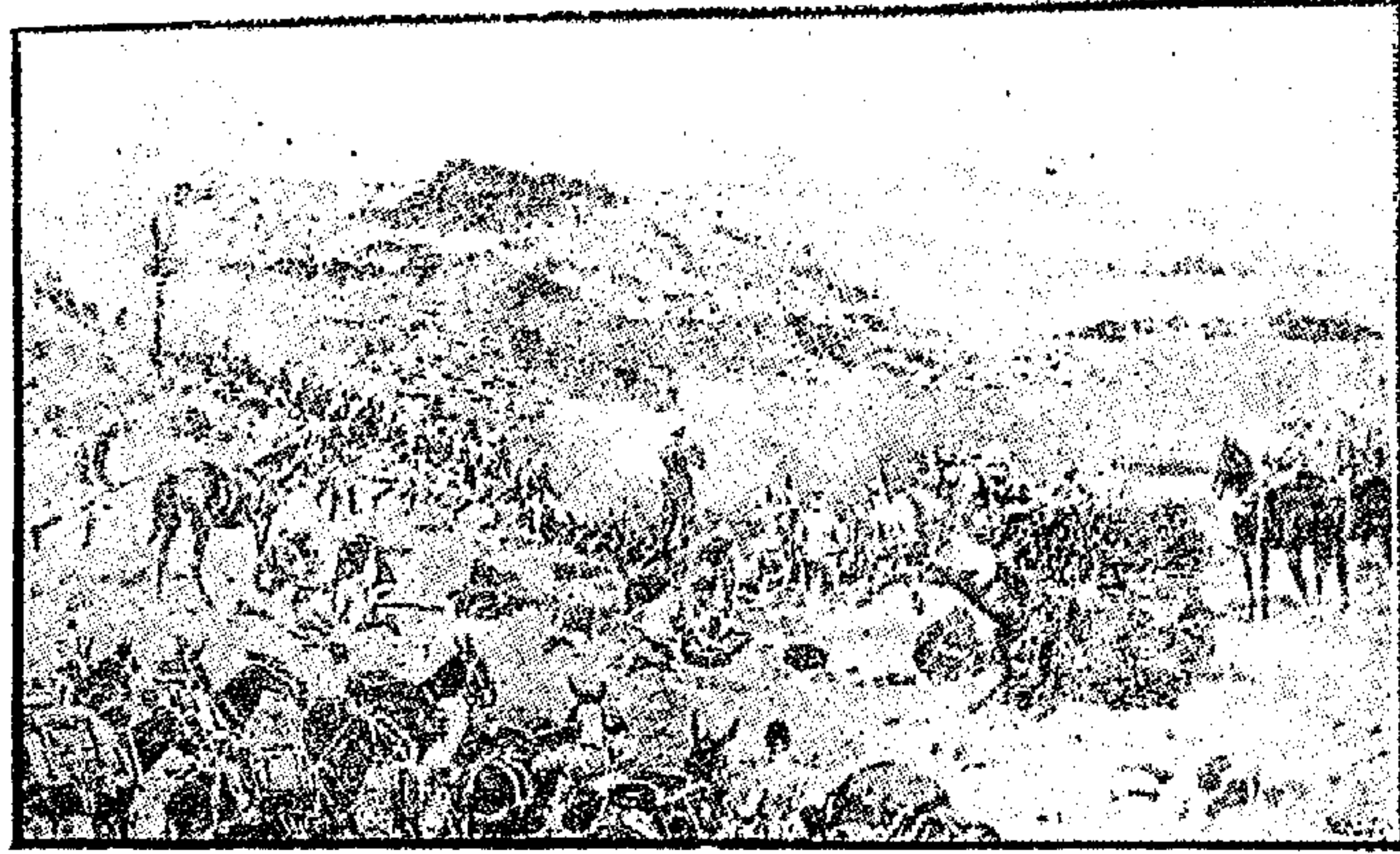
الجنرال هكس باشا الذى قتل على رأس الحملة المصرية ضد المهدي

في حالة الانحطاط والتأخر . فالسودان بعد أن دخلته الحضارة في ظل الحكم المصري قد تطرقت إليه الهمجية على عهد المهديين .

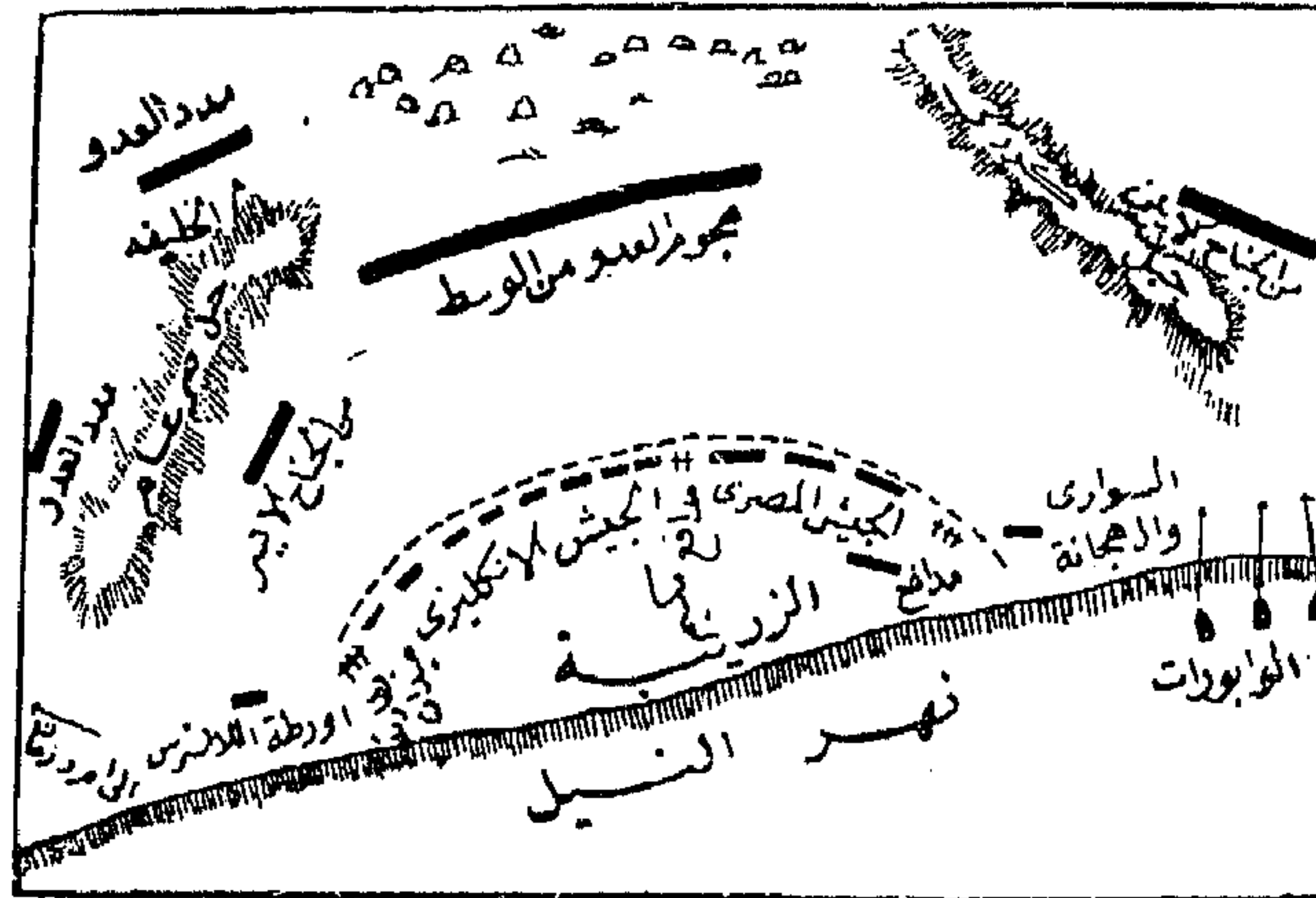
وإليك هذه النبذة المهمة التي بين فيها سلاطين رأيه بالنسبة لارتباط السودان بمصر مما ينبغي ألا ننساه قط نظرا لحاجة كل من القطرين الشقيقين إلى الآخر . قال :

أرى واجبا على أن أبين وجهة نظري في أهمية السودان وقيمه لمصر وأبدى الرأي الذي ثبت في قرارة نفسي فأقول إن الأسباب التي دعت محمدا عليا منذ خمس وسبعين سنة إلى امتلاك السودان لا تزال قائمه إلى اليوم . فالسودان هو مصدر الحياة لمصر (كذا) وكل جهودها يجب أن تتجه إلى صيانة وادى النيل من أى غارة أجنبية فان كل خطوة تخطوها دولة أخرى نحو النيل ينظر اليها بعين الفرع من كل من يقدر خطر السيطرة الأجنبية على ذلك النهر العظيم وما تجره من تضحية سعادة مصر وتقدمها وتعريضها لأعظم المضار .

صور بعض المواقع في أثناء فتح السودان



موقعة أم درمان في الهجوم الثاني



موقعة أم درمان في أثناء هجوم الدراويش على الزيرية



موقعة فامكة بالسودان

وكن بالتوالي أمهات أو محظيات أو خادمت الطبقة الحاكمة . وقد كان نظام

== وقد مر بك مقاله السير صمويل بيكر عن انتشار الأمن في ربوع السودان في عهد اسماعيل وأن السائح الأجنبي لا يتعرض على طول الخط ما بين الاسكندرية والخرطوم إلى الخطر أكثر مما يتعرض له أحد سكان لندن في حديقة هايدبارك بعد الغسق . وإليك قوله في سنة ١٨٧٣ في كتابه (الاسماعيلية) ص ٤١٢ :
« إن مصر وحدها هي التي تستطيع تمدن افريقيا النيلية بإنشاء حكومة نظامية . وحسبها أن تمد حدودها إلى خط الاستواء وبذلك تضمن حياة السائحين في تلك الأقطار . واليوم وقد أصبح امتداد حدودها الجنوبية إلى خط الاستواء أمراً واقعاً فقد انفتحت افريقيا الوسطى للحضارة والعمران . »

أعمال الضباط الأجانب في السودان

لقد مر بك أن اسماعيل استخدم عدداً كبيراً من الضباط الأتريكان وأنه استعان كذلك بضباط من الإنجليز والفرنسيين والإيطاليين مما يدل على أنه لم يكن يستلهم في اختيارهم إلا وحي ضميره فقط وأنه لم يكن تحت تأثير دولة معينة .
وقد رأيت بعض ما قام به الكولونيل شالي لونج بك من باهر الأعمال كما اكتشف بحيرة ابراهيم التي لا زالت يسمونها باسمها القديم وهو بحيرة كيوجا وتمكنه من بسط حماية مصر على أوغندا .

كذلك مر بك اسم ارندروب ومنزجر واشترا كهما في الحملة ضد الحبشة ونذكر لك الآن أسماء بعض الضباط الآخرين وطرفاً من أعمالهم .

فالكولونيل جيسى الإيطالي الذي صار فيما بعد جيسى باشا مدير بحر الغزال هو الذي قام بتخطيط شواطئ بحيرة البرت في سنة ١٨٧٩ وإن كان الفضل في تحديدها تحديداً علياً يرجع إلى الكولونيل ماسون الأمريكي في سنة ١٨٧٧ ذلك لأن ماسون هو الذي اكتشف وجود نهر ينبع من بحيرة البرت ويسير متجهاً إلى الجنوب . وقد دلت المباحث فيما بعد على أن هذا النهر هو نهر سيمليكي وهو الحلقة المفقودة فيما أصبح يسمى الآن منابع النيل من بحيرة البرت .

ثم الضابط شبنديل وهو انجليزي الجنس وكذا زميله وطسون وقد لعبا دوراً مهماً في اكتشاف تلك المنابع وترسم مجرى النيل من ماجونجو حيث يخرج من بحيرة البرت إلى نقطة الدفلاي .

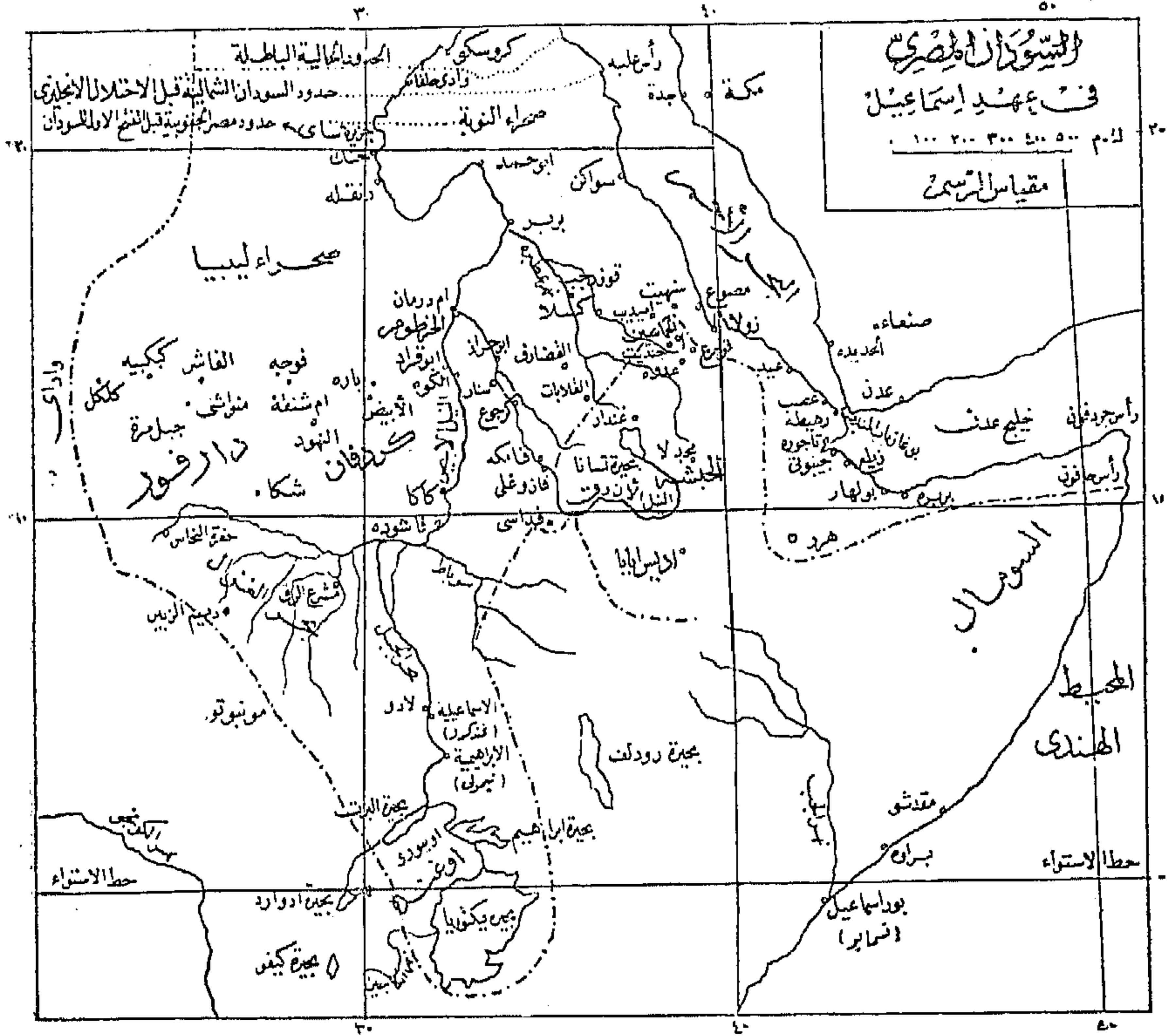


الكابتن لونجارد

== أما السير صمويل بيكر فاسمه مقرون بمحاربة النخاسة هو وغوردون الذي يرجع إليه الفضل في اكتشاف منبع النيل من بحيرة فيكتوريا على نحو ما بيناه لك .

وقد حدثنا غوردون في أسباب استقالته الأولى أنه كان على خلاف مع اسماعيل باشا أيوب حكمدار السودان وقتئذ فلما طلب إلى الخديو إقالته وأجابه اسماعيل إلى طلبه رأى غوردون أن يجعل اعتماده على الموظفين الأجانب في أنحاء السودان النائية فعين مسداليا بك الإيطالي مديراً للفاشر وجيسى باشا الإيطالي أيضاً لبحر الغزال وفردريك روسي قنصل المانيا في الخرطوم مديراً لدارفور وشارل ريجوليه الفرنسي مديراً لداره واميلىانى الإيطالي مديراً لكبكية والدكتور زورنجين الألماني مفتشاً للصحة والضابط سلاطين النمساوى مفتشاً للسالية الذي أصبح سلاطين باشا وأسره المهدي وتظاهر في الأسر باعتناق الاسلام وصار يعرف بالشيخ سلاطين ثم جيكر باشا النمساوى الذي عين مديراً عاماً لمنع تجارة الرقيق .

ثم الكابتن لونجارد الذي توجه إلى مديرية خط الاستواء واستخدم الجنود المصرية المتروكة فيها واستولى على أوغندا وعلى القسم الجنوبي من مديرية خط الاستواء . أما الكولونيل بروت الامريكى فقد تولى الحكم في مديرية خط الاستواء فعين غوردون باشا بدله ابراهيم فوزى (باشا فيما بعد) ثم طلبت أن أقاله وعين بدله الدكتور شنتزر الألماني الذي عرف فيما بعد باسم أمين باشا وكافأه الخديو توفيق على شدة ولائه وإخلاصه لمصر .

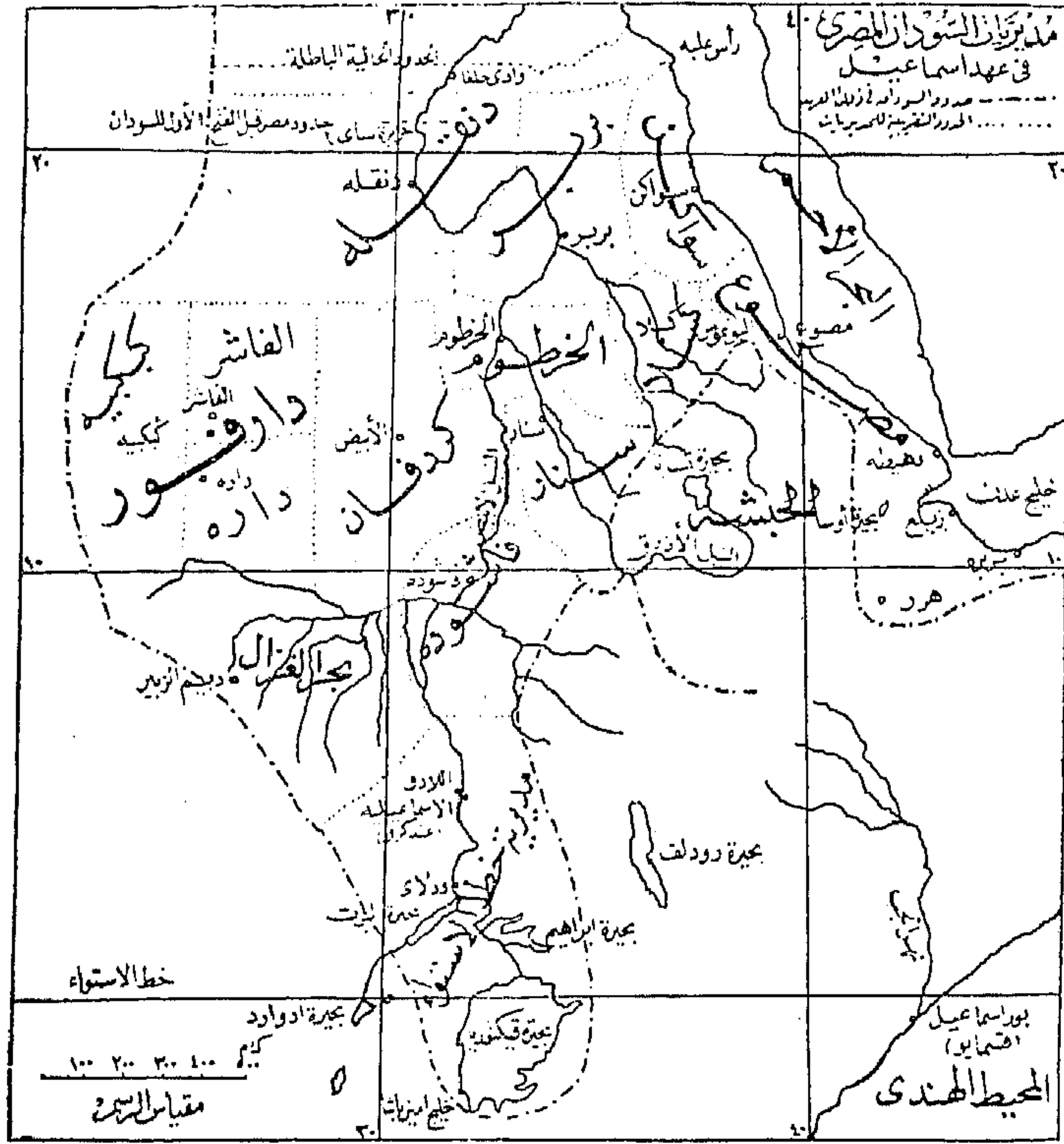


السودان المصري في عهد اسماعيل

حكم دارو السودان في عهد اسماعيل

كان عهد اسماعيل في السودان عهداً ذهبياً ولذا توسعنا في التسكلم عنه من نواحيه العديدة بعد أن كاد ما ينشره بعض الكتاب المغرضين عن الحكم المصري في السودان أن يطمس الحقائق ويلقي في روع أبناء الجيل الحاضر أن السودان لم يعرف معنى الرخاء أو اليسر أيام العهد الأسمايلي. ومادمننا قد تكلمنا عن السودان وما تم فيه من الفتوحات فليس يعتبر خروجاً عن الموضوع أن نقول كلمة اجمالية عن حكم داريه ملخصة عن كتاب الأستاذ الراجحي بك .

فقد كان موسى باشا حمدي حكام دار السودان عند ارتقاء اسماعيل الأريكة ودليلاً على ارتياح الخديو لأعماله أنعم عليه برتبة الفريق ، وقد عني بزيادة الجيش في السودان إلى أن بلغ ٣٠.٠٠٠ واستمر حكام دارا إلى أن توفي سنة ١٨٦٢ ودفن بالخرطوم ثم خلفه جعفر صادق باشا (١٨٦٥ - ١٨٦٦) وفي عهده فتح الجنود المصريون =



مديرية السودان المصري في عهد اسماعيل

== فاشوده بما أخذوا ثورة كسلايين الجنود السودانيين وهي الثورة التي ترجع أسبابها إلى سوء إدارة الحكم وتأخير دفع رواتب الجنود ١٨ شهرا مما أدى إلى وقوع بعض القلاقل حتى عين اسماعيل جعفر باشا حاكما فتمكن بواسطة الضابط السوداني آدم بك من قمع الفتنة .

وقد كافأ الخديو آدم بك برتبة اللواء . ثم مرض جعفر باشا وعاد إلى مصر فحل محله جعفر مظهر باشا (١٨٦٦ - ١٨٧١) فكان من خيرة حكام السودان وكانت ادارته ادارة عادلة مصلحة وأنشأ المدارس والمحاكم للفصل في الخصومات .

وفي عهد مظهر باشا عين آدم بك قائدا للجيش المصري بالسودان وأنعم عليه بالبشوية . وفي عهده أيضاً قام السير صمويل بيكر بما قام به من استيلاء على إقليم خط الاستواء إلى مطاردة الرقيق . وقد كان يتلقى المعونة من مظهر باشا .

وبالجملة فعهد مظهر باشا هو خير العهود في السودان وكان محبوبا من الأهالي لعدالته ==

الاسترقاق على ما يتبعه من العتق بعد سبعة أعوام وما ينتظر الرقيق المعتوق بعد ذلك من ضروب التكسب أشبهى إلى النفوس من الخدمة المنزلية . ولم يكن ينتظر طبعاً ان يبقى نظام الحریم وسوق النخاسة طويلاً

ونزاهته وقد غادر السودان وهو مدين بمبلغ ١٠٠٠ جنيه مما يدل على طهارة يده . ثم عين في سبتمبر سنة ١٨٧١ عضواً بمجلس الأحكام في مصر فغادر منصبه في السودان حيث خلفه فيه ممتاز باشا .

وكان ممتاز باشا من رجال الفرسان في الجيش المصرى واشتهر بسوء سيرته وميله للرشوة حتى اذا بلغ الخديو ذلك أمر بتحقيق مانسب إليه ثم سجن في الخرطوم رهن التحقيق ومات بالسجن . وكل ما يذكر عنه أنه علم الأهلين زراعة القطن .

ثم عين اسماعيل باشا أيوب (١٨٧٣ - ١٨٧٧) الذى اتسعت في عهده فتوحات مصر ففتحت سلطنة دارفور وضمت زيلع وبربره وفتحت سلطنة هرر ، وإليه يرجع الفضل في انتشار الأمن والعمران في روع السودان . وقد نشط الزراعة ووسع تجارة القطن وأنشأ معملين لحليج الأقطان ونسجها . وأنشئت في أيامه نقط عسكرية بين الخرطوم ودارفور إلى حدود واداي وبين بربر على النيل وسواكن على البحر الأحمر لتأمين سبل المواصلات . وفي عهده أنشئت مكاتب للبريد في أهم العواصم . وقد ظل في منصبه إلى أن طلب غوردون باشا إلى الخديو إقالته فعينه عضواً بالمجلس المخصوص العالى (مجلس الوزراء) ثم ترقى وزيراً للداخلية . ويعزون إليه امتناع الحكومة عن إرسال الجزية التي طلبها عبد القادر باشا حلى حكمدار السودان لأخذ الفتنة المهدية ثم استدعاؤه منه في سنة ١٨٨٣ مما كان سبباً في استفحال تلك الثورة .

وبديهى أن نقل اسماعيل أيوب لمصر مهد الطريق لتعيين غوردون حكمداراً عاماً للسودان فبقي في منصبه من ١٨٧٧ إلى ١٨٧٩ حيث جاء إلى مصر في أوائل عهد توفيق وقدم استقالته فقبلت .

مديريات السودان

في عهد اسماعيل باشا قسمت أراضى السودان إلى المديريات والمحافظات الآتية بسبب الفتوحات المصرية وقتذاك فصارت كما في الجدول الآتى :

على هذه الحالة بعد أن عصفت بها ريح التقلبات الاقتصادية فبدلت من

مديريات السودان

العاصمة	المديريات والمحافظات
الخرطوم	مديرية الخرطوم
سنار	» سنار وفازو غلى
بربر	» بربر
دنقله	» دنقله
كسلا	» كسلا أو التاكا
فاشودة	» فاشودة
الأبيض	» كردفان
الفاشر	» الفاشر
داره	» داره
كبكية	» كبكية
ديم الزبير	» بحر الغزال
الاسماعيلية (غوندوكرو) ثم اللادو	» مديرية خط الاستواء
ثم ودلاي	وكانت مقسمة إلى مأموريات لاتوكا
	سوبر ومكره ومنبوتو وودلاي وفويره
سواكن	محافظه سواكن
مصوع	» مصوع
هرر	حكمدارية هرر
زيلع	محافظه زيلع
بربره	محافظه بربره

نظرة إجمالية في عمران السودان

لقد حدثناك عن استتباب الأمن وانتشار العمران كما شهد بذلك الثقات الأجانب وانتشار الزراعة الحديثة وخصوصا زراعة القطن وزراعة الدخان (في القضارف) ولم =



احمد عرابى باشا وقد اشترك فى حملة الحبشة

== يكن يقل جودة عن دخان الأناضول واستعمله المدخنون فى أنحاء السودان . كما ذكره شيلوبك ص ١٠٥ فى كتابه « النيل والسودان ومصر » وقد أنشأ أمين باشا حقولا للتجارب الزراعية بجوار القضايف على ما ذكرته مجلة الجمعية الجغرافية فى عدد فبراير سنة ١٨٨١ ص ٣٢ وقد ازداد غرس النخيل فى دنقله وتضاعف محصول التمر وكان يرسل إلى سائر أنحاء السودان .

وتحسنت طرق المواصلات بواسطة القوافل أو السفن كما بينه الكولونيل ستيوارت فى تقريره المنشور بالكتاب الأزرق الأنجليزى عن مصر سنة ١٨٨٣ كما أصلح مجرى النيل فى الشلال ونسفت الصخور والعقبات التى كانت تعترض السفن فيه فصار صالحا للملاحة النيلية فسهلت المواصلات بين مصر والسودان وأزيل جزء من السدود على النيل الأعلى كما ذكرته الوقائع المصرية فى العدد ٢٦٧

وأصلحت ترسانة الخرطوم التى أنشئت فى عهد محمد على وكثرت بها الدواخر النيلية وبلغ عددها ١٥ عدا عدة ذهبيات مصنوعة من الحديد والخشب .

وأنشى فنار فى ميناء بربره على خليج عدن لهداية السفن ولتسهيل الملاحة كما أنشىء فيها رصيف لأيواء السفن .

كذلك عهد اسماعيل باشا إلى جماعة من المهندسين بتخطيط السكك الحديدية التى تصل السودان بمصر وشرع فعلا فى مد الخط الحديدى على طول النيل من وادى حلما إلى (حنك) وأنفق فى ذلك . . . ألف جنيه ومد من الخط نحو ١٧ كيلومترا ==

شأنها وأصبح الرجل يؤثر الزوجة المتعلمة والخادمة المحررة على هذا الجيش

من وادى حلفا . ومهد الطريق على بعد ٤٧ كيلومترا أخرى ثم أوقف العمل في سنة ١٨٧٨ بسبب الارتباك المالى .

وأنشئت المدارس فى بعض أنحاء السودان وعهد بالتدريس فيها إلى المتخرجين من مدرسة الخرطوم التى أنشئت فى عهد عباس الأول .

أما التجارة فقد نشطت بنسبة انتشار الأمن فى ربوع السودان حتى بلغت وارداته فى السنة مليونى جنيه وصادراته $1\frac{1}{4}$ مليون جنيه وبلغت البيوتات المصرية التجارية فى السودان ٣٠٠٠ بيت والأوربية ١٠٠٠ بيت

ثم تولى موتشى بك مدير مصلحة البريد فى مصر إنشاء مكاتب للبريد فى السودان وأنشئت فى الخرطوم سنة ١٨٧٣ ادارة للبريد احتفل بافتتاحها افتتاحا فخما . وفتحت عدة مكاتب أخرى فى الخرطوم ودنقلة وبربر وكسلا وسنار والمسلمية والقضارف وفازوغلى وفاشودة والأبيض والفاشر وظلت هذه المكاتب تؤدى مهمتها إلى أن تعطلت بعد شوب الثورة المهديّة سنة ١٨٨٣ وظل مكتب الخرطوم مفتوحا إلى أن سقطت المدينة فى أيدي الثوار سنة ١٨٨٥

أما خطوط التلغرافات فى السودان فقد بلغت لغاية ١٨٧٠ نحو ٢١١٠ كيلومتر وبلغ عدد المكاتب التلغرافية ٣١ مكتباً وذلك سنة ١٨٧٧ وكان مركز هذه الخطوط فى الخرطوم وظلت قائمة إلى أن عطلت إبان الثورة المهديّة .

أما ميزانية السودان فقد قدرها الجنرال غوردون فى رسائله عن سنة ١٨٧٨ بما يأتى :

٣٢٧٠٠٠ جنيه دين السودان

٥٧٩٠٠٠ » إيرادات الحكومة

٦٢١٠٠٠ » مصروفاتها

٧٢٠٠٠ » العجز

الرحلات والبعثات الجغرافية

ليس يسعنا أن نختم ملاحظتنا عن السودان دون أن نشير بكلمة موجزة إلى الرحلات والبعثات الجغرافية التى حفل بها عصر اسماعيل وكانت سببا فى انتشار الحضارة والعمران فى ربوع السودان كما أن إليها يعود الفضل فى تقدم علم الجغرافيا والاكتشافات بما أضافوا إليها من الحقائق المهمة والبيانات المتكررة والخرائط والرسوم الدقيقة . وقد =

العرمرم من القريبات الطاعنات في السن وملحقاتهن من شبان الرقيق

== أجملها الأستاذ الرافعي بك فيما يلي : كانت بعثة السير صمويل بيكر إلى منابع النيل هي أول هذه البعثات . وفي سنة ١٨٧١ نشطت بعثة برئاسة الأمير الالاي بوردي الأمريكي من ضباط الجيش المصري مصطحباً طائفة من الضباط المصريين فجابوا الجهات الواقعة بين النيل والبحر الأحمر من القاهرة والسويس شمالاً إلى قنا والقصير جنوباً فاكشفوا طرق المواصلات ومناجم المعادن والمحاجر في تلك الجهات .

وفي سنة ١٨٧٣ سار بوردي بك بحراً إلى (يرنيقه) القديمة على البحر الأحمر (غربي رأس بناس) ولحقه بها الأمير الالاي الأمريكي كولستن من طريق قنا برا وخططا الجهات بين يرنيقه وبربر .

وفي ١٨٧٤ اكتشف شالي لونج بك بحيرة ابراهيم كما اكتشف معظم مجرى النيل المسمى بنيل فيكتوريا وحقق نقطة كانت غامضة وهي أن نيل فيكتوريا يصب في بحيرة البرت ورسم الطريق بين اللادو ومكره جنوبي بحر الغزال .

وبعد فتح دارفور في سنة ١٨٧٤ أرسل اسماعيل ثلاث بعثات لاكتشاف جهات كردفان ودارفور واكتشفت ثالثهما برئاسة المهندس الأمريكي متشل مناجم الذهب في (الحمامة) شمالي قنا .

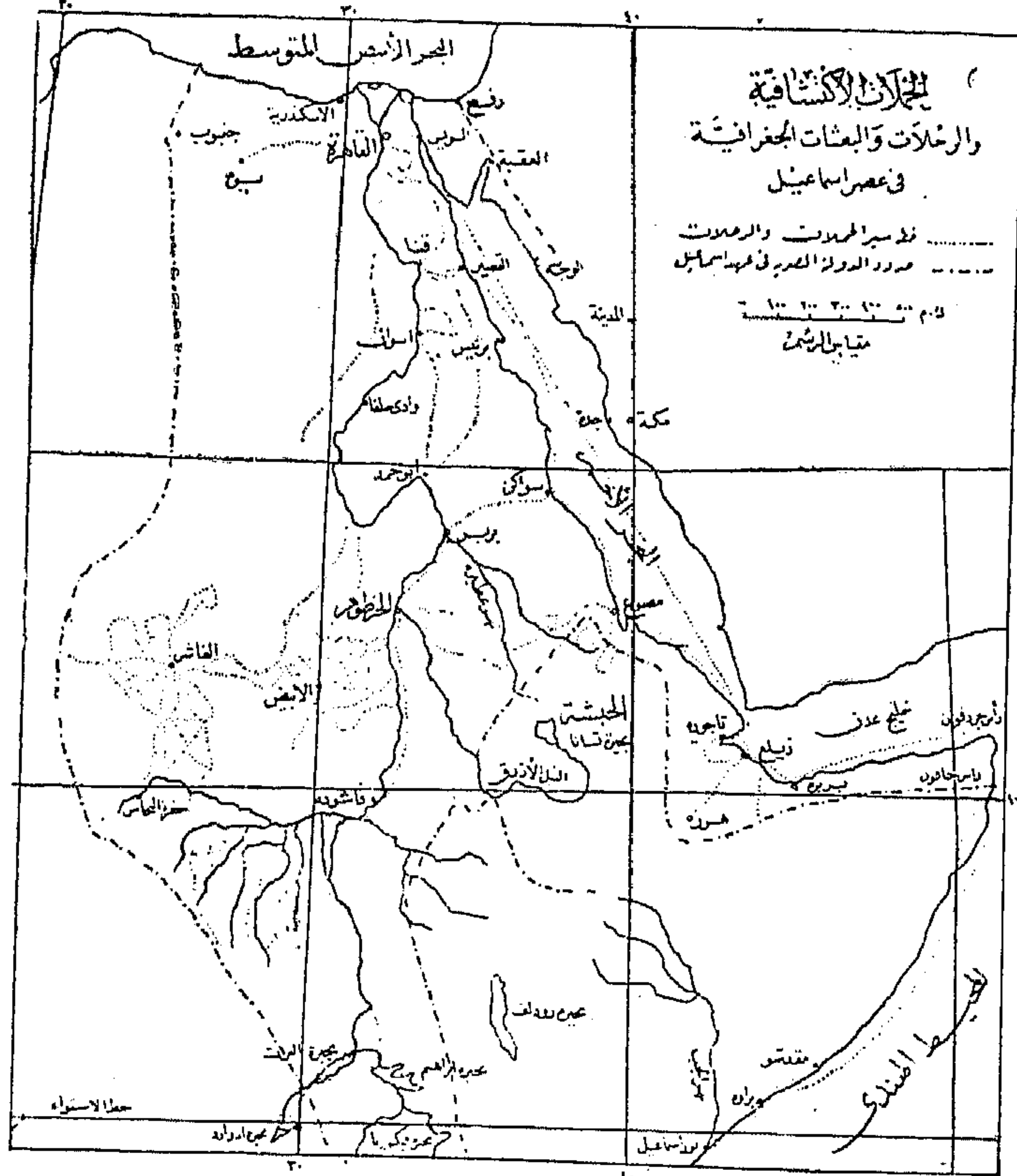
ورسم ارنست لينان دي بلفون (ابن لينان باشا) الطريق بين غوندوكرو وعاصمة أوغندا ، وقتل وهو عائد من مهمته . ومن بياناته وضع العلامة جورج شونفرت خريطته عن تلك الجهات .

أما الجهات الواقعة بين تاجورا وبحيرة أوسا بالحبشة فقد رسم خريطتها محمد أفندي عزت أحد ضباط حملة منزجر باشا .

ثم بلاد هرر فقد رسم محمد مختار باشا خريطة المدينة بينما رسم عبد الله باشا فوزي خريطة بلاد هرر . كما رسم ضباط أركان حرب نادى باشا الجهات الواقعة بين هرر وزيلع . وخريطة بربره وملحقاتها وضعها القائم مقام عبد الرزاق بك نظمي .

أما حملة السومال فقد كشفت في سنة ١٨٧٥ سواحل البنادر الواقعة على الأقيانوس ونهر الجوبا . وفي سنة ١٨٧٧ جاب المير الالاي ماسون بك بحيرة البرت وأتم الاكتشاف الذي بدأه فيها السير صمويل .

وحقق جيسى باشا مواقع بحر الغزال واكتشف أمين باشا مدير خط الاستواء نهر السملكي الواصل بين بحيرة إدوارد وبحيرة البرت .



الرحلات والاكتشافات الجغرافية

== وتوجد بين محفوظات الجمعية الجغرافية خريطة مفصلة لأفريقيا تعتبر أدق خريطة في نوعها عرفت إلى ذلك الحين . وقد اشترك في وضعها عدد من خيار الضباط المصريين . وهذه الخريطة قد وضعت بأمر اسماعيل باشا وطبعتها أخيراً مصلحة المساحة على نفقة جلالة مولانا الملك .

وقد يهكم أن تعرف مدى هذه الاكتشافات والجهات التي جابها ضباط أركان الحرب ورسموا مواقعها . فحسبنا أن نذكر لك ما ذكره الجنرال استون باشا رئيس أركان الحرب في الجيش المصري في عهد اسماعيل إذ قال : « إنها تبلغ في اتساع مداها مجموع مساحة فرنسا والمانيا والنمسا والمجر بحدودها القديمة . »

أليست هذه وحدها صحيفة من الصفحات الذهبية في عهد اسماعيل العظيم؟ كما أنها صحيفة خالدة في تاريخ الجيش المصري والضباط المصريين ومن الصحف التي يصح أن يفاخر بها المصريون إذ هي تكشف عن فترة ذهبية من تاريخهم القومي المجيد .



شاهين باشا
الذي تولى القيادة في حملة جزيرة كريت *

قوات الدفاع في عهد اسماعيل
الآن وقد فرغنا من التكلم عن السودان فلنعد إلى مصر لنترسم آثار اسماعيل في
مصالح الدولة وما أدخله من ضروب الإصلاح في المرافق العامة .
ونبدأ بقوات الدفاع فنقول كلمة إجمالية عنها مقتبسة من كتاب سر هنك باشا جزء ٢
ص ٣٠٧ وما بعدها

فقد كان الجيش موضع عناية اسماعيل في بداية حكمه . وقد زوده بمختلف الأسلحة
وأحضره البنادق الحديثة من فرنسا والتفت إلى القلاع - وبخاصة قلاع الاسكندرية -
فحصنها بالمدافع الضخمة التي جلبها من مصانع ارمسترنج بانجلترا . وزاد عدد الجيش =
* هذه الصورة مستعارة من سعادة احمد شفيق باشا .



اسماعيل باشا أيوب

حكمدار السودان الذي طلب غوردون باشا عزله *

== حتى بلغ ١٨٠٠٠٠ بدلا من ١٨٠٠٠٠ كما تقضى بذلك الفرمانات .
ولم يكتف بذلك بل أرسل إلى فرنسا باعتبارها أقوى الدول البرية قبل الحرب
السبعينية بعثة حربية قوامها خمسة عشر ضابطاً من صفوة ضباط الجيش . وقد ذكرهم
اسماعيل باشا سرهنك في كتابه ج ٢ ص ٣٠٧ وهم : شاهين باشا ، ابراهيم باشا السوارى ،
على بك رضا الطوبجى ، على بك وهبى ، يوسف بك صديق ، محمد بك رضا ، محمود بك سامى ،
اسماعيل بك أيوب ، عبد القادر بك حلمى ، مصطفى بك فهمى ، عثمان بك غالب ،
أحمد افندى حمدى ، حسن افندى مظهر ، محمد افندى .
ولما وصلت هذه البعثة إلى فرنسا كانت موضع عناية حكومتها وشرعت فى درس
النظم العسكرية الفرنسية والاستحكامات والمناورات العمومية ، وجمعت طائفة من
المؤلفات الحربية المشتملة على أساليب الجيش الفرنسى ونظاماته . وعادوا لتطبيقها
فى مصر على الجيش المصرى الذى اهتم اسماعيل بجعل نظامه على نظام الجيش الفرنسى
وفى سنة ١٨٦٤ استدعى اسماعيل بعثة حربية من فرنسا من كبار الضباط الفرنسيين ==
* هذه الصورة مستعارة من سعادة احمد شفيق باشا .



عبد القادر حلبي باشا
حكمدار السودان سابقا *

== وأسند إليها مهمة تنظيم المدارس الحربية المصرية . وكان على رأس هذه البعثة الكولونيل « مرشير بك » يعاونه ثلاثة ضباط آخرون هم « رباتيل » ، « لارمى باشا » ، « وبولار » وألحق بهم الضابط دو برناردى بك وكان في خدمة الحكومة المصرية من عهد سعيد باشا فتولى هؤلاء الضباط نظارة بعض المدارس الحربية وأخذوا في تنظيم شؤونها . وكانت أول خطوة خطاها اسماعيل في تنظيم تلك المدارس أن أمر بنقل المدرسة الحربية الموجودة بالقناطر الخيرية إلى قصر النيل ثم إلى العباسية وأنشأ بهذه الجهة عدة مدارس حربية أخرى بدل المدارس القديمة المنشأة في عهد محمد علي . وإنما أختار جهة العباسية لقربها من الصحراء وصلاحتها لتعليم التلاميذ ضرب النار وما إلى ذلك من التمرينات ==
* هذه الصورة مستعارة من سعادة احمد شفيق باشا .

المشاكسين ممن أخذوا على الأناسان عهداً بأن يطعمهم ويأويهم طيلة حياتهم .

== العسكرية هذا فضلا عن أن سراى عباس الأول كانت قريبة من تلك الجهة وهى تصلح مأوى للتلاميذ والمعاهد والشكنات .

وقد جعل هذه المدارس إدارة واحدة تدعى « إدارة المدارس الحربية » وإليك بيان المدارس الحربية التى أنشأها فى العباسية فى بداية عهده بحسب ترتيب تواريخها .

اسم المدرسة	تاريخ التأسيس	عدد التلاميذ
مدرسة البيادة	١٨٦٤	٤٩٠
« السوارى	١٨٦٥	١٦١
« الطوبجية	١٨٦٥	٢٨٠
« أركان الحرب بالعباسية	١٨٦٥	١٠٥
		كانت طلبة هاتين المدرستين ينتخبون من طلبة المهندسخانة ولذا تعدان من أرقى المدارس فى عهد اسماعيل
مدرسة الخطرية	١٨٧٤	استخدمت الحكومة عدداً من صف ضباط هاتين المدرستين فى الاكتشافات الجغرافية بالسودان
« صف الضباط	١٨٧٤	
« الطب البيطرى	١٨٦٨	
« قلفوات الشيش		
« الجبخانجية		

ونظرة واحدة يلقها الأناسان على صفحة ٣٠٩ من الجزء الثانى من كتاب سرهنك باشا يدرك المستوى العلمى الراقى الذى بلغته تلك المدارس التى أغلقت أبوابها مع الأسف فى أواخر عهد اسماعيل (فبراير سنة ١٨٧٩) بسبب ما طرأ على البلاد من الارتباك المالى والسياسى والأدارى . وقد حلت المدرسة الحربية المستجدة فى ابريل سنة ١٨٧٩ محل تلك المدارس وعين لارمى بك ناظراً لها وهى المدرسة الباقية إلى اليوم .

هيئة أركان حرب الجيش

لعلك تذكر الضباط الأمريكان الذين استخدمهم الخديو اسماعيل فى الجيش المصرى وقد تألفت من هؤلاء الضباط ومن بعض الضباط المصريين الذين عادوا من البعثة الحربية بفرنسا هيئة أركان حرب الجيش ووضع على رأسهم الكولونيل استون وهو ==

فالنخاسة كان مقدرًا لها أن تموت ميتة طبيعية بسبب تبدل الأحوال

من كبار الضباط الأمريكان وأكفأهم . وقد اختاره اسماعيل سنة ١٨٧٠ لهذه المهمة لما آنسه فيه من الكفاءة وأنعم عليه برتبة اللواء فصار يعرف بالجنرال استون باشا . وقد قام الجنرال استون بمهته خير قيام وأنشأ هيئة أركان حرب الجيش من بين لفيق من أكفأ الضباط وألحق بهم بعض الميكانيكيين الأخصائيين في علم طبقات الأرض . ثم أنشأ في الهيئة المذكورة قسما للجغرافيا جعل مهمته وضع الخرائط الطبوغرافية الدقيقة عن أنحاء مصر والسودان وهي الخرائط التي أتم تخطيطها ضباط أركان الحرب المصريون والأمريكان ممن قاموا بالرحلات الاستكشافية في السودان . وليس يفوتنا في هذا المقام أن نذكر بقية الأورطة السودانية التي عادت من حرب المكسيك في تلك الأيام والتحققت بالجيش المصري بعد أن احتفل اسماعيل بعودتها وأنعم على أعضائها بالدرجات العالية كما مر بك في تاريخ سعيد باشا . ولم يرض اسماعيل على هذه الهيئة بل أنشأ لها مطبعة خاصة لطبع رسومها وخرائطها وأنشأ إلى جانبها مكتبة نفيسة تحتوي على أهم الكتب في الفنون الحربية وألحق بها متحفا حريا للأسلحة والتحف والتذكارات الخاصة بالجيش . وقد تقدمت هذه الهيئة إلى أن أوقفها الارتباك المالي كما أوقف كل عامل من عوامل النهضة والتقدم مما كان أثره أن ترك استون باشا الجيش في سنة ١٨٨٢ حينما رأى السلطة الإنجليزية اعترمت وضع يدها عليه .

وأنشئت للجيش صحيفتان حريتان إحداهما تدعى « جريدة أركان حرب الجيش » المصرية وهي مجلة شهرية صدر العدد الأول منها في ١٠ يولية سنة ١٨٧٣ واستمرت تصدر بانتظام لغاية اكتوبر سنة ١٨٧٨ وكان يكتب فيها استون باشا ويصححها العلامة الشيخ حسن الطويل والثانية واسمها الجريدة العسكرية المصرية وكان يحررها هي والمجلة الأولى ضباط الجيش المصري .

تجديد السلاح والمصانع الحربية

لم يكتف اسماعيل بما ابتاعه من البنادق والمدافع من الخارج بل عني أيضا بشأن المصانع الحربية التي كانت في عهد محمد علي باشا فنظم معمل الحوض المرصود وصارت تصب فيه المدافع وتصنع فيه كافة معدات الجيش .

كما أنه شيد بطرقة معملا لصنع الأسلحة وآخر لصب المدافع وخرطها وآخر لصنع البنادق عدا معامل الخرطوش والقنابل . وأصلح مصانع البارود حتى طار ذكرها في الآفاق مما جعل سلطان مراکش يرسل البعثات إلى مصر لتعلم صناعة البارود والطباعة . كذلك



وزير الحربية والبحرية « الأمير » حسين كامل في شبابه

== أصلح معمل الأسلحة بالاسكندرية . وفي أثناء تولية « الأمير » حسين كامل وزارة الحربية والبحرية وضع لارمى بك تصميم إنشاء « البوليجون » وهو ميدان للتمرين على ضرب النار وكان فيه قسم لتمرين المدفعية على الرماية بالمدافع وآخر لتمرين المشاة على الرماية بالبنادق وقسم ثالث لصف الضباط ورابع لتعليم التلغرافات العسكرية وقسم للإشارة . وكان اسماعيل إلى أواسط سنة ١٨٧١ يتوخى تنظيم الجيش المصرى طبقاً لأساليب الجيش الفرنسى ولكنه اعتمزم استبداله بالنظام الألمانى بعد ما أحرزته المانيا من الفوز فى الحرب السبعينية وما ناله الجيش الألمانى من الانتصارات الباهرة . ولذا أمر بترجمة القوانين والنظامات الألمانية وتعديل الملابس وتغيير الأسلحة . ولكن الارتباك المالى حال فى هذه المرة أيضاً دون المضى فى إصلاح شؤون الجيش طبقاً للنظام الألمانى . ولم يكن الضيق المالى هوكل مافت فى عضد الجيش المصرى فى أواخر أيام اسماعيل بل كان هناك نقص آخر شعر به الجيش طيلة ذلك العهد . هذا النقص هو عدم وجود قائد عام للجيش على غرار ابراهيم باشا أو سليمان باشا الفرنساوى يبعث وجوده الحماسة فى نفوس الجنود ويدفعهم — كما حدث فى حروب الاستقلال المصرى — إلى أعمال البطولة والبرسالة

ولسنا فى حاجة إلى أن نخبرك أن حرمان الجيش من مثل هذا القائد العام كان من أكبر أسباب ضعفه كما حدث فى حرب الحبشة . فلقد كان المصريون والأجانب مطمئنين إلى ما قبل هذه الحرب إلى بطولة الجيش المصرى وقوته ظناً منهم أنه ما يزال محتفظاً بما ==

الأقتصادية وبفضل انتشار التعليم . بيد أن ما كان يقوم به مجبور الخير بين

== كان له من المسكاة في عهد محمد علي وعهد ابراهيم وخاصة بعد ما أبداه من البسالة في حرب كريت والبلقان مما سنذكره لك قريبا . ولكن حرب الحبشة كشفت عن مواطن ضعفه وأطمعت فيه الطامعين . وما زاد الطين بلة أن اشتداد الضيق المالى في عهد المراقبة الثنائية حمل وزارة نوبار باشا الأولى على تخفيض عدد الجيش توفيراً للنفقات فأحالت ٢٥٠٠ ضابط على الاستيداع وسرحت عددا كبيرا من الجند وخفضت المرتبات بصفة عامة فزاد ذلك في ضعف الجيش رويدا رويدا إلى أن فوجئت البلاد بالثورة العراقية ثم الاحتلال البريطاني في سنة ١٨٨٢ فدارت الدائرة على الجيش المصرى وهو الذى كتب في عهدى محمد علي و ابراهيم صفحات مجد خالدة في تاريخ حروب الاستقلال المصرى .

البحرية في عهد اسماعيل

لا نظننا في حاجة إلى الاعتذار للقارىء إذا خضنا في حديث مرافق الدولة في عهد اسماعيل بل نرى ذلك واجبا محتما على كل كاتب يعرض لتاريخ ذلك الخديو . هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى فان من يذهب إلى اتهام اسماعيل بالأسراف وحب البذخ يتعين عليه أن يذكر أيضا أن أموال الدولة لم تبدد في الكاليات - كما زعموا - بل في أخص شؤون الدولة وأهم مرافقها التى كانت مزدهرة في العهد الاسماعيلى كما نصوره أمامك . لقد كليناك عن السودان وما أنفقه اسماعيل فى سبيل تعميره ونشر رواق الحضارة والمدنية والأمن فى ربوعه بعد أن قطع دابر النخاسة أو كاد كما شهد بذلك كبار الإنجليز كغوردون وصمويل بيكر . ثم حدثناك عن الجيش وأسباب ضعفه وها نحن الآن نحدثك عن البحرية مقتبسين من كتاب صديقنا الأستاذ الرافعى بك .

ورب من يعترض على الأكتار من الاقتباس من الكتاب المذكور . ولكن جوابنا على ذلك سهل للغاية . فالأستاذ الرافعى بك لم يكتب كتابه لأطراء العهد الاسماعيلى أو التغنى به بل ليحمل عليه أشد حملة ويتهمه بما لم يتهمه به خصوم اسماعيل أنفسهم . وحسبك دليلا على هذا ما قاله عن حرب الحبشة واتهامه اسماعيل بأنه هو مشعل نارها - معتمدا فى ذلك على رواية سرهنك باشا - بينما قررت لجنة كيف الإنجليزية العكس . فكلام الأستاذ الرافعى بك إذن باعتباره ممن قسوا فى نقد اسماعيل أبلغ بمراحل فى الاعتراف بما أثر ذلك العهد من كلام مؤرخ عرف باطراء اسماعيل والتغنى بأعماله .

== ونرجع الآن إلى صلب الموضوع فنقول : عند ما تولى اسماعيل الحكم كانت ==

ظهر انينا من الحملات الصادقة ضد النخاسة وهى حملات وإن لم تعطل مصادر

البحرية كغيرها من مرافق الدولة فى حالة تأخر وضعف مما طرأ عليها من الاضمحلال فى عهد عباس واستمر فى عهد سعيد بسبب معارضة تركيا .

فما هو أن تولى اسماعيل حتى أخذ يعنى بتجديد الأسطول ونفخ من روحه فى دور الصناعة فجدد ترسانة الاسكندرية وجلب لها الصناع من المدينة ومن داخل البلاد واستحضر لها أحدث الأدوات وبالاختصار عاودها النشاط الذى كان لها فى عهد محمد على . فقد أنشئ فيها بين ما أنشئ البارجة « لطيف » و « الصاعقة » . هذا فى حين أن اسماعيل أوصى المصانع الأوروبية المختلفة بصنع عدة بوارج حربية مدرعة .

وأخذ فى تجديد المدرسة البحرية بالأسكندرية وأنشأ مدرسة أخرى جلب لها الأ كفاء من المدرسين من خارج البلاد وداخلها وتولى نظارتها ما كيلوب باشا (وقد مر بك اسمه فى محاربة النخاسة) .

وكانت مدة الدراسة فى هذه المدرسة ثلاث سنوات وكان مستوى التعليم فيها عالياً وقد أرسل الخديو بعثة من خريجيها إلى إنجلترا لإتمام العلوم البحرية كانشاء السفن والميكانيكا البحرية الخ . وكان ممن تخرج منها اسماعيل باشا سرهنك صاحب كتاب « حقائق الأخبار عن دول البحار » ناظر المدرسة الحربية المستجدة .

وما كاد أن يتم صنع المدرعات الثلاث التى أوصى بها اسماعيل فى فرنسا والمدرعتين الأخرين فى النمسا وأصبح استلامها وشيكا فى سنة ١٨٦٨ حتى رفعت تركيا - بايعاز السياسة الإنجليزية التى لم تكن مرتاحة لتقوية الأسطول المصرى - عقيرتها بالاحتجاج على عمل اسماعيل زاعمة أن الفرمانات لا تسمح لمصر بانشاء السفن الحربية . ثم حسم الخلاف بان ابتاعت تركيا هذه السفن .

وقد حدثناك فيما قلناه فى محاربة النخاسة عن بعض خدمات الأسطول المصرى برغم ما قام فى سبيل تعزيزه من الاعتراضات . وبين هذه الخدمات نقل الجنود إلى مختلف ثغور الأملاك المصرية فى البحر الأحمر وخليج عدن والأقياوس الهندى هذا عدا نقل الحملات المصرية لا إلى بلاد السومال فحسب بل وإلى جزيرة كريت والبلقان حيث اشتركت مصر فى الحرب التى كانت بين تركيا وبين تلك البلاد .

ومما يذكر بالفخر للأسطول المصرى فى ذلك العهد أن سفنه عبرت الأقياوس الهندى وطافت حول رأس الرجا الصالح والقارة الأفريقية قبل شق قناة السويس .

وليس يقوتنا أن نسجل عدد قطع الأسطول فى عهد اسماعيل كما أحصاها اسماعيل باشا سرهنك فى ص ٢٨٧ من الجزء الثانى من كتابه عجائب البحار . فقد قال

العرض ولا أصلحت من نفسية مراكز الطلب فلم تكن نتيجتها إلا ازدياد

== إنها ١٨ سفينة حربية عدا ثلاث لركوب الخديو وهاك أسماؤها وعدد مدافعها :

اسم البارجة	نوعها	محل إنشائها	نوع معدنها	عدد مدافعها
١ محمد علي	فرقاطة	أمريكا	حديد وخشب	٢٨
٢ شير جهاد	»	تريستا	خشب	٢٨
٣ لطيف	قرويت	الاسكندرية	خشب	٦
٤ الخرطوم	مدفعية	انجلترا	خشب	٥
٥ دنقلة	دارعة	»	مدرع	٨
٦ الصاعقة	قرويت	الاسكندرية	خشب	٨
٧ سنار	مدفعية	انجلترا	خشب	٧
٨ نمره ١	زرخ	فرنسا	مدرع	٢
٩ » ٢	»	»	»	٢

ثلاث بوارج حربية لنقل الخديوى

اسم البارجة	نوعها	محل إنشائها	نوع معدنها	عدد مدافعها
١٠ المحروسة	»	لندن	حديد	٨
١١ مصر	»	طولون (فرنسا)	»	٦
١٢ الغربية	»	»	»	٤

طرادات وسفن للنقل

اسم الباخرة	نوعها	محل إنشائها	نوع معدنها	عدد مدافعها
١٣ الطور	رفاس	انجلترا	حديد	٢
١٤ اسوان	دولاب	»	خشب	٤
١٥ شندى	»	»	»	٤
١٦ أسيوط	»	الاسكندرية	»	٢
١٧ الجعفرية	رفاس	انجلترا	حديد	٣
١٨ سمود	»	»	خشب	٢
١٩ نور الهدى	»	»	حديد	٢
٢٠ مخبر	»	»	»	٢
٢١ عجمى	»	»	»	٢

رذائل هذه التجارة الممقوتة لأنها دفعتها إلى مسالك خفية غير مستقيمة .
ومن الآن بدأت مصر تشترع للشرق السنة الحسنة ليسير عليها في
مطاردة هذه النخاسة التي نسلم بأنها كانت ألغيت في عهد سعيد بصفته بتجارة

الأسطول في عهد محمد علي

وقد يكون من المفيد أن نذكر إلى جانب هذا الإحصاء عدد قطع الأسطول كما
كانت في عهد محمد علي . وهالك بيانها نقلاً عما أورده اسماعيل باشا سرهنك في الجزء الثاني
من كتابه « حقائق الأخبار » في ص ٢٥٣ و ٢٥٤ و ٢٥٥
وقد ذكر سرهنك باشا في ص ٢٥٢ أنه عثر على أسماء هذه السفن في قائمة محررة
من المرحوم حسن باشا الاسكندراني — ناظر ترسانة الاسكندرية (توجد صورته
في ص ٩٩ من الكتاب الحاضر) عند ولده محسن باشا . وإتماماً للفائدة راح الباشا
يذكر أسماء تلك السفن ومقاساتها وأبعادها وعدد مدافعها وعدد بحارتها وأسماء قباطنها
الخ الخ مما نرى أن ثبتته هنا مع حذف الأبعاد والمقاييس وغيرها من التفاصيل :

اسم السفينة	محل انشائها	نوع السفينة	عدد المدافع	عدد رجالها	اسم القبطان في زمن أميرالته سعيد باشا
المحلة الكبرى	اسكندرية	قباقي	١٠٠	١٠٣٤	بوزجه أطه لى خليل بك
المنصورة	»	»	١٠٠	١٠٣٤	طاهر قبودان
الاسكندرية	»	»	١٠٠	١٠٣٤	جر كس محمود قبودان
أبو قير	»	»	٨٤	٧٣٦	حافظ خليل
مصر	»	»	١٠٦	١٠٩٧	شنان
عكا	»	»	١٠٦	١١٤٨	عثمان بك قاح
حص	»	»	١٠٠	١٠٣٤	عنان بك بوتى
بيلان	»	»	٨٦	٩٠٠	حسين شرين بك
حلب	»	»	١٠٠	١٠٣٤	ازميرلى محمد قبودان
الفيوم	»	»	١٠٠	١٠٣٤	عبد اللطيف بك
نى سويف	»	»	١٠٢	١٠٣٤	الأمير محمد سعيد باشا
دمشق	»	»	٠٠٠	٠٠٠٠	حرقت قبل انمامها

وإليك الفرقاطات والقراويت وقد أضيف إليها بعض السفن التي أشار إليها كلوت
بك وغيره ولم يذكره سرهنك باشا :

غير مشروعة . ولكن اسماعيل عقد عدة اتفاقيات دولية للقضاء عليها قضاء

اسم السفينة	محل انشائها	نوع السفينة	عدد المدافع	عدد رجالها	اسم القبطان في زمن سعيد باشا
منوف	اسكندرية	فرقاطة	٦٤	٥٥٨	عثمان بوتي قبودان
دهياط	»	»	٥٦	٤٧٠	محمد هدايت قبودان
رشيد	تريستا	»	٦٠	٥١٠	السيد علي
الجعفرية	ليفورن	»	٦٠	٥١٠	برغمه لي أحمد
سير جهاد	»	»	٦٠	٥١٠	نوري بك
البحيرة	تريستا	»	٦٠	٥١٠	كلورخورشيد
طنطا	اسكندرية	قرويت	٢٨	١٨٦	ولي خسرو
دمهور	»	»	٢٦	١٨٦	مرجان
واسطة جهاد	جزائر الغرب	»	٢٨	١٨٦	ولي محمد خورشيد
جناح بحري	جنوه	»	٢٤	١٨٥	زينل قبودان (كانت معدة لتعليم التلاميذ)
بلنك جهاد	مرسيليا	»	٢٤	١٨٥	غير معروف
رهير جهاد	»	»	٣٠	٢٠٠	علي رشيد قبودان
بومبة	تريستا	»	٤٥	٣٠٠	بيجان
جهاد بيكر	جنوه	»	٢٤	١٨٥	حسن أباطه
فوه	اسكندرية	»	٢٤	١٨٥	مرجان
شاهد جهاد	»	»	٢٤	١٨١	ابراهيم
سمند جهاد	مرسيليا	ابريق	١٨	٨٩	احمد شاهين
يادى جهاد	امريكا	»	٢٤	٨٩	غير معروف
ابريق رقم ٢	غير معروف	»	١٨	٨٩	الياس
شهباز جهاد	مرسيليا	»	١٨	٨٨	حسن الأرثود
صاعقة	ليفورن	غولت	٢٤	٨٨	طاهر
تمساح	مرسيليا	»	١٦	٨٨	غير معروف
غولت جديد	اسكندرية	كوثر رقم ٢	١٢	٥٢	سرهنك
النيل	انجلترا	فرقاطة بخارية	٦	٥٢	غير معروف
المجموع	٣٦ سفينة		١٨٥٧	١٦٨٠١	

ونضيف إلى هذه القطع السفن الآتية التي لم يدكرها إحصاء سرهنك وهي : كفر الشيخ وشاهين دريا وأمريكا وقد أسرت قبل وضع هذا الإحصاء .



النجاشي تيودرس الثاني امبراطور الحبشة
وسط ضواريه الاليفة (راجع ص ٣٤٩)
وهي مأخوذة من نداء مقدم للشعب الانجليزي بقلم المسيو جان كوتسيكا
خاص « بمسألة الحبشة »

== واستطرد سرهنك باشا فقال ما نصه :
« وتتبع هذه السفن ثلاث بواخر أخرى وهي واور برواز بحري وواور أسيوط
وواور جيلان وواور الشرقية (وسمى فيما بعد بفرقتين مخبر سرور) وواور
رشيد (وهو قرويت) وسفائن التجارة الأميرية وهي سفن للنقل وغيرها « الخ الخ .
فليقارن من شاء بين هذا الأسطول الضخم والأسطول المصري في عهد اسماعيل باشا
وبين ما وصلت إليه حالة البحرية المصرية بعد الاحتلال البريطاني .
الأسطول التجاري

ولم يفت في عهد اسماعيل مالا فاه من المصاعب في سبيل إنشاء الأسطول الحربي
بل وجه عنايته إلى إنشاء أسطول تجاري . فألغى الشركة المجيدية المنشأة في عهد سعيد
وأنشأ الشركة العزيزية نسبة إلى السلطان عبد العزيز حيث كانت بواخرها تنقل
المسافرين والمتاجر لثغور البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر . وقد وزع رأس ==



السردار راتب باشا
قائد الحملة المصرية في حرب الحبشة
(راجع ص ٣٥١)

= مال الشركة الجديدة على عدة أسهم لتمكين الأفراد من الاشتراك فيها .
وقد أقبل سراة المصريين على الاشتراك في رأس المال وخصص الخديو للشركة سبع
بواخر كانت موجودة من قبل وأوصى بإنشاء بواخر جديدة في إنجلترا واختار لقيادة
هذه السفن أكفأ الضباط المصريين الذين تركوا خدمة الأسطول منذ اضمحلاله . ثم
ابتاعت وزارة البحرية عدداً من السفن الشراعية الكبيرة لنقل ما يلزم لوزارتى البحرية
والحرية من الأخشاب من الأناضول .

وبنشاط هذه الشركة نشطت حركة التجارة الخارجية لمصر . وإليها يرجع الفضل في
تسهيل مواصلاتها مع الأقطار الأخرى . وكان طبعياً أن تزاحم الشركة شركات
الملاحة الأجنبية وأن تتضاعف أرباحها إلى أن ابتاع الخديو أسهمها وحوّلها إلى إدارة =

• هذه الصورة مستعارة من حضرة محمد بك طلعت الفرنسي .

مبرماً (كالاتفاقيين اللذين عقدهما مع بريطانيا العظمى في ٤ اغسطس

== حكومية وسماها « مصلحة وابورات البوستة الخديوية » فازداد نجاحها واتسع نطاق أعمالها وصار لها ٢٦ باخرة تخترق البحار رافعة العلم المصرى وتنقل المتاجر والبريد والمسافرين بين ثغور البحر الابيض المتوسط وسوريا وبلاد الأناضول والبلقان وثغور البحر الأحمر إلى خليج عدن وزيلع وبربره .

وهذه أسماء السفن مأخوذة عن كتاب احصاء مصر سنة ١٨٧٣ وهى : التاكا . الفيوم . البحيرة . الشرقية . الدقهلية . طنطا . شندى . شبين . دسوق . كوفيت . سمبود . المنيا . الجعفرية . مسير . المنصورة . المحلة . النجيلة . دهنور . الزقازيق . الحجاز . الحديدية . ينبع . القصير . سواكن مصوع .

وألحق بهذه المصلحة الحوض العائم المنشأ بميناء الاسكندرية وخصص لبواخرها (فابريقة) فى ترسانة الاسكندرية لترميم السفن واصلاحها .

وظلت هذه الإدارة وملحقاتها ملكاً للحكومة إلى أن ابتاعتها شركة انجليزية فى بداية الاحتلال البريطانى . وهكذا لم تخسر مصر فقط ثروة قومية ضخمة انتقلت إلى أيدي أجنبية بل خسرت أيضاً علمها الذى كان يخترق البحار ويذكر الأمم المختلفة بالأمة المجيدة الساكنة على ضفاف النيل .

إتمام ميناء السويس

تذكر أن سعيد باشا شرع فى سنة ١٨٥٦ فى إنشاء ميناء جديد فى السويس لسهولة أيواء السفن . وشرع فى اقامة حوض لعمارة السفن وترميمها وظل العمل سائراً فى إتمام هذه المشروعات إلى أن كملت فى عهد اسماعيل وبلغت نفقاتها ٢٤٠٠٠٠ جنيه . وللأسف تنازلت عنها الحكومة المصرية فى عهد الاحتلال للشركة الانجليزية التى ابتاعت وابورات البوستة الخديوية .

إصلاح ميناء الاسكندرية

بعد أن أنشئت بور سعيد وقارب مشروع قناة السويس التمام وجه اسماعيل اهتمامه إلى ميناء الاسكندرية فعمل على اصلاحها بعد اتساع حركة العمران وازدياد المواصلات البحرية فيها .

فكانت باكورة أعمال الإصلاح أنه ابتاع من فرنسا فى سنة ١٨٦٨ حوضاً عائماً ==

و ٧ سبتمبر سنة ١٨٧٧ وما أصدره من الأوامر العالية بتاريخ ٤ اغسطس

= من الحديد لترميم السفن بدلا من الحوض الحجري الذي بناه محمد علي والذي أصبح لا يفي باصلاح السفن الكبرى .

واهتم بعد ذلك بإنشاء حاجز الأمواج الحجري لوقاية السفن من طغيان المياه وجعلها في أمن من العواصف . كذلك أنشأ بداخل الميناء رصيفاً للشحن والتفريغ وعدة أرصفة أخرى ممتدة داخل الميناء . وقد نالت شركة انجليزية تسمى شركة جرنفلد امتياز أعمال الإصلاح التي بلغت نفقاتها ٣٠٠٠٠٠ ر. جنيه واستغرقت من الوقت من سنة ١٨٧١ لغاية سنة ١٨٧٩

الفنارات

واهتم بإنشاء الفنارات لأرشاد السفن فبلغ عددها في ثغور البحر الأبيض ثمانية وفي ثغور البحر الأحمر خمسة عدا ما أنشأه في خليج عدن .

حروب مصر

كما تكلمنا عن حروب مصر من عهد محمد علي وابنه ابراهيم إلى عهد سعيد لا نرى بدأ من التكلم عن حروبها في عهد اسماعيل ملخصا عما كتبه سرهنك باشا . وهي تنقسم إلى قسمين حروب خارجية اشتركت فيها تلبية لدعوة تركيا ولم تفد منها شيئا اللهم إلا اتخاذ اسماعيل إياها وسيلة لنيل امتيازات جديدة تدنى البلاد من الاستقلال التام . هذا فضلا عن أنها كانت بمثابة ميادين لمران الجنود المصريين وضباطهم على ممارسة القتال والأفادة من تجاريه .

أما القسم الثاني أو الحروب الداخلية فتشمل حروب السودان بما فيها حرب الحبشة وقد أفادت مصر أكبر فائدة من هذا القسم من الحروب إذ بواسطتها وصلت أملاكها إلى حدودها الطبيعية هذا عدا القضاء على النخاسة .

إخماد ثورة العسير

وقد تكلمنا عن الحروب الداخلية فلا حاجة للعودة إليها . أما الحروب الخارجية فأولها الحرب التي خاضها اسماعيل لإخماد ثورة العسير .

فإن تركيا كما سبق أن استنجدت بمحمد علي الكبير لصد الخطر الوهابي قد لجأت إلى حفيده اسماعيل لإخماد الثورة التي رفع عليها الأمير محمد بن عائض أمير العسير وصحت نيته على احتلال تهامة اليمن .



جلالة السلطان عبد العزيز *

== وقد سبق الكلام عما كان بين السلطان عبد العزيز واسماعيل باشا من أواصر الصلة . فما كاد السلطان أن يلجأ إلى مساعدته حتى لبى الطلب وأنفذ إلى العسير ثلاث أورط من المشاة مزودة بالمدافع وكتائب الفرسان بقيادة الميرالاي اسماعيل صادق بك . فما أن وصلت الجنود المصرية إلى جده حتى اتفق قائدها ووالي المدينة على إرسال الحملة المصرية بصحبة الجنود العثمانية لمهاجمة الثوار من جهة « قنفذة » وبدا قسم ظهر الثورة وبادر ابن عائض إلى تقديم الطاعة . ثم توسط اسماعيل في العفو عنه لدى السلطان فعفا عنه وأقره في إمارته وعادت الحملة المصرية وعلى رأسها أكاليل الغار وأرسل السلطان إلى الخديو كتاب شكر وثناء على الجنود المصرية .

حرب كريت

لما كان البلقان أبدا منشأ الفتن والقلاقل فان أمير الجبل الأسود دفع ولاية ==

* هذه الصورة مستعارة من سعادة أحمد شفيق باشا .



محمود باشا سامى البارودى

== الهرسك إلى الفتنة في سنة ١٨٦١ مما دعا تركيا إلى تجريد جيوشها لكبح الثائرين .
فلما أن تولى اسماعيل الأريكة في سنة ١٨٦٣ كانت تركيا ما تزال منشغلة في
إنقاذ تلك الثورة فلجأت إلى الخديو لأمدادها ببعض فرق الجيش لتعسكر في الروملى
حتى لا يتفاقم أمر الثورة . فلبى اسماعيل الطلب وأنفذ فرقة بقيادة اللواء على غالب باشا
فاستعرضها السلطان في الأستانة وسارت إلى سلانيك فمناستير حيث عسكرت هناك .
ولما كانت الثورات في بلاد الدولة العلية يأخذ بعضها بخناق البعض الآخر في
ذلك العهد فان ثورة عامة نشبت في جزيرة سريت في ١٨٦٦ وأخفقت تركيا في كبحها
فالتجأت من جديد إلى مصر .

فلم يتردد اسماعيل في إنفاذ جيش مؤلف من ٥٠٠٠ مقاتل بقيادة اللواء شاهين باشا
(انظر صورته في ص ٣٧٤) ومعه اللواء اسماعيل صادق باشا وتولت عمارة من
الأسطول المصرى تبلغ العشر سفن بقيادة الأميرال قاسم باشا نقل هذه الحملة إلى الجزيرة
الثائرة . كما تولت نقل الجنود المعسكرة في مناستير إلى مكان الثورة .

وكان بين ضباط حملة شاهين راشد بك حسنى الذى ساهم بنصيب وافر في الثورة
العرايية ، والشاعر المطبوع محمود باشا سامى البارودى بطل الحوادث العرايية فيما بعد . وفي
حرب كريت هذه كانت نشأة البارودى الحربية وفيها قال قصيدته المشهورة التى مطلعها
أخذ الكرى بمعاقد الأجفان وهفا السرى بأعنة الفرسان

ولما نزلت حملة شاهين باشا إلى الجزيرة اشتبكت بالثوار في معركة « أبوقرون » =



الزنوج يهاجمون التماسيح في منطقة السودان أثناء حملة السير صمويل بيكر *

== حيث جرح اسماعيل صادق باشا ونقل إلى مصر وتقرر في الوقت نفسه استدعاء شاهين باشا وتعيين الفريق اسماعيل سليم باشا وزير الحرية محله . ولهذا الاستدعاء حكاية طريفة ذكرها محمود باشا فهمي في الجزء الأول من كتابه البحر الزاخر ص ١٩٩ وملخصها أن الخديو - تنفيذاً لسياسة تقديم المعونة لتركيا كوسيلة للحصول على فرمانات جديدة بامتيازات جديدة لتحقيق الاستقلال المصري اسما وفعلا - طلب في أثناء هذه الحملة إلى السلطان أن يخوله حق تعيين سفراء لمصر لدى الدول الأجنبية . ولكن الباب العالي أحس بأن غاية اسماعيل هي تعجيل انفصال مصر عن تركيا فرفض طلبه . فغضب الخديو وهدد بسحب الجيش المصري من كريت أو أن يستحوذ عليها إن لم تجب طلبه .

وزاد اسماعيل باشا سرهنك في الجزء الثاني من كتابه حقائق الأخبار ص ٣٤١ على هذه الرواية - وكان هو ومحمود باشا فهمي معاصرين لهذه الحوادث - أن الخديو أوعز سرا إلى شاهين باشا القائد العام للجيش المصري في الجزيرة بالعمل على ترغيب سكان الجزيرة في الانسلاخ عن تركيا والانضمام إلى مصر . فشرع القائد يتردد على رجال ==

* هذه الصور وما يتلوها من الصور الخاصة بما صادف حملة السير صمويل بيكر من المفاجآت في السودان ومنابع النيل مأخوذة عن كتاب « اسماعيلية » للسير صمويل بيكر.



عبد الله باشا فكري

= الأكليروس في المعابد ويفرق عليهم المال والهدايا إلى أن علمت الحكومة التركية بذلك فطلبت إلى الخديو عزل شاهين باشا من القيادة ففعل وأرسل بدله اسماعيل سليم باشا . وعلى كل فان الجيش المصري بعد وصول قائده الجديد سليم باشا اشتبك مع الثائرين في موقعة « أرقاذي » وهي من المعارك المشهورة فأنزل بهم الخسائر الفادحة بعد أن أبلى أحسن بلاء مما دعا الخديو إلى أن يرسل له كتاباً بليغاً من انشاء عبد الله باشا فكري يثنى فيه على همة الجيش ويسجل له ما أبداه من ضروب الشجاعة والكفاءة . وأنعم الخديو على راشد بك حسنى برتبة اللواء كتقدير خاص لشجاعته . وبعد سجال قصير أخذ الجيش المصري الثورة نهائياً وقصم ظهرها ثم عاد إلى مصر فاستقبل استقبال الفاتحين وأقام الخديو الولائم لأفراده تكريماً لهم واعترافاً بخدماتهم في ساحات القتال .

حرب البلقان (١٨٧٦ - ١٨٧٧)

تعلم أن وصية بطرس الأكبر كانت تقضى بتمزيق أوصال تركيا ليسهل على روسيا امتلاك الأستانة والاستيلاء على بوغازي البوسفور والدردينيل لذلك جعلت محور سياستها في البلقان تحريض إماراته على إشعال نار الفتن والثورات فاذا ما انشغل بال تركيا باخمادها ووزعت قواتها للضرب على أيدي الثائرين سهل على الجيش الروسي الانقضاض بكليته على بقية الجيش التركي وتحقيق مآربه .

ففي سنة ١٨٧٥ أشعلت نار الفتنة في شبه جزيرة البلقان وما لبثت أن امتدت إلى =



اللواء راشد باشا حسني *

== الهرسك ومنها إلى البوسنة فانبرت الصرب لشد عضد الثائرين .
إذ ذاك يمتت تركيا وجهها شطر مصر فأمدتها اسماعيل بجيش قوامه ٧٠٠٠ مقاتل
بقيادة الفريق راشد باشا حسني ومن ضباطها محمود بك فهمي صاحب كتاب البحر الزاخر .
فسارت الحملة إلى الأستانة ومنها إلى حدود الصرب حيث انضمت إلى الجيش
العثماني في الحرب التي دارت دائرتها على الصربيين . وأبلى فيها المصريون أحسن بلاء .
عما حمل الخديو على الأنعام بالرتب السامية على فريق من الضباط والقواد .
وفي خلال هذه الحرب قتل السلطان عبد العزيز وخلع السلطان مراد وصعد الأريكة
العثمانية السلطان عبد الحميد الثاني ٣١ أغسطس سنة ١٨٧٦
ومن ثم عادت الجنود المصرية إلى الأستانة بعد وقف القتال بين تركيا والصرب .
ولكن توقف هذه الحرب كان وقتيا ريثما تم روسيا استعداداتها . ففي ابريل سنة
١٨٧٧ تجدد النزاع بين تركيا وروسيا ونشبت بينهما الحرب البلقانية فالتجأت تركيا ==

* هذه الصورة مستعارة من سعادة أحمد شفيق باشا



الأمير حسن باشا

== إلى الخديو ولكنه اضطر اضطراراً إلى تخييب رجائها هذه المرة بسبب ارتباك الأحوال المالية في مصر وعجز الخزانة عن الأتفاق على تلك الحملة . ولكن السلطان عبد الحميد أعاد الكرة ولم يقبل العذر .

وكان اسماعيل صادقاً في اعتذاره لأن أصحاب القرايطيس ومن ورائهم الدول تشد أزهم كانوا قد أخذوا يضيقون الخناق على الحكومة المصرية ويتبارون جميعاً في إرهاب مصر حكومة وشعباً . إذ ذاك رأى الخديو أن من حسن السياسة عدم مغاضبة تركيا ومجاافتها في هذه الظروف العصيبة فصمم على إجابة طلبها .

ونظراً لأن خزانة مصر كانت وقتئذ خاوية على عروشها عقد اسماعيل مجلس شورى النواب واستشاره في فرض ضريبة جديدة تدعى « ضريبة الحرب » قدرها ١٠٪ من مجموع الضرائب لسد نفقات الحملة . فوافق المجلس وأعد الخديو جيشاً ==

هذه الصورة مستعارة من سعادة أحمد شفيق باشا



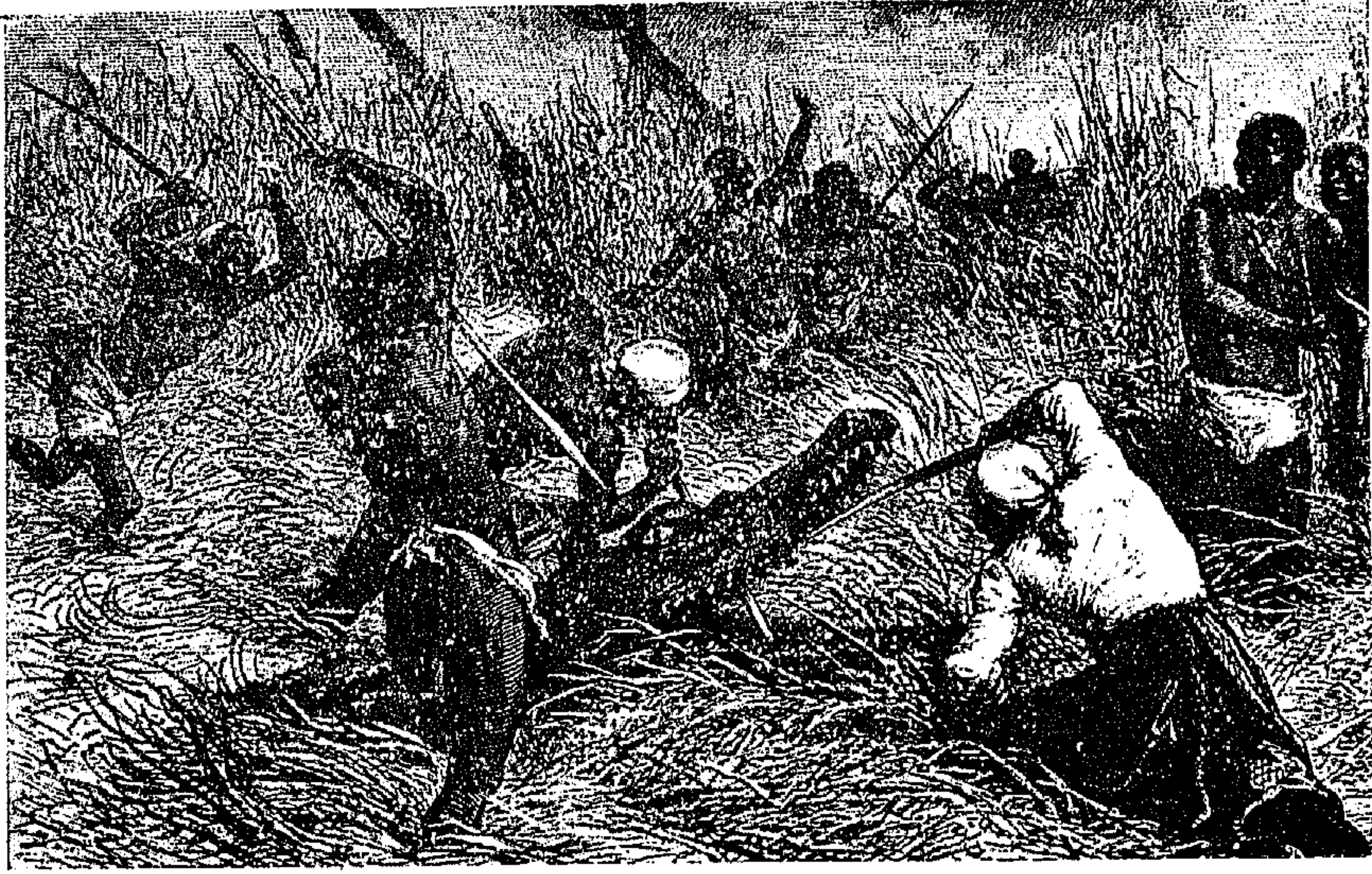
محمود باشا حمدى الفلكى

== قوامه ١٢٠٠٠ مقاتل بقيادة نجله الثالث الأمير حسن باشا .
ولما أكملت الحملة معداتها أقلت بهم السفن المصرية إلى الاستانة ومنها إلى «وارنه»
أحد ثغور البحر الأسود . وقد أبلى المصريون — كعادتهم — أحسن بلاء في هذه
الحرب وظلوا مشتركين فيها إلى أن وضعت أوزارها في مارس سنة ١٨٧٨ ثم عادوا
إلى مصر .

التعاليم والنهضة العلمية والأدبية

وننتقل الآن إلى ما يصح أن يعتبر أكبر ما امتاز به عهد اسماعيل باشا ألا هو
التعليم وما لحق به من النهضة العلمية والأدبية ملخصاً عن كتاب الأستاذ الراحل بك .
فلقد كان اسماعيل « كالدینامو » الذى لا يفتأ يأتى من الأعمال النافعة ما تنوء به كواهل
الجبايرة . ولسنا ندرى ماذا كان يكون شأن مصر من هذه الناحية لو أفسح الله فى عهد
ذلك الخديو العظيم أو لو لم يتألب عليه أصحاب القراطيس كما فعلوا . ونظرة واحدة
تلقينا على هذه المدارس تكفى لأقناعك بما كان يمتاز به عصره الزاهر .

☞ هذه الصورة مستعارة من سعادة احمد شفيق باشا .



حملة السير صمويل بيكر تفاجأ بالتماسيح في مناطق أعالي النيل

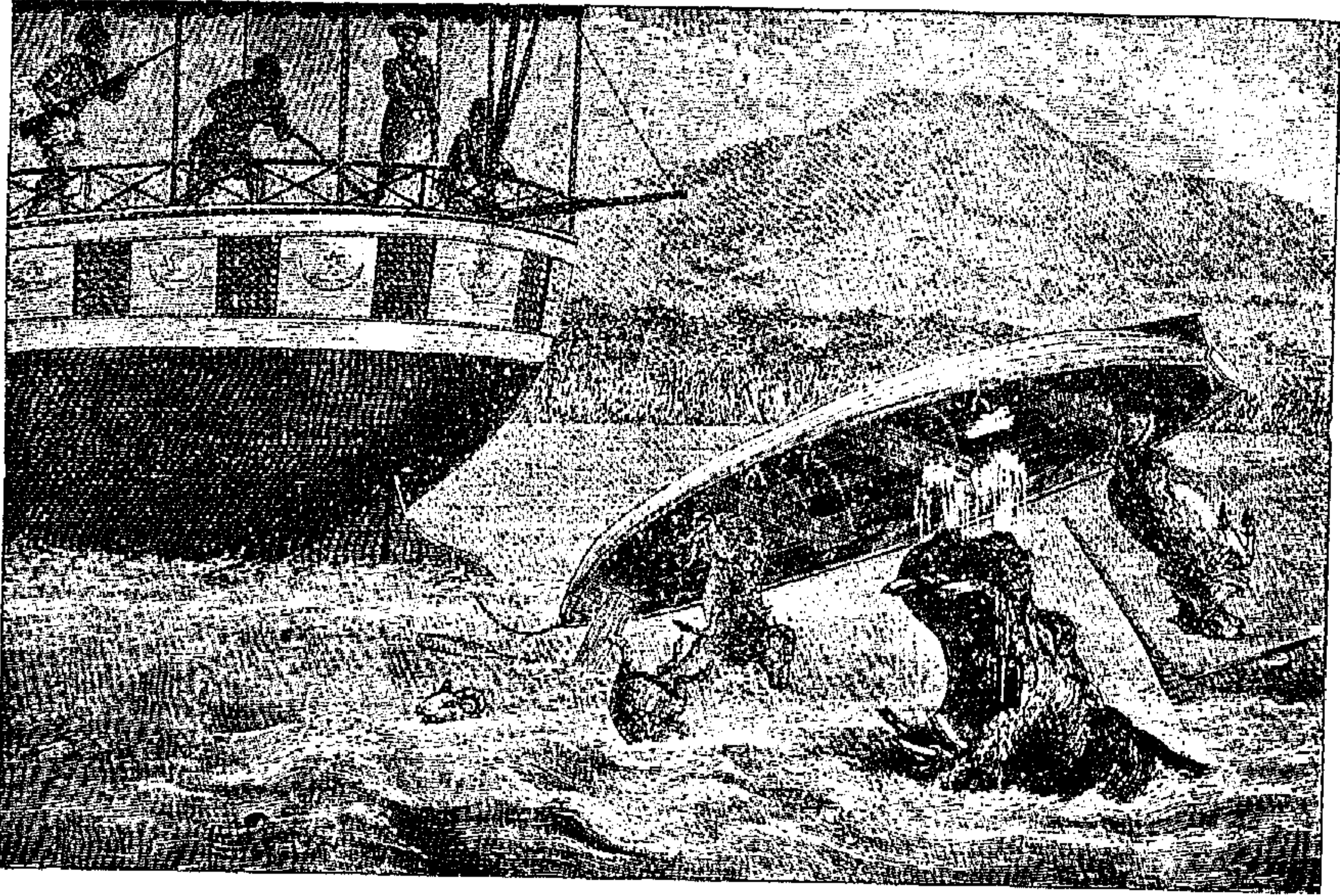
المدارس العالية

المهندسخانة

فلقد حدثناك عن المدارس الحربية ونحدثك الآن عن المدارس العالية التي ازدان بها عصره فمدرسة المهندسخانة (أو الرى والعمارة سابقا) أنشئت بسرأى الزعفران فى سنة ١٨٦٦ ثم نقلت إلى سرأى درب الجماميز ثم إلى الجيزة وكان أول ناظر لها اسماعيل باشا الفلكى ثم خلفه محمود باشا حمدى الفلكى

الحقوق

أنشئت فى سنة ١٨٦٨ وتعتبر من أعظم المعاهد العلية التي أسست فى عهد اسماعيل وكانت تسمى فى بدايتها مدرسة الإدارة والألسن وحلت محل مدرسة الألسن التي أغلقت فى عهد عباس . ولكنها أصبحت منذ سنة ١٨٨٦ تسمى مدرسة الحقوق وكان أول ناظر لها المسيو فيدال باشا أحد كبار علماء فرنسا وقد ظل فى منصبه ٢٤ سنة أى لغاية ١٨٩١ وتخرج على يديه أقطاب القانون فى مصر ونوابغه فى عهد اسماعيل وما يليه من العصور . ولهذا المدرسة أكبر فضل على نهضة القانون والتشريع والقضاء وبالجملة على النهضة الأدبية والسياسية فى البلاد .



بضربة من أسفل قلب فرس البحر القارب المرافق للذهبية وأغرق
مافيه من الضأن أثناء سفر حملة السير صمويل بيكر إلى أعالي النيل

مدرسة دار العلوم

وأعقب ذلك إنشاء مدرسة دار العلوم في سنة ١٨٧٢ لتخريج أساتذة اللغة العربية
للدارس الابتدائية والثانوية . وقد اختير طلابها من بين نجباء تلاميذ الأزهر .

مدرسة الطب والولادة

وكانت موجودة من قبل ولكنها بلغت درجة سامية في عهد اسماعيل واتسع
نطاقها وتخرج منها رهط من أعلام الطب في مصر .

مدارس البنات

ذكرنا لك اهتمام اسماعيل بتعليم البنات وهو ما يشهد له بالفضل في نهضة الأمة
وكيف انه كان أول حاكم شرقي رفع مستوى المرأة من ناحية التعليم بعد أن كان السواد
الأعظم منهن لا يعرفن عن التعليم إلا ما يتذوقه القادرات منهن على أيدي معلمين
في بيوت آبائهن .

وكانت أول مدرسة أنشئت لتعليم البنات مدرسة السيوفية في سنة ١٨٧٣ وقد
أنشأتها قرينة الخديو جشم آفت هانم وكانت تضم في أول افتتاحها نحو ٢٠٠ تلميذة ثم
بلغ عددهن ٤٠٠ في سنة ١٨٧٤ وكلهن يتعلمن مجانا فضلا عن الأنفاق على ما كلهن وملبسهن .
وكانت مواد التعليم القراءة والكتابة وحفظ القرآن والحساب والجغرافيا والتاريخ
والتطريز والنسيج على ما جاء في عدد الوقائع المصرية رقم ٥٧٦

سنة ١٨٧٧ وأول يناير سنة ١٨٧٨) ولم يكن من هيئات الأمور على حاكم

المدارس الصناعية

واهتم اسماعيل بالمدارس الصناعية فأسس في سنة ١٨٦٨ مدرسة الفنون والصنائع وكانت تعرف بمدرسة العمليات . وقد تخرج منها مهندسو الوابورات البرية والبحرية والموظفون الميكانيكيون في مصلحة السكة الحديدية وكذا مهندسو صنع عربات السكك الحديدية والبواخر والآلات البخارية . وكان برنامجها يشمل العلوم الصناعية والهندسة والتجربات العملية .

وأسست مدرسة التلغراف سنة ١٨٦٨ وألغيت سنة ١٨٦٩ ثم ألحقت بمدرسة الفنون والصنائع .

كذلك أسست فرقة نقاشين سنة ١٨٦٩ وفرقة عمليات المرور سنة ١٨٧٠ ثم ألغيت فيما بعد .

المدارس الخصوصية

ومن المدارس الخصوصية التي أسست في عصر ذلك الخديو العظيم

مدرسة المساحة والمحاسبة

أسست في سنة ١٨٦٨ ثم مدرسة الهير وغيليفيا في سنة ١٨٦٩ ولكن ألغيت هذه الأخيرة سنة ١٨٧٦ ومن تخرج منها العلامة الأثرى احمد كمال باشا . ثم فرقة الرسم بالمدارس الملكية أسست سنة ١٨٦٩ وألغيت سنة ١٨٧٩ ومدرسة الزراعة أسست سنة ١٨٦٧ وألغيت سنة ١٨٧٥ ومدرسة العميان والحرس للبنين والبنات أسست سنة ١٨٧٥

المدارس الثانوية

وعدها اثنتان المدرسة التجهيزية بالعباسية أسست سنة ١٨٦٣ ونقلت سنة ١٨٦٨ إلى درب الجماميز وسميت بالخدوية ثم مدرسة رأس التين وقد أسست سنة ١٨٦٣

المدارس الابتدائية

أما المدارس الابتدائية التي ألغى معظمها في أوائل محمد علي ولم يحدد بدلها عباس ولا سعيد فقد لقيت أكبر عناية من جانب اسماعيل حيث عمل على الأكثر منها في العاصمة والأقاليم .

ولعل الفضل في ذلك راجع إلى شريف باشا ثم إلى علي باشا مبارك وقد فكر هذا الأخير في تحويل التعليم في الكتاتيب إلى التعليم الابتدائي النظامي وكان عدد الكتاتيب يبلغ وقتئذ ٥٠٠٠ كتاب .

أو تقرأ على مسلم أن يقدم على إصدار أمر عال بتجريم ما كان يعتبر حتى

واليك بيان ما أنشأه اسماعيل من المدارس الابتدائية :

تاريخ الانشاء	المدرسة
أنشئت سنة ١٨٦٣	مدرسة المبتديان بالعباسية وقد نقلت إلى الناصرية فيما بعد
١٨٦٣ » »	رأس التين »
١٨٦٨ » »	طنطا (بنها) »
١٨٦٨ » »	أسيوط »
١٨٦٢ » »	بنى سويف »
١٨٧٣ » »	المنيا »
١٨٧٢ » »	القريبة »
١٨٧٣ » »	الجمالية »
١٨٧٩ » »	الحسينية »
١٨٧٤ » »	باب الشعرية »
١٨٧٩ » »	عابدين »
١٨٧٩ » »	مصر القديمة »
١٨٧٢ » »	أبو العلابيولاق تسمى الآن (عباس) »
١٨٧٢ » »	السيدة زينب تسمى الآن (محمد علي) »
١٨٧٣ » »	مدرسة شيخون »
١٨٧٢ » »	العقادين »
١٨٧٢ » »	النحاسين »
١٨٧٩ » »	الأمم الشافعي »
١٨٧٢ » »	الجبانية »
١٨٧٦ » »	رشيد »
١٨٧٩ » »	الفشن »

ويضاف إلى هذه المدارس مدرسة الصليبية وكانت مكتبا أنشأته والده عباس الأول وضم إلى المدارس الابتدائية سنة ١٨٧٢ وقلاوون والشيخ صالح للبنين ومدرسة محمد بك سيد احمد ومدرسة حافظ باشا بالاسكندرية ومدرسة البوصيري ومدرسة راتب باشا بالاسكندرية .



خليل أغا باش آغاي والدة اسماعيل *

== ثم مدرسة خليل أغا التي أنشأها كبير أغوات والدة اسماعيل باشا . ومدرسة القبة التي أنشأها الأمير محمد توفيق باشا ولي العهد على نفقته الخاصة .

الحفلات المدرسية

كان اسماعيل باشا هو مبتكر فكرة اقامة الحفلات المدرسية التي تختتم بها الامتحانات العمومية . وكان يحضرها الخديو نفسه وكبار رجال حاشيته ووزراء الدولة وتلقى فيها الخطب وتوزع الجوائز وتنشر الوقائع الرسمية تفاصيل كل حفلة مدرسية وما يلقى فيها من الخطب والقصائد وكانت هذه الحفلات من أكبر عوامل النهضة العلمية في البلاد .

الأزهر

ما أننا نعرف نصيب الأزهر من عناية جلالة الملك فؤاد في عصرنا الحاضر كذلك نال ذلك المعهد جزءاً كبيراً من عناية اسماعيل . فبعد أن كانت تدرس فيه علوم الدين والفقه واللغة على النمط القديم المتبع من سالف العصور إذا بروح الإصلاح تدب فيه بعد اعتلاء اسماعيل العرش .

* هذه الصورة مستعارة من سعادة احمد شفيق باشا .



لبؤة تهاجم الجند فيصرعها السير صمويل بيكر *

== فقد ولي الشيخ محمد العباسي المهدي مشيخته سنة ١٨٧١ فكانت طليعة أعمال الإصلاح أن وضع سنة ١٨٧٢ نظام الامتحان لتخريج العلماء والمدرسين . وبعد أن كان التدريس خلواً من القيود وضع الشيخ العباسي نظاماً لامتحان العلماء وألف لهذا الغرض لجنة برآسته قوامها ستة من كبار العلماء . ومهمة هذه اللجنة امتحان المرشحين للعالمية في مختلف العلوم واعطاء الناجحين منهم إجازة العالمية . وكان تأليف هذه اللجنة أساس النظام الجديد في الأزهر .

وفي سنة ١٨٧١ هبط مصر الفيلسوف الكبير السيد جمال الدين الأفغاني فنفخ في الأزهر روح النهضة وغرس بذور التقدم الفكري والعلمي ، ولم تلبث أن أينعت هذه البذور بظهور المدرسة الحديثة التي حمل لواها الأستاذ الأمام الشيخ محمد عبده في الأزهر وخارج الأزهر .

البعثات

ولم يفت اسماعيل الاهتمام بالبعثات تشبهاً بجده العظيم محمد علي . فنذ اعتلائه الأريكة في سنة ١٨٦٣ وهو يواظب على إرسال البعثات إلى أوربا حتى بلغ عدد الطلبة في الخارج مدة حكمه ١٧٢

هذه الصورة مأخوذة من كتاب « الاسماعيلية » للسير صمويل بيكر .



معركة ماسيندى . اندحار وهزيمة كابر يقه (راجع ص ٣٢٩) *

= وأنشأ لأعضاء البعثة فى باريس مدرسة عوضاً عن المدرسة التى أغلقت فى عهد محمد على . وقد أغلقت مدرسة اسماعيل هذه عقب الحرب السبعينية .

مدارس الأقباط الأرثوذكس

ونشط الأقباط إلى إنشاء المدارس لتعليم أبنائهم ويرجع الفضل فى هذا إلى جهود الأنبا كيرلس الرابع بطريرك الأقباط الأرثوذكس . وصار لهم فى عهد اسماعيل ١٢ مدرسة بالقاهرة كما أنهم نشطوا لتعليم البنات فأنشأوا لذلك مدرستين .

ومنح اسماعيل مدارس الأقباط مساعدات كبيرة أهمها أنه وهبها ١٥٠٠ فدان من أجود أطيان القطر يخصص ريعها على التعليم فيها .

المدارس الأوربية

وكثر عدد المدارس الأجنبية فى عهد اسماعيل كما لم يكثر فى عهد أحد من أسلافه حتى بلغ عددها ٧٠ مدرسة للبنين والبنات وقد تخرج منها عدد كبير من رجال الأعمال والمهنة الحرة وموظفى البريد والسكة الحديدية والمحال التجارية والبنوك وتراجمة القنصليات والمحاكم المختلطة .

وزارة المعارف

سبق أن ذكرنا ان سعيد باشا ألغى ديوان المدارس (وزارة المعارف) ولكن =

* هذه الصورة مأخوذة من كتاب « الاسماعيلية » للسير صمويل بيكر .



وزير المعارف سابقا الأ مير محمد سعيد طوسون والد سمو الأ مير عمر طوسون

== اسماعيل أعاده سيرته الأولى . وبتقدم نهضة التعليم خصص لوزارة المعارف قصر الأ مير
فاضل بدرب الجمايز نزولا على اقتراح على باشا مبارك وزير المعارف وقتئذ .
وتوالى على وزارة المعارف فى عهد اسماعيل الوزراء الآتية أسماؤهم :

الاسم	المدة
ابراهيم باشا أدهم	يناير سنة ١٨٦٣ - يولية سنة ١٨٦٣
شريف باشا	يوليه سنة ١٨٦٣ - ابريل سنة ١٨٦٨
على مبارك باشا	ابريل سنة ١٨٦٨ - سبتمبر سنة ١٨٧٠
مصطفى بهجت باشا	سبتمبر سنة ١٨٧٠ - مايو سنة ١٨٧١
على مبارك باشا	مايو سنة ١٨٧١ - أغسطس سنة ١٨٧٢
الأ مير حسين كامل باشا	أغسطس سنة ١٨٧٢ - أغسطس سنة ١٨٧٣
مصطفى رياض باشا	أغسطس سنة ١٨٧٣ - مايو سنة ١٨٧٤



وزير المعارف سابقا محمد ثابت باشا

الاسم	المدة
محمد ثابت باشا	مايو سنة ١٨٧٢ - سبتمبر سنة ١٨٧٤
الأمير طوسون باشا	سبتمبر سنة ١٨٧٤ - أغسطس سنة ١٨٧٥
يحيى منصور باشا	سبتمبر سنة ١٨٧٥ - يولية سنة ١٨٧٦
مصطفى رياض باشا	يولية سنة ١٨٧٦ - اكتوبر سنة ١٨٧٧
اسماعيل باشا أيوب	اكتوبر سنة ١٨٧٧ - أغسطس سنة ١٨٧٨
علي باشا مبارك	أغسطس سنة ١٨٧٨ - ابريل سنة ١٨٧٩
محمد ثابت باشا	ابريل سنة ١٨٧٩ - يولية سنة ١٨٧٩

ميزانية التعليم

وقد أجمع الكتاب على أن اسماعيل كان ينفق على التعليم بسخاء وهذا ما شهد به المستر يانج وغيره. وقد ذكر المستر ادوين دي ليون القنصل الأمريكي في مصر أن سعيد باشا جعل ميزانية التعليم ٦٠٠٠ جنيه سنويا ثم زادها إلى ٤٠٠٠٠ جنيه ولكن اسماعيل - كما ذكر على باشا مبارك في الخطط التوفيقية - خصص لها ٧٥٠٠٠ جنيه منها ٤٨٠٠٠ جنيه من وزارة المالية (أي الميزانية العامة) و٢٠٠٠٠ جنيه من إيراد تفتيش الوادي و٧٠٠٠٠ جنيه من ديوان الأوقاف. وكان التعليم في معظم المدارس مجانياً هذا عدا نفقات الماء كل والملبس في كثير منها.



الأهالى يحرقون المعسكر فى جهة ما سيندى
وترى فى الصورة السير صمويل بيكر وعقيلته الشجاعة وابن أخيه جوليان *

== على أن ميزانية التعليم هبطت إلى ٢٠.٠٠٠ جنيه فى أواخر العهد الاسماعيلى بسبب
الارتباكات المالية كما هو معلوم .

أعلام النهضة العلمية فى عهد اسماعيل

على باشا مبارك

ليس من المستطاع التكلم عن النهضة العلمية فى عصر اسماعيل دون الإشارة إلى
أعلام تلك النهضة ودعائهم فمن كان لهم أكبر نصيب فى رفع مستوى البلاد وجعلها
فى مصاف الدول الأوروبية .

ويأتى فى طليعة أولئك الأعلام زعيمهم على باشا مبارك (١٨٢٤ - ١٨٩٣)

وقد أفرد له الأستاذ الرافعى بك باباً قيمياً تلخصه فيما يلى :

* هذه الصورة مأخوذة من كتاب " الاسماعيلية " للسير صمويل بيكر .



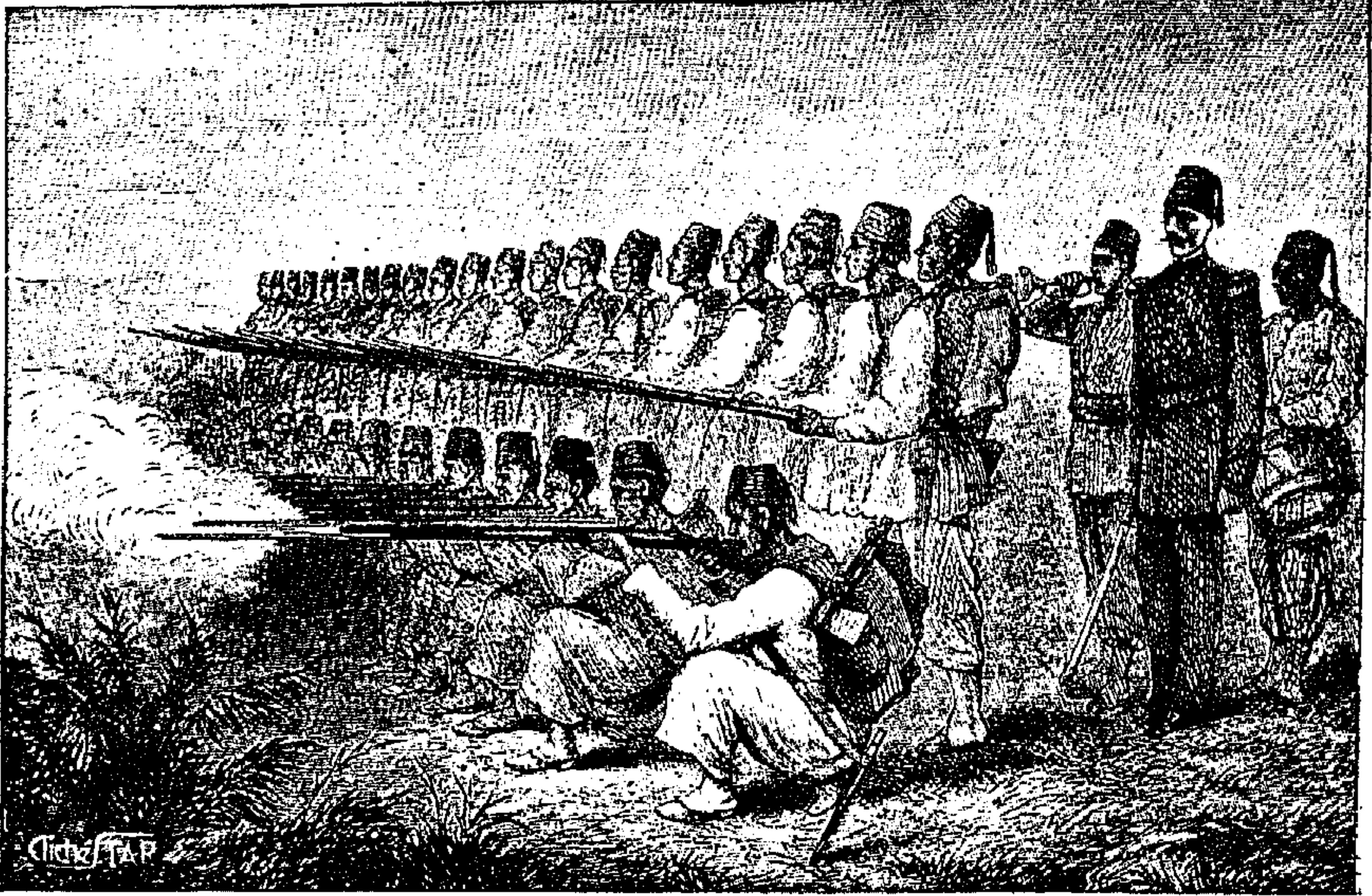
هجوم صيادى الرقيق فى جهة فانيكو وتقدم « اللصوص الأربعة »

== فهو ابن الشيخ مبارك بن مبارك بن سليمان بن ابراهيم الروحى وقد ولد فى برنبال من أعمال الدقهلية وقد تشتت العائلة فيها بعد وكانت تعرف بعائلة المشايخ . وكان الشيخ مبارك شديد العناية بتهديب ولده على حتى تعلم القراءة والكتابة وحفظ القرآن .

نشأته الأولى

وليس يتسع المقام لذكر ترجمة حياة على باشا مبارك تفصيلا وبحسبنا أن نقول إن نفسه كانت تواقفة إلى المعالى فبعد أن التحق بمدرسة ميت العزحدثه نفسه بالالتحاق بمدرسة القصر العينى أسوة بابناء الحكام ومنها انتقل فى سنة ١٨٣٧ إلى مدرسة أبى زعبل حيث لفت اجتهاده نظر مديرها ابراهيم بك رأفت فصار يضرب باجتهاده المثل . وفى سنة ١٨٣٩ اختير على مبارك بين من اختارهم ولاية الأمور لأحاقهم بمدرسة المهندسخانة بيولاقي وهناك فى سن السادسة عشر أظهر من النجابة والاجتهاد ما أهله للانتظام فى بعثة الأنجال فى سنة ١٨٤٤ وهى البعثة الخامسة التى كانت تضم بعض أنجال محمد على وأحفاده التى تولى سليمان باشا الفرنساوى اختيار أعضائها بنفسه وكان بينهم الأمير اسماعيل باشا .

هذه الصورة مأخوذة من كتاب « الاسماعيلية » للسير صمويل بيكر .



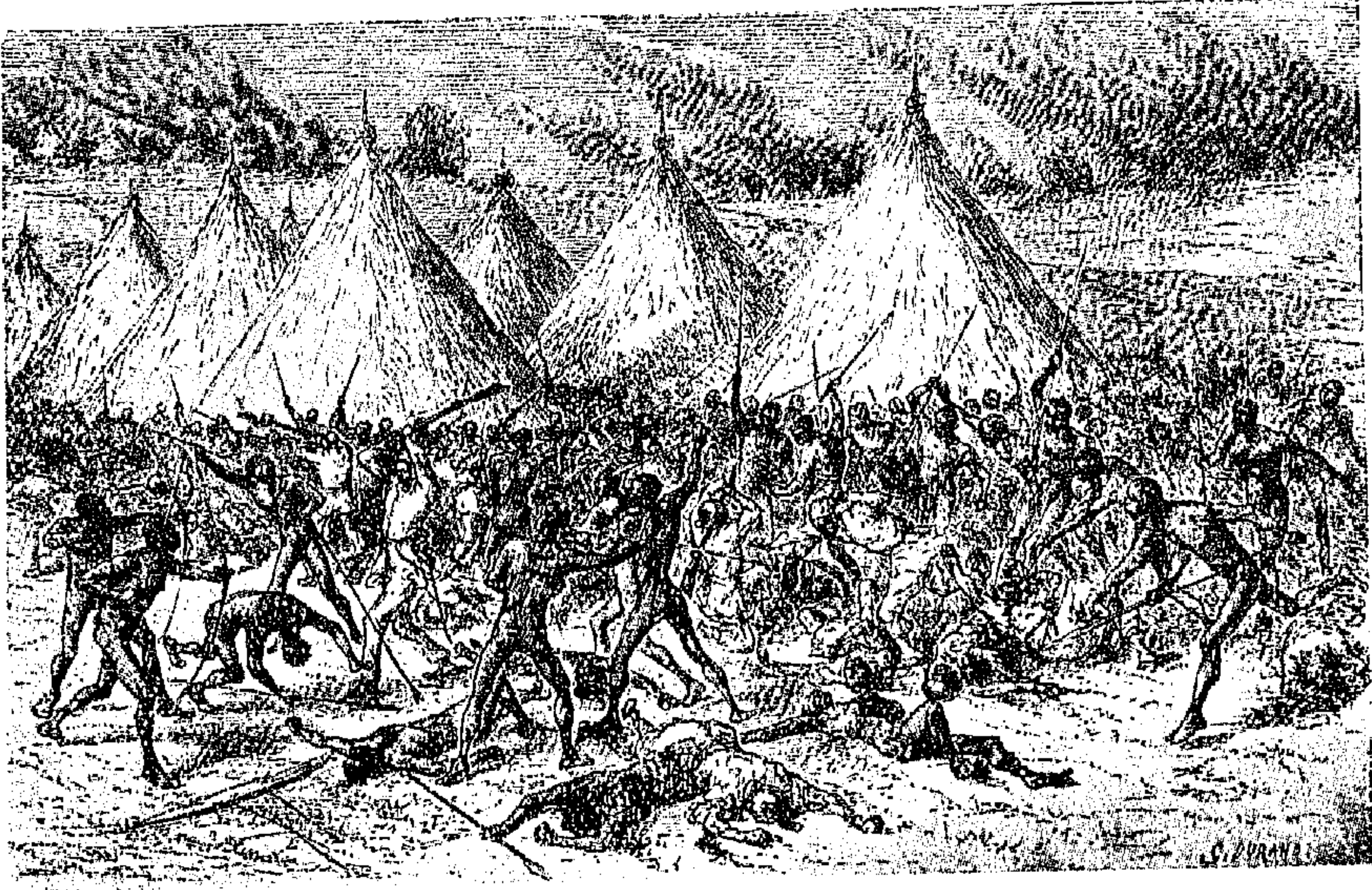
« اللصوص الأربعة » كما يسمونهم يقودهم الكولونيل عبد القادر حلي باشا وهم رهط من خيار الجنود مزودون بالبنادق وعددهم ٤٨ بما فيهم الضباط وأطلق عليهم اسم « اللصوص » بسبب تحفزهم للسطو . ولكنهم كانوا مثال الخلق الطيب حتى أصبحوا دعامة فرقة الحرس . *

سفره إلى باريس

وفي باريس حيث انشئت المدرسة المصرية لتعليم الطلبة اللغة الفرنسية وإعدادهم لدخول المدارس العليا في مدينة النور عانى المترجم الأُميرين في تفهم اللغة ولكن ما لبث أن أكب على دراستها حتى أصبح أول البعثة ونال فعلاً الجائزة الثانية التي سلمها إليه إبراهيم باشا قائد الجيوش المصرية عند زيارته لباريس .

وفاؤه لأهله

ولا بد من الوقوف هنيهة لننعم النظر في بر المترجم بأهله ووفائه لهم . فقد خصصت له الحكومة مرتباً شهرياً قيمته ٢٥٠ قرشاً فأوصى بتسليم نصف المرتب لأهله يصرف لهم من مصر كل شهر واكتفى هو — وهو في باريس — بالنصف الآخر . ولما كانت البعثة قد هبطت فرنسا لتعلم الفنون الحربية فان الثلاثة الأول من أعضائها وهم علي مبارك ، وحمد عبد العاطي ، وعلي إبراهيم أقاموا في باريس عامين ثم التحقوا بمدرسة المدفعية والهندسة الحربية الشهيرة بمتز ونالوا رتبة الملازم الثاني * هذه الصورة مأخوذة من كتاب « الاسماعيلية » للسير صمويل بيكر .



أبادة فصيلة الكولونيل طايب أغا في جهة موجي.

== في الجيش الفرنسي ثم أقاموا عامين آخرين يتعلمون الفنون الحربية .
وبعد اجتياز الامتحان النهائي التحقوا بالجيش الفرنسي حيث رسخت قدم المترجم
في العلوم والمعارف الحربية التي شرب منها حتى ارتوى .

عودته إلى مصر واشتراكه في حرب القرم

ولولا وفاة ابراهيم باشا لكان المترجم حجج إلى الأقطار الأوربية لتطبيق العلم على
العمل ولكن عباس الأول أمر باعادة نوابغ البعثة فوراً إلى مصر فرجعوا سنة ١٨٥٠
وانتقل المترجم من حياة التحصيل والدراسة إلى دور العمل والإنتاج . ولكنه ظل
خامل الذكر نحو ١٤ عاماً لا تفيد البلاد شيئاً من واسع اطلاعه وصدق عزمته اللهم
إلا كونه تعين مدرساً بمدرسة طره الحربية ثم توسط له سليمان باشا الفرنساوي حتى
التحق بمعية عباس الأول ثم عين ناظراً لمدرسة المهندسخانة إلى أن اختاره سعيد باشا
— وكان متبرماً بالمترجم لا يميل إليه — للاشتراك في حرب القرم على نحو ما مر بك
في تاريخ سعيد باشا .

تجههم الزمن له

ولما عاد المترجم من حرب القرم بعد أن قضى فيها نحو عشرة أشهر وجد الدهر
يعبس له في وطنه مصر فان سعيد كان قد أمر باخلاء سبيل الجنود وإعادتهم إلى بلادهم ==
* هذه الصورة مأخوذة من كتاب « الاسماعيلية » للسير صمويل بيكر .



الوزير المشهور محمد شريف باشا

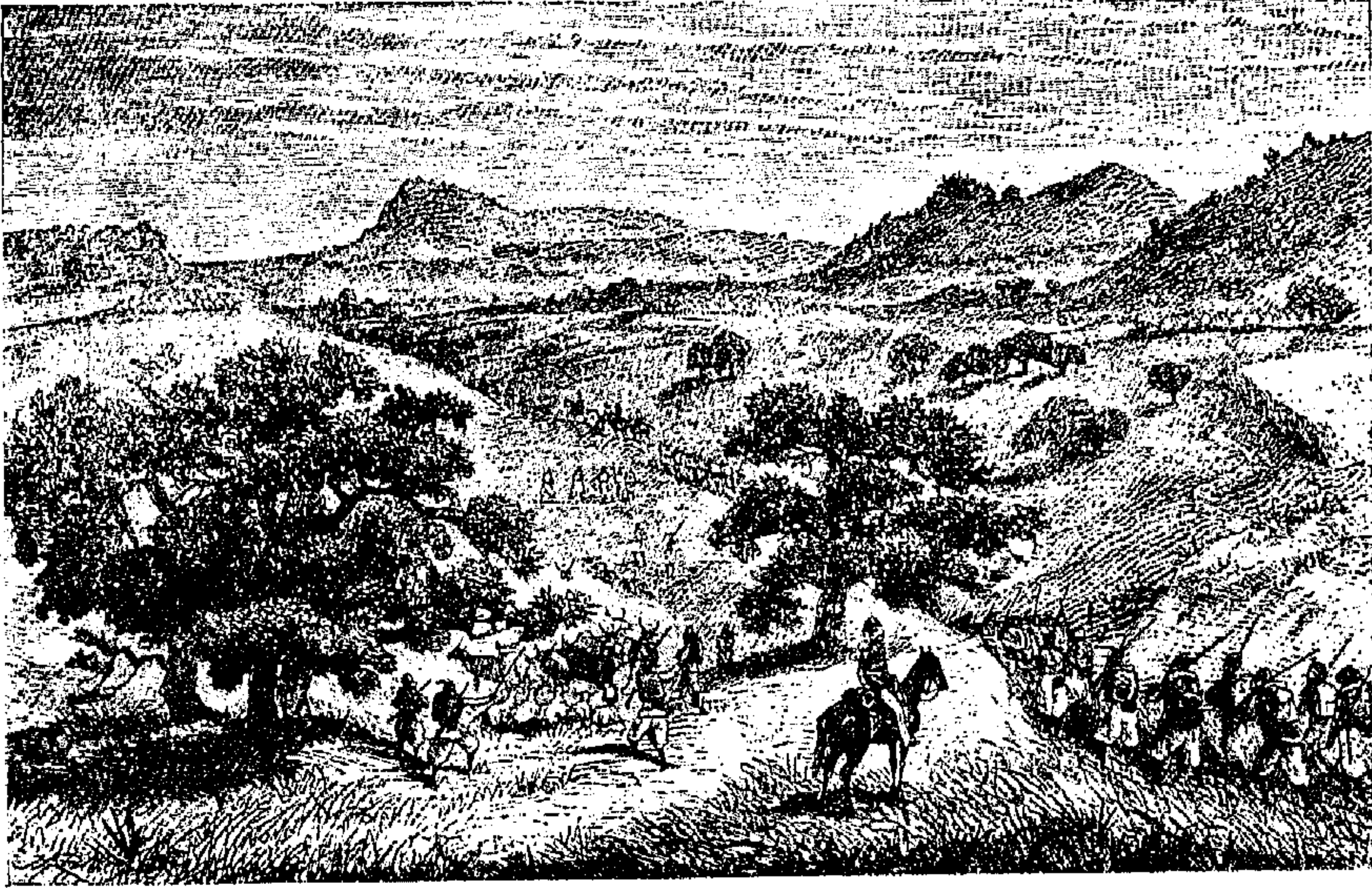
==ورفت كثيراً من ضباط الحملة ومنهم علي مبارك الذي اضطر إلى سكنى بيت حقير كان من أسباب تنغيصه وتبرمه بالحياة ومتاعها .

وبينما هو بهم بالعودة إلى قريته للاشتغال بالزراعة صدر الأمر للضباط المرفوتين بالحضور إلى القلعة فكان هو بين من أعيد للخدمة حيث عين معاوناً بوزارة الحربية .
في معية سعيد

ثم التحق بمعية سعيد باشا . ولكن لما سافر هذا إلى أوروبا أمر برفت رجال معيته فكان المترجم ضمن المرفوتين . ولما تجهمت الأيام لعلي مبارك فكر في التجارة واستمر يزاو لها مدة شهرين وبخاصة في تجارة الكتب التي كان طبعها أثناء نظارته لمدرسة المهندسخانة وقررت الحكومة بيعها مع أشياء ثمينة أخرى باعتبارها زائدة عن الحاجة، وبيعت فعلاً بأبخس الأثمان واشترى المترجم من هذه الأشياء ما أمكنه اقتباعه .
ثم ازداد العسر بعلي مبارك وتألبت عليه المصائب وهو لا يجد مخرجاً من الضيق إلى أن اختار الله سعيداً لجواره في أوائل سنة ١٨٦٣ فكان هذا الحادث فاتحة فصل جديد في حياة المترجم .

اسماعيل يختار علي مبارك

ذلك ان الحديو اسماعيل ما كاد يتبوا الأريكة حتى ذكر علي مبارك زميله القديم في بعثة باريس . وسرعان ما ألحقه بمعيته وبذا مهد الطريق لأفادة البلاد من هذا ينبوع العلي الصافي .



الرحف في داخل منطقة قبيلة « باري » المعروفة بشجاعة رجالها وصلابتهم
(راجع ص ٣١٤) الوصول إلى موجي *

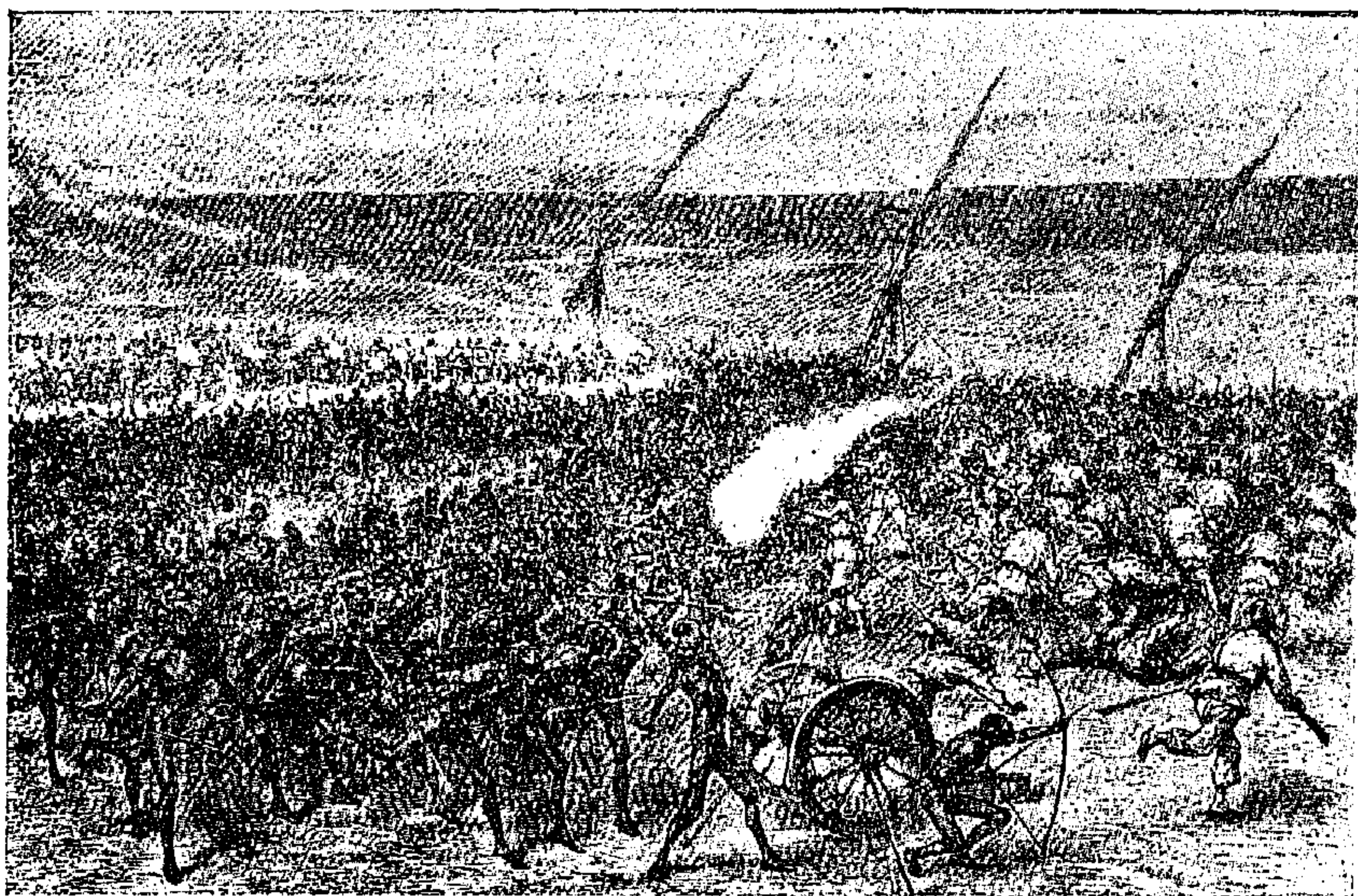
== ثم ما لبث أن عينه ناظراً على القناطر الخيرية فكانت باكورة أعماله أنه خالف
إجماع المهندسين بأن القناطر لا تتحمل ضغط المياه قبل تقويتها مما ترتب عليه تحويل
المياه إلى فرع رشيد وحرمان فرع دمياط منها .

ولكن المترجم أشار بأقوال قناطر فرع رشيد لتغذية فرع دمياط وبذا أحيا موات
الأراضي التي يمر بها هذا الفرع . أما الخلل الذي كان متوقفاً حصوله في بعض العيون
بقناطر فرع رشيد فقد تلافاه المترجم باقامة حاجز خشبي أحاط بالقناطر فنشأت خلفها
جزيرة من الرمل حفظت القناطر من ضغط المياه ، وهكذا تبين للخديو صواب
رأى على مبارك الذي تولى فيما بعد عملية حفر رياح المنوفية وإنشاء قناطره ومبانيه
على أحسن نظام .

على مبارك والمعارف

وفي سنة ١٨٦٧ عينه اسماعيل وكيلاً لوزارة المعارف مع بقائه محتفظاً بنظرارة القناطر .
وكان وزير المعارف وقتئذ هو شريف باشا الوزير المشهور ، وهنا بدأ المترجم يحقق
أمانيه الخاصة بالتعليم العام .

==
'صورة مأخوذة من كتاب « الاسماعيلية » للسير صمويل بيكر .



رجال قبيلة « بارى » يهاجمون فصيلة الضابط عبد الله ويستولون على أحد مدافعيها .

== ثم انتدبه اسماعيل في مهمة قصيرة في باريس استغرقت ٤٥ يوماً وعند عودته سنة ١٨٦٨ أنعم عليه برتبة الميرمران وعينه وزيراً للبعارف والأشغال مع إسناد إدارة مصلحة السكة الحديدية إليه . وبعد قليل ضمت إليه نظارة الأوقاف كل هذا مع احتفاظه بنظارة القناطر الخيرية والتحاqqه بالمعية .

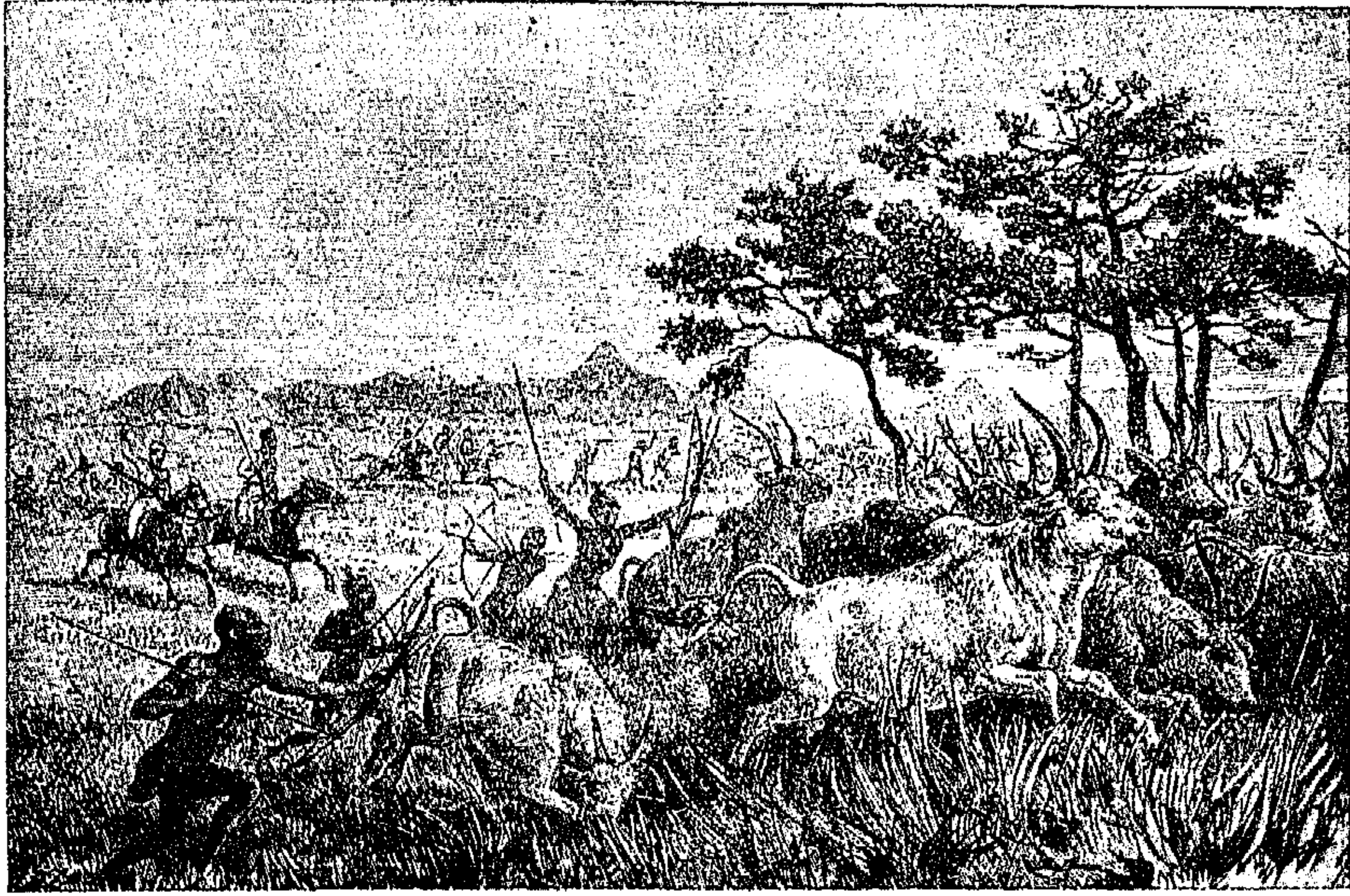
ويصح أن نصف هذه الفترة من حياة المترجم بالعصر الذهبي . كيف لا وهذه الفترة هي التي حفلت بما أتاه على مبارك من الأعمال المجيدة والأصلاحات العظيمة التي تكفي لتخليد اسمه كزعيم النهضة العلمية .

ونبادر هنا إلى القول بأنه لولا صدق فراسة الخديو اسماعيل وثقته بعلي مبارك لظل هذا النبوغ مدفوناً ولما أفادت مصر شيئاً من هذا الرجل الفحل .

وزير ثلاث وزارات !!

ولئن حق لبعضنا أن يدهش لأن بعض وزرائنا جمعوا في العهد الأخير إدارة وزارتين في وقت واحد وظنوا أن ذلك دليل النبوغ الخارق للعادة فما عساهم أن يقولوا في علي مبارك الذي كان في وقت واحد ناظراً للبعارف وللأشغال والأوقاف ومدير السكة الحديدية وناظراً للقناطر الخيرية ؟ ولا تحسب أن المترجم أغفل شأن إحدى هذه الوزارات لحساب الوزارات الأخرى . كلا بل كان يضطلع بها جميعاً وعلى أحسن ==

هذه الصورة مأخوذة من كتاب « الاسماعيلية » للسير صمويل بيكر .



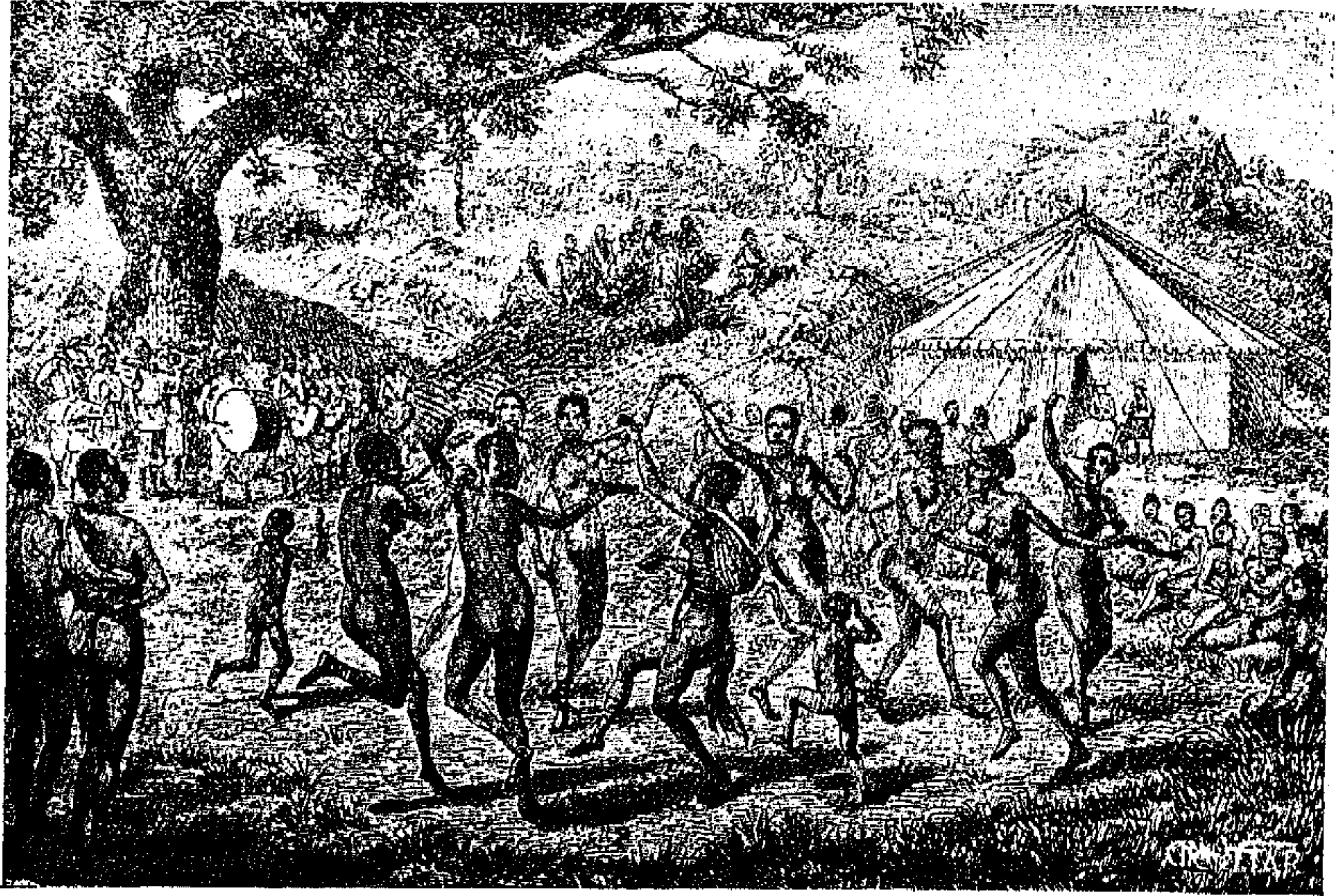
هجوم رجال قبيلة « باري » واستحوادهم على الماشية *

== وجه كما قال في كلمته المتواضعة وهي « فبذلت جهدي وشمرت عن ساعد جدي في مباشرة تلك المصالح فقامت بواجبها . »
وقد قسم المترجم أوقاته بين هذه الزارات فجعل الصباح إلى الظهر للمعارف والأشغال والأوقاف وبعد الظهر إلى الغروب لإدارة السكة الحديدية .
اهتمامه بالمعارف العمومية

فأما في وزارة المعارف فقد جعل همه ترقية شؤون التعليم في البلاد وتقريب دوره من التلاميذ . ولذا استأذن اسماعيل في نقل المدارس من العباسية إلى درب الجمالين وخصص لها سراي الأمير مصطفى فاضل وجعل سلامك السراي لوزارة المعارف ووزع المدارس في مختلف نواحيها الفسيحة الأرجاء .

وكان لا يفتر عن تفقد أحوال التلاميذ والمعلمين في المدارس ويغشاها كل يوم ليشهد بنفسه سير التعليم فيها ويطمئن على حسن نظامها وقيام المدرسين بواجباتهم .
وعنى المترجم بتحويل أكثر عدد من الكتاتيب إلى مدارس ابتدائية نظامية ودعا المشتغلين بالتعليم لدرس مشروعه . فلما أقره استصدر في مايو سنة ١٨٦٨ أمرا من الخديو بإجراء العمل بلائحة التعليم هذه .

وقد نشئت في عهده عدة مدارس ابتدائية نظامية في القاهرة والأقاليم على نحو ==
* هذه الصورة مأخوذة من كتاب « الاسماعيلية » للسير صمويل بيكر .



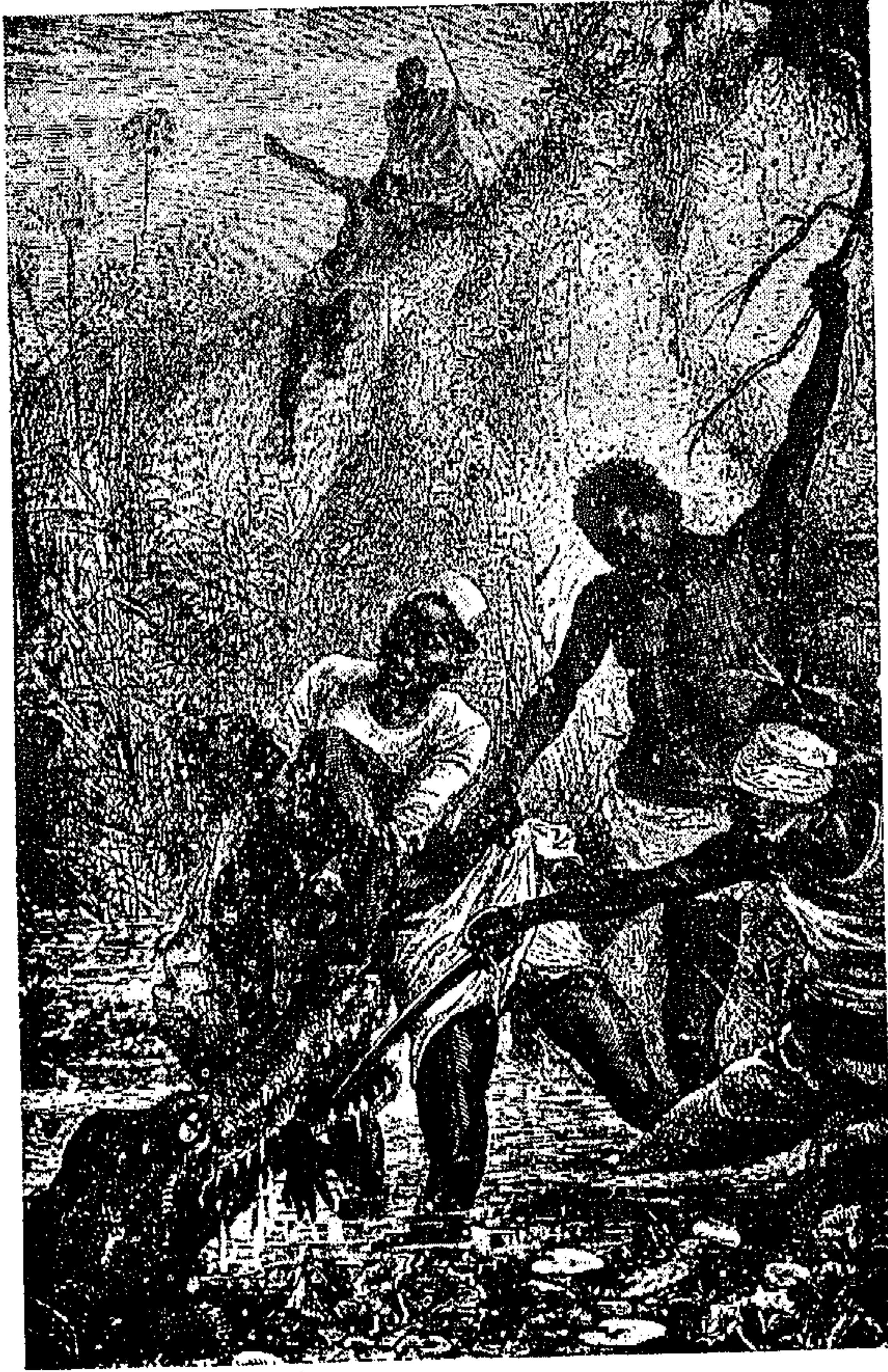
سحر الموسيقى . هرع الزوج والزنجيات لسماعها *

== ما ذكرناه لك في ص ٣٩٨ .

وقد ساعد اضطلاعهم بشؤون ديوان الأوقاف على إعداد كثير من الأمكنة الموقوفة لجعلها معاهد للتعليم بعد اصلاحها كما استطاع أن ينظم معاهد العلم الموقوفة ويحولها إلى مدارس نظامية كما استخدم جانباً من أموال وزارة الأوقاف في الأنفاق على التعليم وتكليف المقتدرين من آباء التلاميذ بدفع مصروفات قليلة وإعفاء المعوزين منها مع استيفاء باقي النفقات من الأوقاف الخيرية الموقوفة على المكاتب وغيرها من وجوه الخيرات . وخصص لها الخديو اسماعيل إيراد أطيان تفتيش الوادي بالشرقية كما منحها بعض الأملاك التي آلت إلى بيت المال من بعض التركات . فكانت هذه الموارد هي التي ينفق منها على المدارس عدا ما خصص لها في الميزانية العامة وما يدفعه أهالي التلاميذ المقتدرين من المصروفات الضئيلة .

إنشاء مدرسة دار العلوم

وبديهي أن إنشاء مدارس نظامية كان يقتضى إيجاد عدد كاف من المدرسين الأكفاء وهذا ما جعل على مبارك ينشئ مدرسة دار العلوم في سنة ١٨٧١ وهي من أجل منشأته وكان الغرض منها تخريج أساتذة اللغة العربية والآداب للدارس الابتدائية .
* هذه الصورة مأخوذة من كتاب « الاسماعيلية » للسير صمويل بيكر .



تمساح يلتهم ذراع أحد الخدم *

== أما الرياضيات والجغرافيا والتاريخ واللغات الأجنبية فلقد اختار لتدريسها نجباء التلاميذ المتقدمين ممن أتموا دراستهم في المدارس العليا كالمهندسخانة ومدرسة الإدارة (الحقوق) .

== * هذه الصورة مأخوذة من كتاب « الاسماعيلية » للسيرة صمويل بيكر . وحكاية هذا التمساح أن أحد أعضاء حملة السير صمويل بيكر أرسل خادمة لأحضار الماء من النهر فلم تعد . وبعد ساعات أدرك سيدها أن التمساح لا بد أن يكون قد ابتلعها فذهب إليه في رهط من الزنوج فما كاد أحدهم أن يقترب منه حتى التهم ذراعه وأخيرالما تغلبوا عليه شقوا بطنه فإذا بآثار الخرز الذي كانت تلبسه الخادمة في عنقها لا يزال موجودا مع نحو ه كيلو جرام من الحصى . فابقنوا إذن بوفاة الخادمة .



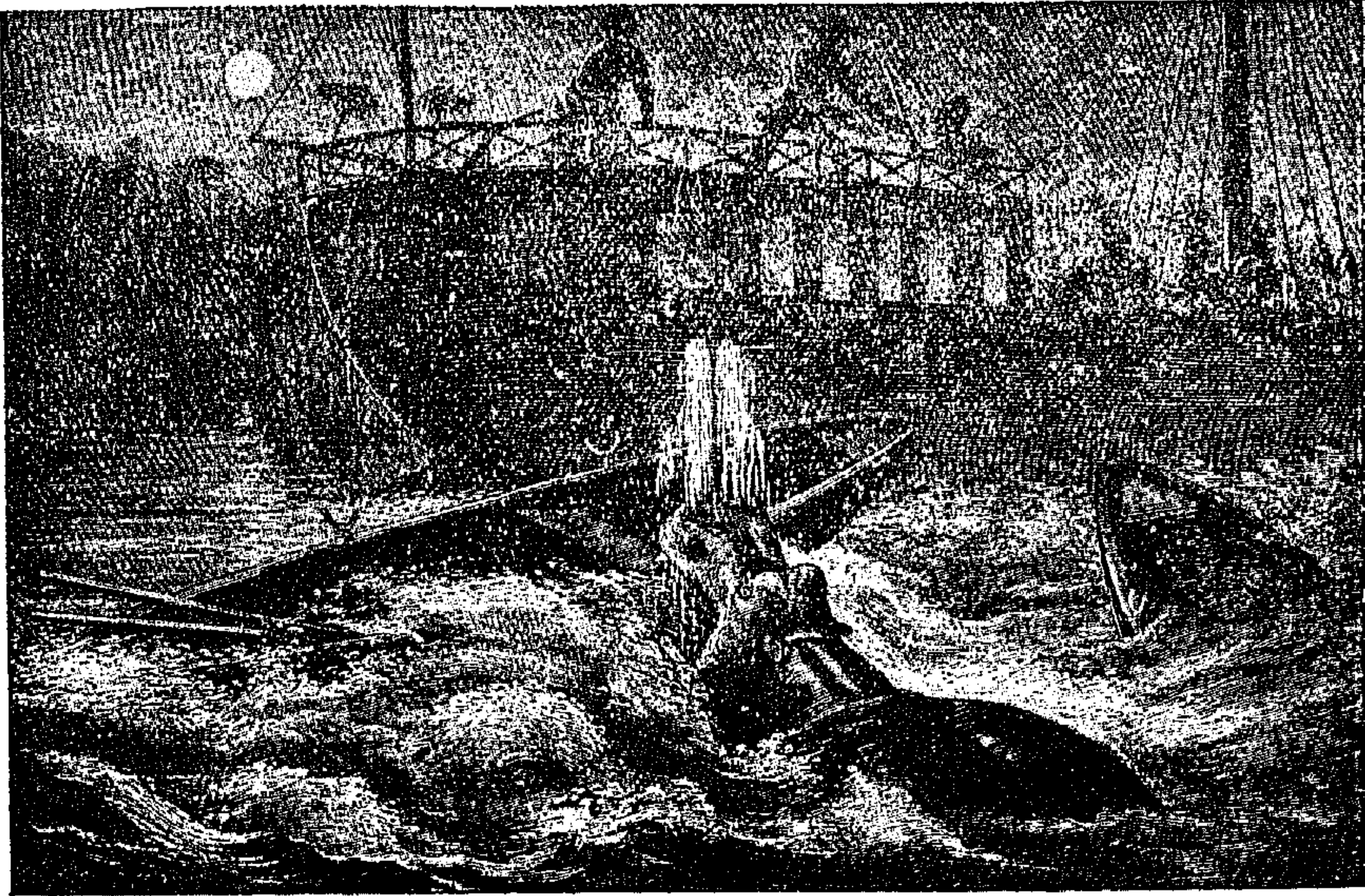
الزواج يسحبون تمساحاً ضخماً إلى البر في جهة غوندوكرو .

== وقد اختير تلاميذ دار العلوم من بين من اجتازوا الامتحان من الطلبة الأزهريين. وقد اشتمل برنامج التعليم فيها على المواد التي لا تدرس في الأزهر كالحساب والهندسة والطبيعة والجغرافية والتاريخ والخط مع إتقان العلوم الأزهرية من لغة ونحو وتفسير وفقه وحديث. وقد جعل التعليم في هذه المدرسة مجاناً مع وضع مرتب شهري للتلاميذ. ولا ريب في أن إنشاء مدرسة دار العلوم هو أعظم خدمة أسداها المترجم لأحياء اللغة العربية وآدابها في مصر.

إنشاء دار الكتب في سنة ١٨٧٠

كانت مطبوعات الحكومة في عهد محمد علي توضع في مستودع في بيت المال القديم خلف المسجد الحسيني ولكن اسماعيل وجه عنايته إلى إنشاء دار عامة للكتب تجمع شتات الكتب الموزعة بين مخازن الحكومة ومكاتب الأوقاف وفي المساجد وغيرها. وقد ابتاع لها الخديو نحو ٢٠٠٠ مجلد من المخطوطات العربية والفارسية من تركة حسن باشا المناسترلي هذا عدا ما ابتاعه من الكتب القيمة من تركة أخيه الأمير مصطفى فاضل. وتنفيذاً لأرادة الخديو عن المترجم بإنشاء تلك الدار في درب الجماميز وجعل لها ناظراً وخدمة ووضع لها قانوناً لضبطها وعدم ضياع كتبها وكان ينفق عليها من ميزانية المدارس. وأصبحت أبوابها مفتوحة لكل من لا تمكنه موارده الخاصة من الاعتراف من بحار العلوم كما يشاء.

• هذه الصورة مأخوذة من كتاب « الاسماعيلية » للسير صمويل بيكر .



فرس البحر يهاجم القوارب ليلاً

المحاضرات العامة

وعنى المترجم أشد عناية بما كان يلقى من المحاضرات في المدرج (الأنفتياتر) بسراى درب الجماميز سنة ١٨٧١ فعهد بالقائها إلى عدد من الأساتذة الأكفاء من معلمي المدارس من أمثال الشيخ حسين المرصفي واسماعيل باشا الفلكي وفرانس باشا وغيرهم وغيرهم ممن ذكرهم أمين باشا سامى في كتابه «التعليم العام في مصر» . وكان كثيراً ما يحضر هذه المحاضرات بنفسه وحذا جذوه كبار موظفي المعارف وغيرها وكان يشهدا طلبه المدارس العالية وطلبة الأزهر .

أعماله الهندسية

كثيراً ما يقرن الناس اسم على مبارك بالتعليم ونهضته متناسين أعماله الهندسية البديعة . فلقد كان في أثناء تقلده وزارة الأشغال سنة ١٨٦٨ « كالدينامو » الذي يستحدث كل يوم حدثاً جديداً . فإليه يرجع الفضل في تنظيم مدينة القاهرة وتوسيع شوارعها وإنشاء معظم أحيائها الجديدة كشوارع محمد على وميدانه وشوارع الأزبكية وميدانها وشوارع حى عابدين وباب اللوق وغيرها وغيرها .
ثم هو الذي استحدث إضاءة الشوارع بغاز الاستصباح وإقامة إابور المياه لتغذية
هذه الصورة مأخوذة من كتاب « الاسماعيلية » للسير صمويل بيكر .



الليفتنانت جوليان بيكر الذى رشحه السير * المسترادوين هيجنوبوتام كبير مهندسى حملة
صمويل بيكر ليحل محله (راجع ص ٣١٣) || السير صمويل بيكر (راجع ص ٣١٤) *

== سكان العاصمة بالمياه الصالحة بواسطة شركتى المياه والنور . كما أنه هو الذى
وضع تصميم كوبرى قصر النيل الذى ظل أمدا طويلا يعد فى طليعة كبارى العالم .
كذلك لا تفوتك عنايته بعمران مدينة الإسكندرية والسويس وشق الترع والجسور
فى الأقاليم هذا إلى اقامة مختلف الدواوين فى المديرىات وغيره وغيره . وإليك هذه
النبذة التى كتبها المترجم وهى تبين لك كيف كان الرجل يعمل ليل نهار فى خدمة بلاده
بومليكه وهو هو الذى كان كما قلنا متولياً ثلاث وزارات عدا إدارة السكة الحديدية . قال :
« وهذه الأعمال جميعها أو أكثرها كنت أبشر أمورها من رسومات وشروط مع
المقاولين ونحو ذلك لتعلمها بديوان الأشغال . فكنت فى مدة إحالة هذه الدواوين على
مشغولا بالمصالح الأميرية وتنفيذ الأغراض الخديوية ليلا ونهارا حتى لا أرى وقتاً ألتفت
فيه لا حوالى الخاصة بى ولا أدخل بيتى إلا ليلا بل كنت أفكر بالليل فيما يفعل بالهار .»
ونظرا لأنه كان وزيرا للأشغال عند افتتاح قناة السويس فقد عهد إليه اسماعيل
باعداد معدات حفلات الافتتاح التاريخية .

أعماله فى الدواوين الأخرى

وفى أثناء تقلده وزارة الأوقاف حكر كثيرا من أراضى القاهرة للراغبين فى بنائها
مقابل حكر ضئيل يدفعونه سنويا وبذا ساعد على تعمير كثير من الأحياء الخربة واقامة ==
* هاتان الصورتان مأخوذتان من كتاب « الاسماعيلية » للسير صمويل بيكر .



علم النهضة الأدبية في عهد اسماعيل العلامة علي باشا مبارك ❖

== المباني والعمارات الكبيرة في مختلف أنحاء المدينة . وفي عهد إدارته للسكك الحديدية مدت عدة خطوط حديدية وأنشئت محطات كثيرة .

الوشاية بالمرجم

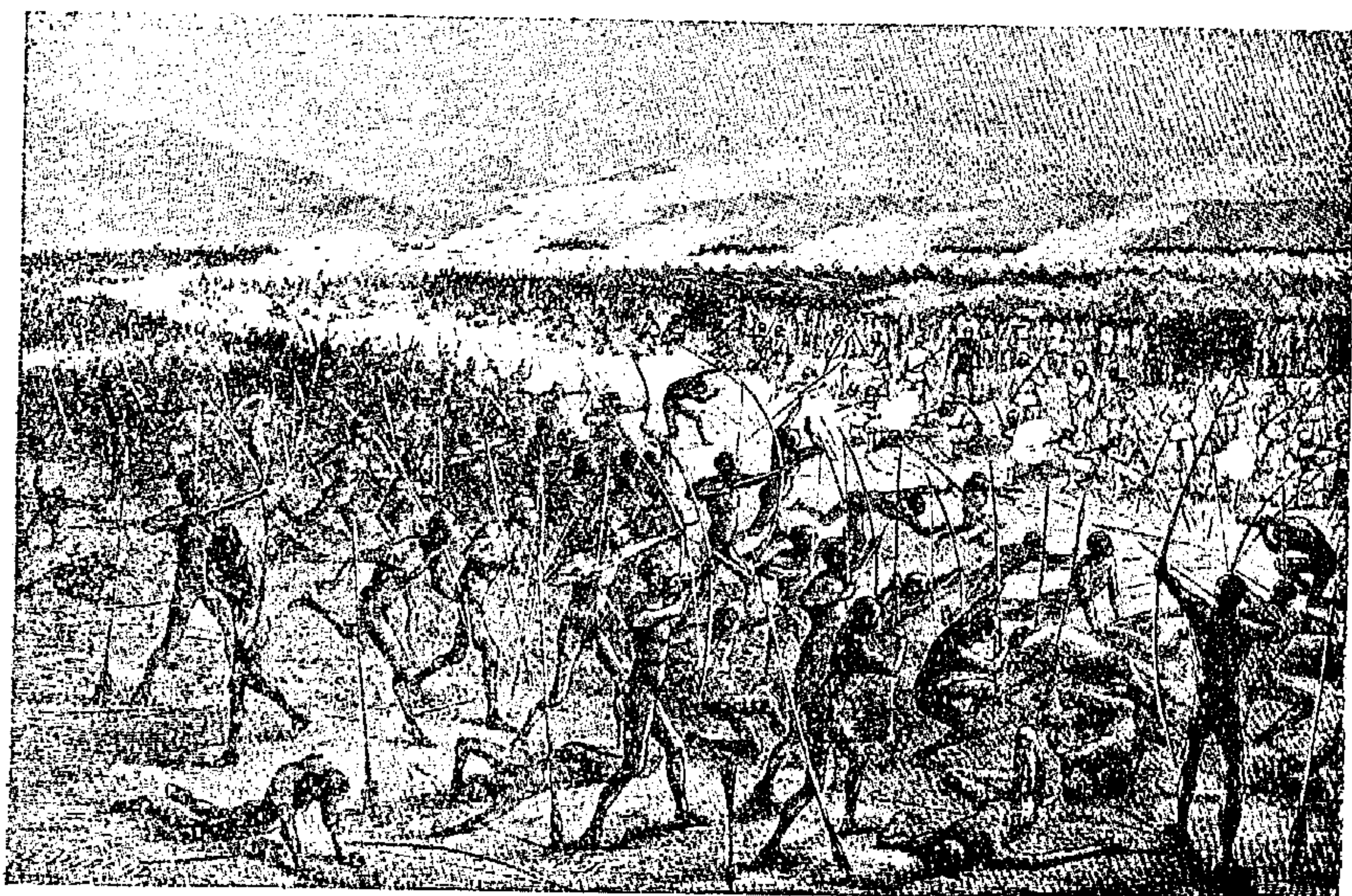
كان طبيعياً أن تصطدم هذه الشخصية الفذة بالسعايات والوشايات التي روجها خصومه ضده وكان من جرائها انفصاله عن إدارة السكك الحديدية ثم وزارة المعارف في سبتمبر سنة ١٨٧٠ ثم عن الأشغال والأوقاف .

ويرجع السبب في ذلك إلى رغبة اسماعيل صديق (الشهير بالمفتش) في ضم إيراد السكك الحديدية إلى وزارة المالية ومعارضة المترجم في هذا الضم إلا إذا تعهدت المالية بجميع نفقات المصلحة . ثم كانت الوشايات والسعايات مما أدى إلى انفصال المترجم عن الوزارات المذكورة ولزومه عقرب داره .

ولكن الخديو اسماعيل لم يكن بالرجل الذي ينسى فضل أرباب الفضل أو تقعده الوشايات عن الانتفاع بمواهب النافعين من رجاله .

ذلك أنه سرعان ما أرسل في طلب المترجم (١٣ مايو سنة ١٨٧١) وعهد إليه بوزارة المعارف ثم بوزارة الأوقاف ثم الأشغال وظل في وزارة المعارف إلى ==

❖ مستعارة من سعادة أحمد شفيق باشا



هجوم عام في الليل بجبهة غوندكرو *

== أغسطس سنة ١٨٧٢ حيث لاح للخديو تعيين ابنه الأمير حسين كامل باشا ناظرا لهذه الدواوين مع بقاء المترجم كمستشار لها . ثم مالبت الأمير حسين أن استقل بديوان الأشغال واتخذ المترجم وكيل له .
وفي أغسطس سنة ١٨٧٣ عين المترجم عضوا بالمجلس الخصوصي (مجلس الوزراء وقتئذ) ولكن سرعان ما انفصل عنه بسبب الوشائيات فعاد إلى داره .
وفي مارس سنة ١٨٧٤ جعل رئيسا لقسم الهندسة بوزارة الأشغال . وعند الحاق هذا الديوان بوزارة الداخلية التي كان يتولاها الأمير محمد توفيق ولي عهد الأريكة الخديوية اتخذ المترجم مستشارا له ثم استقل بديوان الأشغال فبق المترجم مستشارا للديوان (ديسمبر سنة ١٨٧٥) وبدلك تعيين المترجم في هذه المناصب الثانوية على أنه كان نتيجة الوشائيات في حقه للخديو .

وزارة نوبار باشا

ثم كان ما كان من الارتباك المالي وتضييق الدائنين الخناق على مصر حكومة وشعبا ومطالبة لجنة التحقيق الدولية بتنازل الخديو عن سلطته لمجلس الوزراء وتشكيل وزارة ==
* هذه الصورة مأخوذة من كتاب « الاسماعيلية » للسير صمويل بيكر .



ساكن الجنان توفيق باشا خديو مصر الأسبق

== نوبار باشا الأولى في أغسطس سنة ١٨٧٧ ودخول الوزيرين الأجنيين فيها وهما السير ريفرز ولسون والمسيو دوبلنير فاشترك فيها المترجم حيث تولى وزارتي المعارف والأوقاف فاستأنف عمله في أحياء نهضة التعليم وأقبل على المدارس الابتدائية ينشئها ويوطد دعائم عمله في هذه الناحية ووسط الجوا المضطرب وقتئذ إلى أن تبرم الشعب بوزارة نوبار واعتدى بعض الضباط على الوزيرين الأجنيين مما كانت نتيجته سقوط تلك الوزارة في فبراير سنة ١٨٧٩ تشكيل وزارة توفيق باشا القصيرة الأجل فدخلها المترجم وزيرا للمعارف والأوقاف .

ثم دعى شريف باشا لتشكيل الوزارة فلم يشرك المترجم فيها لأنه كان في وزارة غضب عليها الشعب قبلا .

المترجم في عهد توفيق باشا

ولما تبوأ توفيق باشا الأريكة الخديوية عهد إلى مصطفى رياض باشا بتشكيل الوزارة فدخلها المترجم وزيرا للأشغال .

الثورة العراقية

وبدت طوابع الثورة العراقية في عهد وزارة رياض باشا وكان المترجم من الناصحين بالتزام الروية والاعتدال على عكس ما كان يرمى إليه العراقيون .

ثم طالب سواد الشعب بسقوط الوزارة الرياضية فسقطت فعلا في سبتمبر سنة ١٨٨١ ==



مصطفى رياض باشا رئيس الوزراء سابقا

== تلبية لأرادة الثوار فألف شريف باشا الوزارة الجديدة .
ومع تقدير شريف باشا لاستقامة المترجم وكفاءته لم يستطع إشراكه في وزارته
لأنه كان عضواً في وزارة حنق عليها الشعب . وهكذا قدر للمترجم أن يشترك في
وزارتين سقطتا نزولاً على إرادة الثوار وهما وزارتتا نوبار باشا ورياض باشا .
ثم استقالت وزارة شريف وتلتها وزارة محمود باشا سامى البارودى فظل المترجم
بعيدا عنها . وفي عهد هذه الوزارة وصل الأسطول البريطانى إلى ثغر الاسكندرية
وتعاقبت الحوادث حتى انتهت بالاحتلال البريطانى .
ثم كان ما كان من وقوع الحرب بين العرايين والانجليز وانعقاد جمعية عمومية
في القاهرة من أعيان البلاد حضرها على مبارك باشا وكان ضمن الوفد الذى اتدبته الجمعية
للسفر إلى الاسكندرية لأبلاغ الخديو قرارات الجمعية . فلما وصل إليها حاول تهدئة
الخواطر فلما لم ينجح انضم إلى الخديو أسوة بمن انضم إليه من أعيان البلاد وكبارها .
وفي سنة ١٨٨٢ أى عقب الاحتلال ألف شريف باشا وزارته الرابعة واشترك
فيها المترجم كوزير للأشغال . ثم مالبت أن استقال في يناير سنة ١٨٨٤ متضامناً مع
زملائه أعضاء الوزارة الشريفة احتجاجاً على إخلاء السودان .



محمد باشا السيوفى سر تجار العاصمة



أحمد باشا السيوفى

وقد انضموا الى الخديو توفيق

وزارة رياض باشا

ظهور « خطط » المترجم

وفي يونية سنة ١٨٨٨ تولى رياض باشا الوزارة فأشرك المترجم فى عضويتها كوزير للمعارف . وفى هذه الفترة ظهر كتابه الخالد « الخطط التوفيقية لمصر والقاهرة ومدنها وبلادها القديمة الشهيرة » ويقع فى عشرين مجلداً .

وهى دائرة معارف لخطط مصر وآثارها وجغرافيتها وتاريخها فى مختلف عصورها القديمة والحديثة وفيه وصف لمدين مصر وقراها ونيها وسواحلها وتخطيط كامل للقاهرة وأحيائها وشوارعها ودروبها وميادينها وما فيها من المساجد والأضرحة والأسبلة والقصور والتكايا والحمامات والوكائل الخ .

وقد خصص المترجم الأجزاء الستة الأولى للقاهرة والسابع للاسكندرية والأجزاء الأخرى لبقية مدن القطر المصرى وقراه .

ولبت المترجم يعنى بنشر التعليم وإنشاء المدارس إلى أن استقالت وزارة رياض باشا فى سنة ١٨٩١ فعاد المترجم إلى بلده لتفقد أملاكه وإصلاحها وهناك مرض بداء المائة فعاد إلى القاهرة .



فرس البحر يفترس شيخ القبيلة الضرير في منطقة قبائل الشيلوك *

وفاته

ثم اشتدت وطأة المرض. حتى اختاره الله لجواره في ١٤ نوفمبر سنة ١٨٩٣ بمنزله بالحلبيه وبهذا انطفأ هذا السراج الذي أضاء البلاد زهاء أربعين عاما وارتجت البلاد لفقد هذا العالم الفحل وشعرت بما أحدثه من الفراغ الكبير .

الجمعيات العلمية

وكما اشتهر عهد اسماعيل بالنشاط بكافة معاني هذه اللفظة كذلك اشتهر بتأسيس الجمعيات العلمية والجمعيات الانسانية ذات المقصد السامى . وقد كتب المؤرخ الكبير الأستاذ الرافعى بك فصلا رائعا فى هذا الموضوع اقتبسنا منه ما يلى :

يصح أن نذكر ضمن النوع الأول المجمع العلمى الذى أنشأه بونابرت سنة ١٧٩٨ فى أوائل عهد الاحتلال الفرنسى . وقد أقفل ذلك المجمع أبوابه عند جلاء الفرنسيين ثم أعيد إنشاؤه سنة ١٨٥٩ بالاسكندرية فى عهد سعيد باشا واستمر يؤدى مهمته فى نشر المباحث العلمية إلى اليوم ومقره بوزارة الأشغال واسمه « مجلس المعارف المصرى » وله مجلة تنشر مباحثه .

جمعية المعارف (أسست سنة ١٨٦٨)

على أن محمد عارف باشا أحد أفاضل العلماء والعضو بمجلس الأحكام هو الذى =
* هذه الصورة مأخوذة من كتاب « الاسماعلية » للسير صمويل بيكر .



أحمد خيرى بك (باشا) مهردار الخديو اسماعيل *

يرجع إليه الفضل في تأسيس أول جمعية علمية ظهرت في مصر لنشر الثقافة بواسطة التأليف والطباعة والنشر في سنة ١٨٦٨ . وكانت غاية هذه الجمعية نشر العلوم والمعارف بطبع الكتب العلمية وتهذيبها وتلخيصها وكانت تحت رعاية الأمير محمد توفيق باشا ولي عهد الأريكة الخديوية . وقد طبعت الجمعية فعلا طائفة كبيرة من أمهات الكتب العربية في التاريخ والفقه والأدب .

ونظرة واحدة إلى أسماء بعض من أقبلوا على تعضيد هذه الجمعية والاشتراك فيها تقنعك بما لقيته في نفوس الملائم التشجيع . فعندك مثلا من أعضائها الذين بلغوا زهاء السبعائة في عام ١٨٧٠ :

ابراهيم بك حلیم من قضاة محكمة الاستئناف ، السيد ابراهيم جمعی من أعيان الاسكندرية ، السيد ابراهيم بك المويلحي من أعضاء المجلس الابتدائي ، اترى بك أبو العز من أعضاء مجلس شورى النواب ، احمد طلعت باشا كاتب الديوان الخديو ، احمد رشيد باشا من أعضاء المجلس المخصوص (مجلس الوزراء) ، احمد خيرى بك مهردار الخديو (وهو الذى كان غوردون باشا يبعث إليه برسائله الخاصة بالملاحظة

* مستعارة من سعادة أحمد شفيق باشا



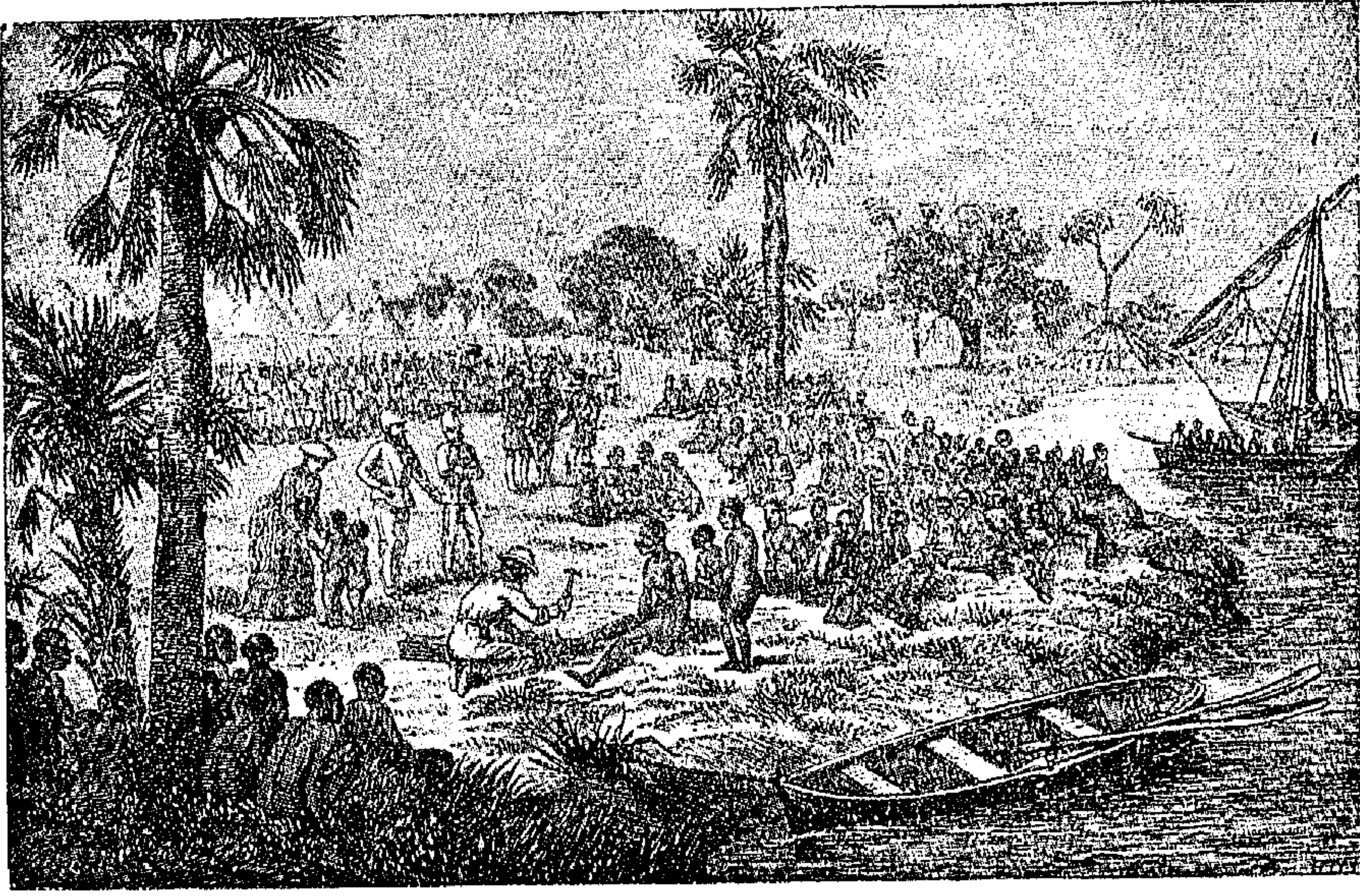
شفيق بك منصور وكيل النائب العام في لجنة تحقيق حريق الاسكندرية

في بحيرة فكتوريا نيانزا على ما مر بك في ص ٣٤٣) ، الشيخ احمد فارس الشدياق صاحب الجوائب ، امين بك فكرى ، جعفر مظهر باشا حكامدار السودان ، جعفر صادق باشا رئيس مجلس استئناف قبلى (وجد معالى محمود نخرى باشا) ، الشيخ حسونه النواوى ، حسين بك (باشا) نخرى ، حسن شرين باشا ، خليل يكن باشا ، راشد حسنى باشا ، محمد عرفان باشا ، الشيخ عبد الرحمن الرافعى ، على ذو الفقار باشا وزير الخارجية ، محمد مظهر باشا وكيل مجلس الأحكام ، مصطفى رياض باشا ، السيد حسن موسى العقاد ، شفيق بك منصور ، (الذى كان وكيلا للنائب العمومى في لجنة تحقيق جنايات حريق الاسكندرية سنة ١٨٨٣) وغيرهم .

ولكن الجمعية انحلت على أثر سفر عارف باشا إلى الآستانة وكان معروفا بميله إلى حلیم باشا المطالب بعرش الخديوية .

الجمعية الجغرافية

وقد سبق الكلام عنها وهى من أهم المؤسسات العلمية فى عهد اسماعيل أنشأها سنة ١٨٧٥ للأبحاث الجغرافية واختار لرئاستها العلامة الألمانية الدكتور شونفرت ووكيله العلامة محمود باشا الفلكى والجنرال استون باشا . وللجمعية مجلة دورية لنشر مباحثها القيمة . وليس شك فى أنها أدت وماتزال تؤدي أجل الخدمات للعلم والجغرافية بفضل عناية جلالة أبى الفاروق بها كما مر بك فى ص ١٥ .



السير صمويل بيكر يطلق سراح العبيد بعد استيلائه على القوارب التي كان صيادو الرقيق « شحونهم » فيها وتراه في الصورة وإلى يمينه قرينته ☪

الجمعية الخيرية الإسلامية

وهي غير الجمعية الخيرية الإسلامية الحالية المؤسسة في سنة ١٨٩٢ . فلقد أسست الأولى في سنة ١٨٧٨ في الاسكندرية بمساعي السيد عبد الله نديم خطيب الثورة العرابية ومساعدة سعد الله بك حلا به من سراة الثغر (وهو والد الأستاذ شفيق سعد الله حلا به عضو مجلس الشيوخ) .

وجعلت الجمعية غايتها فتح المدارس الحرة بعيدا عن النفوذ الأجنبي وإعانة الفقراء فأنشأت مدرسة بالاسكندرية لتعليم البنين والبنات وعقد فيها محفل للخطابة كل أسبوع ورتبت لها الحكومة إعانة سنوية .

الصحافة

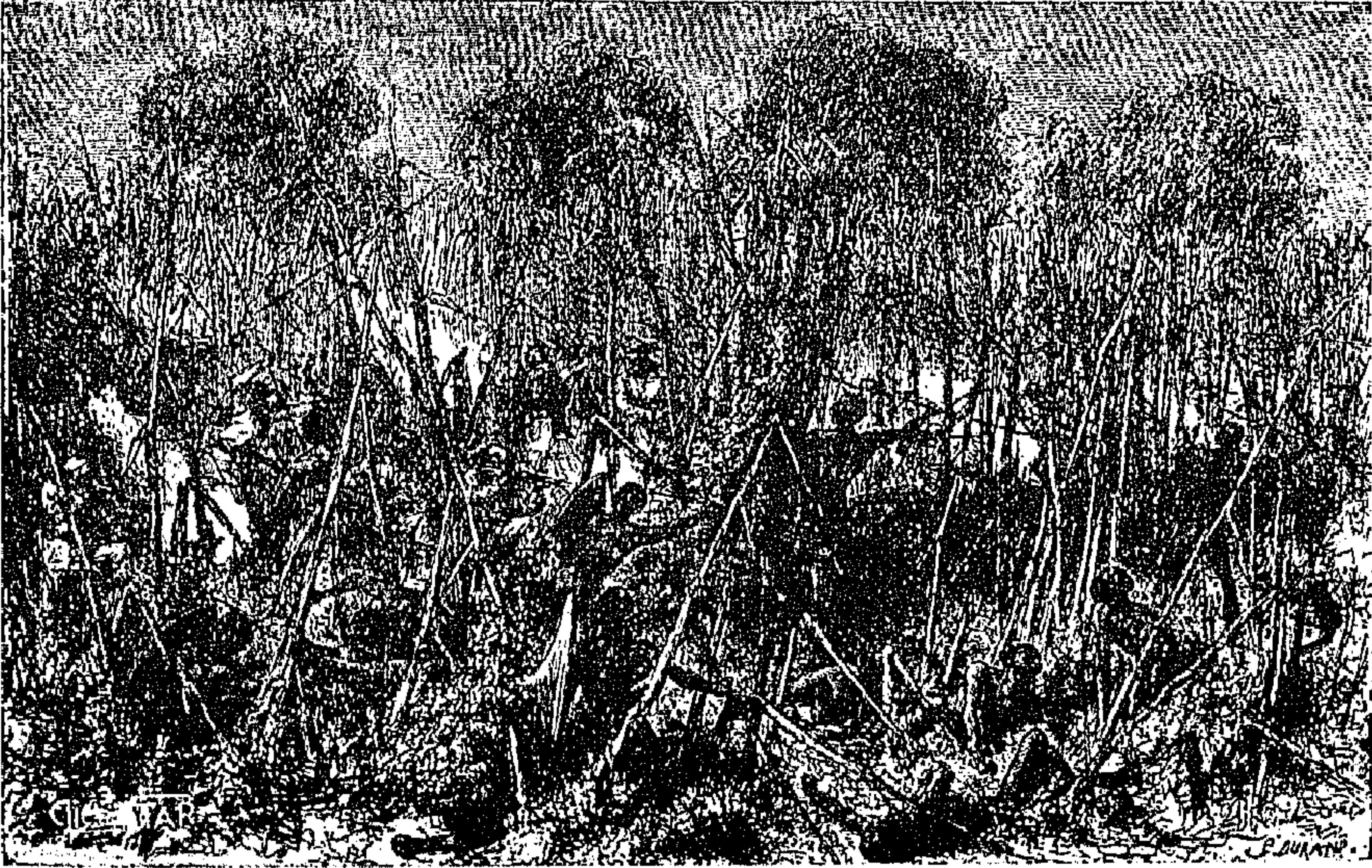
اشتهر عهد عباس وسعيد بالجمود الفكري بينما كنت ترى عوامل النهضة والفلاح تسرى سريان الماء في العود في كل جانب من جوانب الحياة في عهد اسماعيل . فليس غريباً أن البلاد بعد ان لم تكن تعرف من الصحافة في عهدي عباس واسماعيل سوى الوقائع المصرية، أن بدأت تنتشر فيها الصحف العلمية والأدبية ثم السياسية بينما أخذت هذه الصورة مأخوذة من كتاب « الاسماعيلية » للسير صمويل بيكر .



محمد قدرى باشا أحد أعلام الفقه والقانون ❦

== أرباب الأعلام يتبارون في الكتابة فيها . وهنا لا نرى مفرا من الأشادة بفضل العنصر السورى على اللغة العربية وأثره في نهضة الصحافة في ذلك العهد . وفي الواقع كانت الصحافة في عهد اسماعيل بمثابة حلبة تتلاقى فيها أقلام أعلام الكتاب والأدباء من أمثال رفاة بك رافع الطهطاوى وابنه على باشا رفاة وعبد الله باشا فكرى والشيخ حسين المرصنى وعلى باشا مبارك ومحمود باشا الفلكى واسماعيل باشا الفلكى والمسيو بروكش ناظر مدرسة اللسان القديم ومحمد قدرى باشا أحد أعلام الفقه والقانون ومؤلف كتاب « مرشد الحيوان إلى معرفة أحوال الانسان » وكتاب « الأحكام الشرعية في الأحوال الشخصية » وكتاب « قانون العدل والأنصاف في القضاء على مشكلات الأوقاف » (وهى التى لاتزال إلى اليوم مرجع المشتغلين بالقانون) والسيد صالح مجدى بك والشيخ حسونه النواوى والشيخ حمزه فتح الله وغيرهم .

ويرجع الفضل في نهضة الصحافة في عهد اسماعيل إلى أنه كان لا يرضى على القائمين بها بالمساعدات الأدبية والمالية وهذا ما كفل لها السير في معارج النجاح والفلاح .
❦ مستعارة من سعادة أحمد شفيق باشا



كمين من الزنوج يهاجمون مؤخره الحملة ويقتلون أحد الضباط ❖

== وإذا ذكرت الصحف فلا تنس في طليعتها الوقائع المصرية التي كانت بمثابة سجل للحياة السياسية والاجتماعية في عصر اسماعيل وكان يقوم بتحريرها ليف من كبار أهل الأدب وأعلام البيان . وهي تعد في الواقع من أهم المراجع التاريخية لا يستغنى عنه الباحث في تاريخ مصر الحديثة . وكثيرا ما استشهدنا بها في عدة مواضع من هذا الكتاب .

وبين الصحف التي أنشئت في عهد اسماعيل صحيفة اليعسوب (سنة ١٨٦٥) وهي مجلة شهرية طبية أنشأها الدكتور محمد علي باشا البقلي و ابراهيم الدسوقي ولم تعمر طويلا .

ثم مجلة روضة المدارس التي أنشأها علي مبارك باشا سنة ١٨٧٠ وكان وزيرا للمعارف وهي من أجل أعماله وتولت وزارة المعارف الأنفاق عليها وأصدارها بانتظام والغرض منها احياء الآداب العربية ونشر المعارف الحديثة . وقد تولى رئاسة تحريرها العلامة رفاعه بك رافع الطمطاوى وأسند تحريرها إلى ابنه علي بك (باشا) فهمى رفاعه . وكانت ميداناً تصول فيه أقلام فطاحل العلماء وأعلام الأدباء . والكتاب في ذلك العصر من أشرنا إليهم في صدر هذه الكلمة .

❖ هذه الصورة مأخوذة من كتاب « الاسماعيلية » للسير صمويل بيكر .



الشاعر الفذ اسماعيل باشا صبرى *

== وقد صدر العدد الأول منها في ١٥ المحرم سنة ١٢٨٧هـ (١٨٧٠) واستمرت تصدر بانتظام كل نصف شهر مدة ثمانى سنوات فكانت خير معلم للنشر في ذلك العهد كما شهد بذلك المسيو دور بك مفتش التعليم العام في عهد اسماعيل في كتابه «التعليم العام في مصر» ص ٢٥٣ إذ قال: «كانت هذه المجلة توزع مجاناً على التلاميذ وقد ساعدت على نشر العلوم والمعارف لأنها عودت الطلبة ملكة المطالعة والبحث وفتحت صحائفها للناهين منهم لنشر ابحاثهم القيمة فكان ذلك مما يشجعهم ويستحث همهم على المباحث والجهود المستقلة عن دروسهم».

وبينما كانت صحائف المجلة ميداناً تتلاقى فيه أقلام العلماء والكتاب كما قدمنا كذلك كانت في الوقت نفسه حلقة تتسابق فيها أقلام نهباء الطلبة . ومن أطف ما ذكره الأستاذ الرافعى بك مطلع بعض قصائد رآها في المجلة لفخر الشعراء المرحوم اسماعيل باشا صبرى ==

* مستعارة من سعادة أحمد شفيق باشا .



الدوق أف كونوت ولى عهد إنجلترا سابقا . وفى أثناء زيارته لمصر وسطه اسماعيل باشا
فى حمل السير صمويل بيكر على قبول الخدمة لمحاربة النخاسة

== وكان يسمى وقتئذ « الشاب النجيب اسماعيل افندى صبرى » أحد تلامذة مدرسة الإدارة
(الحقوق) وقتئذ .

قال اسماعيل صبرى من قصيدة نشرت بالعدد ٢٠ من المجلة (بتاريخ آخر شوال
سنة ١٢٨٧) فى مدح الخديو

سارت فلاح لنا هلال سعود ونما الغرام بقلبي المعمود

وقال فى قصيدة أخرى بالعدد ٥ من السنة الثانية :

أغرتك الغراء أم طلعة البدر وقامتك الهيفاء أم عادل السمر

وشعرك أم ليل تراخى سدوله وثغرك أم عقد تنظم من در

وهى قصائد رائعة كانت تتكهن لهذا الفتى بالمكانة المبرزة التى كانت تنتظره فى عالم

الشعر الذى أصبح فى طليعة فرسانه .

ثم لاتنس بين تلك الصحف صحيفتى أركان حرب الجيش المصرى والجريدة العسكرية

المصرية اللتين سبق الكلام عنهما فى سياق الجيش المصرى ص ٣٧٨

« هذه الصورة مأخوذة من كتاب « الاسماعيليه » للسير صمويل بيكر .

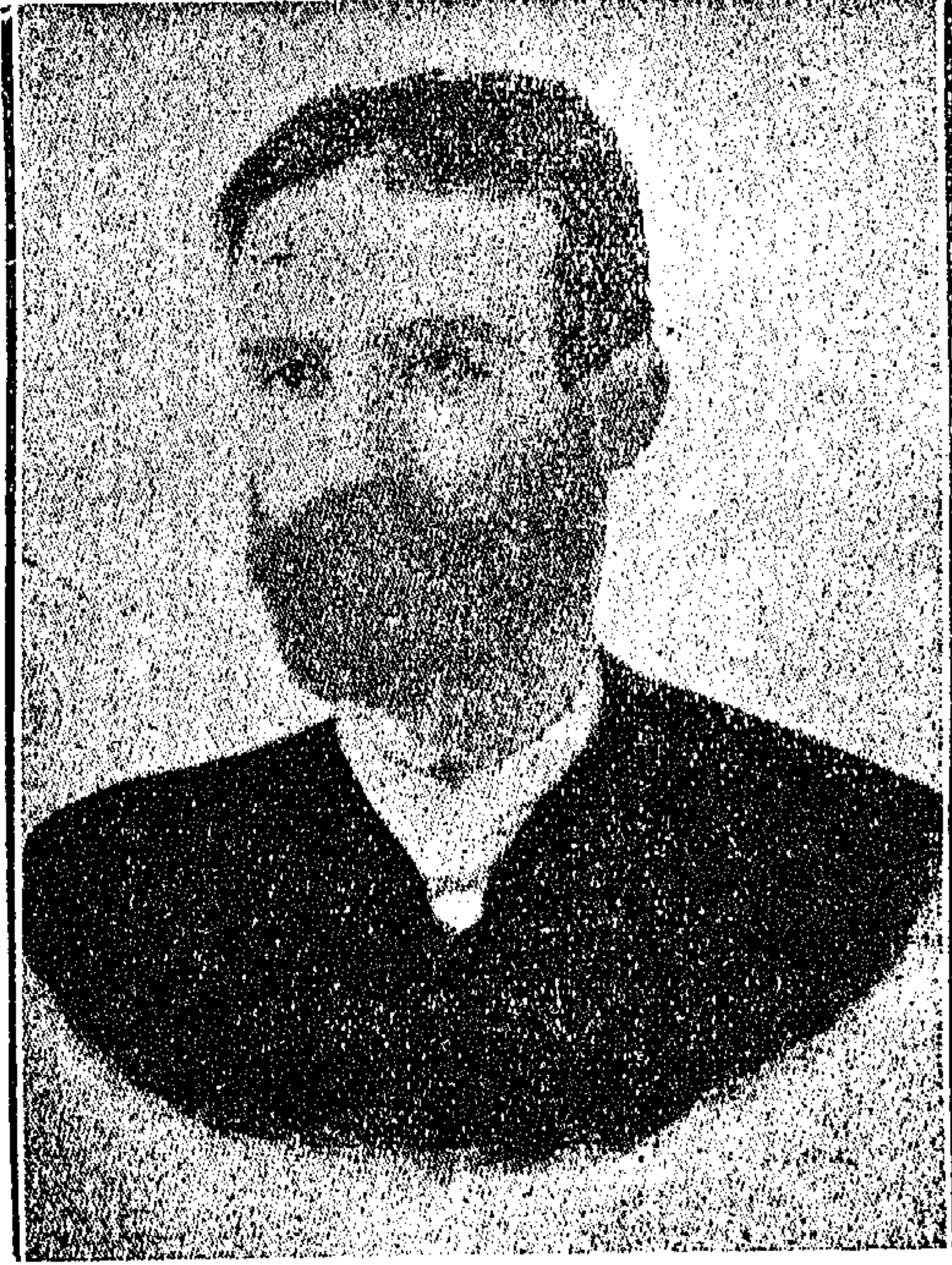


القاضي الكبير محمد بك عثمان جلال
صاحب كتاب « العيون اليواقظ »

الصحف السياسية

ولكى نعطيك صورة صادقة عن هذه الناحية من الحياة الاجتماعية في عهد اسماعيل لانرى بدا من الاشارة إلى ماظهر في عهده الزاهر من الصحف السياسية التي كان لها أكبر فضل في تنبيه الأذهان وشحن الهمم وتوجيه الأنظار إلى العناية بشؤون البلاد العامة وانتقاد ما يستحق الانتقاد، وإليها يرجع الفضل في إذكاء الروح الوطني وترقية أساليب الانشاء وتهذيب لغة الكتابة ولهذا تعد بحق من عوامل النهضة الأدبية في العصر الحديث . وتعتبر جريدة وادي النيل لصاحبها الشاعر الناثر عبد الله أفندي أبو السعود أقدم صحيفة سياسية . فقد انشئت سنة ١٨٦٧ وكانت تصدر في شكل مجلة مرتين في الأسبوع إلى أن ألغتها الحكومة سنة ١٨٧٢

ثم جريدة نزهة الأفكار الأسبوعية (١٨٦٩) لمنشئها ابراهيم بك المويلحي ومحمد بك عثمان جلال ولم يصدر منها إلا عددان ثم عطلت .
« مستعارة من سعادة أحمد شفيق باشا



الكاتب الشهير أديب اسحاق *

= وجريدة الوطن لمنشئها خليل أفندي عبد السيد (١٨٧٧) وكانت سياستها وطنية وطمحها حرة واستمرت إلى ما بعد الاحتلال ثم وقفت حيناً واستأنفت الظهور في سنة ١٩٠٠ .

وفي سنة ١٨٧٧ ظهرت جريدة مصر الأسبوعية محررها أديب اسحق الذي أنشأ في سنة ١٨٧٨ صحيفة « التجارة » وكانت سياسة الصحيفتين وطنية حماسية تجلت فيها تعاليم علامة الشرق السيد جمال الدين الأفغاني وكثيراً ما كان يكتب فيهما إلى أن ألغاهما رياض باشا سنة ١٨٨٠

وعمد محمد بك أنسى بن عبد الله أبي السعود أفندي إلى انشاء جريدة روضة الأخبار بدلا من صحيفة وادي النيل المعطلة

وجريدة الكوكب الشرقى لصاحبها سليم باشا حموى صدرت باسكندرية سنة ١٨٧٣ ولم تعمر طويلا .

ثم جريدة الأهرام لسليم (بك) وبشاره (باشا) تقلا صدرت في الاسكندرية * مستعارة من سعادة أحمد شفيق باشا .



صاحب الأهرام المرحوم بشارة تقلا باشا *

== سنة ١٨٧٥ ثم انتقلت إلى القاهرة وكانت في بداية ظهورها أسبوعية وواجهت شتى
المصاعب إلى أن ابتسم لها الدهر ونالت الرواج الذي تستحقه بفضل سهر أصحابها عليها
واهتمامهم ببلاغها إلى أرقى مكانة في عالم الصحافة حتى أصبحت جديرة بأن تعد مفخرة
صحف الشرق قاطبة .

وجريدة الاسكندرية وقد صدرت أسبوعية في يولية سنة ١٨٧٨

وجريدة الكوكب المصرى للشيخ محمد وفاء .

ومرآة الشرق وهى سياسية أنشأها سليم عنجورى وتنحى عنها في ابريل سنة ١٨٧٩

حيث تولاها ابراهيم بك اللقانى بايعاز السيد جمال الدين الأفغانى .

ثم جريدتا مرآة الأحوال صدرت في لندن سنة ١٨٧٦ « وأبو نضارة » صدرت ==

* هذه الصورة مستعارة من سعادة احمد شفيق باشا .



صاحب الأهرام المرحوم سليم تقلا بك

في القاهرة سنة ١٨٧٧ وكانت من الصحف المعارضة للخديو لصاحبها الشيخ يعقوب صنوع الاسرائيلي العقيدة المصرية الجنسية المسمى بالشيخ (أبو نضاره) وكان في بداية أمره ميالا إلى نقد سياسة الخديو ثم أخذ يحمل على الاحتلال البريطاني فيما بعد إلى أن مات سنة ١٩١٢

وليس يفوتنا أن نسجل هنا أن الخديو اسماعيل كان من أنصار حرية الصحافة ولذا أطلق لها العنان . وإذ رأيت أن معظم الصحف السياسية قد ظهر في أواخر عهده فليس غريباً أن تراها تتنافس في الحملة على المطامع الأوربية والتنديد بالسياسة الاستعمارية .

الصحف الأفرنجية

وطهر من الصحف الأفرنجية في عهد اسماعيل جريدة الفاردي الكسندري في الاسكندرية (١٨٧٤) ثم البروجريه اجبسيان وكانت معارضة للخديو ثم جريدة الريفورم .
الطباعة

وكما تقدمت كل ناحية من نواحي الحياة المصرية في عهد اسماعيل كذلك تقدم فن الطباعة وبلغ شأواً بعيداً حتى أصبحت مطبعة بولاق تضارع المطابع الكبرى . وكان يتولى نظارتها حسين باشا حسني وإليه يرجع الفضل فيما وصلت إليه من التقدم والكمال .

وقد ذكرت الوقائع المصرية في عددها رقم ١٠ الصادر بتاريخ أول يونيه سنة ١٨٧١ أن الخديو اسماعيل أنشأ مصنعاً للورق تولاه حسين حسني باشا وقد أخذ ذلك المصنع



الصحفي المعروف الشيخ أبو نضارة .

يورد لمصانع الحكومة كافة ما تحتاجه من الورق وطبع المؤلفات العلمية هذا عدا الأوراق والدفاتر اللازمة للتجار .

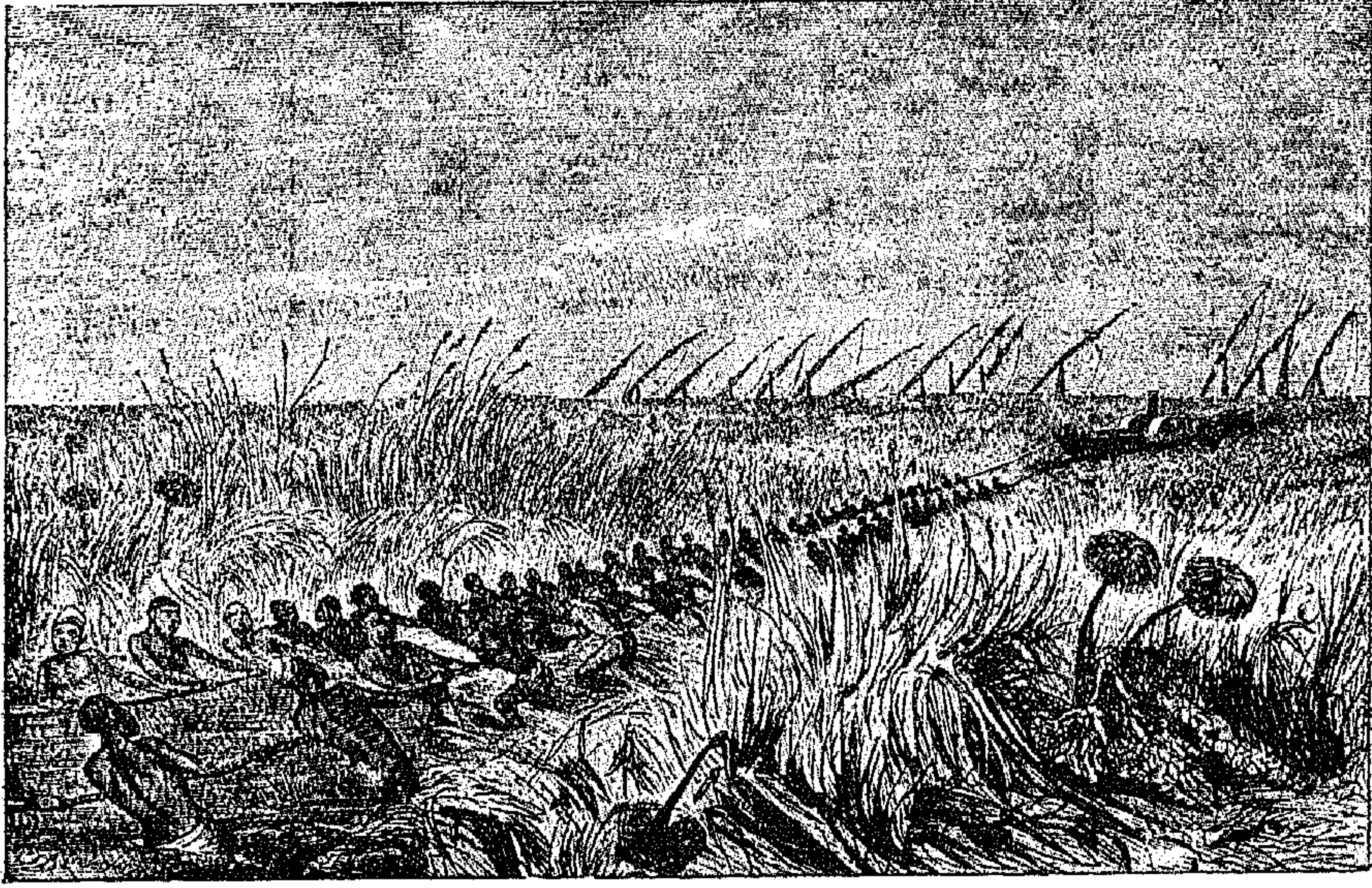
وقد تمكن حسين باشا حسنى من الوصول بمصنع الورق الذى ابتاع آلاته من لندن إلى درجة من الأتقان والأحكام مما جعله ينتج من الورق ما كاد أن يعطل على واردات أوروبا . وكانت جميع نفقات المصنع وثمان آلاته تؤخذ من ربح المطبعة والمصنع حتى قال عنه على باشا مبارك ، إنه أحيى روح المطبعة الأميرية ونشر صيتها فى جميع الأقطار .
وقد توفى سنة ١٨٨٥

ثم أنشئت عدة مطابع أخرى فى القاهرة وكان من أثرها طبع عدة من أمهات الكتب العربية .

مظاهر النهضة العلمية والأدبية

لعلك لاحظت ما بلغت البلاد فى عصر اسماعيل من درجة ممتازة فى عالم الأدب والعلوم ويرجع الفضل فى ذلك إلى عدة عوامل .

منها انتشار التعليم فى المدارس والمعاهد وظهور طائفة من العلماء والأدباء ممن تخرجوا فى المدارس والبعثات أو فى الأزهر على عهد محمد على وخلفائه . وقد ظهرت ثمار قرائح هؤلاء الأعلام فى عهد اسماعيل الذى كان يبالى فى تشجيعهم ولا يفتر عن
* هذه الصورة مستعارة من سعادة أحمد شفيق باشا .



الزواج يسحبون الباخرة رقم ١٠ « باللبان » في الترع وسط الأعشاب »

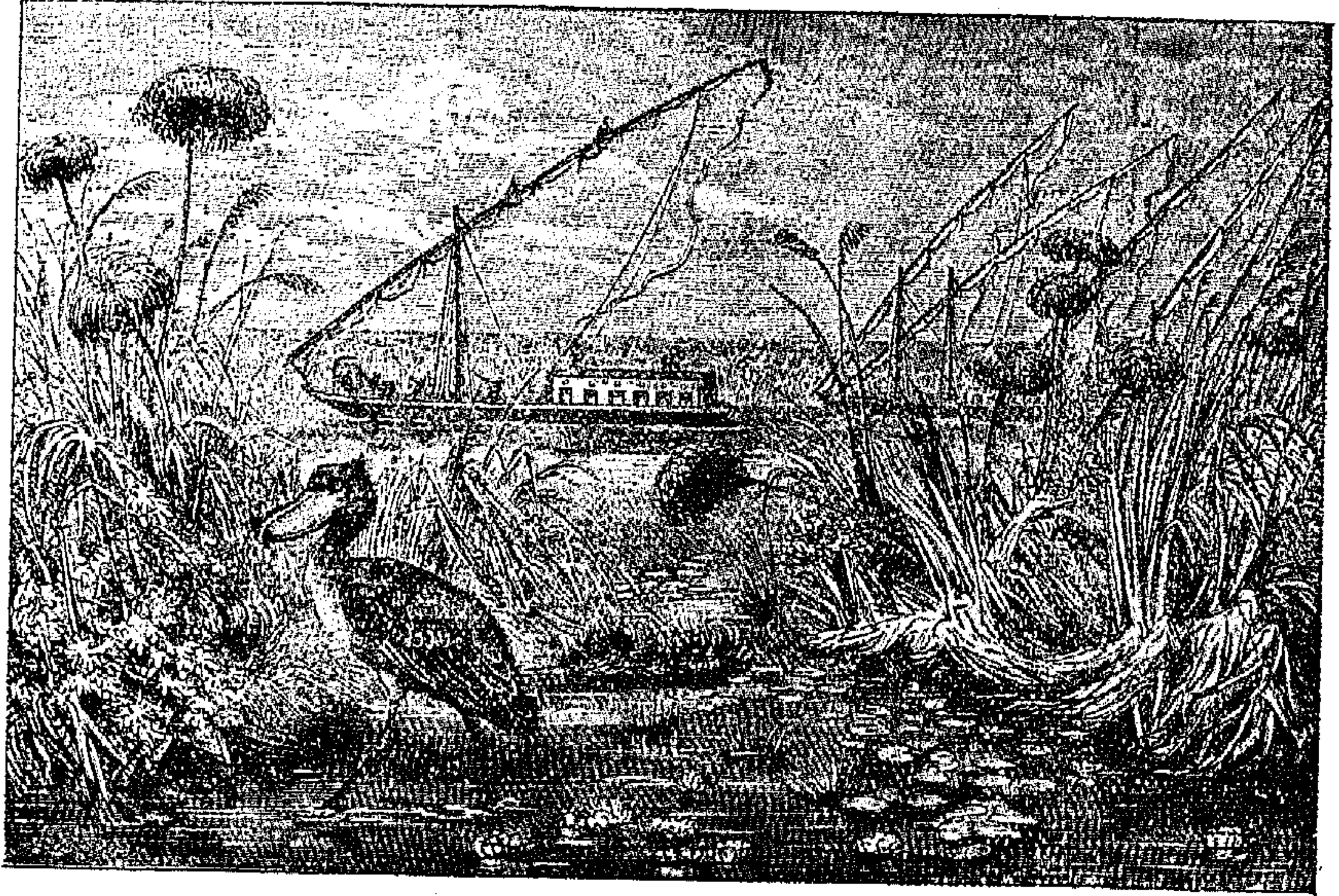
== مساعدتهم واسناد المراد الممتازة في الحكومة إليهم ويمدهم بالمنح السخية فكانت أياديه البيضاء هذه بمثابة أكبر حافز للعزائم وأعظم عضد للنهضة العلمية والأدبية . ثم إن انتشار التعليم كان له أثره الظاهر في نمو النهضة العلمية والأدبية . لأن جمهرة المتعلمين كانوا لا يترددون في تأييد تلك النهضة بالأقبال على ما تنتجه قرائح العلماء . وبديهي أنه لولا هذا الأقبال والتشجيع لتعطلت القرائح ولاختل قانون العرض والطلب في هذا الميدان العلمي والأدبي .

ثم لا تنس أثر السيد جمال الدين الأفغاني الذي هبط مصر فكان هبوطه بمثابة بعث جديد للنهضة الفكرية بما نفخه فيها من روح التجديد والنشاط . وقد ظهر أثره في الحياة العلمية والأدبية والسياسية على السواء ، مما دفع الأمة إلى الأمام .

كذلك لا تنس انتشار الجمعيات العلمية وتقدم الطباعة وظهور الصحف والاهتمام بالتأليف والترجمة والنشر مما حفل به عصر اسماعيل . وقد نشط الأدب والشعر وظهرت طائفة من الشعراء بدأ على شعرهم أسلوب العصر الحديث . وقد أخذت أساليب الكتابة ترقى بعد ترك السجع المتكلف والتخلص من شوائب التعقيد والركاكة .

وفي عصر اسماعيل أيضاً ظهرت طائفة من العلماء المؤلفين والمربين ، فنقلوا عدة من طرائف الكتب الأجنبية مما أفادت به البلاد .

• هذه الصورة مأخوذة من كتاب « الاسماعيلية ، للسير صمويل بيكر .



الوصول إلى منطقة السدود
في أعلى النيل

ومناصب الحكومة التي عهد اسماعيل بها إلى أكفاء المتخرجين من المدارس والمعاهد والبعثات مما كانت نتيجة نهضة سريان النهضة ومد الحكومة ومصالحها كالري والتعليم والهندسة والأدارة والقضاء والصحة والجيش والأسطول بما تحتاجه من الرجال النابهين .

وكان بديهياً ان يكون لهذه النهضة العامة أثرها في تطور الحياة الاجتماعية وبالتالي الحياة الوطنية والسياسية .

أعلام الأدب في عصر اسماعيل

وتسوقنا هذه النبذة التي اقتبسناها من كتاب الأستاذ الراجحي بك إلى سرد أسماء من ذكرهم حضرته من أعلام الأدب الذين ازدان بهم العصر الاسماعيلي .
ويأتي في طليعتهم رفاة بك رافع الطمطاوي ثم علي باشا مبارك ثم السيد جمال الدين الأفغاني .

✽ هذه الصورة مأخوذة من كتاب « الاسماعيلية » للسير صمويل بيكر .



فيلسوف الشرق السيد جمال الدين الأفغانى *

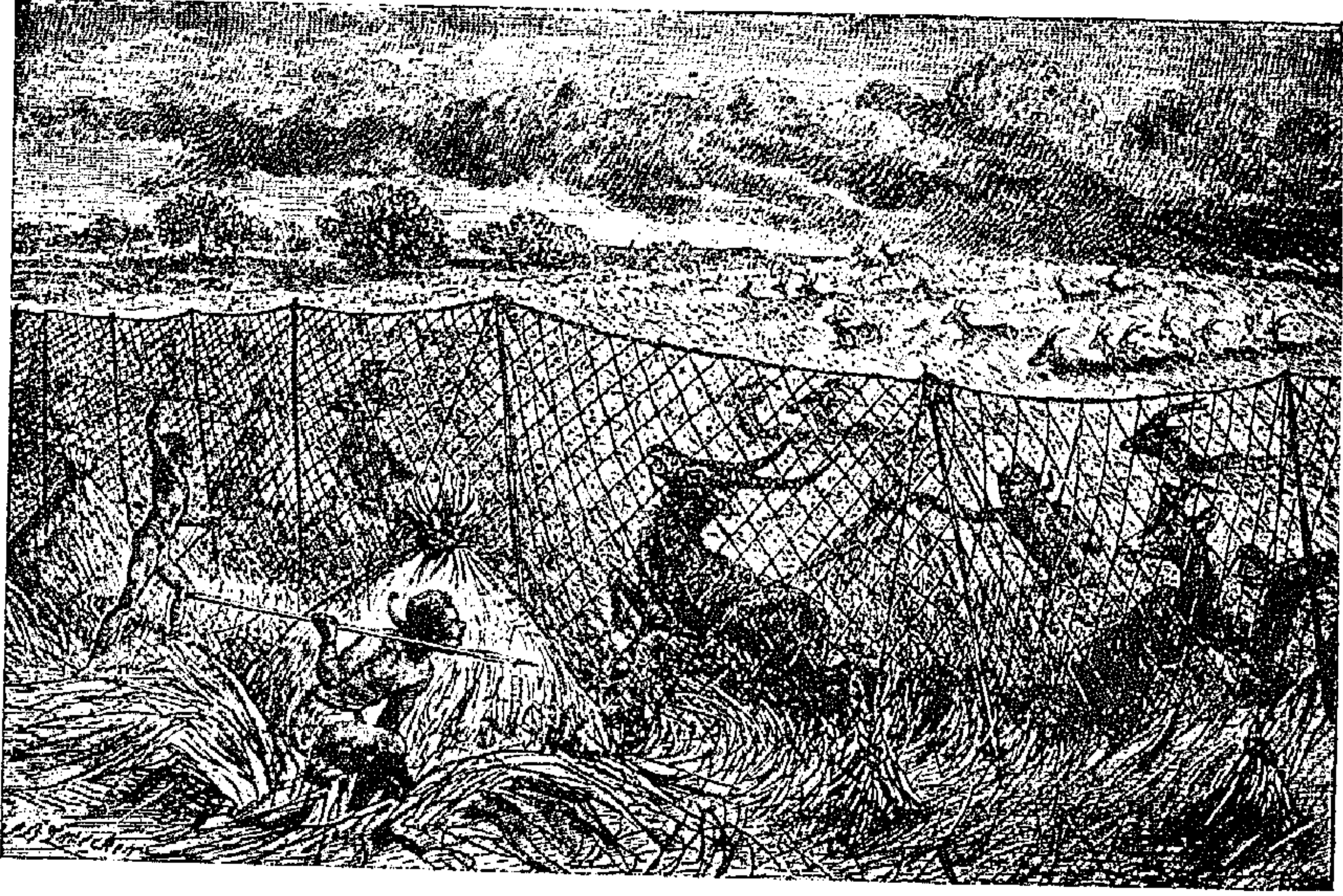
السيد جمال الدين الأفغانى

ولا بد من الوقوف هنيهة لنقول كلمة عن هذا الحكيم الكبير الذى يعتبر بحق باعث نهضة الشرق .

وكتاب كالكتاب الحاضر لا يتسع طبعاً لوفاء حق عبقرى كجمال الدين الأفغانى كما ينبغى فهو خليق بكتاب بأ كمله بل بعدة كتب . لأن الرجل كان متعدد النواحي وكان عظيماً فى كل ناحية من هذه النواحي فما بالك وقد اجتمعت كلها فيه . فلا غرو أن أصبح كبير أعلام الشرق والينبوع الصافى الذى تلقى منه الشرق الحكمة والعلوم حقبة من الزمن كان لها أكبر أثر فى تطوره التطور المشاهد فى كل أرجائه .

ولقد اعتاد الناس ألا يقدرُوا إنساناً إلا بنسبة اتججه كما هو المؤلف فى شأن من تقدم جمال الدين من فلاسفة الرومان أو اليونان والفرس والعرب وغيرهم . ولكن قد

* هذه الصورة مستعارة من سعادة احمد شفيق باشا .



صيد الطباء بالشباك في منطقة كاريقة *

= يحدث أحياناً أن يذهب فيلسوف بعينه إلى العالم الآخر دون أن يدون بنفسه شيئاً من فلسفته أو كلماته وتعاليمه . وفي هذه الحالة ينهض تلاميذه ومريدوه بمن ارتووا بسلسيل هذه التعاليم فينشرونها كما تلقوها عن استاذهم ويملاؤون بها أرجاء الأرض فتثمر ثمرها المطلوب ويصبح وجود أولئك التلاميذ رمزا لفلسفة صاحبها فيسلمونها لأبنائهم وأحفادهم .

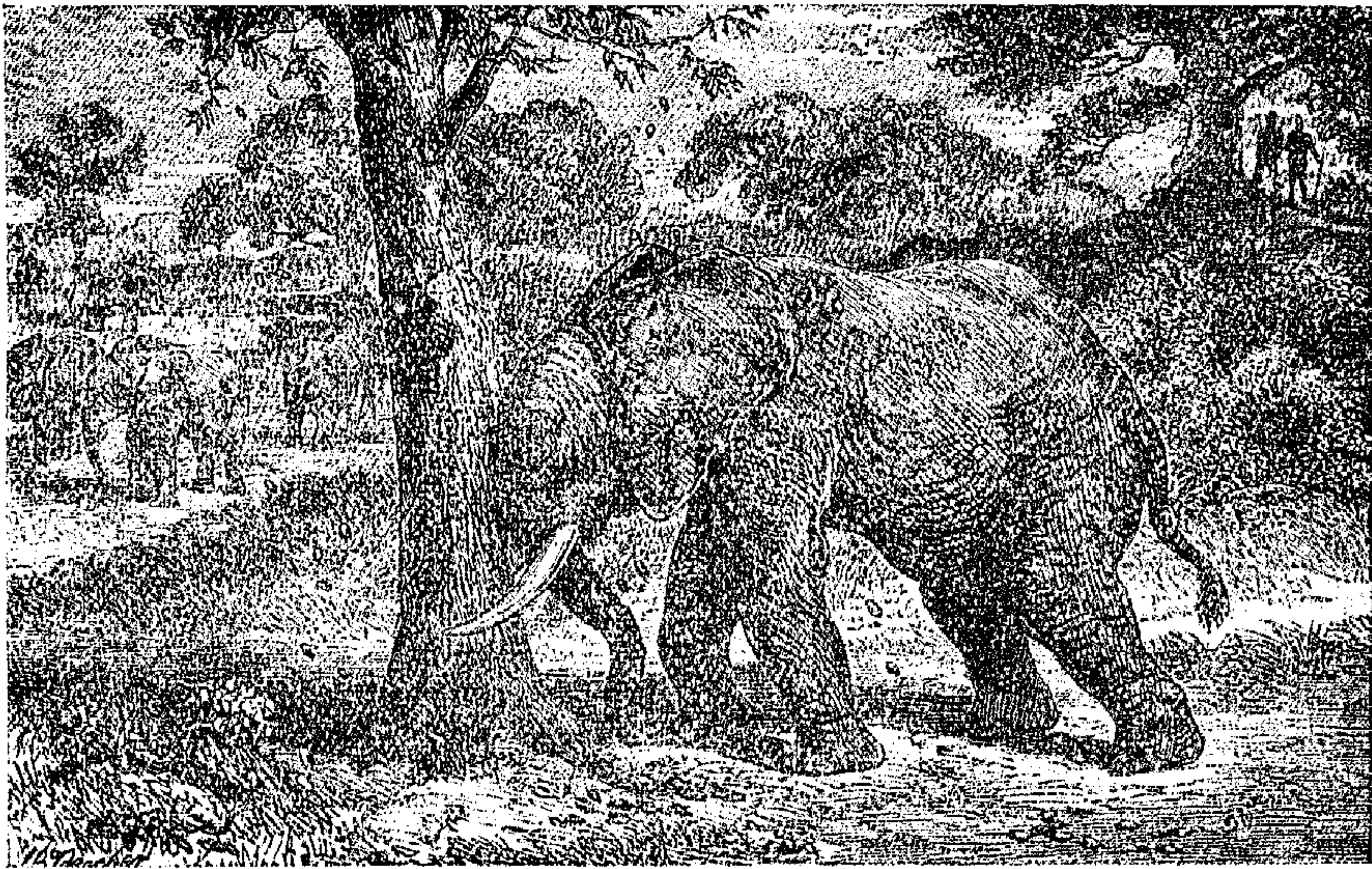
وهاهو سقراط كبير فلاسفة اليونان مات دون أن يدون شيئاً من كلامه على أن ذلك لم يمنع أن تلامذته حفظوا فلسفته ودونوها وأذاعوها بين الخافقين وتوارثها الخلف عن السلف .

فلئن كان حكيم الشرق وفيلسوفه العبقري السيد جمال الدين الأتقاني قد مات دون أن يترك طائفة من الكتب فان ذلك لا يمنع أنه ترك غرساً مشى به مريدوه وتلاميذه بين أنحاء الشرق فآتى أكله .

اسماعيل باشا وتعاليم السيد جمال الدين

وكما أن البذرة لا تؤتي الثمرة الشبيهة إلا إذا غرست في تربة صالحة فكذلك التعاليم والفلسفة لن تثمر شيئاً إلا إذا بثت في بيئة صالحة وتحضرت الأذهان والأفهام لاستيعابها . =

* هذه الصورة مأخوذة من كتاب « الاسماعيلية » للسير صمويل بيكر .



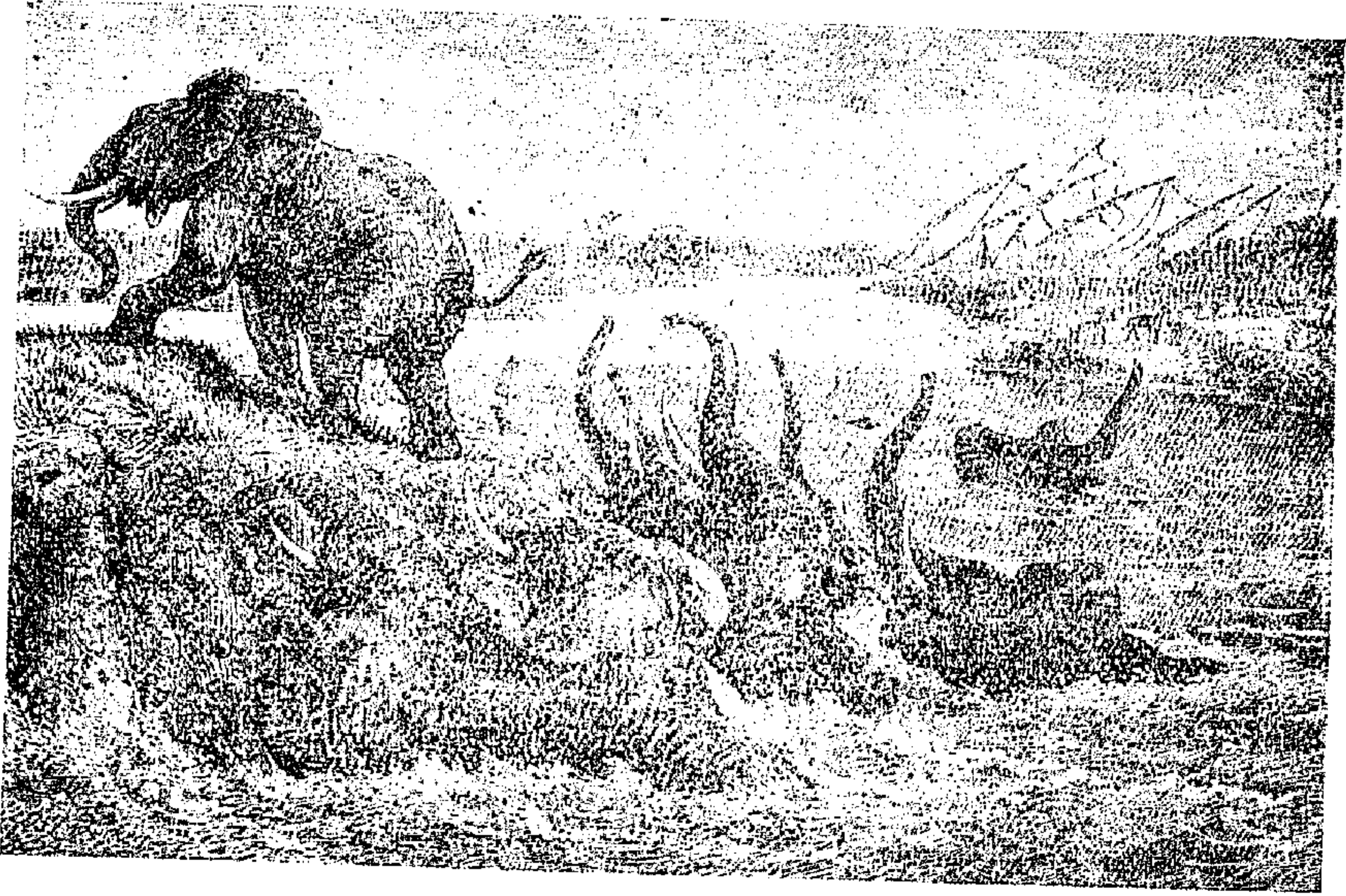
أحد الفيلة الضخمة يهز جزع الشجرة ليحصل على الثمار *

== ومن هنا لا يذكر إنساناً تعاليم السيد جمال الدين الأفغانى وانتشارها فى مصر إلا وذكروا معها الأسرة المحمدية العلوية باعتبارها صاحبة الفضل فى تهيئة الجو الصالح الذى ولدت فيه تعاليم الحكيم الكبير .

فالنهضة الفكرية التى وضع أسسها محمد على وتعهدها اسماعيل بكل ما عرف عنه من همة لا تكمل ولا تمل كانت خير تربة نبتت فيها تعاليم الفيلسوف الأفغانى وأينعت . ولولا تلك النهضة ولولا ما ازدان به عصر محمد على وبخاصة عصر اسماعيل من فحول أعلام الأدب والبيان كما سردناه عليك فى هذه الصفحات ، وبالاختصار لولا المحيط الفكرى والمستوى العلى الراقى الذى وجد فى عصر اسماعيل لما أثمرت تعاليم الحكيم الأفغانى شيئاً . بل لجاء إلى مصر غريباً وغادرها غريباً دون أن يلتفت إليه أحد أو يقتبس أحد منه شيئاً .

وإذا كانت تعاليم ذلك الفيلسوف العبقري قد أثمرت فى مصر كما لم تثمر فى أى بلد آخر من البلاد التى أقام فيها ، وإذا صح لتلاميذ السيد جمال الدين الأفغانى أن يفاخروا بما تلقوه من ضروب الحكمة على يد أستاذهم الكبير فجدير بهم ألا ينسوا فضل الخديو اسماعيل . فهو الذى حرص على أن يدنى منهم ذلك الينبوع الصافى وأن يضيف الفيلسوف ==

* هذه الصورة مأخوذة من كتاب « الاسماعيلية » للسير صمويل بيكر



منظر لقطيع من الفيلة سقط في الماء أمام مطارديه من حملة السير صمويل بيكر *

== الأفغانى فى مصر فى الوقت الذى ضاقت به الأستانة . فلولا سماح اسماعيل بحضور السيد جمال الدين لمصر ورضائه عن بقاءه فيها ، ولولا النهضة الفكرية الراقية التى ازدان بها عصره الزاهر لما عرفت مصر شيئاً عن فيلسوف الأفغان وكبير حكماء الشرق ولعاش ومات دون أن يفيد أحد شيئاً مما حبته به الطبيعة .

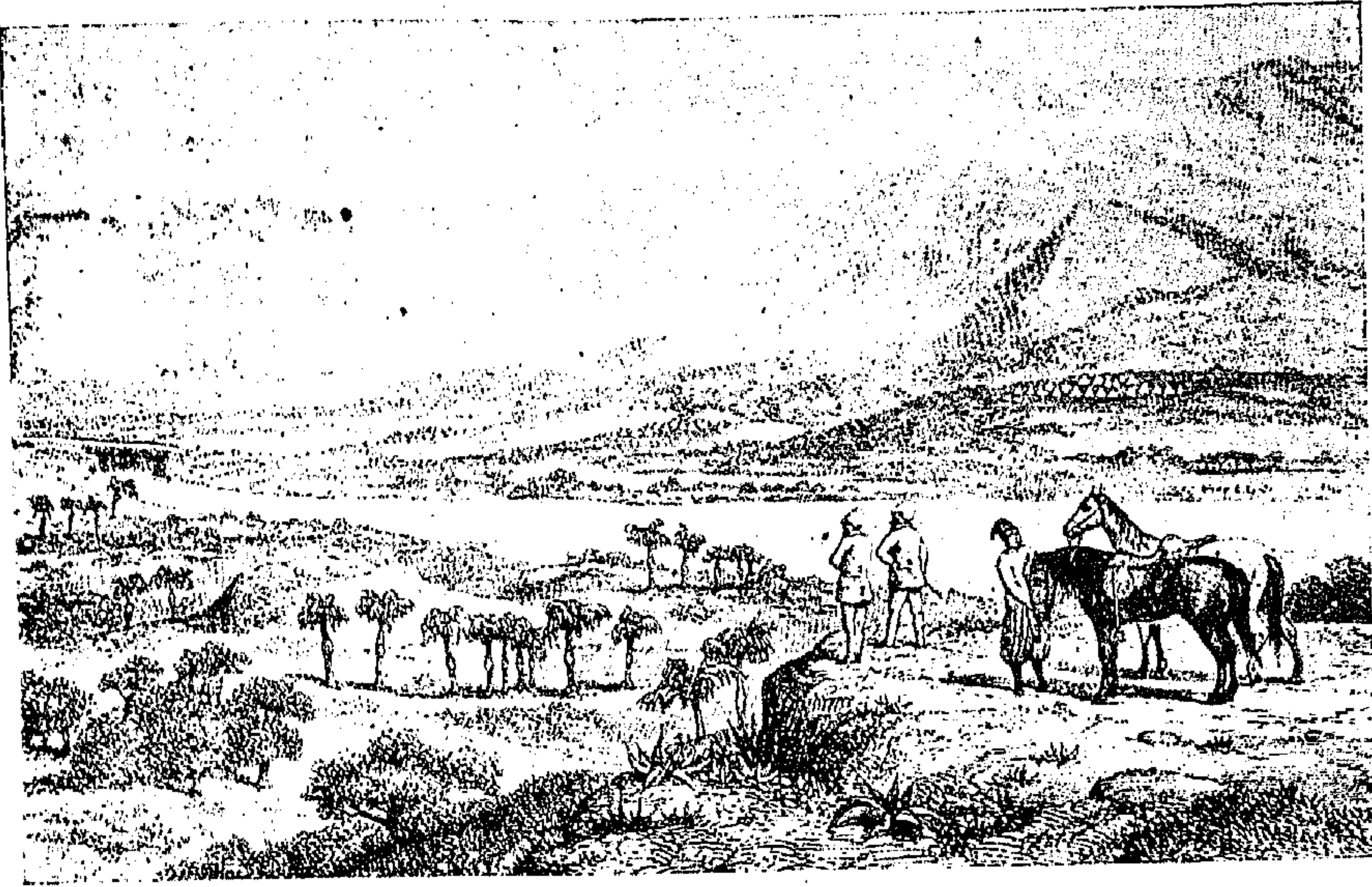
تلك كلمة حق رأينا أن نسوقها قبل الخوض فى تاريخ حياة السيد جمال الدين وهى قبل كل شىء بمثابة دليل على ميل اسماعيل للعلم وحبه الفطرى لتشجيع أهله .

ولادته ونشأته

كانت ولادة المترجم فى سنة ١٨٣٩ بقرية أسعد آباد من قرى كندر من أعمال كابل عاصمة الأفغان . ولا صحة لما تقوله البعض من أن ولادته كانت بايران وأنه كان ايرانياً . وهو ابن السيد صفتر من سادات كندر (الحسينية) كان من بيت شرف وعلم وحسبه أن نسبه يتصل بالسيد على الترمذى المحدث المشهور ثم يرتقى إلى الأمام الحسين ابن على بن أبى طالب (ر) .

ولآل هذا البيت حرمة كبيرة فى الأفغان بسبب نسبها ومقامها الاجتماعى والسياسى . وكانت تملك جزءاً كبيراً من أراضى الأفغان تتمتع فيه بالأمارة والسيادة إلى أن ==

هذه الصورة مأخوذة من كتاب « الاسماعيلية » للسير صمويل بيكر .



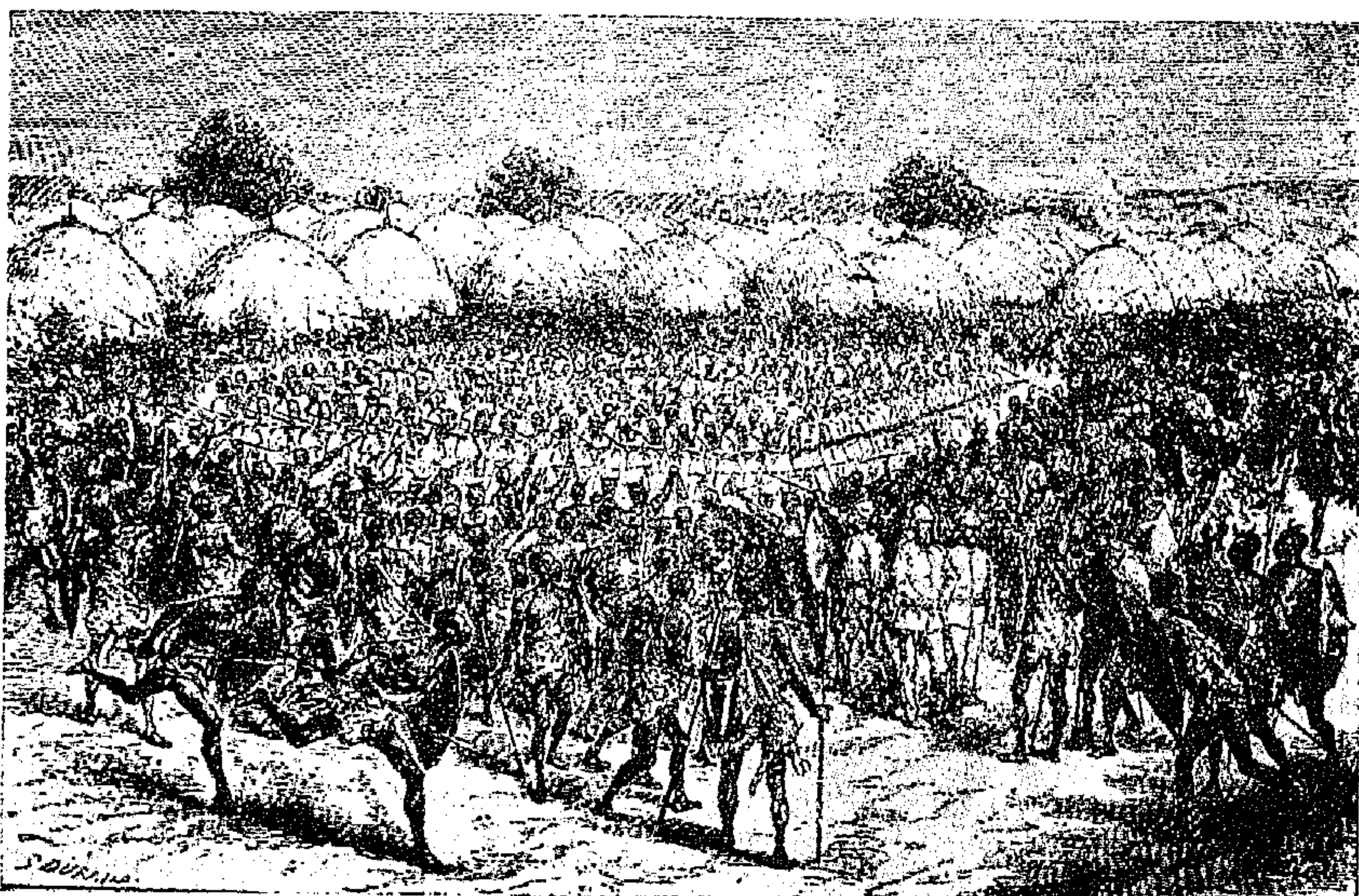
منظر عام للنيل الأبيض بعد عبور الشلال الأخير في جهة أفودو»

== انتزعه منها «دوست محمد خان» أمير الأفغان وقتئذ . ثم أمر بنقل والد السيد جمال الدين وبعض أعمامه إلى مدينة كابل والمترجم لايزال في الثامنة من عمره فاستوطنوا بها من ذلك الحين .

واتجهت عناية الوالد إلى تعليم ولده جمال الدين وتثقيفه فتلقى مبادئ العلوم العربية والتاريخ والفلسفة وعلوم الشريعة من تفسير وحديث وفقه وأصول وكلام وتصوف والعلوم العقلية من منطق وحكمة عملية سياسية ومنزلية وتهذيبية وحكمة نظرية طبيعية وآلية والعلوم الرياضية كالحساب والهندسة والجبر وهيأة الأفلاك ونظريات الطب والتشريح الخ الخ . ولما كان المترجم تبدو عليه منذ صباه مخايل الذكاء والنجابة وتوقد القريحة وقوة الذاكرة فإنه أتم تعليمه ما سلف من المواد وهو بعد في سن الثامنة عشرة من العمر . هذا إلى أنه تعلم أيضا اللغة العربية والأفغانية .

سفره إلى الخارج

ثم عرض له السفر إلى الهند فشرح إليها وأقام بها سنة وبضعة أشهر وهو يدرس العلوم الرياضية على الطريقة الأفرنجية الحديثة . فنضج فكره واتسعت مداركه . وإذا كان شغوفًا بالرحلات واستطلاع أحوال الأمم فقد عرض له وهو في الهند == هذه الصورة مأخوذة من كتاب «الاسماعيلية» للسير صمويل بيكر .



مظاهرة عدائية فجائية حيث اضطرت الجنود إلى تكوين مربع *

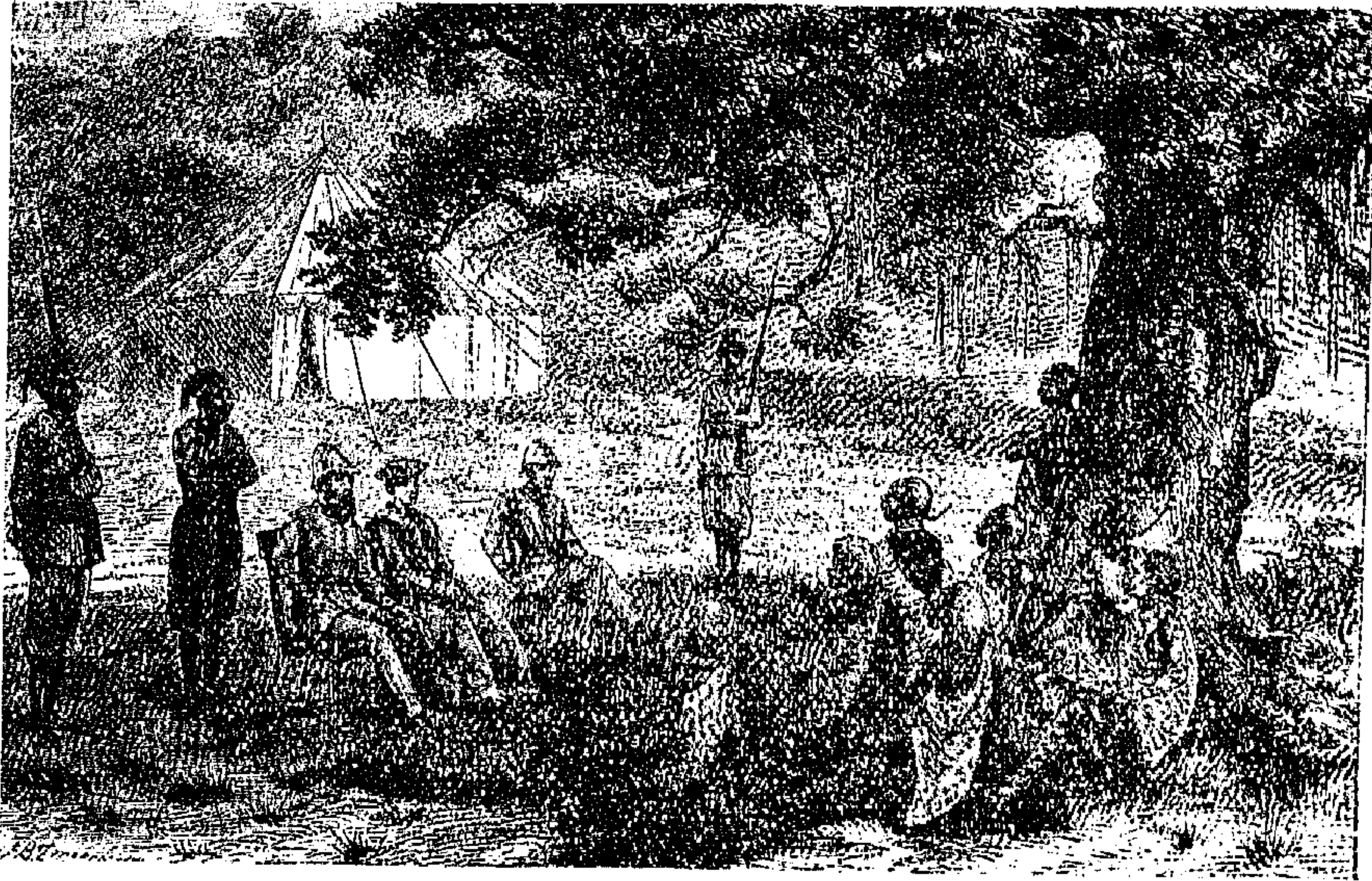
== السفر إلى الحجاز ف قضى سنة يتنقل في البلاد لتعرف أحوالها إلى أن وصل مكة المكرمة في سنة ١٨٥٧ وأدى فريضة الحج .

عودته إلى بلاده

ولما عاد إلى بلاده من هذه الرحلة اختاره الأمير محمد دوست خان للعمل في سلك حكومته . ولما عن لهذا الأمير أن يزحف على مدينة هراة من مدن الأفغان استصحب معه المترجم . وقد ضرب الأمير الحصار على المدينة ولكنه لحق بربه أثناء هذا الحصار الطويل . ثم سلمت المدينة فيما بعد .

وكان لاشتراك المترجم في هذه الحملة أثره في حياته المقبلة إذ علمته الشجاعة واقتحام الأخطار والصبر على الخطوب ومقابلتها بصدر رحيب .
فاذا أضفت إلى هذه الصفات نشأة المترجم في كنف أبيه ورعايته وتربيته في مهاد العز وهو هو الذي نشأ من أرومة المجد المزدانة بشرف النسب والتي اعتزت بالأمارة والحكم - زمناً ليس بالقصير - لرأيت السر فيما كان عليه المترجم من عزة النفس التي كانت أبرز صفاته .

ثم تقلد الأمارة ولى عهداً شيراً على خان سنة ١٨٦٤ وأشار عليه وزيره محمد رفيق خان بالقبض على إخوته ومنهم الأمراء محمد أعظم ومحمد أسلم ومحمد أمين ==
* هذه الصورة مأخوذة من كتاب « الاسماعيلية » للسير صمويل بيكر .



السير صمويل بيكر وعقيلته وابن أخيه يستقبلون روط جارنا شيخ قبيلة فييرا

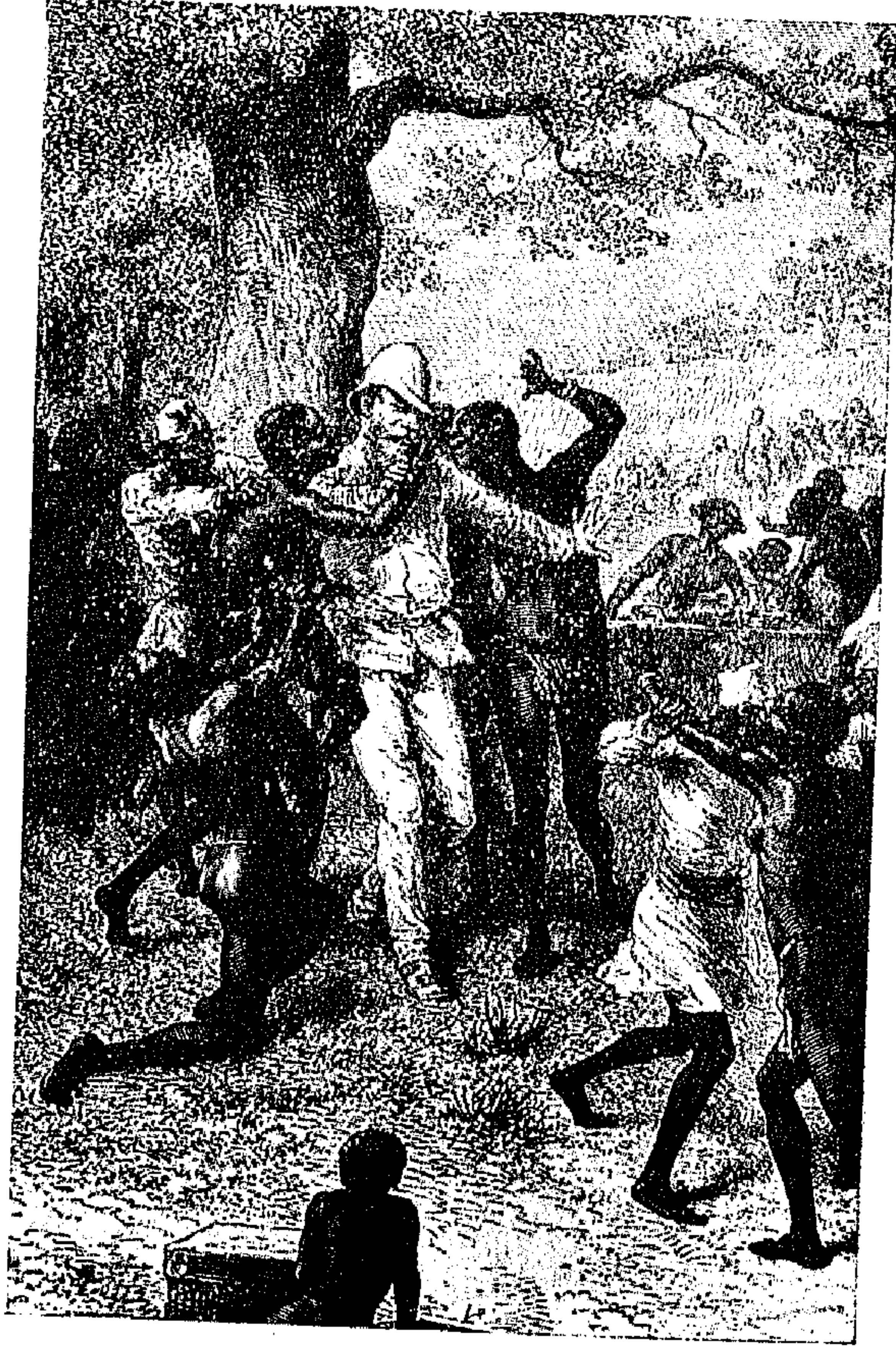
واعتقالهم اتقاء الفتنة. وكانت بئس المشورة فان المترجم انضم إلى محمد أعظم واشتعلت نار الحرب الداخلية التي انتهت بفوز محمد أعظم وابن أخيه عبد الرحمن ودخولهما العاصمة وإطلاق سراح أخيه محمد أفضل والد الأمير عبد الرحمن من سجنه والمناداة به أميراً على أفغانستان. ثم توفي محمد أفضل بعد سنة وتقلد الأمانة الأمير محمد أعظم الذي أخذ يببالغ في إكرام المترجم اعترافاً منه بحسن رأيه الذي أدى به إلى التغلب على أخيه شير علي خان .

وكادت الامور أن تستقر لمحمد أعظم بفضل مشورة المترجم وحسن رأيه لولا أن الأمير كان سيء الظن بذوى قرباه مما حمله على تفويض مهمات الأعمال إلى أبنائه الأحداث وهم خلو من التجربة .

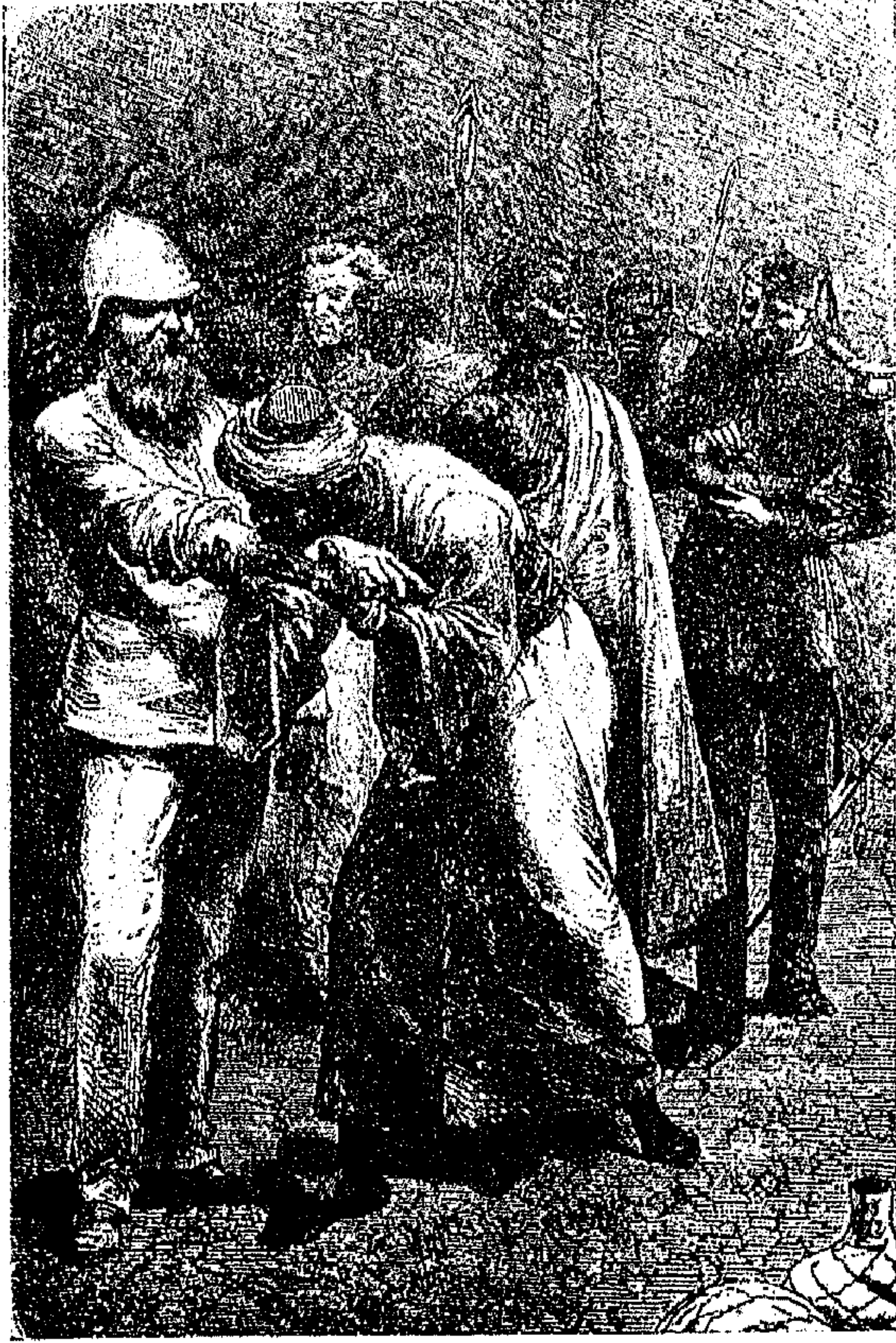
فدفع الطيش أحدهم وهو والى قندهار إلى التحكك بعمه شير علي وكان لا يزال في هراة ولم يكن له من الملك سواها . وقد ظن الفتى أنه بتغلبه على عمه يفوز بالحظوة لدى أبيه فيقدمه على سائر اخوته .

فلما التقى بجيش عمه دفعته الجرأة ورعونة الشباب إلى الانفراد عن جيشه في مائتي جندي اخترق بها صفوف أعدائه . فاستولى عليهم الرعب وتملكتهم الحيرة وكادوا أن يولوا الأدبار .

هذه الصورة مأخوذة من كتاب « الاسماعيلية » للسير صمويل بيكر .



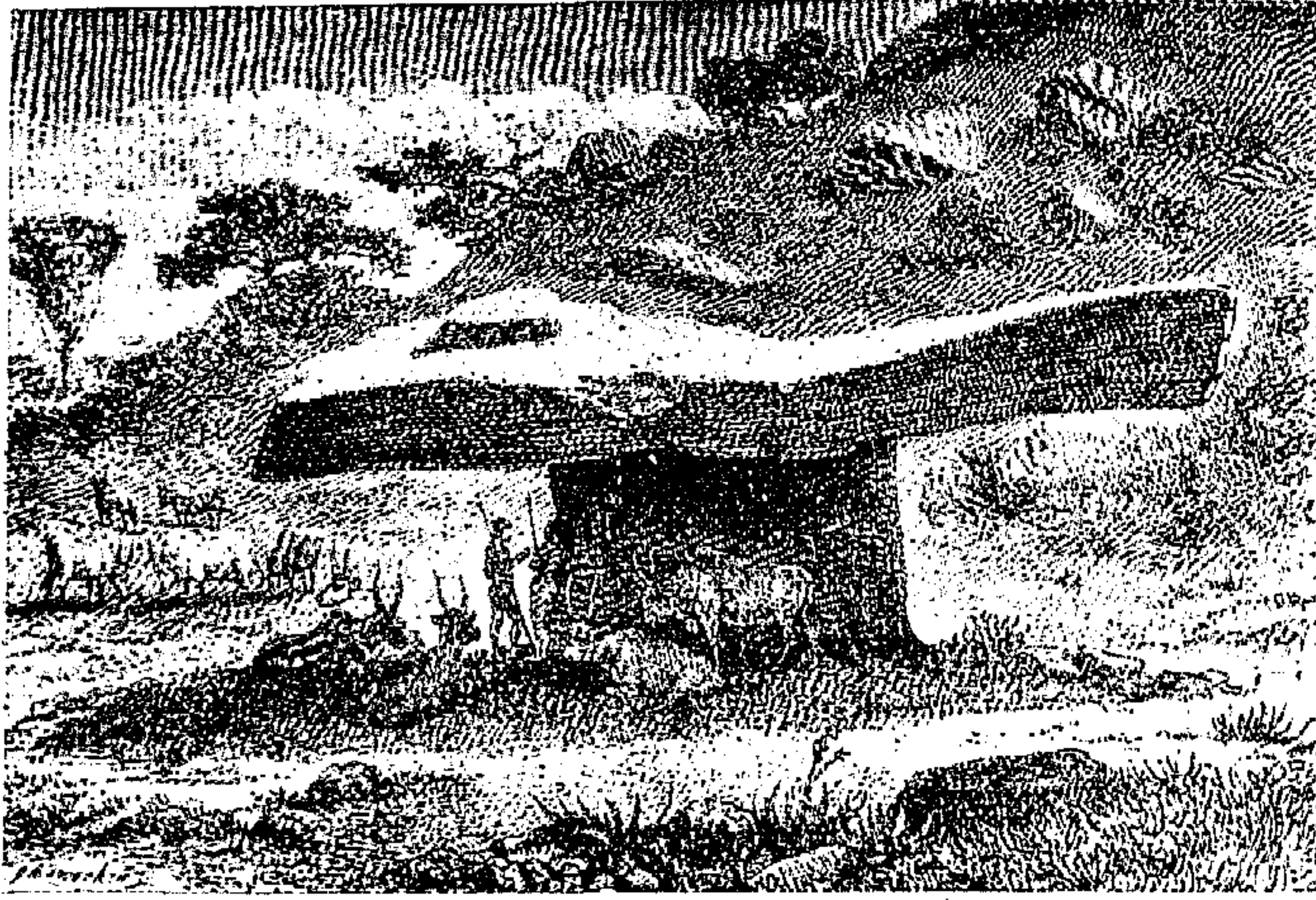
الزوج يعانقون السير صمويل بيكر في غوندوكرو دليلا على شدة اعترافهم بجميله *
= ولكن التفاتة واحدة من يعقوب خان قائد شير علي أقنعته بانقطاع الفتى عن جيشه
فكر عليه وأخذه أسيراً . ومن ثم تشتت جيش قندهار وعاود الأمل الأمير شير علي
فاستولى على قندهار واستؤنفت الحرب الداخلية من جديد .
وفي هذه الأثناء كانت السياسة الإنجليزية تمد شير علي بالمال بلا حساب فراح ينفق
منها على الرؤساء والعاملين في جيش أخيه محمد أعظم « فبيعت أمانات ونقضت عهود
وجددت خيانات » كما يقول الأستاذ الأمام الشيخ محمد عبده .
وبعد حروب هائلة تمت الغلبة لشير علي وانهمز محمد أعظم وابن أخيه عبد الرحمن
وفر الأول إلى إيران حيث مات بعد أشهر بمدينة نيسابور بينما فر الثاني إلى بحاري .
ومعذرة للقارىء ، لذكرنا هذه التفاصيل التي قد يراها خارجة عن الموضوع . =
* أخذت هذه الصورة من كتاب « الاسماعيلية » للسير صمويل بيكر .



كابريقة يمتص دم السير صمويل بيكر بعد اللسعة للحيلولة دون سريان السم .

ولكننا نعلمنا اثباتها لتخلص منها إلى أن المترجم برغم زوال الملك الذي شيده لصديقه محمد أعظم لم تحدثه نفسه بالفرار من كابل كلاب بل ظل فيها رابط الجأش دون أن يتهيب بطش الأمير المنتصر ودون أن يسعى لتلقه أو نيل رضاه . ومع ذلك فإن شير علي كان لا يجرؤ على مس المترجم بسوء احتراماً لعشيرته وخوف انتفاض العامة عليه . على أن هذه الحروب الداخلية قد تركت طابعها الدائم في نفس المترجم . فلقد رأى بعينه أصبح السياسة الإنجليزية فيها وأساليبها المترامية الأطراف في تفريق الكلمة . ومن هنا أشربت نفسه العداة لتلك السياسة بصفة خاصة والمطامع الأوربية عامة . وقد لازمه هذا الكره وصار عقيدة راسخة له طيلة حياته .

« أخذت هذه الصورة من كتاب « الاسماعيلية » للسير صمويل بيكر .



منظر منضدة طبيعية غربية من الصخر قائمة في جهة الرجاف *

رحلته إلى الهند

على أن شير على لم ينفك عن الاحتيال للغدر بالمرجم والانتقام منه بوجه يلتبس على الناس حقه وباطله . فرآى المترجم أن يغادر بلاد الأفغان . فاستأذن الأمير للحج فأذن له على شرط ألا يمر بايران تفاديا من مقابلة محمد أعظم وكان لا يزال على قيد الحياة . وهكذا رحل المترجم عن طريق الهند في سنة ١٨٦٩ (أى بعد هزيمة محمد أعظم بثلاثة أشهر) . ولما كانت شهرته قد سبقته إلى تلك الديار لما عرف عنه من الحكمة والعلم فإن الحكومة الإنجليزية - ولم يكن يخفى عليها عداؤه لسياستها وما يحدثه مجيئه إلى الهند من إثارة روح الهياج في النفوس وبخاصة لأن الهند كانت ماتزال في حالة قلق وفتن بالرغم من اخماد فتنة سنة ١٨٥٧ المشهورة - رأت تلك الحكومة أن تستقبله عند الحدود الهندية بمنتهى مظاهر الحفاوة والأكرام ولكن دون أن تسمح له بأطالة مدة إقامته . كما أنها لم تأذن للعلماء بالاجتماع به إلا تحت أعين رجالها . فقضى في ربوع الهند شهرا ثم أنزلته الحكومة إحدى سفنها فأقلته إلى السويس .

زيارته لمصر لأول مرة

وصل المترجم إلى مصر في سنة ١٨٧٠ ولم تكن نيته في أول الأمر الإقامة بها لأنه كان يقصد مكة كما قدمنا . ولكن الناس ما كادوا يسمعون بمقدمه حتى هرعوا إليه =

* هذه الصورة مأخوذة من كتاب « الاسماعيلية » للسير صمويل بيكر .



الأمير حلیم باشا المطالب بالآريكة الخديوية

== لينهلوا من ذلك المورد العذب وتردد السيد على الأزهري وكان يسكن بيتاً بجنان الخليلي .
ومن ثم تحول عزمه عن زيارة الحجاز ولبث في مصر . ٤ يوماً قصد بعدها الاستانة .
رحلته إلى الاستانة

وما أن نزل السيد إلى الاستانة حتى لقي كل حفاوة واکرام من حكومة السلطان
عبد العزيز لأن الصدر الأعظم عالی باشا أحد ساسة الأتراك الأفاضل كان يعرف
مكاتبه . ثم أقبل عليه القوم بما لم يسبق له مثيل وأصبح مقرباً من الأمراء والوزراء
والعلماء وتناقلوا الثناء عليه . ولم تمض ستة أشهر حتى أرادت الحكومة الانتفاع
بمواهبه فعينته عضواً في مجلس المعارف فأدى مهمته بأمانة وحزم واقترح طرقاً لتعميم
المعارف لم يقره عليها زملاؤه وبينها مأساء شيخ الإسلام وقتذاك لأنها كانت تمس
شيئاً من رزقه فأضمر له سوء .

وما أن وافي شهر رمضان سنة ١٢٨٧ هـ (١٨٧١) حتى رغب إليه مدير دار
الفنون أن يلقي فيها خطاباً للحث على الصناعات . ولكن المترجم اعتذر بضعفه في اللغة
التركية . فالح عليه المدير فكتب خطاباً طويلاً عرضه قبل إلقائه على نخبة من أصحاب
المناصب العالية فأقروه واستحسنوه .

فلما كان اليوم المعين هرع الناس لسماع الخطاب وبينهم كثير من الوزراء ورجالات ==

ذلك الحين إحدى قواعد الإسلام (كذا!) وظاهرة من ظواهر الملكية

الحكومة وأقطاب أهل العلم وأرباب الصحف . فلما اعتلى السيد المنبر وشرع يسحر
الألباب ببلاغته بدأ بعض المشايخ يستنكرون شيئاً من آرائه . واتصل الخبر بشيخ الإسلام
- وكان متغيراً عليه كما قدمنا - فرماه بالزيف في عقيدته وأوصى وعاظ المساجد بذكر
كلامه مخفوقاً بالتنفيذ والتنديد مما غضب له السيد وطلب إلى الحكومة محاكمته .
ولكن الحكومة انحازت إلى شيخها وطلبت رحيل السيد عن الأستانة بضعة أشهر
وإذا تهدأ الخواطر ويسكن الاضطراب ثم يعود إليها إن شاء . فرحل عنها ورغب إليه
بعض من كان معه التحول إلى مصر فعمل برأيهم وهبط إلى القاهرة في أول المحرم
سنة ١٢٨٨ هـ (٢٢ مارس سنة ١٨٧١) .

عودته إلى مصر وإقامته بها

ولم يكن في نيته الإقامة في مصر هذه المرة بل جاءها قصد التفرج على مناظرها
واستطلاع أحوالها . ولكن رياض باشا - كبير وزراء اسماعيل باشا وقتئذ - مازال
يرغب إليه البقاء في مصر وأجرت عليه الحكومة راتباً شهرياً مقداره . . . ١ قرش نزلاً
أكرمه به لافي مقابل عمل يقوم به . واهتدى إليه كثير من طلبة العلم وحملوه على التدريس .
وكان أسلوبه في التدريس مخاطبة العقل وتمزيق حجب الأوهام وحمل تلامذته
على العمل في الكتابة وإنشاء الفصول الأدبية والحكمية والدينية والاجتماعية والسياسية
فتقدم في عهده فن الكتابة في مصر . وظهرت على يده نهضة في العلوم والأفكار
أنتجت أطيب الثمرات . ولم تكن حلقات دروسه ومجالسه قاصرة على طلبة العلم بل كان
يؤمها كثير من العلماء والموظفين والأعيان .

وهنا لابد من التنويه بفضل الخديو اسماعيل في استبقاء ذلك الينبوع الصافي في عاصمة
الديار المصرية إذ لولا بعد نظره لجاء السيد إلى مصر وغادرها دون أن يحس أو ينتفع
به أحد . ثم لا تفوتك أهمية صنيع الخديو هذا . فلقد رأيت كيف بارح المترجم الأستانة
وبأية طريقة فسرعان ما تلقفه اسماعيل باشا وبذا ظهر بحق بمظهر حامى العلم في شخص
الفيلسوف الأفغانى . وهو عمل لا يخفى ماله من حسن الأثر وطيب الأحدثه إذ هو
يبرى الناس بحق أن مصر تأوى العلماء والحكماء حين تضيق بهم « دار الخلافة » وأن

وأن ينضم إلى الدول المسيحية لإلغائه بصفة دولية. ولكن اسماعيل ذهب إلى

==عاهل مصر العظيم أولى من السلطان بالثناء والتقدير لأنه يفسح للعلم رحابه ويوطئ له في وادى النيل أكنافه .

أثر المترجم في السياسة

قد رأيت أن المترجم عاد إلى مصر من الاستانة في أوائل سنة ١٨٧١ . فما أن حانت سنة ١٨٧٦ حتى بدأت مظاهر التدخل الأجنبي أولاً بابتياح إنجلترا أسهم مصر في قناة السويس ثم قدوم بعثة كيف الانجليزية لفحص المالية المصرية ثم عجز الحكومة عن أداء أقساطها وما تلا ذلك من انشاء صندوق الدين في مايو سنة ١٨٧٦ . فلم يكن عجيباً منه أن يشن الغارة الشعواء على السياسة الانجليزية وأن يحمل عليها الحملات العنيفة . وكان قد انخرط في سلك الجمعية الماسونية ثم أصبح من الرؤساء فانشأ له محفلاً وطنياً تابعاً للشرق الفرنسي دعا إليه مردييه من العلماء والوجهاء حتى بلغ عددهم أكثر من ٣٠٠

ونظراً لعداء المترجم للسياسة الانجليزية وتعاضم خطر محفله خشى قنصل إنجلترا العاقبة وخاصة بعد مارآه من ظهور روح المعارضة واليقظة في مجلس الشورى على يد نواب من تلاميذ المترجم وعلى رأسهم عبد السلام بك المويلحي (باشا) فوشى به إلى الحكومة وبث الرقباء في المحفل فسعوا فيه فساداً .

ولسنا نغالي إذا قلنا إن ما كان يبثه المترجم من روح التدمير ضد السياسة الانجليزية هو الذي هيأ الأفكار للثورة العراقية المشؤومة . فهو بلا ريب أبو الثورة من الوجهتين الفكرية والروحية ثم إن كثيراً من أقطابها من تلاميذه أو مردييه هذا فضلاً عن أنها في ذاتها استمرار للحركة السياسية التي كان لجمال الدين يد في ظهورها على عهد اسماعيل . وأغلب الظن أنه لو بقي هو واسماعيل في مصر حين نشوب هذه الثورة لكان الأرجح أن يمداهما بارآئيهما الحكيمة وتجاربهما الرشيدة ويتنكبا بها طرق الزلل والخطل . ولكن شاءت الأقدار أن يكونا بعيدين عن مصر فتخسر البلاد نصيحتهما الغالية .

بين جمال الدين وتوفيق باشا

ولا بد من الوقوف هنيهة هنا لنطلع القارى على ناحية أخرى من نواحي أخلاق اسماعيل السامية وكيف أنه كان أوسع صدراً من أن يضيق بالعلماء والحكام مهماً أسرفوا في إساءته .

مدى أبعد من مجرد إصدار الأوامر العالية ونجح فعلاً في طعن هذه التجارة



عبد السلام باشا المويلحي *
عضو مجلس شوري النواب سابقاً

== فان الفيلسوف الأفغاني اندفع في سياق حملته على السياسة الانجليزية إلى التنديد باسماعيل وبسياسته . ثم غره ما رآه من ميل الأمير محمد توفيق إلى الشورى واستمراره وهو ولي العهد على انتقاد سياسة أبيه مما جعل الفيلسوف يتوسم فيه الخير . وقد اجتمعا مرة في محفل الماسونية وتعاهدا على إقامة دعائم الشورى .

ومع أن اسماعيل كان على علم بهذا كله لم يشأ أن يتحمل وزر إبعاد المترجم عن مصر رغم الحاح قنصل إنجلترا وقتذاك .

ولكن يأبى القدر الساخر إلا أن يتنكر له توفيق باشا عند ارتقائه الأريكة وأن يصغى إلى ما كان يروجه عنه من الوشائيات رسل الاستعمار الأوربي في مصر لأنهم كانوا ينقمون من السيد روح الثورة والدعوة إلى الحرية والدستور (وهي المبادئ التي تم الاتفاق عليها بينه وبين الأمير محمد توفيق في محفل الماسونية من قبل .) والآن فاسمع ما حدث .

إبعاد السيد جمال الدين عن مصر

فان الخديو توفيق - بعد اصغائه لوشائيات الواشين - عقد مجلس الوزراء برئاسة

وأصدر أمراً بنفى السيد جمال الدين .

* مستعارة من سعادة احمد شفيق باشا

المرذولة طعنة نجلاء أصابت الصميم معر ضا في ذلك نفوذه وعرشه للخطر.

== لا بل إن النقي تم بشكل هو غاية القسوة والغدر . فلقد ذكرت جريدة الأهرام الصادرة في صبيحة ٢٨ أغسطس سنة ١٨٧٩ (الموافق ٨ رمضان سنة ١٢٩٦) أنه قبض على السيد في ليلة الأحد سادس رمضان وهو ذاهب الى بيته هو وخادمه الأمين (أبو تراب) وقد حجرا في الضبطية ولم يتمكن حتى من أخذ ثيابه . وعند الصباح حمل المترجم في عربة مقفلة إلى محطة السكة الحديدية ومنها نقل تحت المراقبة الشديدة إلى السويس وأنزل منها إلى باخرة أقلته إلى بومباي .
ومن بومباي قصد المترجم إلى حيدر آباد الدكن حيث كتب فيها رسالته الرد على الدهريين .

ولما هبت ريح الثورة العراقية بمصر استدعته السلطة البريطانية من حيدر آباد إلى كلكته وألزمته الإقامة بها إلى أن أخذت ريح هذه الثورة .

رحلته إلى أوروبا

وإصدار جريدة العروة الوثقى

عقب احتلال إنجلترا لمصر أبيع للمترجم السفر إلى أي بلاد أراد . فسافر إلى أوروبا وقصد أولا لندن . ثم غادرها بعد أيام إلى باريس حيث وافاه إليها تلميذه الأكبر الشيخ محمد عبده وكان منفيًا في بيروت عقب إخماد الثورة .

وفي باريس شرع الحكيمان يصدرا مجلة العروة الوثقى نسبة إلى جمعية العروة الوثقى التي أنشئت في مصر لحث الأمم الإسلامية على التضامن ومجاهدة الاستعمار وتحرير مصر والسودان . وكانت تضم رهطا كبيرا من أقطاب العالم الإسلامي وكبرائه . وقد كلفتهما الجمعية باصدار تلك المجلة لتكون لسان حالها .

وقد قامت الموانع دون استمرارها فتعطل صدورها بعد أن ظهر منها ثمانية عشر عددا . وسلخ جمال الدين ثلاث سنوات في باريس نشر خلالها المباحث السياسية والمقالات الهامة في اعتداء الدول الأوروبية على البلاد الإسلامية .

مقابلته لرينان الفيلسوف الفرنسي

وجرت له أبحاث فلسفية مع الفيلسوف الفرنسي رينان في موضوع العلم والأسلام ، مما جعل رينان يكبر فيه عمق ريته وسعة علمه وقوة حجته حتى قال عنه « كنت أتمثل ==

لأن النخاسة كانت أهم لمصر منها لأية دولة شرقية أخرى . فلقد كان نهر النيل والبحر الأحمر هما المنفذان الطبيعيان اللذان يصل خصيان أواسط

أمامي عندما كنت أخاطبه ابن سينا أو ابن رشد أو أحدا من اساطين الحكمة الشرقيين . وسافر إلى لندن بدعوة من اللورد تشرشيل واللورد سلسبرى وسألاه عن رأيه في المهدي وظهوره إذ ذاك . ثم عاد إلى باريس حيث تبوأ مقعده اللائق به بين فلاسفتها وعلمائها .

أسفار المترجم

وتأقت نفسه إلى زيارة نجد ولكنه عدل عنها إلى إيران بدعوة من الشاه . فلما بدأ ينحرف عنه أدرك المترجم ذلك فاستأذنه في السفر فأذن له . فقصده إلى موسكو فبطرسبرج وتعرف بعلماء الروس وفلاسفتهم وكبار ساستهم ونشر في جرائدها المقالات الطنانة في سياسة الأفغان وتركيا وانجلترا وكان لها أكبر دوى وقتئذ في عالم السياسة . وفي سنة ١٨٨٩ افتتح المعرض العام في باريس فعاد إليها المترجم ولكن سرعان ما سافر بصحبة الشاه إلى إيران فقربه إليه ثم وشوا إليه فيه فتغير عليه فغادر البلاد إلى البصرة ومنها شخص إلى لندن حيث أقبل عليه كبار الإنجليز وساستهم ثم أصدر مجلة سماها ضياء الخافقين حمل فيها على الشاه إلى أن قتل سنة ١٨٩٦ بيد فارسي أهوج وقيل إن للسيد يدا في مقتله .

ثم سافر في سنة ١٨٩٠ إلى تركيا بدعوة من الباب العالي بواسطة رستم باشا سفيرها في لندن على أن يتشرف بمقابلة السلطان ثم يعود . وهناك طابت له الإقامة وقوبل من الخليفة أحسن استقبال وأغلب الظن أن جلالاته كان يرمى إلى استخدامه في ترويج سياسة الجامعة الإسلامية . وقد أنزله السلطان في قصر نخم . وخصص له مرتبا شهريا قدره ٧٥ ليرة عثمانية مما اغتاظ له الشيخ أبو الهدى الصيادي ودفعه إلى الوشاية به لدى السلطان حتى تنكر له وأمر بأن تحيط به الجواسيس تحصر عليه غدواته وروحاته وترقب حركاته وسكناته . وأمر السلطان بتشديد المراقبة عليه فلا يقابله أحد إلا بإرادته (السلطان) حتى أصبح كالأسير في قصره .

مرضه ووفاته

ثم مرض بالسرطان في فكه في أواخر سنة ١٨٩٦ فأجريت له عملية جراحية ولم تنجح . وما هي إلا أيام قلائل حتى فاضت روحه في صبيحة الثلاثاء ٩ مارس سنة ١٨٩٧ وما

إفريقيا عن طريقهما إلى الأناضول وبلاد العرب . ومن بين المائتي ألف من هؤلاء الخصيان الذين كان يهلك نحو ثلاثة أرباعهم في أثناء جلبهم ونقلهم ، كان الربع الأخير يمر سنويا بطريق الشقاء هذه . ومع ذلك

== سمعت الحكومة العثمانية بوفاة حتى بادرت بضبط أوراقه وأمرت بدفنه ولا يزال قبره هناك بالقرب من نشان طاش . وما يؤسف له أن أحدا من عطاء المسلمين لم يفكر في البحث عن قبره إلى أن قيض الله المستركرابين من سراة الأمرى كان فراح يبحث عن القبر في الاستانة في سنة ١٩٢٦ حتى عثر عليه وأقام عليه شاهدا فخما من الرخام نقش عليه اسم السيد . فكان عمله هذا دليلا على أن الشرقى ما تزال تنقصه صفة تقدير عظمائه وزعمائه .

صفاته وأخلاقه

كان المترجم أسمر اللون أشبه بأهل الحجاز خفيف العارضين مسترسل الشعر بجملة وسراويل سوداء تنطبق على الكاحلين وعمامة صغيرة بيضاء على زى علماء الاستانة . وكان قليل الطعام لا يتناول إلا وجبة واحدة في النهار ويعتاض عما يفوته من الطعام بما يشربه من منقوع الشاي مرارا في اليوم .

وكان أديب المجلس كثير الاحتفاء بزائريه على اختلاف طبقاتهم ينهض لاستقبالهم ويخرج لوداعهم ولا يستنكف من زيارة أصغرهم على امتناعه من زيارة أكبرهم اذا ظن في زيارته تزلفا .

وكان حر الضمير صادق اللهجة عفيف النفس وديع الأخلاق مع أنفة وعظمة . ثابت الجأش حتى ليساق إلى القتل فيسير إليه كما لو كان سائرا في طريق الظفر . وكان راغبا عن حطام الدنيا لا يدخر مالا ولا يخاف عوزا . وكان حاد الطبع ولعل ذلك من أثر الوشايات وما تحمله في سبيلها من الأذى .

وكان واسع الاطلاع في العلوم العقلية والنقلية ويتقن من اللغات الأفغانية والفارسية والعربية والتركية والفرنسية هذا إلى الإمامة بالإنجليزية والروسية وكان كثير المطالعة لم تفته مطالعة كتاب كتب بالعربية أو الفارسية في آداب الأمم وفلسفة أخلاقهم .

آمله وأعماله

ويظهر أن الغاية التي وضعها نصب عينيه كانت توحيد كلمة الإسلام وجمع شتات ==

فبعد التشويه وما يتجشموه من هوان أسواق النخاسة لم يكن يعيش منهم سوى نحو عشرة آلاف تقذف بهم المقادير إلى حياة السعادة النسبية في

المسلمين في سائر أقطار العالم في حوزة دولة إسلامية واحدة تحت ظل الخلافة العظمى .
وفي سبيل تحقيق هذه الغاية انقطع عن العالم فلم يتخذ زوجة ولا تمس كسبا ولكنه مع ذلك لم يوفق إلى تحقيق غايته فقضى وكان لسان حاله يقول :

ما كل ما يتمنى المرء يدركه تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن

بقية أعلام الأدب

في عصر اسماعيل باشا

لم يكن في نيتنا عند ما كتبنا عن الحكيم الأفغاني أن نطيل الكتابة ولكن الموضوع جد شيق والبحث طريف فلذا ذكرنا زبدة حياته . ونعود الآن إلى بقية أعلام الأدب في عصر اسماعيل مع ملاحظة ان كتابنا الحالي ينتهي بنهاية عهد ذلك الخديو فلذا نؤثر الأيجاز في ترجمة الأعلام الذين لعبوا دورا مهما فيما بعد عصره كالأستاذ الأمام الشيخ محمد عبده ومحمود باشا سامي البارودي وإبراهيم بك المويلحي وغيرهم وغيرهم .

الشيخ حسن المرصفي توفي سنة ١٨٨٩

وهو من فحول الأدباء في عصر اسماعيل وانقطع للتدريس بالأزهر وكان قوى الحافظة حتى أنه لا يسمع شيئا إلا ويحفظه . وقد تعلم اللغة الفرنسية وألف كتبا فيها .

محمود باشا سامي البارودي

١٨٤٠ - ١٩٠٤

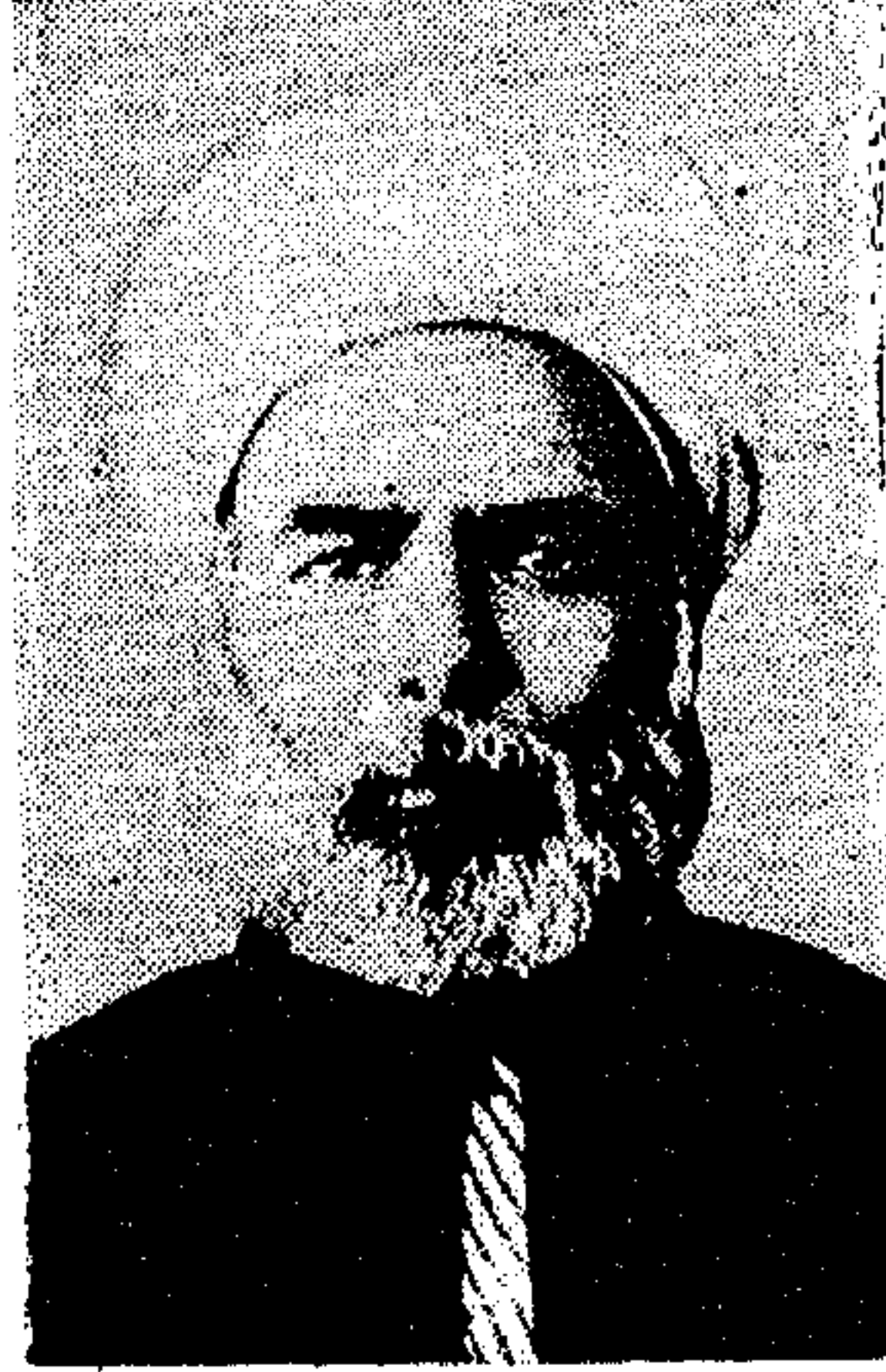
وهو باكورة الأعلام في دولة الشعر الحديثة والذي جمع إلى دقة المعاني جزالة الألفاظ حتى أنك إذا قرأت شعره تخيلت أنك تقرأ لعنتره أو لطرفة . كانت نشأته الحربية في جزيرة كريت كما مر بك ثم أصبح اسمه مقترنا بالثورة العراقية حيث لعب دورا مهما فيها ولذا لا نرى محلا للأسباب في ترجمته .

عبد الله أفندي أبو السعود

١٨٢٠ - ١٨٧٨

إذا ذكر رجال الصحافة السياسيين في تاريخ مصر ذكر المترجم في طليعتهم وهو طرابلسي الأصل وإن كانت ولادته في دهشور بالجيزة . وهو من تلاميذ رفاة بك =

بيوتات الشرق الأدنى . فهذه التجارة لم تكن والحالة هكذا مصدراً من



الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده

== رافع . حضر بالأزهر وكان يتكلم العربية والفرنسية والإيطالية ووصل في عهد
اسماعيل إلى ناظر قلم الترجمة وأستاذ التاريخ بدار العلوم .
وكان له نصيب في ترجمة « الكود » أي قانون نابليون وله عدة مؤلفات . وفي
سنة ١٨٧٦ عين قاضياً بمحكمة الاستئناف .

الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده

وهو أكتب العلماء وأعلم الكتاب ، كما قال عند السيد مصطفى المنفلوطي . نشأ
في عصر اسماعيل واتصل بالسيد جمال الدين منذ أول يوم هبط فيه مصر . ولذا انطبع
بطابعه . وقد كان في أثناء الثورة العرابية كالمنار الذي يهتدى برأيه في مدلهات الأمور .
وهو بلا جدال إمام المصلحين وصاحب الوقفات المشهورة في الذب عن الإسلام
تشهد بذلك ردوده على الوزير الفرنسي هانوتو . وقد توفي رحمه الله سنة ١٩٠٥ في وقت
أحوج ماتكون فيه البلاد الى رؤية النير وعزيمته الوثابة .

ابراهيم المويلحي بك

١٨٤٦ - ١٩٠٦

أستاذ المدرسة الحديثة في الأدب والأشياء . عربي الأصل من أسرة المويلحي
المعروفة التي نشأت في جهة « المويلح » من ثغور الحجاز التابعة لمصر وكان جده السيد

مصادر الثروة الخاصة فحسب بل كانت كذلك جزءاً لا يتجزأ من نظام



ابراهيم بك المويلحي

== ابراهيم المويلحي من كبار موظفي الحكومة في عهد محمد علي ميالا للأدب والأدباء. فورث المترجم هذا الميل عنه . أما أبوه فكان من سعاة مصر وله بيت تجارى اشتهر بصناعة الحرير وتجارته .

وترعرع المترجم في مهاد العز والنعمة ولما مات ابوه تولى تجارة أبيه مع أخيه عبد السلام المويلحي ولكن قلما يصلح الأدباء للتجارة . ولذا تدهورت حالة الأسرة إلى أن أدركها الخديو اسماعيل بعطفه المشهور فأنعم على الأخوين بما يكفى من الأموال لأنقاذ الأسرة من الديون . ثم اختار ابراهيم للقضاء بحكمة الاستئناف وأنعم عليه بالرتبة الثانية كما أنعم على عبد السلام بهذه الرتبة وأبقاه يزاول التجارة استبقاء لهذا البيت التجارى القديم .

ولما كان المترجم قد ورث الميل إلى الأدب عن جده فقد اشترك مع محمد بك عثمان جلال في اصدار جريدة نزهة الأفكار ، ثم أصبح من تلاميذ السيد جمال الدين وكان له ضلع في الحركة السياسية في عهد اسماعيل وعين سكرتيراً لاسماعيل واغب باشا وزير المالية في الوزارة الوطنية .

ويظهر أن عطف اسماعيل على بيت المويلحي جعل ابراهيم يخلص له الأخلص الكلى . ولذا لم يتردد المترجم في ملازمة الخديو سنوات عدة بعد رحيله عن مصر ومن هناك قصد الاستانة فأكرمه السلطان عبد الحميد وعينه عضواً في مجلس المعارف وعاد بعد تسع سنوات إلى مصر يكتب المقالات الشائقة في الأدب والسياسة والاجتماع . وأنشأ جريدة مصباح الشرق الأسبوعية التي لم تبلغ جريدة ما بلغت من المسكنة والمرتبة .

وتوفى في يناير سنة ١٩٠٦

الملكية العامة والخاصة فيها . لأن مصر كانت كلها أعوزتها الحاجة الى



الشاعرة البليغة السيدة عائشة عصمت تيمور

محمد بك عثمان جلال ١٨٢٨ - ١٨٩٨

واضع أساس القصة الحديثة في الأدب المصري وتلميذ رفاة بك رافع . وقد نبغ في العلوم مع الميل إلى الأدب والتعريب وكذا الفن الروائي مع تمصير ما يعر به . وأشهر كتبه « العيون اليواقظ » وهو تعريب شعري لروايات لافونتين ومواعظه وهو أيضاً معرب « ترتوف » رواية مولير الشهيرة وسماها « الشيخ متلوف » التي مثلت أكثر من مرة على المسارح المصرية .

وقد أدرك عصر محمد علي وخلفائه وعين سنة ١٨٨١ قاضياً في المحاكم المختلطة وتوفي عن ٧٠ سنة في سنة ١٨٩٨

عائشة عصمت تيمور ١٨٤٠ - ١٩٠٢

وقد وصفها الأنسة مي بأنها « طليعة اليقظة النسوية » في تاريخ مصر الحديث وأول من نبغ من المصريات في الشعر والأدب . وهي من أسرة عريقة كان أبوها اسماعيل باشا تيمور من كبار الحكام في عهد عباس الأول وسعيد واسماعيل وأخوها العلامة المرحوم احمد باشا تيمور وقد لحظ أبوها ميلها إلى الأدب قبل بلوغها العاشرة من السن فعنى بتثقيفها وأحضر لها أستاذين لتأخذ عنهما الأدب والعلوم . ونظمت الشعر وهي بعد في سن الثالثة عشرة وأكبت على القريض حتى استطاعت أن تنظمه باللغات العربية والفارسية والتركية .

وتأهلت في سن الرابعة عشرة فشغلت عن الأدب بالحياة الزوجية إلى أن عادت إليه بعد ولادة ابنتها توحيدة .

المجندين أو إلى زيادة الأيراد وجدت الطريق مفتوحاً أمامها لتحقيق

== ثم توفي والدها في سنة ١٨٨٢ ففرغت للشعر والأدب حتى رسخت قدمها فيهما . ولما خطفت المنية ابنتها توحيدة رثتها بقصيدة تعتبر من عيون الشعر ، ثم عكفت على الحزن والبكاء سبع سنين عدداً جادت فيها قريحتها بأروع القصائد التي تصف لنا مبلغ حب الأم لفلذة كبدها . وكانت وفاتها سنة ١٩٠٢ بعد أن أخرجت ديوانها العربي « حلية الطراز » و « شكوفة » وهو ديوان تركي فارسي و « نتائج الأحوال في الأقوال والأفعال » وهي قصة أدبية كتبت بأسلوب المقامات الحريرية .

عبد الله باشا فكري سنة ١٨٣٤ - ١٨٨٩

من أعلام الأدب في عصر اسماعيل ولد في مكة المشرفة وقد تخرج أبوه محمود أفندي ببلغ من مدارس محمد علي وأصبح من كبار المهندسين واشترك في حرب المورة حيث عقد فيها علي والده المترجم وعاد بها إلى الحجاز . فلما أولدها المترجم أسماه عبد الله وعاد به إلى مصر فأدخله الأزهر حيث درس اللغة والحديث والتفسير والمنطق واللغة التركية . وانتظم في سلك المناصب الحكومية ودخل معية سعيد باشا حيث كان يتولى كتابة الأنشآت الديوانية بالعربية والتركية إلى أن بزغ عصر اسماعيل فعهد إليه بملاحظة تعليم أنجاله الأمراء .

وفي سنة ١٨٧١ عين وكيلاً للبعارف واستمر في منصبه إلى سنة ١٨٨١ حيث عين كبير كتاب مجلس النواب في عهد الثورة العراقية .

ولما ألف محمود باشا سامي البارودي وزارته سنة ١٨٨٢ اشترك فيها المترجم كوزير للبعارف فكان عضواً في وزارة الثورة التي غضب عليها الخديو . وقد قبض عليه بتهمة الاشتراك في الفتنة ثم أطلق سراحه بعد ثبوت براءته . وعفا عنه توفيق باشا فيما بعد وانتدبته الحكومة لرئاسة الوفد المصري في مؤتمر استكهم . فسافر إليها مع نجله أمين باشا فكري ومرض في الطريق . ثم اشتدت وطأة المرض بعد عودته فتوفي سنة ١٣٠٧ هـ .

الشيخ عبد الهادي نجا الأبياري ١٨٤١ - ١٨٨٨

وهو الذي وصفه علي باشا مبارك في خططه بأنه الحبر الهام ونخر العلماء والأعلام الأمام الأديب واللوزعي الأريب الشاعر النائر الحافظ الماهر العلامة الشيخ عبد الهادي نجا كان من كبار الأدباء والكتاب . تلقى العلم في الأزهر وعهد إليه اسماعيل بتثقيف أبنائه ومنهم الأمير محمد توفيق .

إحدى الغايتين بشن الغارة على خصيان السودان . وقد كان الباشوات



الشيخ على الليثي نديم اسماعيل باشا الأديب الكبير السيد صالح مجدى بك

ومن تلامذته الشيخ حسن الطويل وغيره . ولما تولى توفيق باشا الأريكة قربه إليه وجعله إماماً للبعية ومفتياً ، وظل يشغل هذا المنصب إلى وقت وفاته .
ومن تلقى العلم عنه الأديب أحمد فارس الشدياق والشيخ ناصيف اليازجى والشيخ ابراهيم الأحذب . وقد بلغت مؤلفاته نحو . ٤ كتاباً فى الأدب واللغة .

السيد عبد الله نديم ١٨٤٣ - ١٨٩٦

خطيب الثورة العراقية وأحد تلاميذ السيد جمال الدين الأفغانى . كان كاتباً وشاعراً وأديباً وخطيباً يهز أعواد المنابر ويبعث الحمية فى نفوس سامعيه . ولد بالأسكندرية ولعب دوراً مهماً فى الثورة العراقية . وكان ينشر رسائله فى جريدتى مصر والتجارة ثم أنشأ جريدة الأستاذ .

الشيخ على الليثي

شاعر الخديو اسماعيل وشيخ الندماء فى عصره . وكان أديباً حاضراً البديهة طيب العشرة حلوا الحديث خفيف الروح عينه الخديو منشئاً للبعية وكان يستصحبه فى غدواته وروحاته .

ونحسب أن المقام لا يتسع لأكثر من ذكر أسماء الأديباء الآخرين أمثال أديب اسحاق ١٨٥٦ - ١٨٦٥ والشيخ على أبو النصر المنفلوطى والسيد صالح مجدى بك ١٨٢٧ - ١٨٨١ و ابراهيم مرزوق ١٨١٧ - ١٨٦٦ ومحمود صفوت الساعاتى واحمد بك عيد وتادرس بك وهبى (وقد توفى أخيراً) والشيخ حمزه فتح الله (وهو قريب العهد بنا) وأمين باشا فكرى وغيرهم وغيرهم ممن ازدان بهم عصر اسماعيل . وكانوا من دعائم النهضة الفكرية فى عهده .

السودانيون يتناولون ثمن هذه الخصيان أو على الأصح أنهم اقتدوا أنفسهم



المهندس المعروف محمد مظهر باشا



المهندس الكبير حسين حسنى باشا
مدير المطبعة الأميرية سابقا

علماء الهندسة والرياضيات

ومن نبغ في عصر اسماعيل من علماء الهندسة والرياضيات على باشا مبارك ومصطفى باشا بهجت ومحمد مظهر باشا واحمد فايد باشا وحسن باشا فهمى المعمار واحمد بك السبكي وحسن بك نور الدين وحسين حسنى باشا .
وليس يسعنا أن نمر بأسماء هؤلاء الأعلام دون أن نقف برهة أمام اسم محمود باشا الفلكي وترى صورته في ص ٣٩٥ باعتباره أنبغ من أنجبهم مصر الحديثة في الفلك والرياضيات .

محمود باشا الفلكي ١٨١٤ - ١٨٨٥

كانت ولادته بالحصة من أعمال الغربية فأدخله أخوه مدرسة الأُسكندرية سنة ١٨١٤ ومنها انتقل إلى مدرسة المهندسخانة بمصر فبدأت عليه مخايل الذكاء وحسن الاستعداد حتى فاق أقرانه وكان أول الناجحين فعين استاذاً مساعداً للعلوم الرياضية بها . وكان من تلاميذه إذ ذاك على مبارك ثم أكب على دراسة اللغة الفرنسية حتى حذقها وحببه ميله الأصلي للعلوم الرياضية والفلكية إلى مطالعة ما كتبه علماء الفرنسيين في الفلك ونقله إلى تلاميذه . ومن بين تلاميذه وقتئذ اسماعيل الفلكي .

وإلى محمود الفلكي يرجع الفضل في وضع التقويم السنوية وكان أول تقويم وضعه في سنة ١٠٦٤ وفيه مقارنة بين التاريخ الهجرى والميلادى والقبطى وبين فيه مواقع الشمس والقمر في تلك السنة . ومن ذلك الحين أصبح محمود يعرف بالفلكي ولازمه هذا اللقب إلى حين وفاته .

بما كانوا يقدمونه منهم (الخصيان) . وكان الدالون وما جوروهم هم في

وصحت نية عباس الأول في سنة ١٨٥٠ على إعادة تنظيم رصدخانه بولاق التي أنشأها محمد علي . فأوفد المترجم إلى باريس ومعه حسين إبراهيم واسماعيل مصطفى الفلكي للتخصص في الفلك وكان الأول مدرساً في المهندسخانة كما قدمنا والآخرا قد تخرجا منها . ثم مكث المترجم تسع سنوات في العاصمة الفرنسية استكمل فيها دراسته الفلكية وزار خلالها دور الرصد في معظم أنحاء أوروبا ونشر عدة مباحث فلكية ووضع أثناء دراسته في باريس عدة رسائل مهمة قدم بعضها إلى المجمع العلمي بفرنسا . وفي سنة ١٨٥٩ أي في عهد سعيد عاد المترجم حاملاً أكبر الشهادات فأنعم عليه الباشا برتبة الميرالاي وكلفه بوضع خريطة مفصلة عن القطر المصري فاضطلع بالمهمة خير اضطلاع .

ثم عهد إليه سعيد بالذهاب إلى دنقلة لتحقيق كسوف الشمس الكلي فوضع رسالة عنها قدمها لسعيد باشا وإلى أكاديمية العلوم في باريس فخازت استحسان العلماء . وقد اتهم فرصة وجوده في السودان فحقق المواقع الفلكية على النيل .

وإلى محمود الفلكي يرجع الفضل في تخطيط معالم الأسكندرية القديمة وموقع سورها القديم . وله في ذلك رسالة بالفرنسية طبعها سنة ١٨٦٦ بين فيها أسوار المدينة وشوارعها ومراسحها ومكتبتها مما لم يسبقه إليه عالم عصرى من الأفرنج . وهذه المباحث مؤسسة على ما قام به من عمليات الحفر والتنقيب ولذا كانت رسالته المذكورة أكثر قيمة وأعظم أثراً مما دونه غيره في هذا الموضوع من مهندسى الحملة الفرنسية . لأن أولئك جميعاً اکتفوا بذكر المشاهدات ودونوا آراء الغير مما نقل عن مؤرخى الأفرنج والعرب بعكس محمود الفلكي الذي استند في أبحاثه إلى ما قام به شخصياً من أعمال التنقيب والحفر . وإذا علمت أن مباحث الفلكي وما قام به من أعمال التنقيب كان في عهد اسماعيل وقبل أن تغطي الاسكندرية بالمباني الحديثة وتضيع معالم الآثار القديمة أدركت ما لعمله الذي كلفه جهوداً شاقة من القيمة الفنية ولذا جاءت خريطته التي وضعها عن الاسكندرية القديمة من أبداع ما رسمه العلماء والمهندسون . ولا غرابة أن تكون مرجع علماء أوروبا في أبحاثهم .

وقد ذكر لنا الأستاذ الرافعي بك أن الفلكي خالف ما ذهب إليه علماء الحملة الفرنسية في معالم الاسكندرية القديمة .

الواقع حكومة السودان والحاكمون بأمرهم في ربوعه . وحدث مرة أنهم



اسماعيل باشا الفلكي اسماعيل باشا محمد رئيس مجلس شورى القوانين سابقا

= ومن أطف ما ذكر في صدد المترجم أنه وضع رسالة عن مقاييس الأهرام والغرض الرئيسي من تشييدها وتناسبها مع كوكب الشعرى . وقد ذكر الميرالاي محمد مختار بك (باشا) في هذا الصدد وكان حاضرا مع الفلكي وقت شروعه في أخذ هذه المقاييس وموقعها من التناسب الفلكي أن الأهرام مقابل كوكب الشعرى عند طلوعه . فكان غرض بانها هو أن تكون كمزولة لمعرفة شم نسيم العلماء ولتعريض جثث المدفونين فيها لموافاة صعود كوكب الشعرى ليسبغ عليها الرحمة والرضوان باعتباره أحد معبودات قدماء المصريين . وفي سنة ١٨٧١ عين ناظراً لمدرسة المهندسخانة وناب بصفته وكيلا للجمعية الجغرافية عن الحكومة المصرية في المؤتمر الجغرافي الذي عقد في باريس سنة ١٨٧٥ والمؤتمر الآخر الذي عقد في البندقية سنة ١٨٨١ وإليه يرجع الفضل في إنشاء مدفع الظهر بالقلعة وقد أنشأ على سطح منزله (بميدان الفلكي) مزولة تبين ساعات النهار نزعت من مكانها بعد وفاته . وفي سنة ١٨٨٢ تولى نظارة الأشغال وعين وكيلا لوزارة المعارف في وزارة شريف باشا سنة ١٨٨٢ - ١٨٨٤ وعين وزيراً للمعارف في وزارة نوبار الثانية سنة ١٨٨٤ وتولى رئاسة الجمعية الجغرافية وظل يشغله مع الوزارة إلى أن حانت منيته في ١٥ يولية سنة ١٨٨٥ وكان الفقيه أثناء حياته يفكر في أعداد قاعة عامة في داره يؤمها من يشاء الاطلاع على ما فيها من نفائس الكتب والخرائط والمحفوظات . وقد تحققت هذه الفكرة في سنة ١٩٢٩ عند ما وهبت كريمته مكتبة المترجم إلى الحكومة .

حاصروا حاكم كسلا في سنة ١٨٦٤ طيلة شهرين كاملين . أما باشاوات



المهندس الشير مصطفى بهجت باشا



الدكتور محمد الشافعي بك

اسماعيل باشا الفلكي توفي سنة ١٩٠١

من تلاميذ محمود باشا الفلكي ، تخرج من مدرسة المهندسخانة بيولاقي والتحق في سنة ١٨٤٥ على عهد محمد علي بالرصدخانة القديمة ثم سافر في عهد عباس إلى باريس مع محمود الفلكي للتفقه في العلوم الفلكية فمكث ١٤ سنة بها ثم عاد إلى مصر في أوائل عهد اسماعيل باشا فأنعم عليه بالرتبة الثانية وعهد إليه بنظارة الرصدخانة التي أنشأها في العباسية .

وقد ناب عن الحكومة في مؤتمر الأحصاء الدولي بموسكو سنة ١٨٧٣ وأعجب العلماء بكفاءته وسعة اطلاعه .

ثم تولى نظارة مدرسة المهندسخانة والرصدخانة . وهو الذي أصلح مقياس النيل في اسوان سنة ١٨٧٠ ووضع تصميم سكة حديد بربر - سواكن بالسودان بأمر من اسماعيل باشا ولكن المشروع لم ينفذ .

أما بقية المهندسين وأعلام الرياضيات فمنهم سلامة باشا الذي اشترك مع مصطفى بهجت باشا في إنشاء الترعة الابراهيمية ومحمد ثاقب باشا وقد عاون في إنشاء القناطر الخيرية واسماعيل باشا محمد وقد اشترك في اتمام الترعة الابراهيمية وقناطرها وصار رئيساً لمجلس شورى القوانين سنة ١٨٩٩ . ثم احمد بك نجيب وحسين افندي علي الديك وعلي افندي عزت وعامر بك سعد والسيد عمارة وغيرهم وغيرهم .

مصر فكانوا يأترون بأوامر النخاسين ويتناولون منهم مرتبات معينة .
فعند ما نقرأ أن اسماعيل عمل بإشارة البرنس أوف ويلز الدوق

علماء الطب والجراحة

وإذا ذكرنا علماء الطب والجراحة في عهد اسماعيل فليس يفوتنا أن نذكر محمد علي البقلي باشا (راجع ص ٩٦) وأحمد حسين الرشيدى بك ومحمد الشافعى بك وحسين عوف باشا وكبيرهم محمد الدرى باشا (١٨٤١ - ١٩٠٠) الذى تخصص فى باريس (راجع ص ١٠١) وقابل فيها الخديو اسماعيل فشملة بمطفه لما سمع عن نبوغه من أساتذته . ثم عين بعد عودته كبير جراحى القصر العينى . وقد بلغ ذروة الشهرة بما كان يقوم من العمليات الجراحية الخطيرة واهتمامه بتشخيص الداء والبر بالفقراء والمعوزين .

وقد أنشأ له مطبعة خاصة لطبع مؤلفاته ورسائله وأسماها المطبعة الدرية وأهم مؤلفاته كتاب بلوغ المرام فى جراحة الأجسام ، فى أربعة أجزاء . وقد توفى فى ٣٠

يونيه سنة ١٩٠٥

ثم لا تنس العلامة أستاذ التشريح حسن بك عبد الرحمن والرمدى محمد بك حافظ وسالم باشا سالم الطبيب الخاص للخديو توفيق باشا وجميلة تمرهان خريجة مدرسة القابلات ومحمد بك بدر والجراح احمد باشا حمدى نجل الدكتور محمد على باشا البقلي والدكتور حسن باشا محمود ناظر مدرسة الطب و ابراهيم باشا حسن وعيسى باشا حمدى وعبد الرحمن بك الهراوى أستاذ الفسيولوجيا والأمراض الجلدية .

علماء الطبيعيات

ومن بينهم احمد بك ندا وعبد الهادى اسماعيل ثم على بك رياض خريج الجامعات الأوربية وكبير صيادلة التمصر المينى ومنصور افدى احمد مدرس الكيمياء بالمهندسخانة .

علماء الفقه والقانون

وفى طليعتهم محمد قدرى باشا (سنة ١٨٢١ - ١٨٨٦) وهو من أب أناضولى وأم مصرية (راجع ص ٤٢٧) وتلميذ رفاعه بك رافع وقد ظهر ميله من بداية عهده إلى العلم والترجمة وكان صاحب حظوة لدى الخديو اسماعيل الذى اختاره مرييا لولى عهده توفيق باشا . ثم عين بالمعية ومنها انتقل إلى رئاسة قلم الترجمة بوزارة الحقانية حيث اشترك مع رفاعه بك فى تعريب قانون نابليون واختص هو بتعريب قوانين المحاكم

أوف كنوت (راجع ص ٤٣٠) واتخذ اجراءات حاسمة لقطع دابر



الدكتور الشهير حسن باشا محمود

المختلطة تمهيدا لوضع قوانين المحاكم الأهلية الحديثة . وفي سنة ١٨٨١ تولى وزارة الحقانية ضمن وزارة شريف باشا .

وهنا نقطة خلاف فالاستاذ عبد الرحمن الرافى بك يقرر بأن قدرى باشا هو واضع مشروع النظام القضائى للمحاكم الأهلية وأن هذه المحاكم افتتحت سنة ١٨٨٣ وصدرت قوانينها وهى القانون المدنى وقوانين التجارة والمرافعات والعقوبات . وكان المترجم وقتئذ وزير المعارف فى عهد وزارة شريف باشا الرابعة وهى الوزارة التى تخلت عن الحكم احتجاجاً على اخلاء السودان .

أما صاحب بيت العروبة الأستاذ احمد زكى باشا فقد ذكر فى خطبته التى ألقاها فى يوم الجمعة ٦ يناير سنة ١٩١١ فى الحفلة التى أقامها المجمع العلمى المصرى والجمعية الجغرافية بالقاعة الكبرى لمجلس شورى القوانين لتأبين المغفور له حسين نخرى باشا (راجع ص ٣٣٧) أن « نخرى باشا اشتغل فى أثناء تقلده وزارة الحقانية (سنة ١٨٨١) بتمهيد السبيل لتحويل المجالس القديمة إلى تلك المحاكم الأهلية الزاهرة بيننا الآن ووضع مشروعات القوانين الخاصة بهذا التنظيم تلك القوانين التى سبقت نخرى خالدا له مهما اعتورها من التعديل والتبديل لأنه تشرف بوضع اسمه عليها فى وزارته الثانية . »

وقال صاحب العروبة فى موضع آخر من خطبته « وفى ٢٨ اغسطس سنة ١٨٨٢ انتظم حسين نخرى باشا مرة ثانية فى سلك الوزارة التى ألفها ذلك الرجل الغنى عن التعريف وأعنى به الوزير الشريف شريف طيب الله ثراه وجعل الجنة مثواه . فصدرت القوانين التى أشرنا إليها (قوانين المحاكم الأهلية) وصدر القانون النظامى وقانون الانتخاب =

النخاسة بسد طريق النيل في وجهها ومنع الغارات على السودان لجلب
الخصيان ، نستطيع من كل ما تقدم أن نحكم بأن اسماعيل كان في الواقع يبذل

— وظهرت المحاكم الأهلية في ثوبها القشيب ونظامها الجديد . وكان صاحب الترجمة متقلدا
نظارة الحفانية إلى أن قضت الظروف بسقوط الوزارة في ٧ يناير سنة ١٨٨٤ ،
ازاء هذا الالتباس لم نجد بدا من استطلاع رأى معالى محمود باشا نخرى في الموضوع
فأكد لنا معاليه صحة ما ذهب إليه شيخ العروبة . وقد أيد رأى معالية الأستاذ احمد بك
قمحة وكيل مدرسة الحقوق سابقا .

الشيخ محمد العباسي المهدي (١٨٢٧ - ١٨٩٧)

وقد سبقت الإشارة إليه ص ٤٠١ وهو شيخ الإسلام ومفتي الديار المصرية وصاحب
الفتاوى المهديّة التي تعتبر أكبر مرجع للعلماء في الفقه الإسلامي وهو ابن الشيخ محمد
أمين المهدي مفتي الديار المصرية الأسبق ابن محمد المهدي أحد كبار علماء مصر في عهد
الحملة الفرنسية (انظر ص ٣٨) .

وقد تعلم في الأزهر ونبغ في علوم الفقه وعلمت مكانته لما عرف عنه من التمسك
بالحق والكرامة حتى استهدف أحيانا لغضب بعض الولاة الذين سبقوا اسماعيل باشا .
فلما ارتقى اسماعيل الأريكة قربه إليه . وحسبك أنه جمع في عهده بين الأفتاء
ومشيخة الأزهر (١٨٧١) وكان مرجع الخديو في كل ماله مساس بالشريعة الإسلامية .
وعرف له توفيق باشا مكانته ولكن العرايين — ولم يكن من أنصارهم — أتصوه
عن منصبه ثم أعاده إليهما توفيق باشا . ثم حنقت عليه حكومة توفيق باشا بعد ذلك
وأبعدته عن المشيخة والأفتاء . ولكنه عاد فتقلد وظيفة الأفتاء وحدها وظل فيها إلى
أن اخترمته المنية في رجب سنة ١٣١٥ هـ .

ولا تنس بين علماء ذلك العهد الشيخ محمد عياش والشيخ إبراهيم السقا والشيخ
عبد الرحمن البحرأوى والشيخ حسونة النواوى وغيرهم .
علماء الفنون الحربية والبحرية

ومنهم على باشا ابراهيم وحماد باشا عبد العاطى ثم كبيرهم محمود باشا فهمى المتوفى
سنة ١٨٩٤ وهو أحد زعماء الثورة العرابية . كانت ولادته ببلدة الشنطور بمركز بيا
وهو خريج مدرسة المهندسخانة . وقد نبغ في الفنون الهندسية والحربية وانتظم في سلك
الجيش ثم عين أستاذاً لعلم الاستحكامات والفنون العسكرية في المدارس الحربية في
عهد سعيد واسماعيل .

تضحيات هائلة ويعرض نفسه وعرشه لمخاطر جمة في سبيل جعل مصر



محمود باشا فهمى المهندس العسكرى الكبير
وكان يعتبر بمثابة العمودى الفقرى فى الجيش العراقى

وقد قلنا لك إن الخديو اسماعيل كان ينوى الانفصال عن تركيا فعهد إلى المترجم بتحصين شواطئ مصر الشمالية من أبي قير إلى البرلس فقام بالمهمة خير قيام . وقد اشترك فى الحرب البلقانية .

وفى أثناء الثورة العراقية انضم إلى العراقيين وتولى وزارة الأشغال فى وزارة محمود باشا سامى البارودى سنة ١٨٨٢ وأسر قبل واقعة التل الكبير .

وليس شك فى أن محمود فهمى كان بمثابة العمود الفقرى فى الجيش العراقى ولذلك كان أسره من أكبر أسباب هزيمة ذلك الجيش . وقد حوكم ضمن زعماء الثورة ونفى مع عراقى إلى سيلان وهناك وضع كتابه « البحر الزاخر فى تاريخ وأخبار الأوائى والأواخر » وهو فى أربعة مجلدات وقد اقتبسنا منه كثيراً .

ثم لاتنس محمد مختار باشا (سنة ١٨٣٠ - ١٨٩٧) وكان أدنى إلى صناعة القلم منه إلى صناعة الحرب . فلقد انتظم فى خدمة الجيش وهو فى سن الثانية والعشرين وظل يرتقى فى المناصب العسكرية حتى نال رتبة اللواء سنة ١٨٨٦ واشترك فى حملة هرر (راجع ص ٣٢٣) ثم عين رئيس أركان حرب الجيش المصرى بالسودان وعين مأموراً للخاصة الخديوية فى عهد الخديو السابق عباس الثانى وبقي فى هذا المنصب إلى حين وفاته فى ٢٠

نوفمبر سنة ١٨٩٧

دوله متمدينه حديثه وجعل نفسه حاكماً متطوراً عصرياً ، نعم إن السير



الكاتب العسكرى اللواء محمد مختار باشا

== وقد وضع كتاباً قيماً يسمى «التوفيقات الألهامية في مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الأفرنجية والقبطية» من السنة الأولى للهجرة لغاية سنة ١٥٠٠ هـ وقد حرص على أن يضع إزاء كل شهر أهم ما وقع في مصر وفي العالم من الأحداث هذا عدا كتباً ورسائل عديدة أخرى ومقالات ممتعة في مجلة الجمعية الجغرافية . ومن نوابغ رجال الفنون الحربية شحاته عيسى بك ناظر مدرسة أركان حرب في عهد اسماعيل ومحمد صادق باشا وهو من كبار المهندسين وقد التحق بالجيش وسافر في معية سعيد باشا لزيارة الحجاز وعين مفتشاً بمصلحة المساحة برئاسة استون باشا . ثم سليمان قبودان حلاوة (توفي سنة ١٨٨٥) وهو خريج المدرسة الحربية القديمة وأحد نوابغ الملاحين وقد عين رباناً للباخرة «سمنود» فبرع في قيادتها وطاف بها حول القارة الأفريقية . وفي سنة ١٨٧٠ عينه اسماعيل مدرساً للفنون البحرية والفلكية في المدرسة البحرية . وقد ألف كتاباً في الملاحة .

النهضة الفنية

إذا ذكرت الفنون الجميلة ذكرت معها ما قطعتة الأمة من شتى المراحل في سبيل الحضارة والتدين . لأنها تعتبر بحق المقياس الرئيسي لما تبلغه الأمة من تهذيب النفوس ونشاط العقول وسعة المدارك وترقية الأحاسيس والعواطف . وإذا لم يكن للفنون ==

صمويل بيكر الذى أرسله إلى السودان لهذه الغاية (١٨٦٩ - ١٨٧٣) لم يفعل أكثر من أن قام بأعمال تمهيدية عند مامد سلطة مصر لغاية غوندوكرو وأنشأ مخافر على النيل الأعلى . ولكن خلفه غوردون قد

== سوى أنهاهى التى تستثير احساس الجمال وتنمى ملكته لكفهاها أن تعتبر المرآة الحقيقية لكل ما هو صالح فى الأمة .

وبديهى أنك متى تكلمت عن الفنون الجميلة فقد عنيت الموسيقى أو الغناء والتمثيل والرسم والتصوير والنقش والزخرفة والعمارة . وقد نال الرسم حظا من عناية المدارس الهندسية والصناعية والبعثات فى عهد محمد على ولكن نهضة الرسم والتصوير لم تزدهر كما ينبغى فى ذلك العهد . أما فن العمارة فتشهد بتقدمه تلك القصور والمساجد والدواوين والعمائر الجميلة التى أنشأها مهرة المهندسين فى النقش والبناء . هذا إلى ما شيده من القناطر على النيل والرياحات والترع والكبارى .

التمثيل والغناء

ولما كان اسماعيل باشا نفسه برغم ما سردناه عليك من جوانبه العديدة ميالا بطبيعته للفنون الجميلة وفى طابعها الموسيقى والغناء لم يكن غريبا أن يشتهر عصره بالمرح والحبور وأن ينمو الفن فى عهده .

ولما كانت النهضة التمثيلية فى النصف الثانى من القرن الغابر ماتزال فى بدايتها فقد راح اسماعيل يساعد الجانب الأوروبى منه آملا فى أن يؤدى ذلك إلى نهضة التمثيل فى مصر . وفى الحق إنه لم يستكثر أية مساعدة على المسرح المصرى ولذا أنشأ فى القاهرة مسرح الكوميدي بالأزبكية وقد شرع فى بنائه فى نوفمبر سنة ١٨٦٧ واحتفل بافتتاحه فى ٣ يناير سنة ١٨٦٨ ثم دار الأوبرا فى سنة ١٨٦٩ لمناسبة حفلات افتتاح قناة السويس .

وتم بناء الأوبرا فى خمسة أشهر ومثلت فيها فى مساء ٢٩ نوفمبر سنة ١٨٦٦ أول أوبرا واسمها ريجوليتو شهدتها الأمباطورة أوجينى عقيلة نابليون الثالث وأعجبت بها . ولم يفت اسماعيل أن يعهد للموسيقى الإيطالى « فردى » بأن يضع أوبرا مصرية وضع العلامة مارييت باشا موضوعها وهى رواية « عابدة » وقد مثلت فعلا فى القاهرة لأول مرة فى ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٧١ ومنذ ذلك الحين أخذت الحكومة تجلب الفرق ==

دخل إلى أوغندا فعلا وبسط سلطة مصر الفعلية على السودان . وقد تمكن تدريجاً وهو يشغل منصب الحاكم العام في الخرطوم من منع الغارات لاقتناص الخصيان وقضى على النخاسة قضاء مبرما . وكان يساعده في أعماله

الأجنبية وتغدى عليها المال . أما في الاسكندرية فقد أنشأ الخديو مسرح زيزينا ومسرحا آخر اسمه الفييرى .

الموسيقى والغناء

إلى ذلك العهد كان المغنون يتبعون الأساليب والتواشيح القديمة حتى بزغت شمس عبده الحولى فأحدث ظهوره نهضة فنية صحيحة وانتقلت الأغاني من طور إلى طور آخر .

عبده الحولى

كانت ولادته بطنطا في سنة ١٨٤٥ وكان أبوه تاجر بن يسىء معاملته هو وشقيقه إلى أن ضاقا ذرعا بهذه المعاملة ورحلا عن طنطا هائمين على وجهيهما .

وقد أرادت الصدفة أن يلتقى بهما شخص يشتغل بالغناء ويعزف على القانون . فما أن سمع صوت عبده حتى أعجبه وعاد به إلى طنطا يعملان سويا . حتى إذا حضر إلى مصر وتسامعت به أوساط الطرب هرعت إليه تشنف أسماعها من نغمات ذلك البلبل الصداح . وما كادت أن تظهر عليه علائم النبوغ والموسيقى حتى ترك أستاذه القديم إلى أستاذ جديد وهو (الشيخ المقدم) فاشتغل على تخته وبدأت شهرته تطبق القاهرة كما أنه بدأ يبتكر الأساليب الجديدة المستمجة التي أعجب بها أهل الفن وعشاق الطرب .

ثم سمع به الخديو اسماعيل فقرر به إليه وجعله في معيته . ومن ثم بدأت شمس تعلقو ويزداد شهرة . وقلبا كان اسماعيل يفتقر عن سماع صوته المشجى بل كان يصحبه في سهراته وحفلاته وأغدى عليه كثيرا من المنح والعطايا .

ثم استصحبه معه إلى الأستانة حيث التقى عبده بكبار الموسيقيين الترك فأخذ الكثير من ألحانهم واقتبس منها ما يلائم الذوق المصرى وراح يبتكر ألحانا جديدة هى مزيج من التركية والعربية .

وقد أصبح يلقب بحق بزعيم المجددين فى الموسيقى المصرية وظل أكثر من ثلاثين سنة وهو ملك الغناء بلا مدافع .

كان طيب المعشر دمث الأخلاق شديدا المرودة يلبى دعوة الفقراء وقد عرف عنه أنه =

لوتون بك في بحر الغزال وسلاطين (راجع ص ٣٦٠) في دارفور وأمين
(شنتزلر) في المناطق الاستوائية (راجع ص ٣٤٦) وتملقا للزبير (راجع
ص ٣٢١) أقوى النحاسين نفوذا وقتئذ وهو الذي نصب نفسه حاكماً على

== تطوع لأحياء « ليلة » أقامها أحد الفقراء ودفع عبده نفقاتها جميعاً من جيبه الخاص
وكانت وفاته سنة ١٩٠١ وقد أنشد فيه بعضهم قوله :

هذا الذي ملك القلوب بأنسه وأعز شأن العود والألحان
ترك التخوت حزينة من بعده تبكي السرور بمدمع هتان
السيدة ألماس

التي اشتهرت بين النساء في عصر عبده . ويقال إن عبده لما رأى من شهرتها وإقبال
علية القوم على سماعها دفعته الغيرة منها إلى الاقتران بها ومنعها عن الغناء .

محمد العقاد القانوني

وفي هذا العهد نشأ محمد العقاد القانوني المشهور الذي يعتبر سلطان العازفين
على هذه الآلة . ولم تكتمل شهرته إلا بعد عصر اسماعيل . وقد عاش العقاد عبده
الجمولي فترة طويلة اكتسب منه الشيء الكثير في التوقيع والأنغام .

كل هذا يدل على أن عصر اسماعيل الذهبي اتسع لكل شيء حتى الفنون الجميلة
فهي شهادة كافية لاسماعيل ولما بذله من الجهود في رفع شأن أمته .

الأعمال العمرانية

في ص ٢٧١ إلى ٢٨٠ من كتابنا الحالي يرى القارئ الشيء الكثير من الأعمال
العمرانية التي تمت في عهد اسماعيل والتي تكلفت بطبيعة الحال نفقات باهظة ليس غريباً
أن تكون استنفذت مجموع ما اقترضه الخديو .

فالترع وبخاصة ترعتا الابراهيمية وطولها ٢٦٧ كيلو متر والاسماعيلية وطولها
٢١٨ كيلو متر وانشاء مالا يقل عن ٤٢٦ قنطرة واصلاح القناطر الخيرية والتوسع
في زراعة القطن والقصب وزيادة مساحة الأراضي المزروعة وانشاء ١٧ معمل
لصناعة السكر وتكثيره وانشاء معامل النسيج والطوب واللباغية والزجاج والورق
والخطوط الحديدية والأسلاك التلغرافية وانشاء مصلحة مصرية للبريد بعد أن كان
لكل جالية أجنبية مكتبها للبريد وعناية اسماعيل بالمتحف وتكليفه ماريت باشا باصلاح مخازن
بولاق وتوسيعها وانشاء دار الآثار العربية ودار الرصد بالعباسية ومصلحة الأحصاء ==

دارفور (١٨٧٥) أنعم عليه اسماعيل برتبة الباشوية وأغراه بالحضور إلى مصر حيث زج في غياهب السجون (كذا) فما لبث أن رفع ابنه

ومصلحة المساحة وإنشاء المستشفيات في كافة أنحاء القطر لمكافحة الأمراض والأوبئة وتجميل مدينتي القاهرة والاسكندرية بما شقه فيهما من الشوارع الجديدة وشيده فيهما من القصور المنيفة كقصر عابدين وسراى الجزيرة وسراى الجيزة وسراى بولاق الدكرور وقصر القبة وقصر حلوان وسراى الاسماعيلية وسراى الزعفران وقصر النزهة (بشبرا) وهو المدرسة التوفيقية الآن) وسراى المسافر خانة وقصر النيل بالقاهرة وسراى رأس التين وسراى الرمل بالاسكندرية - نقول إن هذه القائمة الطويلة من الأعمال العمرانية يضاف إليها سعيه للقضاء على تجارة الرقيق وماتلاها من الفتوحات السودانية التي وصلت بمصر إلى حدودها الطبيعية ، كان جديرا بالأمتاع له الخزانة المصرية وأن يستنفذ - بشهادة خصوم اسماعيل أنفسهم - الكثير مما عقده من القروض في الخارج .

الأستاذ الرافعى وعصر اسماعيل

ذكرنا فى ص ٢٦٣ ملاحظات عامة عن قروض اسماعيل خرجنا منها برد الحملات التى وجهها بعض الكتاب الأجانب المتحيزين ضد الخديو . وقد جئنا على كثير مما كتبه الكتاب الأجانب انصافا لاسماعيل . وانه لمن أكبر دواعى الأسف حقا أن نرى كاتبا كبيرا كالأستاذ الرافعى بك لا يابه لما يكتبه بعض الأفرنج فى إنصاف اسماعيل بينما نراه من الناحية الأخرى يحاول اقناع قرائه بأن ما كتبه بعض المؤرخين قدحا فيه هو الحق الذى لا يمكن أن يأتية الباطل من بين يديه ولا من خلفه . وكأنما فاته أن بعض هؤلاء القادحين ربما أوغر صدرهم أن اسماعيل لم يصدق عليهم العطايا كما أغدقها على كثيرين غيرهم من يقول الأستاذ فيهم نقلا عن مجلة العالمين أنهم : ما كادوا يستقرون فى القاهرة ويأوون إلى إحدى قاعات الانتظار فى سراى عابدين حتى صاروا طفرة من أصحاب الملايين .

فهو كثيرا ما اقتبس من كتاب « تاريخ مصر المالى » ووصف صاحبه (المجهول الأسم) بالاعتدال والاتزان فى رأى ، كأنما ينبغى أن يعتبر القدح فى اسماعيل اعتدالا فى رأى وتمدح أعماله تهورا !!
وكتاب آخر لا يقل عن سابقه سخفا وإن كان طالما استشهد به الأستاذ الكبير =

سليمان راية العصيان (راجع ص ٣٤٧) واسكن غوردون سرعان ماهز مه
وقته (١٨٧٩). وهنا ثارت حفيظة الأحباش لقيام المضاعب في
سبيل غاراتهم للحصول على الرقيق . فاجتاحوا مصوع (راجع ص ٣٤٨)

= وهو كتاب مدام أولمب أدوار المسمى « كشف الستار عن أسرار مصر » وهو لعمر ك
كتاب إذا كان قد كشف ستر شيء فإنه كشف عن خبيثة نفس هذه السيدة الموتورة
وأظهرها للملا بظهر التحيز القبيح وأنها لا تصدر عن غاية شريفة أو قصد نبيل .
يهم الأستاذ الرافي بك بأقوال مؤلف كتاب « تاريخ مصر المالي » ويغض طرفه
عما كتبه سيدة فاضلة كاللادي دوف غوردون . فصاحب كتاب « تاريخ مصر المالي »
يزعم أن ما تذرع به اسماعيل لعقد أول قرض (سنة ١٨٦٤) لمقاومة الطاعون البقري
كان حجة واهية لأن الفلاحين والملاك هم الذين تحملوا وحدهم الخسائر الناشئة عن هذا
الطاعون (كذا !)

هكذا يزعم جنابه وهكذا يؤمن الأستاذ الرافي بك على تلك المزاعم في حين أن
اللادي غوردون - على نحو ما ذكرناه لك في ص ٢٨٠ من كتابنا الحالي - قد قدرت
ما نزل بالمواشي من الخسائر في ذلك الطاعون بنحو ١٢ مليون جنيه . ثم إن ميزانية
١٨٧٣ - ١٨٧٤ ذكرت بين ما ذكرت أن اسماعيل دفع لأصحاب المواشي كتعويض
لهم عن خسائرهم في الطاعون البقري المذكور ٥٦٢٠٠٠٠ ر ٣٨٣٧٠٠٠ جنيه لا ١٢٥٠٠٠٠ جنيه
كما زعم صاحب « تاريخ مصر المالي » الذي كانت غايته الرئيسية من وضع كتابه المشار
إليه ليست استعراض تاريخ مصر بل المقارنة بين المالية الفرنسية والمالية الإنجليزية .
أما مدام أولمب فبدلك على تحيزها أنها نسبت إلى اسماعيل عكس ما أجمع عليه الناس
ومنهم خصومه . فهي تتهمة باستعمال السخرة صراحة عند قولها « إنه لم يكن يتم إلا بجمع
الملايين وكان يقتنى الأطيان في كل ناحية قدر ما استطاع ويلجأ إلى السخرة في زراعتها
واستصلاحها (كذا ! كذا !) ويعقد القرض تلو القرض لآجال طويلة تاركاً لمن يخلفه
في الحكم أن يسدد ديونه حتى كأنه يقصد أن يعقد مهمة الحكم لمن بعده (كذا !) .
فهل سمعت بأغرب من هذا الهوس الذي تردده هذه السيدة الموتورة ؟ اسماعيل الذي
كان يلقب قبل اعتلاء الأريكة بـ « أمير الفلاحين » لبره بهم وعطفه عليهم يلجأ إلى
السخرة في زراعة أراضيها واستصلاحها وهو هو الذي كانت طبيعته - حتى وهو أمير - =

ولكنهم ما لبثوا أن أرغموا على مغادرتها وتعقبهم المصريون بدورهم إلى داخل الحدود الحبشية وهو اعتراف بأن اسماعيل دخل حرب الحبشة مرغما . وهذه الحملة وإن كانت بمثابة نكبة فادحة على المصريين إلا أنها

= تنفر من هذه السخرة ولذا لم يدخر وسعا في محاربتها عند اعتلائه الأريكة مما عرضه للاضطدام بفرنسا كبيرة دول أوروبا وقتذاك ! ثم فم كان اسماعيل ينفق هذه القروض ؟ أليست في اصلاح شأن البلاد وعمرانها ؟ أكان يعقدها لمصلحته الخصوصية ؟ لقد كان حسبه أن يحكم البلاد معتمداً على إيراد ثروته الطائلة التي بلغت قبل جلوسه على العرش ما لا يقل عن نصف مليون فدان . ولكنه شاء أن يجعل مصر قطعة من أوروبا فأضاع ثروته واضطر إلى الاقتراض في سبيل هذه الغاية النبيلة . فكيف تجيز هذه السيدة لنفسها أن تكتب ما كتبه كأنها تحسب أن مهمة الأمراء والملوك لا تتعدى الجلوس على عروشهم والتمتع بما جمعوه من الثروة دون أن يعملوا على رفع مستوى بلادهم ؟

وبمناسبة مدام أولمب هذه فكم كنا نتمنى ألا يشرفها الأستاذ الرافعي بك بالنقل عنها وهو يعلم من هي . فلعله اطلع على ما كتبه عنها المسيو جان - ماري كاريه في ص ٢٥١ من الجزء الثاني من كتابه المسمى « السياح والكتاب الفرنسيون الذين زاروا مصر » . فلقد أفرد لها المؤلف زهاء ثلاث صفحات لا يكاد يقرأها إلا ويخرج منها ساخطاً على تلك السيدة التي لم تدخر وسعا في جعل كل قارىء يتبرم بما تكتب . فكان مهمتها كانت مضايقة القراء وإدخال الهم على نفوسهم .

نشأت هذه السيدة في الريف الفرنسى ثم افترقت عن بعلمها وحطت رحالها في باريس وكان أول ما طلعت به على أهل سكان تلك العاصمة رواية منافرة لحرمة الآداب اسمها « كيف يحب الرجل » والأسم كفيفيل بتعرف موضوع الرواية . ولم يخطيء المؤلف عند ما وصفها بأنها سيدة غير متزنة الأعصاب لأنها كانت ممن يزاولون مخاطبة الأرواح وكانت مصابة بنوع من الماوخوليا يجعلها تتوهم أنها مصابة بعدة أمراض .

أما السر في تحاملها على اسماعيل فقد عرفناه من المسيو كاريه . فقد قال إنها كانت على اتصال دائم بكافة خصوم ذلك الخديو ولذا كانوا يغذونها على الدوام بكل ما هو في حيز الأفك والبهتان .

أدت إلى قطع دابر النخاسة في داخل الحبشة بشكل لا نظير له لا قبل
الموقعة ولا منذ حدوثها . على أن ما قام به من جهود خارجة عن طوق
البشر لم يكن من شأنه أن يؤدي إلى أكثر من تحويل النخاسين عن الطرق

== وأكثر من هذا أنها كانت محل عطف ورعاية الأمير مصطفى فاضل أخ الخديو
اسماعيل كما كان هو محل إعجابها وتقديرها . فليس غريباً — وهو الذي كان يطالب
بالأريكة — أن تجعل مدام أولمب من نفسها مطية لهذا الأمير بصفة خاصة وللخصوم
اسماعيل بصفة عامة لتشويه سمعة الخديو واتهامه بكل ما يبتكره ذهنها الخصب من
الفضائح والمساوىء .

ثم إنها كانت لصلتها الوثيقة بالأمير مصطفى فاضل تؤمل أن يعتلي العرش يوماً ما
ولذا كنت تراها تستعجل نهاية العهد الاسماعيلي وتظن أن تشويهها إياه يحقق آمالها .
ولم يسلم من قلبها الجراح واسانها العاثر حتى مواطنوها الفرنسيون في مصر . فقد رمت
بعض التجار الفرنسيين بالسرقة لأنهم — على زعمها — أحضروا لاسماعيل طاقماً من خرف
سيفر بمبلغ ٥٠٠٠٠ فرنك وباعوه له بنصف مليون فرنك !! كما أنها تناولت القناصل
الأوربيين في مصر بفاحش القول ووصمتهم بالصلف حيال مواطنيهم وزعمت أنهم
كانوا على استعداد لتضحية أولئك المواطنين ومصالحهم في سبيل التمتع برضا الخديو !!
وبالجملة فهذه السيدة لم يسلم أحد من اتهاماتها إلا من كانت تربطهم بها علاقات
خاصة من خصوم اسماعيل وكلهم ذو منفعة تطبع أقواله بطابع التحيز والغرض .
هذه هي مدام أولمب التي كثيراً ما نقل عنها الأستاذ الرافي بك وهذا ما كتبه عنها
أحد مواطنيها ممن يعرفونها جيد المعرفة .

حقيقة قروض اسماعيل

ونقف عند هذا الحد في الرد على تلك السيدة التي كانت تصدر عن رأى جاح
وعاطفة متورة ومنتقل إلى ما يسميه الأستاذ الرافي بك بـ «مأساة الديون» . وهي
«مأساة» حقاً لأن اسماعيل اقترض — فهاهي دول الأرض قاطبة قلما نجد واحدة
منها خالية من الديون التي تبلغ في كثير من الأحوال مليارات الجنيهات دون أن تفكر
الدولة الدائنة في الاعتداء على استقلال الدولة المدينة — بل لأن ذئاب المالبين أقرضوه
المال بشروط فاحشة كانت تسوقهم حتماً إلى المحاكم والقصاص لو أنها وقعت في بلادهم .
وإليك هذه القروض كما أحصاها المستر ومهلول وهي مدعمة بالأحصاء الرسمي ==

الرئيسية المؤدية إلى الشمال وإقصاء المغيرين إلى المناطق النائية في الجنوب .
وفي الواقع لم يكن من سبيل للقضاء على النخاسة إلا باستغلال موارد

= الموجود في خزانة صندوق الدين المصري . ونظرة واحدة إلى هذه القروض
وما دخل خزانة الحكومة منها فعلا تقنعك بأن اسماعيل كان يتعامل مع ذئاب بشرية .

تاريخ القرض	اسم البنك	مقدار القرض	المبلغ المدفوع فعلا
١٨٦٤	بنك غوشن	٥٧٠٤٠٠٠	٤٨٦٤٠٠٠
١٨٦٥	بنك الأنجلو اجبسيان	٣٣٨٧٠٠٠	٢٧٥٠٠٠
١٨٦٦	بنك غوشن	٣٠٠٠٠٠	٢٦٤٠٠٠
١٨٦٧	البنك العثماني الأمبراطوري	٢٠٨٠٠٠	١٧٠٠٠
١٨٦٨	بنك أوبنهايم	١١٨٩٠٠٠	٧١٩٣٠٠٠
١٨٧٠	بنك بيشوفهايم	٧١٤٣٠٠٠	٥٠٠٠٠
١٨٧٣	بنك أوبنهايم	٣٢٠٠٠٠	١٧٠٨١٠٠٠

مجموع القروض ٦٥٢٠٤٠٠٠ ٤١٩٥٧٠٠٠

فعلام يدل ذلك ؟ إنه يدل على أن المصارف المالية اقتطعت « كعمولة » أو « سمسرة »
مبلغ ٢٣٢٤٧٠٠٠ جنيه من قروض باع مجموعها ٦٥٢٠٤٠٠٠ جنيه . فأي
قانون يسوغ هذه العمولة الفادحة ؟ حقا إنها « لمأساة » .

وما يضاعف أثر « مأساة القروض » الفائدة الفاحشة التي طلبها أصحاب القروض .
فان سعرها الأسمى لكافة تلك القروض مع استثناء قرض سنة ١٨٦٥ كان ٧٪ . أما
قرض سنة ١٨٦٥ فكان سعر فائدته ٩٪ .

ولكن تقرير بعثة كيف يذهب إلى أبعد من ذلك . فقد ورد في ص ٣٩٥ من
التقرير بصدد القروض مانصه :

« إن أحدا من القروض المصرية لم ينقص سعر فائدته عن ١٢٪ سنويا ولم يزد
عن ١٣ ¼٪ . ولكن قرض السكة الحديدية بلغ سعر فائدته ٢٦٫٩٪ سنويا
مع الاستهلاك ، ١١

فاذا أضفنا إلى مجموع القروض ما يسمونه بالديون السائرة وقد قدرها لورد كرومر =

السودن استغلالاً اقتصادياً حاسماً بدلاً من مطاردة الرقيق واصطياد الفيلة . كذلك كان لابد أن يبقى العاج بنوعيه الأسود والأبيض المادة الوحيدة الصالحة للتصدير في ذلك القطر إلى أن توجد طرق أخرى

== نفسه بـ ٢٦ مليون جنيهه بلغ المجموع ٩١٢٠٤٠٠٠ ر. ٢٠٤٠٠٠ ر. ٩١٢٠٤٠٠ ر. وهو دين وإن لم يتسلم اسماعيل الا نصفه أو ما يزيد عن النصف بقليل فلا يمكن أن يعتبر من الفداحة بحيث لا تستطيع مصر - مع ما عرف عن تربتها الخصبة - أن تنهض باعبائه كاملة لو حسنت إدارة ماليتها .

ولسنا نقول هذا اعتباطاً بل إن تقرير بعثة ليف نفسه - وسنتكلم عنه فيما يلي - يؤيد قولنا هذا . فقد اختتم بهذه الفقرة . وهي

« نستنتج من كافة ما استطعنا الحصول عليه من المعلومات أن في وسع مصر النهوض بأعباء جميع ديونها الحاضرة بشرط تعديل سعر الفائدة تعديلاً معقولاً . (كذا !) إذ لا يمكنها الاسترسال في اقتراض ديون سائرة جديدة بفائدة ٢٥ ٪ . وعقد قروض بفائدة ١٢ ٪ - ١٣ ٪ لسداد هذه الديون الجديدة وخاصة وأن هذه القروض لا يدخل قرش واحد منها إلى الخزانة . »

وإذا كان بعض الكتاب وفي مقدمتهم الأستاذ الراحل بك يعزرون مع الأسف - ارتباك مالية مصر لغاية سنة ١٨٧٥ إلى « بذخ اسماعيل وميله إلى الترف والاسراف » فمن العدل أن نجابههم هنا بأقوال المستر كيف في تقريره حيث تكلم عن الفوائد والمزايا الفاحشة التي نالها حملة الأسهم إذ قال :

« يلوح أن الخديو حاول بدخ الخزانة المحدود أن يتمم في بضع سنوات قليلة أعمالاً عمرانية كان ينبغي توزيعها على مدة أطول لأنها أعمال جديدة بأن تنوء بها خزانات أغنى بكثير من الخزانة المصرية . »

وهذه الملاحظة قد أيدها السير صمويل بيكر في رسالته التي ظهرت في عدد الفورتنيتلي ريفيو في شهر نوفمبر سنة ١٨٨٢ بعنوان « اصلاح مصر » إذ قال مانصه :

« لقد جاء اسماعيل باشا قبل أو انه . وقد عقد نيته على التعجيل بانجاز أعمال تستغرق سنوات عديدة من العمل التدريجي المصحوب بالتأني . مثال ذلك أنه اعترى أن يصل السودان بالوجه البحرى وبذا يفتح في وجه التجارة العالمية تلك الأصقاع الخصبة التي كانت إلى ذلك الحين بعيدة عن العمران . وقد تضمنت فكرته مشروعات ضخمة ==

للدواصلات أصالح من طريق النيل الأعلى وشلالاته وسدوده . ونحسب أن مدسكة حديدية كان من شأنه أن يجعل من المجدى استخدام السودانين في إنتاج المواشى وزراعة القطن وهو الذى كان يباع القنطار الواحد منه

== مائة ولقد كان عهده عهد الرخص بمنتهى السرعة . وفى الحق إن اسماعيل كان الروح الحى للنهضة والرقى .»

وذكر السير صمويل بيكر فى ص ٢٨٥ من « مذكراته » المطبوعة فى سنة ١٨٩٥ مانصه : « هذه الأعمال الهائلة ابتكرتها دماغ الخديو اسماعيل الذى استطاع أن ينجز فى خلال ١٧ عاماً أكثر مما تم فى القطر المصرى منذ الفتح الإسلامى .»
بل إن المستر ادوين دليون القنصل الأمريكى كتب لحكومته فى تقرير رسمى يخبرها : « إن مصر فى استطاعتها أن تستعيد اتعاشها فى أية لحظة لو وقفت ما تنفقه من المصروفات الهائلة على المشروعات العامة والأصلاحات الداخلية وتوخت قواعد الاقتصاد العادية .»
وأكثر من هذا أن مالياً كبيراً هو السير جورج إليوت عضو البرلمان الأنجليزى وكان قد ذهب إلى مصر قبل بعثة كيف بعامين بدعوة من اسماعيل باشا لدراسة حالة مصر المالية درساً دقيقاً ، صرح فى مجلس العموم — كما ورد فى المناقشات البرلمانية لهنسارد المجلد ٢٣١ سنة ١٨٧٦ ص ٦٥٢ و ٦٥٣ « بأن تحقيق لجنة كيف كشف الستار عن حقيقة الحالة فى مصر فاذا بها حالة لاندعو إلى اليأس . بل إنها حسنة (كذا !) ونعنى بذلك أن يكون دخلها كافياً لوفاء الديون وفاء عادلاً . وأقصد بهذا أنه بضمن معقول ولكن مع تخفيض الفائدة . فلو عمل بالمشروع الذى عرضته على الخديو فانى لا أشك فى أن مصر تستطيع أداء جميع الفوائد وأقساط الاستهلاك ويكون تحررها منها فى مدة خمسة وستين عاماً هذا مع ترك مبلغ كاف لأدارة البلاد إدارة حسنة . (كذا !) إنى أعتقد تماماً أن حالة مصر ثابتة لأن لها موارد كافية قد نمت فى الماضى وزادت زيادة عجيبة وليس ثمت ما يحول دون نموها ورقبها كذلك فى المستقبل .»

وهذا صحيح فان السنيور شالويا والد السنيور شالويا السياسى الإيطالى المشهور عرض فى عهد اسماعيل أن ينظم المالية المصرية وبوازن الميزانية ويسدد الديون كاملة مع فوائدها الفادحة من إيرادات مصر المحدودة وبدون الالتجاء إلى قروض جديدة . ولكن أحداً لم يلتفت إلى اقتراحه لأن النية كانت مبيتة ضد اسماعيل بقصد التخلص منه بعد أن أفسد على السياسة الاستعمارية خططها وأوقعها فى الارتباك ==

في الخرطوم بريالين في حين أنه كان يباع في القاهرة بستة عشر ريالاً .
وعليه بدىء بإنشاء القسم الأول من السكة الحديدية الممتدة بين وادى
حلفا والخرطوم (وطولها ١١٠٠ ميل) ولكن الأزمة المالية ما عتمت

== فكان طبيعياً وفداحة الفوائد كما رأيت أن تشح موارد اسماعيل وتصبح خزائنه خاوية
بعد أن ناءت بما حملتها إياه همته القعساء من مختلف المشروعات التي كانت جديدة بأن
« تنوء بها خزانات أغنى بكثير من الخزائن المصرية » كما جاء في تقرير بعثة كيف .
لذلك لم يتنصف شهر نوفمبر سنة ١٨٧٥ - كما ذكر المستر كراييتس - حتى بعث
لورد دربي وزير الخارجية البرقية الآتية إلى الجنرال استانتون قنصله العام في القاهرة
وهي مقتبسة من كتاب المسيو شارلس ليساج المسمى « ابتياع أسهم قناة السويس » ص ٦ :
وهذا نصها :

« وزارة الخارجية »

« ١٥ نوفمبر سنة ١٨٧٥ »

« لقد نمتي إلى حكومة صاحبة الجلالة أن نقابة فرنسية أظهرت استعدادها لابتياع
حصص الخديو في أسهم قناة السويس وأنه يحتفل موافقة سموه على الصفقة . وأرجو
التحرى عن حقيقة الأمر وإرسال تقرير بالنتيجة » .
وقد استطرد المستر كراييتس فقال ما ملخصه :

لم يكن قرار اسماعيل التخليص من حصته في أسهم القناة من جراء اسرافه أو تبذيره
كلا . فقد كان يملك نحو ١٧٦٠٢٠٢ من مجموع الأسهم وعددها ٤٠٠٠٠٠٠ إنما كان
قراره هذا باعته أن أرباح هذه الأسهم بما فيها الربح الذي يوزع في أول يولية سنة
١٨٩٤ كانت مرهونة لشركة القناة لسداد أقساط الغرامة التي حكم بها نابليون الثالث على
الحكومة المصرية كما سبق بيانه . وعليه أصبحت هذه الأسهم شبه « ميتة » من الناحية
الاقتصادية العملية . ومما زاد التأين بلة أن مجلس إدارة حملة الأسهم عقد في يوم ٢٤
اغسطس سنة ١٨٧١ اجتماعاً عاماً تقرر فيه حرمان الخديو من حق التصويت إلا بعد
أداء الغرامة المذكورة بأكملها .

أو بعبارة أخرى أن الخديو مع أنه كان يمتلك ما يقرب من نصف مجموع الأسهم
لم تكن له كلمة في إدارة هذه الشركة التي قدم لها أجل الخدمات والتي كان أكبر مساهم
فيها . فاحتج على هذا القرار لأنه قرار ظالم وغير قانوني .

أن حالت دون إتمامها بعد أن أنفق في سبيلها ما يناهز ٤٠٠٠٠٠ ر. ٤ جنيهه.
ومن ثم عاد السودان إلى أحضان النخاسة مدة عشرين سنة أخرى .
ولقد ألفنا أن نعد مصر ممثلة في شخص اسماعيل بلا تدبير وإسراف

== وهنا يقول المسيو ليساج « إن الخديو أراد أن يتفادى الاحتكاك بالشركة فوافق على توكيل المسيو فردينان دلسبس في الاقتراع بدله . »

وكان معنى هذا التصرف في غير لغة السياسة أنه بعد أن أصدر نابليون الثالث حكماً جائراً كان موضع انتقاد الدوائر النزيهة جاء مجلس إدارة حملة أسهم قناة السويس في يوم ٢٤ أغسطس سنة ١٨٧١ فأصدر قراراً مشكوكاً في صحته من الناحية القانونية . فلما امتنع اسماعيل عن التقيد بهذا القرار العرفي أقنعوه بوجوب توكيل دلسبس عنه . وهو تصرف يرمى إلى حمل الخديو على إبرام ما يقرره حملة الأسهم .

وكانت نتيجة هذه الظروف مجتمعة أن الخديو أصبح يعتقد بحق أن الشركة أساءت معاملته وأنه لذلك يرى أن من مصلحته التخلص من هذه الأسهم التي تقرر أن تبقى « ميتة » لغاية أول يولية سنة ١٨٩٤ . يضاف إلى هذا أنه لم يكن مرتاحاً إلى تصرف الشركة بتوكيل دلسبس وجعله السيد الأمر الناهي في هذه الحصة الهائلة .

ولا تنس بعد هذا كله أو قبله أن المبلغ الذي عرض على اسماعيل في سنة ١٨٧٥ ثمناً لهذه الأسهم كان مبلغاً لا يستهان به إذا روعيت الظروف العالمية وقتذاك . فكون الخديو صمم على التخلص من حصته كان بلا جدال عملاً راجحاً من الوجهة التجارية هذا فضلاً عن أنه يزيح عن قلبه الغمة التي كان يشعر بها من جراء توكيل دلسبس في الاقتراع بدله .

ولكيما تدرك مبلغ ما كان يشعر به اسماعيل من الأجحاف نخبرك أن المادة ٥١ من القانون الأساسي لشركة القناة نصت على أن يكون لكل من يملك ٢٥ سهم صوت واحد على ألا يكون لصاحب الأسهم إلا صوت واحد فقط مهما كان عدد الأسهم التي يملكها . وقد أريد بوضع هذه المادة في بداية الأمر أن يعرف الملاء أن سعيد باشا - مع احتفاظه بحصة مصر المذكورة وقدرها ١٧٦٠٢٠٢ سهم ليس في وسعه فرض إرادته على الشركة . وكانت النتيجة العملية لهذا التشريع العجيب أن اسماعيل بصفته أكبر مساهم في الشركة لم يكن له سوى صوت واحد في حين أنه كان في ==

أديا بها إلى خراب عاجل احتاجت معه إلى أن تتدخل لأصلاح شؤونها
انجلترا بالنيابة عن الدائنين الأجانب ولفائدة المدينة المصرية نفسها
ولكن هذا الاعتقاد ليس من العدل في شيء إلا بالنسبة لاسماعيل ولا بالنسبة

== استطاعة رجلين من أسرة واحدة لا يملكان إلا ٥٠ سهماً فقط أن يمليا إرادتهما على
اسماعيل !

فهذه الاعتبارات مع حرمان مصر من أرباح حصتها ما يقرب من ٢٠ سنة (أى
لغاية أول يولية سنة ١٨٩٤) وملازمة ثمن الصفقة جعلت اسماعيل يصمم على بيع الحصة
المذكورة خصوصاً وأن الصفقة لا يمكن أن تخول المشتري حقوقاً أكثر مما كان لاسماعيل
في القناة .

تلكؤ النقابة الفرنسية في ابتياع الأسهم

ويحسن قبل الاسترسال في الحديث أن نقول كلمة عما كان يبذل وراء الستار من
المساعي لحصول النقابة الفرنسية التي أشار إليها لورد دربي في برقيته في ص ٤٨٠ على
هذه الصفقة .

فان المسيو اندريه درفيو من رجال المال في الاسكندرية اتصل بأخيه ادوار في
باريس وحاولا حمل إحدى النقابات المالية الفرنسية على ابتياع الأسهم . وفعلا
تدخل المسيو دلسيس وطلب إلى الدوق دي كاز وزير الخارجية الفرنسية أن يستحث
النقابة المذكورة على إتمام الصفقة ، ولكن الوزير - وكان يحرص على مودة انجلترا
لاستخدامها ضد ألمانيا - رأى بثاقب رأيه أن تدخل فرنسا لا يمكن أن تنظر إليه انجلترا
بعين الارتياح وخاصة وأن النقابة المذكورة أضاعت كثيراً من الوقت في اختيار
الصيغة التي يكتب بها العقد وهل تكون صيغة مبايعة أم صيغة ارتهان . فلما لم يهتم
الوزير بالأمر وبأدرت انجلترا بتقديم المبلغ المطلوب فوراً راح رجال النقابة يعضون
بنان الندم على ما أضاعوا من وقت ثمين في مناقشات أفلاطونية سخيفة .

وأخيراً لما انتقلت حصة اسماعيل إلى يد الحكومة البريطانية لم تجرؤ الشركة أن تطبق
عليها ما كانت تطبقه على اسماعيل من الشروط المجحفة . هذا إلى أن الفقهاء القانونيين ==

لمصر . لأن اسماعيل لو كان مبدداً عقياً كما يصفونه لتخلصت منه مصر
كما تخلصت من سلفه عباس أو كما تخلصت تركيا من معاصره عبد العزيز

== أفقوا بأن لا معنى لمنع توزيع أرباح الأسهم المذكورة إلى أن تنتهي مدة الرهن أو
ألا يكون لمالكها إلا صوت واحد .

على أن اسماعيل وإن كان قد باع أسهمه فقد احتفظ بحصته الـ ١٥٪ من صافي
الأرباح . ولكن خلفاءه في حكم مصر سرعان ما تخلصوا من هذه الحصة مع أنهم
كانت لهم ندحة عنها . فلقد باعوها للبنك العقاري الفرنسي بمبلغ ٢٢ مليون فرنك
أي ٨٨٠.٠٠٠ جنيه . وإذا كان الأستاذ الرافي بك ينعي على اسماعيل باشا بيع أسهم
مصر في القناة بنحو ٤ ملايين جنيه مع أن ثمنها بلغ ٧٢ مليون في سنة ١٩٢٩ ،
فلماذا لا ينعي على خلفاء اسماعيل بيع هذه الحصة التي بلغت أرباحها في سنة ١٩٣١
برغم نزول سعر الجنيه الأسترليني ٤٤.٥٠٠.٢٠ ر.١٠ جنيه مع أن ثمنها الأصلي هو كما
قدمنا ٨٨٠.٠٠٠ جنيه ؟ أليس من المعقول أنها لو ظلت باقية لمصر لدرت عليها
فوائد جسيمة ؟

فالذين يلومون اسماعيل على بيع الأسهم محتجين بأن ثمنها بلغ ٣٢ مليون جنيه
في سنة ١٩٠٥ وأن هذا الثمن صعد في سنة ١٩٢٩ إلى ٧٢ مليون جنيه يتناسون هذه
الحقائق المريرة الآتية :

أولاً : تدهور أسعار الأسهم في سنة ١٨٧٥ كما بيناه لك مفصلاً في ص ٢٩٨
ثانياً : أن الأسهم أصبحت « ميتة » لا يمكن أن تأتي بأرباح لغاية سنة ١٨٩٤
ثالثاً : أن اسماعيل أصبح وليست له كلمة في مجلس إدارة شركة كثيراً ما خدمها
مع ارتباطه في الوقت نفسه بما تصدره من القرارات .
رابعاً : إن الثمن المعروض عليه كان مغرباً ويزيد بنحو نصف مليون جنيه عن ثمن
الأسهم الأصلي .

خامساً : موقف تركيا وهذه نقطة على جانب عظيم من الأهمية وإن تكن فانت
على كثير من الكتاب المصريين . ففي يوم الجمعة ٥ أكتوبر سنة ١٨٧٥ أي قبل اتمام
الصفقة بنحو ستة أسابيع نشرت جريدة التيمس في صدر صحيفتها أخبارها لمكاتبها في
الاستانة البرقية الآتية :

ولو غضضنا النظر عما دفعه اسماعيل مؤقتاً من ثمن فادح لو وجدت الحقيقة التي لا غبار عليها تنطق بان ما حدث من التقدم مدة حكمه التي لم تتجاوز

== وقرر الباب العالى أنه في السنوات الخمس التي تبتدىء من أول يناير المقبل (سنة ١٨٧٦) سيدفع نصف سندات الدين العام وقسط استهلاكه نقداً والنصف الآخر سندات ذات ٥ ٪ .

فهل تدرى ماذا كان أثر هذه البرقية ؟ لقد كانت بمثابة اعلان افلاس الحكومة العثمانية . ففي الحال تدهورت السندات التركية وتبعتها السندات المصرية (الخاصة بقروض اسماعيل) وأصبح ذلك اليوم يعرف بيوم « الجمعة الأسود » في تاريخ المالية المصرية . وحسبك ما كتبه التيمس في العدد نفسه في مقال بعنوان « الحالة المالية » نقله عن كتاب « خراب مصر » للستر روزستين إذ قالت :

« استولى الذعر اليوم على سوق السندات الأجنبية ولم تعلق فيها النشرة الصادرة من البنك العثماني الإمبراطوري الخاص بالدين التركي إلا في منتصف النهار وإذ ذلك تدهورت السندات التركية أولاً وأعقبها السندات المصرية تدهوراً هائلاً كانت نتيجته إحداث ذعر شديد . ولم يشاهد أى تحسن عند اقفال البورصة بل استمرت السندات المصرية في تدهورها إلى ما بعد ساعات العمل . وليس ثمة أنباء عن مصر ولكن الدولتين مرتبطتان في ذهن الجمهور ارتباطاً تاماً بحيث يعتبرهما كتلة واحدة . »

وماذا عساك أن تقول إذا علمت أن السندات المصرية ظلت تتدهور حتى بلغت سندات سنة ١٨٦٨ (الخاصة بقروض اسماعيل) إلى ٥٧ وسندات سنة ١٨٧٣ (الخاصة بها أيضاً) إلى ٥٧ ¼ ؟

فهل تعجب اذن أن يقدم اسماعيل على بيع أسهم مصر أم أن وجه العجب كان يكون حقاً لو أنه تأخر عن بيعها وسط كل هذه الظروف القاسية ؟

بعثة كيف وهل طلبها اسماعيل ؟

في يوم ١٨ أكتوبر سنة ١٨٧٥ أى بعد ثلاثة أيام من يوم الجمعة الأسود بعث الجنرال استانتون قنصل بريطانيا العام في القاهرة يخطر لورد دربي « بأن الخديو أعرب له عن حاجته إلى موظف من موظفي الحكومة له إلمام تام بالنظام المتبع في نظارة المالية لحكومة جلالة الملكة لمعاونة ناظر المالية المصرية على معالجة الفوضى ==

الأثني عشر عاماً كان في الواقع عملاً مشرفاً . فمثلاً تضاعفت خطوط السكك الحديدية بنحو ١٣٠٠ ميل وأنشئت طرق جديدة تبلغ بضعة آلاف من الأميال . أما الخطوط التلغرافية فبعد أن كانت ٦٠٠ ميل في سنة

== التي يعترف سموه بأنها ضاربة أطنابها في تلك النظارة .

ثم عدل الجنرال استانتون الطاب بعد بضعة أيام فقال إن الخديو يطلب استعارة رجلين « يشرفان على الدخل والخرج تحت إشراف ناظر المالية على شريطة أن تكون لأحدهما على الأقل دراية تامة بعلم الاقتصاد السياسي الذي رسم للأمم في العصور الحديثة المبادئ الصحيحة التي تنمو بها موارد الدول » .

ثم انقضت ثلاثة أسابيع وأخيراً رد لورد دربي في ٢٧ نوفمبر بأن الحكومة الإنجليزية ترى أن تبعث إلى مصر « بعثة خاصة تنظر هي والخديو فيما يسأله سموه من النصح في الشؤون المالية » .

وبعد أسبوع آخر تشكلت بعثة « كيف » من خمسة من كبار موظفي الحكومة برئاسة المستر (وقد أصبح فيما بعد السير) ستيفن كيف رئيس الخزانة العام . وفي يوم ٦ ديسمبر سنة ١٨٧٥ أرسل اللورد دربي إلى المستر كيف خطاباً شرح فيه تاريخ الطلب وما يتعلق به إلى أن قال : « فينبغي أن توضح حكومة الخديو مكانة السيدين المطلوبين وسلطتهما . ولما لم يكن من المستطاع الوصول إلى التفاهم عن طريق التراسل فقد رأينا أن نرسل رجلاً تثق به جلالة الملكة وهو فوق ذلك مشهود له بالكفاءة في الشؤون المالية والأدوية ليقاوض الخديو وحكومته في إدارة مصر ومركزها المالي وبذلك تكون حكومة جلالة الملكة أقدر على مد الخديو بالمعونة التي يريدونها بمقتضى تقريره » . واسترسل لورد دربي فقال : « ولا تشك حكومة جلالة الملكة في أن الخديو سيكون صريحاً صراحة تامة في معاملته لكم وأنه سيسهل لكم كل التسهيل الوقوف على حقيقة شؤون مصر المالية وبذلك تستطيعون أن ترفعوا إليها تقريراً وافياً » . وختم لورد دربي خطابه إلى المستر كيف قائلاً : « ولو أن الغرض الأول من بعثتك هو الاتفاق مع الخديو على المعونة الإدارية التي طلبها سموه فلا يفوتك أن تنصيد معلومات جمة كبيرة الأهمية لمصر أو لهذه البلاد . وعلى ذلك فحكومة جلالته لا ترى ضرورة لتزويدك بالتعليمات التفصيلية لأنها تفضل أن تترك شؤون اللجنة بقدر المستطاع إلى فطنتك وبعد نظرك » .

١٨٦٢ قد أصبحت في سنة ١٧٨٨ تناهز ٦٠٠٠٠٠ ر.م.م. وأُنشئت مصلحة

= ولقد بيعت أسهم القناة لبريطانيا العظمى في يوم ٢٥ نوفمبر ١٨٧٥ (أي قبل أن تغادر بعثة « كيف ، إنجلترا) وفي اليوم التالي أي في اليوم الذي ذهب فيه اسماعيل صديق ومعه الصناديق السبعة التي تحتوي على الأسهم المصرية في القناة لتسليمها لفصل بريطانيا العام بعث لورد دربي إلى القاهرة مقترحاً إرسال البعثة المذكورة .

فهل كان بيع تلك الأسهم بعد تدهور السندات المصرية في يوم الجمعة الأسود سبباً في تحول الحكومة البريطانية عن إرسال رجلين يشرفان على عملية الدخل والخرج إلى إرسال بعثة للبحث في نفقات مصر وإدارتها والوقوف على حقيقة حالة المالية المصرية وإسداء النصيح للخديو ؟

إن الإنسان لا يسعه إلا أن يسأل هذه الأسئلة إذ في هذا اليوم نفسه (٢٦ نوفمبر سنة ١٨٧٥) عقدت التيمس فصلاً افتتاحياً بمناسبة ابتياع الأسهم قالت فيه :
« إن الجمهور هنا وكذلك في البلاد الأخرى سينظر إلى هذا العمل العظيم الذي قامت به الحكومة من وجهته السياسية لا من وجهته التجارية . فهو بمثابة مظاهرة . إنه لإعلان عن نيات معينة (كذا !) والمبادرة بالعمل إلى تحقيقها . فمن المستحيل أن نفرق في أذهاننا بين شراء أسهم قناة السويس وبين علاقات إنجلترا المقبلة بمصر أو بين مصر وما يحيط بمستقبل الأمبراطورية العثمانية فاذا أدت الثورة والاعتداءات من الخارج والرشوة من الداخل إلى سقوط تلك الأمبراطورية سياسياً ومالياً فقد يتعين علينا اتخاذ الوسائل التي تكفل سلامة ذلك القسم من أملاك السلطان لما لنا به من الصلة الوثيقة . »

سفر بعثة كيف

ومهمتها في نظر التيمس

وفعلاً سافرت البعثة إلى مصر في ديسمبر سنة ١٨٧٥ وبدأت بفحص حسابات الحكومة كما كان يعرضها عليه اسماعيل باشا المفتش .

وبينما البعثة منهمكة في عملها وقبل أن تضع تقريرها إذا بجريدة التيمس تطلع في يوم ٥ يناير سنة ١٨٧٦ على الملاء في افتتاحيتها المالية بمقال لا ريب في أنه موعز به . وقد رأينا أن ننقل نص فقراته الأولى عن كتاب مستر رودستين المسعى « خراب مصر » . قالت التيمس :

للبريد تزيد مكاتبتها في الجهات عن المائتين وأنشئ نحو ٥٠٠ من الجسور
(الكبارى) و ١٥ من المنائر وأسست مدينة بور سعيد وأنشئت ميناء

== والنتيجة ألا شيء أضمن لسلامة موقف مصر من إحداث تغيير أساسى فى
الحكومة المصرية ومالياتها (كذا ! كذا !) ولا شك أنه لو كانت الثقة بمصر فيما
مضى أشد من الثقة بها اليوم لاستطاعت أن تتفق مع دائئها على خير من الشروط
التي اتفقت وإياهم عليها . فالمسألة إذن هى كيف تحوز مصر هذه الثقة ؟ الظاهر أن كل
ما يقال فى هذا الموضوع قائم على الاعتقاد بأن الخديو يخضع بطريقة ما صاغراً
للأرشاد الأنجليزى (كذا) وأنه سيعهد إلى إنجلترا بإدارة مالية مصر وأنه سيتحول
إلى مصر بعض الثقة بإنجلترا فتتمكن من نقص فائدة ديونها ونقص أقساطها السنوية
نقصاً كبيراً . ولكن لا بد لذلك من علاقة بين الحكومتين ليس ثمة أى ضامن لها
ولا بد من عطف من والى مصر لانرى على وجوده دليلاً ما .
فكأنما كانت التيمس ترمى من بعيد إلى استعداد إنجلترا للقيام بأدارة مصر ما ليا
فى نظير خضوع الخديو « لأرشاد إنجلترا » .

التنافس بين إنجلترا وفرنسا

ونحسب أن القارىء يتوق إلى معرفة تفاصيل ما كان يجرى وراء الستار أثناء وجود
بعثة كيف فى مصر ونشاط السياسة الفرنسية عند ما سمعت بالغاية المقصودة كما نبتها
التيمس إليها . فان حكومة باريس سرعان ما أرسلت المسيو أوترى قنصلها العام فى
القاهرة سابقاً لتحويل نظر الخديو عما تعرضه عليه بعثة كيف . وقد جعل يتبارى مع
زميله المندوب الأنجليزى فى استرضاء الخديو حتى أن سموه صرح للستر كيف بأنه
يستطيع الاستغناء عن إرشاد إنجلترا .

وعرض المسيو أوترى على الخديو مشروع إنشاء مصرف وطنى مصرى تحت اشراف
مندوبين تعيينهم إنجلترا وفرنسا وإيطاليا لتحويل الديون السائرة إلى دين واحد بفائدة
٩ ٪ وأن يقوم بكافة أعمال البنوك وتبادلها مع الخزانة كتمسك الأيرادات ودفع
الكوبونات الخ .

واتجهت نية فرنسا إلى إشراك إنجلترا فى هذا المصرف واقترحت فعلاً على لورد
درى أن تعمل الحكومتان جنباً إلى جنب ولكن اللورد المذكور أدرك أن اشترك
إنجلترا فى هذا المصرف لا يتفق مع مصلحة حملة الأسهم الأنجليز وجلهم من حملة قراطيس ==

الاسكندرية ومدت فيها وفي القاهرة أنابيب الغاز والمياه والمجارى وانشىء
خط للاحة النيلية بالبواخر كما انشىء خط لنقل الركاب عبر البحر

الموحد فليس من مصلحتهم أن يضاف إلى هذا الدين معظم ديون الخديو السائرة
وجلبها مستمد من المصارف الفرنسية .

لا بل إن اللورد دربي ذهب إلى أبعاد من ذلك فأبلغ الخديو في ٦ مارس سنة
١٨٧٦ بأن اجلترا لا تشترك في هذا المصرف بشكل ما . وإذ ذاك آثر سموه إهمال
المشروع محذافيره مما همل له الرأسماليون الأجليز كما شهدت بذلك جريدة «اىكونومست»
ونقلته عنها التيمس في ١٧ ابريل سنة ١٨٧٦ إذ قالت :

« اننا يسرنا جدال سرور هبوط مشروع القرض الفرنسى وكذا اللجنة الفرنسية لأن
نجاح أحد هذين المشروعين كان يؤدي حتما إلى أوخم العواقب ويكفى أنه يؤدي إلى
صيرورة الفرنسيين حكام مصر الحقيقيين وهو الأمر الذى حمل بالمرستون في بداية
الأمر على مقاومة حفر قناة السويس ثم دفعنا فيما بعد إلى إنفاق أربعة ملايين من
الجنيهات خشية أن تصبح أسهم الخديو في القناة أسهماً فرنسية » .

تقرير بعثة كيف

هذه بعض ملاحظات رأينا اثباتها إتماماً للفائدة وايضاحاً للناحية السياسية في ابتياع
أسهم القناة .

ونعود الآن الى بعثة كيف فنقول إنها ظلت في مصر بقية شهر ديسمبر سنة ١٨٧٥
وطيلة شهر يناير سنة ١٨٧٦ وغادرت القاهرة في أوائل فبراير . أى انها قضت زهاء
شهر ونصف في بحث مالية مصر ودراستها . وهى مدة قصيرة جداً خصوصاً وأن
الحسابات لم يكن يتبع في تقييدها النظام الأورنى الحديث بل كانت من النوع الذى
اعتاده كتبة الأقباط فى الزمن الغابر المسمى بصورة الفدان . هذا إلى ان الأرقام
والتفاصيل كانت كلها بلغة لا يفهمها أحد من أعضاء البعثة .

فليس عجيباً إذن أن يأتى التقرير ناقصاً فى بعض نواحيه . على أن أهم ما جاء فيه
اعترافه بأن مصر فى استطاعتها سداد ديونها لو خفضت الفوائد تخفيضاً معقولاً ثم
تنديده الشديد بالقرض المشؤوم المعقود فى سنة ١٨٧٣ والذى كانت قيمته الاسمية ٣٣
مليون جنيه لم يدفع منه نقداً إلا تسعة ملايين فقط فى حين أن ١١ مليون جنيهه
صدرت به سندات . أما الباقى وقدره ١٢ مليون فقد تسرب إلى جيوب السماسرة وغيرهم .

المتوسط . وقد انشئ من الترع الجديدة نحو المائتين وزادت ترع البرى من ٤٤٠٠ ميل إلى ٤٠٠٠ ر ٥٢ ميل بينما اصالح نظام الري من اساسه واثنت

== ولسنا نريد الدخول في تفاصيل هذا التقرير ولا ماسرده من الأرقام التي اقتبسنا الكثير منها في مختلف أنحاء الكتاب الحالى . وبحسبنا أن نقول إن التقرير جاء على العموم فى مصلحة اسماعيل باشا .

وقد اختتمته البعثة بتقديم نصيحة للرأسمالين بالألا يتشددوا فى المطالبة « برطل اللحم » كما لا خيفة أن يؤدى تشددهم إلى تعطيل الآلة المالية فى مصر وتخطيمها نهائياً .

الاتفاق على عدم نشر التقرير

وقد وضع السير ستيفن كيف تقريره فى باريس . وكان المتفق عليه بين الخديو والحكومة الانجليزية أن يظل التقرير فى طى الكتمان .

ولكن الحكومة الفرنسية شرعت من جديد تفاوض اسماعيل لمساعدته على تنظيم ماليته وقد أرسلت فعلا مندوبها المسيو فيليب هذه الغاية فى الوقت الذى استقر فيه رأى لندن على ارسال المستر ريفرز ولسن إلى القاهرة لأصلاح مالية اسماعيل .

ولما وصل ولسن طلب ايجاد لجنة مراقبة مالية فى مقابل توحيد الدين كله ونقص فائده فى حين أن منافسه الفرنسى بعد أن أهمل مشروع المصرف الذى كان سبب الخلاف فى الماضى ، اقترح تأليف لجنة تتفرغ للدين العام وحده وتعين حكومات متعددة أعضائها وتقتصر مهمتها على تسلم الأيرادات المخصصة لدفع الكوبونات هذا إلى توحيد جميع الديون السائرة والثابتة على شروط معينة وضمانها ببعض موارد دخل الحكومة المصرية .

وسرعان ما طلب لورد دربي تفاصيل هذا المشروع . فلما اطلع عليها أعلن عدم موافقته عليها لأن اللجنة لن تكون مسيطرة فعلا على المالية بل يكون عملها قاصرا على استلام الأموال بالنيابة عن الدائنين هذا إلى أن شروط تحويل الدين السائر إلى دين ثابت ضارة بمصالح حملة أسهم الدين الموحد .

ولكن الخديو كان ميالا للمشروع الفرنسى فأرادت الحكومة الانجليزية صده عنه . فلما لوحث بنشر تقرير المستر كيف احتج اسماعيل قائلاً إنه وثيقة ليس لأحد عدا حكومة جلالة الملكة حق الاطلاع عليها وخاصة وأن الاتفاق لم يكن تم بعد مع الممولين الانجليز على أساس المساعدة المراد تقديمها للخديو .

المصارف فحالت دون استمرار استغلال المزارعين للفلاحين كما أنفقت الأموال بسخاء هائل لمساعدة المشروعات التجارية والصناعية المختلفة .
أما أن النفقات التي ذهبت في هذا السبيل وتقدر بنحو ٥٠ مليون جنيه

فأصغت الحكومة البريطانية إلى الاحتجاج . ولكن حدث ما هو أدهى وأمر . ذلك أن نائباً أوعز إليه بأن يسأل الحكومة عن السرفى عدم نشر تقرير كيف . فبدلاً من أن يجيب المستر دزرائيلي بأن التقرير وضع بشرط ألا ينشر أجاب - على ما جاء في المناقشات البرلمانية لهنسارد المجلد الأول ٢٣١ سنة ١٨٧٦ ص ٦٣٩ - « بأنه لا يمانع في نشره إنما الخديو هو الذى يعارض فى ذلك أشد المعارضة » .

تدهور السندات المصرية

ويمكنك أن تدرك ما أصاب سوق الأسهم المصرية من الذعر وتدهور أسعارها من جراء هذا التصريح الذى فهم منه رجال المال أن التقرير المشار إليه لا يبعث على الرضا . ثم انقضت عشرة أيام أحس بعدها اسماعيل بحرج الموقف فطلب نشر التقرير قائلاً إنه يجهل محتوياته ويتطلع إلى نشره ثقة منه بأن المستر كيف لم يقرر سوى الواقع بلا تحريف ولا زيادة ، ولعله بأن نشر التقرير كفيل بتبديد مخاوف الجمهور التي لا يوجد ما يبررها .

ولكن كم كان اسماعيل شديد التفاؤل . فان الجمهور أبى أن يحسن الظن بموقف مصر المالى بعد تصريح المستر دزرائيلي المذكور . ولم يجد اسماعيل ما يرد به على هذه المناورة إلا قوله « لقد حفروا الى القبر ، كما أن المستر كيف - وهو الذى كان يقصد بتقريره إيجاد مخلص للخديو - لم يجد مناصاً بعد تصريح المستر دزرائيلي من أن يعترف - كما ذكر فى المناقشات البرلمانية لهنسارد المجلد ٣٣١ سنة ١٨٧٦ ص ٦٢٧ و ٦١٠ - بان بعثته بدلاً من أن تساعد الخديو على الاقتراض قد اغلقت فى وجهه أسواق العالم ، وما حل اليوم الثالث من شهر ابريل سنة ١٨٧٦ حتى نشر التقرير وتبين للناس أنه لم يكن غير مرض كما فهدوا لأول وهلة . ولكن كان قد سبق السيف الهزل وتدهورت السندات المصرية كما قدمنا .

التوقف عن الدفع

وفى يوم ٧ ابريل سنة ١٨٧٦ وقعت الواقعة . ذلك ان الخديو أصدر مرسوماً بتأجيل دفع السندات والأقساط المنتحقة على الحكومة فى شهرى ابريل ومايو لمدة =

قد كانت تعتبر على وجه العموم عملية مالية رابحة فيتجلى لك من مراجعة قليل من الأرقام . فلقد ازداد الأيراد من دون خمسة ملايين جنيه

== ثلاثة أشهر . ثم أعلن هذا المرسوم في بورصة الاسكندرية في اليوم التالي فكان هذا إيذانا بالتوقف عن الدفع .

ونحسب أن من الأنصاف لاسماعيل أن نذكر ما كتبه التيمس بعد ذلك بأيام خاصا بهذا الموضوع وكانت كما تعرف من ألدخصومه . قالت في يوم ٢٦ ابريل سنة ١٨٧٦ كما رواه مستر رودستين :

« لقد تسبينا في هبوط الأسهم المصرية إلى أبعد مما كان يمكن أن تهبط إليه لولم تتدخل في مالية مصر . فلولا لاسماعيل مثلا أن يبعث إلى وزارة خارجيتنا يوما ما ويقول لها بصريح العبارة إن تردد سياسة إنجلترا الخارجية وتذبذبها هو الذي أضعف به الثقة في البورصات الأوربية وعليها وحدها تقع المسؤولية إذا رأى نفسه الآن عاجزا عن تسوية ديونه السائرة - وما كان ليعجز عنها لولا تدخلنا - إنه لو فعل ذلك لما وسعنا إلا أن نقره على لومه وتقريعه » .

فأين هذا الاعتراف الصريح من زعم لورد كرومر - ألدخصوم الخديو - في ص ١٢ من المجلد الأول من كتابه « مصر الحديثة » اذ قال : « لقد ظهر قبيل حلول الكارثة العامة أن ادارة اسماعيل باشا السيئة لمالية البلاد لا بد أن تؤدي إلى انهيار مالي عاجل أو آجل . ولقد وقع المحذور في ٨ ابريل اذ أجل الخديو دفع سندات الخزينة » .

انشاء صندوق الدين

٢ مايو سنة ١٨٧٦

سردنا عليك من أقوال المالى الانجليزى الكبير السير جورج اليوت وغيره ما يستنتج منه أنه كان في استطاعة مصر التغلب على ديونها وارضاء كافة دائئها لو حول دينها السائر إلى دين ثابت وعدلت فائدة الدين الموحد كله . وهذا ما اقترحه المسيو غبلييه فعلا بالنيابة عن الدائئين الفرنسيين فضلا عن انشاء لجنة تتفرغ للدين وحده وتسلم الأيرادات المخصصة لأداء الكوبونات .

وبعد تجارب الخديو في صدد تقرير كيف مال إلى الاقتراح الفرنسى وترك الدائئين الانجليز ينتظرون ما ترسمه لهم حكومتهم من الخطط .

وفي يوم ٢ مايو سنة ١٨٧٦ صدر مرسوم خديو بانشاء صندوق الدين وهو ==

في سنة ١٨٦٢ إلى ٠٠٠ ر ٥٠٠ ج في سنة ١٨٧٩ . وقد قدر «المستر كيف» في وقت متأخر أى في سنة ١٨٧٥ أن مصر قادرة على سداد ديونها حتى بدون الالتجاء إلى الضغط على مؤسسات اسماعيل المالية .

== بمثابة خزانة فرعية لخزانة الدولة تكون مهمته قاصرة على استلام الإيرادات المخصصة للديون .

وقد خصص لهذا الصندوق إيراد مديريات الغربية والمنوفية والبحيرة وأسيوط وعوايد الدخولية في القاهرة والاسكندرية وإيراد جمارك الاسكندرية والسويس وبور سعيد ورشيد ودمياط والعريش وإيراد السكك الحديدية ورسوم الدخان وضريبة الملح ومصايد المطرية (دقهلية) ورسوم الكبارى وعوائد الملاحة في النيل وإيراد كوبرى قصر النيل وإيراد أطيان الدائرة السنوية (وكان ريعها السنوى ٦٨٤٠٠٠ جنيه) وبالجملة فقد خصص لصندوق الدين من الدخل ما يبلغ ٨ مليون جنيه سنويا وذلك لأداء الفوائد وأقساط الاستهلاك .

وكان بين مانص عليه مرسوم انشاء الصندوق : أنه مختص بتسليم النقود المخصصة لسداد الديون ، وأن يتولى ادارته مندوبون أجانب تنتدبهم الدول الدائنة ويعينهم الخديو وفقا لهذا الانتداب ، وأن يورد الموظفون المختصون بتحصيل الأيراد ما يجمعونه إلى صندوق الدين رأسا ، وأن الحكومة بمنوعة من تعديل الضرائب التي خصصت إيراداتها لصندوق الدين تعديلا يفضى إلى انقاص الوارد منها الا بموافقة أعضاء صندوق الدين ، وألا حق للحكومة في عقد قرض أو إصدار افادات مالية على الخزانة إلا لأسباب تقضى بها حاجة البلاد وبعد موافقة صندوق الدين ، وللحكومة الحق في الاقتراض بالحساب الجارى مالا يزيد عن ٥٠ مليون فرنك (مليونى جنيه) للقيام بخدمة الخزانة .

وقد نص المرسوم المذكور على جعل المحاكم المختلطة مختصة بنظر ما يرى صندوق الدين اقامته على الحكومة من الدعاوى خدمة لمصالح أصحاب الديون .

مشروع توحيد الديون

مرسوم ٧ مايو سنة ١٨٧٦

وفي يوم ٧ مايو سنة ١٨٧٦ أصدر اسماعيل مرسوماً آخر بتوحيد ديون الحكومة ودين الدائرة السنوية والديون السائرة إلى دين واحد سمي (الدين الموحد) وقدره ==

ثم أن الأهالي ازداد عددهم من ٨٠٠٠٠٠ إلى ٤٠٠٠٠٠٠ ر ٥٠٠٠٠٠
وتضاعفت مساحة أراضي الزراعة من ٤٠٠٠٠٠ إلى ٥٠٠٠٠٠٠ ر ٥٠٠٠٠٠
فدان كذلك تضاعف عدد المواشى . ثم يلاحظ أن ازدياد العناية بحل

== كما قال لورد كرومر - ٩١ مليون جنيه انجليزي بفائدة ٧ في المائة على أن
يستهلك في ٦٥ سنة مع بقاء القروض الطويلة الأجل وهي قروض سنوات ١٨٦٢
و ١٨٦٨ و ١٨٧٠ و ١٨٧٣ على حالها بأن تستبدل بسندات جديدة من
الدين العام بحساب المائة مائة بينما يعطى أصحاب القروض القصيرة الأجل وهي
قروض سنوات ١٨٦٤ و ١٨٦٥ و ١٨٦٧ سندات جديدة تحسب لهم بواقع مائة
لكل خمسة وتسعين من قيمتها الاسمية وذلك في مقابل إطالة أجل سدادها . أما سندات
الدين السائر فتستبدل بها سندات جديدة مع اضافة ٢٥ في المائة إلى قيمتها أى بواقع
١٠٠ لكل ٨٠ جنيه من قيمتها الاسمية وذلك مقابل إطالة أجل السداد .

مرسوم ١١ مايو سنة ١٨٧٦

وكانت هذه ولا ريب تسوية عادلة للدائنين لا للمصريين وبخاصة وأن الخديو -
كما جاء في القاموس العام للأدارة والقضاء لصاحبه فيليب بك جلاد - أصدر في ١١
مايو مرسوماً ثالثاً بإنشاء مجلس أعلى للمالية مركب من عشرة أعضاء نصفهم من
المصريين والنصف الآخر من الأجانب عدا الرئيس الذى يعينه الخديو ، وأن يكون
مقسماً إلى ثلاثة أقسام أحدها لمراقبة خزائن الحكومة والثانى لمراقبة إيراداتها
ومصروفاتها والثالث لمراقبة الحسابات . ولهذا المجلس الحق فى إبداء رأيه فى الميزانية
السوية التى يضعها وزير المالية باسم الحكومة على أن يكون ذلك قبل نهاية السنة بثلاثة
أشهر . وقد اختار الخديو لرياسة هذا المجلس السنيور شالويوا أحد أعضاء مجلس
السيوخ الإيطالى .

ولم يفعل الخديو كل هذا إلا لأقامة الدليل على حسن نيته وطمأنة الدائنين على
حسن الإدارة المالية .

بعثة جوبير غوشن

لم تكن الحكومة الانجليزية شديدة الارتياح لإنشاء صندوق الدين ولا لتوحيد
الديون . ولذلك امتنعت عن تعيين مندوب لها فى صندوق الدين مع أن الدول

« الشفالك » قرب الفلاح من تحقيق بغيته الكبرى وهي أن يكون له فدان من الأرض وبقرة . وإذا كان لدى الفلاح الانجليزي ما يحمله على أن يحسد الفلاح المصري برغم الكرباج والسخرة فان لدى نساج

== الأخرى الثلاث عينت مندوبها فعينت فرنسا المسيو دوبلنير والنمسا فون كرهير وايطاليا السنيور بارافللي .

وبعد مناورات طويلة من وراء الستار سافر في خلالها اللورد دربي إلى باريس للاجتماع بالدوق دي كاز وزير الخارجية واقناعه بوجوب وضع نظام جديد يتضمن ادخال تعديلات جديدة تكفل جعل مصر في سياستها وفي تصرفاتها الداخلية أكثر خضوعاً للدول الأجنبية .

ولم يكتب اللورد دربي بذلك بل بعث إلى باريس بالمستر غوشن (وهو اللورد غوشن فيما بعد) عضو الوزارة السابقة وابن المالى الشهير غوشن . فقام هذا بمفاوضة الدائنين الفرنسيين إلى أن ضمهم إلى وجهة نظر اللورد دربي .

وكم كان ابتهاج بورصة لندن عند وصول الأبناء بموافقة الدائنين الفرنسيين على رأى المستر غوشن الذى أقام في اكتوبر سنة ١٨٧٦ حفلة وداع وأقسم فيها للدائنين الأجليلز الحاضرين - كما ذكرت التيمس - « ليحصلن لهم على أعظم ما يستطيع تحصيله » . ثم سافر المستر غوشن بعد أيام إلى القاهرة ممثلاً للدائنين الأنجليلز يصحبه المسيو جوير ممثلاً للدائنين الفرنسيين لحل الخديو على قبول التعديلات الجديدة .

وتنفيذاً لخطلة موضوعة من قبل أفهم القنصل البريطانى العام الخد يومكانة المندوبين وبخاصة مستر غوشن الذى قال إنه يحتمل عودته إلى الوزارة قريباً . كل ذلك للتأثير فيه وحمله على الأذعان .

وهنا ظل مشروع جوير غوشن في كفة القدر عدة أيام بسبب الموقف العدائى الذى وقفه حياله اسماعيل المفتش .

موت اسماعيل المفتش

ونظراً لما كان للمفتش من النفوذ في أنحاء البلاد فقد رأى فيه أصحاب المشروع الجديد « ألد عدو للاصلاح » ، ملهجين بذلك إلى وجوب إبعاده . بذلك على ذلك ما بعثه مراسل التيمس الأسكندري إلى صحيفته في ١٢ نوفمبر سنة ١٨٧٦ قائلاً : « إن سقوط المفتش سواء أ كان بحق أم بغير حق ، أصبح مرغوباً فيه . ولعمري ليس أدعى إلى ==

لنكشير ما يحمله على تمنى الخير لمصر . فتد كان قطن الدلتا هو الذى أنقذ لنكشير من الخراب التام فى إبان الحرب الأمريكية الداخلية . أما الصادرات القطنية فلم تتضاعف قيمتها إلى أربعة أمثالها فقط

== إنعاش بورصة الاسكندرية الكاسدة من تحقيق تلك الأشاعة التى رددت كثيراً عن سقوط المفتش .

وفى هذا ما فيه من التحريض على وجوب التخلص من المفتش وأخيراً لما مات المفتش إذا ببورصة الاسكندرية تنشط حركتها حتى أن الأسهم المصرية - كما ذكر مراسل التيمس - ارتفع سعرها ثلاثة بنوط فى نصف ساعة . وحكاية موب المفتش ما تزال من الأسرار الغامضة التى لم يعرف الناس ولن يعرفوا كنهها ولا حقيقتها . والأقوال فيها متضاربة ومتناقضة .

مرسوم ١٨ نوفمبر سنة ١٨٧٦ لتسوية الدين العام

كان طبيعياً بعد موت المفتش فى منتصف شهر نوفمبر سنة ١٨٧٦ أن يرقص طرباً أنصار مشروع غوشن - جووير بعد أن زالت العقبة الكؤود - وهى اسماعيل المفتش - من الطريق . وما هى إلا أيام قلائل حتى صدر مرسوم ١٨ نوفمبر سنة ١٨٧٦ باقرار ما أدخله غوشن وجوير من التعديلات على مرسوم مايو سنة ١٨٧٦ وفرض الرقابة الأجنبية على المالية المصرية .

أما التعديلات فتتضمن اخراج ديون الدائرة السنية وقدرها ٧٨١٥٠٠٠٠ جنيه من الدين الموحد وعقد اتفاق خاص بشأنها ، وخفض العلاوات المقررة لأصحاب الدين الموحد وتسديدها فى مواعيدها ، وتخفيض العلاوات المقررة لأصحاب الدين السائر من ٢٥٪ إلى ١٠٪ ، وما تبقى من الدين المصرى يقسم إلى قسمين أحدهما الدين الممتاز ومقداره ١٧ مليون يستهلك فى ٦٥ سنة من إيرادات السكة الحديدية وميناء الاسكندرية وتعطى سنداته بالأفضلية لحملة أسهم القروض الطويلة الأجل . وثانيهما الدين الموحد وقد خفض إلى ٥٩ مليون جنيه وجعل فائدته ٧٪ . يستهلك من الإيرادات المبينة فى مرسوم ٧ مايو سنة ١٨٧٦ . ثم إعادة العمل بقانون المقابلة وإبقاء صندوق الدين بصفة دائمة إلى أن يستهلك الدين العام بأكمله . ولأعضائه الحق فى استلام الأيراد المخصص لاستهلاك الدين وأرساله رأساً إلى بنكى إنجلترا وفرنسا وأن يكون تعيين أعضائه بطلب حكوماتهم .

بل زادت الصادرات بصفة عامة من ٤٠٠٠٠٠٠٠ إلى ١٤٠٠٠٠٠٠٠ ربية
جنيه كما زادت الواردات من دون المليونين إلى ٥٠٠٠٠٠٠٠ ربية جنيه
وبالجملة فإن ما أحدثه رأس المال الأجنبي من النشاط أدى باقترانه بالصناعة
الوطنية إلى تنمية الاقتصاد الوطني بسرعة تدعو إلى الدهشة. وقد كتب القنصل

= وفي ١٢ و ١٣ يولية سنة ١٨٧٧ عقد اتفاقان لتسوية ديون الدائرة السنية
والدائرة الخاصة .

المراقبة الثنائية

وليس المهم في هذا المرسوم ما وصل إليه الدائنون من تعديلات ولكن وجه
أهميته - وهذا ما كان يعارض فيه المفتش - تعيين مراقبين أجنبيين بوظيفة مفتشين
عموميين أحدهما انجليزي ويسمى مفتش الإيرادات والثاني فرنسي لمراقبة المصروفات
ويسمى مفتش الحسابات والدين العمومي .

ووظيفة الأول كما يفهم من التعبير تحصيل إيرادات الحكومة وتوريدها للخزائن
المخصصة لها وله أن يعزل ويولي من يشاء من مأموري التحصيل - ما عدا محصلي الرسوم
القضائية في المحاكم المختلطة - بعد تصديق اللجنة المالية المؤلفة من وزير المالية ومن
المراقبين الأجنبيين .

ووظيفة الثاني ملاحظه القوانين واللوائح المتعلقة بالدين العام وبالجملة تفتيش حسابات
الخزانة . وليس لأحد من الوزراء أو رؤساء المصالح أن يأمر بصرف ما يصدر عنه من
أذونات أو تحاويل إلا بعد تأشيرة المراقب. وله حق الاعتراض على صرف أى مبلغ
يتجاوز المربوط في الميزانية .

ولهذا المراقب أن يقوم بوظيفة المستشار المالى لوزارة المالية وهو نفس المنصب
الذى لا يزال يحتفظ به تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ كما أن للمراقبين الحق فى الاشتراك
فى تحضير ميزانية الحكومة .

وزاد المرسوم على هذين المراقبين أمراً آخر وهو وضع إدارة السكك الحديدية
وميناء الاسكندرية تحت إدارة لجنة مختلطة مركبة من خمسة مديرين . منهم اثنان انجليز
ومصريان وواحد فرنسي على أن يكون رئيس اللجنة أحد المديرين الانجليزين وهذه اللجنة
تسلم إيرادات السكك الحديدية لصندوق الدين ولها السلطة العليا على كافة موظفي الإدارة .

العام الأمريكى ادوين دليون فى كتابه « مملكة الخديو سنة ١٨٨٣ »

تنفيذ المرسوم الجديد

وبمقتضى المرسوم الجديد عين المستر رومين القاضى السابق فى الهند مراقباً انجليزياً عاماً للأيرادات وعين البارون دى مالاربه مراقباً فرنسياً للمصروفات كما عين الجنرال الانجليزى ماريوت رئيساً للجنة السكك الحديدية وميناء الاسكندرية .

وأبت الحكومة البريطانية أن تتحمل مسؤولية تعيين الموظفين السابقين كما أنها لم تعين عضواً انجليزياً لصندوق الدين . ولكن اللورد غوشن والسير لويس ماليت اقترحا على الخديو تعيين السير افلن باريج عضواً انجليزياً فى ذلك الصندوق إلى جانب المسيو دوبلنير العضو الفرنسى وفون كريمر العضو النمساوى وبارفالى العضو الإيطالى .

وبديهى أن توقف مصر عن الدفع لم يكن من الحوادث التى تبرر اتخاذ كل هذه الشروط المهينة ووضع ادارة البلاد فى أيدي جماعة من الأجانب مهما حسنت نياتهم فانهم كانوا يعملون قبل كل شىء لمصلحة الدائنين .

وهانحن نرى فى عصرنا الحاضر حكومات عديدة تتوقف عن الدفع فجأة دون أن يتحرك الدائنون أو تحدثهم نفوسهم بوضع حكومة الدولة المدينة تحت رقابة أجنبية . ومن الملائم أن نذكر هنا أن الحكومة الفرنسية ظنت بادية ذى بدء أن الشركة الثنائية تخدم مصالحها المالية ولكن الحوادث أثبتت فيما بعد أنها إنما سخرت لخدمة المصالح الانجليزية التى أصبحت ذات الحول والسلطان إلى أن انفردت بحق البت فى مستقبل وادى النيل . وما أطف ما كتبه فى هذا الصدد الوزير الفرنسى الخطير دو فرسينيه فى كتابه المسألة المصرية ص ١٦٨ وأدناه إلى الحق إذ قال :

« انا ارتكبنا فى هذا الصدد خطأين . اولهما أننا جعلنا التدخل فى مصر مقصوداً على أنفسنا وعلى الانجليز . والعمل الثنائى هو فى ذاته عمل متعب وخاصة اذا كان بين شريكين مختلفان فى الطباع والمناهج ووجهات النظر مثل فرنسا وانجلترا ولا بد فى مثل هذه الاتفاقات من ضحية ، وكان من الواجب علينا أن نشرك معنا الدول الأخرى ، وتتخذ فى هذه المسألة وسائل مالية على النحو الذى حدث فى انشاء صندوق الدين والمحاكم المختلطة أو كما حدث بعد ذلك فى قانون التصفية . أما الخطأ الثانى فاننا أسرفنا فى جعل سياستنا تابعة للمسألة المالية فانه وإن كان يحسن بالحكومة أن يحمى مصالحها

ما نصه : « إن ما أدخل من التحسينات على المشروعات العامة التي ابتدأت



المسيو دو فريسنيه وزير خارجية فرنسا سابقا
وصاحب كتاب المسألة المصرية

رعايها لكن الحالة تختلف اذا كان أصحاب الديون لا يكتفون ما تنطوى عليه أعمالهم المالية من المغامرة . ففي هذه الحالة لا يطلب من الحكومات أن تتدخل في شؤون الدول الأخرى إلى هذا الحد . فنحن لم نحارب تركيا أو البرتغال أو البلاد الأخرى التي توقفت عن أداء أقساط ديونها ، فلماذا كنا قساة نحو مصر مع أنها كانت أقل اخلالا بتعهداتها المالية من تلك الدول ؟ »

إرهاق البلاد وإعنتها

وفي أواخر سنة ١٨٧٦ دخل النظام الجديد في دور التنفيذ . ولا تسأل عما مر البلاد من ضروب الأعنت ولا ما صادفه الفلاحون والمنتجون من شتى أنواع الإرهاق في سبيل الحصول على أقساط الكوبون . نعم دفع كوبون يناير سنة ١٨٧٧ في ميعاده المقرر ولكن ذلك لم يكن على حساب تخفيض مصروفات البلاط والحريم إلى أدنى حد فحسب بل وتأجيل دفع مرتبات معظم موظفي الحكومة وحل جزء من الجيش وهذه المسألة الأخيرة ينبغي ألا تفوت القارئ متى تذكر ما انتشر في الجيش من أسباب التذمر والتبرم بأعمال الموظفين الأجانب على نحو ما سنبينه فيما بعد .

وتمت في خلال الأثني عشر عاماً الماضية كان فوق الوصف « واعترف
مراسل التيمس (٦ يناير سنة ١٨٧٦) بفضل اسماعيل فقال مانصه :
« تعتبر مصر مثالا باهراً للتقدم . فلقد فاق تقدمها في سبعين سنة تقدم
كثير غيرها من الممالك في خمسمائة عام » .

ولكن لم يكن يستطيع أن يكفي هذا التقدم ولا المكاسب لدفع

== وإذ رأت المراقبة الثنائية أن ما لجأت إليه من وسائل العنف والأرهاق لا يكفل
تجهيز كوبون يولية سنة ١٨٧٧ في ميعاده فقد اضطرت إلى زيادة رسوم الجرك بالاسكندرية
بنسبة ١٠٠٪ . وزيادة أجور الشحن بالسكك الحديدية بهذه النسبة وغيره وغيره
كما كانت نتيجته الأخطاء في تحقيق النتيجة التي كانت المراقبة تعمل لها . لأن الزيادة
الجركية وأجور الشحن أدت إلى نقص الواردات وتحويل الناس عن السكك الحديدية
إلى الشحن بالسفن في النيل . ولكن هذه الاجراءات حفزت أعضاء المراقبة إلى تضيق
الخناق على الفلاحين وخاصة في المديرية المخصص إيرادها لوفاء الدين وذلك برغم
تحذيرات الخديو ولفته نظر أولئك الأعضاء إلى أنهم بتعنتهم هذا يسوقون البلاد سريعاً
إلى الهاوية .

وقد دفع كوبون يولية بتهمه . ولكن القنصل الانجليزي العام أرسل في صده
إلى حكومته يخبرها بأن مصر قد دفعت في خلال ثمانية أشهر ما يقرب من ستة ملايين
من الجنيهات وهي شهادة ناطقة بحسن النظام الجديد . ولكن أخشى أن نكون قد حصلنا
على هذه النتائج بعد هلاك الفلاحين بسبب بيع حاصلاتهم قبل حصادها قسراً وجباية
الضرائب مقدماً قبل مواعيدها . هذا فضلاً عن أن مرتبات الموظفين الوطنيين التي يعد
دفعها بانتظام شرطاً أساسياً لحسن الإدارة قد أجل دفعها لسداد الكوبون . وبهذا
تكس ما للمستخدمين من متأخرات ؟ بل إن مراسل التيمس اضطرت أن يحذر المستر
رومين « بالأ يئس الفلاحين في غمته على مصالح الدائنين وإلا رأى نفسه يوماً ما قد
جاوز حدود قدرة البلاد على الإنتاج .

وكانت نتيجة هذا الأرهاق أنه قبل أن يمضي عام واحد على تنفيذ مشروع غوشن جوبير
كانت حركة البلاد قد أصبحت مشلولة . ففي سنة ١٨٧٧ بلغ إيرادها العام ٣٠٠٠٠٠٠
جنيه ذهب منه للدائنين ٣٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ جنيه . فاذا خصمت مبلغ الجزية وفوائد أسهم
قناة السويس لا يكاد يتبقى مليون جنيه واحد لإدارة شؤون البلاد .

اقساط الصفقات التي عقدها اسماعيل مع الممالين الأجانب . وسرعان ما أصبح مركز مصر من الحرج حتى صار شبيهاً بمركز متجر صغير وطيء



لورد كرومر

== من أجل ذلك اضطر المستر فيفيان قنصل بريطانيا العام أن يكتب إلى حكومته يخبرها بأن « الخزانة قد باتت خاوية على عروشها . وأن مرتبات الجنود وموظفي الحكومة لم تدفع منذ أشهر وأن البؤس والشقاء يخيمان على البلاد التي أصبحت حركتها مشلولة . » وفي ١٥ ديسمبر سنة ١٨٧٧ حل ميعاد الكوبون فأجل دفعه إلى أسبوعين . وهنا وجد المستر رومين — وكان كما قلنا قاضياً يدفعه ضميره إلى التنديد بالمظالم — أن الوقت قد حان لكتابة مذكرة مطولة لحكومته أثبت فيها أن الضرائب التي يدفعها الفلاحون فاقت كثيراً مقدرتهم الاقتصادية .

وكانت مذكرة المستر رومين خليقة برفع العنت عن كاهل الأهالي وخاصة وأن كاتبها كان مراقب الإيرادات ، أي أنه يعلم جيداً ما يكتب . ولكن المايجور بارنج (لورد كرومر فيما بعد) — ووظيفته كانت في صندوق الدين كما تعلم — رأى أن يكتب مذكرة يعارض فيها ما ذهب إليه المستر رومين وراح يزعم أن الضرائب المفروضة على فلاحى مصر لا تعتبر باهظة إذا قيست بالضرائب فى البلاد الأخرى . ==

الدعائم اضطر صاحبه في سبيل تنمية أعماله إلى الاستدانة من المرابين
الأسافل. أما أن اسماعيل مالت نفسه كما مالت نفوس معاصريه من أمراء

== وخشية من أن تجد مذكرة المستر رومين نقطة حساسة في قلوب الدائنين المتحجرة
فان الماجور بارنج اتفق هو وزميله المسير دوبلنير العضو الفرنسي في صندوق الدين
على السفر إلى أوروبا لمباحثة الدائنين وإقناعهم بوجود ابقاء الحالة على ما هي عليه
وعدم التأثير بملاحظات المستر رومين .

الديون المحلية والمحاكم المختلطة

وقد مر بك ما بذله اسماعيل من الجهود لحل الدول على الموافقة على إنشاء نظام
المحاكم المختلطة لوضع حد للفوضى الضاربة أطنامها في مصر من جراء استغلال الامتيازات
وإساءة استخدامها في القطر المصري . وقد كانت الحكومة المصرية اقترضت من
الأجانب المقيمين في مصر بعض قروض يجمعها كلها ما يسمى بالديون السائرة . فلما
جاء موعد سدادها في أواسط سنة ١٨٧٧ وحالة مصر المالية كما شرحناها هنا أخذ
أولئك الأجانب يجأرون مطالبين بالسداد . فلما لحظوا شيئا من التلكؤ الناشئ لا عن
سوء النية بل عن العجز عن الدفع هددوا بالالتجاء إلى المحاكم المختلطة . ومن ثم اضطر
اللورد فيفيان بناء على تعليمات حكومته أن يخطر الحكومة المصرية في أغسطس سنة
١٨٧٧ بأن «الدائنين سيلجأون إلى استعمال حقهم وهو الشكوى للمحاكم المختلطة ومن
ثم تجرد الحكومة نفسها أمام جملة أحكام قضائية تعين عليها تنفيذها جميعا وورا وإلا أحدث
أسوأ تأثير في نفس الحكومات التي أيدت إدخال ذلك الإصلاح القضائي .»
وهكذا شاء القدر الساخر ألا يمضى عام ونصف عام على ما بذله اسماعيل من جهود
وأموال لإنشاء هذه المحاكم المختلطة حتى تصبح سيفا مصلتا يستعمله لورد فيفيان لحل
اسماعيل على أداء الدين وفعلا بدأت الدول تلجئ ، في وجرب أداء هذه الديون وكانت
ألمانيا أشدها إلحافا بفضل تشدد البرنس بسمارك .

لجنة التحقيق العليا

٢٧ يناير سنة ١٨٧٨

ويظهر أن الماجور بارنج والمسيو دوبلنير لما سافرا إلى أوروبا أفهما حكومتهما
أنه برغم ما وقعت فيه مصر من الارتباك لا تزال توجد موارد مالية أخرى يصبح أن==

الشرق إلى استغلال ما استدانته دولته من الرأسماليين الأجانب الذين لم تكن معاملتهم لمصر أفضل من معاملتهم لغيرها من الدول الشرقية فأمر مفهوم . ولكن اسماعيل كان متفهماً في أساليب المالية العليا ووصل في الأمام

== تمتد إليها أيدي المراقبين . فكان من جراء ذلك أن قررت الحكومات إجراء تحقيق في المالية المصرية تتولاه مايسمونه لجنة التحقيق العليا .

فلما عاد بارنج ودوبلنيير إلى القاهرة قدما لاسماعيل يوم ٩ يناير سنة ١٨٧٨ ذلك الاقتراح الذي يمكنك أن تتصور وقعه عليه . على أنه وافق بشرط ألا تتجاوز اللجنة البحث عن موارد جديدة . ولكن الدائنين لم يقبلوا شيئاً من هذا بل طلبوا البحث في مصروفات الحكومة أيضاً عليهم يجدون وسيلة لتخفيضها إلى الحد الأدنى الذي يضمن دفع الكوبونات .

وبالجملة فإن الاقتراح الجديد كان في مجموعه أشبه شيء بطلب تعيين وصى على قاصر وحسبك أنه يضع ميزانية البلاد في أيدي الأجانب ويسمح لهم بالتصرف كما يشاؤون في أمور البلاد . أو بالأحرى كان بمثابة وضع مصر تحت الحماية الأوربية المشتركة وفي ذلك ما فيه من القضاء على استقلالها وكيانها .

== على أن اسماعيل ظل يقاوم هذا الاقتراح ولكن اللورد غوشن بدأ يلجأ إلى التهديد فنشرت له التيمس في أوائل يناير سنة ١٨٧٨ تصريحاً « بأننى سأبذل ما فى وسعى ونفوذى للقضاء على محاولة الحكومة المصرية حصر دائرة التحقيق » . ثم أخذت التلغرافات الواردة من باريس تلوح باسم الأمير حلیم باشا عم الخديو وإمكان إعادته إلى العرش الذى يطالب به .

لا بل أن اللورد غوشن هدد اسماعيل فى خطاب آخر أرسله إلى التيمس باتخاذ إجراءات معينة فى مؤتمر برلين المقبل « حيث ستتناول المناقشة بلا ريب مركز مصر » . ومع أنه كان يصعب على الأتسان التأكد من إمكان تنفيذ هذه التهديدات الغامضة إلا أن الخديو كان على ما يلوح قد استولى عليه الهم من توالى هذا الأعداء والإرهاق فأصدر فى يوم ٢٧ يناير سنة ١٨٧٨ مرسوماً بتأليف لجنة أوربية للتحقيق فى أسباب العجز فى الإيرادات وأوجه النقص فى القوانين واللوائح الخاصة بالضرائب ووسائل إصلاحها وتحقيق موارد الميزانية عن سنة ١٨٧٨ مع تخويل اللجنة حق الاتصال بجميع المصالح والدواوين وسماع من ترى لزوماً لسماعه لجمع البيانات التى تطلبها .

بمختلف الغازها وأسرارها إلى غور بعيد يحسده عليه كثير من أمراء الشرق

== ولما واصل الدائنون تهديداتهم وتدخلت فرنسا وانجلترا لمصلحتهم وأصرتا على أن تناول تحقيقات اللجنة الأيرادات والمصرفيات أصدر الخديو في ٣٠ مارس سنة ١٨٧٨ مرسوما آخر بتعميم اختصاص اللجنة وفرض على الوزراء وسائر موظفيها تزويدها بما تطلبه من البيانات وتقديمها إليها رأسا وبلا إبطاء .

وقد عين هذا المرسوم الأشخاص الذين تتألف منهم اللجنة ولكن الأجانب المحليين طالبوا بتعيين مندوبي صندوق الدين وبعثوا إلى ممثلي الدول العظمى عريضة كتبت بلهجة بذئثة حملوا فيها حملة شعواء على الحكومة المصرية وبلغ من قبحها أن قنصل بريطانيا العام رفض استلامها .

ولكن اسماعيل لم يعر سفاهة السفهاء أى التفات وكان أكبر همه أن يكون بين أعضاء اللجنة رجلا انجليزيا وآخر فرنسيا يكفي اسمهما لبعث الثقة لدى حكومتى لندن وباريس . ولذا اقترح تعيين الجنرال غوردون وفردينان دلسبس . فبادرت فرنسا بالموافقة بينما اعترض اللورد فيفيان باسم حكومته على طلب تعيين الجنرال غوردون بحجة أنه « برغم ما يتحلى به من الصفات السامية والمقدرة الممتازة فإنه لا علم له بالشؤون المالية » .

كفاح غوردون من أجل اسماعيل

نما يدلك مرة أخرى — إن كنت في حاجة إلى دليل جديد — على أن تعيين غوردون في منصبه الكبير كان بمحض إرادة اسماعيل أن الخديو — بعد أن ضاق صدره بما كان يراه من تهجم الدائنين على سلطته وبعد اصدار المراسيم الخاصة بتعيين لجنة التحقيق العليا لجأ إلى صديقه غوردون يستدعيه إلى القاهرة ليكون إلى جانبه في الساعات العصيبة التي كانت تمر بها البلاد .

وقد وصف غوردون بقلمه البليغ وبعبارات مؤثرة كيفية وصوله إلى القاهرة وتأثره بما طالعه في تقرير بعثه كيف عن جشع الدائنين وما جرت به الفوائد الفاحشة على البلاد من الخراب واعتزاهم الدفاع عن اسماعيل إلى آخر قطرة من حياته ورد مطامع الدائنين مهما كلفه ذلك ومقابلته لقناصل الدول وتحذيرهم له من قبول رئاسة لجنة التحقيق بدون أن يشرك معه مندوبي صندوق الدين ومقابلته للسير افلن بارنج وعدم اتفاقهما في الرأي وما أبداه من النصح لـ « يو بالآ يدفع الكوبون بل يبادر بدفع ==

والغرب ثم إنه كان يفحص بنفسه تفاصيل كل صفقة على حدة . بل بلغ به

المرتبات المتأخرة للموظفين وتبرم اسماعيل به لا أخفاقه في حمل انجلترا على قبول وجهة نظره ، ذلك لأن المستر فيفيان تسلم من لورد دربي برقية يكلفه فيها بأن يشترك مع زميله القنصل الفرنسي في ابلاغ الخديو بأن حكومة جلالة الملكة ترجو ألا يفعل سموه شيئاً إلا بالاتفاق مع الدائنين .

تشكيل اللجنة ومواصلة اجتماعاتها

وإذ ذلك لم يجد الخديو مناصاً من الأذعان لرغبة أوروبا المتحدة . فتعين المسيو دلسبس رئيساً والسير ريفرز ولسن ورياض باشا وكيلين وأعضاء صندوق الدين وهم بارفيللي وبارنج ودوبلنير وفون كريمر .

ثم عقدت اللجنة أول اجتماع لها في ١٣ ابريل سنة ١٨٧٨ وأخذت تواصل اجتماعاتها وأصبحت الرأسة الفعلية للسير ولسن نظراً لكثرة تغيب دلسبس في باريس . ووقعت أزمة وزارية انتهت باستقالة شريف باشا (ناظر الخارجية والحقانية) لرفضه المثول أمام اللجنة وإصراره على أن تكون أجوبته على أسئلتها بطريق المكاتبه .

ثم حل ميعاد دفع كوبون شهر مايو سنة ١٨٧٨ فاقترح المستر رومين والمستر فيفيان تأجيله ولكن فرنسا أصرت على دفعه في ميعاده تماماً في الساعة التاسعة يوم أول مايو فدفع بتمامه وفي ميعاده . و لكما تعرف بأية طريقة دفع هذا الكوبون فإليك ما كتبه المستر فيفيان إلى رئيسه إذ أخبره « إن الإدارة الأوربية ربما كانت تعمل بغير علم على خراب الفلاحين خراباً تاماً وهم هم مصدر ثروة البلاد . وعندى أننا معشر الأبخاز لمسؤولون مسؤولة كبرى عن هذا التخريب . »

اللجنة تقدم تقريرها

ولما انتهت اللجنة من أبحاثها وضعت تقريراً أرسلته للخديو وطلبت فيه تنازل بعض الأمراء والأميرات عن جزء من أملاكهم لسد عجز قيمته ٢٦٣٢٤٣ر٩ جنيه وكلفت الخديو بدفعه وهو يشمل أولاً مبلغ ٢٠٠٠ر٢٧٦٦ر٦ جنيه قيمة مطلوبات متأخرة على الحكومة لتجار ومقاولين ورواتب متأخرة للموظفين وأرباب المعاشات ، ثانياً مبلغ ١٠٠ر٥٨٦ر١٠٠ جنيه عجز في ميزانية ١٧٧٨ وثالثاً مبلغ ٣٨١ر٢٦٣ جنيه عجز في ميزانية سنة ١٨٧٩ .

الأمر أنه طرد نوبار وأبعده عن خدمته عدة سنوات لأنه تبين له أنه قدر الفائدة على أحد القروض بسعر ١٤ ٪. وأنه كان يخصم سندات الخزنة

== ثم طلبت اللجنة كذلك إحداث تغيير في نظام الحكم وأن ينزل الخديو عن سلطته المطلقة ولكن لا للممثل الشعب المنتخبين كما قد يتبادر إلى الذهن أول وهلة بل لوزارة كانت في الاسم تحت رئاسة ناظر مصرى وهو نوبار باشا على شريطة أن ينضم إليها السير ريفرز ولسن كناظر للمالية .

الخديو يقول

إن بلادى لم تعد فى أفريقيا

فى يوم ٢٣ أغسطس سنة ١٨٧٨ تشرف السير ولسن بمقابلة الخديو لاستطلاع رأيه فى الموقف السياسى والمالى بعد الاطلاع على تقرير لجنة التحقيق . فأدلى إليه سموه بتصريحه الخالد الذى نقتبس منه هذه الفقرة المهمة كما ذكرها الأستاذ الرافعى بك :
« فيما يتعلق بما اتهمتم إليه من النتائج والمقترحات فأنتى أتقبلها إذ من الطبيعى أن أفعل ذلك . فانتى أنا الذى رغبت فى هذا العمل لصالح بلادى . وعلى الآن أن أنفذ هذه المقترحات ، وكن على يقين بأننى عازم على ذلك عزمأ جديا . إن بلادى لم تعد فى أفريقيا بل نحن الآن قطعة من أوربا فطبيعى أن نطرح الأغلط وأن نسير على نظام يتفق وحالتنا الاجتماعية . وسترى عن قريب تغييرات هامة تحدث بأسهل مما يظنون وقوامها وضع الأمور فى نصابها واحترام القانون . ومن الواجب ألا نكثر فى الكلام . وأنا من جهتى قد اعزمت أن أتوخى الحقائق العملية وإنى بادىء عملى بتكليف نوبار باشا أن يؤلف لى وزارة لىكى أفتح بها العهد الجديد وأظهر مبلغ ما أنا عازم على عمله .

« وقد يبدو أن هذا التغيير ليس من الأمور الهامة ولكن ترون أنه إذا حسن فهمه سينشأ منه الاستقلال الوزارى . وليس هذا بالأمر الهين فانه أساس نظام جديد فى الحكم . . . الخ الخ »

مراى السياسة الانجليزية

قلنا إن السير ريفرز ولسن كان يرأس جلسات لجنة التحقيق فى أغلب الأوقات وكان هو صاحب الرأى الأول فى اجراءاتها وتصرفاتها التى كانت ترمى إلى تمكين النفوذ البريطانى فى مصر وأقصاء النفوذ الفرنسى تدريجاً .

في الوقت عينه بسعر ٣٠ ٪. فكيف أمكن اسماعيل مع علمه هذا وعلو

= واستطاعت السياسة الإنجليزية أن تقنع فرنسا بالنظام الذي يحل محل المراقبة الثنائية وهو تأليف وزارة مختلطة برئاسة نوبار باشا كما استطاعتا إبعاد البحث في المسألة المصرية من أجندة أعمال مؤتمر برلين الذي كان منعقدا وقتذاك . كذلك اتفقتا على تقسيم نفوذهما في الوزارة المصرية .

على أن هذا الاتفاق جاء في مصلحة إنجلترا أكثر مما جاء في مصلحة فرنسا . وقد أقنعت تصرفات السير ريفرز ولسن أثناء التحقيق قنصل فرنسا العام في مصر وهو البارون دي ميشيل بأن الأمور سائرة لخدمة مصالح إنجلترا مما جعله يكتب إلى حكومته كما ذكر المسيو دو فريسينيه - ما نصه : «فهذه الأعراض - يقصد تصرفات السير ريفرز - جعلتني قليل الثقة في مقاصد حلفائنا . فان المسألة موضع النظر ليست في الواقع مصالح الدائنين وتسوية الشؤون المالية بل صارت تتناول مصير مصر بأكملها . من أجل ذلك يبدو المستقبل أمامي في صورة تدعو حقا إلى أشد القلق . »

وكان من رأى القنصل المذكور إحلال نظام أوربي مشترك محل المراقبة الثنائية بعد إلغائها . فقد قال : « إن المراقبة الثنائية كان يمكن أن تؤدي إلى اتفاق سعيد . ولكن ما دام الضعف قد وصل بنا إلى ترك الانحلال يتطرق إليها - وكل الدلائل تدل على أن الانجليز عادوا إلى مطامعهم الذاتية واستئثارهم بالمنافع - فقد حان الوقت لنطرح الضعف جانبا وننظر إلى الأمور نظرا أعلى فنعرض على ممثلي الدول المجتمعين الآن في مؤتمر برلين جعل مسألة مصر مسألة دولية . »

ولكن تحذيرات القنصل الفرنسي وقعت على آذان صماء لأن المسيو وادنجتون وزير الخارجية كان ضعيف الرأي فترك الأمور تجري على غاربها مكتفيا بأن يكون المسيو دو بلنير مندوب فرنسا في صندوق الدين وزيراً للشغال في الوزارة المختلطة .

إنشاء مجلس الوزراء

وفي يوم ٢٨ أغسطس سنة ١٨٧٨ أي بعد خمسة أيام من مقابلة السير ولسن للخدوي أصدر اسماعيل أمره بإنشاء مجلس النظار وتحويله مسؤولية الحكم . وقد عهد إلى نوبار بتشكيل الوزارة على هذه القاعدة .

ومن ذلك الحين صار ذلك الأمر أساس نظام الحكم في القطر المصري ولذا نرى أن نشته هنا لأهميته . وقد صدر بالفرنسية ونشرته جريدة المونيتور اجبسيان بعددها ٣٠ أغسطس سنة ١٨٧٨ وترجم إلى العربية ضمن وثائق الحكومة .

كعبه وخبرته النادرة أن يقع في الارتباك الذي أوقع فيه نفسه؛ هذا العمر ك
موضوع خليق لا يبحث رجال السياسة بل يبحث علماء البسيكولوجيا

خطاب الخديو لنوبار باشا

« وزيرى العزيز

« إنى أطلت الفكرة وأمعنت النظر فى التغييرات التى حصلت فى أحوالنا الداخلية
والخارجية الناشئة عن تقلبات الأحوال الأخيرة وأردت فى وقت مباشرتكم للمأورية
تشكيل هيئة الوزارة الجديدة التى فوضت أمرها إليكم أن أؤكد لكم ما توجه قصدى
إليه وثبت عزمى عليه من إصلاح الإدارة وتنظيمها على قواعد مماثلة للقواعد المرعية
فى إدارات ممالك أوروبا . وأريد عوضاً عن الانفراد بالأمر المتخذ الآن قاعدة فى الحكومة
المصرية سلطة يكون لها إدارة عامة على المصالح تعادلها قوة موازنة فى مجلس الوزراء .
بمعنى إنى أروم القيام بالأمر من الآن فصاعداً باستعانة مجلس الوزراء والمشاركة معه .
وعلى هذا الترتيب أرى أن اجراء الإصلاحات التى نهيت عليها يستلزم أن يكون أعضاء
مجلس النظار بعضهم لبعض كفيلاً فان ذلك أمر لازم لا بد منه . »

« يجب على مجلس النظار أن يتفاوض فى جميع الأمور المهمة المتعلقة بالقطر ويرجع
رأى أغلبية أعضائه على رأى الأقل عدداً فىكون حينئذ صدور قراراته على حسب
الأغلبية وبتصديق عليها اقرار الرأى الذى تكون عليه الأغلبية .

« يتعين على كل ناظر من النظار أن يجرى قراراته المجلس المصدق عليها منا فى
الإدارة المنوطة به

« تعيين المديرين والمحافظين ومأمورى الضبطيات يكون بالمداولة بين الناظر التابعين
هم لإدارته وبين رئيس المجلس وما يستقر عليه الرأى يعرض علينا بواسطة رئيس
المجلس لأجل تصديقنا عليه .

« الناظر الذى يكون المأمورون وأرباب الوظائف السالف ذكرهم تحت إدارته
مباشرة له الحق فى توقيفهم عند الاقتضاء عن اجراء وظائفهم وذلك بعد اتفاه مع
رئيس هيئة النظار . وأما انفصالهم عن وظائفهم فلا يكون إلا بعد اتفاق الناظر التابعين
له مع رئيس المجلس والتصديق عليه منا .

« وللنظار أن ينتخبوا المأمورين ذوى المناصب العالية اللازمين لإدارتهم وأن يعرضوا
ذلك علينا للتصديق عليه منا . وأما الوظائف الصغيرة فىكون تعيين المستخدمين اللازمين
لها بخطاب أو قرار من ناظر الديوان .

وبالاختصار كان مستنقع الدين الذي أوقع اسماعيل نفسه فيه سحيقا لا قرار له .
وتدل قائمة الديون التي اقترضتها الدولة من بيت آل غوشن (في سنة ١٨٦٢
وسنة ١٨٦٤ وسنة ١٨٦٦) وفي بيت آل يشو فسهايم (في سنة ١٨٧٠)

== أعمال كل ناظر تجرى في الأمور التي تكون من خصائصه لا غير وأرباب الوظائف
والمستخدمين في كل فرع من فروع الإدارة لا يتلقون إلا من رئيس المصلحة
التي هم مستخدمون بها وتابعون لها ولا يجب عليهم طاعة أمر غيره .

« ينعقد مجلس النظار تحت رياستكم لأنني فوضت هذا التنظيم الجديد تحت عهدتكم
وجعلت مسؤوليته عليكم .

« وإني أرى تشكيل هيئة نظارة حائزة لهذه الخصوصيات ليس مخالفا لعوائدنا
وأخلاقنا ولا لآرائنا وأفكارنا بل موافقا لأحكام الشريعة الغراء وبتعميم ترتيب
محاكم الحقانية تكون فيها الكفاءة لحاجات هيأتنا الاجتماعية والمساعدة على تتميم مقاصدنا
الحقيقية ونياتنا الخيرية .

وإني معتمد عليك في اجراء الإصلاحات التي صممت عليها مؤملا أن تكفل للبلاد
جميع التأمينات التي لها الحق في انتظارها والحصول عليها من حكومتنا .

٢٨ أغسطس سنة ١٨٧٨
اسماعيل

ولعلك تلاحظ ما في هذا الأمر من المسائل الجوهرية وهي :
أولا : إن مجلس النظار هو هيئة مستقلة عن ولي الأمر تشاركه في الحكم وتحتمل
مسؤوليته .

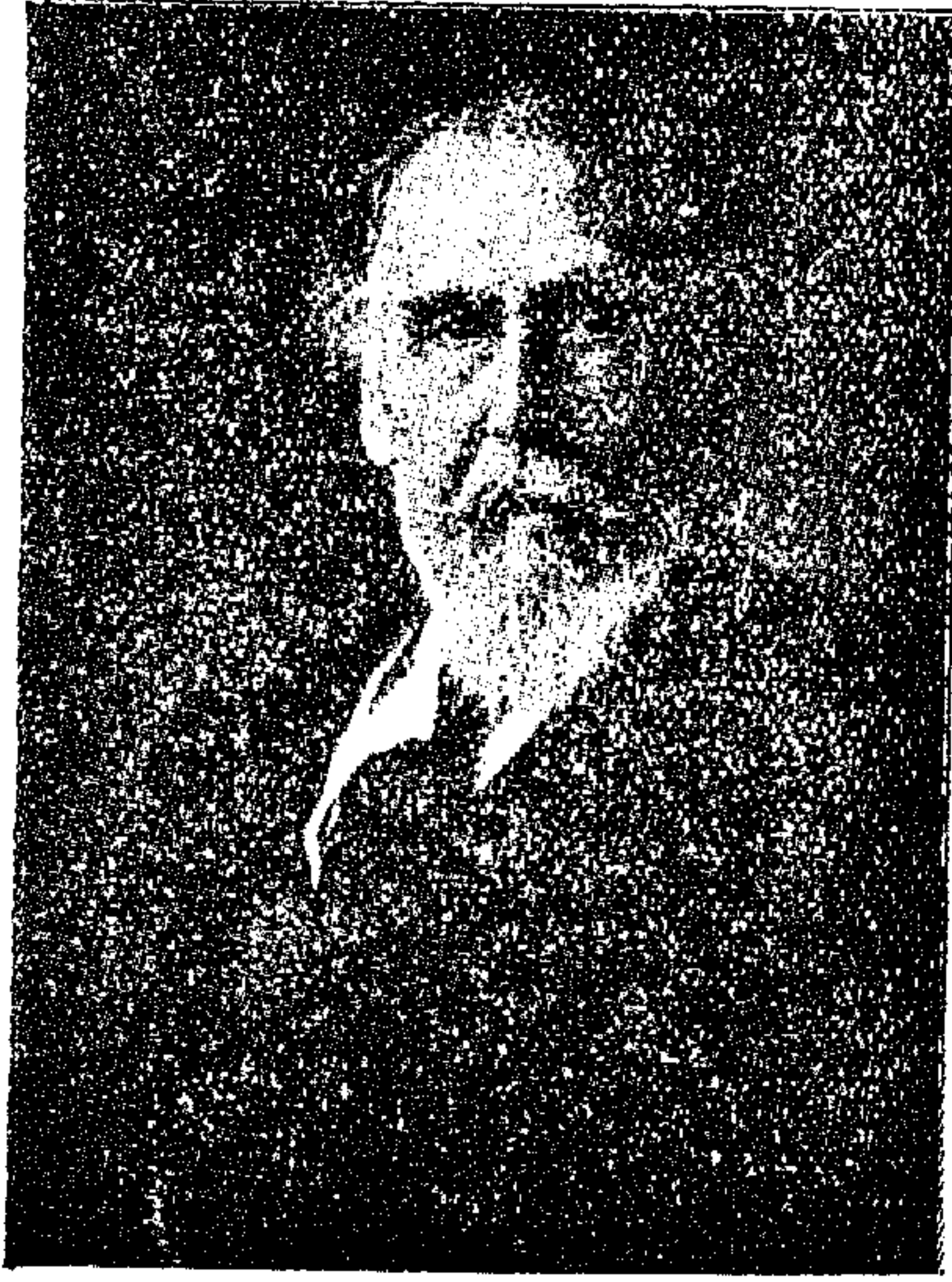
ثانيا : إن أعضاء مجلس النظار متضامنون في المسؤولية الوزارية .

ثالثا : إن قراراته بالأغلبية .

رابعا : إن رئاسة المجلس من حقوق رئيس المجلس فلا يرأسه الخديو .

ومنذ ذلك الحين ظل هذا الأمر دستور الحكومة إلى أن ألغى الخديو توفيق باشا
مجلس النظار مؤقتا بعد استقالة شريف الثانية بمقتضى الأمر الصادر في ١٨ أغسطس
سنة ١٨٧٩ وعين نظارا منفصلين تحت رأسته هو . ثم أعاد هيئة المجلس بتكليفه رياض
باشا تأليف الوزارة في ٢١ سبتمبر سنة ١٨٧٩ وحفظ لنفسه في كتابه لرياض باشا
الحق في حضور جلسات مجلس النظار وتولي رأسته عند الاقتضاء .

وفي بيت آل روتشيلد (في سنة ١٨٧٩) على أن مصر لم تتسلم من الديون التي استدانها وقدرها ٧٧ مليون جنيه إلا نحو ٥ مليون جنيه فقط كذلك



السير ريفرز ولسن وزير المالية

== وجرت العادة منذ ذلك الحين بأن تعقد جلسات المجلس تارة برآسة ولى الأمر وطورا برآسة رئيس النظار .

نوبار باشا يشكل الوزارة المختلطة

تنفيذا لأمر الخديو شكل نوبار الوزارة المختلطة كما يأتي :

نوبار باشا رئيسا لمجلس النظار وناظر الخارجية والحقانية

رياض باشا للداخية

راتب باشا للحرية

السير ريفرز ولسن للمالية

المسيو دوبلنير للأشغال

على باشا مبارك للمعارف والأوقاف

وبتشكيل الوزارة وقف العمل مؤقتا بنظام المراقبة الثنائية ووافق الخديو على

إعادتها حتما إذا فصل أحد الوزراء الأجنيين بدون موافقة حكومته .

كان صافي ما تسلمته من أحد القروض المعقودة في بيت آل أوبنهايم (في سنة ١٨٧٣) دون ١٨ مليون جنيه مع أن الدين قدر بـ ٣٢ مليون جنيه



المسيو دوبلنير وزير الأشغال في الوزارة المختلطة

قرض الدومين

قبل أن يتربع السير ريفرز ولسن في منصبه الجديد كناظر للبالية شد رحال السفر إلى باريس لمفاوضة بيت روتشيلد في عقد قرض جديد قيمته الأسمية ٨٥٠٠٠٠٠ ر. و يعرف بقرض الدومين ورهنت في مقابله الأملاك التي تنازل عنها بعض أفراد الأسرة الخديوية ومقدارها ٤٢٥٧٢٩ فدان وعهد بإدارتها إلى لجنة مختلطة تسمى قومسيون الدومين وهي مؤلفة من عضو مصري وعضو انجليزى وثالث فرنسى .

وتعهد السير ريفرز لبيت روتشيلد بأداء كوبون نوفمبر سنة ١٨٧٨ في ميعاده ولو من أصل القرض الجديد إن اقتضى الحال وبعدم البحث في تخفيض فوائد الديون قبل انتهاء عام سنة ١٨٧٨

وقد تسأل عما خسرت مصر من هذا الدين فهاك تفاصيله :

فأولا : لم تستلم من الـ ٨٥٠٨٠٠٠٠ جنيه إلا ٩٩٢٠٠٠٠ ر. جنيه فقط أى أن الدائنين أقطعوا من القرض ٢٥٠٠٠٠٠٠ جنيه لأن أسهمه صدرت بسعر ٧٣٪. هذا عدا السمسرة والمصاريف .

وبلغت أقساطه السنوية ٥٠٠.٠٠٠ ر. ٣ جنيه. أما الصفقات التي لم تكن لها صبغة رسمية فكان الغرم فيها على مصر أفذح من ذلك بكثير. ولعمري إن مصر لم يسبق أن انتهت بهذا الشكل المعدوم النظير بواسطة «الشعب المختار».

ثانياً : بلغت الفائدة ٠.٧٪.

ثالثاً : لما حل ميعاد كوبون نوفمبر صمم السير ريفرز على دفعه . فلما رأى أنه ينقصه أكثر من مليون وربع جنيه سحب العجز من القرض الجديد إرضاء للدائنين . رابعاً : سحب السير ريفرز مليون جنيه من القرض لتسديد قسط الرهن على الدائرة السنوية .

خامساً : دفعت الجزية من القرض المذكور .

وأخيراً لم يبق معه بعد كل هذا من القرض لأصحاب سندات الدين السائر سوى ٢٣٠.٠٠٠ ر. جنيه ومع ذلك رفض بيت روتشيلد دفع هذا المبلغ مالم تعف الدائرة السنوية المرهونة للأجانب من الضرائب .

ولم يفكر ناظر المالية في صرف شيء من المرتبات المتأخرة للموظفين البؤساء كما أهمل شأن دائني الحكومة الخصوصيين بل لم يخصص شيئاً لمرافق الدولة . وكان تحصيل الضرائب في الأرياف يجرى في أثناء ذلك بمنتهى القسوة مما دفع الناس إلى الشكوى والتذمر وانحدر إلى القاهرة كثير من عمد البلاد ومشايخها وقد حاصروا أبواب الوزارات ويدهم العرائض لتخفيض الضرائب وهم يرقبون دخول الوزراء وخروجهم .

وفي أثناء عهد هذه الوزارة التي كان الشعب يعرف أنها وجدت للأجانب ولمصلحة الأجانب استأنفت لجنة التحقيق أعمالها بدعوة من الوزارة نفسها مع تخويلها سلطة أوسع مما كان لها من قبل وهي وضع المشروعات المالية للبلاد .

وفي ٦ يناير سنة ١٨٧٩ أصدر الخديو مرسوماً فهم الناس منه أن لجنة التحقيق باقية إلى ما شاء الله وأنها أصبحت لجنة دائمة خاصة بوضع التشريع للبلاد مما ثارت نائرة الشعب وكان موضع اعتراض مجلس شورى النواب .

وفي الوقت الذي جعلت الوزارة تقصى فيه الموظفين المصريين وت عزل منهم من تشاء بحجة الاقتصاد راحت تعين طائفة كبيرة من الأجانب بمرتبات باهظة . كل هذا في حين أن مستوى النيل هبط إلى درجة ضاعفت من ضيق الأهالي وكرههم .

وفضلاً عما تقدم فإن قسماً كبيراً من هذه الديون عاد من فوره إلى
الخارج بصفة مكاسب ناتجة عن المقاول الأجنبيّة . خذ مثلاً أعمال ميناء



لورد سلسبرى
وزير خارجية بريطانيا سابقاً

وكانت الوزارة تبالغ في ظل سلطة الخديو وتلح في إقصائه عن جلسات مجلس
الوزراء إجابة لتعليمات حكومتى باريس ولندن بحجة أن حضور سموه لجلسات
المجلس المذكور يعطل الأصلاحات التى كانت تبغها الوزارة .
ثم وقر فى نفس حكومتى لندن وباريس أن اسماعيل لا يولى الوزارة عطفه الكلى
ولذا أرسل لورد سلسبرى — وكان قد حل فى وزارة الخارجية على لورد دربى — إلى
لورد فيفيان خطاباً كلفه باطلاع سموه عليه . وهو كما يأتى :

الاسكندرية فهي خير دليل على صحة ما نقول لأن البناء وضع تصميمه وأنجزه مقاولون انجليز أكفاء . فقد قدرت نفقات هذه الأعمال بمبلغ

« = لحكومة جلالة الملكة مطلق الثقة في موارد البلاد وليس يخامرها أى شك في نجاح النظام الجديد فيما لو جرب تجربة عادلة . فاذا ما أقيمت العقبات في سبيله من المجالسين في كراسى الحكم أو حتى إذا أظهروا شبه ميل للتنسكيك فيه فان متاعب نوبار باشا ومستشاريه ستتضاعف كثيرا تبعا لذلك ومن ثم يعرض المسؤولون عن فشل تلك الوزارة أنفسهم لما يترتب على هذا الفشل من العواقب الوخيمة . »

بين اسماعيل باشا وفيقيان

وهنا حدثت مناقشة هامة تمس صميم الحكم الدستوري لا نرى بأسا من ذكرها . ذلك أن سموه لما اطلع على هذه الرسالة أظهر امتعاضه منها وأسف لأن حكومة جلالته استعملت هذه اللهجة ضده بغير سبب ولا مبرر . لأن المسؤولية التي أرادوا تحميله إياها لم تكن معقولة ولا منطقية . ثم راح يحدث القنصل العام كما جاء في كتاب « مصر الحديثة » عما آل اليه مركزه في بلاده قائلا : « إنه قبل النزول عن سلطته المطلقة وشكلت وزارة تشترك معه في الحكم فاذا كان لا يخطيء فهم المبادئ الأولية للحكومة الدستورية فان المسؤولية عن شؤون الدولة تقع على النظار لا على رئيس الدولة . وقد تجاشى التدخل في اعمال الوزراء . ثم إنه كان على استعداد لأبداء النصيحة لوزرائه إن طلبوها دون أن يسعى إلى فرضها عليهم . فان لم يكن الوزراء مسؤولين عن أعمالهم فمن عسى أن يكون المسؤول وإذن ما معنى المسؤولية الوزارية ؟ حقا إنه يكون مسؤولا فيما لو حاول التدخل في عمل حكومة البلاد . أما وهو لم يفعل ذلك فلا يمكن تحميله أية مسؤولية . »

وليس يسع منصفاً أياً كان ألا يعترف ان الحق كان في جانب اسماعيل . فالموقف لم يكن يسمح إلا بأحد احتمالين . فاما أن يكون هناك حكم دستوري بالمعنى الصحيح وإذن فالوزارة وحدها هي المسؤولية وإذ ذاك لا يطلب من رئيس الدولة إلا أن يقف في معزل عنها وهو ما حرص عليه اسماعيل وإذن فلا غبار عليه . وإما أن يكون الأمر بالعكس وإذن فلا بد من اشتراك الخديو في الحكم ليكون مسؤولا عن إدارة البلاد بنسبة اشتراكه في حكمها . أما أن يطلب إليه الاتعاد عن الحكم ثم يطالب في

٣٠٠٠٠ ر. جنيه بينما كان من رأى السير « ريفرز ولسن » ان نصف هذا المبلغ كان كافياً لأبجازها . ومع ذلك فان الألاح في دفع نفقات هذه المقاوله هو الذى عجل بحدوث الأزمه النهائيه .

== الوقت نفسه يبذل النصح لوزرائه دون أن يستشيروه حتى إذا قامت أمامهم مصاعب ما تحمل هو التبعة فليس في ذلك شيء من الانصاف .

ولذا كان جواب لورد فيفيان على حديث اسماعيل المفحم جواب مداورة فقد قال : « إن سموه لا يفوته أنه وان كان حقيقة تنازل عن سلطته المطلقة وأعلن الحكم الدستوري في مصر الا أن النظام الجديد ما يزال في دور الطفولة وأن الوقت لم يحن بعد لتطبيق مبدأ الحكم الدستوري كما هو مفهوم في أوروبا . وبرغم ما حدث فلا يزال سموه يتمتع بكل ما لرئيس دولة شرقية من الهيبة والنفوذ مقرونا بالخبرة ومعرفة شؤون دولته أكثر من أى شخص آخر . فالأمر الذى ترجيه حكومة جلالة الملكة هو أن سموه بدلا من أن يظهر بمظهر عدم الاهتمام والتأفف من النظام الجديد يتعين عليه أن يضع معرفته الكاملة بأحوال البلاد وماله فيها من النفوذ والخبرة تحت تصرف وزرائه وأن يتعاون معهم باخلاص وولاء في دائرة حقوقه الشرعية . »

فهل رأيت أعجب من هذا المنطق ؟ فهم لم يطلبوا منه - وهو صاحب الكلمة المسموعة بين عامة الشعب - أن يتعد عن ادارة البلاد فقط - كما قال المستر زوذستين - بل أن يسمح بأن يستخدموا اسمه لستر دسائس الوزيرين الأجنيبين ، أو بعبارة أخرى إنهم أرادوا منه مساعدة الدائنين على القيام بأعمالهم الشيطانية في مأمن من العذل واللوم بينما تقع على كاهله تبعة نتائج تلك الأعمال !

على أن ملاحظات لورد فيفيان هذه لم تذهب دون أن يرد عليها اسماعيل الرد المنطقي الذى يوضح أن يكون درسا في نظام الحكم الدستوري . قال الخديو :

« لقد أصرت الحكومتان الفرنسية والانجليزية على ادخال نظام الحكم الدستوري في مصر . وقد قبلت النزول على رغبتهما . ثم إن هاتين الحكومتين صفقتا لي لما قلت « إن بلادى لم تعد من افريقيا وأنها أصبحت قطعة من أوروبا » فما على إلا أن أقف الآن موقف المتفرج حتى تتم تجربة هذا النظام الدستوري . إننى أعرف ببلادى من هؤلاء السادة الانجليز أو الفرنسيين ولكنى برغم هذا أريد اعطاءهم الفرصة ليقيموا ==

على أن ما جعل هذا الفشل يؤدي إلى الخراب بصفة خاصة فيرجع سببه إلى أن اسماعيل كان قد أحيا كثيراً من نظام اتجار الدولة الذي كان

== الدليل على خطأ رأبي . فان كانت النية معقودة على تجربة الحكم الدستوري فينبغي أن يكون حكماً دستوريا بالمعنى الصحيح المفهوم من هذه الكلمة .

رأبان في حكم البلاد

وقد استرسل لورد كرومر في كتابه « مصر الحديثة » يحدثنا عن الرأيين السائدين وقتئذ لحكم البلاد حكماً صحيحاً .

أما الرأي الأول فكان يرمى إلى إبعاد الخديو بتاتا عن مجلس الوزراء واعتباره صفراً على يسار العدد وحكيم البلاد بدونه بل وفي بعض الأحيان بطريقة مخالفة لرغباته وآرائه الشخصية . وكان من أنصار هذا الرأي القائل بتطبيق المبدأ الدستوري إلى النهاية نوبار باشا والسير ريفرز ولسن .

أما الرأي الآخر فهو وإن كان أبعد عن الكمال من الوجهة النظرية من الرأي الأول إلا أنه كان له ما يبرره في الأحوال السائدة في مصر وقتئذ . وكان يقول به لورد فيفيان . إذ كان يرى أن النظام الوحيد الذي يرجى له أي نجاح ليس بالذي يقضى بإبعاد الخديو بتاتا بل بالترحيب بمعاونته مع تحديد استعمال سلطته في الوقت نفسه .

ولم يكن في وسع لورد فيفيان أن يروج لرأيه لأن حكومته بدأت تتبرم به لأنه لم يكن يدافع في نظرها بجرارة كافية عن مطامع الدائنين . هذا عدا أن كل انسان كان متبرماً بالحالة .

التبرم بالحالة العامة

فنوبار باشا كان لا يفتأ يقول « إننا نلف في دائرة خبيثة » . بينما كان الخديو دائب الشكوى والتذمر من الموقف الشاذ الذي كان يراد وضعه فيه وهو مركز أصبح مع مرور الزمن لا يطاق . وقد لاحظ — بحق — أن من الجور أن تحمله الحكومتان البريطانية والفرنسية التبعة شخصياً عن مسائل لا يستشير فيها الوزراء . ثم إن الشعب كان في حالة قلق وسخط شديد .

وكان قنصل بريطانيا العام لا يفتأ يلوم الخديو على القلق المستحوذ على ريف البلاد . وحواضره . وكان مما كتبه إلى حكومته ما ذكره لورد كرومر في كتابه مصر الحديثة وهو :

معمولا به في عهد محمد علي. مثال ذلك انه أصبح يمتلك خمس مساحة الأراضي المزروعة في مصر مما جعله يحاول توزيع المحاصيل في الأسواق بطريق المضاربة. ثم أنه احتكر السكر وأنشأ عدة خطوط للملاحة بواسطة البواخر.

== « تعم البلاد حركة قلق واضطراب كما يدل على ذلك وصول عدد كبير من وفود الأقاليم للاحتجاج ضد استعمال أى ضغط لتحصيل الضرائب في هذا الوقت العصيب. فان كان هذا القلق حقيقيا وغير مفتعل فهو إذن علامة سيئة للحالة. ولكن لدى ما يحملني على الاعتقاد بأنه مفتعل ولأعوان الخديو يد خفية في إثارتة. »

وقد رد المستر كرايتس على هذه المزاعم رداً مفجهاً فقال ما ملخصه : إن أولئك الأعيان لا بد أن يكونوا تحسبوا من مصادر أنبائهم المستترة قبل مجيئهم إلى القاهرة وتحققوا من أن الخديو لن يعارض في طلبهم ولذا تشجعوا على الحضور أفواجاً أفواجاً. ثم استطرد المستر كرايتس فقال هذه الكلمة السديدة وهي إن الفلاحين ليسوا في حاجة إلى أى ضغط للتذمر من دفع الضرائب. وهذا ينطبق على الفلاحين في فرنسا بقدر ما ينطبق على فلاحى مصر. كما أن هذا صحيح الآن بقدر ما كان صحيحاً في سنة ١٨٧٨.

تبرم الموظفين

لما كانت مهمة الوزارة النوبارية السعى لتدبير أقساط الكوبونات فقد كان طبيعياً ألا تهتم بشيء إلا بجمع الأموال اللازمة لسداد الأقساط.

فهى قد أغضبت الخديو بإبعاده كلية عن الحكم. وأغضبت سواد الشعب والفلاحين بالضرائب التى تشددت في تحصيلها قبل موعد حلولها مستعملة ما شامت من الأعنات وضروب الأرهاق. وأغضبت مجلس شورى النواب وسكان العواصم بتحويلها لجنة التحقيق الأوربية الاستمرار في عملها بدون تحديد أجل معين للفراغ من مهمتها. وأغضبت الموظفين لأنها كانت تضن عليهم بالمرتبات ولا تدفع مرتباتهم المتأخرة في الوقت الذى تغدق فيه المال على كبار الموظفين الأجانب الذين عينتهم في دوائر الحكومة دون أن تكون طبيعة العمل في حاجة إليهم هذا إلى أن أولئك الموظفين الأجانب قد بدأوا يظهر ون الغطرسة والكبرياء للموظفين الوطنيين مما أدى إلى تعقيد الحالة.

تبرم الجيش

ولما كانت الوزارة مطالبة بتدبير قسط ابريل سنة ١٨٧٩ قاما صممت على ضرب ==

وإذا جاز أن نعتبر نظام محمد علي نظاماً اشتراكياً تمارسه الدولة لأن نظام البلاد الأقتصادي كان وقتئذ كنظام محل تجارى أما نظام اسماعيل كان شيئاً غير هذا بالمرّة . لا بل كان نظاماً طالما أدى فى الماضى إلى خراب كثير من أرباب العقول الكبيرة من رجال الأعمال برغم من كان حولهم من أهل الرأى الألفاء . ولكن اسماعيل كان كعابر سبيل أوقعه سوء الحظ وسط عصابة من اللصوص .

وإذا ما أنعمنا النظر فيما يسمونه نفقات اسماعيل الخاصة كطاقم المائدة الذهبى المرصع بالجواهر الذى أهدها للسلطان أو ما أقامه من الحفلات

== آخر من ضروب الاقتصاد فاندفعت - بعلم أو بغير علم - إلى إغضاب الجيش وفى ذلك الخطر كل الخطر .

وكان من بين ما اقترحتة لجنة التحقيق العليا أن تدفع الحكومة للموظفين المدنيين مرتب كل شهر فى ميعاده مع نصف شهر من الأشهر المتأخرة . وقد نفذت الوزارة هذا الاقتراح بالنسبة لبعض الموظفين المدنيين ولكنها أغفلت ضباط الجيش بتاتا . وكان مفهوماً ألا تعطف الوزارة على الجيش باعتباره قذى فى عينها وحجر عثرة فى سبيل مراميتها . فلم تكتف بالأساءة إلى ضباطه بل قررت تخفيضه من ١٥ ألف إلى سبعة آلاف جندي .

ثم دفعتها الحاجة المألحة لتدبير قسط الكوبون إلى ضرب جديد من ضروب الاقتصاد فقررت ذات يوم جمعة إحالة ٢٥٠٠ ضابط إلى الاستيداع وتخفيض مرتباتهم إلى النصف هذا مع أن هؤلاء الضباط كانت لهم مرتبات متأخرة منذ عشرين شهراً . وقد كان هذا التصرف شاذاً وغير عادل حتى أنه باء بانتقاد اللورد كرومر نفسه إذ قال فى كتابه « مصر الحديثة » ما نصه :

« إن هذا التصرف كان يعتبر فى غاية الأجحاف فى أى ظرف من الظروف مهما كانت الضرورة تقضى به نظراً لحالة الارتباك التى كانت تسود الخزانة المصرية وقتذاك . ولكن هذا التصرف فضلاً عن أنه مجحف كان بعيداً عن المهارة لأنه قضى بإبعاد هذا العدد الكبير من الضباط قبل دفع مرتباتهم المتأخرة . فلم يكن عجيباً أن تكون نتيجة أن عدداً كبيراً من هؤلاء الضباط أصبحوا هم وعائلاتهم فى حالة عوز وفاقة . »

الفخمة لاستقبال إمبراطورة فرنسا وإمبراطور النمسا لعرتنا الدهشة لما أتاه المقاولون والممولون من ضروب النصب وأعمال الاحتيال البعيدة عن الحياء. هذا طبعاً مع تسليمنا بان كل من يلجأ إلى أمثال هذه النفقات التي هي من قبيل الفخفة رغبة في توطيد سمعته المالية لا بد أن يتوقع استغلال الغير له . فللتأثير في نفس أحد كبار الرأسماليين الأجانب أنشأ اسماعيل مصنعا لتكرير السكر جلب إليه كافة الآلات والأدوات الحديثة (كذا !) . وقد

== وبديهي أن يؤدي هذا التصرف إلى سريان روح التبرم والتمرد . لأن الضباط لا هم حصلوا على مرتباتهم المتأخرة ولا بقوا في الخدمة على أمل أن تنقدهم الحكومة . ويشاء حظ الوزارة العاثر أن ينفذ القرار بأسلوب يساعده على وقوع التمرد . فبدلاً من تنفيذ القرار على الضباط في مراكزهم الموزعة في مختلف أنحاء القطر فبدع كل منهم سلاحه في ثكنته ويعود إلى بلده ، فان وزير الحرية استدعاهم جميعاً إلى العاصمة وكلهم بتسليم سلاحهم في ثكنات القلعة أو العباسية ثم بالانصراف بعد ذلك . وهكذا احتشد في عاصمة البلاد هذا العدد الكبير من الضباط المحالين إلى الاستيداع وكلهم ساخط على الوزارة .

وقد أشار لورد فيفيان في تقرير أرسله إلى لندن وقتذاك إلى هذا التصرف ورمى الوزارة بالحق على فعلتها هذه ثم قال :

« كان من أثر ذلك التصرف الذي لا نظير له في الحق أن وزير الحرية أضاف ٢٥٠٠ من الضباط الساخطين إلى حامية القاهرة وعددها ٢٦٠٠ جندي وليس بينهم إلا من يعطف من صميم قلبه على مطالب الضباط المتمردين . »
ولسوء حظ الوزارة اجتمع هذا الحشد من الضباط في ساحة واحدة وفي ساعة عودة الحمل من الحج أي في وقت احتشاد الجماهير حيث يسهل الهاب شعور الحماسة في نفوس الأهالي .

ثورة الضباط

على الوزارة في ١٨ فبراير سنة ١٨٧٩

وكان طبعياً بعد أن استشعر الضباط بهذه الظلامة أن يلجأ أ كثرهم حماسة إلى القيام بمظاهرة كبيرة على أبواب وزارة المالية بحجة رفع ظلامتهم إلى نوبار باشا ==

أهمل شأنها فيما بعد وتركت للصدأ يأكلها. ولكنها يظهر بذخه أمام



لطيف باشا سليم وولده فؤاد بك *

والسير ريفرز ولسن : ففي صبيحة يوم الثلاثاء ١٨ فبراير سنة ١٨٧٩ - كما ذكره
الأستاذ الراجعي بك - اجتمع نحو ٦٠٠ ضابط برآسة البكباشي لطيف بك سليم
(باشا فيما بعد) أحد كبار أساتذة المدرسة الحربية وقد اشتهر بالشجاعة والكفاءة =
* هذه الصورة مستعارة من سعادة احمد شفيق باشا

إحدى الرؤوس المتوجة شيد قصر أ على طراز قصور لويس الرابع عشر.



المغفور له محي النهضة المصرية مصطفى كامل باشا

== واستقلال الفكر وكان من أكبر أنصار المغفور له مصطفى كامل في الحركة الوطنية الحديثة ووالد الأستاذ فؤاد بك سليم .
وقف لطيف بك سليم وظل يخطبهم بعباراته الحماسية ويحثهم على التعاون والشجاعة ويوصيهم بالثبات والجلد حتى ينالوا مطالبهم . ثم غادروا ثكناتهم وساروا جميعاً يتبعهم لفيف من طلبة المدرسة الحربية ونحو ٢٠٠٠ جندي قاصدين إلى وزارة المالية .
وأراد الضباط أن يكسبوا حركتهم صبغة قومية فطلبوا قبل الوصول إلى الوزارة إلى بعض أعضاء مجلس شورى النواب مرافقتهم إلى حيث يقصدون . وفي ذلك ما ينم عن حسن تدبير للحركة . ولكن اكتفى أربعة منهم بالسير في موكب المظاهرة راكبين حميرهم فكان في هذا العمل شيء من التضامن بين هياة المجلس والمتظاهرين .
وما أن وصل المتظاهرون إلى وزارة الخارجية — وكانت وقتئذ قريبة من وزارة ==

وحشر فيه جيشا من الخدم ذوى الشعور المستعارة والملابس الفاخرة المناسبة للمقام (كذا!) . وقد ترك القصر بعد ذلك تعبت به يد الخراب . (كذا! كذا!) على أن محاولات اسماعيل لم تقف عند حد التأثير في زوار

المالية — حتى وقع نظرهم على نوبار باشا فى مركبته فبادروا إلى الأحاطة بها وسدوا عليها الطريق مما امتعض له نوبار وأمر السائق بالمسير . فما كاد السائق يضرب الجياد بسوطه تمهيدا للمسير حتى انهال عليه الضباط بالضرب وأنزلوه عن مقعده وهجموا على نوبار وأمسكوا بخناقه وطرحوه أرضاً وأعدوا عليه بالضرب .

وبعد أن حذى وطيس المعركة اذا بالسير ريفرز ولسن يطلع على المتظاهرين وكان قد عاد من مقابلة الخديو قاصدا وزارة المالية . فما هو أن رأى صديقه نوبار فى أيدى الضباط حتى هرول لنجدته وضرب المتظاهرين بعصاه . فسرعان ما التفتوا اليه وجذبوه من لحيته وأدخلوه هو ونوبار إلى سراى الوزارة واقتحموا أبوابها واحتلوا غرفها وحبسوا نوبار ورياض والسير ريفرز فى احدى حجر الدور الأعلى وصار الموظفون الأجانب تحت رحمة الثوار .

وفى تلك الأثناء ترامت أنباء الهياج ووصلت أسماع قناصل الدول فأسرع اللورد فيفيان إلى سراى عابدين حيث قابل اسماعيل فورا . ويمكنك أن تتصور وقع هذه الأنباء من نفسه وما جال بخاطره فى تلك الساعة الرهيبة نحو السادة الذين أدخلوا النظام الجديد .

فها هو رجل أى خصومه إلا أن يبعده عن حكم البلاد بحجة اقامة نظام دستورى حتى إذا تركهم وشأنهم ووقف يتفرج على أعمالهم إذا بهم ياجأون إليه فى ساعة الشدة ولسان حالهم يقول إنهم لاغنى لهم عن سلطته لأنقاذ الوزارة وإعادة الأمر إلى نصابه وفى ذلك ما فيه من اعتراف مذل من ناحية القناصل بالأسيل إلى ضبط الأمن بدون تدخل سيد البلاد الأعلى اسماعيل .

اسماعيل يخمد الفتنة

ولو شاء الخديو لاشترط وقتئذ مطالب معينة قبل نزوله لأخماد الفتنة . ولكن النخوة حركته بعد ما رأى أمامه اللورد فيفيان فى موقف التوسل والابتهاج . فاستصحبه إلى مركبته وانطلقا إلى موطن الهياج بوزارة المالية وكان يحاصرها حشد كبير من الناس كما ذكر لورد فيفيان فى تقريره الذى بعث به ذلك اليوم إلى لندن بتفاصيل الحادث . فما كاد

مصر الأجنب كلابل تعدتها إلى الخارج ، فمثلا كان أهم ما حاز إعجاب زوار معرض باريس في سنة ١٨٦٧ هو مدينة الأهرامات والفساطيط التي أمر اسماعيل باقامتها فيه وأسكن فيها رهطا من البدو على ظهور الأبل البيضاء . على أنه برغم ذلك كله فان مجموع ما أنفق في هذا السبيل بما في ذلك رسائل

المتظاهرون أن يبصروا سموه حتى استشعروا الهيبة التي له في النفوس - وكانت هذه الهيبة من أخص مزاياه - فتهتفوا له وأفسحوا له الطريق واحتشدوا في الشوارع المجاورة للوزارة .

ثم استطرد لورد فيفيان يقص ما حدث فقال : ثم صعدنا إلى الطابق الأول في الوزارة فوجدنا حشداً من الثوار يحيط بالحجرة التي اعتقلوا فيها نوبار والسير ريفرز ورياض . فافسحوا لنا الطريق فدخلنا الحجرة فلم نجد أحداً من الرجال الثلاثة قد أصيب بسوء وإن كان نوبار والسير ريفرز قد لحقتهما بعض كدمات من جراء سحبهما بعنف من الشارع إلى داخل بناء الوزارة . ولما استوثق الخديو من سلامتهما التفت إلى الثوار وطلب إليهم مغادرة البناء والاعتماد عليه في تحقيق مطالبهم المشروعة ثم قال : « فان كنتم ضباطي حقيقة فأنتم ملزمون بالقسم الذي أقسمتموه باطاعتي . أما إن عصيتموني فاني أمر بطردكم من هنا » . وقد أطاعه الضباط وسكنت ثائرة معظمهم ولكن على مضض . وقد ابتهلوا اليه أن يسمح لهم بأن يسووا مع الوزارة حسابهم على طريقتهم الخاصة . ولما هتف بعضهم قائلاً « فليمت كلاب المسيحيين ! » أمر سموه بانزالهم إلى حوش الوزارة وخارجها فوقعوا على زملائهم المحتشدين في الخارج وكانوا يحاصرون أبواب الوزارة . وهنا أمرهم الخديو بالانصراف فاقرب أحدهم منه يريد أن يمسكه بذراعه فاجفل منه اسماعيل وأمر الحرس بتفريق المتظاهرين بالسلاح . فشهروا سلاحهم ودوت طلقة رصاصة لم يعرف مصدرها وأطلق الجنود النار في الهواء . فأصيب بعض المتظاهرين بضربات السونكي وجرح بعض الجنود كما جرح تشريفاتي الخديو وهو إلى جانب مولاه وقد أصابته ضربة من سيف أحد الضباط .

ثم تفرق المتظاهرون وأمر الخديو بحراسة الوزراء الثلاثة إلى منازلهم وعاد بسلام إلى قصر عابدين .

اسماعيل لم يدبر الفتنة

لم يكن للخديو يد في تدبير هذه الفتنة خلافاً لما ذهب إليه بعض المؤلفين المغرضين =

الصدقات إلى الأستانة ونفقات الحملة إلى جزيرة كريت واقامة الحفلات
لملوك أوروبا وأمرائها - كل هذا لم يكن ليلبغ مجموعه ٠٠٠ ر ٠٠٠ ر ١٥ جنيه
وهو مبلغ يكفل أن يغطيه وزيادة ثمن أراضي الدائرة السنوية التي تنازل

وفي طليعتهم السير ريفرز ولسن الذي ذهب في ص ١٨٦ من كتابه المسمى « فصول من
حياتي الرسمية » إلى أن اسماعيل هو مدبر الفتنة وأنه هو الذي حرض الضباط الموترين
على القيام في وجه الوزارة المختلطة . وقد ذكر السير ريفرز أن الخديو دخل عليه في الحجرة
التي كان معتقلا فيها مع نوبار ورياض ومد له يده لمصافحته والاستفسار عن صحته ولكن
السير ريفرز رفض مصافحة سموه « لأنني لم يخامرني شك في أن الهجوم على نوبار كان
بتدبيره أو برضاه . »

ومما يدعو إل الأسف أن مثل هذا الاعتقاد رسخ في نفس السير ريفرز دون
الاستناد إلى دليل محسوس أو شبه محسوس مع أن الظروف كلها كانت تدل على عكس
ذلك . فقد روى السير ريفرز نفسه « أن أحد الضباط هجم على الخديو وأمسك
بسترته وراح يصب كلاما عنيفا . تغير له وجه سموه واستحال إلى غضب ظاهر أصدر
بعده أوامره إلى الحرس باطلاق النار على المتظاهرين وتفريقهم بالقوة . » أليس يكفي
هذا الحادث لاقتناع السير ريفرز بفساد مزاعمه ؟

ونرانا في حل بعد هذا من أن نسقط شكوك واعتقادات السير ريفرز من الحساب
بعد أن عجز عن إقامة دليل واحد على أن لاسماعيل بدأ في فتنة الضباط . ويشجعنا
على إغفال تلك الشكوك أن السير ريفرز قد خاتته قواه - على ما يظهر - بعد تلك
الفتنة فلم يكتبف باتهام الخديو بتدبيرها بل راح يتهم اللورد فيفيان بأنه هو الذي شجع
اسماعيل في الموقف العدائي الذي وقفه سموه حيال الوزارة النوبارية .
فان اللورد فيفيان - كما حدثنا السير ريفرز في كتابه السالف الذكر - « كان يناقض
نوبار في رأيه . فهذا الأخير كان يشير باستعمال الضغط على الخديو بينما كان لورد فيفيان
يرى العكس » . ثم راح السير ريفرز في ص ١٧٩ يلوم اللورد فيفيان لأنه « لم يؤد واجبه
كقنصل عام لحكومة جلالة الملكة وأنه لم يقدم المساعدة الكافية للوزارة النوبارية التي
كانت لحكومة جلالته ثقة فيها . بل ظل (أي فيفيان) ينظر إلى الوزارة النوبارية شذراً
مما شجع الخديو على أن يقلب لها ظهر المجن ويدبر لها فتنة الضباط . » (كذا !)
هذا بعض ماوجه السير ريفرز من الاتهامات إلى اللورد فيفيان . فهل لنا إذن =

في النهاية عنها للدائنين . هذا في حين أن ما أنفق في سبيل إنشاء قناة السويس وقدره ٠٠٠٠٠٠ ر ١٦ جنيه وفي القضاء على تجارة النخاسة في السودان وقدره ٠٠٠٠٠٠ ر ٢ جنيه أنفق في الواقع لخدمة أوربا أكثر مما كان لخدمة مصر .

== أن نأخذ جدياً أقواله ضد الخديو إذا كان لا يتورع عن اتهام قنصل بريطانيا العام بكل هذه التهم وبلا دليل ؟

وقبل أن نسدل الستار على هذا الحادث لا نرى مفراً من أن نستشهد بأقوال اللورد كرومر ولم يكن الرجل يوماً ممن يصح اتهامهم بالميل أو التحيز لاسماعيل . فان صاحب «مصر الحديثة» ينفي ما ذهب إليه المؤلفون المتحيزون من الأوهام ويقول بان تلك المزاعم لا تقوم على أساس ولا تخرج عن دائرة الظن والتخمين . بل ذهب إلى أبعد من ذلك إذ قال « إن ما أبداه اسماعيل من القلق حين سمع بخروج الضباط عن الحد كان طبيعياً وصحيحاً وأن الخديو نفسه كان في خطر كبير حين واجه الضباط الثائرين وأمرهم بالكف عن الهياج » .

وهاك ما ورد في التقرير الرسمي الذي بعث به لورد فيفيان ونشرته الحكومة البريطانية ككتاب أبيض بعنوان « مصر » رقم ٥ سنة ١٨٧٩ ص ٣١ قال : يزعم أعداء الخديو (لاحظ جيداً هذه التسمية) أن له ضلعاً في المؤامرة وهذا ما يعلل تساهله مع المسؤولين عن الفتنة . فان صح ذلك فقد أقدم فعلاً على أمر خطير لا يستبعد أن يكلفه ضياع عرشه . ولكن مسلكه في يوم الفتنة الأول ينفي هذه التهمة في حين أن منشأ عن تسريح عدد كبير من الضباط بلا وسيلة لكسب العيش مع أن لهم مرتبات متأخرة ليبرر سخطهم كل التبرير » .

على أنه إن جاز للسير ريفرز أن يفترض في السير بارنج واللورد فيفيان نوعاً من التحيز لاسماعيل فما قوله في شهادته مراسل التيمس بالقاهرة إذ بعث إلى جريدته يقول : « إن مطالب الجيش قد أهملت إهمالاً تاماً بالرغم من التصريح الرسمي الصادر في شهر مايو الماضي (سنة ١٨٧٨) بوجوب دفع كافة المرتبات المتأخرة . وقد كانت نتيجة هذا الإهمال أن أشد عناصر الدولة خطراً قد أصبح في حالة تمرد له مسوغ . (كذا) » وعبثاً حاول المستر فيفيان التنديد بحماسة الرأي القائل بتسريح جيش لم تدفع مرتباته . وأخيراً قرروا تسريح الجنود والضباط فكانت النتيجة حدوث فتنة يوم ١٨ فبراير .

ولما كان اسراف اسماعيل قد أدى في نهاية الأمر إلى احتلال مصر بالقوات البريطانية مدة ربع قرن من الزمان فانك تجتهد ما كتب عن تاريخ إدارته لشؤون مصر لا يخلو إما من دفاع عن السياسة البريطانية وإما من

تلك لعمرى شهادات دامغة من أشخاص انجليز لم يعرفوا يوماً بميلهم إلى اسماعيل . فاذا كان السيد ريفرز قد أغفلها فلائنه كان يحس أن اعترافه بالواقع ربما كان سبباً في التعجيل باسترجاعه إلى بلاده وأنهاء لجنة تحقيقه . ومن يدري أنه لو حدث هذا لكان خيراً لمصر ولما تطورت الحوادث تطورها المشؤوم الذي كان للسير ريفرز أكبر يد فيه .
النظر في ظلامه الضباط

وعلى كل فقد ذهب الأمير حسن باشا بن الخديو بصفته قائد الجيش الأعلى إلى انقضية البريطانية في اليوم التالي واعتذر للورد فيفيان وللسير ريفرز عما فرط من الضباط .
قبلاً الاعتذار .

ثم اقترضت الحكومة . . . ٤ ألف جنيه من بيت روتشيلد دفعت منها متأخرات الضباط . ونظر المجلس العسكري في أمرهم وفي مقدمتهم لطيف بك سليم وسعيد بك نصر فقضى ببراءتهم ولم يعاقب أحداً من التائبين .
سقوط الوزارة النوبارية

١٩ فبراير سنة ١٨٧٩

وفي اليوم التالي لفتنة الضباط أى في يوم ١٩ فبراير سنة ١٨٧٩ افتتح القنصلان عملهما البومى بالتوجه إلى قصر عابدين حيث طلبا إلى سموه أن يقطع لهما وعداً بالمحافظة على الأمن . وإذ ذاك صارحهما الخديو بأنه لا يكون مسؤولاً عن الأمن العام إلا إذا عدل مركزه وأعيدت إليه السلطة التى من حقوقه وسمح له برأسة مجلس الوزراء بنفسه أو بتعيين من يثق فيه لرأسة المجلس . ثم أصر على استقالة نوبار باشا لأنه أصبح بغيضاً للشعب .

وهنا يقول السير ريفرز ولسن (ويقصد غمز فيفيان) « إن الخديو بأصراره على استقالة نوبار كان يعلم بتبرم اللورد فيفيان بالرئيس الأرمنى . »

وقبل أن يوافق القنصلان على هذه الشروط عادا إلى دار اللورد فيفيان حيث كان فى انتظارهما نوبار باشا والسير ريفرز ولسن والمسيو دوبلنير والسير افلن بارنج فتداولوا جميعاً فى الموقف وأبلغهم فيفيان أن الخديو صرح لهما بوجود تغيير مركزه وإعادة سلطته اليه .

حملة شعواء عليها . ففي الحالة الأولى يصور المؤرخ اسماعيل بصورة « شيطان » الرواية . بينما يظهره في الحالة الثانية بمظهر الضحية . ولكن الواقع أن كلتا الصورتين تظهران اسماعيل بغير حقيقته لأن مركزه الحقيقي

== فقرر المجتمعون الاستفسار من سموه عن التغيير الذي يريده . ولذا ذهبوا جميعاً إلى سراي عابدين لمقابلاته . وفي إحدى حجر الدور الأول انتظر نوبار وريفرز ولسن ودوبلنير وبارنج وصعد فيقيان وجودو (قنصل فرنسا) إلى الطابق الثاني حيث قابلا سموه . ثم عادا إلى زملائهما فاخبراهم أن الخديو قال إنه لا يكون مسؤولاً عن صيانة الأمن العام إلا بخروج نوبار من الوزارة وأن يعاد إليه (سموه) حقه من السلطة في حكومة البلاد .

وهنا التفت الجميع إلى نوبار وسألوه هل يضمن الأمن إذا أصر القنصلان على بقاءه فأجاب إنه لا يضمنه . فلم يجد القنصلان بدا من التخلي عنه . وإذا ذلك قدم نوبار استقالته ورجا إلى القنصلين رفعها إلى الخديو وأن يطلبها له كفالة حياته في مصر . فقبل سموه هذا الرجاء على شريطة ألا يعود نوبار إلى الدسائس أو التدخل في الأمور السياسية .

فأنت ترى أن حل الأزمة كان مشروطاً بخروج نوبار من الوزارة ولكن صديقه السير ريفرز يحاول أن يجادل في هذا الحل الطبيعي فيقول : إن نوبار عند مارآي القنصلين يتخليان عنه لم يسعه إلا تقديم استقالته برغم إلحاحي عليه أنا ودوبلنير في عدم تقديمها !! وهذه كانت أول خطوة في سبيل تحقيق الغاية التي كان الخديو يرمى إليها . فانه عرض الوزارة للخندان بعد أن حرم منها أقوى عامل فيها . ثم إنه تبين له - لسوء الحظ - أن حكومتى بريطانيا وفرنسا لم تكونا على استعداد للأصرار على بقاء نوبار في الوزارة إذ لم يكن في وسعهما إلا أن تعمل بما يشير عليهما به قنصلاهما في مصر وهما اللذان آمنا - خطأ أو صواباً - بصدق دعوى الخديو بأن استقالة نوبار أمر لا مفر منه . وقد نقلنا هذه العبارة بنصها من ص ١٩٠ من كتاب السير ريفرز لنريك مبلغ استهتاره في سرد الوقائع التي كان هناك شهود عدول عليها . إنه يتكلم عن تخلي القنصلين عن نوبار فهلا ذكر أن تخليهما هذا كان بعد أن سألاه إذا كان يضمن المحافظة على الأمن فيما لو تمسكا ببقائه في الوزارة ؟ فلما أجاب بأنه لا يضمن ذلك لم يسعهما إلا التخلي عنه . أفكان السير ريفرز ينتظر أن يتمسك القنصلان بنوبار حجباً في سواد عينه حتى ولو لم ==

هو بين عبد العزيز سلطان تركيا وعبد العزيز سلطان مراکش كما أن مكان الأزمة المصرية هو بين مجرى الحوادث في تونس ومجراها في الاستانة . أما أن الأنجليز هم الذين احتلوا مصر بدلا من الفرنسيين فليس يرجع هذا

== يضمن الأمن ؟ إذن من كان يمكن أن يعتبر مسؤولا عن صيانتته إذا كان رئيس الوزارة لا يضمنه وإذا كان سيد البلاد الأعلى قد منع من الاشتراك في الحكم ؟ أغلب الظن إن هذا التحيز الذي أظهره السير ريفرز لنوبار كان يراد به تعقيد الأمور وحدث الاضطرابات وإلقاء تبعثها بالحق أم بالباطل على الخديو .

ونحسب أن السير بارنج الذين لم يكن من محبي اسماعيل - وقد كان حاضرا الاجتماع كما قدمنا - لو رأى في مسلك القنصلين أعوجا جا أو ما يستحق المؤاخذة لما التزم الصمت أو على الأقل لاشارك مع السير ريفرز والمسيو دوبلنير في الأبحاث على نوبار بعدم تقديم استقالته ولكن الرجل - وهو غير مدله بحب نوبار كما كان شأن السير ريفرز - رأى أن مكان نوبار بعد أن صرح بأنه لا يضمن الأمن هو في عقر داره لا في كرسي الوزارة .
بعد استقالة نوبار

فلما اتفقت كلمة القنصلين على خروج نوبار من الوزارة صدرت للورد فيفيان تعليمات بأن يقول للخديو ما يأتي :

« إن في نية حكومتى فرنسا وإنجلترا أن تعملتا سويا في كل ماله علاقة بمصر ولد فانهما لن توافقا على أحداث أى تغيير من جهة المبدأ فيما أقره سموه من الترتيبات السياسية والمالية . وينبغي أن يكون مفهوما أن استقالة نوبار باشا إنما تنحصر أهميتها في نظر الحكومتين في الأشخاص فحسب بمعنى أن استبدال شخص بشخص لا يمكن أن يفهم منه أحداث أى تغيير في النظام » .

وقد رأى اسماعيل بحق في هذه اللهجة أنها بمثابة انذار له . وإذ لم يكن يسعه مقاومة باريس ولندن في وقت واحد فانه آثر الأذعان . ولكن نشأت صعوباتان . الأولى من عسى أن يكون رئيس الوزارة الذى يحل محل نوبار . والثانية اصرار السير ريفرز ولسن بتشجيع الحكومة البريطانية على اشتراك نوبار باشا في الوزارة المعدة . وكان طبيعياً أن يتضايق اسماعيل من الطلب الثانى فكان رده عليه بالعبارة الآتية :

« إنه ليس في وسعه إلا الأذعان لأرادة حكومتى إنجلترا وفرنسا لأنه لا يمكنه مقاومتهما إذا أصرتا على عودة نوبار إلى الوزارة . ولكنه لا يرى بدا من أن يحذرهما ==

إلى تفوق سياسة الفريق الأول على سياسة الفريق الثاني في الأقدام أوفى
القدرة على الدسائس كلا بل يرجع إلى ظروف الأحوال فهي التي دفعت
الإنجليز لا الفرنسيين إلى العمل وإذا كان ثمة لوم على إسماعيل في نظر

== سلفا من العواقب حتى لا يحملوا على تبعه في المستقبل فيما لو فشل النظام الجديد أو
لو تجددت القلاقل مرة أخرى .

هناك رأيت الحكومة الفرنسية بعد ما قاله الخديو أن ليس من الحكمة التمسك
بأشتر نوبار في الوزارة الجديدة . ثم جارتها الحكومة البريطانية في رأيها ذلك .
ولكنها أرسلت مع هذه الموافقة « تحذيرا للخديو بأنها تعتبره مسؤولا عن القلاقل
الآخيرة في مصر وأن العواقب » - كما ذكر لورد كرومر في كتابه - « تكون جد وخيمة
بالنسبة له فيما لو تجددت اضطرابات من هذا القبيل . »

ثم استطرد اللورد كرومر يقول « إن القنصلين شفعا هذا التهديد بوضع برنامج للعمل
المشترك يتضمن ما يأتي :

أولا : لا يحضر الخديو جلسات مجلس الوزراء بحال من الأحوال .

ثانيا : يعين رئيسا لمجلس الوزراء الأمير محمد توفيق ولى العهد والمرشح من قبل
الخديو لرئاسة المجلس .

ثالثا : للوزراء الأوربيين حق (الفيتو) أى رفض أى قرار يصدر من مجلس
الوزراء بدون موافقتهم . »

وزارة توفيق باشا

١٠ مارس سنة ١٨٧٩

وعلى هذا الأساس صدر أمر إسماعيل في ١٠ مارس سنة ١٨٧٩ بتشكيل الوزارة
الجديدة مع اسناد رئاستها إلى ولى العهد محمد توفيق باشا وأرسل إليه كتابا متضمن
قواعد ماتم عليه الاتفاق مع الدوليين . ولا بأس من اثباته بنصه لأنه يعتبر مكتملا ومعدلا
لأمر إسماعيل الصادر لنوبار باشا في ٢٨ أغسطس سنة ١٨٧٨ . وقد ذكرته الوقائع
المصرية في عدد ٨٠٣ في ٢٦ مارس سنة ١٨٧٩

« لما أحلت على عهدة أمانتكم رئاسة المجلس وتشكيل هيئة النظر رأيت من المهم
أن استجلب دقتكم فيما يجب من اتخاذ الراى بين أعضاء ذلك المجلس وأن أحيطكم علما
بما فى أفكارى فيما يتعلق بأدراة المصالح طعما لما هو مدون فى الذكرىو المؤرخ ٢٨ =

المصريين فهو إنه لو أبدى من الشجاعة ورباطة الجأش ما أبداه من الذكاء
وحصافة الرأي لتمكن من درء الاحتلال الأجنبي عن القاهرة كما درأته
الاستانة من قبل .

== أغسطس الماضي الذى هو أساس لحيأة الحكومة . فأنى عند تأسيس هذا الترتيب
الجديد لم يخطر بـفكرى قط الانفراد عن وكلائى . بل غاية قصدى أن أكون معهم
باتحاد تام ولذلك ينبغى أنه قبل أن يقر مجلس النظار على أى قرار فيما يتعلق باللوائح
أو الأحكام التى تقدم من أحد النظار أن تعرض على مع أسانيدھا من طرف الناظر الذى
هى من خصائصه حتى يمكننى أن أحيط المجلس علماً بجميع ما يتراعى لى من التدابير
اللازمة اتخاذھا . وعلى كلا الأمرين يجتمع المجلس عند صدور ارادتى بذلك لينظر بالاتحاد
معى فى المسائل التى عرضت على . إنما لأجل التأمين على تمام استقلال المجلس لا أحضر
وقت المذاكرة .

• وحيث أن النظار الوطنيين حائزون الأغلبية فى المجلس فلاجل التعادل هناك
يكون للنظار الأوروبيين تأثير فى رأى ولهم الحق فى المعارضة وعدم قبولهم رأى الاغلبية .
• هذا وفى أملى أن ذلك الترتيب الجديد يكون كافياً فى سير المصالح وظهور الفائدة
للقطر المصرى وليكن مجلس النظار مطمئناً فى سائر الأحوال على مساعدتى له وحسن
مساعدى كما أنى مطمئن على اجتهاده وحسن مساعيه فيما فيه نفع العموم

اسماعيل ،

عابدين بمصر فى ١٠ مارس سنة ١٨٧٩ .

استدعاء لورد فيفيان

وبالرغم من أن الخديو أصبح يملك دون أن يحكم ومع أن وزارة توفيق
باشا راحت تحكم البلاد مع خضوعها لحق الفيتو من ناحية السير ريفرز ولسن والمسيو
دوبلنيير إلا أن مسافة الخلف أخذت تتسع تدريجاً بين لورد فيفيان والسير ريفرز .
ذلك لأن القنصل العام كان يستصوب عدم معاملة الخديو كما لو كان صهراً على يسار
العدد . وقد اشتد الخلاف حتى أصبح ولاية الأمور فى دوننج ستريت مقتنين بأر الحالة
لم تعد محتملة ولذا صدر الأمر فى ١٥ مارس سنة ١٨٧٩ باستدعاء لورد فيفيان . وبعد
ذلك بخمسة أيام (وهى سرعة لم يعهد مثلها فى استبدال القناصل) وصل سيرفرانك ==

لأن الاحتلال المذكور بدأ دون أن ينتبه إليه احد كجزء من اعمال
اسماعيل المالية . فقد كان الخديو فى عام ١٨٧٣ رغباً من ازدياد الأيراد



أفلاطون باشا وزير الحرية سابقاً

== لاسلز القنصل العام الجديد ليحل محل لورد فيفيان . وقد أفهم قبل سفره - كما قال لورد
كرومر - بأن « يقدم معونته الودية للسير ريفرز ولسن فى معاملاته مع الخديو . »

تشكيل الوزارة التوفيقية

قضى الأمير محمد توفيق اثنى عشر يوماً فى اختيار أعضاء وزارته وذلك بسبب
اعتراضات الوزيرين الأجنيين وتدخلهما فى كل شىء . وفى يوم ٢٢ مارس (أى بعد
وصول القنصل البريطانى العام الجديد بيومين) تم تشكيل الوزارة التوفيقية على
النحو الآتى :

- الأمير محمد توفيق باشا للرئاسة
- رياض باشا للداخلية والحقانية
- السير ريفرز ولسن للمالية
- المسيو دوبلنير للأشغال العمومية
- على باشا مبارك للمعارف والأوقاف
- ذو الفقار باشا للخارجية
- أفلاطون باشا للحرية

وارتفاع أثمان القطن غارقاً في الدين وإن لم يكن طبعاً بشكل يدعو إلى

موقف مجلس شورى النواب

إزاء الوزارة التوفيقية

لم يكن ينتظر بعدما سردناه عليك من ضروب الأعنات والأرهاق وتبرم كل بيثة من بيئات الأمة أن تبقى الأمور هادئة وخاصة بعد فتنة الضباط في يوم ١٨ فبراير ١٨٧٩. وكان طبيعياً أن تجد هذه الحوادث الخطيرة والاعتداءات المتواصلة على سلطة حاكم البلاد الشرعى وسيدها الأعلى صدى في مجلس شورى النواب وبخاصة بعد ما أصبح معروفاً لدى الخاص والعام أن الوزارة التوفيقية الجديدة ستكون مجرد آلة مسخرة لرغبات الوزيرين الأجنبيين .

لذلك ظل المجلس المذكور يوالى اجتماعاته طيلة المدة التي اشتغل فيها توفيق باشا باختيار أعضاء وزارته وقدم في يوم ١٩ مارس (أى قبل تشكيل الوزارة بثلاثة أيام «إنهاء» أو قراراً بتوقيع ٤٩ نائباً متضمناً ما وضعوه من الاقتراحات لتخفيض عبء الضرائب والآتاوات قائلين إنهم أرسلوا اقتراحات لوزارة الداخلية دون أن يصلهم ردها عليها ولذا فالمجلس يوافق على هذا «الإنهاء» ويرسل صورته إلى الداخلية . وهنا تبين للوزيرين الأوربيين أن المجلس المذكور حجر عثرة في سبيل ما أراداه فاقترحا التخلص منه وانضم اليهما رياض باشا . وقررت الوزارة فض المجلس بحجة أن مدة نيابته وهى ثلاث سنوات قد انتهت ولذا استصدرت من الخديو مرسوم فضه وعهدت إلى رياض باشا بإبلاغه إلى المجلس . فلما نعى إلى الأعضاء ما اعتزمته الوزارة صمموا على مخالفة إرادتها . وعقد مجلس شورى النواب جلسة تاريخية في يوم ٢٧ مارس سنة ١٨٧٩ عند ما حضر رياض باشا لتلاوة أمر الانفضاض .

ودارت مناقشة بين الأعضاء وبين رياض باشا كان من فرسانها النائب محمد افندى (بك) راضى وعبد السلام بك المويلحى وبدينى افندى الشريعى ومحورها أن المجلس لم ينته بعد من مهمته ولذا لا يمكن للنواب أن يعودوا إلى بلادهم قبل اتمام النظر في المسائل المالية وفي الميزانية . وقالوا إنهم لا ينفضون إلا بعد إعطاء مجلس النواب حقوقه واجابة طلباته وأنهم سيظلون منتظرين جواب الحكومة . ثم أرسلوا صورة من محضر هذه الجلسة التاريخية إلى الخديو وصورة أخرى إلى الوزارة .

اليأس كما كانت إيرادات السكة الحديدية والدائرة السنوية مرهونة للغير .
ثم تبين أن الدين المستهلك كان أكثر مما تستطيع البلاد أن تضطلع باعبائه .

عريضة النواب لاسماعيل باشا

٢٦ مارس سنة ١٨٧٩

وقدم النواب في ٢٩ مارس عريضة للخديو وقع عليها كافة من كان في القاهرة
من أعضاء وفيها احتجاج شديد على تصرف الوزارة وامتثالها لحرمة المجلس وعلى مشروع
الوزارة المالي الذي كانت تنوى إصداره ويتضمن إعلان إفلاس الحكومة المصرية
والغاء قانون المقابلة . وقد أعلن النواب عزمهم على رفض هذا المشروع والامتناع
عن تنفيذه وطلبوا إلى الخديو أن يعمل بحكمته على تلافى الحالة قبل استفحال الخطر .

اجتماع الجمعية الوطنية

ولما أيقن الناس أن الوزارة التوفيقية لا تريد بالبلاد خيراً بدليل أنها أقدمت على
حل مجلس شورى النواب قبل أن يمضى على تأليفها خمسة أيام دون أن تحدد مياعدا
للاتخابات الجديدة ، هذا إلى ما يتمتع به الوزيران الأجنيان من حق الفيتو ، يضاف إلى
ذلك أن السير ريفرز وضع لأئحة تتضمن مشروع تسوية مالية تجعل مصر في حالة
عجز كلى عن سداد ديونها أى وضع البلاد تحت الرقابة الأجنبية بصفة دائمية وبقاء الوزارة
الأوروبية تتولى الحكم كما تشاء وتهوى — لما أيقن الناس بذلك كله وذكروا ان السير
ريفرز بصفته وزيراً للمالية لم يتنازل مرة واحدة بالحضور أمام مجلس شورى النواب
مما اعتبر ماساً بكرامة ذلك المجلس ، اتجهت الأفكار إلى العمل للتخلص من هذه الوزارة
الأوروبية . ومن ثم أخذ قادة الأفكار من النواب والأعيان والعلماء والتجار يجتمعون
ويتشاورون في الحالة السياسية وما ينبغى عمله لا نقاذ البلاد من ورطتها .

وكانت دار البكرى في بداية الأمر مكان اجتماع الأحرار ثم تحولوا إلى دار اسماعيل
باشا راغب وزير المالية السابق ورئيس مجلس شورى النواب في أول نشأته . فاجتمعت في
داره الجمعية الوطنية — أو الحزب الوطنى — كما أسمته جريدة التجارة في عدد ٢١٦ — وكانت
تضم كبار البلاد وأهل رأى فيها . فاتفقوا على وضع بيان بما استقر عليه رأيهم وهو
يتضمن مشروع تسوية مالية يعارضون به مشروع السير ريفرز ولسن ويجعل البلاد =

وبما أن نشوب الحرب البروسية الفرنسية كان قد حال دون عقد قروض أخرى فقد أخذت أقساط الدين السائر تتكدس بشكل خطر . فلم يك ثمة مناص لاسماعيل من استعجال الأيراد . ولهذا الغاية سن قانون المقابلة

== قادرة بضمانتهم وكفالتهم على سداد ديونها والمطالبة بتأليف وزارة وطنية وإبعاد الوزراء الأجنيين عنها وتقرير نظام دستوري للبلاد أساسه جعل الوزارة مسؤولة أمام مجلس النواب .

المطالبة بتأليف وزارة وطنية

واتجهت الأنظار إلى شريف باشا لتأليف الوزارة الوطنية نظر الموقف الأليم الذي وقفه أمام لجنة التحقيق ورفضه المثول أمامها وإثاره الاستقالة احتفاظاً بكرامته . وكان شريف معروفاً بكرهه للتدخل الأجنبي .

اللائحة الوطنية

وفي يوم ٢ ابريل اجتمع بدار اسماعيل باشاراغب الأحرار من الأعيان والنواب والعلماء وغيرهم وكان في مقدمة من حضر شريف باشا وشاهين باشا وحسين باشا راسم وجعفر باشا والسيد علي البكري وغيرهم وانفقوا على ماسموه اللائحة الوطنية وتتضمن :
أولاً : مشروع تسوية مالية معارض لمشروع السير ريفرز لأن أساسه أن إيرادات الحكومة تكفي مصروفاتها بما فيها أقساط الديون في حين أن مشروع الوزارة كان يعتبر البلاد في حالة إفلاس .

ثانياً : المطالبة بتعديل مجلس شورى النواب وتخويله السلطة المعترف بها للمجالس النيابية في أوروبا وتقرير مبدأ المسؤولية الوزارية أمامه .
ثم وقع المجتمعون على عريضة ضم إليها مشروع التسوية المالية وانفقوا على تقديمها للخديو . وقد ختموا اللائحة الوطنية بطاب تعديل مجلس شورى النواب .

وقد وقع على اللائحة ٦٠ من أعضاء مجلس شورى النواب و ٦٠ من العلماء والهيئات الدينية وفي مقدمتهم شيخ الأسلام وبطريك الأقباط وحاخام الأسرائيليين و ٤٢ من الأعيان والتجار و ٧٣ من الموظفين العاملين والمتقاعدين و ٩٣ من ضباط الجيش .

وليس يفوتنا أن نذكر أن اللائحة الوطنية فضلاً عما تضمنته من الإصلاح الدستوري لم تنس مصالح الدائنين . فبينما هي طالبت بتقرير مبدأ المسؤولية الوزارية أمام مجلس النواب قبلت نظام المراقبة الشائبة لتأمين حقوق الدائنين وذلك بتعيين مفتشين أوربيين ==

الذى يقضى بأن ينزل الخديو لملك الأراضى الزراعية عن نصف الضرائب

== لا إيرادات ومصروفات الحكومة . فهى لم تنقض ما قطعتة الحكومة المصرية على نفسها للدول من التعهدات .

ثم إن المشروع المالى الذى تضمنته اللائحة لا يختلف عن لائحة السير ريفرز إلا فى أنه أبى ضريبة المقابلة بينها ألغاه مشروع السير ريفرز وليس كما أن هذا المشروع الأخير فرض ضريبة جديدة على الأطيان العشورية لم يقرها مشروع اللائحة الوطنية . ولا بد من كلمة إيضاحية هنا عن قانون المقابلة ومسألة الأراضى العشورية .

فى ٢٠ أغسطس سنة ١٨٧١ سن الخديو اسماعيل قانون المقابلة ويقضى بأنه إذا دفع أصحاب الأطيان الضرائب المربوطة على أطيانهم لمدة ست سنوات مقدماً تعفى الحكومة أطيانهم على الدوام من نصف المربوط عليها (مادة ٣) . وقد تعهدت الحكومة فى ذلك القانون (مادة ٣ ومادة ٢٠) بأن الملاك الذين يدفعون المقابلة لا يزداد سعر الضريبة على أطيانهم فى المستقبل ولا يجوز مطالبتهم بسلفة ولو مؤقتة الخ .

أما الأراضى العشورية فقد كانت فى بداية أمرها أراضى بورا وزعها الولاة السابقون على أتباعهم بشرط أن يصلحوها فى مقابل اعتمائها من الضرائب اعفاء تاماً دائماً . ولا ريب أن الرجوع فى هذه الهبة مستحيل بمقتضى أمر خديو عال وبخاصة إذا كان إصدار هذا الأمر بناء على طلب الأجانب ولمصلحة « المرابين » الأجانب .

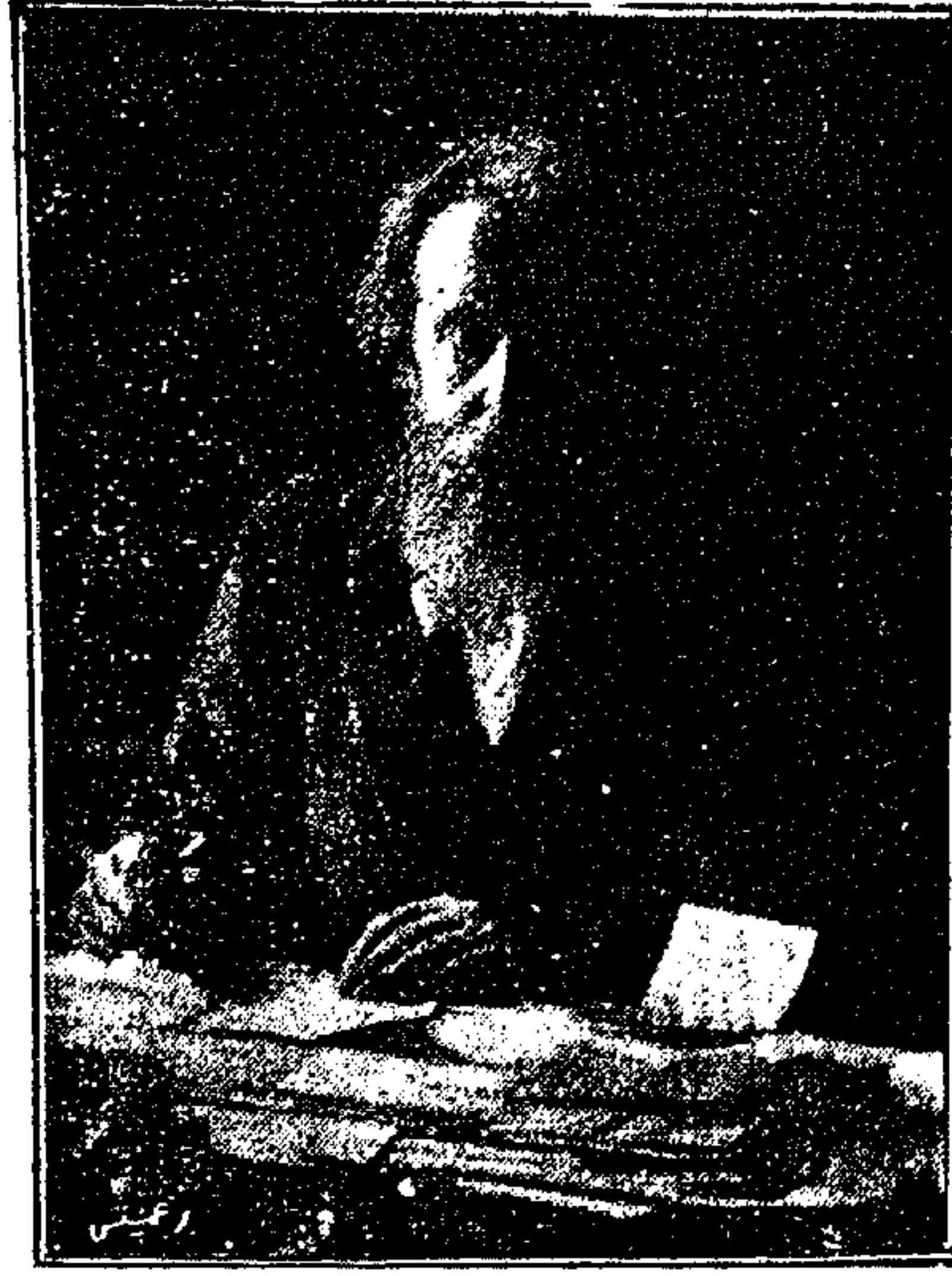
وبمناسبة اقتراح إلغاء قانون المقابلة كما جاء فى مشروع السير ريفرز وليس نقبس من كتاب التاريخ السرى للاحتلال البريطانى للستر بلنت ص ٤٤ قوله : « إن مشروع إلغاء نظام المقابلة الذى لو تم لكان معناه مصادرة أراضى تبلغ قيمتها ١٥ مليون جنيه أقلق بال كل مالك وحمل الناس على الاعتقاد بأنه قد يناههم على يد ناظر المالية الانجلىزى أسوأ مما ناههم على أيدي سابقيه . »

فلا جرم إزاء هذا القلق العام أن يبقى مشروع اللائحة الوطنية ضريبة المقابلة التى اقترح مشروع السير ريفرز إلغاءها .

الخديو يقبل اللائحة الوطنية

فأنت ترى أن الخديو كما أنه لم تكن له يد فى تدبير فتنة الضباط كذلك لم تكن له يد فى الاجتماعات التى انتهت بوضع اللائحة الوطنية . فكما أن الأولى قامت من تلقاء نفسها احتجاجاً على تخفيض مرتبات الضباط بعد تأخير دفعها عشرين شهراً ، كذلك ==

المفروضة عليهم نزولا تاماً في مقابل أن يدفعوا إليه مقدما في وقت معين



المستر ولفرد بلنت

صديق العراقيين وصاحب كتاب التاريخ السرى للاحتلال البريطاني

== قامت الثانية من تلقاء نفسها بعد أن أبصر كل ذى عينين الهاوية التي كانت الوزارة الأوربية تدفع البلاد إليها .

ولكن السير ريفرز وقد استشرى في جسمه الحقد على اسماعيل لم ير في كل هذه الحركات والاجتماعات — كما زعم — إلا تدبيراً من ناحية الخديو تمهيداً للضربة الأخيرة التي كانت سموه بعدها والتي ادعى أنها كانت نزولا على إرادة الرأي العام المتبرم بالوزارة الأروبية . (كذا ! كذا !)

وقد ذهب وفد من الأمراء إلى الخديو وقدموا له اللائحة فاستجاب إلى مطالبهم وأقرها وأمر بترجمتها وكتابة عدة نسخ بالفرنسية منها لأرسالها إلى قناصل الدول ووقع على هذه النسخ راغب باشا بالنيابة عن الموقعين من الذوات والأعيان واحمد رشيد باشا بالنيابة عن أعضاء مجلس شورى النواب والسيد علي البكري بالنيابة عن العلماء والتجار وراتب باشا بالنيابة عن الضباط . وقد اعتمز الخديو تشكيل وزارة برئاسة شريف باشا نزولا على إرادة الامراء . وتمهيداً لذلك استقال توفيق باشا بحجة أن الوزيرين الأوربيين أهملوا كلية كأن لا وجود له .

وأما السير ريفرز فإنه لم ير في أصحاب هذه التوقعات إلا جماعة من الموظفين ==

سنة أمثال هذه الضريبة . فجمع بهذه الطريقة مبلغ ٠٠٠ ر ٠٠٠ ر ١٦ جنيه

== والأعيان والعلماء جمعهم الخديو لقضاء مآربه . وكانت لجنة التحقيق العليا التي استأنفت أعمالها قد وضعت مشروعا للتسوية المالية (وهو الذي عرف بمشروع ولسن) حبه الماجور بارنج ورآى السير ريفرز من باب اللياقة والمجاملة إرساله إلى الخديو للاطلاع عليه قبل توقيعه بشرط أن يعد سموه الأيفشى شيئا من محتوياته . ولكن سموه - هكذا زعم السير ريفرز - جمع الموظفين والأعيان والعلماء وأطلعهم على صورة التقرير وكلفهم بوضع مشروع مضاد لمشروع لجنة التحقيق .

وفي يوم ٦ أبريل طلب السير ريفرز وزميله دو بلنير مقابلة الخديو واحتجا رسميا على تصرفه وقالوا إن ما فعله يززع سلطتهما . فتقبل سموه ملاحظتهما باحترام كما قال السير ريفرز « دون أن يفسر لها سبب حنثه بالوعد لأنه كان قد أحرق سفنه » ثم كلف شريف باشا بتشكيل وزارة كل أعضائها من الوطنيين .

فهل رأيت إلى أى حد تقلب الحقائق وتمسخ الوقائع الملموسة ؟

اسماعيل يستدعى القناصل

وفي يوم الاثنين ٧ أبريل استدعى سموه قناصل الدول إلى سراى عابدين وحضر الاجتماع السيد البكرى وراغب باشا وشريف باشا وعبد السلام بك المويلحى ومحمد بك راضى . وحدث الخديو القناصل فى شأن اللائحة الوطنية التي رفعت إليه من أحرار البلاد وقال إنه إزاء الرغبة العامة من جميع الطبقات وإزاء السخط المتغلغل فى سائر أنحاء البلاد يرى أن الأمر قد وصل إلى درجة لا تطاق يتعين معها اتخاذ إجراءات حاسمة ثم قال : « إن الأمة تحتاج أشد الاحتجاج على إعلان حالة الافلاس التي فكر فيها السير ريفرز ولسن وتطالب بتشكيل وزارة مصرية صحيحة تكون مسؤولة أمام مجلس النواب . » ثم أضاف الخديو « إن الأمير محمد توفيق رغبة منه فى عدم مصادمة عواطف الأمة قد استقال من رئاسة الوزارة وأنه عهد بتأليف الوزارة الجديدة إلى شريف باشا . »

واستطرد سموه فصرح للقناصل بهذه العبارة :

« ولن أتحويل عن حكم البلاد طبقا للرسوم الصادر فى ٢٨ أغسطس الذى قرر مبدأ المسؤولية الوزارية . ثم إن مرسوم ١٨ نوفمبر سنة ١٨٧٦ الذى وضع بعد الاتفاق مع بعثة غوشن جويير (الخاص بإنشاء المراقبة الشائبة) سيظل محترما . »

أنفق في استهلاك الدين السائر . ثم إنه لجأ إلى عقد قرض إجبارى بمبلغ

وقد أرسل الوزيران الأوربيان إلى الخديو في نفس ذلك اليوم احتجاجهما على قبوله اللائحة الوطنية إذ يعتبرانها مخالفة لسلطة مجلس النظار ويتنافى مع ما وعد به سموه من معاونة الوزارة حين تأليفها .

ولكن الخديو رد على هذا الاحتجاج في اليوم نفسه بدعوة شريف باشا لتشكيل الوزارة .

كتاب الخديو إلى شريف باشا

اسماعيل يقرر مبدأ الشورى

وإنه لما يطرب له كل مصرى غيور ويخفق له فؤاده أن يقرأ ذلك الخطاب التاريخى الذى أرسله اسماعيل إلى شريف باشا يكلفه فيه بتشكيل الوزارة . فهو والحق يقال من أهم الوثائق فى تاريخ النهضة المصرية وحسبك أنه يقرر مبدأ مسؤولية الوزارة أمام مجلس شورى النواب باعتبارها أساس النظام الدستورى الحديث . وبهذا تكون مصر قد نالت فى سنة ١٨٧٩ هذا الحق الهام الذى هو قوام الدساتير العصرية ويكون اسماعيل الذى انشأ مجلس شورى النواب فى أوائل عهده (١٨٦٦) ضعيف الحول معدوم القوة ناقص السلطة هو نفسه الذى لم يرض على أمته بتكميل سلطة مجلسها المذكور بتقرير مبدأ المسؤولية الوزارية أمامه سنة ١٨٧٩

ولعل نفسك قد تاقت إلى مطالعة ذلك الكتاب التاريخى لشريف باشا فإليك نصه كما جاء معرباً فى الوثائق الرسمية عن أصله الفرنسى ننقله عن كتاب الأستاذ الرافعى بك . قال اسماعيل مفاخرًا بوطنيته وبمصريته :

« إنى بصفة كونى رئيس الحكومة ومصرياً أرى من الواجب على أن أتبع رأى الأمة وأقوم بأداء ما يليق بها من جميع الأوجه الشرعية . لكن لما نظرت السير الذى كانت عليه النظارة السابقة حصل لى غاية الأسف من أن ذلك السير كان على غير رضا الملة والأهالى حتى نشأ عنه اضطراب ونفور سرى فى جميع القلوب وحركها وكانت قبل ذلك فى غاية الهدوء والسكون . وطالما أخبرت النظار ووكلاء الدول ونهتهم على تلك الملحوظات فلم يتيقظوا لها ولم يلتفتوا إليها . وزيادة عن ذلك فإن النتيجة التى حررها ناظر المالية وأظهر بها أن القطر فى حالة العدم وأبطل العمل بمقتضى القوانين المعتمدة وتجارى فيها على الحقوق الثابتة ، كانت سبباً فى تغير قلوب الأمة ونفورها من هيئة النظارة كل النفور »

٠٠٠٠ ر ٢٠٠٠ جنيه . ثم لم يحل شهر نوفمبر من عام ١٨٧٥ حتى كانت

تتحقق ذلك المحضر الذي تقدم لي في هذا الخصوص . فاجابة لما عرض على بذلك
من النظر لثبوته عندي قد وكتكم بتشكيل هيئة النظارة بناء على الأرادة الصادرة في ٢٨
أغسطس سنة ١٨٧٨ وأن تكون تلك النظارة مشكلة من أعضاء أهليين مصريين يتبعون
في سيرهم الطرق المنصوص عليها في الأرادة التي يجب المحافظة عليها بكل دقة مع زيادة
نوكيدها وتثبيتها بجعل الوزراء مسؤولين مسؤولية حقيقية أمام مجلس الأمة الذي ستنظم
طريقة انتخابه وتقرر حقه ووقه على النحو الذي يكفل مقتضيات الأحوال الداخلية ويحقق
الأمان القومي . ولتجتمد النظارة قبل كل شيء في أن تستعد لاستحضار قوانين مماثلة
للقوانين الجارية عليها العمل في أوروبا مع مراعاة عوائد الأهالي وأخلاقهم وما يلزم
هم . وتلتفت أيضا تلك الوزارة كل الالتفات لتنفيذ ترتيب المالية الذي رتبته أعيان القطر
وكبرائه وحصل التصديق عليه مني ولا تتأخر عن اجراء اللازم في إيجاد مصلحة لتفتيش
الإيرادات والمصروفات (أى نظام المراقبة الشئانية) لأنها هي التأمين اللازم للقطر
والمنافع المرهونة عليه ومنصوص عنها في الأرادة الصادرة في ١٩ نوفمبر سنة ١٨٧٦
هذا ولعلمي بحسن اخلاصكم لخدمة الوطن فلا أشك في أن تستعينوا على تلك المأمورية
بالرجال المشهود لهم مثلكم بالأمانة والاحترام لدى الجميع لتم بكم المقاصد المؤدية إلى
التمدن والعمارة التي أريد أن يقترن بهما اسمي ولتكن دولتكم على يقين من عظيم تقديري
وصادق محبتي .

« اسماعيل » ١٧ ابريل سنة ١٨٧٩

هذا هو ماسماه مروجو الدسائس « بالانقلاب الحكومي » وهي تسمية ولا شك
عربية ! إذ هل حاول اسماعيل بعمله هذا أن يمس مصالح الدائنين ؟ كلا . وهل أدل على
حرصه على هذه المصالح من إشارته الصريحة إلى وجوب إيجاد مصلحة لتفتيش الإيرادات
والمصروفات (أى نظام المراقبة الشئانية المقرر بمرسوم ١٨ نوفمبر سنة ١٨٧٦) ؟ إن
كل ما فعله بذلك الانقلاب الذي هال له الشعب المصري لا يخرج عن إبعاد العناصر التي
ضجت منها البلاد وضافت ذرعا بها . نعم لم يفعل أكثر من استبدال الوزيرين الأجنيين
ووزارة كانت مهمتها قبل كل شيء خدمة المرايين بوزارة وطنية مسؤولة أمام برلمان
الشعب . فهل يصح أن يسمى هذا انقلابا مع أن الرجل لم يخطر له المساس بالمصالح الأجنبية
أم أن الانقلاب الحقيقي هو تبرم الدائنين بهذه الوزارة الوطنية وتأميرهم على خلع
اسماعيل بلا وجه حق كما حدث بعد ؟

السندات المصرية قد هبطت إلى ٥٤٪ بينما كانت سندات الخزينة تخضم

اسماعيل يعمل داخل حدود سلطته

ويحق لنا أن نتساءل هل كان اسماعيل باشا باسقاطه الوزارة الأوربية يعمل في داخل حدود سلطته الشرعية أم أنه تجاوزها؟ إننا إذا نظرنا إلى ص ١٩٢ من مذكرات السير ريفرز ولسن لرأيناها يذكر في كثير من الألف حقيقة مرة كانت منسية لدى سواد الجمهور إلى أن أعلنها السير ستافورد نورثكوت وزير مالية إنجلترا . تلك الحقيقة هي أن السير ريفرز عند ما ذهب إلى مصر كما أعلن السير ستافورد في مجلس العموم « ذهب بصفته ناظراً من نظار الخديو فليسموه الحق المطلق في عزله إذا اقتضت المصلحة ذلك . » إذن لم يتجاوز اسماعيل حدود سلطته عند ما عزل السير ريفرز بعد أن رأى المصلحة تقتضى ذلك . يسلم السير ريفرز بهذه الحقيقة ولكنه يقول « لا ينبغي أن يصرح الإنسان دائماً بالحقيقة كلها . » فليكن هذا رأيه ولكن بما لاجدال فيه أن اسماعيل لم يرتكب أمراً إذا وبخاصة متى ذكرنا أنه اتفق - كما مر بك - مع الحكومتين الإنجليزية والفرنسية على أن تعاد المراقبة الثنائية حتماً إذا فصل أحد الوزيرين الأجنيين من منصبه من غير موافقة حكومته . وقد رأيت إشارة الخديو الصريحة في خطابه لشريف باشا إلى إيجاد نظام المراقبة الثنائية بما يدل على أن الرجل لم يحثك باتفاقه ولم يفعل إلا ما هو من حقه المشروع .

تقرير لجنة التحقيق العليا

حدث كل هذا في يوم ٧ ابريل سنة ١٨٧٩ . وفي اليوم التالي كانت لجنة التحقيق العليا قد أتمت تقريرها وأعلنت فيه أن مصر في حالة إفلاس فينبغي معالجة حالتها المالية على هذا الأساس .

ولما كانت الوزارة قد استقالت فلم يقدم التقرير لها لانشغال شريف باشا بتشكيل الوزارة الجديدة . ولكن أعضاء لجنة التحقيق أرادوا أن يقوموا بمظاهرة ضد الخديو لاجترائه على الانتفاع بحقه في اسقاط الوزيرين الأجنيين . ففي يوم ١٠ ابريل قدموا إلى اسماعيل استقالتهم مشفوعة بخطاب يتضمن التقرير الذى وضعوه . فما كاد الخديو يجيل نظره فيه حتى أعلنهم أنه لا يستطيع قبول ما وصلوا إليه من النتائج من أن بلاده أصبحت في حالة إفلاس . ثم رد عليهم باعلان المشروع المالى الذى تضمنته اللائحة الوطنية وسبقت الإشارة اليه .

بسعر ٣٠ ٪. وفي ابريل سنة ١٨٧٦ تبين استحالة أداء الكوبون حتى برغم جلد الفلاحين وهكذا توقف الدفع لأول مرة .

== ولقد أخذ الاستياء من اسماعيل مأخذه حتى أنه احتج على دعوى الافلاس وقال فيما قال :

« لقد تنازلت أسرتي عن الجزء الأكبر من أراضيها مساعدة للدولة ولا تزال على استعداد لبذل تضحيات أكثر من هذا . فجوهرات أميرات الأسيرة الخديوية تحت تصرف دائني مصر . فكل فدان في حيازتنا بل وكل جوهرة في حيازة أميرتنا هي رهن إشارة أو كلمة من الدائنين . كل هذه التضحيات نقدمها على مذبح الوطن عن طيبة خاطر ولكننا نرفض بتاتا التسليم بالافلاس . »
وهي لعمر ك كلمات صادرة من ذلك القلب الكبير المفعم بالأسى . ولكنها وقعت وبالأسف على آذان صماء .

الأضراب عن العمل

قد رأيت إذن أن اسماعيل لم يخرج في تصرفاته عن استعمال الحق الذي له كرئيس للدولة وسيدها الأسمى كما أشار إلى ذلك وزير المالية البريطانية . فبعد أن استقال أعضاء لجنة التحقيق وسقط الوزيران الأجنبيان كان المعقول أن تعاد المراقبة الثنائية طبقاً للاتفاق المعقود بين الخديو وحكومتى فرنسا وانجلترا في ١٧ نوفمبر سنة ١٨٧٦ . ولكن هل تعلم ماذا حدث ؟

عند ما أدهج الوزيران الأجنبيان في وزارة نوبار تقرر الغاء مناصبي المراقبين العموميين . ومع أن الخزانة العمومية كانت خاوية على عروشها فقد رؤى « جبرنخاطر » المستر رومين المراقب الإنجليزي وزميله الفرنسي البارون دو مالاربه باعطاء كل منهما مبلغ ٤٠٠٠ جنيه ! ! ولما كان اتفاق ٨ نوفمبر يحتم إعادة العمل بنظام المراقبة الثنائية إذا سقط أحد الوزيرين بدون موافقة حكومته رأى اسماعيل أن يدعو السيرافين بارنج العضو البريطاني بصندوق الدين وزميله الفرنسي المسيو بليج دي بوجاس للقيام بأعمال المراقبين . فامتنعا وأجابا بالرفض التام . فكان امتناعهما هذا لعلامة متفق عليها . لأن كبار الموظفين الأجانب في القاهرة سرعان ما أعلنوا شبه اضراب عن العمل لشل حركة الوزارة التي كان شريف جادا في تشكيلها انتقاما من اسماعيل لجرأته على استعمال حقه المخول له . وهو الحق الذي لم يجادل فيه وزير المالية البريطانية نفسه .

فصدر أمر عال في ٢ مايو سنة ١٨٧٦ بتبليية مطالب الدائنين الأجانب

اسماعيل يجس نبض الاستانة

كان اسماعيل من الدهاء وبعد النظر بحيث أدرك أن أعماله هذه كلها لا غبار عليها من الناحية القانونية . كذلك أدرك أن فرنسا وانجلترا بل والدول الأوربية مجتمعة لن تستطيع أن تمسه بسوء ظالمسا أن جلالة السلطان لا يمالئ الخصوم ضده . ولذا راح اسماعيل يجس النبض في الدواوين الرسمية في الاستانة . ولعلك لم تنس مندوبه ابراهام الأرمني . فبينما كانت الأمور التي سردناها عليك تحدث في القاهرة كان اسماعيل قد اتصل بمندوبه الأرمني المذكور للوقوف منه على مدى ما تبذله الدولتان الكبيرتان من التأثير ضده لدى الباب العالي .

وفي يوم ١٣ ابريل تلقى سموه هذين الردين وقد جاء في أولهما العبارة الآتية :
« تلقيت أوامر مولاي السامى القدر فقممت من فوري لتنفيذها حرفيا . وقد قابلت الصدر الأعظم في هذا الصباح . فقال لي ما يأتي : « لم نسمع بشيء من فرنسا ولا من انجلترا بصفة رسمية . وليست للسكاتبات الغير رسمية أية قيمة ولا وزن لها في نظر مجلس الوزراء . »

وإليك نص الرد الثانى وفيه إشارة إلى مساعى حلیم باشا حيال الأريكة الخديوية .
قال ابراهام :

« تجرى هنا دسائس كثيرة ومعقدة . فحلیم باشا يذهب إلى السراى ويلبث في حضرة جلالة السلطان ساعات عديدة كل يوم . ولست أظن أن الأمير يتكلم عن مولاي الخديو كلاماً طيباً ولكن من حسن الحظ أن رأى جلالة السلطان في حلیم باشا لا يشرف . »
ومنذ هذا التاريخ إلى اليوم الذى غادر فيه اسماعيل مصر ظل اسم حلیم باشا يتردد على الألسن . وليس شك في أنه لولا فرمان الذى حصل عليه اسماعيل بتغيير نظام الوراثة لنجحت مساعى الأمير في الحصول على العرش . وقد أفرغ كل ما في جعبته للإفادة مما كان يحيط باسماعيل من المتاعب . وقد تقدم فعلا باقتراح الخلع سموه واحلاله هو مكانه . ويؤخذ من الخطابات والبرقيات التى تبودلت مع ابراهام أن «سفيرين من سفراء الدول العظمى كانا يرقبان هذه المساعى بأكثر من مجرد الاهتمام الأفلاطونى» على حد تعبير المستر كرايتس .

تديد القنصل الأمريكى بالدسائس ضد اسماعيل

ولما كانت الحقيقة لا تعدم أنصارا فان هذه الدسائس التى ظلت تحاك خيوطها =

بتعيين حراسة أجنبية تسمى لجنة الدين . وقد قبلت حكومات فرنسا

— أمدا طويلا ضد اسماعيل لم تمر دون أن يندد بهارجل محايد لا مصلحة له وهو القنصل
أمريكا العام في القاهرة المستر فارمان الذي عينته حكومته فيها بعد قاضياً في المحكمة
المختلطة بمصر . ولم يكن المستر فارمان ينتظر أن ترى ملاحظاته ضوء الشمس يوماً ما ولذا
كتب ما كتب بصراحة غير مألوفة في لغة رجال السياسة . وقد أرسل في ٢١ مارس
سنة ١٨٧٩ (أي قبل سقوط الوزيرين الأوربيين) للمستر وليام إيفارت وزير خارجية
الولايات المتحدة خطاباً غير رسمي قال فيه :

« يستحيل على المرء تعليل المسلك الذي تسلكه إنجلترا وفرنسا حيال مصر أو إرجاعه
إلى اسباب مالية بحتة . فجماعات المضاربين في باريس ولندن وهم الذين يقدمون المعلومات
هم المشرفون على الصحف ولذا صار في استطاعتهم إيجاد رأى عام إلى حد ما بالنسبة
للشؤون المصرية . فليس لهؤلاء الجماعات بالطبع أى اهتمام بشيء عدا الشؤون المالية وكل
غايتهن هي زيادة قيمة سنداتهن . ولكن حكومتى هؤلاء المضاربين - وبخاصة الحكومة
الإنجليزية - لا بد وأن تكون لها غاية أخرى مختصرة لديها . وقد يلوح للشخص الذى يقف
من الحوادث موقف المتفرج المجرد من المصلحة أن المقصود هو إيجاد فئنة أو ثورة - إن
أمكن - لاتخاذها ذريعة للاستيلاء على البلاد (كذا)

« ومهما أنحى الانسان على الخديو باللائمة لتسببه في تحميل مصر هذه الديون فليس
شك - على ما يلوح لى - في أنه قد بذل أقصى ما في استطاعته في خلال العامين
الماضين لتخفيض المصروفات لمرضاة للدائنين . »

فيما كان السير ريفرز يثير الغبار حول اسماعيل ويتضجر منه ويحرض دولته
عليه كان الشهود العدول المحايدون يؤكدون أن الخديو بذل كل ما في استطاعته
لأرضاء دائنيه .

ولم يقف المستر فارمان عند هذا الحد . بل إليك رسالة أخرى كتبها إلى حكومته
يبين لها كيف أصبح اسماعيل ضحية الدائنين . قال :

« لقد استخدمت إنجلترا وفرنسا سلطتهما في إرغام مصر على دفع فوائد لا قبل لها بها
وخارجة عن طاقتها الكلية . والأدهى من ذلك أن هذه الفوائد هي عن ديون لم تسلمها مصر
فالأسهم بيعت في البداية بسعر يتراوح بين ٦٠ - ٧٠٪ . بل إن العالمين بحقائق الأمور
يؤكدون أنه بعد دفع البقشيش والعمولة وما إليهما من النفقات لم يدخل الخزينة أكثر —

والنمسا وإيطاليا أن يكون لكل منهما مندوب في هذه اللجنة . ولكن انجلترا



عمر باشا لطفي الذي كان فيما بعد وزيرا للحربية وقت حريق الاسكندرية

من ٥٠٪ . لا بل إن الكثير من حملة القراطيس الحاليين لم يدفعوا سوى ٤ أو ٣٠٪
عن الأسهم ومع ذلك فانهم يطالبون بفائدة ٦٪ . على اعتبار أنهم دفعوا ثمن السهم كاملا .
ثم إن كثيرين من حملة الاسهم الحاليين — وبخاصة ذوى النفوذ منهم كانت لهم مصلحة
في عقد القروض الأصلية وقد جمعوا ثروة هائلة من جراء مضارباتهم في السندات المصرية .
ولم يشأ ذلك القنصل النزيه أن يختم كلامه دون أن يشفعه بالملاحظة الآتية وهي
نصيحة قدمها للحكومات الأجنبية بأنها بدلا من أن ترهق الفلاحين وترغمهم على أن
يردوا إلى الدائنين أموالا لم يتسلمها الخديو بتاتا « أن تخاطب الدائنين بهذه اللهجة
الحازمة فتقول لهم « لقد ارتكب خطأ موبق ضد الشعب المصرى وبالغا ما بلغ نصيب
حكومته من ذلك الخطأ فليس ريب في أنكم تتحملون قسطا من تبعة ذلك الخطأ . وقبل
أن تنتظروا حتى مساعدتنا الأدبية لتحقيق مطالبكم ينبغي عليكم أولا تخفيض تلك
المطالب إلى القيمة التي أقرضتموها فعلا . »

حقاً كان هذا كلاماً صريحاً وعادلاً ولكن هيات أن يكون له أى أثر في قلوب
الدائنين بعد أن أصبحت متحجرة من جراء الأشراف في المطامع !!

تشكيل وزارة شريف باشا

قلنا إن الخديو كلف شريف باشا بتشكيل وزارة وطنية فقام الباشا بهذه المهمة

وألها على النحو الآتى :

مانعت فيها وارسلت رجلا من رجال المصارف يدعى المستر كيف فوضع

شريف باشا - الرأسة والداخلية والخارجية

شاهين باشا للجهادية - (الحربية والبحرية) انظر ص ٣٧٤ وكان من أركان الجمعية الوطنية

زكى باشا - للأشغال العمومية

ذو الفقار باشا - للحقانية

محمد ثابت باشا - للمعارف والأوقاف أنظر ص ٤٠٤

عمر لطفي باشا - لتفتيش عموم الأقاليم البحرية والقبلية

وعرض شريف باشا قائمة الوزارة على الخديو مشفوعة بالخطاب التالى :

« مولاي . إننى طبقاً للأمرورية التى تنازلتم بتقليدى إياها أشرف بأن أعرض على

سموكم تأليف الوزارة على النمط الآتى (الأسماء) فأومل أن هؤلاء الأعضاء المكتسبين

اعتبار البلاد وثقتها والمحترمة سلطتهم فى مطلق أنحائها يصادفون من سموكم القبول والتصديق

فتنازلوا مولاي واقبلوا علامات احترامى الفائق فانى خادم سموكم الأمين

شريف ،

٨ ابريل سنة ١٨٧٩

ابتهاج البلاد بتأليف الوزارة

ثم صدر المرسوم الخديوى بتأليف الوزارة على النحو السابق . ولا تسئل عن مبلغ

ابتهاج البلاد بقبول الخديو للأئمة الوطنية وتشكيل الوزارة الشريفة . وفى يوم تشكيل

الوزارة (الثلاثاء ٨ ابريل) اجتمع العلماء والكبراء والأعيان والتجار بمنزل السيد

البكرى وذهبوا بعد الظهر إلى قصر عابدين لتقديم شكرهم للخديو فاستقبلهم بالرعاية

والأكرام وحشهم على التضامن والتعاون . وخطب السيد البكرى بين يدى سموه وكان

مما قاله « إن ذلك اليوم الذى يصح أن يجعل ذكر الحضرة الخديوية غرة فى جبهة التاريخ

لهو يوم عيد للوطن وللحرية . » وتعاقب بعده الخطباء . وأخيراً قام الخديو فقال « إن شاء الله

ننال بدعواتكم الصالحة غاية المراد وتتوطد الراحة والنظام . » ثم استقبل سموه التجار

وحضهم على التضامن .

وعمت الأفراح أنحاء البلاد فأقيمت الحفلات ابتهاجاً بالعهد الجديد . وأقام السيد

البكرى فى مساء الأربعاء (٩ ابريل) مأدبة شائقة حضرها الوزراء والكبراء والعظماء

وبطريرك الأقباط وممثلو الأمة . وحضر الخديو نفسه المأدبة ليلاً وجلس نحو خمسة

وعشرين دقيقة فى الدار يؤانس العلماء والكبراء ويتبسط معهم فى الحديث مما كان له أكبر

وقع فى نفوس الحاضرين

تقريراً عن حالة مصر وقال إن البلاد يمكن جعلها قادرة على تسديد ديونها .

== وأقام ابراهيم بك المويلحي (ص ٤٥٧) ومحمود بك العطار شاه بندر التجار والسيد محمد السيوفى (ص ٤٢٣) وغيرهم زينات فاخرة أمام منازلهم ابتهاجاً بالعهد الجديد .
رأى السير ريفرز ولسن فى هذه الحفلات

بعد سقوط الوزارة المختلطة عاد السير ريفرز إلى بلاده لاستئناف أعماله فى إدارة الدين الأهلى . ثم دعى فى أواخر يونية سنة ١٨٧٩ (أى قبل خلع الخديو) لأبداء رأيه فى الشؤون المصرية بمناسبة تشكيل لجنة التصفية . ونظرة واحدة إلى الفصل العشرين من مذكراته تبين لك أن الغرض جعله غير قادر على ذكر اسماعيل بكلمة طيبة واحدة ! !
فقد أخبرنا فى الفصل المذكور أنه أرسل خطاباً مطولاً بتاريخ ٢٥ يونية إلى وزير المالية البريطانية السير ستافورد نورثكوت . والخطاب كله مديح وتغنى بأخلاق نوبار وشجاعة نوبار وأمانة نوبار وما كان ينتظر على يديه لمصلحة مصر ومصلحة الدائنين لو كانت سنده انجلترا وفرنسا إلى النهاية ! !

وهذا التمدح ليس بمستغرب من السير ريفرز لأن نوبار كان لا يصدر فى أمر إلا عن إرادة زميله الأنجليزى . إنما المستغرب فى خطاب السير ريفرز أن يصف كل هذه الحفلات السابق ذكرها بأنها جزء من المهزلة التى دبرها الخديو حيث قام بمظاهرة من العلماء ومشايخ الدين برئاسة السيد البكرى مع أن المسألة كلها — كما يعرف الناس جميعاً — لم تكن سوى لعبة اخترعها اسماعيل وعمل على تشجيعها ! !

ثم راح السير ريفرز يحدثنا عن حكم نوبار وشعور البلاد نحوه وراح يتساءل قائلاً ما ملخصه : لقد زعم البعض أن نوبار كان مبغوضاً فى مصر . فان كان المقصود أنه مبغوض من لفيف الباشوات وهم نصف أجناب فان الجواب بالإنجاب . أما إنه كان مبغوضاً من الشعب ، فالجواب سلبي الخ .

ومع أننا لم نكن نأخذ ما يكتبه السير ريفرز عن اسماعيل وحكمه إلا بالاحتياط الشديد فقد كنا نستبعد أن يأكل الحقد صدر هذا الرجل إلى حد يجعله يسترسل فى الخيال ويمسح الحقائق إلى هذا الحد ويخط أشياء لا تثير إلا الازدراء والسخرية .

رأى القنصل الأمريكى فيها

نوبار غير مبغوض فى مصر ! هذا ما يبتدعه خيال السير ريفرز . ولكن ما قولك فى القنصل الأمريكى السالف الذكر وهو كما تعلم رجل بعيد عن التحيز ولم تكن ==

وقد أكد لورد دربي « أن مهمة مستر كيف لا تنطوي على أية رغبة في التدخل في شؤون مصر الداخلية » (أوراق الدولة ٨٣ سنة ١٨٧٦ ص ٢)

== لبلاده أية مصلحة في النزاع الجاري كما يشهد بذلك كتابه إلى وزير خارجية بلاده في ٢٤ أبريل سنة ١٨٧٩ ؛ فانظر ماذا قال عن نوبار ووزارة نوبار وأصدقاء نوبار . قال بعد الديباجة :

« وإني لأعلم أن هذه البلاد (يقصد مصر) بعيدة عن شواطئنا وأن مصالحنا فيها هي من التفاهة بحيث لا تقابل تفاصيل ما يحدث فيها بنفس الاهتمام الذي تقابل به في أوروبا . »
فارجو أن يلاحظ القارئ قول القنصل « إن مصالح أمريكا في مصر هي من التفاهة الخ ، وهذا ما يجعل ملاحظات القنصل بعيدة عن التحيز لأنها مجردة عن المصلحة . »
والآن فإليك بقية خطابه :

« ولكني أرى برغم ذلك (أي برغم تفاهة المصلحة) أنه ينبغي على ألا أترك إخطاركم ببعض ما يجري مشفوعاً برأيي في الحكم الأنجائزي الفرنسي القائم في مصر »
« فهذه الحركة كلها (يشير إلى سقوط الوزيرين الأجنبيين) قوبلت هنا بمنتهى الارتياح . أما السر في أن الشعب قد رحب بها فمرجه إلى حد كبير إلى أن هذه المحاولة الشاذة وهي حكم البلاد بواسطة وزارة مختلطة وغير مسؤولة لمصلحة الدائنين الأجانب قد قام البرهان القاطع على أنها محاولة فاشلة . »

« ولست أدري إذا كان هذا النظام سيستمر العمل به إذا استخدمت القوة . ولكن هذا لن يغير الحقيقة الواقعة وهي أنه نظام فاشل وأن المسألة بخلافها كانت غلطة سياسية وفي الوقت نفسه خطأ موبق . »

ثم راح القنصل التزيه يفسر ما أراد فقال :

« أما إن النظام كان غلطة سياسية فلا أنه كان تدخلاً في شؤون الحكم الداخلي في بلاد أجنبية لا شيء سوى مصلحة جماعة من الدائنين الأجانب ممن سعوا للأثراء على حساب سندات منخفضة الثمن تحمل فوائد غير مسموح بها في بلادهم »

« وأما إنه كان خطأ موبقاً فلا أنه كان بمثابة محاولة لا رغام المصريين على دفع أموال خارج عن طاقتهم دفعها بل إنهم فضلاء عن ذلك يرون أنها تفوق إمراحل ما هم ملزمون أدبياً بدفعه . ولا توجد في أوروبا أمة واحدة كانت تتحمل ضروب الابتزاز هذه . ولو أن ما تعرضت له مصر من الضغط والأرهاق تعرضت لربعة إحدى ولاياتنا لكانت ==

ولم يكن حملة قراطيس دين الدائرة السنوية الأنجلينز أقل تشككا . فنظراً

== النتيجة ثورة عامة تحرق الأخضر واليابس . »

فماذا عسى أن يكون رأيك بعد الآن في أقوال السير ريفرز وهو الذي استساغ الاختلاق على الواقع المحسوس ؟ لانظن أن أقواله أجدر بأن توضع في أرقى من مستوى أقوال مدام أولمب أدوار ومن هم على شاكلتها .

وزارة شريف باشا تواجه مجلس النواب

ويحسن الآن أن نترك تعقب السير ريفرز في أقواله الدالة على التحيز الشنيع و نلتفت إلى ما حدث بعد تشكيل الوزارة الشريفة .

فأنت تذكر أن الوزارة المختلطة كانت عولت على فض دورة مجلس النواب وأن الأعضاء أبوا الانصراف إلى ديارهم عند ما جاء رياض باشا يقرأ عليهم أمر الانفضاض . فلما تشككت الوزارة الجديدة كانت با كورة أعمالها اقرار مجلس النواب على استمرار انعقاده احتراماً لقراره الذي أعلنه في مواجهة رياض باشا . وبهذا أيدت الوزارة المجلس في موقفه التاريخي .

وفي يوم ١٠ ابريل (أي بعد تشكيل الوزارة بيومين) اجتمع المجلس وتليت عليه المكاتبة الواردة من وزارة الداخلية . وهي كما ذكرت في كتاب الأستاذ الرافي بك : « ولو أنه كان تقرر بمجلس النظار السابق انفضاض عقد مجلس شورى النواب لانقضاء مدته حسبما تحرر لسعادتكم في ٣ ربيع الآخر سنة ١٢٩٦ نمرة ٢١ لكن حيث مقتضيات الأحوال مستلزمة بقاءه لهذا كره والمفاوضة معه في بعض مواد مهمة قد تقرر بمجلس النظار الذي تشكل الآن استمراره واقتضى تحريره لسعادتكم للأحاطة بذلك وتفهم حضرات أعضائه بعدم الانصراف . »

ومن ثم استقر رأي المجلس على مواصلة الحضور لهذا كره فيما تقدمه الحكومة من المواد . وبينما كانت حوادث مهمة تقع في نواح أخرى ظل المجلس يوالي اجتماعاته إلى أن كان يوم السبت ١٧ مايو سنة ١٨٧٩ حيث رأس اجتماعه مؤقتاً حسن راسم باشا ناظر الدائرة السنوية بدلا من أحمد رشيد باشا المريض فأبلغ الأعضاء أن رئيس مجلس النظار سيحضر اليوم لتقديم اللائحة الأساسية الجديدة للمجلس .

خطاب تاريخي لشريف باشا

وفعلا حضر شريف باشا وقال إنه مكلف من قبل الحكومة السنوية بتقديم اللائحة ==

لعدم ارتياحهم للأمر الصادر في ٧ مايو سنة ١٨٧٦ بتوحيد الديون

الأساسية (الدستور) ولائحة الانتخاب الجديدة وقد وضعا بناء على اللائحة الوطنية. ثم قال « وقد أحضرت معي اللائحة الأساسية . أما لائحة الانتخاب فهي تحت التمييز والنظر في مجلس النظار وستقدم لمجلس النواب بعد بضعة أيام . ولا يلزمي أن أوضح لحضراتكم أهمية هذه اللوائح لأن المقصود منها أن تكون القوانين واللوائح التي تعمل وما يلزم تنقيحه في الموجود من الأول يكون كل ذلك بعد رؤيته بمجلس النواب والأقرار عليه منه وصدور الأمر بذلك . نعم وإن كان تأخير تقديم اللائحتين اللتين ذكرنا عنهما بهذا إلا أن هذا كان لداعي المشغولية التي كانت حاصلة فيما يتعلق بتسديد الكوبون . والله الحمد قد تيسر ذلك . والمأمول أنه بعناية الله وباتحاد الأفكار والقلوب تحصل مزيد الراحة والعمارة للأهالي كما أنه جارى النظر بالمالية في مسألة تسديد الديون السائرة . وبنهوها لا بد من حصول كل من أرباب المطالب على حقوقهم . وحيث كان المقصود من تلك اللوائح إنما هو رؤية ما يلزم رؤيته لما يترتب على ذلك من الفوائد والمنافع للأهالي والبلاد فالمرجو من حضراتكم النظر فيها بعين الدقة التامة وإن ترامت لكم ملحوظات ولزم الحال لهذا كره معنا بالمجلس من أجلها فنحن مستعدون لذلك . »

وهكذا أصبح للمجلس سلطة « جمعية تأسيسية » لأنه لا يوضع قانون جديد ولا يعدل قانون قديم إلا باقرار المجلس وهذا يسرى أيضاً على القوانين الأساسية التي تقرر النظام الدستوري .

وبعد هذا البيان التاريخي تبارى الأعضاء في شكر الحضرة الخديوية على إجابة طلبات الأمة وتألقت لجنة قوامها ١٥ عضواً لبحث هذه اللائحة فكانت بمثابة اللجنة الدستورية .

وفي ٢ يونية سنة ١٨٧٩ قدمت الحكومة لائحة الانتخاب فتليت على المجلس وأحيلت على اللجنة الدستورية . ولكن أبي الحظ أن يصدر المرسوم بذلك لأن الدول تأمرت على خلع الخديو فغادر مصر في ٣٠ يونية سنة ١٨٧٩

تقدم الحياة النيابية في عهد اسماعيل

كثيراً ما أشرنا إلى وجوه التشابه العديدة بين عصر اسماعيل وعصر فؤاد . وتأتي بقى طليعة هذه الوجوه الحياة النيابية والحكم الدستوري . فكما أن جلالة مولانا الملك قد امتاز عصره بالاعتراف باستقلال مصر وقيام الحياة النيابية ، كذلك امتاز عصر والده =

طالبوا و وضع تسوية على انفراد و حصلوا من المحكمة المختلطة على حكم بنزع

العظيم عن عصور أسلافه بنشأة تلك الحياة وبعثها بعثاً جديداً مما يصح أن يعتبر من أجد نواحي اسماعيل وأكثرها نفعاً لأمته وبلاده . ولا مفر لنا من أن نقول كلمة نحسب أنها جديرة بأن تملأ كل مصرى فخارا كلما ذكر عهد اسماعيل .

فعند ما اعتلى سموه الأريكة في سنة ١٨٦٣ لم تكن في مصر هيئة نيابية تمثل الشعب وتشارك في مظاهر الحكم . وقد حرمت البلاد من مثل هذه الهيئة منذ إبطال « مجلس المشورة » الذي أسسه محمد علي سنة ١٨٢٩

وقد مر عهد عباس وسعيد دون أن يجتمع مجلس المشورة مرة واحدة . فلما تولى اسماعيل فكر في إنشاء مجلس شورى النواب .

فعصر اسماعيل يمتاز إذن عن عصر عباس وسعيد بأنه العصر الذهبي الذي نشأت فيه الحياة النيابية وتدرجت حتى أبلغت وأتت أطيب الثمرات كما سند له هنا . ونحسب أنه لولا العواصف الهوجاء التي عصفت بالحكم الاسماعيلي في آخر يونية سنة ١٨٧٩ لجنت البلاد أطيب الثمرات من هذه النفحات التي أغدقها اسماعيل على شعبه الكريم .

مجلس شورى النواب

ففي سنة ١٨٦٦ وضع اسماعيل لهذا المجلس لائحتين . الأولى اللائحة الأساسية مؤلفة من ١٨ مادة تبين سلطته وطريقة انتخابه وميعاد اجتماعه . والثانية اللائحة النظامية (وهي أشبه باللائحة الداخلية للمجلس) مكونة من ٦١ مادة .

ولم يكن رأى المجلس قطعياً بل كانت قراراته مجرد رغبات ترفع إلى الخديو للفصل فيها . وليس للمجلس أن يبحث في موضوع لا تعرضه عليه الحكومة ، وأن يكون عدد الأعضاء ٧٥ ينتخبون لمدة ثلاث سنوات ويجتمع المجلس في القاهرة شهرين في كل سنة من ١٥ كيهك إلى ١٥ أمشير (أى من ١٥ ديسمبر - ١٥ فبراير) ويعين الخديو رئيسه ووكيله على أن يفتحه سموه بمقالة (خطبة العرش) ويقدم المجلس جوابه عنها بكتاب لا يقطع فيه بشيء من الأمور التي يقتضى نظرها المجلس الخ

فأنت ترى أن اسماعيل منح البلاد هذا بينما كانت الأمة تغط في نومها فلم تبدر منها حركة مطالبة . فان دل هذا على شيء فانه يدل على ميل الرجل الغريزي إلى الشورى . ولم يكن يمكن في ذلك الدور الابتدائي أن يخول اسماعيل المجلس سلطة واسعة دون أن يسبق ذلك تربية الأمة تربية سياسية وهو ما حدث في أثناء حكمه إلى أن كان دستور سنة ١٨٧٩ الذي قدمه شريف للمجلس .

ملكية الأراضى المرهونة . وهنالك أرسلوا المستر «غوشن» الذى تمكن

ثم أجريت الانتخابات وافتتح المجلس بخطبة العرش فى ٢٥ نوفمبر سنة ١٨٦٦ وكان اجتماعه بالقلعة برأسه اسماعيل باشا راغب وحضر الخديو حفلة الافتتاح .

الخديو وخطبة العرش الأولى

وتليت خطبة العرش التى تعتبر من أهم الوثائق فى تاريخ الحياة النيابية. ونظرا لأنها تضمنت قواعد أساسية كحكم الشورى واستنادها فى تقريره إلى آيات القرآن الكريم وإشادة بمزايا ذلك الحكم والتنويه بأن غايته منفعة الجمهور، وبالجملة فهى تصح أن توصف بأنها فذلكة تاريخية . ولذا رأينا أن نثبتها هنا بنصها لطرفاتها كما وردت فى المضبطة الأصلية لجلسة افتتاح مجلس شورى النواب المحفوظة بدار النيابة . قال اسماعيل :

« من المعلوم أن جدى المرحوم حين تولى مصر وجدها خالية عن آثار العمار، ووجد أهلها مسلوبي الأمن والراحة، فصرف الهمم العالية لتأمين الأهالى وتمدين البلاد بايجاد الأسباب والوسائل اللازمة إلى ذلك، حتى وفقه الله تعالى لما أراد من تأسيس عمارة الأقطار المصرية، وكان والدى عوناً له ونصيراً فى حياته، فلما آلت إليه الحكومة المصرية اقتنى أثر أبيه فى إتمام تلك المساعي الجليلة بكمال الجد والاجتهاد، فلو ساعده عمره لأكملها على أحسن نظام . ثم انقلبت أحوال مصر بعدهما، إلى أن قدر الله تعالى تسليم زمام إدارة حكومتها إلى يدي . ومن حين تسلمته إلى الآن رأيت دوام سعي واجتهادى فى إكمال ما شرعاه من المقاصد الخيرية، بتكثير أسباب العمارة والمدنية أعاننى الله على ذلك، وكثيراً ما كان يخطر ببالى إيجاد مجلس شورى النواب، لأنه من القضايا المسلمية التى لا ينكر نفعها ومزاياها أن الأمر شورى بين الراعى والرعية، كما هو مرعى فى أكثر الجهات، ويكفينا كون الشارع حث عليه بقوله تعالى « وشاورهم فى الأمر » وبقوله تعالى « وأمرهم شورى بينهم » فلذا استنسبت افتتاح ذلك المجلس بمصر، تتذاكر فيه المنافع الداخلية، وتبدى به الآراء السديدة، وتكون أعضاؤه مترتبة من منتخبي الأهالى، ينعقد بمصر فى كل سنة مدة شهرين، وهو هذا المجلس المقدر بعناية المولى فتحه فى هذا اليوم المبارك على يدنا، الذى أنتم فيه أعضاء منتخبون من طرف الأهالى، وإنى أشكر الله على ما وفقنى لهذا الأمر المبرور، وواثق بفظانتكم بحصول النتيجة الحسنة من حسن المداولة فى المنافع الداخلية الوطنية، وفقنا الله تعالى لما فيه منفعة الجمهور، وعليه الاعتماد فى كل الأمور،

في ١٨ نوفمبر سنة ١٨٧٦ من توحيد الديون من جديد بطريقة أكثر
ملاءمة لهم . ولكن الأرهاق بالغاً ما بلغ لم يجد في انتزاع الأموال من

لجنة الرد على خطاب العرش

صادف يوم افتتاح المجلس يوم عيد ميلاد الخديو فوافق المجلس على عدم العمل
في ذلك اليوم وتألقت لجنة من عشرة أعضاء لتقديم الجواب على خطبة العرش .
وفي اليوم التالي (٢٦ نوفمبر) ذهب رئيس المجلس مصحوباً بأعضاء اللجنة إلى السراي
لتقديم الجواب على خطاب العرش وهو طويل مسجع مليء بعبارات الشكر لولى النعم .

الدور الأول

وانقضى معظم الدور الأول في المداولة في مقترحات الأعضاء وهي موجودة كاملة
في المضابط الأصلية المحفوظة بمكتبة البرلمان .
وفي جلسة ٢٤ يناير سنة ١٨٦٧ أعلن الرئيس ختام الدور . ومن المهم أن نذكر
أن البحث في هذا الدور تناول مسألة السخرة وتقسيط الأموال الأميرية وتعميم
المدارس الابتدائية . ولم يعرض المجلس للميزانية ولا طلب من الحكومة إطلاعه عليها .

الدور الثاني

١٦ مارس سنة ١٨٦٨ — ٢٣ مايو سنة ١٨٦٨

تأخر افتتاح المجلس في هذا الدور بسبب مرض الخديو . وقد افتتح اسماعيل الجلسة
وتليت مقالة الافتتاح .

وفي هذا الدور تناول المجلس البحث في ميزانية البلاد وكان اسماعيل باشا صديق
(المفتش) يتولى الرد على ما يطلبه الأعضاء من البيانات .

دور الانعقاد الثالث

٢٨ يناير سنة ١٨٦٩ — ٢٢ مارس سنة ١٨٦٩

افتتح هذا الدور بخطبة العرش وهي أغزر خطب العرش مادة بسبب ما احتوته
من البيانات عن أعمال الخديو منذ تبوؤه الأريكة في سنة ١٨٦٣ لغاية سنة ١٨٦٩ .
وكما كانت خطبة اسماعيل في الدور الأول بمثابة فذلكة تاريخية عن أعمال محمد علي و ابراهيم
باشا كذلك كانت خطبة الدور الثالث بمثابة فذلكة عن أعماله هو في خلال السنوات
الست التي انقضت قبل هذا الدور .

الفلاحين لوفاء أقساط الدين المستهلك أو الدين السائر أو سد المطالب الأخرى . ويلوح أن اسماعيل رأى أن يرفع عن عاتقه تبعة الرفض ويلقيها على عاتق الأجانب فقرر في ١٨ نوفمبر سنة ١٨٧٦ تعيين السير « ريفرز ولسن »

الهيئة النيابية الثانية

انتخابات سنة ١٨٧٠

كانت أول انتخابات لمجلس شورى النواب في سنة ١٨٦٦ فلما انتهت السنوات الثلاث أجريت انتخابات جديدة للهيئة النيابية الثانية في أوائل سنة ١٨٧٠ وفي أول فبراير سنة ١٨٧٠ افتتح الخديو دور الانعقاد الأول بالقلعة كالمعتاد وانتهى في ٣١ مارس سنة ١٨٧٠

دور الانعقاد الثاني

١٠ يونية سنة ١٨٧١

افتتح هذا الدور في الصيف متأخراً عن مياعده بنحو ستة أشهر وجاء الخديو من مصيفه في الاسكندرية لافتتاحه . ونظر المجلس في الميزانية وانتهى دور في ١٦ أغسطس سنة ١٨٧١

ثم مر عام سنة ١٨٧٢ دون أن ينعقد فيه المجلس .

الدور الثالث

٢٦ يناير سنة ١٨٧٣ - ٢٤ مارس سنة ١٨٧٣ .

وقد افتتح الدور كالمعتاد وبمبحث المجلس في مشروع سكة حديد السودان ونظر الميزانية .

وقف الحياة النيابية سنتين

ويظهر أن الارتباك المالي في سنتي ١٨٧٤ و ١٨٧٥ حال دون انعقاد المجلس فيهما . وكانما كان وقف المجلس هاتين السنتين هو لتحضيره للقيام بالدور الخطير الذي قدر له أن يلعبه في قضية مصر بعد أن تجمعت ذئاب المرابين حول سيد البلاد .

ولا تنس العوامل الفكرية التي ظهرت في هذا العهد كانتشار الصحف وحملاتها على السياسة الاستعمارية وهبوط الفيلسوف السيد جمال الدين الأفغانى أرض مصر واجتماع أهل العلم به وظهور آثار النهضة العلمية والأدبية بأبهى مظاهرها مما كان له أثر كبير في تطور الأفكار .

والمسيو « دوبلينير » مراقبين ماليين مع تحديد سلطاتهما التنفيذية . ولكن الحكومة البريطانية رفضت ما اقترحه من التوسع في استخدام الأجانب في الأعمال التنفيذية ورشحت الماجور « بارنج » (لورد كرومر فيما بعد) لتمثيلها في لجنة الدين (في مارس سنة ١٨٧٧) وفي أغسطس سنة ١٨٧٨

المجلس يعقد اجتماعاً غير عادي

في طنطا

وبعد انقضاء أكثر من عامين دعى المجلس لعقد جلسة غير عادية في أغسطس سنة ١٨٧٦ بمدينة طنطا التي وقع عليها الاختيار بمناسبة قيام المولد الأحمدي . وكان الغرض من الاجتماع البحث في قانون المقابلة وهل يجري أو لا يجري العمل به . ولم يحضر الخديو افتتاح المجلس ولا تليت خطبة العرش ورافق الأعضاء على استمرار العمل بقانون المقابلة المذكور مع أن مرسوم ٧ مايو سنة ١٨٧٦ قضى بوقف تنفيذه .

الهيئة النيابية الثالثة

الدور الأول

نوفمبر سنة ١٨٧٦ — مايو سنة ١٨٧٧

في ٢٣ نوفمبر سنة ١٨٧٦ أفتتح الخديو اجتماع المجلس وكان بصحبه الأمير محمد توفيق وزير الداخلية والأمير حسين كامل وزير المالية والأمير حسن باشا وزير الحربية وشريف باشا وزير الحقانية والخارجية وتليت خطبة العرش فأشارت إلى اجتماع طنطا وحضور المستر غوشن والمسيو جويير وعرضت لمسألة تسوية الديون .

والمهم في هذه الخطبة أن اسماعيل عملاً بسنة التدرج في ترقية المجلس ورفع مستواه جعل له حقاً ثابتاً في الاشتراك في إدارة شؤون الحكومة وتصريفها وذلك باعلانه أن ابقاء المقابلة مبنى على قرار مجلس شورى النواب في اجتماع طنطا . مما يدل على أن الرجل كان ميالاً بفطرته إلى الشورى وأنه كان يرى من نفسه حافزاً يحفزه لتوسيع العمل بها في بلاده .

ثم انتهى الدور في ١٦ مايو سنة ١٨٧٧

الدور الثاني

مارس سنة ١٨٧٨ — يونيو سنة ١٨٧٨

في ٢٨ مارس افتتح الخديو اجتماع المجلس بخطبة العرش وانتخب لرأسه المجلس =

اجتمع مندوبو الدول في لجنة الدين والمراقبان وغيرهم بصفة لجنة تحقيق وأصدروا تقريراً انتقدوا الحكومة فيه أشد انتقاد وطالبوا بادخال عدة اصلاحات . فرد اسماعيل على هذا التقرير بأنه سوف يحكم البلاد من الآن فصاعداً كأمره بتعيين « ولسن » لوزارة

== جعفر مظهر باشا حاكم دار السودان سابقاً بدلاً من قاسم رسي باشا المتوفى ولم ينظر المجلس في الميزانية لأنها لم تكن وضعت بعد انتظاراً لنتيجة مباحث لجنة التحقيق .

الدور الثالث

يناير سنة ١٨٧٩ - يولية سنة ١٨٧٩

هذا هو آخر أدوار الانعقاد في عهد اسماعيل . فقد افتتح في يوم الخميس ٢ يناير سنة ١٨٧٩ بعد أن بلغ التدخل الأوربي مبلغه في شؤون مصر المالية وبعد أن شكلت وزارة نوبار المختلطة في أغسطس سنة ١٨٧٨ وجاءت لمواجهة المجلس في دور انعقاده الثالث هذا .

واقدم استبشر الناس خيراً باجتماع المجلس وراحت الصحف تستثير حماسة الشعب وتلهب شعوره الوطني بما كانت تنشره بأقلام قادة الأفكار الوطنية .

وافتح الاجتماع وحضره الخديو يصحبه توفيق باشا والأمير حسن باشا ونوبار باشا والسير ريفرز ولسن والمسيو دوبلنير وراتب باشا وزير الحرية ورياض باشا وزير الداخلية وعلى مبارك باشا وزير المعارف .

وتليت خطبة الافتتاح فكانت أقصر خطبة وهي تترجم في إيجازها عما كان يجول في صدر اسماعيل العظيم من روح التضجر والتبرم بسبب أعمال المرابين الأجانب . وما هو نص تلك الخطبة :

« أبدى لكم ممنونيتي من اجتماعكم بهذا المجلس وأخبركم أن سبب اجتماعكم هو أن نظار حكومتى سيتندا كرون معكم في بعض مسائل مالية وأشغال داخلية . فترجو من المولى الكريم أن تتم المذاكرة في ذلك على أحسن حال والله الموفق للصواب . »

ومع أن خطبة العرش كانت في غاية الإيجاز فان الرد عليها كما دون في مضبطة ٦ يناير سنة ١٨٧٩ جاء مطولاً وسامياً . وقد نوه فيه النواب بفضل اسماعيل في تشييد الحياة النيابية وإبلاغها المستوى الذى وصلت إليه من تشكيل مجلس وزراء أصبح مسؤولاً أمام الأمة .

المالية و « دوبرنيير » لوزارة الأشغال في وزارة مسؤولية. وقد عمل ولسن بدوره على تخفيف الضائقة المالية بالحصول من بيت آل روتشيلد على قرض بمبلغ ٨٠٠٠٠٠٠٠ ر. ٥٠٠ جنية بضمان أراضى الأسرة الخديوية التى سبق أن فصلها اسماعيل عن أملاكه الخاصة .

جواب تاريخى للمجلس

وكانما أراد الأعضاء أن يستبقوا الحوادث فجعلوا يخطبون اسماعيل بلفظة «صاحب الجلالة» متخطين لقبه الرسمى وهو «صاحب السمو» . ولما كان بعض خصوم اسماعيل أرادوا أن يظهروا للملأ بأن مجلس شورى النواب هذا لم يكن إلا ألعوبة رأينا أن نثبت جوابه التاريخى على خطبة العرش . وها هو بنصه :

« نحن نواب الأمة المصرية ووكلاؤها ، المدافعون عن حقوقها ، الطالبون لمصلحتها ، التى هى فى نفس الأمر مصلحة الحكومة ، نرفع إلى مقام الحضرة الخديوية الفخيمة الشكر الجميل ، حيث عنيت بتشكيل مجلس شورى النواب ، الذى هو أساس المدنية والنظام ، وعليه مدار العمران ، وهو السبب الموجب لنوال الحرية التى هى منبع التقدم والترقى ، وهو الباعث الحقيقى على تلك المساواة فى الحقوق ، التى هى جوهر العدل وروح الأنصاف .

« ونكرر الشكر لهذه الحضرة الجليلة حيث شكلت مجلس وزارة جعلته مسؤولاً كافلاً أمام الأمة تأييداً لمجلس النواب ، وتتميماً له ، ولذلك حينما تعلقت إرادتها السامية بأن ينظر الوزراء فى أمور المالية والأشغال الداخلية ، دعت نواب الأمة ليتداولوا معهم فى ذلك ، حفظاً لحقوق الرعية ، ومصلحة الحكومة .

« وإنا نبث أيضاً عن الأمة عموماً ، وعنا خصوصاً ، مزيد الثناء على هذه الحضرة المعظمة ، لما تعطفت به من تشریف ركبها الرفيع لافتتاح هذا المجلس احتفالاً به فى يوم ستجنى الأمة من غرسه ثمار الرفاهية والراحة .

« ونعلن من صميم الفؤاد سرورنا وكال ابتهاجنا بما تشرفت به مسامعنا من خطاب جلالتمكم الذى أنبأ عما انطوت عليه تلك السريرة الطاهرة الزكية من الميل الغريزى إلى إصلاح الأمة المصرية ، والرغبة الخالصة فى صعودها على معارج التقدم وترقيتها إلى ذروة السعادة ونيلها الحرية فى تصرفاتها قولاً وفعلاً حيث أبانت عظمتكم أن الغرض =

ولا ريب في أن الخديو بتعيينه وزيرين أجنبيين وقبوله أن يكون أميراً دستورياً قد رهن آخر وديعة بقيت له ألا وهي نفوذه الشخصي . ولكنه لم يكن ينوى حقيقة أن يتنازل عن النفوذ بل كان مراده أن يلقى على عاتق الوزيرين الأجنبيين تبعة الرفض المنتظر في الخارج وتبعة

من اجتماع هذا المجلس هو المذاكرة مع نظار حكومتكم في المسائل المتعلقة بالمالية والأشغال الداخلية ، فبعث فينا ذلك الخطاب روح العصر الجديد ، وأحيا آمال هذه الأمة التي لا تزال راجية أن تنال شرفها التليد الذي شهدت به التواريخ وأنبات به الآثار بمساعي الحضرة الخديوية وهمها العلية .

« وإنا لانألو جهداً في دقة النظر والعناية بما فيه منفعة الوطن ومصصلحة الحكومة قياماً بأداء واجباتنا التي هي في الحقيقة مقاصد ولي النعم .

« فليحي الخديو المعظم وأنجاله الكرام ولتحي الحرية تحت ظل رعايته وحمايته آمين . »

فهذا الخطاب التاريخي وهتاف الأعضاء للخديو وللحرية ، وإشارة النواب إلى تأليف الوزارة المسؤولة أمام الأمة ، مما يعد تأييداً لمجلس النواب ، وتخطي الأعضاء لقب « صاحب السمو » ومخاطبتهم الخديو بلفظ « جلالتم » مما يدل على رغبة عميقة في الوصول بمصر إلى مراتب الدول المستقلة وعلى رأسها ملك يلقب بصاحب الجلالة ، نقول إن هذا الخطاب يبين لك سمو روح النواب وقتئذ ومبلغ ما كان يساورها من الآمال في الوصول بالبلاد إلى أسنى المراتب . وهو لعمر كخطاب تاريخي يصح أن يظل محفوظاً كصفحة مجيدة في سجل الجهاد القومي لما يتضمنه من الروح الوطني السامي .

أعمال المجلس

الاصطدام بالسير ريفرز ولسن

ولما كان هذا الدور هو آخر أدوار الانعقاد في عهد اسماعيل ونظراً لأن أهم الحوادث قد وقع في أثنائه رأينا ألا نمر سراعاً بأعماله كما فعلنا في الأدوار الماضية بل أن نلجأ إلى شيء من التفصيل .

فلقد عنى المجلس بالشؤون المالية إذ وقف محمود بك العطار بجلسة ٥ يناير سنة ١٨٧٩ ونبه الحكومة إلى أن أغلب الأعضاء يريدون فتح بعض المسائل للبدالة فيها وأنهم كتبوا للوزارة بذلك طالبين منها عرض بياناتها ومشروعاتها ، وأنهم طلبوا تحرير

تخفيض المصروفات وزيادة الإيرادات في الداخل وقد سلك الوزيران المذكوران مسلكاً مساعداً على تحقيق هذه الغاية فقد نسبا كل المتاعب إلى هؤلاء الشخصى وفاتهما أن هذا النفوذ هو ضمانيهما الوحيد للبقاء في

== استعجال لأرسال مشروعات المالية والأشغال الداخلية التي يقتضى النظر فيها . ولكن وزارة المالية - وكان يتولاها السير ريفرز ولسن وقتئذ - تلكأت في الرد وتعللت بعدم الانتهاء من تحضيرها وأنها مهتمة باتمامها .

أما وزارة الأشغال ووزيرها المسيو دوبلنير فانها أسرعت بأرسال تقريرها وطلبت اشتراك المجلس معها في بحثها . وحضر المسيو دوبلنير بعض الجلسات وتداول مع النواب فكان بذلك أقل خشونة من زميله السير ريفرز الذي لم يشأ الحضور إلى المجلس ، بل اقترح إرسال بعض النواب إلى وزارة المالية للاسترشاد بمعلوماتهم وتجاربهم ولمفاوضتهم في بعض الشؤون المالية .

ومع أن النواب غضبوا لهذا المسلك فقد اقترح محمود بك العطار إرسال خمسة نواب على ألا يتقيد المجلس بأعمالهم وأقوالهم بل عليهم أن يعرضوا على المجلس بكامل هيأته ما يرونه ويسمعونه من ناحية الوزارة .

ولبث المجلس ينتظر مشروعات وزارة المالية فلم تصل ، مما جعل عبد السلام بك المويلحي يثير المسألة في جلسة ٢٦ محرم وطلب استعجال إحضارها . ثم تأخر السير ريفرز في إرسالها مما جعل سبعة عشر نائباً يتقدمون إلى المجلس بإبداء السخط على هذا التلكؤ مع مضي عشرين يوماً على افتتاح المجلس .

وأخيراً استقر رأى المجلس على وجوب حضور السير ريفرز ولسن لمناقشته . ولكن هذا تباطأ وظهرت نيته في الامتناع عن مواجهة المجلس . ولذا صمم الأعضاء على المناقشة في غيبته فيما عرضه النواب من المشروعات المالية وأهمها تخفيض الضرائب والغاء بعضها بعد أن بلغت نحو ٣٥٠ - ٥٥٠ قرشاً في السنة عن الفدان الواحد .

وأرسل المجلس بصورة من هذه المشروعات إلى وزارة الداخلية وانتظر ردها . ومما يدل على شدة نشاط النواب أنهم قرروا نقل مكان الاجتماع من القلعة إلى داخل المدينة وطلب أحدهم تكليف حكيمباشى المديرية بالكشف على العضو الذي يعتذر بالمرض عن حضور الجلسات .

واحتج المجلس في جلسة ١ صفر على إغفال اسمه في مرسوم ٦ يناير سنة ١٨٧٩ =

مركزيهما ولذا رأيا أن يسهلا مهمتهما الإدارية بإبعاد الخديو عن أعمالهما. وكان أكبر معضدهما في هذه السياسة نوبار الأرمني وهو الذي شجع عباس من قبل على المغالاة في الأعمال الرجعية كما شجع اسماعيل على المغالاة في

== الخاص بتحويل لجنة التحقيق الأوربية حق وضع مشروعات القوانين للبلاد ومن ثم تصبح نافذة بعد عرضها على مجلس الوزراء والتصديق عليها من الخديو بدون حاجة إلى عرضها على مجلس النواب . وقد طالب المجلس بأن يطلع على هذه المشروعات قبل إقرارها وتنفيذها لأنها من أخص شؤون الأهالي ومن المسائل التي أصبحت بمقتضى خطاب العرش من حقه الخوض فيها .

ودوت قاعة المجلس بالتصفيق والهتاف لهذا الاحتجاج الذي اقترحه عبد السلام بك المويلحي ومحمود بك العطار ووافق عليه بالأجماع وتقرر طلب دعوة رئيس الوزراء للحضور أمام المجلس للمفاوضة معه بشأنه .

وفعلا حضر نوبار في جلسة ١٤ صفر وقدم احتراماته للمجلس فشكره الأعضاء . ثم أدلى ببيان مبهم محاولا التهرب من بحث الموضوع إذ قال إن الموضوع الذي أثاره المجلس سياسى يقتضى البحث فيه في مجلس الوزراء ثم عرضه على ولي النعم وأنه ما كان يتردد في الأجابة لو كان الأمر خاصاً بالداخلية أو المالية أو الحقانية أو الأشغال . ووعده بعرض هذه المسألة الدستورية على مجلس الوزراء .

ثم ظل يداور المجلس إلى أن قام عبد السلام بك المويلحي بخطب مؤيداً حقوق المجلس وقال إن المسألة نظراً لأنها سياسية فهى إذن أدعى إلى عدها من حقوق المجلس . ولكن نوبار تهرب بمهارته المعروفة وغير مجرى الحديث بالخوض في ترتيب المحاكم واختيار الأشخاص اللائقين لتوليتهم مناصب القضاء ، وطلب إلى المجلس مساعدته على اختيار من تتوفر فيهم صفات العفة والصدق والحرية .

وتبين للمجلس فيما بعد أن نوبار إنما كان يرمى إلى اكتساب الوقت عند ما وعد بعرض المسألة الدستورية على مجلس الوزراء .

وأخذ التبرم بوزارة نوبار باشا يزداد يوماً بعد يوم كما مر بك . وساعد على نمو هذا التبرم تعطيل جريدتى التجارة لأديب اسحاق والوطن لميخائيل عبد السيد لموقفهما الوطنى ثم وقوع ثورة الضباط التي انتهت بسقوط الوزارة على نحو ما ذكرناه .

الأسراف فكان مسلك نوبار على حد ما جاء في أحد الأمثال التركية إذ يقول (إذا ولي الصدارة العظمى أرمنى فابشر بالخراب العاجل) وقد كان نوبار في نظر المصريين أجنبيا بقدر ما كان ولسن. كما أن ولسن أو دوبلنيير

== ثم كان ما كان من تشكيل وزارة توفيق باشا وذهاب رياض باشا لمجلس النواب في يوم ٢٧ مارس سنة ١٨٧٩ لتلاوة أمر الانقضاء وإصرار المجلس على استمرار جلساته بعد الرد البليغ الذي رد به النائب محمد راضى حيث شكر سعادة الوزير وأخبره بأنه لا يمكن صرف المجلس إلا إذا نظر في المسائل التي حرر عنها إلى الوزارة وفي الميزانية .

وإلى هذه الجلسة التاريخية أشار مراسل التيمس في القاهرة إذ كتب إلى صحيفته بين لها فائدة هذا البرلمان للشعب فقال كما رواه المستر رودستين :

« ينبغي ألا ننظر بعين الازدراء إلى البرلمان ، بعد ما أظهره النواب من دلائل الحياة العديدة والجنوح إلى الاستقلال في الرأي . وليس هذا بالأمر العديم الأهمية . »
وتلا هذا تقديم عريضة النواب للخديو في ٢٩ مارس سنة ١٨٧٩ بالاحتجاج على مسلك الوزارة التوفيقية وامتئانها لحقوق المجلس وعقد الجمعية الوطنية في دار البكرى والمطالبة بتشكيل وزارة برآسة شريف باشا وتشكيل هذه الوزارة فعلا وابتهاج الشعب بها وتقديم اللائحة الأساسية (الدستور) والوعد بتقديم اللائحة الانتخابية فيما بعد .

دستور سنة ١٨٧٩

فاذا ذكر الذاكرون الحياة النيابية ومنشأها وتطورها في مصر من مجرد مجلس شورى النواب المتواضع المقيد السلطة إلى مجلس نواب عام يكون بنفسه جمعية تأسيسية تتولى وضع الدستور - نقول إذا ذكر الذاكرون ذلك فأخلاق بهم ألا ينسوا ما لاسماعيل من اليد البيضاء والفضل الأ كبر في هذا كله . فدستور سنة ١٨٧٩ هو أول دستور يصح أن يقال إنه وضع « على أحدث المبادئ العصرية » . وإذا لم يكن قد صدر به مرسوم خديوى فهو مع ذلك دستور ويعتبر تقديم الحكومة إياه للمجلس مباشرة لأقراره مبالغة منها في التعظيم من اختصاص المجلس وحرصها على رفعة شأنه .

وبمقتضى دستور سنة ١٨٧٩ أصبح للمجلس سلطة البرلمانات العصرية وأساسها حق إقرار القوانين وإقرار الميزانية وجعل الوزارة مسؤولة أمامه .

لم يختلفا في شيء عن هذه الحشرة الأرمنية التي سممت ونمت على حساب مصر . ولم يكن هذان المراقبان ومن معهما من مندوبي الدائنين في نظر المصريين إلا كالرخم التي حطت على الجيفة بعد أن انتزع عينيها قناصو الامتيازات ومن عداهم من غربان الجيف .

== وما يلفت النظر في هذا الدستور انه خول أهالى السودان حق انتخاب ممثلين عنهم في مجلس النواب أسوة بسائر سكان مصر . وهذا يدل على مارمى إليه المشرع من ربط القطرين ربطاً لا انفصام له .

وقد جاء الدستور الجديد في نحو ٤٩ مادة وهو يختلف اختلافاً كلياً عن لائحة مجلس شورى النواب الذى أنشأه اسماعيل فى بداية حكمه . ومن أهم أحكام هذا الدستور جعل كل نائب وكيلا عن الأمة لا وكيلا عن دائرته الانتخابية فحسب . وإطلاق الحرية للنواب للتكلم فى الشؤون العامة دون خوف من وعيد ، وحل مجلس النواب إذا اختلف مع الوزارة ولم تستقل هذه ، بشرط إجراء انتخابات جديدة فى خلال أربعة شهور من يوم انقضاؤه إلى يوم اجتماعه ، فان أيد المجلس الجديد رأى المجلس المنحل وجب تنفيذ رأى البرلمان . وترك أمر انتخاب رئيس المجلس ووكيليه إلى هيئة المجلس نفسها ، وتقرير علنية الجلسات ، وجعل مكافأة النائب عشرة آلاف قرش سنوياً ، مع العلم بأن دور الانعقاد هو من أول كيهك إلى برمهات (أى من ديسمبر - مارس) وتحريم الجمع بين وظيفة حكومية وعضوية المجلس ، والسماح لأى مصرى حائز لحقوق الانتخاب أن يعرض على المجلس بواسطة أحد النواب ما يراه من الاقتراحات ، ووجوب عرض جميع اللوائح والقوانين والمنشورات الجارى العمل بها فى الحكومة فى أول اجتماع للمجلس للنظر فيها وتنقيحها وإصدار قرار فيها ثم عرضها على الخديو للتصديق عليها ، ولا يصبح القانون معمولاً به إلا إذا وافق عليه مجلس النواب بنداً بنداً ، وللنواب حق تعديل وتنقيح وتغيير أى قانون ومن ضمنها هذه اللائحة الأساسية (مادة ٢٧ - وهذا أساس من أهم الأسس التى قام عليها دستور سنة ١٨٧٩) . ولا يعاد للمجلس فى أثناء دور انعقاده فى تلك السنة قانون رفضه مجلس النواب . وقد قررت المادة ٣٦ مبدأ مسؤولية الوزارة أمام مجلس النواب والتنبية إلى وضع قانون محاكمة الوزراء وعرضه على مجلس النواب ، كما خولت المادة ٦٤ للنواب حق طلب تقديم الميزانية العمومية المستوفية (الأيرادات والمصروفات) إلى المجلس عقب افتتاح الدورة ، وتركت المادة ٤٨ ==

على ان الأمر الذى يدعو حقا إلى الدهشة هو أن آلام المصريين وبؤسهم لم يدفعهم إلى الثورة ضد ظالمهم أجنب كانوا أم مصريين . فقد كان الأجنب يتناولون مرتباتهم ويتمتعون بالمعيشة وسط جالياتهم التى لا تسرى عليها قوانين البلاد دون أن يدفعوا مليا واحداً من الضرائب . كذلك فعلت الطبقة العليا (التركية) فقد كان همها جمع إيجارات أملاكها

== لمجلس النواب وحده حق تفسير أى إبهام فى مواد الدستور .

عدم صدور الدستور

ويشاء حظ مصر العاشر ألا يصدر المرسوم الخديوى بهذا الدستور العصرى لأن الدول الأوربية كانت اثمرت بالخديو اسماعيل مما انتهى بمأساة تنازله عن العرش وجلوس ولى عهده الأمير توفيق باشا على الأريكة وإصدار دستور ٧ فبراير سنة ١٨٨٢ مكان دستور سنة ١٨٧٩ . وبدى أن الدستور الجديد كان أكثر تقييدا لأنه وضع وشبح الثورة العرابية والاحتلال البريطانى يبدو للعيان .

ويمكن أن نجمل عهد اسماعيل من الناحية النيابية فى هذه الجملة البسيطة . وهى أن اسماعيل رأى البلاد محرومة من التمثيل النيابى فانشأ فى بداية عهده مجلس شورى النواب الذى ظل يتزعرع تدريجاً ويحصل مع تقدم الزمن وارتفاع مستوى الأمة الأدبى على حقوق جديدة إلى أن كانت خاتمة المطاف وضع دستور سنة ١٨٧٩ الذى يعتبر بحق أرقى دستور عصرى عرفته مصر . أليس فى كل هذا ما ينطق بفضل ذلك الخديو العظيم ؟

عود إلى وزارة شريف باشا

نعود الآن إلى وزارة شريف باشا ونذكر كيفية اصطدامها بالدول . فقد قلنا إن باكورة أعمالها كانت إقرار مجلس شورى النواب على استمرار انعقاده وما ترتب على ذلك من سن دستور سنة ١٨٧٩ .

هذا من الناحية الداخلية أما فيما يختص بموقف الوزارة إزاء الدائنين ووكلائهم فان الدوائر الأجنبية لافرق بين السياسة منها والمالية أثار ثأرها استعمال الخديو لحقه باقالة الوزيرين الأجنيين لاعتقادها أنه أصبح لها حق مكتسب بادماج وزيرين أوربيين فى الوزارة المصرية . ولذا بدأت تناوى الوزارة الجديدة .

وتشبهت بالأجانب في عدم دفع الضرائب . ولقد استطاع الخديو ان يجمع إيراداً بلغ في سنة ١٨٧٨ مليوني جنيه . وهذه الأموال جمعت من الفلاحين طبعاً برغم سوء حالهم . ولقد تسرب إلى جيوب الدائنين الأجانب من التسعة الملايين جنيهات التي انتزعت من هؤلاء الفلاحين التعساء في

محاولة عرقلة أعمال الوزارة

ففي يوم ٨ ابريل رفض السير بارنج والمسيو بليج دي بوجاس (عضوا صندوق الدين) قبول منصب المراقبين مؤقتاً حتى يرد رد حكومتهم . وفي يوم ١٠ منه رفعت لجنة التحقيق استقالتهما الأجماعية إلى الخديو وكانت حجة الجميع أن الاصلاحات المالية لا يمكن تنفيذها إلا بتمثيل العنصر الأوربي في الوزارة المصرية ! ثم سرت روح الأضراب بين كبار الموظفين الأجانب في الحكومة كالمستر فترز جرد مدير حسابات الحكومة والمسيو بلوم وكيل وزارة المالية والسير أوكند كولفين مدير المساحة . أما رياض باشا وكيل اللجنة فقد عزل من منصبه .

ولسنا في حاجة إلى الأسباب بأن موقف لجنة التحقيق إزاء الوزارة الشريفة إنما قصد به الأحرار ليس غير . لأن الوزيرين المذكورين لم يدخلوا الوزارة بصفة دائمة كلا بل كان بناء على اتفاق بين الخديو وبين حكومتى انجلترا وفرنسا بوقف العمل بنظام المراقبة الثنائية مؤقتاً على أن يستأنف عند عزل أحد الوزيرين بدون موافقة حكومته . وقد صرح السير ستافورد نورثكوت وزير المالية الانجليزية بهذا كما مر بك . وهو أيضاً ما قاله وزير خارجية فرنسا المسيو وادنجتون في رسالته إلى القنصل الفرنسي بمصر بتاريخ ١٦ نوفمبر سنة ١٨٧٨ فقد جاء فيها : « طبقاً للاتفاق المبرم بين فرنسا وانجلترا ومصر بتاريخ ١٤ اكتوبر الماضى قد أوقف العمل بنظام المراقبة الثنائية ولكن على شرط إعادته حتماً إذا عزل أحد الوزيرين الفرنسى أو الانجائزى من منصبه من غير موافقة دولته » .

فحق اسماعيل في إقالة أحد هذين الوزيرين أو كليهما معاً كان حقاً مقررأ ومعترفاً به . ولم يكن ثمة ما يدعو إلى التخوف من تشكيل الوزارة الشريفة لأنها لم تنقض تعهدات الخديو بل كانت هي التي اقترحت إعادة العمل بالمراقبة الثنائية طبقاً للاتفاقات السابقة . ولكن لجنة التحقيق ظلت سادرة في تعنتها . فلم يسع الخديو إلا قبول استقالة أعضائها .

سنة ١٨٧٨ مبلغ لا يقل عن السبعة ملايين جنيه . ولم يكن بوسع الفلاح طبعاً أن يدفع إلا ما يتناسب مع ما يملكه . وكان العمدة يجوب قرية شاهرأ كرجاه في يده وبصحبه المرابي اليوناني . وإذا كانت يد الفلاح خالية من الأصفر الرنان - كما كانت حالتهم وقتذاك - لم يكن بد من انتزاع أثاث داره والاستيلاء على المخزون من تقاوى قمحه لا بل حتى ملبوساته جردوه منها . ولم

مرسوم ٢٢ ابريل

لتسوية الديون

ولعل أبلغ دليل على هذا التعنت الرسالة التي بعث بها المسيو وادنجتون إلى القنصل الفرنسي العام في مصر بتاريخ ٢٥ ابريل سنة ١٨٧٩ إذ قال مشيراً إلى المشروع المالي الذي تضمنته اللائحة الوطنية « إنه لا يختلف في النقط الجوهرية عن مشروع السير ريفرزولسن . » وقد قلنا إن لجنة التحقيق لم تقدم تقريرها الذي أعلنت فيه افلاس البلاد إلى الوزارة لأنها لم تكن شكلت بعد بل رفعت إلى الخديو . فلما تشكلت الوزارة وتسلمت التقرير ردت عليه بالمشروع الوارد في اللائحة الوطنية . ولكن لورد كرومر قال إن المشروع المذكور يستحيل تنفيذه لأنه يتضمن اقتراحاً بتخفيض الفائدة على الديون من ٦ ٪ إلى ٥ ٪ مع الأمل باستئاف الدفع بسعر الفائدة الأعلى في المستقبل القريب ، هذا إلى إغفال ذكر مخصصات السراى مع أن تقرير اللجنة حددها .

وفي يوم ٢٢ ابريل أصدر الخديو مرسوماً افتتحه بقوله « بناء على المحاضر والتقارير التي عرضت علينا من الأمة وما عرض من مجلس النظار أصدرنا أمرنا بموافقة واجراء تسوية ديون الحكومة على الوجه الآتى الخ

وفي هذا إشارة صريحة بأن نية الخديو باتت منعقدة على العمل بمشروع اللائحة الوطنية . وقد رأى الدائنون في اغفال ذكر مخصصات السراى تحدياً صريحاً لحكومتى انجلترا وفرنسا لأنهم اعتبروه بمثابة عودة اسماعيل إلى عهد السلطة المطلقة . وإذا ذلك احتج أعضاء صندوق الدين على المرسوم ورفعوا على الحكومة قضية أمام المحاكم المختلطة .

مساعى شريف لطمانينة الدائنين

وكان شريف في أثناء هذا يبذل كل ما فى وسعه لطمانينة الدائنين من ناحية القوانين التي يراد إصدارها . ففي يوم ٢٣ ابريل استصدر مرسوماً بإنشاء «مجلس شورى الحكومة» مهمته وضع مشروعات القوانين على أن تكون غالبية أعضائه من الأجانب .

يكن ما يعثرون وقتئذ عليه من ذهب سوى ثمن حلى نسائه .
ولقد كان الموظفون البريطانيون من الأمانة بحيث أنهم رأوا أن من
الشجاعة أن يرفعوا عقيرتهم منبهين إلى أن رفض الدفع والأصلاح لامناص
منهما خدمة للشعب . وقد أغضبتهم جد الغضب عملية قتل الأوزة التي
تضع البيض الذهبي بانتزاع ريشها وهي على قيد الحياة واعتبروها عملية
وحشية من جهة وغير رابحة من الجهة الأخرى ولكن الدائنين الفرنسيين

أول إنذار من إنجلترا

ولكن حكومتى إنجلترا وفرنسا أصرتا على موقف الرفض . وفي يوم ٢٥ أبريل
تسلم السير فرانك لاسلز القنصل البريطاني العام من لورد سلسبرى ما يصح أن يسمى
أول إنذار بريطاني للخديو . وهو كما يأتي :

« إن سمو الخديو يعلم حق العلم أن الاعتبار التي حملت حكومة جلالة الملكة على
الاهتمام بمصائر مصر قد دفعتها على الاتبع سياسة أخرى عدا تنمية موارد البلاد وحكمها
حكما صالحا . وقد كانت حكومة جلالته ترى إلى هذه اللحظة أن استقلال الخديو والاحتفاظ
بأسرته من أهم الشروط التي تكفل تحقيق هذه الغاية . وقد تثبتت حكومة جلالته من أن
هذه الأحاساس هي أيضاً إحسانات الحكومة الفرنسية . ولهذا كله نرجح أن القرار
الذي تعجل سموه بأخذه سواء فيما يختص بسياسة الإصلاح في المستقبل أم في الموقف
الذي ينوي وقوفه إزاء الحكومتين ليس قرارا نهائياً . »

ثم راح وزير الخارجية يخبر قنصله بأن يوضح لسموه بأنه إذا استمر على رفض
« مساعدة الوزيرين الأجنيين اللذين قد تقترح الحكومتان وضعهما تحت تصرفه ، فإن
إنجلترا وفرنسا تشعران إذن بأن لهما مطلق الحرية في التفكير في « الترتيبات التي
تكفل رخاء البلاد وحكمها حكما صالحا . »

شريف يهدد بالاستقالة

فلما أطلع القنصلان الخديو على موقف حكومتيهما كما أشار إليه اللورد سلسبرى
أجابهما اسماعيل بأن ليس في مقدوره اجابة الطلب نظرا لتنهيج الرأي العام . وأصر
شريف على الرفض وهدد بالاستقالة إن سلم الخديو بمطالب الدول وأعاد الوزيرين .
وقد ظاهر الخديو شريف وأيده في موقفه . وهنا اشتدت الأزمة واستحكمت حلقاتها
وأخذت الدول تفكر في التخلص من الخديو وحمله على التنازل عن العرش .

لم يشاطروهم هذا الراى بل اعتقدوا أن اسماعيل لا تزال لديه كنوز مخبوءة . ولقد كان ممثلوهم تحت سلطة حكومتهم التي كانت رهن إشارة دائئى مصر . وكان الموقف فى مؤتمر برلين وخاصة بعد إفشاء نبأ الأتفاق الذى عقده دزرائيلى خلسة فى صدد قبرص بحيث يجعل إظهار المقاومة للسياسة الفرنسية فى مصر عملاً منافياً للحكمة السياسية . لذلك لم يكن يستطيع عمل أى شئ سوى الحصول على الأيراد مع تخفيض المصر وفات بشكل ما .

الخدو يچس نبض السلطان

ويرجح أن الحكومة الأنجلیزیه بعثت إلى جلالة السلطان بصورة من إندارها السابق الذکر . لأن أوربا كانت تعرف وقتئذ أن ليس فى وسعها مس الخديو بسوء إلا بموافقة السلطان . ومن هنا بدأ الفريقان یجسان نبض الاستانة .

وفى أول ما یو سنة ١٨٧٩ بعث اسماعیل إلى مندوبه فى الاستانة ابراهام بك الأرمى مذكرة لعرضها على الصدر الأعظم . وقد تضمنت الرسالة وجهة نظر الخديو وكيفية تشکيل الوزارة المختلطة . وقد جاءت بین محتويات المذكرة هذه الفقرة البارزة :

« . . . وعلى عکس ما كان ينتظر منهما فان هذين الوزیرین - دوبرنييرو وولسن - خصصا وقتهما وجهودهما للسياسة بدلا من تخصيصهما للعمل . فلقد سعيا فى إبعاد الخديو من حكومته وأصرأ فى الوقت نفسه على تحميله المسؤولية . وبطريقة عرفية محضه أبعدا من خدمة الحكومة كل رجل ذى تجربة أو نفوذ . ثم إنهما لم يتورعا عن جرح الشعور القومى برفضهما الزى الوطنى وبظهورهما فى وزارتهما وفى الاجتماعات الرسمية متقبعين بدلا من لبس الطربوش التقليدى معلنين فى نفس الوقت أنهما وزیران أجنبيان فهما لهذا السبب غير مكلفين بمراعاة شعور العنصر التركى . وقد كانا قدوة احتذى حذوها كافة الموظفين الأجانب . وبمجرد تربعهما فى كرسى الوزارة شرعا فى عزل عدد كبير من الموظفين الوطنيين . وقد حاولا تسويغ تصرفهما هذا بحاجة الخزانة إلى الاقتصاد ولكنهما استبدلا أولئك المعزولين بموظفين أجانب بمرتبات فادحة . كذلك لجأت الوزارة المختلطة نفسها إلى تسريح الجزء الأكبر من الجيش بدون دفع المرتبات المتأخرة لرجالها وأصبحت مستحقة . وبالجملة فان الوزارة المذكورة فقدت ثقة الأمة على مختلف طبقاتها . »

وهو ما لم يكن ثمة من سبيل إلى تحقيقه إلا بفرض ضريبة على الطبقة المصرية الراقية وتسريح ضباط الجيش .

ولقد كان يستحيل طبعاً أن يوافق اسماعيل على اجراءات من هذا القبيل أملاها عليه موظفان أجنبيان في زى وزيرين مصريين . ولم تكن فى نيته الموافقة على هذا بتاتا فلقد كان لديه من الدهاء والحنكة الشرقية ما يجعله يترك الخنازير تقتل نفسها بنفسها .

وسرعان ما شرع يحرض الأعيان على المعارضة فى زيادة ضرائب

== ثم استطردت المذكرة فأشارت إلى ثورة الضباط فى ١٨ فبراير سنة ١٨٧٩ وكيف أنها أدت إلى سقوط وزارة نوبار ، ولكن الوزيرين ولسن ودوبلنير حملا حكومتيهما على إرغام الخديو على اشتراك نوبار فى الوزارة بعد تعديلها ومن ثم اضطرا توفيق باشا رئيس الوزارة الجديد على قبول رياض باشا ناظرا للداخلية . ثم ختمت المذكرة بقولها إن الامتياز قد بلغ أشده فى البلاد مما حمل توفيق على تقديم استقالته ومن ثم تسلم شريف مقاليد الحكم حيث قوبلت وزارته بمظاهر الارتياح العام فى كافة أنحاء البلاد .

وقد علق المستر كرايتس على هذه المذكرة التى عثر عليها فى محفوظات قصر عابدين بأنها وصفت مسلك الوزيرين الأجنبيين وصفاً صادقا . ثم شفع جنابه تعليقه هذا بملاحظات الصدر الأعظم عند ما وقع نظره عليها . وقد عثر أيضاً فى محفوظات السراى على هذه الملاحظات . قال نخامة الصدر :

« إن الوقت حان فعلا لحل الوزارة القديمة لأننى أستخلص من هذه المذكرة أن مسلك الوزيرين لم يكن إلا بمثابة احتلال أوربى ومحاولة لاغتصاب سلطة الخديو . وليس يسعنى إلا تقديم أخلص التهانى لسمو الخديو لنجاح مجهوداته . وإنى أقر النظام الحاضر إذ بواسطته يكفل سموه مستقبل البلاد . وعليه أن يبذل ما فى وسعه لصيانة ذلك النظام وستبذل حكومة جلالة السلطان كل تضحية وستعمل على تأييد الخديو إلى النهاية . »

ولا ريب فى أن هذه الرسالة المتضمنة رضا الصدر الأعظم عن سلوك اسماعيل كانت مصدر ارتياح كبير لسموه . فعمل على تعزيز مركزه بتشكيل ابراهام بأن يتشرف بمقابلة جلالة السلطان عند أول فرصة وأن يرفع إلى أسماعه الكريمة هذه العبارة :

الأراضي العشورية كما شجع الضباط على مقاومة أمر الأحالة على الاستيداع



البرنس بسمارك المستشار الحديدى

« عند ما تشككت وزارة نوبار لم يتورع عن إخبارنا بأن هذا النظام (أى نظام المسؤولية الوزارية) قد أدخل إلى مصر بقصد تجربته فان نجح طبق في بقية أنحاء الأمبراطورية العثمانية. نعم لقد بدأ ذلك النظام في مصر متكثراً على ذراع المالية ولكن السياسة هى غاية مرماه . » وليس شك في أن أطماع المرابين يضاف إليها تخوف الدول الأوربية من نمو الحركة الوطنية المصرية واشتداد ساعدها بعد أن رأت من اسماعيل نصيراً كل ذلك كان من شأنه استعجال الفصل الختامى من هذه المأساة .

ظهور بسمارك على مسرح السياسة المصرية

ذلك أنه بعد مرور عدة أسابيع على سقوط الوزارة الأوربية ظهر عامل جديد على المسرح السياسى وهو البرنس بسمارك . فان ذلك المستشار الجديد لم يكتف بما أحرزه من الفوز العسكرى ضد فرنسا بل أراد أن يكسب لألمانيا فوزاً سياسياً بزجها في غمار المسائل الدولية .

ثم كان أذ وزير الحرية أرسل يدعو نحو ٢٠٠٠ ضابط للحضور إلى القاهرة لسبب تافه. فلما هبطوها انضم إليهم نحو ٥٠٠ من زملائهم الساخطين في العاصمة وتآلفت من هذا الجمع مظاهرة استياء عجزت حامية القاهرة عن تفريقها. ولما جاء هؤلاء الضباط الحانقون ومعظمهم من الجراكسة ومن إليهم من شذاذ الناس يطالبون بمرتباتهم المتأخرة أحاطهم اسماعيل على «وزرائه» فكانت النتيجة الاعتداء على نوبار (كذا!) وما كادولسن يهرول

== فقد كلف قنصله في ١٨ مايو سنة ١٨٧٩ بأن يحتج للخديو على مرسوم ٢٢ ابريل باعتباره مرسوما باطلا وأن سموه لا يملك اصدار قوانين مالية تمس مصالح الأجانب دون موافقة الدول طبقا للأئحة ترتيب المحاكم المختلطة. فلما اطلعت الدول على وجهة نظر بسمارك بادرت بقبولها. ولذا رأينا قنصل النمسا في اليوم التالي (١٩ مايو) يقدم احتجاجا باسم دولته ثم تلاه القنصل الأنجليزي في ٧ يونية والقنصل الفرنسي في ١١ منه والقنصل الروسي في ١٢ منه والقنصل الإيطالي في ١٥ منه. فكان جواب شريف باشا على هذه الاحتجاجات أنه أرسل للقناصل صوراً من مرسوم ٢٢ ابريل للتصديق عليه فكان جوابهم الرفض.

خاتمة المسألة

الدول تطلب تنازل الخديو

ويظهر أن إنجلترا وفرنسا استشعرتا شيئاً من الخجل إذ رأتا ألمانيا وليست لها إلا مصالح ضئيلة في مصر إذا قيست بمصالحهما، قد سبقتهما إلى العمل الأيجابي. ولذا أرادت أن تبراها في ذلك الميدان. فلم تكتفيا بطلب إلغاء المرسوم المشار إليه بل طلبتا تنازل الخديو.

ففي يوم ١٩ يونية ذهب السير فرانك لاسلز قنصل إنجلترا إلى قصر عابدين ليبلغ الخديو الرسالة الآتية الواردة من لورد سلسبرى وهي:

« اتفقت حكومتنا فرنسا وإنجلترا على أن تشيرا على سموكم بالتنازل عن العرش ومغادرة مصر. فاذا ما أصغيتم سموكم إلى هذه النصيحة تعمل الحكومتان المذكورتان سويا على أن تضمننا لكم مخصصات سنوية لائقة وألا يحدث أى تغيير في نظام توارث العرش الذى يقضى بأن يكون الأمير توفيق باشا خلفا له. ولا ينبغي أن نخفى على سموكم =

إلى نجدته حتى أصابه ما أصاب زميله من المتجمهرين الذين ألقوا القبض عليهم وسجنوهما . هناك نزل اسماعيل من القصر وأطلق سراحهما فوراً .

— أنه في حالة رفض التنازل عن العرش أو إذا أرغمت حكومة لندن وباريس على مفاصلة السلطان رأساً فليس يسعكم الاعتماد على نيل المخصصات أو على صيانة نظام التوارث بحيث يكون الأمير توفيق خلفاً لكم .

فلما تسلم سموه هذا الأنداز طالب مهلة للتفكير في الأمر فأعطيت له مهلة ٤٨ ساعة . وفي يوم ٢١ يونية أبلغ الخديو قنصلي فرنسا وانجلترا أنه أحال المسألة إلى علم السلطان وأنه ينتظر أمره حتى إذا جاء الرد سيدعوهما للمقابلة لأخبارهما بالنتيجة إذ أنه لا يستطيع أن يتخلى عن تبعة حكم البلاد بدون أمر جلالته .

ويقول القنصل الأمريكي في رسالة بعث بها إلى حكومته وقتذاك إن القنصل الفرنسي تعيظ من هذا الرد الغير منتظر فسأل الخديو « منذ أي زمن كنتم سموكم الخادم المطيع للباب العالي ؟ » فأجابه الخديو فوراً « منذ ولادتي ياسيدي . »

ثم جاء قنصل المانيا والقائم بأعمال القنصلية النمساوية في اليوم التالي وطلباً تنازل الخديو وحذا حذوهما القنصل الأيطالي في اليوم التالي .

وذكر القنصل الأمريكي أن القناصل لجأوا إلى الضغط بل إلى التهديد لحمل الخديو على التنازل عن العرش قبل وصول جواب السلطان . وقد تهددوه في حالة الامتناع بحرمانه من المخصصات وبتولية عمه حلیم باشا .

وتستطيع أن تفهم أنه بينما كان الساسة يستخدمون مختلف الوسائل لحمل اسماعيل على التنازل عن العرش كان سموه على اتصال مستمر بمندوبه ابراهام بك . ففي يوم ٢٢ يونية تسلم الخديو برقية من مندوبه بأنه قد سمع من عثمان باشا بأن الصدر الأعظم أخبره أن جلالته السلطان قال له إن كل ما يتمناه ألا يحدث ما يكدر الخديو وأن على سموه اذن أن يقدم فوراً لجلالته وللباب العالي أي اقتراح تتقدم به الدول . فالأولى بمولاي اذن أن يجيب القناصل بأنه خابر الباب العالي في الأمر وأنه لا يستطيع فعل أي شيء قبل تلقي جوابه . ووردت للخديو في اليوم نفسه برقية أخرى من المندوب المذكور بأن مجلس الوزراء عقد اجتماعاً والمظنون أن السلطان سيحتج على موقف الدول لأنه بمثابة اعتداء على حقوق سيادته .

وقد أصيب الثوار والجنود بعدة جراح في هذا الشجار (١٨ فبراير سنة ١٨٧٩)

وفي اليوم التالي طالب اسماعيل باسترداد سلطته الحكومية وإبعاد نوبار ليعود النظام سيرته الأولى. وبناء على إرشاد لورد « فيفيان » والماجور

== ثم وردت برقية ثالثة في اليوم نفسه بأن الحكومة الشاهانية قد أرسلت احتجاجها لكل من فرنسا وإنجلترا . وجاء في البرقية الرابعة التي أرسلت في ساعة متأخرة من هذا اليوم نفسه أن البرنس لوبانوف سفير روسيا أخبر ابراهام بصفة سرية أن روسيا لم توافق على المسعى الذي قامت به إنجلترا وفرنسا .
وكان طبيعياً أن تقوى هذه البرقيات من عضد اسماعيل وتشد أزره فأبرق إلى ابراهام في اليوم نفسه يقول :

« إنى أعتمد كما اعتمدت دائماً على غيرتك وإخلاصك . فعليك أن تحيطني علماً - ليس يوماً يوماً - بل ساعة بساعة بكل ما يحدث وبكل ما يقال عن مصر في دور السفارات وفي السراى وفي الباب العالى . فابذل كل ما استطعت من المجهود للحصول على هذه المعلومات وأبرق بها إلى تفصيلاً وبلا تحفظ إذ من الضرورى فى الأحوال الراهنة أن ألم بكل التفاصيل مهما كانت دقيقة . »

وفي يوم ٢٣ يونية وصل إلى علم السلطان أن الخديو تنازل عن العرش . وقد انقضت ٢٤ ساعة قبل أن تكذب هذه الاثاعة رسمياً . ولكن هذا التكذيب لم يضع حداً لنشاط المندوب ابراهام . وبينما هو يقيم الدنيا ويقعدها لأحاطة الخديو بكل صغيرة وكبيرة وردته برقية من الخديو يشير فيه إلى التصرف الشاذ الذى بدأ من جانب قناصل إنجلترا وفرنسا وألمانيا وطلب إليه الذهاب فوراً إلى السراى لتحرى الحقيقة .

أما هذا التصرف الشاذ فقد رواه القنصل الأمريكى لحكومته إذ قال :

« فى ليلة ٢٤ يونية ذهب القنصل الألمانى (البارون دى سورما) والقنصل الفرنسى (المسيو تريكو) (ولم يذكر الكاتب اسم القنصل الأنجليزى مع أن الخديو ذكره صراحة) إلى سراى عابدين فى الساعة الثانية صباحاً وطلبا إيقاظ الخديو . فحدث مجيئهما فى تلك الساعة المتأخرة ذعراً بين سيدات القصر وخشين أن تكون هناك نية مبيتة لاغتيال الخديو . وقد ذكر أنهما جاءا لأعطائه آخر فرصة للتنازل لابنه عن ==

« بارنج » أيده الحكومة البريطانية ضد ولسن وضد فرنسا. ثم تقرر في النهاية ألا يكون اسماعيل رئيس مجلس الوزراء بل توفيق ورثته. ولقد أبعده نوبار ولكن في مقابل ذلك استدعى فيفيان .
فهذا النجاح الذي أصابه اسماعيل شجعه على إعادة الكرة . وإذ كان

العرش وإلا فلن تمضى بضع ساعات حتى تتم تولية الأمير حلیم وإذ ذاك يكون قد سبق السيف العذل . فأخبرهما الخديو أنه يرى أن الوقت لا يزال فسيحاً للتنازل وأنه سيقابلهم في الصباح ثم حياهم وانسحب إلى مخدعه .

ونترك للقارئ الحكم على هذا التصرف الشاذ وهل كان لائقاً .
فلما علم ابراهام من مولاه بهذا التصرف لم يضع الوقت سدا . وفي يوم ٢٦ يونية وصل إلى القاهرة الرد الآتي :

« لقد أذن لي جلالته السلطان أن أبرق لسموكم بأن ما ذكره قنصلا إنجلترا وفرنسا (وقد أغفل ذكر قنصل ألمانيا) لانصيب له من الصحة . وستصلكم التفصيلات بعد . »
وليس يوجد بين المحفوظات الملكية أي ذكر لهذه التفصيلات . ويلوح أن الحوادث كانت تسير بسرعة رؤى معها عدم وجود مسوغ لأرسال أبناء جديدة .

تولية الخديو توفيق

وفي ضحى يوم ٢٦ يونية - وبعد وصول برقية ابراهام السالفة الذكر - بعث السلطان إلى القاهرة برقتين إحداهما باسم « اسماعيل باشا خديو مصر السابق » والأخرى باسم « توفيق باشا خديو مصر » .

وقد جاء في البرقية الأولى ما يأتي :

« إن الصعوبات الداخلية والخارجية التي وقعت أخيراً في مصر قد بلغت من خطورة الشأن حداً يؤدي استمراره إلى إيجاد المشاكل والمخاطر لمصر والسلطنة العثمانية . ولما كان الباب العالي يرى أن توفير أسباب الراحة والطمأنينة للأهلين من أهم واجباته ومما يقضى به فرمان الذي خولكم حكم مصر ، ولما تبين أن بقاءكم في الحكم يزيد المصاعب الحالية ، فقد أصدر جلالته السلطان « ارادته » بناء على قرار مجلس الوزراء باسناد منصب الخديوية إلى صاحب السمو الأمير توفيق باشا وأرسلت الأرادة السنية في تلغراف آخر بتنصيبه خديوياً لمصر وعليه أدعو سموكم عند تسلمكم هذه الرسالة إلى التخلي عن حكم مصر احتراماً للفرمان السلطاني » .

قد استرد بواسطة الجيش نصف سلطته فانه صمم الآن على استرداد النصف الثاني بواسطة جمعية الأعيان . وكان قد طال اننظار الناس لنشر التقرير الذى وضعته لجنة التحقيق وهو وإن لم يكن قد قدم بعد إلى الدول العظمى فقد كان معلوماً أنه يوصى بتخفيض الفائدة على الدين إلى خمسة فى المائة وتخفيض كافة المطالب بمقدار ٥٠ ٪ . وإنكار الديون التى للهلاك بمقتضى قانون المقابلة وزيادة الضريبة العشورية على الطبقات الغنية . وكان ينتظر بدهشة أن يقيم الدائنون الأجانب الدنيا ويقعدوها احتجاجاً على أول وثانى الاقتراحات

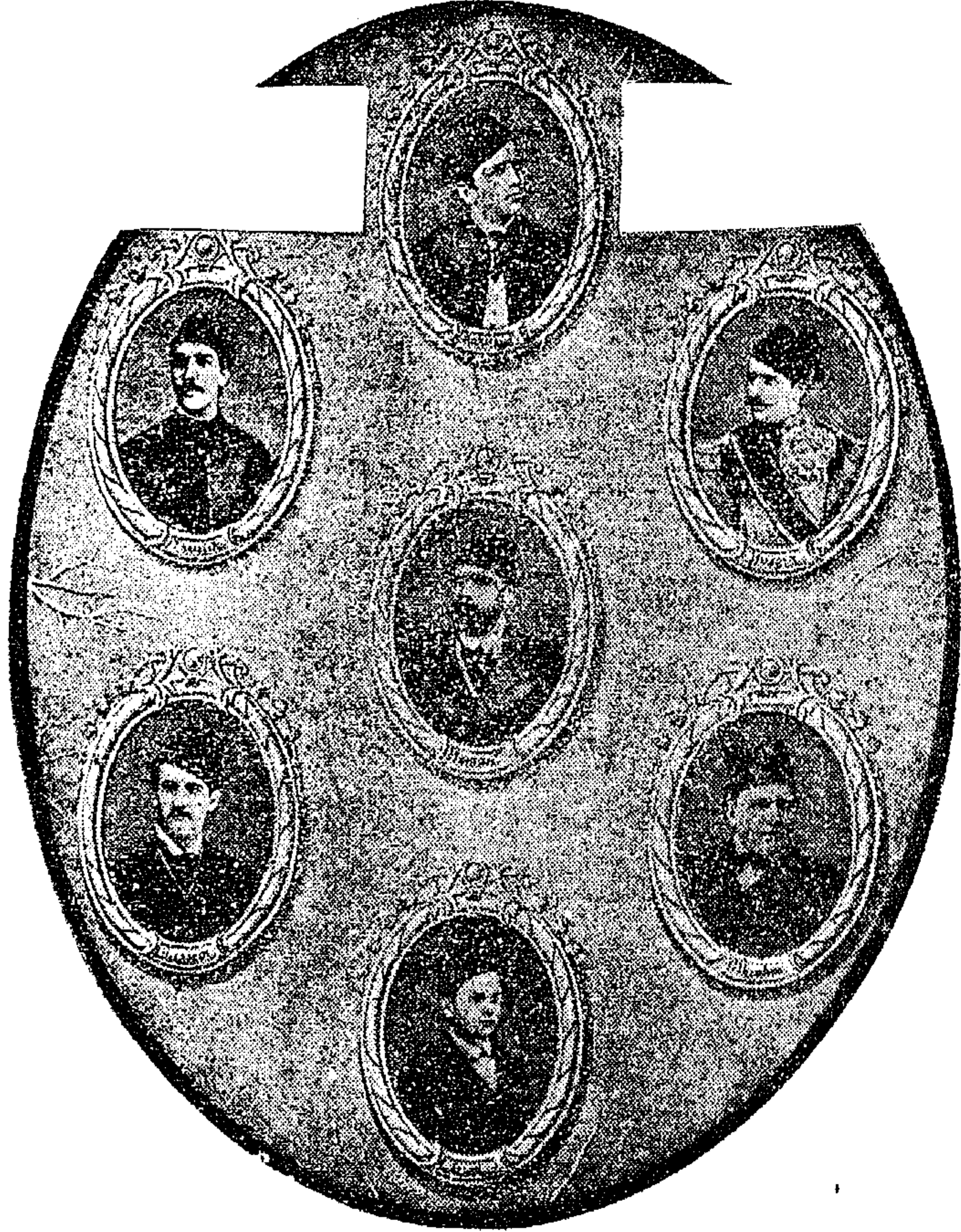
== أما البرقية الأخرى فقد وصلت إلى الأمير توفيق باشا وتتضمن الإرادة السنية باسناد منصب الخديوية إليه .

خرق السياسة العثمانية

هنا أدرك اسماعيل أن المقاومة لم تعد تجدى نفعا . فلم يسعه إلا الأذعان . وليس يسع من يقرأ هذه الحوادث إلا أن يرمى السياسة العثمانية بالخرق وقصر النظر . فهى قد نزلت على إرادة الدول الأجنبية التى كانت ترمى إلى تجريد الخديو من سلطته . وقد يكون فى إقدام تركيا على المطالبة بتنازل الخديو ما يتملق كبرياءها بعد أن ظل أمرها بخلع محمد على الكبير حبرا على ورق ، ولكنها بانزالها اسماعيل عن العرش تلبية لأرادة دول أجنبية قد حفرت لنفسها هاوية لم تلبث أن تردت فيها . فان نفس الدول التى تدخلت فى شؤون مصر لم تكتف بواذى النيل بل ما عتمت أن وجهت أنظارها شطر تركيا نفسها حتى ذاقت تركيا الأمرين من سياسة التدخل . ولعلها كانت تلوم نفسها على أنها أفسحت المجال للتدخل الأجنبي فيما يعتبر أنه من أخص شؤونها فى مصر . ولكن هيهات أن ينفع الندم !

أما اسماعيل فنحسب أنه ذكر فى هذه المحنة جده العظيم محمد على عند ما تألبت عليه الدول الأجنبية وفى مقدمتها تركيا . ولكن محمد على لم يحفل بتأبها ولا وهنت عزيمته لذلك . بل امتشق حسامه حتى نال لمصر استقلالها الداخلى بمقتضى معاهدة لندن . فلو ظل الجيش المصرى فى نهاية حكم اسماعيل كما كان فى بدايته إذن لما اكثر الخديو بالانضمام تركيا إلى الدول الأوربية ولا حفل « بإرادة » السلطان . ولكن هكذا شاءت الأقدار .

بينما يشير الأعيان ضجة وأى ضجة ضد الاقتراحين الثالث والرابع .



صورة فريدة للخديو اسماعيل وسط أولاده الستة
وهم إلى يمينه توفيق فخسين وإلى يساره حسن فابراهيم وفوق محمود
وتحت فؤاد (جلالة الملك) *

اسماعيل ضحية الوطن والدستور

والآن وقد قررت تركيا انزال اسماعيل عن العرش فلا بد من الوقوف هنيئة منحنى
الرؤوس أمام تلك الصحيفة الذهبية الخالدة التي خطها ذلك الرجل الباسل حتى في ساعة
المحنة وكم كانت له صحائف ذهبية خالدة في أيام العز والاقبال . نعم نقف مطأطئي الرؤوس
أمام تلك العظمة وتلك الهمة الوثابة والوطنية النادرة التي استخفت بكل شيء وضحت
بكل شيء ولم يقل من حدتها وعيد أو خوف من النفي والتشريد .

* مأخوذة من مجلة المصور

وكان يرجح أن تتخذ الضجة شكل هياج ضد المسيحيين وهناك يتدخل الخديو والجمعية لأنقاذ الموقف . وإلى هذا أشار « لاسل » المعتمد البريطاني في تقرير له في أول ابريل سنة ١٨٧٩ إذ قال : « يوجد هنا هياج شديد ويواصل الشيخ البكري (نقيب السادة الأشراف) عقد الاجتماعات مع الأعيان والعلماء لأهاجة الخواطر ضد الوزيرين الأجنيين (كذا) . ثم زاد على ما تقدم في ٤ ابريل قوله « يوجد اتصال وثيق بين الخديو وبين الأشخاص الرئيسيين الذين يحضرون تلك الاجتماعات التي يلوح أن غايتها حمل الشعب

== لقد كان بوسع اسماعيل - لو شاء - أن يظل على عرش مصر إلى آخر حياته ، فان الدائنين لم يضايقهم وجوده على العرش بقدر ما ضايقهم اسقاطه وزارة نوبار وتشكيل وزارة شريف على أساس دستور سنة ١٨٧٩ .

لأنه ما كاد أن يقتنع بسوء نية الدول الأوربية حتى نشط لمقاومتها . وقد أصرت الدول على بقاء الوزيرين الأجنيين وأصر اسماعيل على الرفض وفي ذلك ما فيه من الشجاعة الخارقة والاستخفاف بالمخاطر .

ولو شاء لأخى رأسه للقوة القاهرة ولكن نفسه الكبيرة جعلته يغامر بالعرش والتاج دفاعا عن استقلال البلاد ومناصرة للحركة الوطنية .

إن التاريخ لا يروى أمثلة كثيرة عن مقاومة الملوك لأصحاب المطامع الاستعمارية فمثل اسماعيل إذن هو من الأمثلة النادرة ولذا فهو خليق بأن يوضع في صفوف الأبطال . انظر بربك إلى رقعة مصر وملحقاتها في عهد اسماعيل ثم فكر قليلا في أن الخديو كان في استطاعته الاحتفاظ بهذا الملك العريض لو أنه أخى رأسه قليلا لضغط الدول الأجنبية صاحبة الحول والسلطان .

ولكنه أبى الأذعان والاستسلام وأبى في سبيل استقلال بلاده إلا أن يصمد للمستعمرين ويستهدف لغضبهم ولو ضحى بعرشه وتاجه .

فاسماعيل هو ضحية كبرى في سبيل الاستقلال والدستور واسماعيل هو الذي أغرم بحب بلاده حتى ضحى بثروته الخصوصية وتحمل غصص الاقتراض وما أدى إليه من تدخل الدول - كل ذلك لرفعها من مستواها المتواضع الى مستواها العظيم الذي بلغته في عهده .

على تأييد المشروع المالى الذى يجهزه الخديو ليعارض به مشروع السير ريفرزولسن وتشجيعهم على إرسال العرائض لسموه لتنفيذ الدستور التركى الذى أعلن فى سنة ١٨٧٧ وهو الذى ظل منذ ذلك الحين ورقة مهملة . أما الأغنياء فقد قيل لهم « إن مشروع ولسن لو دخل دور التنفيذ لضوعفت

== فاذا ذكر الذاكرون اسماعيل واصلاحاته وما خطه فى تاريخ مصر من صحف خالدة فليذكروا أجد هذه الصحائف وأبلغها ، ليدكروا الصحيفة التى اختتم بها عهده الزاهر وحسبك صحيفة تنضمن التضحية بملك عظيم وعرش وتاج واختيار النقى فى سبيل رفع شأن الوطن ومقاومة المعتدين عليه .

إبلاغ إرادة السلطان لاسماعيل

ولما كانت رسالة السلطان بانزال الخديو عن العرش قد وردت إلى سراى عابدين فى ضحى يوم ٢٦ يونيه فقد وقع الاضطراب بين رجال البلاط وهلعت قلوبهم عند مارأوها مصدرة بعنوان « اسماعيل باشا خديو مصر السابق » .

وبهذه المناسبة ذكر الأستاذ الرافعى بك تفاصيل موجعة خاصة بالموقف المؤثر الذى وقفه الخديو فى الساعات الأخيرة قبل مغادرته البلاد . وما يذكر بالفخر لاسماعيل أنه صمد لهذه المحنة وقابلها بما يليق برجل باسل مثله حتى أن خصومه لم يجدوا بدا من التنويه بموقفه ورجولته فى ساعة المحنة . وإنا لذاكرون هنا بمجمل ما ذكره الأستاذ الرافعى بك ونعقبه بأقوال شهود العيان من الخصوم .

فعند ما وصلت رسالة السلطان اختلف رجال البلاط فى قصر عابدين فىمن يوصلها إلى الخديو . وفيما كان الجدل مستمرا اذا بشريف باشا رئيس الوزراء قد وصل فتسلم الرسالة وصعد بها إلى الطابق الثانى حيث سلمها إلى الخديو . فلها فضها وعلم فخواها قابلها بالصمت والجلد وكلف شريف باشا بدعوة الأمير توفيق باشا إليه فوراً .

نخرج شريف قاصداً سراى الاسماعيلية حيث كان الأمير توفيق وكان قد تلقى رسالة السلطان الثانية باسناد منصب الخديوية إليه . فبادر الأمير من فوره بالذهاب إلى سراى عابدين يصحبه شريف باشا . وصعد الأمير وحده إلى الطابق الثانى فتلقاه اسماعيل مخاطباً إياه « يا أفندينا » ثم سلمه سلطة الحكم وغادر اسماعيل قاعة العرش إلى دار الحرم .

الضرائب على الأراضي العشورية فتضيع به - هذا المزاياء الممنوحة لهم بمقتضى قانون المقابلة وأن . . . الغاية التي يسعى إليها الوزيران الأجنبيان هي تسليم البلاد للأجانب فيتعرض الدين الإسلامي وقتئذ للخطر .
واقترح اسماعيل بان ساعة العمل قد حانت عندما جاءه الوزيران الأجنبيان ليفهماه بدورهما خطورة هذا الهياج . فدعا إليه مندوبى الدول السياسيين

وفي منتصف الساعة السابعة من اليوم نفسه أقيمت فى سراى القلعة حفلة تولية الخديو توفيق بينما كان اسماعيل يتأهب للرحيل من البلاد . وفى ذلك يقول لورد كرومر فى ص . ١٤ من الجزء الأول من كتابه « إن الموقف بين الوالد وولده كان مؤثراً جداً . وقد أبدى كل منهما شدة انفعاله . وكان من المرغوب فيه ألا تتأخر الأجراءات الخاصة بتولية الخديو الجديد . ولذا بدأت فوراً . وفى منتصف الساعة السابعة من مساء يوم ٢٦ يونية سنة ١٨٧٩ أبرق السير فرانك لاسلز إلى لورد سلسبرى ينبئ بهما حدث فقال : « بمناسبة اعتلاء سمو الخديو توفيق العرش أطلقت المدافع مساء اليوم من القلعة حيث استقبل سموه رسمياً وفود المهتمين وفى طليعتهم رجال السلك السياسى والسلك القنصلى والوزراء وموظفى الحكومة وعدد كبير من أعيان الأهالى وكبرائهم . »

رحيل اسماعيل

٣٠ يونيه سنة ١٨٧٩

فى يوم الخميس ٢٦ يونية وصل الأمر بانزال اسماعيل عن العرش وفى يوم الاثنين ٣٠ منه غادر القاهرة إلى الاسكندرية حيث كانت « المحروسة » معدة لركوبه . وكان يوم الرحيل يوماً مشهوداً . فقد خرج الناس أفواجا أفواجا وكانهم جاؤوا لتحية ذلك الأسد المحصور الذى آثر النفى على تسليم البلاد للأجانب . ومنذ الصباح الباكر زحرت سراى عابدين بجمهرة المودعين من كبار القوم وعليتهم . وما كادت تتنصف الساعة الحادية عشرة حتى أقبل الخديو توفيق لوداع أبيه . وانقضت نصف ساعة فى وداع الابن لأبيه والوالد لولده . وفى الساعة الحادية عشرة خرج الأب متوكئاً على ذراع ابنه توفيق . فركب العربى وإلى يساره توفيق . وتبعهما رتل من المركبات تقل كبار المودعين وأعيانهم وسار الموكب قاصداً المحطة حيث اصطف الجند على الجانبين يحيون مولاهم اسماعيل .

في ٩ ابريل وابلغهم أن الحالة تتطلب علاجاً عاجلاً . فاستقال توفيق ثم أبلغ اسماعيل الوزيرين بأنه نزولاً على إرادة الأمة قد رأى أن يعهد إلى شريف باشا بتشكيل وزارة وطنية بحتة (٢٢ ابريل) وقد طلب إلى الماجور بارنج وزميله المندوب الفرنسي أن يستأنفا أعمالهما كمراقبين ولكنهما رفضا . ثم استقال بارنج وحذا حذوه عدد من الموظفين الإنجليز وصدرت الأوامر إلى شريف باعداد الدستور .

وداعه في المحطة

وعند المحطة ترجل اسماعيل ووقف توفيق يودعه وعيناه مغرورقتان بالدموع . وفي وسط هذا المنظر المؤثر وقف اسماعيل يخطب المودعين خطاباً مؤثراً ثم التفت إلى توفيق يودعه ويعظه بهذه الكلمات المؤثرة المقتبسة من كتاب « مصر للمصريين » لسليم النقاش قال :

« لقد اقتضت إرادة سلطاننا المعظم أن تكون يا أعز البنين خديو مصر فأوصيك بأخوتك وسائر الآل برا . واعلم أنى مسافر وبودى لو استطعت قبل ذلك أن أزيل بعض المصاعب التى أخاف أن توجب لك الارتباك . على أنى واثق بحزمك وعزمك فاتبع رأى ذوى شورك وكن أسعد حالاً من أهلك . »

ويقول الذين شهدوا هذا المنظر أن كلمات اسماعيل أبكتهم جميعاً . وليس يفوتنا مغزى هذه الكلمات الحكيمة يلقيها ذلك العاهل العظيم فى ساعة الرحيل الأخير . فهو يعظ ابنه باتباع الشورى ويود لو استطاع إزالة بعض المصاعب التى كانت سبب هذه الرزايا .

سفره إلى الاسكندرية

ثم استقل القطار فوصل الاسكندرية فى الساعة الرابعة بعد الظهر وكان فى استقباله فى محطة القبارى محافظ الثغر وبعض الرؤساء والكبراء . فركب الزورق المعد له وتبعته زوارق المودعين حتى وصل إلى المحروسة . فلما وصلها أطلقت المدافع إيداناً بوصوله ورفعت البوارج الحربية أعلامها تحية له واستقبل على ظهر الباخرة بعض المودعين . وقد وصف القنصل البريطانى العام هذه المظاهر ونوه بما أبداه اسماعيل من الرجولة والشجاعة فى ساعة المحنة حتى انه كان يبتسم لمودعيه ويشكر لهم ما تجشموه =

وما لبث الإنجليز أن فتحوا باب المفاوضات فبعث لورد سالسبرى إلى اسماعيل في يوم ٢٥ أبريل برسالة طلب فيها إعادة الوزيرين الأجنيين ثم أردفت هذه المذكرة بالمناقشة في التداير الأخرى الواجب اتباعها . ولا ريب في أن الاجراءات الماهرة التي تتبع في هذا العصر لتنظيم الاحتلال « الغير المنظور » لو طبقت وقتذاك لأدت إلى حل عملي بسهولة . ولأن تعقدت الأمور بسبب ما كان من التنافس بين إنجلترا وفرنسا واقتناع مندوبي كل منهما بعدم انتظار فائدة من الجمعية أو فعل شيء ضد الخديو .

من أجله من التعب والنصب . بل إن لورد كرومر نفسه اعترف بما كان يبدو من الهيبة والجلال على اسماعيل وهو يصافح مودعيه . وهكذا أسدل الستار على الفصل الأخير من هذه المأساة .

ذهابه إلى نابولي

ثم أقبلت به المحروسة إلى نابولي حيث أعد له ملك إيطاليا قصرا خاصا لسكناه هو وأسرته وحاشيته . ثم أخذ يتنقل بين عواصم أوروبا . وقد روى السير ريفرز ولسن أنه قابله مرة في إحدى سفراته فلم يلحظ منه أى حقد على أحد . بل بالعكس كان اسماعيل لا يذكر الناس جميعا إلا بالخير . وفي هذا ما فيه من معنى العظمة النفسية .

ذهابه إلى الأستانة

وفي سنة ١٨٨٨ انتقل إلى الأستانة حيث استقبل أنخم استقبال فأقام بقصر أمرجيان على البوسفور .

وفاته

وقد ظل مقبلا في الأستانة إلى أن انتقل إلى الرفيق الأعلى في يوم ٢ مارس سنة ١٨٩٥ وله من العمر ٦٥ عاماً . وقد حزننت عليه البلاد أكبر حزن . ثم نقل جثمانه إلى مصر في يوم ١٠ مارس في الباخرة « توفيق رباني » تحرسها بأمر السلطان عبد الحميد البارحة العثمانية عز الدين ، واحتفل في الاسكندرية ثم في العاصمة بتشجيع الجنازة احتفالا رسميا فخما . واشترك سمو الخديو السابق في تشييع الجنازة في الاسكندرية ثم عاد بقطاره إلى العاصمة . وكان بين المشيعين في القاهرة بعد الجنود السوارى والموسيقى السوارى والبطارية السوارى وكبار التجار والأعيان الأجانب وموظفو النظارات والمصالح =

وفضلا عن ذلك فقد كانت اقتراحات اسماعيل أكثر ملاءمة للدائنين الأجنبي مما اقترحتته لجنة التحقيق كما عرف اسماعيل ذلك عندما احتاط لوصول اقتراحاته إلى أوروبا قبل وصول اقتراحات اللجنة ولم تكن الانتقادات التي وجهت ضد اقتراحات اسماعيل حتى الصادرة من لورد كرومر نفسه

الأميرية ورجال المحاكم المختلطة والأهلية والمحامون ومدير صندوق الدين وناظر ومراقبو الدائرة السنية ومديرو مصلحة الدومين ومديرو السكك الحديدية والرؤساء الروسيون وكبار ضباط جيش الاحتلال ووكلاء الدول والقناصل والنظار والمستشاران المالي والقضائي ومستشار نظارة الداخلية ثم سمو الخديو السابق عباس حلمي فاصحاب السمو الأمراء والغازي مختار باشا وحاشية السراي ورجال الغازي والعلماء والأعلام وحملة القهاقم والمباخر والمصاحف ثم سرير الجنازة محمولا ومحاطا بحرس الخديو وموسيقى زيادة وأورطة زيادة وكوكبة من البوليس . وسارت الجنازة من ميدان المحطة حتى ميدان الأوبرا وهنا تركها سمو الخديو السابق والقناصل .

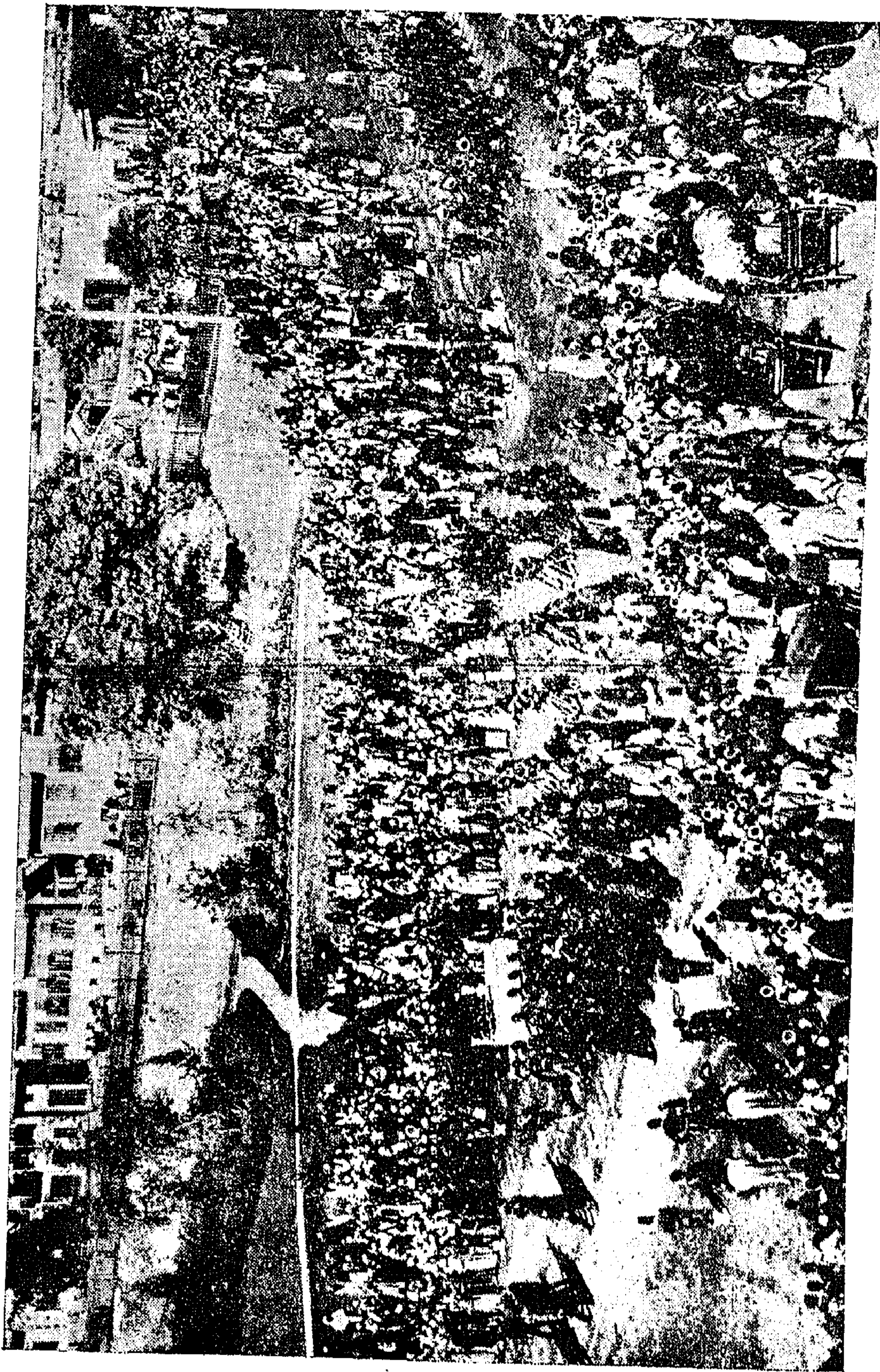
ثم استأنف الموكب السير من شارع البوستة فشارع محمد علي إلى الرفاعي حيث ووريت الجثة التراب .

وتبارى الشعراء في الفناء المراثي ومن بينها مرتبة المغفور له أحمد بك شوقي الغراء وقد ختمها بقوله :

إنما الموت منتهى كل حي لم يصب مالك مع الملك خلدا
سنة الله في العباد وأمر ناطق عن بقاءه لن بردا
وإلى الله ترجع النفس يوما صدق الله والنيون وعدا

وأقيمت حفلة العزاء ثلاث ليال سويا في سراي القصر العالي وتصدر القاعة الكبرى البرنس حسين كامل (المغفور له السلطان حسين) والبرنس أحمد فؤاد (جلالة مولانا الملك) وأقبل أعضاء الأسرة الخديوية والنظار والقناصل وغيرهم يقدمون التعازي . وأعلن سمو الخديو السابق الحداد في المعية أربعين يوما .

وهكذا انتقلت إلى دار الخلد تلك الشخصية البارزة التي طمحت إلى تحقيق استقلال البلاد وما زالت دائبة في مسعاها حتى أوشكت — لولا تألب الدول الأجنبية — أن تحقق أمنيتها .



تشيع جنازة المغفور له ساكن الجنان اسماعيل باشا ويرى النعش إلى يسار الصورة

مقنعة بتاتاً . وبديهي أن المسألة الرئيسية لم تعد مسألة الرفض المالي بل كانت مسألة الإصلاح السياسي الذي كان كما لا يخفى يتطلب وقتاً في حين أن بريطانيا وفرنسا كانتا شديدتي النفور من تحمل تبعة الحكم في مصر بحيث أنه كان من رأيهما ترك حبل الأمور على الغارب مرة أخرى لولا عامل ثالث طرأ على الموقف واضطرهما للتدخل .

أخلاق اسماعيل وشخصيته

ولا بد من كلمة هنا عن أخلاق اسماعيل وشخصيته ومنها تستطيع أن تحكم على الرجل الذي قال فيه السير صمويل بيكر : إنه جاء قبل أوانه . ولا نجد خيراً من أن نقبس ما كتبه الأستاذ الرافي بك في هذا الصدد . وإنما ذكرنا أقوال حضرة لتكون أبلغ في الأثارة بفضل هذا الخديو المظلوم . قال الأستاذ :

« كان اسماعيل بلا مرآة آية في الذكاء والفهم وسرعة الخاطر ، وقوة الذاكرة ، ومضاء العزيمة وعلو الهمة ، وكان شجاعاً ، لا يعرف الجبن والأحجام ، قوي الشخصية عظيم المهابة .

« أما ذكاؤه فكان يشع من عينيه البراقتين ، وقد لحظ هذا الذكاء وتبينه كل من عاشره أو حادثه من الأصدقاء والأعداء على السواء .

« كان يفهم مراد محدثه ويحيط بالأمور ويدرك الأشياء بسرعة خاطر تشبه البرق الخاطف وكان قوى الذاكرة ، يدهش محدثيه بقدرته على استيعاب التفاصيل والدقائق عن الحوادث الماضية ، كبيرها وصغيرها ، رغم مضي السنين على وقوعها .

« وتبدو لك قوة إرادته ومضاء عزمته من الهمة التي كان ينفذ بها مشاريعه ، فلم يكن يعرف التردد والأحجام ، وإذا أراد أن ينجز عملاً لا تقف في سبيله عقبة إلا ذلها ، أما شجاعته فحسبك أن تبينها من السياسة التي رسمها لنفسه في السنوات الأخيرة من حكمه ، حين أدرك سوء نية الدول الأوربية واعتزم مقاومتها . وقد رأيت كيف وقف اسماعيل موقف المعارضة من الوزارة المختلطة وأتبع حياها خطة المقاومة . وهي سياسة تقتضى حظاً كبيراً من الشجاعة والاستخفاف بالمخاطر . وفي سبيل هذه المقاومة غامر بعرشه وضحي به فعلاً . وقليل من الملوك من يضحون بعروشهم في سبيل مقاومة المطامع الاستعمارية .

فان بسمارك طالما فاخر بان في وسعه إيقاع الشجار بين انجلترا وفرنسا بسبب مصر وهذا ما جعله شديد الحرص على عدم ترك المسألة المصرية تحل من تلقاء نفسها. وقد حسب أن الفرصة سنحت له الآن لإيقاع الشقاق بينهما ولتمكين ألمانيا من لعب دور رئيسي في السياسة العليا يجعل المالية العليا مدينة لها بالجميل. ولقد روى المستر ولفر دبلنت في كتابه «التاريخ السرى للاحتلال البريطانى، ص ٦٥ رواية تستند إلى أساس صحيح

== « وكان اسماعيل بلا نزاع محباً لبلاده، راغباً في تقدمها، عاملاً على أن يسير بها في مضمار الحضارة والعمران، ساعياً في توسيع ملكها، وإعلاء شأنها. »
« فالذكا، وقوة الإرادة والشجاعة والاقدام والرغبة في اعلاء شأن مصر هذه هي الصفات التي تمتاز بها شخصية اسماعيل

» ظهرت نتائج هذه الصفات في مختلف الأعمال التي تمت على يده، فقد سعى ووفق في الحصول من تركيا على أقصى ما يمكن من الحقوق والمزايا، كإيصال بمصر إلى الاستقلال التام، فهذه نزعة مجيدة تدل على شدة حبه لعظمة مصر ورفع شأنها. (نرجو أن يذكر القارىء هنا انتقادات الأستاذ الرافعى بك لسياسة الفرمانات التي حصل بها اسماعيل على هذه الحقوق والمزايا) .

« واتجهت همته إلى توسيع أملاك مصر في افريقيا، فأكمل فتح السودان ووصل بحدود مصر إلى منابع النيل، وشواطئ المحيط الهندي، أى إلى حدودها الطبيعية، وبذل في هذا السبيل أقصى ماله من عزيمة وقوة، وهي صفحة مجيدة من صحائف اسماعيل، تزين تاريخه، بقدر ما يزدان بها تاريخ مصر القومى.

« وعنى بقوة البلاد الحربية بتنظيم الجيش وإنشاء المدارس الحربية العالية وتسليح الجند بأحدث الأسلحة وتزويد الحصون والقلاع بالمدافع الضخمة.

« ووجه أيضاً همته إلى انهاض البحرية المصرية حربية كانت أو تجارية، فرفع علم مصر على مياه البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر والأقيانوس الهندي.

« وله على العلم والأدب أيد بيضاء بما أنشأه من المدارس العالية والمعاهد العلمية، وتجديده عهد البعثات، فمدرسة الحقوق، ومدرسة المهندسخانة، ودار العلوم، ومدارس البنات، والمدارس الصناعية، والمدارس الثانوية والابتدائية، ودار الكتب، والمتحف المصرى، ودار الآثار العربية، والجمعية الجغرافية، والنهضة العلمية والأدبية، والحركة ==

ملخصها» أن ولسن قد أغضبه عزل اسماعيل إياه وإغضاء الحكومة البريطانية عن مناصرته فذهب إلى بيت آل روتشيلد فأدخل في نفوسهم الذعر من احتمال ضياع القرض عليهم وهو القرض الذي لم يكونوا سددوا بعد إلى مصر إلا نصفه فقط وبقي النصف الثاني في أيديهم ، وأن آل روتشيلد بعد أن يئسوا من حمل الحكومتين البريطانية والفرنسية على التدخل في الأمر اضطروا للالتجاء إلى بسمارك . ومهما كانت الأسباب التي ارتكن إليها المستشار الألماني فانه فاجأ العالم بتصريح خطير

== الفكرية التي ظهرت في عهده ، ونهضة الصحافة ، والتأليف ، والطباعة والبشر ، تعترف بآثاره الخالدة .

« وأعمال العمران التي تمت على يده كفتح الترع ، وإقامة الجسور ، والعناية بزراعة القطن ، واستحداث مصانع السكر وإصلاح القناطر الخيرية ، وزيادة مساحة الأقطان الزراعية وإنشاء السكك الحديدية والكبارى ، والأسلاك البرقية ومصحة البريد ، وتعمير المدن وتخطيطها ، وتنظيمها ، كل هذه الأعمال قد نهضت بعمران مصر وتقدمها .

« كل هذه مآثر عادت على البلاد بالخير العميم . وإن ننس لا ننس آخر صفحة ختم بها حياته السياسة ، إذ قاوم المطامع الاستعمارية التي بدت من الدولتين الإنجليزية والفرنسية ، ولو أنه آثر الأذعان والاستسلام لبقى على عرشه يتمتع بهذا الملك العريض ولكنه أبى على الدول طلباتها ، وأصر على أن تكون الوزارة خالصة للمصريين ، واستجاب إلى مطالب الأحرار وعهد إلى شريف باشا تأليف وزارة وطنية خالية من العنصر الأوربي ، وأقر مبدأ مسؤولية الوزارة أمام مجلس شورى النواب .

« ولا شك أن موقفه في هذا الصدد هو دفاع عن استقلال البلاد ومناصرة للحركة القومية . وفي هذا السبيل استهدف لغضب الدول الأجنبية حتى فقد العرش والتاج . فهو من هذه الناحية ضحية كبرى في سبيل الاستقلال والدستور .

« إذ الأقدام على هذه التضحية الغالية ، وما أعقبها من النفي والتشريد والحرمان ، عمل جليل يزين تاريخ اسماعيل .

اتهم فيه اسماعيل بأنه « أخل إخلالا علنيا مباشرا بتعهد دولي . . . » إذ
ذاك اضطرت بريطانيا العظمى وفرنسا إلى القيام بعمل حاسم لاستعادة
مركزهما . ومن ثم كان تورطهما في مظالمة اسماعيل في يوم ١٩ يونية سنة
١٨٧٩ بالتنازل عن العرش .

ولا ريب في أن اسماعيل لو أبى النزول على هذا الطلب لأيده سلطان
تركيا . لأن الخليفة باعتباره الشخص الوحيد الذي لا تستطيع الدول
الأجنبية خلع خديو مصر إلا عن طريقه كان شديد التردد في التدخل
ضد أمير مسلم بناء على تحريض دولتين مسيحيتين كانت كل منهما منهمكة
وقتذاك في حرب عوان ضد المسلمين .



== فالصفحة التي ختم بها اسماعيل حياته السياسية جديدة بأن تسجل في صحائف الحركة
القومية بالفخار والأعجاب .

هذا ما كتبه الأستاذ الرافعي بك متغنياً بصفات اسماعيل وأخلاقه . على أنه انتقل
بعد ذلك إلى ما سماه صحيفة « الأخطاء والسيئات » فتولى انتقاده في صدد مسألة الديون
بما لا يخرج عما اقتبسناه عنه في صفحات هذا الكتاب وتولينا الرد عليه في مكانه .

على أن اسماعيل إذا كان قد وضع الأساس والدعائم فقد جاء بعده أبو الفاروق
ليتمم البناء . وقد أصبحت مصر والحمد لله معترفاً باستقلالها دولياً . وبعد أن كان النواب
في آخر دور انعقاد مجلس النواب يخاطبون اسماعيل بـ « صاحب الجلالة » متخطين لقبه الرسمي
وهو « صاحب السمو » فقد أصبح لمصر والحمد لله مليكها وهو جلالة مولانا الملك فؤاد
كما أن البلاد في عهده قد استعادت دستورها بعد أن ظل عشرات السنين معطلاً .

تنبیه مهم

فی فصلین اثنين فقط حاول المستریانج (مؤلف الكتاب الحاضر) أن یروی تاریخ مصر من عهد الممالیک إلى نهاية حکم اسماعیل باشا أی من سنة ١٧٦٠ إلى سنة ١٨٧٩ . وبديهی أن محاولة من هذا القبیل مهما كانت موفقة بالنسبة لما یسمونه « رؤوس موضوعات » فانها لا تتسع طبعاً لذكر التفاصيل التي قد تهم الرأي العام المصری أكثر مما تهم الرأي العام الأنجلیزی وهو الذي قصد المستریانج إلى تنویره یدکر رؤوس الموضوعات .

وقدرأینا أن نسد النقص بذكر التفاصيل فی شکل حواشی مذکورة بالهامش ومقتبسة عن المصادر التي ألمعنا إليها فی سياق الحديث . ومن هنا سیجد القاریء فی الفهرست شیئاً من التقديم والتأخیر فی ترتیب الحوادث التي ذکرها المستریانج والتي أوردناها فی الهامش .

فهرست الكتاب

صفحة

١

مقدمة المعرب

أهمية تدوين التاريخ - اهتمام جلالة الملك فؤاد بتاريخ مصر - نظرة إجمالية
في تاريخ مصر - محمد علي باشا - اسماعيل باشا - جلالة الملك فؤاد - بعض
أعمال جلالة الملك

الفصل الأول

مولد مصر الحديثة

٢٢

نابليون بونابرت

كلمة إجمالية عن المماليك - نابليون والحملة على مصر - معركة أبي قير البحرية
بين الفرنسيين والإنجليز - زحف نابليون على القاهرة - معركة الأهرام
بين الفرنسيين والمماليك - دخول نابليون القاهرة - تفكيره في اعتناق
الإسلام - إنشاء ديوان العلماء وخلاصة ترجمة حياتهم - ثورة أهل القاهرة
ضد الفرنسيين - دخول الفرسان الفرنسيين إلى صحن الجامع الأزهر

٤٤

غزوة نابليون لسوريا

مقتل حامية يافا بأمر نابليون بعد تسليمها - حصار عكا ونهاية أحلام نابليون

٤٨

عودة نابليون من سوريا

معركة أبي قير البرية بين الفرنسيين والأتراك - عودة نابليون إلى فرنسا

٤٨

الجنرال كليبر

تولية الجنرال كليبر - معركة هليوبوليس بين الفرنسيين والأتراك - بعد
انسحاب نابليون من مصر - اتفاقية العريش الأولى - نقض الاتفاقية -

صفحة

- ٥٢ مقتل كبير
معركة كانوباس بين الفرنسيين والإنجليز - انسحاب الحملة الفرنسية - المعلم
يعقوب القبطي - إلى ماقييل ظهور محمد علي .
- ٦١ محمد علي مؤسس الأسرة العلوية
نشأته وشيخته - محمد علي وخسرو باشا - الألفي والبرديسي - خورشيد باشا -
رواج الدسائس لخاص محمد علي - الإنجليز يقاومون محمد علي - محمد علي يصد
حملة الجنرال فريزر الإنجليزى - مذبحه المماليك .
- ٧٧ اصلاحات محمد علي
الاصلاح الادارى - الاصلاح الزراعى - الاصلاح التجارى - إحتكار
حاصلات البلاد
- ٨٥ استعانتة بالعلماء والفنانين الفرنسيين
شامبليون والعثور على حجر رشيد - ترجمة الكتابة التى على الحجر -
الكولونيل سيف (سليمان باشا الفرنساوى) كلوت بك
- ٩٧ التعليم فى عهده
الأرساليات - تأليف مجلس المعارف - تأليف ديوان المدارس
- ١٠٣ صفات محمد علي
- ١٠٦ الحرب الوهاية
ظهور زعيم الوهايين - التعاليم الوهاية - استعدادات محمد علي لصد الوهايين
- ١١٣ فتح السودان
قبائل الزنوج عند خط الاستواء - حملة أحمد بك الدفتر دار - حرق معسكر
اسماعيل باشا - فتح سنار و كوردفان
- ١٢١ فتح سوريا
الأمير بشير الشهابى - ابراهيم باشا يفتح يافا - ثم عكا - ودمشق - وحمص

صفحة

- وحلب - معركة بيلان - الزحف على الاستانة - معركة قونية - وضع
اتفاقية كوتاهيا - قيام الفتن وقمعها .
- ١٣٦ إخراج ابراهيم باشا من سوريا
تركيا تحاول إخراجه من سوريا - فوز القوات المصرية في معركة نازيب -
ومعركة نصيبين - تسليم العمارة التركية لمصر - بشائر الصلح بين محمد علي وتركيا
- ١٤٠ بالمرستون
كيد الدول الأوربية لمحمد علي - معاهدة لندره - محمد علي يرفض المعاهدة -
انسحاب ابراهيم باشا من الشام - فرمان محمد علي على ولاية مصر - فرمان
الولاية على السودان - محمد علي في أواخر أيامه - مرض ابراهيم باشا ووفاته
عناية محمد علي بالفلاح
- ١٦١ نظرة إلى تاريخ ابراهيم باشا
الحرب اليونانية - تدخل الدول الأوربية - وصول الحملة المصرية إلى نافرين -
معركة نافرين بين تركيا ومصر - بعد الموقعة

الفصل الثاني

المفلسون والسياسة

- ١٧٩ عباس
ولادته ونشأته - وقف حركة التقدم - ما تم من الإصلاحات في عهده -
مقتله .
- ١٨٨ سعيد باشا
ميلاده ونشأته - أخلاقه
- ١٩٠ إصلاحاته
الإصلاحات العمرانية - الاهتمام بالجيش - ضعف البحرية - شركات
ملاحة أجنبية .

- صفحة
- ١٩٧ اشتراك مصر في الحروب الأجنبية
حرب القرم - حرب المكسيك
- ٢٠٠ السودان
- ٢٠٣ نظام الحكم في عهد عباس وسعيد
الوزارات - النظام القضائي - مجالس الأحكام - مجالس الأقاليم
- ٢٠٦ قناة السويس
موجز تاريخ المشروع - دلسيس في مصر - منح الامتياز بسبب قفزة جواد -
منح الامتياز - مساعي دلسيس المالية - شروط الامتياز - انجلترا تقاوم
المشروع - سعيد يعضده - تأليف الشركة - بدء العمل في القناة
- ٢٢٣ سعيد وسنة الاقتراض من الأجانب
- ٢٢٤ وفاة سعيد
- ٢٢٦ اسماعيل باشا
جلالة الملك والوثائق المصرية - ميلاد اسماعيل باشا في ١٢ يناير سنة ١٨٣٠ -
نشأته - ثقة سعيد باشا به - اسماعيل يصبح ولي العهد بعد غرق أخيه البرنس أحمد
رفعت - اعتلاء اسماعيل الأريكة في ١٩ يناير سنة ١٨٦٣ - سياسة
اسماعيل الخارجية
- ٢٣٨ سياسة المال مع تركيا أفعال من سياسة المدفع
- ٢٣٩ زيارة السلطان عبد العزيز لمصر في ابريل سنة ١٨٦٣
الهدايا لحاشية السلطان فرمان ٢٧ مايو سنة ١٨٦٦ بتغيير نظام توارث
العرش - فرمان ٨ يونية سنة ١٨٦٧ والحصول على لقب حديو - مسعى
اسماعيل للانفصال عن تركيا - فرمان ٢٩ نوفمبر سنة ١٨٦٩ بتقييد سلطة
الحديو - فرمان الجامع ٨ يونية
- ٢٤٨ نظرة إجمالية في اصلاحات اسماعيل وما تكلفته من النفقات
اعتراف الأجانب بتقدم مصر في عهد اسماعيل - دحض الأكاذيب القديمة
الخاصة باسماعيل - المستر كرايس وكتابه عن اسماعيل الحديو المظلوم -

صفحة

رواية المستر كراييتس عن صداقة دلسيس لسعيد باشا وكيفية حصوله على امتياز حفر قناة السويس .

٢٥٤ أصحاب السمو الأمراء

مسؤوليتهم حيال التاريخ - سمو الأمير محمد علي وعباس باشا الأول - بين العرب وسمو الأمير عمر طوسون

٢٥٧ ملاحظات سمو الأمير محمد علي

عباس باشا الأول وبغضه للفرنسيين .. شهامة عباس - عنايته بجواري البلاط

٢٦٣ حب اسماعيل باشا في الاقتصاد
ديون اسماعيل

أقوال لورد ملنز - تنفيذ المستر كراييتس لهذه الأقوال - هل كان اسماعيل مبذراً؟ - صورة من نشاطه وجدده بأقلام بعض الكتّاب الأجانب - اعتراف الأجانب بفضل اسماعيل - التلاعب المالي في عهد اسماعيل - أقوال لجنة كيف - المستر كراييتس يعرض لتحليل أقوالها .

٢٨١ السخرة

اسماعيل يعمل على إلغائها في مشروع قناة السويس - موقف بريطانيا وفرنسا إزاء المشروع - اسماعيل يستهدف لغضب فرنسا - الخلاف بين اسماعيل وفرنسا - التحكيم - نابليون الثالث يحكم على مصر .

٢٩١ قناة السويس

افتتاح القناة للملاحة في ١٧ نوفمبر سنة ١٨٦٩ - حفلات الافتتاح الباهرة - الرغبة في إعلان استقلال مصر - انشاء المحاكم المختلطة - خسائر مصر في القناة .

٢٩٦ بيع الأسهم المصرية في القناة

بين دزرائيلي وروتشيلد - موقف اسماعيل حيال بيع الأسهم المصرية .. ما كسبه لمصر من مشروع القناة

٣٠٢ محاربة النخاسة
السير صمويل بيكر

صفحة

لماذا التجا اسماعيل الى الأجناب لمحاربة النخاسة - رحلات السير صمويل بيكر في أواسط أفريقيا - الخديو يستخدم السير صمويل في محاربة النخاسة - سفر السير صمويل إلى السودان - فتوحاته في السودان

٣١٥ التوسع في السودان

تخوف أوروبا من توسع اسماعيل - الخديو يستخدم الضباط الأمريكان - شالي لونج بك - اسماعيل لم يكن منفذا للسياسة الأنجلويزية - أعمال الضباط الأمريكان - الزبير رحمت باشا - فتح سلطنة دارفور

٣٢٣ غوردون باشا

اسماعيل يعينه بمحض إرادته - سفر غوردون إلى السودان - بسط الحماية المصرية على أوغندا

٣٢٧ اهتمام اسماعيل بشاطئ البحر الأحمر

ضم زيلع وبربرة - الاستيلاء على هرر - فتح بلاد السومال - اعتراف إنجلترا بسلطة مصر في السومال

٣٤١ معاهدة لمنع الرقيق بين إنجلترا ومصر

٣٤١ استعفاء غوردون الأول

الخديو يستدعيه مرة أخرى

٣٤٨ حرب الحبشة

الخديو يرغم على دخولها - أسباب النزاع بين مصر والحبشة - فتح اقليم البوغوس - يوم ١٥ نوفمبر المنحوس - حملة راتب باشا سنة ١٨٧٦ - معركة قورع يوم ٧ مارس سنة ١٨٧٦

٣٥٣ حكم اسماعيل في السودان

خلاصة إجمالية عن حكم اسماعيل - السير صمويل بيكر ينوه بفضل اسماعيل في محاربه النخاسة - شهادة الثقات الأجناب

٣٦٦ حكمدارو السودان في عهد اسماعيل

موسى باشا حمدى - جعفر باشا صادق - جعفر مظهر باشا - ممتاز باشا -

اسماعيل باشا أيوب .

صفحة	
٣٦٨	مديريات السودان
٣٦٩	نظرة إجمالية في عمران السودان تحسين طرق المواصلات - إنشاء المدارس - نشاط التجارة - انشاء مصلحة البريد - التلغرافات
٣٧١	الرحلات والبعثات الجغرافية
٣٧٤	قوات الدفاع في عهد اسماعيل تنظيم الجيش - تنظيم مدارس الحربية - هيئة أركان الحرب - تجديد السلاح والمصانع الحربية - البحرية .
٣٨٥	الأسطول التجارى اتمام ميناء السويس - اصلاح ميناء الاسكندرية - الفنارات .
٣٨٨	حروب مصر اتحاد ثورة العسير - حرب كريت - حرب البلقان .
٣٩٥	التعليم والنهضة العلمية المدارس العالية - المهندسخانة - الحقوق - دار العلوم - الطب والولادة - مدارس البنات - المدارس الصناعية - المدارس الخصوصية - مدرسة المساحة والمحاسبة - المدارس الثانوية - المدارس الابتدائية - الحفلات المدرسية - الأزهر - البعثات - مدارس الأقباط الارثوذكس - المدارس الأوربية - وزارة المعارف - ميزانية التعليم .
٤٠٥	على باشا مبارك
٤٢٣	الجمعيات العلمية المجمع العلمى - جمعية المعارف - الجمعية الجغرافية .
٤٢٦	الصحافة مجلة روضة المدارس - الصحف السياسية - الصحف الأفرنجية - الطباعة .
٤٣٥	مظاهر النهضة العلمية والأدبية
٤٣٧	أعلام الأدب في عصر اسماعيل

صفحة

- جمال الدين الافغانى .. الشيخ حسن المرصفي .. محمود باشا سامى البارودى ..
عبد الله افندى أبو السعود .. الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده - ابراهيم
بك المويالى - محمد بك عثمان جلال - السيدة عائشة عصمت تيمور -
الشيخ عبد الهادى نجا الأييارى - السيد عبد الله نديم - الشيخ على اللبثى وغيرهم .
- ٤٦١ علماء الهندسة والرياضيات
محمود باشا الفلكى - اسماعيل باشا الفلكى .. حسين باشا حسنى وغيرهم .
- ٤٦٥ علماء الطب والجراحة
محمد الشافعى بك - محمد الدرى باشا - محمد على البقلى باشا - الدكتور حسن
باشا محمود وغيرهم .
- ٤٦٥ علماء الفقه والقانون
محمد قدرى باشا - حسين نخرى باشا - الشيخ محمد العباسى المهدي وغيرهم
- ٤٦٧ علماء الفنون الحربية
على باشا ابراهيم - حماد باشا عبد العاطى - محمود باشا فهمى - محمد مختار باشا
وغيرهم
- ٤٦٩ النهضة الفنية فى عهد اسماعيل
التمثيل والغناء - الموسيقى - عبده الحولى - السيدة الماس .. محمد العقاد
- ٤٧٣ دحض المفتريات ضد اسماعيل
- ٤٧٦ حقيقة قروض اسماعيل
قروض لم يستلم اسماعيل إلا نصفها .. فوائد فادحة - استطاعة مصر النهوض
باعتائها .. أقوال القنصل الأمريكى العام فى مصر
- ٤٨٠ حصّة مصر فى قناة السويس
وزارة خارجية إنجلترا تجس النبض .. لماذا أقدم اسماعيل على بيع الأسهم؟
شركة القناة تضايق اسماعيل
- ٤٨٤ بعثة كيف
هل طلبها اسماعيل؟ .. سفر البعثة إلى مصر .. التنافس بين إنجلترا وفرنسا -

صحيفة

- تقرير البعثة - الاتفاق على عدم نشر التقرير - انجلترا تزعم أن اسماعيل يعارض في النشر - تدهور السندات المصرية - التوقف عن الدفع
- ٤٩١ انشاء صندوق الدين
- ٤٩٢ مشروع توحيد الديون
- ٤٩٢ بعثة جويير غوشن
- تسوية الدين العام - موت اسماعيل المفتش - المراقبة الثانية
- ٥٠١ الديون المحلية والمحاكم المختلطة
- ٥٠١ لجنة التحقيق العليا
- كفاح غوردون من أجل اسماعيل - تشكيل اللجنة - اللجنة تقدم تقريرها - المطالبة بتشكيل وزارة مختلطة برئاسة نوبار
- ٥٠٦ انشاء مجلس النظار
- ٥٠٧ خطاب الخديو لنوبار
- تشكيل الوزارة النوبارية وادخال سير ريفرز ولسن والمسيو دوبلنيير فيها
- ٥١٠ قرض الدومين
- ٥١٣ بين اسماعيل وفيفيان
- رأيان في حكم البلاد
- ٥١٥ التبرم بالحالة العامه
- تبرم الموظفين - تبرم الأهالي - تبرم الجيش - ثورة الضباط - اسماعيل يخدم الفتنة - اسماعيل لم يدبرها - النظار في ظلامه الضباط - سقوط الوزارة النوبارية
- ٥٢٧ بعد استقالة نوبار
- ٥٢٨ غضب انجلترا وفرنسا
- ٥٣١ موقف مجلس النواب من وزارة توفيق باشا
- عريضة النواب لاسماعيل باشا - اجتماع الجمعية الوطنية - المطالبة بتأليف وزارة وطنية - اللائحة الوطنية - الخديو يقبل اللائحة - اسماعيل يستدعي

صفحة

- القناصل - كتابه إلى شريف باشا - الخديو يعمل داخل حدود سلطته .
٥٣٩ تقرير لجنة التحقيق العليا
- ٥٤٠ إضراب الأجانب عن العمل لأحراج وزارة شريف
- ٥٤١ اسماعيل يحبس نبض الاستانة
- ٥٤١ تنديد القنصل الأمريكى بالدسائس ضد اسماعيل
- ٥٤٣ تشكيل وزارة شريف باشا
- ابتهاج البلاد بالوزارة - رأى السير ريفرز - رأى القنصل الأمريكى -
خطاب تاريخى لشريف باشا .
- ٥٤٨ تقدم الحياة النيابية فى عهد اسماعيل
- مجلس شورى النواب - خطبة العرش الأولى - أدوار انعقاد المجلس من
سنة ١٨٦٧ إلى سنة ١٨٧٣ - وقف الحياة النيابية سنتين - الحياة النيابية
لغاية آخر دور فى يناير سنة ١٨٧٩ - جواب تاريخى لمجلس النواب - أعمال
المجلس والاصطدام بالسير ريفرز ولسن - دستور سنة ١٨٧٩ - عدم
صدور الدستور
- ٥٦١ عود إلى وزارة شريف باشا
- محاولة عرقلة أعمال الوزارة - مرسوم ٢٢ ابريل لتسوية الديون - مساعى
شريف لطمأنة الدائنين - أول إنذار من إنجلترا - شريف يهدد بالاستقالة -
الخديو يحبس نبض السلطان - ظهور بسمارك على مسرح السياسة المصرية .
خاتمة المسألة
- ٥٦٨ المطالبة بنزول الخديو عن العرش - تولية الخديو توفيق - خرق السياسة
العثمانية - اسماعيل ضحية الوطن والدستور .
- ٥٧٥ ابلاغ إرادة السلطان لاسماعيل
- رحيل اسماعيل - وداعه فى المحطة - سفره إلى الاسكندرية - ذهابه إلى
نابولى - وفاته
- ٥٨١ أخلاق اسماعيل وشخصيته

فهرست الصور

جلالة مولانا الملك

صاحب السمو الملكي الأمير فاروق أمير الصعيد

المغفور له الحاج محمد علي باشا مؤسس الأسرة المحمدية العلوية

بطل حروب الاستقلال ابراهيم باشا في لباسه العسكري

الخدوي المظلوم ساكن الجنان اسماعيل باشا

« أبو الفلاح » المغفور له السلطان حسين كامل

صفحة

٢٤	الأوطه باشى (أبو طبق) سائراني موكبه إلى القلعة
٢٧	أحد جنود المماليك بملابسه الثمينة
٢٩	نابوليون بونا بارت
٣٠	معركة النيل أو معركة أبوقير البحرية
٣١	منظر ثان من المعركة نفسها
٣٢	البارجة جوبن ...
٣٢	البارجة برسلاو
٣٣	الأميرال نلسون قائد الأسطول البريطانى
٣٣	بونا بارت في معركة ايلاو (وضعت في هذا الكتاب خطأ)
٣٤	نابوليون وجنوده في معركة الأهرام
٣٥	الجنرال ديزيه ...
٣٧	الديوان الخصوصى الذى أنشأه نابليون في مصر سنة ١٧٩٨
٣٧	الجنرال (أو الحاج عبد الله) مينو
٣٨	الشيخ عبد الله الشرقاوى
٣٨	الشيخ خليل البكرى

صفحة					
٣٨	الشيخ عبد الله المهدي
٣٩	مراد بك
٤٠	نابليون يشهد حفلة افتتاح الخليج
٤١	نابليون بلباسه الشرقي
٤٢	نابليون يشهد حفلة مولد النبي
٤٣	حضور نابليون وحاشيته حفلة وفاء النيل
٤٣	بركة حديقة الأوبكية قبل تجفيفها
٤٤	نابليون يحتفل بعيد الجمهورية في القاهرة
٤٥	الشيخ السادات
٤٦	جيش الجنرال ديزيه يتعقب المماليك إلى اسوان
٤٦	حيفا وخليج عكا
٤٨	معركة أبو قير البرية
٤٩	الجنرال كبير
٥٣	الجنرال كبير يستحث جنوده على القتال
٥٤	سليمان الحلبي قاتل كبير
٥٦	السيف الذي أهده الجنرال ديزيه للمعلم يعقوب
٥٦	المعلم يعقوب القبطي
٥٩	المعلم يعقوب ومعه اثنان من كبار الطائفة القبطية
٦٠	أرناؤوط محمد علي
٦٥	ساكن الجنان محمد علي باشا منشى الأُسرة العلوية
٦٨	محمد علي يسير في شوارع القاهرة بعد تولية الحكم
٦٩	المعلم جرجس الجوهري
٧٠	ساكن الجنان السلطان محمود
٧٣	أمين بك المملوك الشارد
٧٤	محمد علي بعد مذبحه المماليك
٧٥	خروج موكب محمد علي باشا من القلعة
٧٦	زوجة محمد علي باشا وأم ابراهيم باشا تصل إلى مصر آتية من قوله

صفحة

٨١	يوسف أفندى مدير حدائق شبرا (مهداة من سمو الأمير عمر طوسون)
٨٢	ليمان باشادى بلقون مهندس القناطر الخيرية (« « « «)
٨٣	بوغوس بك (« « « «)
٨٦	حجر رشيد
٨٨	سليمان باشا الفرنساوى (« « « «)
٨٩	سليمان باشا يوبخ الممالك لأخفاقهم فى اصابتة بالرصاص
٩١	محمد على باشا فى موكبه وخلفه سليمان باشا الفرنساوى و ابراهيم باشا
٩٢	كلوت بك
٩٣	كلوت بك يلقى أول درس فى التشريح على تلاميذه فى مدرسة الطب
٩٦	الدكتور محمد على باشا البقلى
٩٧	أول بعثات محمد على العلمية إلى أوروبا
٩٨	مصطفى مختار بك أول ناظر للمعارف (مهداة من سمو الأمير عمر طوسون)
٩٨	يوسف بك حكيكيان ناظر مدرسة المهندسخانة (« « « «)
٩٨	رفاعة رافع بك أول ناظر لمدرسة اللغات والألسن (« « « «)
٩٩	مبير بك ناظر مدرسة المهندسخانة (« « « «)
٩٩	حسين باشا الاسكندراني ناظر مدرسة البحرية (« « « «)
١٠٠	عبدى شكرى باشا ناظر المعارف (« « « «)
١٠١	الدكتور درى باشا
١٠٢	بعض السفن المصرية أمام عكا
١٠٣	محمد على باشا يستقبل سفراء الدول
١٠٤	قواد جيش محمد على يقسمون على القرآن بالتفانى فى خدمته
١٠٦	الشيخ محمد عبد الوهاب مؤسس المذهب الوهابى
١١٠	محمد على ينذر مندوبى الوهابيين
١١٢	ابراهيم باشا يستقبل فى خيمته أمير الوهابيين
١١٤	الملك كابر يقه يعود من زيارة بعض أصدقائه
١١٨	السفن المصرية التى اشتركت فى معركة نافر
١٢٠	البطل ابراهيم باشا فاتح سوريا

صفحة					
١٢١	الأمير بشير الشهابي
١٢٢	قصر الأمير بشير الشهابي الذي استضاف فيه إبراهيم باشا
١٢٤	إبراهيم باشا يدخل عكا على رأس جيشه
١٢٥	صورة تذكارية لدخول إبراهيم باشا عكا (مهداة من معالي محمود فخري باشا إلى دار الكتب الملكية)
١٢٦	البوابتان الشهيرتان عند مدخل مقاطعة كليشيا في الأناضول
١٢٧	محمود بك الأرنؤوطي ناظر الجهادية (مهداة من سمو الأمير عمر طوسون)
١٢٧	السيد محمد باشا شريف والي ألوية الشام
١٢٨	أدهم بك مدير المهمات (مهداة من سمو الأمير عمر طوسون)
١٢٨	سريزي بك باشمهندس دار الصناعة
١٢٩	صحراء الصفا في جهة جبل الدروز
١٣٠	جيش محمد علي بلباسه العسكري
١٣١	صورة العدد الأول من جريدة الوقائع المصرية
١٣٢	صورة العدد التاسع عشر منها
١٣٣	أرتين أفندي والد يعقوب باشا ارتين
١٣٤	أحد مشايخ الدروز
١٣٥	أمودج من سهر إبراهيم باشا على العدالة
١٣٦	حسين محمد الكيمائي (مهداة من سمو الأمير عمر طوسون)
١٣٦	جيش إبراهيم باشا في نصيين
١٣٨	ميدالية لمحمد علي باشا تذكرا لمعركة نصيين (مهداة من معالي محمود فخري باشا إلى دار الكتب)
١٤١	لورد بالمرستون وزير خارجية بريطانيا
١٤٥	إبراهيم باشا يؤاسي الجرحى
١٤٧	خريطة المواقع التي خاضها إبراهيم باشا أثناء افتتاحه الشام
١٦٢	خريطة الجهات التي فتحها إبراهيم باشا أثناء الحرب الوهابية
١٦٣	خريطة السودان في عهد محمد علي
١٦٦	خريطة اليونان والجهات التي استولى عليها إبراهيم باشا

صفحة

١٦٧	خريطة موقعة نافارين
١٧٠	استقبال محمد علي باشا في الأستانة
١٧١	محمد علي باشا قبل سفره إلى باريز
١٧٢	محمد علي يستعرض الجنود الفرنسية في باريز
١٧٦	محمد علي باشا على جواده الأبيض المشهور
١٨٠	المغفور له عباس باشا الأول
١٨٢	المغفور لها الأميرة أمينة إلهامى (أم الحسين)
١٨٩	المغفور له سعيد باشا
١٩٣	مريدت باشا
١٩٩	الأورطة المصرية في المكسيك
٢١١	صورة فريدة لسعيد باشا بالزى الشرقى
٢١٣	المسيو موجيل مهندس القناطر الخيرية
٢١٨	ابتداء العمل في حفر قناة السويس
٢٢٥	ساكن الجنان الخديو اسماعيل باشا
٢٢٦	الامبراطور نابليون الثالث
٢٢٩	معالم الزينة والابتهاج بانشاء قناة السويس
٢٣١	المستر كرايتس صاحب كتاب اسماعيل الخديو المظلوم
٢٣٢	حفلة افتتاح قناة السويس
٢٣٣	أول سفينة تعبر القناة
٢٣٤	بعض الرؤوس المتوجه في حفلة افتتاح القناة
٢٣٥	وليمة اسماعيل باشا لملوك أوروبا
٢٣٦	نزهة الملوك في صحراء السويس
٢٣٧	الامبراطوره يوجيى فى قصر الجزيرة
٢٣٨	المستر دزرائيلى رئيس الوزارة البريطانية
٢٥٦	سمو الأمير عمر طوسون
٢٥٧	السيد عبد الله نديم
٢٥٨	سمو الأمير محمد على

صفحة			
٢٥٩	المستر غلادستون رئيس الوزارة البريطانية
٢٥٩	المستر جون بریت الوزير البريطاني
٢٦٠	الأميرال نايبير ...
٢٦٥	لورد ملنر ...
٢٧٤	السير صمويل بيكر باشا
٢٨٤	نوبار باشا ...
٢٨٩	دخول البواخر المقلدة للبلوك والأمراء في قناة السويس
٢٩٠	خريطة قناة السويس
٢٩٢	بعض ضيوف اسماعيل باشا ...
٢٩٤	اسماعيل باشا يحتفل بضيوفه ...
٣٠٩	نقل أجزاء البواخر النيلية على ظهور الأبل ...
٣١٠	الأسطول النيل
٣١١	حفلة رفع العلم المصري
٢١٢	المعسكر المصري في غوندوكرو
٣١٣	ريونجا ملك أونورو يصفح بيكر باشا
٣١٥	الأستاذ عبد الرحمن بك الرافعي
٣١٨	(مهداة من سمو الأمير عمر طوسون)	الكولونيل شالي كونج
٣١٨	(« « « «)	ستانلي الرحالة المعروف
٣٢٠	السير ريجنالد ونجيت
٣٢١	الزبير رحمت باشا
٣٢٢	الأمير عبد الحميد نجل السلطان ابراهيم
٣٢٣	الجنرال غوردون باشا
٣٢٥	محمد أحمد المهدي
٣٢٦	قتل غوردون باشا
٣٢٧	اسماعيل باشا صديق
٣٢٨	التعايشي خليفه محمد أحمد المهدي

صفحة					
٣٢٩	لورد كتنشتر ...
٣٣٠	خريطة مديرية خط الاستواء ...
٣٣١	تقديم رأس غوردون إلى سلاطين باشا ...
٣٣٢	قبة قبر المهدي ...
٣٣٤	محمد رؤوف باشا (مهادة من سمو الأمير عمر طوسون)
٣٣٧	المغفور له حسين باشا نخرى ...
٣٤٦	أمين باشا (« « « «)
٣٤٨	المرحوم السير لي ستاك ...
٣٥٣	الكولونيل مارشان ...
٣٥٤	الجنود البريطانية على فاشوده ...
٣٥٥	طبيب المهدي ...
٣٥٥	محمد بك المليك ...
٣٥٦	عبد الله النعاشي ...
٣٥٧	نقود المهدي ...
٣٥٧	نقود غوردون باشا ...
٣٥٨	حدود الدولة المصرية في عهد اسماعيل
٣٥٩	الماجور استيجان (مهادة من سمو الأمير عمر طوسون)
٣٥٩	الدكتور جنكر (« « « «)
٣٦٠	رودلف سلاطين باشا ...
٣٦١	القائد عثمان دجنة ...
٣٦٢	الجنرال هكس باشا ...
٣٦٣	موقعة أم درمان في الهجوم الثاني ...
٣٦٣	موقعة أم درمان في أثناء هجوم الدراويش ...
٣٦٣	موقعة فنكة بالسودان ...
٣٦٥	الكابتن لونيجارد (« « « «)
٣٦٦	خريطة السودان في عهد اسماعيل
٣٦٧	خريطة السودان وبها المديرية

صفحة					
٣٧٠	أحمد عرابي باشا
٣٧٣	خريطة الحملات الاكتشافية
٣٧٤	شاهين باشا ...
٣٧٥	اسماعيل باشا أيوب
٣٧٦	عبد القادر حلي باشا
٣٧٩	الأمير حسين كامل في شبابه
٣٨٥	النجاشي تيودرس الثاني أمبراطور الحبشة وسط ضواريه ...
٣٨٦	السردار راتب باشا
٣٨٩	جلالة السلطان عبد العزيز
٣٩٠	محمود باشا سامي البارودي
٣٩١	الزنج يهاجمون التماسيح
٣٩٢	عبد الله باشا فكري
٣٩٣	اللواء راشد باشا حسني
٣٩٤	الأمير حسن باشا
٣٩٥	محمود باشا حمدي الفلكي
٣٩٦	مفاجأة التماسيح لحملة السير صمويل بيكر
٣٩٧	فرس البحر يفرق أحد قوارب السير صمويل بيكر
٤٠٠	خليل آغا باش آغاي والدة اسماعيل باشا
٤٠١	الوحوش تهاجم السير صمويل بيكر
٤٠٢	معركة ماسيندي
٤٠٣	الأمير محمد سعيد طوسون والد سمو الأمير عمر طوسون (مهداة من سموه)
٤٠٤	محمد ثابت باشا
٤٠٥	إحراق المعسكر في جهة ماسيندي
٤٠٦	هجوم صيادي الرقيق
٤٠٧	« اللصوص الأربعة »
٤٠٨	إبادة فصيلة من جنود السير صمويل بيكر
٤٠٩	محمد شريف باشا

صفحة				
٤١٠	الزحف في داخل منطقة قبيلة « بارى »
٤١١	رجال قبيلة (بارى) يهاجمون حملة السير صمويل بيكر
٤١٢	هجوم قبيلة « بارى »
٤١٣	سحر الموسيقى ...
٤١٤	التهام التمساح لذراع أحد الخدم ...
٤١٥	اصطياد التمساح ...
٤١٦	مهاجمة فرس البحر للقوارب ليلا
٤١٧	الليفيناث جوليان بيكر
٤١٧	المستر دوين سين هييجنو بوتام
٤١٨	على باشا مبارك
٤١٩	الزواج يهاجمون غوندو كرو ...
٤٢٠	توفيق باشا خديو مصر
٤٢١	مصطفى رياض باشا
٤٢٢	أحمد باشا السيوفى
٤٢٣	فرس البحر يفترس أحد مشايخ القبائل
٤٢٤	أحمد خيرى بك (باشا)
٤٢٥	شفيق بك منصور
٤٢٦	إطلاق سراح العبيد
٤٢٧	محمد قدرى باشا
٤٢٨	كين الزوج يهاجمون مؤخرة الحملة
٤٢٩	اسماعيل باشا صبرى
٤٢٩	الدوق أوف كونوت
٤٣١	محمد بك عثمان جلال
٤٣٢	الكاتب أديب اسحاق
٤٣٣	بشاره تقلا باشا صاحب الأهرام
٤٣٤	المرحوم سليم تقلا بك صاحب الأهرام
٤٣٥	الشيخ أبو نضارة

صفحة					
٤٣٦	الزواج يسحبون الباخرة
٤٣٧	الوصول إلى منطقة السدود
٤٣٨	السيد جمال الدين الأفغانى
٤٣٩	صيد الطباء بالشباك
٤٤٠	أحد الفيلة الضخمة يهز جزع الشجرة
٤٤١	منظر لقطيع من الفيلة سقط في الماء
٤٤٢	منظر عام للنيل الأبيض
٤٤٣	مظاهرة عدائية فجائية
٤٤٤	السير صمويل بيكر وعقيلته
٤٤٥	الزواج يعانقون السير صمويل بيكر
٤٤٦	كأبريقه يمتص دم السير صمويل بيكر
٤٤٧	منظر منضدة طبيعية
٤٤٨	الأمير حلیم باشا
٤٥١	عبد السلام باشا المويلحى
٤٥٦	الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده
٤٥٧	ابراهيم بك المويلحى
٤٥٨	السيدة عائشة عصمت تيمور
٤٦٠	الشيخ على اللبى
٤٦٠	الأديب السيد صالح مجدى بك
٤٦١	المهندس حسين باشا حسنى
٤٦١	المهندس محمد مظهر باشا
٤٦٣	اسماعيل باشا الفلكى
٤٦٣	اسماعيل باشا محمد
٤٦٤	الدكتور محمد الشافعى بك
٤٦٤	المهندس مصطفى بهجت باشا
٤٦٦	الدكتور حسن باشا محود
٤٦٨	المهندس محمود باشا فهمى

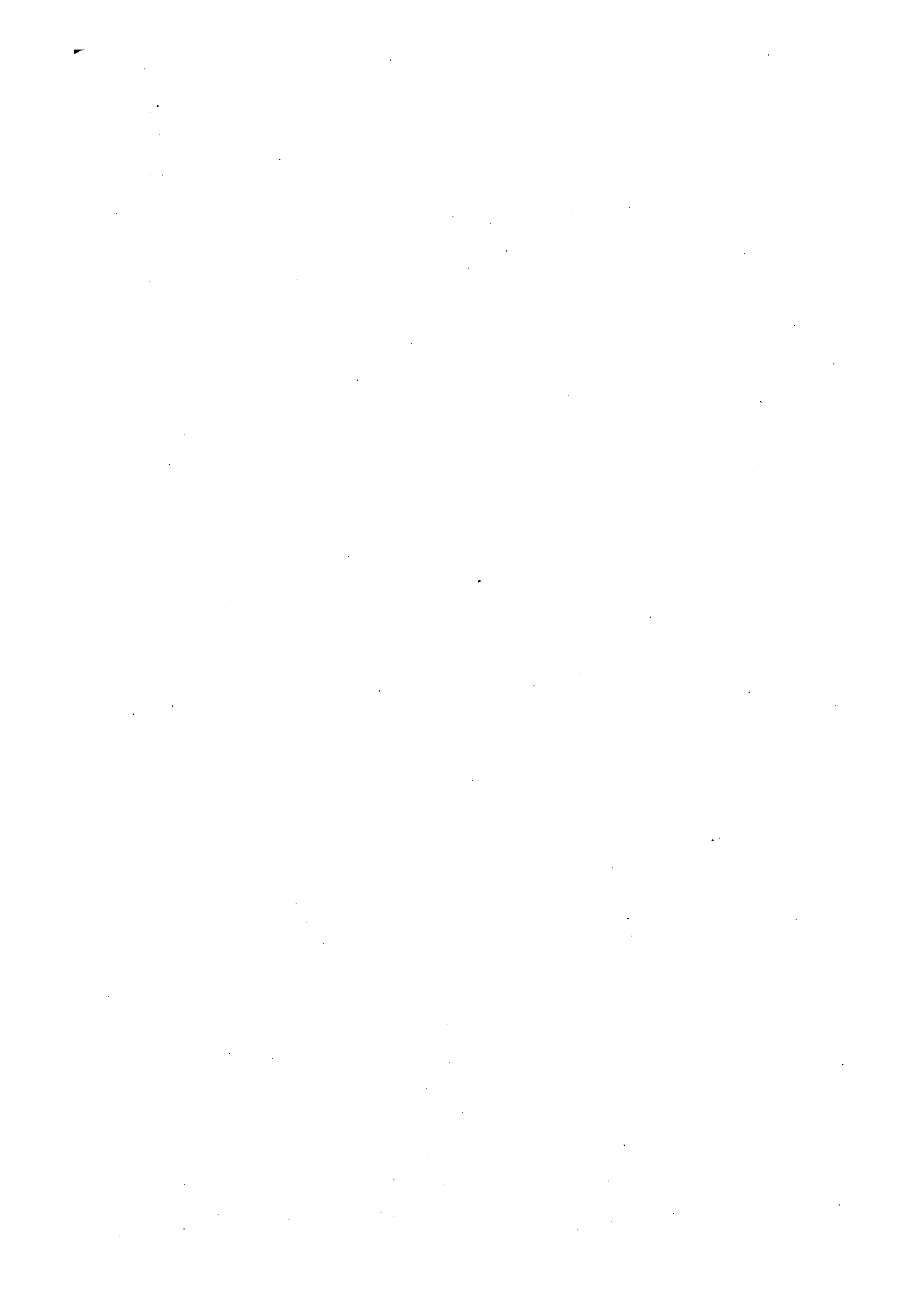
صفحة				
٤٦٩	الكاتب العسكري محمد مختار باشا ...
٤٩٨	المسيو دو فريسيه
٥٠٠	لورد كرومر
٥٠٩	السير ريفرز ولسن
٥١٠	المسيو دو بلنيير
٥١٢	لورد سلسبري
٥١٩	لطيف باشا سليم وولده فؤاد بك
٥٢٠	المغفور له مصطفى كامل باشا
٥٣٠	أفلاطون باشا ...
٥٣٥	المستر ولفرد بلنت
٥٤٣	عمر باشا لطفى
٥٦٧	البرنس بسمارك
٥٧٣	اسماعيل باشا وأولاده
٥٨٠	جنازة اسماعيل باشا فى القاهرة ...

مراجع الكتاب

هذه أسماء الكتب التي اقتبسنا منها في التعليقات التي بهامش الكتاب

- | | | | |
|-------------------------------|-------|---|-----------------------------------|
| المرحوم جورجى زيدان | تأليف | { | (١) كتاب تاريخ مصر الحديث |
| مؤسس الهلال | | } | (٢) كتاب مشاهير الشرق |
| سعادة الأستاذ أمين باشا سامى | | | (٣) تقويم النيل |
| الأستاذ عبد الرحمن الرافعى بك | | { | (٤) تاريخ الحركة القومية |
| | | | (٦) عصر اسماعيل |
| المرحوم اسماعيل باشا سرهنك | | | (٥) حقائق الأخبار عن دول البحار |
| المسيو فرديناند دلشبس | | { | (٧) مراسلات ويوميات |
| | | | ووثائق عن قناة السويس |
| المستر تيودور رودستين | | | (٨) مصر |
| القاضى كرايتس | | { | (٩) اسماعيل الخديو المظلوم |
| | | | (١٠) السودان والنخاسة وغوردون |
| المستر ستانلى لين بول | | | (١١) مصر |
| المستر ماكوان | | | (١٢) مصر كما هي |
| البارون دى مالورق | | { | (١٣) مصر - الحكام الوطنيون |
| | | | والتدخل الاجنبى |
| لورد ملتر | | | (١٤) إنجلترا فى مصر |
| السير صمويل بيكر | | { | (١٥) اصلاح مصر |
| | | | (١٦) الاسماعيلية |
| سلاطين باشا | | | (١٧) السيف والنار |
| لصاحبه محمود باشا فهمى | | { | (١٨) البحر الزاخر فى تاريخ وأخبار |
| | | | الأوائل والأواخر |
| جان - مارى كاريه | | { | (١٩) السياح والكتاب الفرنسيون |
| | | | الذين زاروا مصر |

- (٢٠) كتاب مصر الحديثة تأليف لورد كرومر
- (٢١) المسألة المصرية المسيو دوفريسينييه
- (٢٢) « فصول من حياتي الرسمية السير ريفرز ولسن
- (٢٣) « « « « أدوين دليون
- (٢٤) « كشف الستار عن أسرار مصر مدام أولمب أدوار
- (٢٥) « التاريخ السرى للاحتلال البريطانى للمستر ويلفرد بلنت
- (٢٦) مذكرات دزرائيلي .
- (٢٧) تقرير كيف عن مالية مصر بقلم المستر كيف
- (٢٨) تقرير عن شؤون مصر للقنصل الأمريكى العام المستر بيردس
- (٢٩) تقارير قنصل أمريكا العام المستر فارمان
- وغيرها وغيرها



هذه السلسلة تضم :

- ٢١ - الرحلة الأولى للبحث عن ينابيع البحر الأبيض (النيل الأبيض)
 ٢٢ - السلطان قلاوون (تاريخه - أحوال مصر في عهده - منشآته المعمارية
 ٢٣ - صفوة العصر
 ٢٤ - المماليك في مصر
 ٢٥ - تاريخ دولة المماليك في مصر
 ٢٦ - سلاطين بني عثمان

- ١٠ - فتوح مصر وأخبارها
 ١١ - تاريخ مصر الحديث مع فزلكة في تاريخ مصر القديم
 ١٢ - قوانين الدواوين
 ١٣ - تاريخ مصر من محمد علي إلى العصر الحديث
 ١٤ - الحكم المصري في الشام
 ١٥ - تاريخ الخديوي محمد باشا توفيق
 ١٦ - آثار الزعيم سعد زغلول
 ١٧ - مذكراتي
 ١٨ - الجيش المصري في الحرب الروسية المعروفة بحرب القرم
 ١٩ - وادي النظرون ورهبانه وأديرته ومختصر البطارقة
 ٢٠ - الجممية الأثرية المصرية في صحراء العرب والأديرة الشرقية

- فتح العرب لمصر
 تاريخ مصر إلى الفتح العثماني
 الجيش المصري البري والبحري في عهد محمد علي
 تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسي
 تاريخ مصر من عهد المماليك إلى نهاية حكم إسماعيل
 تاريخ مصر من الفتح العثماني إلى قبيل الوقت الحاضر
 ذكرى البطل الفاتح إبراهيم باشا
 تاريخ مصر في عهد الخديو إسماعيل باشا (مجلد أول)
 تاريخ مصر في عهد الخديو إسماعيل باشا (مجلد ثاني)

Bibliotheca Alexandrina



0354381

MADBOULI BOOKSHOP
مكتبة مدبولي

٦ ميدان طلعت حرب القاهرة ت ٥٧٥٦٤٢١ Tel: 5756421 6 Talat Harb SQ.